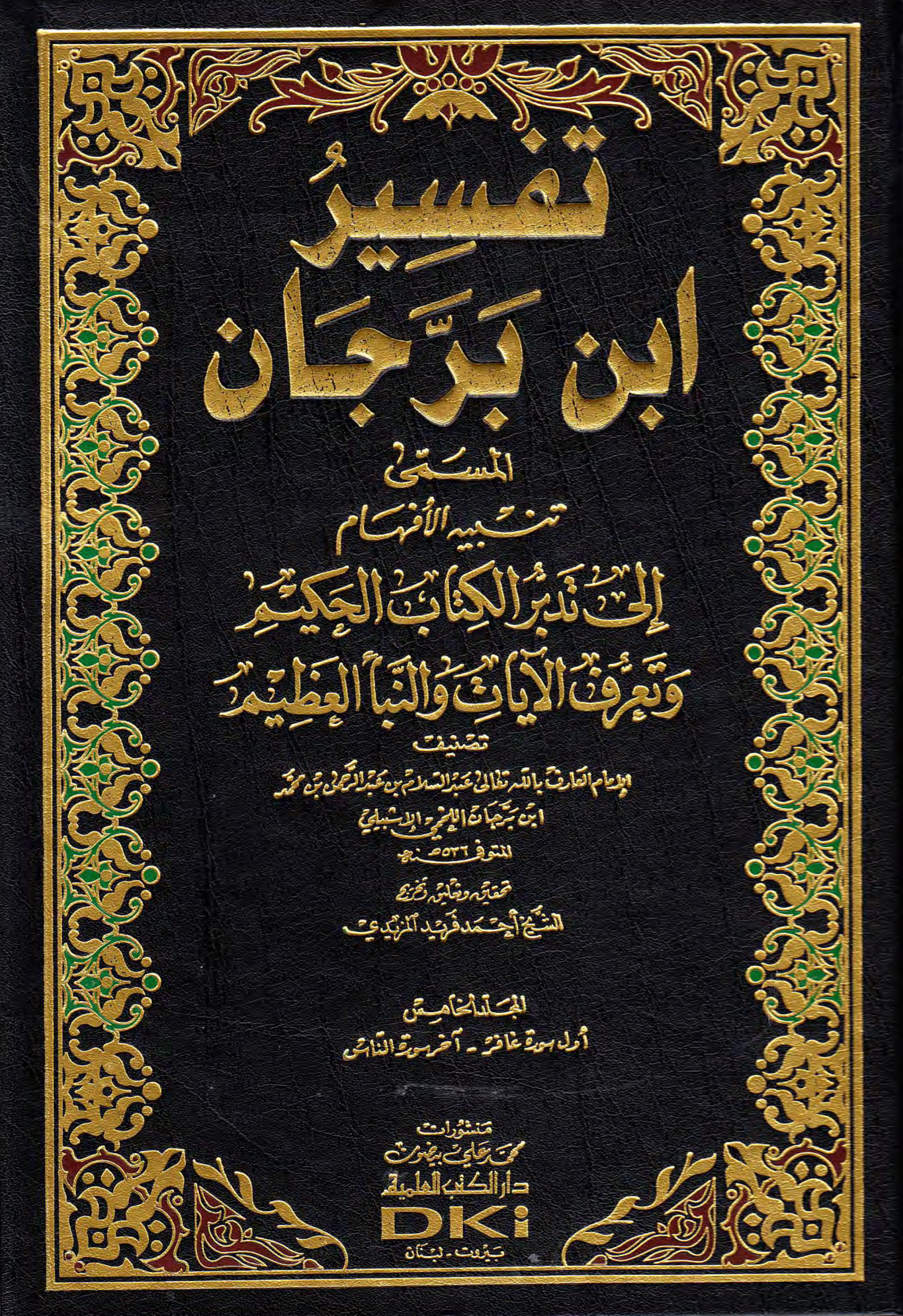

تفسير
ابن برجان
المسمى
تنبيه الأفهام
إلى تدبر الكتاب الحكيم
وتعرف الآيات والنبأ العظيم
تصنيف
الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦هـ
تحقيق وتعليق وتخريج
الشيخ أحمد فريد المزيدي
المجلد الخامس
أول سورة غافر - آخر سورة الناس
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
DKi
بيروت - لبنان

تفسير ابن برجان

تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم

تصنيف

الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦ هـ

تحقيق وتعليق وتخريج
الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الخامس

أول سورة غافر - آخر سورة الناس



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban



Title : TAFSĪR IBN BARRAJĀN

الكتاب : تفسير ابن برّجان

المسمى: تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم

THE EXEGESIS OF IBN BARRAJAN OF THE HOLY QUR'AN

التصنيف : تفسير قرآن

Classification: Exegesis of The Holy Qur'an

المؤلف: الإمام عبد السلام بن عبد الرحمن ابن برّجان (ت 536 هـ)

Author : Al-Imam Abd As-Salam ben Abd Ar-Rahman ibn Barrajan (D. 536 H.)

المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي

Editor : Ash-sheikh Ahmad Farid Al-Mazidi

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages	(5 Volumes) 2880	(5 مجلدات)	عدد الصفحات
Size	17* 24 cm		قياس الصفحات
Year	2013 A.D. -1434 H.		سنة الطباعة
Printed in :	Lebanon	لبنان	بلد الطباعة
Edition :	1st (2 colors)	الأولى (لونان)	الطبعة

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah baydoun@al-ilmiyah.com

Exclusive rights by © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah** Beirut-Lebanon No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah** Beyrouth-Liban Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت-لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

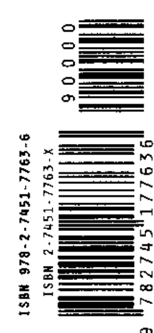
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN 978-2-7451-7763-6
ISBN 2-7451-7763-X



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة المؤمن

«غافر»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر:١ - ٧].

قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر:٣] الغناء والسعة، واسم الحي يجمعها، وقوله: ﴿حم﴾ [غافر:١] يجمع ذلك كله بما يفصل إليه.

قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ الله إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر:٤] وقد قال تعالى: والذين يجادلون في آيات الله من بعدما استجيب له، فالجدال في الله تكذيبهم بأسمائه وصفاته كقولهم: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة:١٠] وكذلك تكذيبهم بأنه يسمع سرهم ونجواهم، وقول بعضهم: إنه لا

يعلم المعلومات على التفصيل ولا هو مريدها ولا مشيئها، ولا يقدر عليها على التفصيل وتفصيل التفصيل، وجدالهم في آيات الله: هو ردهم على الرسل والكتب وإلحادهم بآيات الوجود في المخلوقات إلى أنها عن توليدات وأسباب زعموا تتسبب عن أسباب وأواسط بتوسط عن موجودات إلى غير ذلك من ضلالهم ونسيانهم ذكر الله وآلاءه.

وكذلك صرفوا ما أظهره - جل ثناؤه - على أيدي الرسل والأولياء من معجزات وكرامات خرق لهم بذلك العادات، جعل ذلك لهم آيات على صدقهم وأقامها مقام قوله: صدقوا أنا أرسلتهم إلى المعلوم والمعهود في جري العادات، وأن ذلك زعموه عن أواسط باطنة وأسباب غير ظاهرة للعيان، كما قال أولئك فيها: إنها سحر، والمعني بذكر الجدال هنا: هو ردهم نصائح الله - جل ذكره - وما بلغتهم الرسل من كتب وحكمة وأمر ونهي، وكل ذلك آياته ودلائله على وحدانيته وإثبات رسالاته وصدق كتبه، وفرقان بين حلاله وحرامه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر:٦] عطف بالواو في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ﴾ على ما تقدم ذكره من وصفه الجزاء العاجل الذي أصاب به قوم نوح والأحزاب من بعدهم، عبر عنه بقوله الحق: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر:٥] فكان عطفًا بالجزاء الآجل على الجزاء العاجل، ويكون العطف على ما سبق لهم من قوله: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[1] فلما كفروا وكذبوا وجادلوا في الله وفي آياته نبَّه على ذلك التقدير في القدم بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كما وجدت أعمالهم عنهم كان تقديرنا لها أولاً.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر:٧] يعني: الملائكة، معنى هذا منتظم بمعنى قوله: ﴿حم﴾ [غافر:١] وذكر التنزيل وبخاصة ذكر الرحمة الرحمانية والرحمة الخاصة بالمؤمنين من اسمه الرحيم[2] ثم بمعنى العموم إلى

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال المصنف: فكل ما في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين فهو تعبد للرحمن ﷻ عباده؛ لأن ذلك من رحمته التي أنزلها إلى الأرض. كما أن جميع مصنوعاته مفصلة من الكتاب المبين وهي من الرحمة الرحمانية؛ ليرحم بها عباده المؤمنين =

قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر:٣] نظم الخطابين معًا بما فيهما من ذكر العلا والعظمة، ثم بما يتفصل عن الملقى إلى حملة العرش، صلوات الله وسلامه على جميعهم.

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر:٨ - ١٤].

قوله - جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إلى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر:١٠] انتظم هذا بما تقدم من شفاعة حملة العرش ومن حوله - على جميعهم السلام للمؤمنين - ودعائهم الله لهم، وبما تقدم ذلك من ذكر المجادلين في آيات الله والمكذبين، وما أصابهم في العاجل بذكرهم بما يصيبهم في الآجل.

فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر:١٠] المعنى إلى آخره، وذلك أنهم يسلط عليهم الندم على ما قدموه في العاجلة من تفريطهم في الاستجابة، وما تعوضوا من ذلك من كفر وتكذيب ومجادلة وحمل على الرسل والنصحاء لله تعالى فيهم، فيسلط عليهم البغض لأنفسهم واللعن لها، فليلعن بعضهم بعضًا، ويبغض بعضهم بعضًا، ويكفر بعضهم ببعض مع ملازمة العذاب وحريق النيران، فيبلغ ذلك منهم ما لا يحتملونه، فينادون عند ذلك:

=

بالكتابين، قال الله ﷻ: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ...﴾ [شرح الأسماء ٢/٣٠١].

﴿لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر:١٠].

ألا فهذا العجب المعجب هم في غاية العذاب والخزي والهون والندم؛ لأجل مقتهم أنفسهم ومقت بعضهم بعضًا ولعن بعضهم بعضًا؛ لأجل ذلك يقول الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿لَمَقْتُ اللهِ﴾ إياكم ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر:١٠].

ما أصبره ﷻ وما أوسع طوله وأكرم حلمه، كان في حياتهم الدنيا مقته أكبر من مقتهم أنفسهم في عذابهم ذلك ومع ذلك، فلم يعاجلهم بعقوبة ما كانوا به من خلاف وكفر، وهم لم يجدوا ما يجدون من عذاب إلا لأنهم لا يجدون إلى الخروج مما هم فيه سبيلاً، فتأمل هذا وتفكر فيه طويلاً، ما أصدق قوله: ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣].

أتبع ذلك قوله - عز من قائل - حكاية عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر:١١] لما كان من تكذيبهم الإحياء بعد الموت أقروا يومئذٍ بحياتين وموتين، إحدى الحياتين هذه الحياة الدنيا، ثم الحياة الآخرة التي يصيبهم فيها جزاء ما كذبوا به، والموتة الأولى: هي التي قبل هذه الحياة الدنيا، والثانية: الموتة المقت الذي بعد هذه الحياة وقبل الحياة الآخرة.

قال ﷻ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨].

أتبع ذلك ما هو جواب لقولهم، قوله الحق: ﴿ذَلِكُم﴾ أي: من خلودكم فيها وعدم إخراجكم منها ﴿بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ ومفهوم ذلك أن خلودهم فيها وعدم إخراجهم لأجل مقت الله - جل ذكره - إياهم فأبعدهم عن جواره وأبلسهم عن قربه، ومقته لهم لأجل محبتهم سواه حتى آل بهم ذلك إلى البغض، فهم إذا دعى الله وحده كفروا بذلك وأن يشرك بهم يؤمنوا؛ أي: بالشرك، كما قال عز من قائل: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥].

فهذه عداوة منهم لربهم ورازقهم الكالئ لهم بالليل والنهار، فعاداهم الله لذلك ومقتهم ولعنهم في الدنيا وأبعدهم في الآخرة، ألا تسمع إعظامه - جل ذكره - ذلك

حيث يقول أثر ذلك: ﴿قُلِ اللهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٤٦] ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ﴾ [يونس:٥٤] المعنى إلى آخره.

وأعقب آية هذه السورة بقوله: ﴿فَالْحُكْمُ للهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢] فحكمه فيهم إبعادهم وتخليدهم لذلك، فدخلوهم النار لأجل ذنوبهم وخلودهم فيه؛ لأجل كفرهم بالله وإيثار سواه بالحب والأثرة عليه، نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا والآخرة.

أتبع ذلك ما هو بيان له، قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يبين لكم سبل الهداية إلى الصراط المستقيم ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر:١٣] ويتحبب إليكم وأنتم تبغضونه، ويرشدكم إليه بآياته ويدعوكم بما أنزل إليكم من كتبه وأرسل إليكم من رسله وأنتم عنه محجوبون.

فصل

لم يضمن الله التذكر إلا لمن ينيب ولمن يخشى، وآياته: أنواره وشواهده الدالة عليه الشاهدة له، ونيراته المعلمة به في إنزاله الماء من السماء التذكر بالرياح اللواقح في الهواء، وإنزاله الماء إلى الأرض وإخراجه به من كل النبات ومن كل الثمرات، يخلق من ذلك جميع الأنعام، يتغذى بذلك بنو آدم فيكونون عنه، كذلك النشور وكذلك الخروج، غير أن هذه بحكم السنة وتلك بحكم الكلمة، ويذكر أيضًا بالجنة وموجوداتها تحببًا إلى عباده المنيبين إلى ربهم، المحبين له، الذاكرين عند كل حادث، الحامدين الشاكرين له على كل نعمه، كما قال بعضهم:

يذكـرنيه كـل خيـر رأيـته　　وشر فما انفك منه على ذكر

هذا في مقابلة إقرارهم هناك بالحياتين والموتتين لتضييعهم الإيمان بذلك فيما ها هنا، لذلك ختم الخطاب بقوله الحق: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ [غافر:١٤] يقول لأحبته المؤمنين: اعملوا بما دلكم عليه العلم من عنده وأعلمكم به الكتاب والرسول يغبطهم بولايته إياهم ويفردهم بذلك منه دون

البغضاء الكافرين.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر:١٥ - ٢٠].

أتبع ذلك ما هو وصف حق له ﷻ ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ [غافر:١٥] يمكن أن يكون هذا منتظم بذكر تعظيمه في صدر السورة، ثم بما اتصل به من وصف ومعنى، وعلى القول بالإجمال: فإنه منتظم بما هو القرآن العظيم حيث جاء منه، فاعلم ذلك يقينًا، فانتظام الكلام موجود جائز مع وجود القطع في وصف موصوف واحد، وإن عدم الإتباع لا يمنع من انتظامه بداخل الكلام والمعاني، لا سيما وكل ما جاء في القرآن من معنى فهو منفصل عنه، وقد تقدم ذكر هذا.

ومعنى قوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ أي: رفيع درجاته التي يعلي عباده إليها من درجات العلوم ومقامات المعرفة به وأحوال المقامات، ثم ما رفعهم إليه في الآخرة، ويمكن مع ذلك أن يكون معناه: رفيع درجاته؛ أي: له الوصف العلي والأسماء الحسنى، وله المكانة والمرتبة التي ليس كمثله فيها سواه، ولا ينبغي لوجود موجود الترقي إليها سبحانه وله الحمد والعرش، يفهم معنى الرفعة؛ إذ هو أرفع الموجودات وأعلى المراتب كل شيء دون العرش رتبة ومكانة.

آية ذلك فيما هاهنا: بيوته في الأرض لما نسبها إليه رفعها، قال الله عز من قائل: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [النور:٣٦] فأمر بترفيع المساجد حيث كانت لاختصاصها بذكره والأمكنة للمخلوقات، والعرش للخالق العلي ﷻ مكانه ومستوي له.

وفرق بين المكانة والمكان والتمكن والاستواء، فبين ذلك لأولي الألباب،

فرقان بين من أعلاه قضاء الأمر وإلقاء الروح والأمر، وعنه ينفصل التدبير والتفصيل كله، وهو العرش محيط بالمخلوقات علوًّا وسفلاً وإحاطة كريمة نزيهة عن أوصاف المحدثات، آثره منه لخصوصيته به، وحرم يحرم بها من أجله لنسبته إليه آية ذلك حرمة فيما هاهنا في المكان وفي الزمان، وحرمة في الأفعال كالبيت الحرام وما حوله والمدينة وما حولها والأربعة الأشهر من السنة وجماع محارمه، كذلك العرش حرم، وما انتسب إليه أو اتصف به أو بمعناه أو تسمى باسمه، كل على قدر منزلته منه أو بوصف من أوصافه، والعرش سماء كل شيء، ولكل سماء عرش، ووجوده فيما خلقه من حيث هو على العرش بما هو، يقول الله - جل من قائل: ﴿**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ**﴾ [الملك:١٧].

وقال: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد:٤] وعلى ما وصف نفسه بأنه معنا وأنه ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا**﴾ [المجادلة:٧] فليس وجوده إلا على العرش والعرش علي وصفه وصفاته، وهو رب العرش العظيم ورب العرش الكريم، والعرش العظيم هو المشتمل على ذلك كله.

وقول رسول الله ﷺ: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول...**»[1] إخبار عن وجوده على عرش سماء وهو لا يزال موجودًا على العرش، والعرش العظيم المشتمل على أوصاف ذلك كله وصفاته وعلائه ودنوه وقربه، كقوله: ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ**﴾ [المجادلة:٧] وقوله: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد:٤] وهو مع ذلك على العرش العظيم.

أتبع ذلك ما هو من صفاته وفعله وصف للعرش، قوله: ﴿**يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ**﴾ [غافر:١٥ - ١٦] سماه: يوم التلاقي؛ لأنه يلتقي فيه أهل السماوات والأرض

---

(١) أخرجه مالك (٤٩٨) والبخاري (١٠٩٤) ومسلم (٧٥٨) وأحمد (١٠٣١٨)، وأبو داود (١٣١٥).

والأولون والآخرون، وفيه يلقى العباد ربهم ﷻ هذا كله خطاب لعباده المؤمنين يعدهم ويمنيهم ويغبطهم بإيمانهم وبلقائهم إياه.

﴿بَارِزُونَ﴾ أي: ظاهرون في صعيد واحد لا يُرى فيه عوج ولا أمت، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، لا يخفى على الله منهم شيء، هذا وصف لذلك اليوم فإنه لم يخف قط عليه منهم شيء سرًّا كان أو جهرًا، بل هو لم يخف عليه منهم شيء حال عدمهم وقبل إيجادهم، وإنما هو وصف خاص لليوم والأمر الجامع لهم والأرض التي برزوا عليها.

أتبع ذلك ما هو في معناه، قوله: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] قيل: أنه يقول ذلك - جل قوله وتعالى علاؤه وجده - بين النفختين، وقد انحصر اسم البقاء ومعناه كله إلى الباقي الحق لا إله إلا هو، فيجيب نفسه لله الواحد القهار، وإنما هذا وصف للوحدة يومئذٍ والبقاء، ووصف لعظيم الأمر وإلا فإن الملك لم يكن قط موجودًا في الدنيا والآخرة ومن قبل ومن بعد إلا له، وهو وصف لذلك اليوم بأسًا وشدة وعظم استطاعة وكسب ومتعة.

وقد كان قبل ذلك منحهم هذه ومتعهم بقول الله - عز من قائل - في وصف ذلك اليوم: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلهِ﴾ [الانفطار:١٧-١٩] ولا تكلم نفس إلا بإذنه ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [النبأ:٣٨] ورضي له قولاً ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨].

أتبع ذلك ما هو في معناه، قوله - جل وعز: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر:١٧] والجزاء العاجل لم يكن عنه في الدنيا بغافل ليس بموصوف بإهمال، لكنه لما كان من الجزاء العاجل على بعض السيئات ما هو ظلمة في القلب واستدراج، وكان منتظرًا به الجزاء الآجل للتمحيص واستيفاء الحقوق والحظوظ بالقسط، وكذلك فلم يظلم قبل ولم ينبع لوصف الظلم أن يصعد إلى علي شأنه، لكنه وصف زائد على ما تقدم من حكمه في الدنيا أنه لا يجعل أحدًا يظلم أحدًا في ذلك اليوم، ولا ذلك اليوم أبقى لأحد اختيارًا ولا هو بموطن اختبار وامتحان، إنما هو موطن الجزاء المحض منه والحكم الفصل به حقًّا وعدلاً لا مبدل لكلماته.

فقوله العلي: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] يكون والناس حينئذٍ في الموقف لا يجيبون ذلك اليوم ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود:١٠٥].

قوله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾[1] أزف الشيء: إذا قرب، وبناء هذه الكلمة على بناء اسم الفاعل من أزف فهو آزف، هذا اسم القيامة اليوم من دار الدنيا، وكان في اجتلاب هذا الاسم فيما هاهنا موعظة وذكرى وتهديدًا بقربها، وأما يومئذٍ فاسم الواقعة والقيامة والطامة وغير ذلك من الأسماء أولى بها.

وربما سميت يومئذٍ بالآزفة استصحابًا قوله ﷻ: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ تصعد القلوب لشدة الهلع والجزع إلى الحناجر وتبقى مواضع الأفئدة هواء؛ أي: فراغًا منها ﴿كَاظِمِينَ﴾ كظم الرجل غيظه: إذا كفه، وكظم البعير جرته: إذا تجرعها، فهم يتجرعون قلوبهم يومئذٍ لنزول من حناجرهم إلى أماكنها من صدورهم وتأبى أن يستقر قرارها، نسأل الله الأمن يوم الفزع ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨] أمره أو يسعف في شفاعته.

الحميم هنا: هو الشقيق المحب، الحميم: الماء الحار الناهي في الحرارة، وسمي القريب بذلك؛ لأنه يحتمي له غضبًا، والغضب حرارة تعرض في القلب تخرج إلى الوجه فيحمر وتنفخ الأوداج ويستشيط غيظًا.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[2] [غافر:١٩] خائنة

---

(١) هو يوم القيامة، يأمر تعالى نبيه أن ينذر العالم ويحذرهم منه ومن أهواله، قاله مجاهد وابن زيد. والآزفة صفة لمحذوف تقديره يوم الساعة الآزفة، أو الطامة الآزفة ونحو هذا. ولما اعتقب كل إنذار نوعًا من الشدة والخوف وغيرهما، حسن التكرار في الآزفة القريبة، كما تقدم، وهي مشارفتهم دخول النار، فإنه إذ ذاك تزيغ القلوب عن مقارها من شدة الخوف. وقال أبو مسلم: يوم الآزفة: يوم المنية وحضور الأجل، يدل عليه أنه يعدل وصف يوم القيامة بأنه يوم التلاق، ويوم بروزهم، فوجب أن يكون هذا اليوم غيره وهذه الصفة مخصوصة في سائر الآيات، يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب، وأيضًا فالصفات المذكورة بعد قوله: ﴿يوم الآزفة﴾ لائقة بيوم حضور المنية، لأن الرجل عند معاينة ملائكة العذاب لعظم خوفه، يكاد قلبه يبلغ حنجرته من شدّة الخوف ولا يكون له حميم ولا شفيع يرفع عنه ما به من أنواع الخوف. [البحر المحيط (٤٠٧/٩)].

(٢) قال الشيخ البقلي: وصف الله خائنة العيون وخفايا الصدور، وقال: لا يخفى عليَّ منها شيء، وذلك أن العين باب من أبواب القلب، فإذا رأت العين شيئًا يكون حظ القلب منه، يعلم ذلك =

الأعين: مشارفتها النظر إلى ما لا يحل لها تعمدًا، ويعلم ما تخفي الصدور: وهو ما تنبعث عنه النظرة، ويعلم الخطرة ويعلم ما قبل الخطرة.

كما قال: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧] وهو ما وقر في القلب وقدح في الصدر، ويعلم ذلك قبل أن ينقدح من خزائن الغيب في لوح القلب، وهذا خطاب انتظم بما تقدم من وصف الإلهية ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر:٣] إلى قوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو العَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ﴾ [غافر:١٥] إلى قوله: ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] إلى قوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾ [غافر:١٩].

وانتظم معناه المراد منه بمعنى ما تقدم من ذكر الجزاء، وإحاطة علمه بذلك وقدرته عليه وعدله وحكمه فيه، لذلك أتبعه قوله: ﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر:٢٠] كما انتظم معناه بذكر آلهتهم وأنها لا تنفع ولا تضر؛ لذلك وصل به قوله الحق: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [غافر:٢٠] ذكر صفتي السمع والبصر في مقابلة وصف آلهتهم؛ إذ هي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئًا.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

=

نفسه فيطلب الحظ منه، ومن القلب إلى العين باب يجري عليها حركة هواجس النفس تحثها على النظر إلى شيء فيه لها نصيب، فإذا تحققت ذلك علمت أن خيانة العين متعلقة بما تخفي الصدور وإذا كان العارف عارفًا بنفسه ويروضها برياضات طويلة، ويقدسها بمجاهدات كثيرة ويزمها بزمام الخوف، وآداب الشريعة، صارت صافية من حظوظها، فبقيت في سرها جلتها على الشهوات، ففي كل لحظة يجرى في سرها طلب حظوظها، ولكنها سترتها على العقل وأخفتها، عن الروح من خوفهما، فإذا وجدت الفرصة خرجت إلى روزنة العين، فتنظر إلى مرادها، وتسرق حظها من النظر إلى المحارم، وذلك النظر خفي، وتلك الشهوة خفية، وصفهما الله سبحانه في هذه الآية، واستعاذ منها النبي ﷺ حيث قال: «أعوذ بك من الشهوة الخفية».

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢١ - ٢٦].

نظم بذلك قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ [غافر: ٢١] لما فيه من التعريض بذكر الجزاء العاجل والآجل، انفصل ذلك من صدر السورة قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ﴾ [غافر: ٣] إلى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [غافر: ٢٧ - ٣٠].

ثم كذلك إلى ما هاهنا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ....﴾ [غافر: ٢٨] هذا الرجل ﷺ كان فرعوني النسب ظاهره على مراد فرعون، وكان مؤمن الباطن يكتم إيمانه من فرعون وأشياعه، فوصفه الله بالإيمان لعمارته باطنه، ونسبه إلى فرعون؛ إذ كان المراد به الإعلام والتعريف ممن هو فرعون.

ومن الفقه في هذا: أن المؤمن التقي بين قوم فساق وعند سلطان جائر جبار أن

يكتم تقواه، غير أنه يكف ظاهره من التشبيه بهم، وفي هذا أن للمؤمن في أيام الدجال أن يكتم إيمانه، غير أنه لا يحب أن يظهر الكفر، فمتى وجد سبيلاً إلى فعل معروف فعله بأي وجه أمكنه، وآل فرعون هاهنا هم آل نسبه وقبيلته، وظهر لنا إيمانه من قوله ونصيحته في الله لقومه، كما ظهر لنا من ذلك علمه بربه ومعرفته بحكمته في حكمه وعدله، والظاهر من شأنه أنه كان مسموعًا منه مكينًا فيهم.

قوله تعالى فيما حكاه عن هذا الرجل المؤمن ﷺ: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ الله إِن جَاءَنَا﴾ [غافر:٢٩] انظروا إلى علمه بالله وبحكمه حيث قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾ [غافر:٢٨] إلى قوله: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨] أي: في الدنيا؛ لأنها لا تسع كل ما كان يعدهم به من العذاب، وقد وقعوا في الدار الوسطى إلى عذاب أكبر من عذاب الدنيا، ويوم القيامة يدخلون أشد العذاب؛ أي: أشد العذابين: عذاب الدنيا وعذاب البرزخ.

علم ﷺ أن أمة لا تدين لله وأرسل إليهم رسولاً فكذبوه إن العذاب واقع بهم، فأنذرهم به في قوله: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ الله إِن جَاءَنَا﴾ فأجاب فرعون جوابًا مختصرًا حسنًا بقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩] هذا جواب من لم يجد دليلاً على مذهبه ولا برهانًا على معتقده فنزع بمحض الدعوى واللجاج في الغي.

وروى أبو بردة: أن معاذ بن جبل قرأ على المنبر «وما أهديكم إلا سبيل الرشّاد» بتشديد الشين، ثم استمر ﷺ من ذكره الجزاء العاجل على ذكر الجزاء الآجل بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ [غافر:٣٠] يعني: الأمم المهلكة.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ

مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣١ - ٣٥].

قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ الله مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر:٣٢ - ٣٣].

وقرأ ابن عباس «يوم التنادّ» بتشديد الدال، وهو من النداء من نادى ينادي بعضهم بعضًا، والنداء: الهرب، إذا ندَّت الإبل تندُّ إذا نفرت، وعلى هذه القراءة جاء خط المصحف، فجاءت قراءة من قرأ بالمد من الزوائد ولم يغير لها الخط.

ثم قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾ [غافر:٣٤] المعنى إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر:٣٤] ويمكن أن يكون هذا من قول الله - جل ذكره: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ﴾ أعلمنا الله ﷻ على لسان هذا المؤمن ﷺ برسالة يوسف ﷺ وبأنه قد جاءهم بالبينات والمعجزات، فكان يوسف والرسل قبله وموسى - صلوات الله وسلامه على جميعهم - قد جاءوا بالصدق وصدق هذا المؤمن به، فكان من المتقين الصديقين.

فصل

وفقه هذا إن للمؤمن المغلوب أن ينطوي على فعل الحق واعتقاده والتصديق به ما كان على ذلك، فمتى وجد سبيلاً إلى الإظهار والتبليغ بلغ وأظهر ما عنده من الحق ولو على وجه النصيحة، وإدخال الرأي وأن [رأيهم][1] بأنه منهم وعلى مذهبهم تسترًا وتصاونًا إلا أن يكون له في الأرض مهاجرًا وموضع نصرة وفئة يتحيز إليها قوله تعالى: إن ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ الله وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر:٣٥].

هذا المجادل في آيات الله المبينة عن وجود الله العلي وأسمائه وصفاته وما

---

(١) هكذا في (ف)، وفي (خ): «رأياهم».

يجوز عليه وما يستحيل لديه، والآيات المبينة للرسالة ومعالمها؛ لذلك قال، وهو أعلم: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لعلمهم بها مقتوهم على جدالهم فيها وأبغضوهم لبغضهم لله ورسله ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥] وقرئ بالتنوين في «قلب» وعلى هاتين القراءتين، والمعني بها: الطبع على كل قلب المجادل، فلا يبقى فيه للهداية حظًا ولا للنور والذكر نصيبًا.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٣٦ - ٤٠].

وقرأ ابن مسعود «كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار» وقعت هنا الكلية على المتكبرين، وفي الأولى على القلوب قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾[1] [غافر:٣٦] أرى قوله: ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾

(١) اختلف الناس في أن فرعون هل قصد بناء الصرح ليصعد منه إلى السماوات أم لا؟ فقال ابن الخطيب: أما الظَّاهِرِيُّونَ من المفسرين فقد قطعوا بذلك، وذكروا حكاية طويلة في كيفية بناء الصرح. والذي عندي أن هذا بعيدٌ، والدليل عليه أن فرعون لا يخلو إما أن يقال: إنه كان مجنونًا أو عاقلاً، فإن كان مجنونًا لم يجز من الله ﷻ أن يذكر حكاية كلامه في القرآن، وإن كان عاقلاً فنقول: إن كل عاقل يعلم ببديهة عقله أنه يتعذر في قدرة البشر وضع بناء يكون أرفع من الجبل العالي، ويعلم أيضًا ببديهة عقله أنه لا يتفاوت في البصر من حال السماء بين أن ينظر إليها من أسفل الجبال وبين أن ينظر إليها من أعلى الجبال، وإذا كان هذان العلمان بديهيَّان امتنع أن يقصد العاقل وضع بناء يصعد منه إلى السماء، وإذا كان فاسدًا معلومًا بالضرورة امتنع إسْنَادُهُ إِلَى فِرْعَوْنَ، والذي عندي في تفسير هذه الآية أَنَّ فِرْعَونَ كان من الدهرية، وغرضه من هذا الكلام إيراد شبهة في نفي الصانع، وتقريره أنه قال: إنّا لا نرى شيئًا نحكم عليه أنه إله العالم، فإنه لو كان موجودًا لكان في السماء، ونحن لا سبيل لنا إلى =

[غافر:٣٧] من قول الله - جل ذكره - وصله بقول فرعون تهزئًا به وإظهارًا لعدم تمييزه، وتنبيهًا لأولي العلم على الوقوف على عجزه.

فصل

﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ هي ما بين السماوات وبين ما هو دونه، كدوائر الأمر بين السماء الدنيا وبين هذه الأرض، قيل لها ذلك؛ لأن كائنات ما في الأرض هي كائنة عنها، كما يكون المسبب عن السبب، وملك الأرض كائن عن آثاره مطلقًا فوقها وذلك السبب الذي هذا السبب كائن عنه بإذن الله هو أيضًا مسبب لسبب هو فوقه، هكذا إلى أن يصعد الأمر إلى العلي الأعلى تبارك وتعالى، هو القائم على كل سبب ومسبب، قيامه على السبب الأدنى منه كقيامه على المسبب الذي يسبب لسواه سواء، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ﴾ وحده ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

تجده وإنما قطع بالمبطلين عن الوصول إلى مسبب الأسباب العلي الكبير القنوع بأول سبب، والاعتماد على ما شابهه وما كان فيه منه شبه ما ولو من وصف من أوصافه حتى نحتوا الحجارة وعبدوها، ونجروا الخشب وسجدوا لها، وصاغوا صنعات الأرض ودانوا لها، ولو أنهم ائتموا بإمام المتقين - صلوات الله وسلامه عليه - في صحيح اعتباره وسلكوا واضح منهاجه لعلوا بهمتهم صعدًا من الصغير إلى الكبير إلى ما هو أكبر منه، ولارتقوا بإيمانهم إلى الرفيع الدرجات العلي الأعلى رب العرش العظيم.

قال الله عز من قائل: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ [ص:١٠] ولما تصور فرعون بكاذب ظنه أن له ملك الجزء الذي حل فيه من الأرض همَّ بأن يرى من سواه أنه يقدر على الرقي إلى أسباب السماوات،

=

صعود السماوات فكيف يمكننا أن نراه، ثم إنه لأجل المبالغة لبيان أنه لا يمكن الصعود إلى السماء قال: ﴿يا هامان ابن لِي صَرْحًا لعلي أَبْلُغُ الأسباب﴾ والمقصود أنه لما عرف كل أحد أن هذا الطريق ممتنع كان الوصول إلى معرفة وجود الله بطريق الحِسّ ممتنعًا. [تفسير اللباب لابن عادل (١٣/٤٩٣)].

وأنه إن رقى اطلع إلى إله موسى ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فأعجِبَ لجهله وجهل أتباعه.

هو يصرح بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وفي هذا إقرار منه بأنه لا يعرف لمن هو ملك ما فوقه الذي هو المسبب لملكه الموجد لنفسه ولحياته وأنفاسه، ومنبع تنفسه وهوائه وأرضه ووجوده كله، ووجود كل من تملك عليه بزعمه، ويقول على ذلك: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ وأدخل في قوله هذا لفظ الترجي بقوله: ﴿لَّعَلِّي﴾، ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨] يريد كل من جاء بالوحي والرسالة من جميع المرسلين، فله على هذا إثم تكذيبه موسى وما جاء به، وإثم تكذيب غيره من المرسلين - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وإني لأرى أن مثل هذا الجبل لا يبلغه من هو على مثل تماسكه وإن كان ظلام الضلال قد أجنه وغياهب الكفر والفتن قد غشيته، بل هو الجحد للحق والاستكبار عنه.

قال الله ﷻ: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [القصص:٣٩] وقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] ورسول الله ﷺ يقول له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢] وصل بذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [غافر:٣٧] ذلك إشارة إلى مذكور هو تجاهله وجحده الحق الذي أرسل به الرسول، ولا يكون التزيين والمجادلة في آيات الله إلا بعد البيان، والإعراض حينئذٍ يكون الطبع والختم، فقيض له قرناء يزينون له ما بين يديه وما خلفه ليحق عليه القول.

﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ

يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر:٤١ - ٤٧].

قوله تعالى يعني العبد الصالح: ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًا﴾ [غافر:٤٥ - ٤٦] لما فوض المؤمن أمره إلى الله تعالى ونصح في ذاته وبين عن الرسول مراده، وقاه الله سيئات ما مكروا، وكان فيمن نجاه الله ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ﴾ آل فرعون أتباعه لما أغرقهم وأهلكهم أحاق بهم عذاب الدار الوسطى دار البرزخ، يعرضون على النار غدوًا وعشيًا.

ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ﴾ [غافر:٤٦] يعني: أشد من عذاب الدنيا الذي هو الغرق وعذاب البرزخ، ثم ذكر كيف يتحاجون في النار، وذكر قول ضعفائهم ومستكبريهم، ثم ذكر طلب أهل النار الشفاعة من خزنة جهنم شكوى الجزع إلى الغربان والرحم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر:٤٨ - ٥٥].

وذكر جواب الخزنة لهم قولهم: ﴿أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى﴾ وكيف أجابوهم باليأس بقولهم: ﴿فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

[غافر:٥٠] كما قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ [العنكبوت:٢٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر:٥١] ضمان النصرة هو للمرسلين وأتباعهم ماداموا معهم، كما قال - عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ ثم الأتباع إن أحسنوا الاقتداء بالرسل فضمان العصمة باقٍ عليهم كما قال: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣] وإن هم بدلوا بعد رسولهم وغيروا فلا ضمان لهم بنجاة، وهم على ذلك في مشيئة الله، إن شاء عذبهم وإن شاء تداركهم بفضله.

وأما يوم الأشهاد: فلا ﴿يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر:٥٢] وضمان النصرة يومئذٍ مضمون للمؤمنين على الكافرين، لا يقام يومئذٍ لكافر على مؤمن وزن ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٤١].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾[١] [غافر:٥١ - ٥٢] نصب يوم على التعظيم لشأنه، والأشهاد: الحفظة والنبيون والمرسلون والشهداء والسابقون من الأمم والمؤمنون من هذه الأمة.

نظم بذلك قوله جل ثناؤه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ﴾ أي: حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ هذا هو - جل ذكره - يأمر رسوله

---

(١) يعني يوم القيامة، قال زيد بن أسلم: «الأشهاد» أربعة: الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد، وقال مجاهد والسدي: «الأشهاد» الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ وعلى الأمم بالتكذيب، قال قتادة: الملائكة والأنبياء، ثم قيل: «الأشهاد» جمع شهيد مثل شريف وأشراف، وقال الزجاج: «الأشهاد» جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب، النحاس: ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال ولا يقاس عليه ولكن ما جاء منه مسموعا أدي كما سمع، وكان على حذف الزائد، وأجاز الأخفش والفراء: «ويوم تقوم الأشهاد» بالتاء على تأنيث الجماعة، وفي الحديث عن أبي الدرداء وبعض المحدثين يقول عن النبي ﷺ قال: «**من رد عن عرض أخيه المسلم كان حقًا على الله ﷻ أن يرد عنه نار جهنم**» ثم تلا: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا)، وعنه ﷺ أنه قال: «من حمى مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله ﷻ يوم القيامة ملكا يحميه من النار ومن ذكر مسلما بشيء يشينه به وقفه الله ﷻ على جسر من جهنم حتى يخرج مما قال» «يوم» بدل من يوم الأول. انظر: [تفسير القرطبي (١٥ /٣٢٢)].

الطاهر المطهر بالاستغفار من ذنبه، فكيف بسواه وهو لا يعمل كبيرة ولا يصر على صغيرة مع عظيم ذكره وعلى مشاهدته في إيمانه وكريم توجهه إليه ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ﴾ صلاة العصر ﴿وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر:٥٥] صلاة الفجر، وهما الوسطى وإن شهدهما ملائكة الليل وملائكة النهار.

وقال الله - جل من قائل: ﴿وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨] يتأكد شهوده ﷻ لتنزله إلى السماء الدنيا، فلا يزال يقول: «من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يقرض غير عديم ولا ظلوم؟»[1] إلى أن ينفتل القارئ من صلاة الفجر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [غافر:٥٦ - ٦١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر:٥٦] الكبر المعني هاهنا والله أعلم: هو جدالهم بالباطل ليدحضوا به الحق، إرادتهم في ذلك أن يطفئوا نور الله بجدالهم وكلامهم، كما قال ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [الصف:٨] كقولهم:

---

(١) أخرجه مسلم (٧٥٨)، وأبو عوانة (٣٧٧).

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦] ونحو هذا معنى قوله: ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر:٥٦] في قوله: ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢] أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر:٥٦] أمره أن يستعيذ من صفة الكبر فهو أصل الخطايا ومنبع المقت من الله لعبده، سميع لمقالهم، ونعوذك به من ذلك بصير بعملك وأعمالهم.

وموضع الاستعاذة من هذا المعنى في القرآن العزيز هو في المعوذتين، نظم بذلك قوله الحق: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧] وهو من جدال القرآن دلهم على النظر في خلق السماوات والأرض وما بينهما، ويستدلوا بعظم ذلك على عظمة خالقهما، هذا هو المراد على العموم، وأخص من هذا بهذا الخطاب أن ينظروا إلى كبر خلق السماوات والأرض وصغر خلق الإنسان، فإنما هو شعبة يسيرة من خلقيها، ثم يقضي بمعلوم ذلك أن الذي خلق ذلك كله قادر على أن يخلق الإنسان عودًا بعد بدئه إياه هذا ما لا خفاء به، فسبحانه وله الحمد، ماذا يحتوي عليه الضلال من ضروب المحال وفي خلقه السماوات والأرض وما بين ذلك الآجال المضروبة من اختلاف الليل والنهار والشهور والأعوام لبلوغ الأفلاك مواضعها، ثم رجوعها عودًا بعد بدئها.

وكذلك في كون الإنسان نطفة مهين، ثم علقة، ثم مضغة، ثم لحمًا، ثم عظامًا، ثم وليدًا جاهلاً، ثم صبيًا، ثم شابًا، ثم كهلاً، ثم شيخًا مفندًا، وفي هذا كله الآماد والآجال المضروبة، وربما قطع به قبل النهاية، وربما رد إلى أرذل العمر إرجاعًا إلى أوليته من الضعف وعدم العلم والميز، هذه كلها آيات منبئات عن الإعادة بعد البداية، وعلى انقضاء يوم الدنيا وابتداء يوم الآخرة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧] نظم بذلك قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي: الجاهل والعالم والمؤمن والكافر، كذلك لا يستوي المؤمن المصلح والكافر المسيء.

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر:٥٨] لو تذكروا لأبصروا، ثم حكم بحكم الحق الذي هو من بعض ما خلق الله السماوات والأرض عليه بقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر:٥٩].

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] الدعاء قد

يكون بمعنى الاستجابة، وقد تكون الاستجابة بمعنى الدعاء، فقوله والله أعلم بما ينزل: ﴿ادْعُونِي﴾ معناه: اعبدوني، والاستجابة من العباد لربهم هي العبادة له والطاعة، لذلك ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] أي: صاغرين.

كما قال في غير هذا الموضع: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة:١٨٦] فجعل استجابة العباد له الإيمان والعمل بطاعته وإلا فما كانت تكون استجابتهم له، ولما تردد معنى الاستجابة إلى قضاء الحوائج والغياث والنصر ونحو هذا، وإلى العمل بما يرضيه والإيمان به، قال رسول ﷺ: «**سائل الله بين ثلاث: إما أن يعجل له، وإما أن يؤجل، فهذه طلبته وسؤله**» ثم قال: «**وإما يدخر له**»[1] لما كان الدعاء والسؤال بنفسه عملاً ولم يكن مما سبق في قضائه الإسعاف بذلك المسئول ذخره وخبأه له عنده، فهو على كل وجه مستجيب مجيب لعباده الذين استجابوا له بالإيمان، ومن أسمائه: المجيب، لذلك لم يجب سائله المؤمن، والحمد لله رب العالمين.

قال الله ﷻ: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ﴾ [الرعد:١٤] أي: له استجابة الحق، أما الإسعاف وقضاء الحوائج، وأما الادخار والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء.

وحكى - جل ذكره - عن الرجل الصالح ﷺ قوله لقومه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ﴾ يقول: ليس لمعبود من دون الله إجابة في الدنيا ولا في الآخرة، فجمع المعنيين اللذين في الحديث ﴿وَأَنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر:٤٣] المسرف: هو من دعا من لا يستجيب له، ثم بعد هذا هم درجات عند الله على قدر حسن الاستجابة وصدق الإنابة، واجتناب المناهي كلها ظاهرها وباطنها، والمسارعة في طلب مرضاته، وهذا صدق الاستجابة من العبد لربه تعالى، وعلى مقدار تغلغله في ذلك وصدقه تكون سرعة الاستجابة من ربه له، إنما يستجيب له من درجته، هو الذي لا يخلف وعده ولا ينقض عهده.

وفي قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

---

(١) ما بين [ ] بياض غير واضح وسقط في (خ) وصوب من (ف).

﴿وَلَا المُسِيءُ﴾ [غافر:٥٨] وجه من هذا قد تقدم الكلام بأنه لا يستوي الأعمى والبصير ولا المؤمن والكافر، كذلك أيضًا لا يستوي المؤمنون والصالحون ولا يستوي المسيئون، هم درجات هؤلاء وهؤلاء.

ثم ضرب مثلاً للبصير والمؤمن المصلح كيف يكتسب الهداية إليه والقرب منه بقوله: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر:٦١] سمى النهار: مبصرًا بالإضافة إلى الليل لما كان الليل كافًا للأبصار عن الانبساط على المرئيات رادعًا لها عن الانتشار ساترًا للمبصرات، وكان النهار بضد ذلك مبصرًا، أي: يعطي المبصر بصرًا مجازًا واتساعًا كعادة العرب الذي أنزله على لسانها، مثل: [ليل قائم، ونهار صائم][1] ونحو هذا.

ثم ما نزل هذا حتى قبض الأمر إلى نفسه بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر:٦١] ففي هذا معنيان من الدلالة:

أحدهما: دلالة على الوحدانية في اختلاف الليل والنهار بما هما وبما فيهما.

والثاني: لما كان الليل يشبه الموت والعمى والجهل وجهنم في سوادها وظلمتها، وكان النهار يشبه الحياة والعلم والإبصار والأفق المبين والجنة نبههم على استعمال الشكر وطلب العلم والاغتباط بالهداية إلى رب هو فاعل هذا وقادر عليه ومدبره، لا كمن يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم ولا يغني عنه شيئًا، والوجه الثالث: أن هؤلاء وهؤلاء ليسوا بمستوين في تحقق الاستجابة لنا، فلذلك لا يستوون في إسراعنا في الاستجابة إليهم، فافهم.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ

(١) أخرجه مسلم (٧٥٨)، وأبو عوانة (٣٧٧).

ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ [غافر: ٦٢ - ٦٨].

ولأجل الوجهين الأولين عقب بقوله - جل ذكره: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر:٦٢] يقول عز من قائل: كيف تقلبون عن حقيقة معرفتكم هذه الحقائق إلى أباطيلكم هذه.

أتبع ذلك قوله: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر:٦٣] أي: كذلك يؤفكون في الآخرة، فيقال لهم: ﴿مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُوا﴾ فيقولون: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ [الأعراف:٣٧] ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾.

﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ فيقولون: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:١٩].

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الكَافِرِينَ﴾ [غافر:٧٤] أي: في الدنيا ثم في الآخرة.

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ظاهر هذا الخطاب تعداد النعم، وباطنه وصف الوحدانية وإثبات القدرة، لذلك قال: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [غافر:٦٤] إثبات للربوبية بحكم الوحدانية وتعجيب من عظيم شأنه وجميل إحسانه إلى عباده وعلوه في كبريائه.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿هُوَ الحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [غافر:٦٥] الدين: هو الإسلام، والدعاء: هو العبادة هنا على شروطها من خشوع وخضوع وإحسان، هذا إذا كان الدين بمعنى الإسلام فالدعاء: العبادة، وإذا كان بمعنى النداء وسؤال المرغوب فيه فالدين: الإيمان وما اكتنفه من المعرفة، وهي تحصيل العلم على سبيل اليقين من لدن قوله: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر:٦١] إلى قوله: ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [غافر:٦٥].

يقول ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ادعوني موقنين راغبين ضارعين مخبتين لي

مخلصين لي الدين، واختموا الدعاء بالحمد لله رب العالمين.

قال رسول الله ﷺ: «**اسم الله الأعظم فيما بين قوله:** ﴿الم * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ [آل عمران:١ - ٢] وقوله: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]»[١].

فصل

الذي يغلب على الظن، بل يقرب من العلم واليقين أن الداعي إذا جمع علم ما في هذه الجملة من أسماء وأفعال واستشعر من نفسه حال الضراعة والإخبات وشروط الدعاء، ثم دعا بها استجيب له إن شاء الله، فإنه تعالى لا يفعل شيئًا إلا لحكمة، وكتابه العزيز أبين تبيانًا في ذلك، وما استاق هذه الجملة بعد أمره بالدعاء ووعده بالاستجابة إلا لنعمة له في ذلك، وقد أثنى على عباد له تفكروا في صنعه، ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران:١٩١] إلى آخر القصة، وفيها: أنه استجاب لهم ربهم، وإنما الشأن في الشهود وتقويم الحال من العبد حال الدعاء، فافهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩] أي: عن هذا الحق الذي سبق بالفطرة إلى حذر قلوبهم، وهي في هذه الجملة التي تقدمت لما وصف من أفاعيل قدرته على سنن حكمته، ذكر إيصاءه لرسوله ﷺ بالثبات على أمره واستشعار العزيمة على رشده بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَمَّا جَاءَنِي البَيِّنَاتُ مِن رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [غافر:٦٦ - ٦٧] فذكر التقليب في الخلقة وإرجاع أواخر الحكم على أوائلها، فأوضح الحق وكشف المستور ببراهين المشاهدة.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٦٥٢)، وابن أبي شيبة (٢٩٣٦٣)، وأبو داود (١٤٩٦) والترمذي (٣٤٧٨) وقال: حسن صحيح. وابن ماجة (٣٨٥٥) والطبراني (٤٤٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٣٨٣)، وعبد بن حميد (١٥٧٨) وابن الضريس في فضائل القرآن (١٨٢) والدينوري في المجالسة (١٥).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾ [غافر: ٦٩ - ٧٨].

قال على إثر ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ [غافر:٦٩] تعجب من ضلالهم عن الحق المبتغى ونكوبهم عن السبيل المرتضى بجد منهم في ذلك، وعزم من ذواتهم، فجعل ذلك أيضًا من آياته على عظيم اقتداره ومضاء مشيئته في قهر ذواتهم، كيف صرفهم بهم عن فوزهم واستاقهم بسلاسل قهره المصوغة من خالص عزماتهم وعزم إراداتهم من حقيقة ذواتهم إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة؟.

نظم إلى ذلك ما هو إتمام لمعناه قوله الحق: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ﴾[1] [غافر: ٧٠ - ٧١] جعل جزاءهم في الآخرة من جنس كونهم في الدنيا، كانت الأغلال في

(١) السلاسل: معطوف على الأغلال، والتقدير: إذ الأغلال، والسلاسل في أعناقهم، ويجوز أن يرتفع السلاسل على أنه مبتدأ وخبره محذوف لدلالة في أعناقهم عليه، ويجوز أن يكون خبره (يُسْحَبُونَ فِي الحميم) بحذف العائد، أي: يسحبون بها في الحميم، وهذا على قراءة الجمهور برفع السلاسل، وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، وأبو الجوزاء بنصبها، وقرأوا: (يسحبون) بفتح الياء مبنيًا للفاعل، فتكون السلاسل مفعولاً مقدّمًا، وقرأ بعضهم بجرّ السلاسل. [فتح القدير (٦ /٣٣٦)].

أيديهم جمعت بها إلى أذقانهم بالسلاسل من القهر في أعناقهم، يساقون بها عن مقام الظفر بالنجاح إلى أهويات الكفر ومهامه الضلال المبين، كذلك جعل باطن تلك السلاسل والأغلال ظاهرًا فيما هنالك.

قال الله - عز من قائل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٨ - ٩] المعنى إلى آخره.

أتبع ذلك قوله: ﴿يُسْحَبُونَ * فِي الحَمِيمِ﴾ [غافر:٧١ - ٧٢] قيل: هو النحاس المذاب، بل هو أشد حرًا من الحميم بتسعة وستين ضعفًا، وزاد عليه بزهمه ونتنه، فإذا سحبوا فيه انسلخوا من جلودهم، وبعد ذلك يقذفون في النار الحامية فيصيرون وقودًا وسعلاً، نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا وفي الآخرة.

يقال لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ اللهِ﴾ [غافر:٧٣ - ٧٤] لِمَ لا ينصرونكم مما أنتم فيه فيقولون: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ ثم يقولون ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر:٧٤] يعاد عليهم ضلالهم الذي كان ضلالاً عن الهدى يكون فيما هنالك ضلالاً عن ضلالهم الذي اهتدوا إليه، فيما هنا حكمة بالغة وأمر عظيم، سبحان القاهر فوق عباده، يسمعهم على تلك الحال وينطقهم، فيجعل لهم علمًا يعلمون به علم ما هم فيه، لا يجعل لهم من ذلك إلا ما يضرهم ولا ينفعهم وما يزيد في ندمهم، وما يؤكد حزنهم ويضاعف آلامهم وخزيهم، ويتحققون من أجل ذلك لعن أنفسهم ولعن بعضهم بعضًا.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أي: من نصرك وإظهار أمرك ومجازاتهم ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي: من جزائهم وعذابهم بالقتل والسبي والجلاء والنصر عليهم والظفر بهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر:٧٧] أي: إلى ما وصفناه لك من مصيرهم، فقد أراه ﷻ من ذلك ما شاء، وأعزه وأعز دينه وأظهره، ثم توفاه فبشر صحابته وتابعيهم ﷺ إلى تمام بعض ما وعده به من ذلك، ونحن الآن في انتظار إظهار دينه القويم على الدين كله ولو كره الكافرون.

نظم إلى ذلك ما يعزيه به عن توجعه لقبيح قولهم وباطل جدالهم وكثرة

صدهم عن سبيل الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله﴾ [غافر:٧٨].

يقول - جل من قائل: وإنما هو البلاغ وقد بلغت ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٤ - ٥٥] حتى يأتي أمر الله ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ الله قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر:٧٨] كذلك كان من قبلك من الرسل، وجل من كان قبلهم من الأمم.

فصل

سمى الله ﷻ لرسوله ﷺ من الرسل أربعة وعشرين، وكنى عن سبعة، فممن صرح باسمه: «آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون واليسع ويونس وإلياس وذو الكفل وأيوب وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى» وممن كنى عنه: «حزقيل وأرميا وشمعون والخضر» على اختلاف في أسماء هؤلاء، وثلاثة في سورة «يس» وذكر أخوة يوسف ولم يسمِّ أكثرهم إلا بحكم العموم والإجمال، صلوات الله على جميعهم من قص منهم ومن لم يقصص، آمنا بهم أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر:٧٩ - ٨٥].

قوله تعالى: ﴿الله الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ

فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ الله تُنكِرُونَ﴾ [غافر:٧٩-٨١] أرجع الخطاب - جل ذكره - إلى ما ينتظم بتعداد النعم وتبيين آيات الوحدانية والبعث بعد الموت، وما يكون في الآخرة.

الأنعام: هي الثمانية الأزواج التي نص عليها في سورة «الأنعام» ثم يعم هذا الاسم جميع بهيمة الأنعام الأنسي منها والوحشي، ثم جميع ما يصاد ويذكى، يقول جل من قائل: جعلها لكم لتركبوا منها ما يصلح ركوبه، وتأكلوا منها ما أحل لكم أكله، نبه بالركوب لهن على ما يكون منهم مركبًا للمؤمنين في الآخرة، وعرض بذكر البلوغ إلى الحوائج عليهن إلى ما يركب على الصراط وينجي من المشقات فيما هنالك.

وكذلك الفلك تركبون فيها فى الجنة فى أنهارها تنعيمًا لهم، ويركبها أهل النار اضطرارًا، يضطرون إلى ذلك في بحار الحميم، ثم يغرقون في لحج البحار من الحميم، فإذا خرجوا من ذلك قذف علم في النار فاشتعلت عليهم وقودًا ولهبًا، وذكر الأكل منها في هذه تنبيهًا على أنا نكون عنها يخلقنا الله عن ألبانها ولحومها، وهو أيضًا تنبيه على ما يؤكل منها في الجنة.

ثم قال - عز من قائل: **﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾** أي: على ما هنالك **﴿فَأَيَّ آيَاتِ الله تُنكِرُونَ﴾** [غافر:٨١] وعطف بالواو في قوله: **﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾** على ما هنالك.

فصل

كل ما كان في الدنيا من نعمة من الله - تبارك وتعالى - على عباده فهو كما قال: **﴿مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾** [البقرة:٣٦] في هذا المستقر إلى أجل، ثم هم إن شكروا نعمته جعلها لهم فيما هنالك جزاءً ثوابًا، وإن هم كفروا بالله وكذبوا رسله جعلها لهم فيما هنالك من جهنم عذابًا ونكالاً، وأما الفاسقون من الأمة فعذابه بها في عرضة القيامة وفي البرزخ، فإن أدخل النار عذب أيضًا بها.

قال رسول الله : ﷺ«**ما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاعٍ قرقرٍ تعضه بأنيابها وتطؤه بأظلافها أسمن ما كانت وأوفره كلما مرت عليه أخراها رد**

عليه أولاها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يرى مصيره على الجنة أو النار»[1] وقال في البقر كذلك، وفي الغنم كذلك، وذكر الخيل وأن من حقها ألا ينسى حق الله في ظهورها ولا رقابها، وإن من حق الله في الأنعام أن يحلبها يوم ورودها، وعلى القول بالإجمال: فكل ما كان لهم فيه متاع ونفع في دار الدنيا فهو لهم في الآخرة، والآخرة أوسع حدًّا، لكن هذه بوجود التعذيب وهذه بوجود التنعيم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣] لما لم يكن عندهم علم النبوة والوحي، وعلم المعرفة بالله وبإمامه وأحكامه، والاعتبار إلى الحق الموجود في الدار الآخرة، صغر عند الله - جل ذكره - كل علم سواه، ولم تخل الأمم السالفة من علوم جمة، كعلم التنجيم والزجر والطيرة والفأل وعلم الطلسمات والفراسة والطب والحكمة، لكن ذلك كله من حكمة لم توصل إلى الحق المبتغى، ولا قادت إلى المحل الأعلى، ولا أعلمت بجنة المأوى ولا بلظى، ولا وصلت بين الحق المخلوق به السماوات والأرض والحق العلي المبين.

ولما لم يسلكوا سبل الاعتبار فيعلموا بما شوهد ما غاب، بل أعجبوا بما عندهم من صنوف علوم وتشاغلوا بتعرف مساحات الأرضين وأجرام الكواكب ومقادير إيقاعها دون توقيف شرع ولا إعلام نبوة، وبرفع الأنفال وأنواع العلاجات، ويخرج من هذه النواع من العلوم ما يكون منه جدال في آيات الله بما يلحدون بها إلى المعهود المتعارف، وهم إن أخبروا أخبروا عن ظاهر من الأمر والنبوة ينبئ بباطن الوجود، وهو الأوسع وجودًا والأعلى شرفًا، والأقرب إلى رضوان الله جل ذكره.

قال الله ﷻ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧] فأورثهم ذلك إعجابًا بما عندهم واستهزاءً بالرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - واستخفافًا بالحق الذي جاءوا به، فلم ينفعهم علمهم، بل كان وبالاً

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٨٩٦٥)، ومسلم (٩٨٧)، وأبو داود (١٦٥٨)، والنسائي (٢٤٤٢).

عليهم وضررًا صرفًا، فحاق بهم عذاب الله، وكان علماؤهم وقاداتهم أئمتهم إلى النار، فكان عذابهم ذلك من جنس تكذيبهم وأعمالهم وتهزئهم برسلهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣] كما قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت:٤٠].

وفي قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر:٨٣] أبين البيان، ولما رأوا بأس الله آمنوا بالله وحده وكفروا بما كانوا به قبل يؤمنون ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾ [غافر:٨٥] بالله حينئذٍ؛ إذ كانوا كافرين به قبل هذه سنة الله في عباده.

تفسير سورة فصلت[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) هذه مكية بلا خلاف، ومناسبتها لما قبلها، أنه قال في آخر ما قبلها: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ إلى آخرها، فضمن وعيدًا وتهديدًا وتقريعًا لقريش، فأتبع ذلك التقريع والتوبيخ والتهديد بتوبيخ آخر، فذكر أنه نزل كتابًا مفصلاً آياته، بشيرًا لمن اتبعه، ونذيرًا لمن أعرض عنه، وأن أكثر قريش أعرضوا عنه. ثم ذكر قدرة الإله على إيجاد العالم العلوي والسفلي. ثم قال: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة﴾، فكان هذا كله مناسبًا لآخر سورة المؤمن من عدم انتفاع مكذبي الرسل حين التبس بهم العذاب، وكذلك قريش حل بصناديدها من القتل والأسر والنهب والسبي، واستئصال أعداء رسول الله ﷺ ما حل بعاد وثمود من استئصالهم، روي أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليعظم عليه أمر مخالفته لقومه، وليقبح عليه فيما بينه وبينه، وليبعد ما جاء به. فلما تكلم عتبة، قرأ رسول الله ﷺ: ﴿حم﴾، ومر في صدرها حتى انتهى إلى قوله: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾، فأرعد الشيخ ووقف شعره، فأمسك على فم رسول الله ﷺ بيده، وناشده بالرحم أن يمسك، وقال حين فارقه: والله لقد سمعت شيئًا ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي، ﴿تنزيل﴾، رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هذا تنزيل عند الفراء، أو مبتدأ خبره ﴿كتاب فصلت﴾، عند الزجاج والحوفي، وخبر ﴿حم﴾ إذا كانت اسمًا للسورة، وكتاب على قول الزجاج بدل من تنزيل. قيل: أو خبر بعد خبر. ﴿فصلت آياته﴾، قال السدي: بينت آياته، أي فسرت معانيه، ففصل بين حرامه وحلاله، وزجره وأمره، ووعده ووعيده. وقيل: فصلت في التنزيل: أي لم تنزل جملة واحدة. قال الحسن: بالوعد والوعيد. وقال سفيان : بالثواب والعقاب. وقال ابن زيد : بين محمد صلى الله عليه وسلم، ومن خالفه. وقال أبو عبد الله الرازي: ميزت آياته، وجعل تفاصيل معان مختلفة، فبعضها في وصف ذات الله تعالى، وشرح صفات التنزيه والتقديس، وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، وعجائب أحوال خلقه السموات والكواكب، وتعاقب الليل والنهار، وعجائب أحوال النبات والحيوان والإنسان؛ وبعضها في أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلب ونحو الجوارح، وبعضها في الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، ودرجات أهل الجنة ودركات أهل النار؛ وبعضها في المواعظ والنصائح؛ وبعضها في تهذيب الأخلاق ورياضة النفس؛ وبعضها في قصص الأولين وتواريخ الماضين. وبالجملة، فمن أنصف، علم أنه ليس في بدء الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم والمباحث المتباينة مثل ما في القرآن. انظر [تفسير البحر المحيط (٩ /٤٣٦)].

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾ [فصلت: ١ - ٨].

قوله - جل ثناؤه: ﴿**تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ [فصلت: ٢] قد تقدم ما هو تنزيل من ﴿**العَزِيزِ الحَكِيمِ**﴾ [الجاثية:٢] وتنزيل: ﴿**مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ**﴾ [غافر:٢] وتناوب هذه الأسماء في الفواتح لفوائد:

منها: أنه يريد أن يعلمنا بأسمائه الحسنى.

ومنها: أن سياقها يكون لمعان في السور تدور معانيها عليها، ورحمته الرحمانية ظاهرة في هذه لذكر التنزيل والرسالة، وخلقه السماوات والأرض وما بين ذلك إلى قوله: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا**﴾ [فصلت:١٣] وذكر كيف عاقبتهم ومخرج ذلك من أسماء غير هذه كاسم «العزة» ونحوه إلى قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [فصلت:٣٠].

تناول ذلك اسمه «الرحيم» بعموم اسم الرحمانية، ثم كذلك إلى آخر السورة يثني مقتضى اسم الرحمانية والرحمة على اسم «العزة» ثم إلى آخر السورة، وربما أدرك هذا بلطيف التدبر وصادق النظر، فـ«العزيز»: المنيع، ومن شأنه الانتقام من أعدائه والإعزاز لأوليائه، و«الحكيم» المحكم، وقد تقدم هذا في «**شرح الأسماء**» فكلامه ممتنع فهمه إلا على من يسره الله له، وقد أحكم ما أنزله من كتاب وما صنع من صنع، وكتابه عزيز حكيم لأجل ذلك، والعليم أنزله بعلمه؛ ولذلك احتوى على علم ما قبل ونبأ ما بعد، وعلى علم الحلال والحرام، وهو منزله قرآنًا عربيًا؛ فلذلك حوى ضروب الخطاب أجمعها، وشمل جوامع الكلم، وأتاها رسوله المنزل عليه،

ورحمن يخبر فيه بموجوداته الرحمانية، ورحيم يبشر برحمته عباده الذين ﴿**قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [فصلت:٣٠].

قوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ [فصلت:٣] فصله من مجمل أم الكتاب جملة محكمة، كذلك قال - عز من قائل: ﴿**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ [هود:١] فصله بعد إحكامه من حال إجماله إياه؛ إذ لم يكن عجميًا ولا عربيًا ولا كلامًا لبشر، بل لروح القدس، ثم للروح الأمين، ثم إلى قلب الرسول، ثم جعله على لسانه قرآنًا عربيًا مفصلاً على الأحكام والمواعظ والذكر والحظ والندب والواجب والنهي، وعلى علم الإسلام والإيمان، وعلم النبوة وعلم التوحيد والاستغفار، ومعرفة الجزاء العاجل والآجل، والإعلام بما كان وتقضى، والإنباء بما يكون في المستقبل، والبداية والإعادة إلى غير ذلك من علوم حواها القرآن العزيز.

أتبع ذلك قوله: ﴿**بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ**﴾ [فصلت:٤] فلما أعرضوا عنه طبع على قلوبهم حتى وجدوا ذلك من أنفسهم فقالوا: ﴿**قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ**﴾ [فصلت:٥] قالوا ذلك على سبيل التهزؤ منهم، وإنما أنطقهم الحق، نظم بذلك ما عبر عن التبليغ بقوله: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ [فصلت:٦] إلى قوله: ﴿**لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ [فصلت:٨].

﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤)**﴾ [فصلت:٩ - ١٤].

أتبع ذلك قوله: ﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا**﴾ [فصلت:٩] فقال: ﴿**أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ**﴾ قررهم بذلك لتقدم معرفتهم بأنه خالق السماوات والأرض وزادهم علمًا بقوله: ﴿**فِي يَوْمَيْنِ**﴾ فعرض هنا للإخبار عن خلقه الأرض إلى قوله: ﴿**لِّلسَّائِلِينَ**﴾ [فصلت:١٠].

وبعد تمام هذا الخطاب عطف بحرف «ثم» فذكر تسويته السماء وقضاءه إياهن، وعرض في سورة: ﴿**وَالنَّازِعَاتِ**﴾ [النازعات:١] إلى ذكر السماء، فقال: ﴿**أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ**﴾ [النازعات:٢٧] كما قال: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**﴾ [غافر:٥٧] ﴿**بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا**﴾ [النازعات:٢٧-٢٩].

ثم قال - عز من قائل: ﴿**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ**﴾ [النازعات:٣٠] إلى آخر القصة فكما عطف بحرف «ثم» ذكر الاستواء كذلك كان الاستواء منه لوجود السماء؛ إذ كانت دخانًا، ولقوله جل قوله: ﴿**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**﴾ [النازعات:٣٠] كذلك كان دحو الأرض بعد تسويته السماء، والأرض من السماء بمنزلة الأنثى مع الذكر إيجادها بعد إيجاده، فأوجد السماء أولاً دخانًا ورفعه.

قال الله ﷻ: ﴿**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا**﴾ [الرحمن:٧] ثم أوجد الأرض وهي التربة خشعة على الماء، وكان في خلقهِ التربة خلقة كل شيء خلقه من الأرض سبق في تقديره أن يوجده عنها وفيها.

كما قال: ﴿**خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ [الزمر:٦] فعطف بحرف «ثم» بعد أن قد ذكر أنه قد خلقنا، ومعلوم أنه لم يخلق حواء إلا قبل إيجاده إيانا لا محالة، وإنما خلقنا يومئذٍ تقديرًا، كما قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية أمثال الذر...**»[1] ثم قال ﷺ: «**إن الله خلق الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء**»[2] وليسر ذلك عليه وصادق ضمانه يخبر عن كون الكائنات قبل إيجاده إياها بحال الظهور، ولما أوجد

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٢١٥).

(٢) تقدم تخريجه.

السماء دخانًا رفعه، ثم أوجد الأرض نزية استوى إلى السماء، وذكره الاستواء إلى ما هو الأعلى أولى لنزاهته؛ إذ الاستواء بما هو مفهومه العلا.

فقال لها وللأرض: ﴿**ائْتِيَا طَوْعًا أَو كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ [فصلت:١١] أي: نحن وما فينا وما بيننا، وذكر الطوع هنا معناه: التبرؤ من الحول والقوة، وإخراج الفعل على سنن التسخير والتيسير لا على تحمل الأمانة بمعنى دعوى، فكان يلزم عن ذلك اختبار وامتحان، فقضاهن سبع سماوات في يومين، أي: فصلهن بعضهن عن بعض، أولهما: قضاؤه السماء، والثاني: قضاؤه الأرض، وفصلهن بعضهن عن بعض، وقد عبر عن خلقه الأرض في يومين: الأول منهما: لإيجاده السماء، والثاني: لإيجاده الأرض، ذكر في إخباره عنهما يومين للسماء ويومين للأرض، فيومين من حيث العدد، وأربعة من حيث الفعل؛ إذ انقضاء اليوم هو انقضاء الفعل.

ثم قال: ﴿**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا**﴾ [فصلت:١٢].

وقال في الأرض: ﴿**وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا**﴾[1] [فصلت:١٠] ولم يجعل لها رواسي ألا تميد إلا بعد دحوها، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام، كذلك ذكر تعالى يومين لخلقه الأرض، ويومين لقضائه السماوات سبعًا وتسويتهن على ما هن عليه من أمر، وأربعة أيام في تتميم الأرض بركاتها ورواسيها وتقدير أقواتها، فهذه ستة أيام عددًا، لكنه لما كان توزيعها مرة على الإخبار بإيجاد الأرض، ومرة عن تسوية السماوات، ومرة عن تتميم ما أوجده، تداخلت الأعداد لتداخل الأفعال واستقامة سبيل النظر في ذلك إن شاء الله أن يعتقد أن السماء أولاً إيجادًا أو تتميمًا، والأرض بعدها إيجادًا ورتبة.

مثال ذلك: ما قاله رسول الله ﷺ: «**خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الندى يوم الاثنين**».

---

(١) قال القشيري: أي: جبالاً مرتفعات، وجعلنا بها الماء سقيًا لكم، يُذكِّرهم عظيم مِنَّتِهِ بذلك عليهم. والإشارةُ فيه إلى عظيم مِنَّته أنَّه لم يخسف بكم الأرض، وإن عملتم ما عملتم (٨/ ١٧).

وفي أخرى: «**وخلق الشجر والماء يوم الإثنين وخلق الظلمة يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيهما الدواب يوم الخميس فهذه ستة أيام**»(١).

فخلقه التربة يوم السبت قد كان سبق خلق السماء دخانًا قبل ذلك، ثم كذلك ما خلق من موجودات ومتمماتها إلا قد كان سبق تتميم ما شاء من السماء قبل، ولذلك - والله أعلم - قال: ﴿**خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ**﴾ [فصلت:٩] أي: فعلين، واليوم انقضاء فعل ومفعولي ذلك اليوم السماء ثم الأرض، فقال: ﴿**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ**﴾ [فصلت:١٢] أي: تسويته السماوات ودحوه الأرض وما يتبع ذلك، لكن الأرض بعد السماء كما تقدم إيجادًا ورتبة.

ثم أوحى في كل سماء أمرها، وأغطش ليلها، وأخرج ضحاها، وبارك في الأرض وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام، فتلك يومان؛ أي: فعل مفعولين بيوم ويومان، كذلك فهذان يومان وأربعة أيام في إيجاد الأمر في السماء وخلق أقوات الأرض وبركاتها في أربعة أيام، وكما تقدم في تقدير السماء إيجادًا ورتبة، وإنما هو السماء ثم الأرض، ألا ترى أن الأمر ينزل من السماء أولاً في إنزال الماء فيخلقه فيما هنالك، ثم ينزله إلى الأرض والنبات والحيوان عن الماء الذي ينزل من السماء إلى الأرض بمنزلة النسل من بين الذكر والأنثى، وبمنزلة تسخير السماء والأرض وما بينهما، الماء واحد له، فافهم.

أمر قويم وحكمة سابغة، آية ذلك: قضاؤه بركات الأرض في أربعة أيام بواسطة ما قدر في السماء من أمر، وهي الأربعة فصول من السنة: الشتاء والربيع والصيف والخريف، فهذه الأيام معلومة بالمشاهدة، فيهن يتم زرع الأرض وبركات الدنيا وجميع ما يخرجه منها من فوائد وعجائب، لذلك قال: ﴿**سَوَاءً**﴾ أي: هذه بهذه ﴿**لِّلسَّائِلِينَ**﴾ [فصلت:١٠] يعني: للناظرين المعتبرين بما يشاهدونه إلى ما هو غائب عنهم.

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٦٣٢٣)، والبخاري في التاريخ (٤١٣/١) وقال: قال بعضهم: عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح. ومسلم (٢٧٨٩)، والنسائي في الكبرى (١١٠١٠)، وابن خزيمة (١٧٣١)، وأبو يعلى (٦١٣٢)، والديلمي (٢٩٢٧) بنحوه.

والسائلون: هم الباعثون سؤال أو نظر أو اعتبار، وهو تعجيب وإغراب، وتعظيم للمراد المعني بالخطاب، وقد يكون معنى السواء زائدًا إلى ما تقدم ذكره، أي: بهذه الأربعة الأيام استوت السنة مطالعها ومغاربها، وبعد الشمس وقربها، وارتفاعها ونزولها؛ أي: في شمال بروجها وجنوبها بإحكام ذلك كله وتوابعه، ويحسن لهذا الوجه قراءة من قرأ «سواء» بالخفض على البدل أو النعت من «أيام».

قوله تعالى: **﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾** [فصلت:١٢] المصابيح: الشمس والقمر والنجوم، والحفظ: ما تحفظ به السماء بالشهب من استراق الشياطين لما يتسمعون به لمن في العنان من الملائكة - عليهم السلام - فإن الملأ الأعلى لا يسمعون إليه، والملأ الأعلى: هو السماء الدنيا إلى ما علا، وإنما يقذفون من كل جانب فيما هنالك؛ أعني: مواضع تنزل الأمر في دوائره هنا، ولهم إلى ذلك سلم يصعدون عليه ويتسمعون فيه كالملائكة.

المعراج والمعارج إلى المنتهى، وسماوات ما ها هنا سبع، ودوائر الأمر فيما بين ذلك يتشعب كثرة إلى ما يكون منها ما يعم الجملة، كما يعم الغذاء أجزاء الجسم، وفي هذه جعل الله القمر نورًا، وجعل الشمس سراجًا، والنور يطرد الظلام، والسراج يطرد الليل، وفصل الأرضين سبعًا كل أرض سماء لما تحتها وهي تحتها سماء، وهي أرض لما فوقها الغالب عليهم اسم «أرضين» والسماوات طباق بعضهن فوق بعض، أعلاهن سماء لما تحتها، والتي تحتها سماء لما تحتها، لا تقول فيها: «إنها أرض» لعدم التوقيف، وممكن إتيان ذلك، وإنما قلنا: إن التي تعلو من الأرضين سماء لما تحتها؛ لمفهوم قول الله جل ذكره: **﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾** [الطلاق:١٢].

وكل سماء فهي على الماء، وكذلك كل أرض وكل ماء فعلى هواء متوسط في الثخانة والرقة بين الأرض والماء، كما بين كل ماء وأرض وأرض هواء كالمعهود، وبين كل أرض وماء وكل سماء وماء لطيف هواء يقرب بوجه ما إلى الأرض جساوة، وبوجه ما إلى الماء رقة، آية ذلك: [...][١] أن البيض ليس بقشر لرقته،

---

(١) غير واضحة في (خ)، وغير موجودة في (ف).

وليس برقيق البيض لجساوته، ثم كذلك إلى ما سفل وإلى ما علا، ودوائر الأمر ما بين كل سماءين وكل أرضين، والله أعلم بكيفية ذلك.

غير أن الأمر يشيع في العالم علوه وسفله إلى أن يعمه كما يعم الغذاء الأجسام والأعلى من الدوائر، والأمر ينتظم الأسفل كل ذلك في فلك واحد يسبحون على اختلاف المراد بالأمر وبسعته في مسالك معاني التدبير، هذا من لدن السماء السابعة إلى الأرض السابعة إلى ما سفل وإلى المنتهى، وجميع السماوات السبع والأرضين السبع في الكرسي كحلقة في فلاة، وذلك أن السماوات السبع والأرضين السبع دنيا كلها وسيقوض هذا البناء، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، ويجعل آخره ويزداد في ذلك على مقدار ما قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم وانظر بم يخرج منها**»[1].

وقال الله ﷻ: ﴿**فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ [التوبة:٣٨] ولا قليل أقل مما قلله الله إلى جنب ما كثره.

قال الله - عز من قائل: ﴿**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ**﴾ أي: بقوة، ثم قال: ﴿**وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾ [الذاريات:٤٧] أي: من المستقل، ثم الكرسي الكريم بما هو وما هو محيط به في العرش كحلقة في فلاة.

قال الله - جل من قائل: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [الأنبياء:٣٣] وخلق الله ما هنا لمنافع العباد وإتمام مسالك أمره، وليتدبر أهل العقول وليعبروا منها إلى ما غاب عنهم، فأخبر - جل ذكره - أن ما هنا من دوائر أفلاك تستدير بأمره وتدبيره ويستدير بها الفلك المحيط بها دون عرش السماء الدنيا، ثم كذلك ما بين كل سماءين وكل أرضين، ويرجع ذلك كله إلى جامع يجمعه يستدير دوائر ما في ذلك باستدارة ذلك الجامع، ثم كذلك إلى متنزل الأمر حيث حمله العرش يجمع ذلك الدائر كل دائر أحاط به، وهو المحيط

---

(١) أخرجه بنحوه ابن المبارك (٤٩٦)، وهناد (٥١٧)، وأحمد (١٨٠٤٣)، ومسلم (٢٨٥٨)، وابن ماجة (٤١٠٨)، والحميدي (٨٥٥)، وابن أبي شيبة (٣٤٣٠٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٨٣٥)، وابن حبان (٦١٥٩) والطبراني (٧١٣) والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٥٩).

بالموجودات كلها ما دون العرش إلى المنتهى من دائره، ولا نقول سفلاً، فإن ذلك الدائر لا سفل له، بل هو العلي من دوائر التدبير وهو المنتهي حيث انتهى.

بيان:

قال الله - عز من قائل: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤] ويمكن أن يكون المراد بهذا الدائر ما تقدم ذكره الذي إليه تنتهي الدوائر كلها، المجعول آية عليه هذا الدائر دون سماء الدنيا الجامع لما ضمه من الدوائر سواه وشمله حركة وأمرًا، ويمكن أن يكون بعض دوائر ما دونه والله أعلم، لكن ذلك الدائر الأعلى دورانه في ذاته كدوران أصغر الدوائر القريبة من المحور وسمي: محورًا؛ لأنه به يحور الأمر وترجع أواخر الحكم على أوائلها.

وقد تقدم أن حركة الدوائر مركبة من حركة وسكون؛ فلأجل ذلك كانت حركتها استدارة حول الوسط، توصيل ذلك أن الحركة هي عبارة في الدوائر عن الخلق، والمسمى فيها بالسكون عبارة عن الأمر، ووجود ذلك الأمر المشابه للسكون موجود عن اسمه الدائم[1]. جلت أسماؤه وتعالت صفاته - فهو بما هو لا

---

(١) قال المصنف: اسمه الدائم ﷻ يقال من ذلك: دام يدوم دومًا وديمومة فهو دائم، وهو من أسماء القدم كاسم الباقي والقائم على بعض وجوهه، واسمه الأول، غير أن اسمه الباقي يشير إلى اسمه الآخر ببعض معانيه، وكذلك قالوا: هو الباقي بعد فناء المخلوقات، وجاء دائم وقائم وباق على بناء اسم الفاعل دلالة على صفات هي الدوام والبقاء والقيام، فهو إذن الدائم بدوام هو صفته، وكذلك الباقي والدائم، وكل دائم سواه وباق وقائم وباق على بناء اسم الفاعل دلالة على صفات هي الدوام والبقاء والقيام، لذا فهو الدائم القائم بدوام هو صفته، وكذلك الباقي والدائم، وكل دائم سواه، وباق وقائم فإبقاء وأدامه وإقامة من القائم الدائم الباقي الحق سبحانه وله الحمد.

وحقيقة الدوام اللزوم والثبوت على حالة واحدة، وأسماؤه وصفاته الأصل الذي عنه انتُزع كل معنى، وإنما شرحنا تقريب المعاني وتفهيم الأغراض، والعلة في ذلك قصورنا عن معرفة حقائق الأسماء في معانيها، وجهلنا بما انتزع منها الأقرب فالأقرب، فربما سبق إلينا أو إلى البعض المنتزع إلا بعد قبل الأقرب، فقربنا بالشرح بألفاظ قد سبقت إلى أفهامنا هي أقرب إلى ما أردنا شرحه أو نظن بها ذلك، فيتطرق مع ذلك إلى ما حاولنا بيانه بعض الإلباس على قوم دون قوم، لكن ضرورة ما ذكرناه دفعت إلى ذلك، فهو الباقي ﷻ والدائم =

يتحرك، ولما أجله في مخلوق تحرك بما هو مخلوق وسكن بما هو دائم لا يجوز عليه التغيير وأولى أسمائه في وجود ذلك المحور تحور المتحركات إليه، فهي عنه تنبعث وإليه تحور.

وحقيقة ذلك المعنى: في الجملة ليس بمتحرك ولا يجوز عليه وصف الحركة، وقد تخلل الجملة بذلك الأمر وشمله شمولاً واحدًا، فلذلك كان وجود سجود الدوائر عودها إليه وبدؤها عنه، وليست في حال ولا موضع هي أحق بوصف السكون والحركة منها في غير ذلك الحال والموضع، فهي لذلك أبدًا ساجدة جارية عابدة قانتة، وكذلك حكم كل ما أحاطت به وشملته، فاقض بذلك على ما تقدم في صدر الكتاب من وصف الجملة إنما هو أمره وخلقه، والمخلوق إنما قيامه بالأمر والأمر إنما قيامه به ﷻ **﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾** [هود:١٢٣] **﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾** [الأعراف:٥٤].

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥].

فالتضرع ظاهر في مقابله، والخفية باطنة في مقابلة وجود الأمر وكذلك قوله: **﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾** [الأعراف:٥٦] باطن لباطن وظاهر لظاهر.

توصيل: قد تقدم من وصف التوصيل ما يشرف بذوي الألباب على حقيقة الصواب، وكذلك قد مضى فيما تقدم من جريان صنعه إلى المصنوع إيجادًا وإفناءً كجريان الماء إلى صببه بل أسرع إسراعًا من ذلك دون توهم نسبة، حتى يعبر عن ذلك الإمساك.

قال الله - عز من قائل: **﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾** [فاطر:٤١] وحتى قد تظن العقول أن ظاهر ما تقع عليه الأبصار من استصحاب دوام يكون لها وبقاء، وقد أكذب الله ظاهر الظنون بقوله الحق: **﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾** [النمل:٨٨].

يقول - عز من قائل: على هذا أتقن كل شيء ونصب صنع لما فيه من التمدح

=

والقائم على صفات الألوهية ومعاني الوحدانية والربوبية وشاكلة الصمدانية والقيومية. [شرح الأسماء ١/١٤٤].

والتعجيب، كيف لا يكون معجبًا وهو ممسك أبدًا مساك أبدًا يجري إليه التدبير إعدامًا وإيجادًا أسرع من إدراك الأبصار؟! على هذا أتقن كل شيء، كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح، كل يجري إلى أمره بأمره، فمنه ما هو ظاهر الجري باطن السكون، ومنه ما هو ظاهر السكون باطن الجري **﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾** [الأعراف:٥٤] فهذا توصيل آخر ولقد كان يكفي أحدهما لمن به حياة.

توصيل آخر:

قد تقدم من ذكر دوائر الجملة ومجاري الأمر وإحكام ذلك في معاقده ومعاطفه وفنون الموجودات ظاهرًا وباطنًا لموجدها وعبادتها لبارئها، وإلى هذا فاعلم أن العرش العظيم فوق كل شيء سواه، وفي كل سماء عرش والله ﷻ وتعالى علاؤه فوق العرش مستوٍ **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** [الشورى:١١] فهو مع كل شيء بما هو، ثم هو مع الواحد بما هو، ومع الاثنين بما هما، ومع الجميع بما هم من حيث هم بمعنى القيام والقيومية، والإيجاد كله هو معهم أينما كانوا بما هو من حيث هو هو غير مفارق العرش ولا مباعد للمعية بقرب لا أقرب منه حضورًا ومشاهدة ومعية بما هو، وهو بعيد عنهم ببعد لا أبعد منه نزاهة وعلاءً وقدسًا لا يجوز عليه الحلول في المحال ولا تصرف الزمان ولا حوالة الأحوال، بل لهم المكان والزمان والأحوال، وله العرش مستوى ومكانة وعلوًا، ينزل الأمر بالروح يدبر الأمر يفصل الآيات **﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾** [يونس:٦١].

توصيل آخر:

وقد تقدم فيما مضى أن كتابه يصعد بالإعلام إلى المشاهدة وإلى مشاهدة هي له لا توجد إلا له سبحانه وله الحمد، آية ذلك الكتاب تجده لا تعرف أنت ما فيه فتنشره وتقرؤه فتعلم منه ما لم تكن قبل علمته، فبحسب ذلك فاقض على إعلام كتابه وعلى علمه وكتابه بالمشاهدة العلياء والعلم الأرفع، فلو لم يكن - جل ذكره

- مشاهدًا لجميع خليقته إلا بمشاهدته اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة، بل أثبت فيه علمه في الخلائق، لكن هذا القدر لنا كافٍ في اليقين بمشاهدته المحيطة ومراقبته العليا، وكما يعلم نفسه كذلك يعلم كل شيء من ذاته، آية ذلك: ما شاهده المعتبرون من ظهور جميع الموجودات من مقتضيات أسمائه.

قوله ﷻ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي: عما جئتهم به من الذكر ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣] وذكر ما أصاب هؤلاء وهؤلاء لما عصوا وجحدوا آيات ربهم وكذبوا رسله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣].

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت: ١٥ - ٢١].

قوله - جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩] عطف بالواو في قوله: ﴿وَيَوْمَ﴾ وهو اليوم الآخر على يومهم الذي أصابهم فيه عذاب الدنيا، إشارة منه إلى أن لهم عذاب الدنيا وسوء المصير في الآخرة - نعوذ بالله من ذلك الوازع المانع - يحث آخرهم حتى يلحق بأولهم، ويمسك أولهم على آخرهم.

قال - جل من قائل: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٠] ولم تشهد عليهم شواهد هي منهم إلا بعد إنكار منهم.

ثم قالوا لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت:٢١] فأخبرنَّ عن قهر الله لهن بالنطق، وأقمن على ذلك من قولهن دليلين:

أحدهما: أن الله جبرهُنَّ على النطق كما جبرهم على إيجادهم أول مرة، وكان في ذلك تبكيتًا لهم وإسكانًا لوقوع الحجة عليهم فيما كفروا به من الإيمان بالإعادة بعد البداية.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [فصلت:٢٢ - ٢٨].

ثم أردفن بحجة ثالثة في قولهن: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت:٢٢] أيّ: لم يكن بكم قدرة على الاستهتار منهن ولا من الله - جل ذكره - ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرًا مما تعملون، أخبر ﷻ أن جهلهم بربهم كان أشد عليهم من عصيانهم إياه؛ يعني: فانهمكتم في شهواتكم وتماديتم في كفرانكم لكاذب ظنكم به أنه لا يعلم ما تعملون ولا يقدر على إعادتكم بعد الموت؛ فأصبحتم لذلك من الخاسرين.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت:٢٤] المستعتب هو: الطالب للعفو، والمعتب هو: صاحب العفو، هذه الآية كشفت عن معرفة أصحاب النار في عظيم ما أصابهم من سوء مصيرهم وهول منقلبهم كقولهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:٢١] وكقوله: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور:١٦].

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله - جل من قائل: أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن ما شاء**»[1] فمن ظن بربه أنه لا يعلم سره وعلنه، أو أنه لا يقدر على إرجاعه إليه بعد الموت، أو أنه لا ينفذ ما شاء إنفاذه، أو أنه يعجزه شيء في السماوات وفي الأرض أو فيما علا أو سفل فذاك هو الظن المردي، ومن ظن أنه يلاقي الله؛ أي: علم ذلك وأنه محاسبه وأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم ومحيط وعلى كل شيء شهيد، وآمن بما له من الصفات العلا والأسماء الحسنى؛ فذلك من كبير حسن الظن بالله، فإن وفق هذا العبد إلى أن يعمل على ذلك فمصيره لا محالة إلى خير مصير، وربما ذل أو خلط فرجاؤه في الله - جل ذكره - ما يتلقاه من أسمائه وصفاته ﷻ.

وذلك أن المعلوم منه أنه «العفو الكريم» يحب العفو والكرم ويأمر به ويحض عليه، ويحب المغفرة وحسن التجاوز ويأمر بذلك ويجازي عليه، ويحب ذلك ويحث عليه ويحب إقالة العثرات والصفح، ويحب كشف كرب المكروبين ووضع الحقائق عن الذين ألزموها وافتقروا إلى وضعها عنهم، ويحث على إغاثة الملهوفين ونصر المستضعفين، ولا فقير أفقر يوم القيامة ممن لم يعبد ربًّا سواه، ولا عول في شأنه على شيء حاشاه، إلى غير ذلك من كريم صفحه وحسن معاملته وكريم فعاله، وهذا هو الذي تلقى من ربه كلمات فإن الله يتوب عليه برحمته إنه هو التواب الرحيم.

قوله ﷻ: ﴿**وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ [فصلت:٢٥] هي الآخرة وما بين أيديهم هي الدنيا، زينوا لهم شهواتهم والعمل بالهوى، ووعدوهم في الآخرة بحسن المآب على ما هم عليه من عصيان، وخلاف الأمر هذا في الملِّي، أو زينوا لهم إنكار الآيات والتكذيب بها والكفر فحق عليهم القول، فدخلوا النار في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس، والقول الذي

---

(١) تقدم تخريجه.

حق عليهم، قوله: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»(١).

وقد تقدم القول في القرناء من الجن والإنس، وأن العبد إذا أصلح أصلح الله قرينه الجني والإنسي، وربما أبدله الله قرناء خيرًا منهم، وذلك من بعض ما يثبته الله من بركة صلاحه، كما أنه إذا أفسد عاقبه الله بأن يوليه قرناء فاسدين مفسدين، يزينون له ما هو فيه ويغبطونه بحاله، ويغطون على مراشده ويحجبونه عنها، ويعدونه عن ربه بالمغفرة والمآب الحسن دون توبة حتى يأتيه الموت فيحق عليه القول.

قال رسول الله ﷺ: «**ما من أحدٍ إلا ومعه القرين**» قيل له: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فهو لا يأمرني إلا بخير**»(٢).

وكل من أسلم أسلم معه قرينه، وتلك بركة إسلامه وتوبته، وعلى قدر إيغاله في الصلاح وحسن السيرة يكون قرينه، وبالضد فالإنسان إمام لقرينه وقرينه مأموم، وهو متبوع قرينه وقرينه تابع، ذلك عن إثارة قوله - جل من قال: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ**﴾ [البقرة:٣٤] وربما كان الأمر إذا فسد الإنسان بعد صلاح استغفاره قرينه الصالح فأعفي منه وقيض له قرين فاسد مفسد، كما قال - عز من قائل: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾ [الزخرف:٣٦].

أتبع ذلك ذكر ما يبلغه إليه تزيينه في قوله: ﴿**وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الزخرف:٣٧].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني (١٠١٧).

وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت:٢٩ - ٣٣].

قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا**﴾ [فصلت:٢٩] ذكر أهل التفسير: أنهما إبليس وقابيل ابن آدم؛ إذ إبليس هو أول من سن الخلاف والإباء والكفر، وقابيل أول من سن القتل، وأرى - والله أعلم - زائدًا إلى هذا أن قولهم: ﴿**اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا**﴾ إشارة إلى جنسين هما من الجن والإنس، وهم كبراؤهم وساداتهم من الإنس وقرناؤهم من الجن، وكل ذلك جائز كائن، والوجه الأخير أخص بالمعنى وأمس بكل مكلف.

قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [فصلت:٣٠] يعني: على دين الإسلام هو الدين القيم، أخبر الله عنهم بأن ﴿**لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [يونس:٦٢] وهذا خطاب منتظم معناه بمعنى ما تقدم من ذكر القرناء، فإنه لما ذكر قرناء السوء ذكر أهل الصلاح وقرناءهم من الملائكة - عليهم السلام - تتنزل عليهم البشرى من ربهم والتأمين لهم من الحزن والخوف، يقولون لهم: نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا الذين كنا نوقظكم من نومكم ونلهمكم مراشدكم، ونأمركم بالخير ونكره إليكم الشر وفعله، ونحن أولياؤكم لذلك في الآخرة نبشركم بما لكم عند ربكم من خير وحسن منقلب ﴿**وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ....**﴾ [فصلت:٣٠] هذا في الموت وفي حال عَلَزِه[١]، وفي البرزخ، وفي حال الحشر، وعند معاينة أهوال ما هنالك.

قال الله - جل من قائل: ﴿**لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ**﴾ [يونس:٦٤].

ومن ذلك أيضًا: أن يروهم الرؤيا المبشرة بإذن ربهم، فقد قال رسول الله ﷺ في تأويل هذه الآية: «**إنها الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له**»[٢] والحاصل من

---

(١) العَلَزُ والعَلَزَانُ: شِبْهُ رِعْدَةٍ تَأْخُذُ المَرِيضَ والأسيرَ والحَرِيصَ. وهو الضجَرُ أيضًا. انظر: المحيط في اللغة (١/٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٠٠) وابن أبي شيبة (٣٠٤٥٦)، ومسلم (٤٧٩) وأبو داود (٨٧٦)، والنسائي (١٠٤٥)، وابن ماجة (٣٨٩٩) وابن حبان (١٨٩٦) وابن الجارود (٢٠٣)، وأبو عوانة (١٨٢٢).

مفهوم الخطابين أنه كما إذا فسد العبد قرن به قرين فاسد مفسد يلهمه السوء ويزينه له، ويكون القرين من الجن ومن الإنس معًا، كذلك إذا صلح العبد قيض الله قرينًا صالحًا من الإنس وقرينًا من الملائكة، وشتان ما بين قرناء السوء، وقرناء الصالحون ينفعون في الدنيا وهم في الآخرة أعظم نفعًا، وقرناء السوء يضلونهم في الدنيا ويلعنونهم من حين الموت إلى ما وراء ذلك ﴿وَرُدُّوا إلى الله مَوْلاهُمُ الحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٣٠].

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت:٣٤] هذا كلام قائم بنفسه مفهوم معناه من ذاته، أن الحسنة لا تساويها السيئة، وربما عدل بالفهم عن ظاهرها إلى ما انتظمت به من جهة المجاورة، فتكون الحسنة والسيئة القرين الصالح والقرين السوء، فما يأمر به القرين السوء يدفع بالصبر وفعل ما يضادها من الخير، فيكون أمرًا منه لعبده المؤمن بالمجاهدة لنفسه والصبر لله، فإذا فعل ذلك فيكون قوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤] وعدًا من الله صادقًا أن يصلح لك قرينك ثوابًا لجهادك إياه وجهادك نفسك في الله، يقول: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ هو الشيطان يصلح الله أو يبدله فيكون لك ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

ثم أعظم قدرها من خصلة ورفع من شأنها بقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ يعني: الصبر والمجاهدة ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1] [فصلت:٣٥] وهم

---

(١) بيّن الله سبحانه ألا يبلغ أحدٌ إلى درجة الخلق الحسن وحسنات الأعمال وسيئات الأفعال =

الأنبياء والصديقون، ثم من دونهم على درجاتهم.

قال رسول الله ﷺ: «**أعانني الله عليه فأسلم، فهو لا يأمرني إلا بخير**»[١] وقال الله سبحانه: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ [الحجر:٤٢] الأعلى فالأعلى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم على درجات.

أتبع ذلك ما هو تتميم له قوله: ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِالله إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾[٢] [فصلت:٣٦] في المفهوم من هذا الخطاب أن الشيطان لا بد له من عارض يعرض له لينظر هل له سلطان على هذا العبد أم لا؟ ونزغاته في عارض من شك أو قدح في أصل أو ينقص بعظيم، وما لا يكاد القلب أن يسمح

=

إلا من يصبر في بلاء الله وامتحانه بالوسائط وغير الوسائط، ولا يحتمل هذه البليات إلا ذو حظٍّ من مشاهدته وذو نصيبٍ من قربه ووصاله، صاحب معرفة كاملة ومحبة شاملة، وكمال هذا الصبر الاتصاف بصبر الله، ثم الصبر في مشاهدة الأزل، فبالصبر الاتصافي والمشاهدة الأبدية والحظ الجمالي يوازي طوارق صدمات الألوهية وغلبات القهارية. قال بعضهم: لا يطيق أحدٌ الهجوم على المعارف إلا من يصبر على احتمال النوائب والشدائد فيها، ولا يرى لنفسه قيمةً، ولا لروحه خطرًا؛ إذ ذاك يسكنه مجاورة المعارف والهجوم عليها. وقال ابن عطاء: لا يوفق لجميل الأخلاق إلا الصابرون على خفض الخلاف.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، وهو أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه، ليرده عنه طبعُهُ الطَّيب الأصل إلى الموادة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانًا، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل، كما قال تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ**﴾ [الأعراف:٢٧] وقال: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [فاطر:٦] وقال: ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا**﴾ [الكهف:٥٠] وقد أقسم للوالد إنه لمن الناصحين، وكذب، فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [ص:٨٢ - ٨٣] وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [النحل:٩٨ - ٩٩]، قالت طائفة من القراء وغيرهم: «نتعوذ بعد القراءة» واعتمدوا على ظاهر سياق الآية، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة، وممن ذهب إلى ذلك حمزة فيما ذكره ابن قلوقا عنه، وأبو حاتم السجستاني، حكى ذلك أبو القاسم يوسف بن علي بن جُبارة الهذلي المغربي في كتاب «الكامل» [انظر: تفسير ابن كثير (١/١١٠)].

بذكره، وكل ذلك يعرف بالوسوسة يعرض ذلك لأهل الغلبة أكثر مما يعرض لأهل العموم، فدواء ذلك التذكر والتعوذ بالله والانصراف عن تلك الوجهة بالقلب والوهم، والاشتغال بقراءة القرآن والذكر لله.

قال الله - عز من قائل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾** [الأعراف:٢٠١ - ٢٠٢].

أتبع ذلك قوله الحق: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾** [فصلت: ٣٧] **الليل** آية على الكفر والضلال والجهل والعمى وإله باطل وعلى الفتنة، والنهار آية على الإيمان والهدى والرشد والعلم والنصر والإله الحق تبارك وتعالى وعلى العاقبة، والشمس آية على الله ﷻ نورًا وهداية، وبما جعل الله سبحانه وله الحمد فيها وبها من منافع العباد وضياؤها يطرد الليل، والقمر آية على الله - جل ذكره وتعالى علاؤه وجده - نورًا وهداية وبما جعل الله فيه من منافع العباد ودلالات على مقدار ذلك، فبأيما دلالة اعتبرت أوصلتك إلى المدلول عليه - جل ذكره - من تلك الجهة.

قد تقدم من الكلام فيما هذا سبيله ما فيه بيان وهداية إن شاء الله، وفيها - أعني: هذه المذكورات - زائدًا إلى ما تقدم ذكره ما ينتظم ذكره ومعناه بمعنى ما تقدم من ذكر القرين، وذلك أنه كما لا يخلو ساكن دار البلوى من ليل ونهار وشمس وقمر، كذلك لا يخلو مادام فيها من هداية وفتنة ومن ذكر وغفلة، لكن الجازم يفزع من معنى الليل وظلمته إلى النهار وضيائه، وكما أن في الوجود **الشمس** يصلح الله بها ما يملؤه القمر ويزيد فيه، ويصلح بالقمر ما تجحف به الشمس وتفرط حرارتها به، فيجتمع بذلك صلاح العالم، فكذلك أعمال العباد في سبل قرنائهم حسناتهم تحسن وخيراتهم تتأكد بالفتنة إثر الذكر وبالذكر إثر الفتنة.

قال الله ﷻ: **﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾** [فصلت:٣٤] لذلك قال رسول الله ﷺ: «**صل من قطعك** وأعط من حرمك»[1] فعلى هذا تزكو الأعمال **﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ**

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٧٢).

طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١] كذلك يتعاقب الليل والنهار ويغشيان أحدهما الآخر صلح عيش العباد، والضد يظهر حسنه الضد، ولما كان الشمس والقمر من آيات الله المعرفة به المشيرة إليه في وجود الدنيا والآخرة، حذر من السجود لهما واعتقاد عبادتهما، كما أعضل بقوم هذا الداء فهلكوا.

يقول الله ﷻ: ﴿**فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا**﴾ أي: عن السجود لله - جل ذكره - والعبادة له ﴿**فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ**﴾ [فصلت:٣٨] أي: قد يأت منابهم من هو أسعد بذلك منهم وتقي معنى الوعيد والتهديد متوجهًا إليهم.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**﴾ [فصلت:٣٩] هذا من ذكر الآيات، والتي قبلها منتظم بذكر ما افتتح به السورة إلى قوله: ﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا**﴾ [فصلت:٩] المعنى إلى آخره.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت:٣٩ - ٤٣].

ثم قال: ﴿**إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمُوتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [فصلت:٣٩] هذا نص منه ﷻ على مدلول هذه الآية، ومقتضى هذه الدلالة وما ينتظم بما اتصل به من ذكر القرين: أن يجعل الذكر والعلم بمكان الماء، والغفلة والجهل موضع الموت، والنفس من العبد موضع الأرض، فتموت النفس باستيلاء قرين السوء عليها وتخشع لذلك وتهمد، فإذا فزع إلى التذكر والذكر حيي واهتز بالفلح والفرح بالله وذكره واطمأن، فكان من ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد:٢٨].

والقرآن هدى للذين آمنوا وهو للذين لا يؤمنون بالضد؛ لأن ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ عن سماعه ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت:٤١] المعنى هذا منتظم المعنى بالتنزيل المذكور صدر السورة وبخاصة بقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي﴾ [فصلت:٩] إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ [فصلت:١٣] ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت:٤١] أي: ممتنع محفوظ ﴿لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢] صدقته الكتب قبله ولا يبطله في المستقبل مبطل.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] لذلك أتبع بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] والتنزيل هو: التقريب والتفهم والتيسير.

قال الله - جل من قائل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] فالروح من أمره وهو الحق، والقدس صفته وهو الحق، والملك حصوله وهو الحق، فكل ذلك حق من حق إلى حق وللحق ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] فأي سبيل للباطل عليه؟ جل كتاب الله عن ذلك، إنه لكتاب عزيز.

وأمَّا قوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢] والقرآن لا يوصف بأن له وراء ولا أمام؛ إذ هو كلام الله وكلامه صفة له، فإنه ليس بمنكر عند أولي النهى العبارة عن معاني هذه المعالي بعبارات تشبه عبارات الظواهر مجازًا واتساعًا، ويقام ذلك مقام الحقيقة، كقول رسول الله ﷺ: «ليس وراء الله مرمى»[1].

وقال الله - جل من قائل: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ المُنتَهَى﴾ [النجم:٤٢].

وكقوله - جل من قائل: ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر:٤١] ولا بعد له، فكذلك مفهوم هذا الخطاب مع ما تقدم من التوجيه فيه قبل هذا.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١٦٣٤).

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨)﴾ [فصلت: ٤٤ - ٤٨].

قوله سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم متى تكون على التحديد والتحقيق للحين سواه ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى﴾ [فصلت:٤٧] أي: قبل شعور حاملته به، كقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد:٨] ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فصلت:٤٧] أي: أنه يعلم ما تضع من ذكر أو أنثى صحيح سليم أو غير سليم تمام أوجد، ومتى وأي حين على التحديد والتوقيت، ونظيره هذه في سورة «الأنعام» وسورة «فاطر» فتبًا للمبطلين القائلين بأنه يعلم الجمل ولا يعلم التفصيل، تعالى الله عن أباطيلهم وقبح افترائهم.

قوله سبحانه وله الحمد: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ فيجيبه المعبودون: ﴿آذَنَّاكَ﴾ بمعنى: أسمعناك وأعلمناك؛ أي: قبل هذا تبرأنا إليك من عبادتهم ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾[1] [فصلت:٤٧] لهم بما ادعوه.

---

(١) قال تعالى: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ فيه وجوه: الأول: ليس أحد منا يشهد بأن لك شريكًا، فالمقصود أنهم في ذلك اليوم يتبرءون من إثبات الشريك لله تعالى. الثاني: ما منا من أحد يشاهدهم؛ لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم لا يبصرونها في ساعة التوبيخ. الثالث: إن قوله: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ كلام الأصنام فإن الله يحييها، ثم إنها تقول: ما منا من أحد يشهد بصحة ما أضافوا إلينا من الشركة، وعلى هذا التقدير فمعنى أنها لا تنفعهم فكأنهم ضلوا عنهم. [تفسير الرازي (١٣/٤٠٤)].

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ [فصلت: ٤٩ - ٥٤].

قوله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ**﴾ [فصلت:٥٣] هو ما أراهم من الفتح للمؤمنين فيهم، وما أراهم من الآيات الدالة على الوحدانية ومعالم الآخرة في السماوات والأرض وفي أنفسهم، كفعله في قريظة والنضير وخيبر كلها واليمن وغير ذلك من البلاد، وفي أنفسهم من الجوع كالسبع الشداد التي دعا بها رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - في قوله: «**اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف**»[1] وكهزيمة بدر وهوازن، وقتل صناديدهم وأسر كبرائهم وهجرة أكثرهم إلى المدينة حتى بقيت بعض منازلهم بمكة تصفق الرياح أبوابها، وما نهكتهم الحرب حتى جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ وناشده بالرحم أن يدعو ربه في التخفيف، وأن يكف عنهم من شد منهم من المسلمين كأبي نصير وأبي جندل ومن شايعهم على أمرهم، وحتى قال أبو سفيان: سحر يوم الفتح، وقد قال له رسول الله ﷺ: «**ألم يأن لك يا أبا سفيان أن تعلم أنه لا إله إلا الله**»[2] فقال له: ما أبرَّك وأوصلك وأرحمك، أما أنه لو كان بها إله سواه لقد أغنى وأسلم حينئذٍ.

وقال ابن الزبعري في كلمة طويلة له:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٤).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٧١١٥).

يا رسول المليك إن لساني راتق ما فتقت إذ أنا بور

ولما فتح مكة واستدعى مفاتح الكعبة وأخرجت الأصنام منها ثلاثمائة وستون نُصبًا وفيها صورة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وفي أيديهما الأزلام، قال: «**قاتلهم الله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها يومًا قط**»(١) ثم وقف بباب الكعبة - صلوات الله وسلامه عليه - وقد جمعت قريش له كبراؤها وصغارها، فقال لهم بأعلى صوته: «**ما تروني صانعًا بكم**» قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»(٢) وأسلم من حضر ورجع إليه من فر عنه وتبين لهم أنه الحق هذا وعده الحق وصدق كلمته الصدق والحمد لله رب العالمين.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ لما تهددهم بقوله: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ [فصلت:٥٣] يعني: الرسول والقرآن.

يقول - جل من قائل: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ**﴾ أي: يعلم ربك يقينًا بما أخبر وشاهده عدل وصدق بما تقدم كونه وبما هو مستقبل مما هو كائن، فهو يعد على ذلك ويوعد من مرغوب ومرهوب كشف عن ذلك بقوله: ﴿**أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ**﴾ هذا أعظم المرغوب وله ما بعده ﴿**أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ**﴾ [فصلت:٥٤] هذا المرهوب.

وينتظم أيضًا قوله هذا: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت:٥٣] بمعنى قوله الحق ﴿**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ**﴾ [فصلت:١٩ - ٢٠] وهنا محذوف جحدوا وأنكروا أعمالهم، وأنهم كانوا كافرين فيشهد عليهم ﴿**سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا**﴾ [فصلت:٢٠ - ٢١] المعنى إلى آخره حتى أن الشقي ليقول: بعدًا لكم وسحقًا فعنكن كنت أناضل.

قال الله - عز من قائل: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾

(١) أخرجه البخاري (١٦٠١).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٨٧٣٩).

[فصلت:٥٣] تتميمًا لقول الجوارح: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت:٢٢] إلى آخر قولها: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ [فصلت:٥٤] تتميمًا لقول الجوارح: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت:٢١] نظم به لعلمه بأنه كائن لا ريب فيه، هذا يوعد ويعد وينبئ فيكون ذلك في المستقبل على أحيانه مخرجًا في التقدير على مقادير آياته، فقد كان ما قدمنا ذكره وما لم نذكر أكثر أضعافًا مما ذكرناه، ثم ما كان بعده من آياته في الأفاق وفي أنفسهم من فتحه المشارق والمغارب ونواحي الأفاق، وفي مطلع الشمس ومغربها والقبول والجنوب، ودخول الناس في الدين أفواجًا، واستسلام الاجناس لدين الإسلام لما تبين لهم أنه الحق، ثم نحن الآن من ذلك في منتظر لتتميم الدين كله ولو كره الكافرون.

فقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣] خطاب لرسوله ﷺ ولأفراد أمته الغابرين الذين يرون آياته هذه في الأفاق وفي أنفسهم ويتبين لهم بذلك أنه الحق ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣] فمن أيقن من المؤمنين بأن الله على كل شيء شهيد فحسبه مشاهدة ربه إياه، ومن بُغي عليه لينصرنه الله، وليكتف العبد بربه وليتوكل عليه وليكفه علمه به؛ إذ بلغه إلى معرفته حسبه ذلك منه حتى يأتي الله بأمره، فهذا زائد إلى ما تقدم ذكره تأنيس للمؤمنين منه بمشاهدته إياهم، وهو وعيد في جنبة الكافرين، كما قال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿لَا تَخَافَا﴾ أي: غيري ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦].

كذلك اسم المحيط وعد للمؤمنين بالفتح والنصر، وإعلام لهم بأن ربهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وسع كل شيء قدرة وعلمًا ومشيئة، وهو أيضًا وعيد للكافرين يعلم بذلك أن هربهم منه إليه وطريقهم وحسابهم عليه، والمرية: من التماري الذي هو الشك وهذا الشك وقع بالكافرين في لقائه ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت:٥٤] ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:٣١] نسأل الله البر الرحيم إيمانًا صادقًا، ويقينًا تامًا، وزادًا مبلغًا إليه، ورضًا ورضوانًا منه، إنه حليم كريم.

تفسير سورة الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشورى: ١ - ٧].

قوله - جل من قائل: ﴿حم * عسق﴾[1] [الشورى: ١ - ٢] قد تقدم الكلام في

---

(١) هذه الأحرف رمز الله مع حبيبه ﷺ، يخبره بهنّ ومن كان أهله من سرّ الذات والصفات والأفعال، الحاء رمز الحياة الأزلية، والميم رمز محبة القديم، والعين رمز عينية ذاته وعلمه القديم وعيانه لأهل العيان، والسين رمز سرّه وسرّ سرّه وغيبه وغيب غيبه وسنا سبحات وجهه وكشفه لأهل الكشوف، والقاف عن قديمية وجوده، وقوله القديم الذي منه بدأ العالم، وآدم بالحاء الحياتي، أحيا قلوب العارفين حين تجلت منها حياته لها، وبالميم المحيى بملك الأرواح المحبين بحلاوة محبته، التي برقت سناها في عيونها، ثم بسرّ الحرفين ورمز النعتين حمى أسرار الواصلين عن خطرات الريب، وكاشف لها أسرار الغيب، ومن العين عاين ذاته وصفاته للعالمين به وبأوصافه ونعوته، وبالسين سار سنا برق سبحاته في أسرار السابقين، وبالقاف ظهر قاف كبرياء قدم ذاته وقيوميته صفاته للقائمين به في قربه عند ظهور قيامه عليهم، وافهم أن الحروف على أوائل السور رموز الحق، أخفى أسرارها عن غير أهلها، ثم أخفى من تلك الخفيات هذه الأحرف على أوائل هذه السورة بأن رفع عن السين نقوش الشين، فأراد بالسين الشين وبيان ﴿حم﴾ عشق أي: يحيى الأزلي، وجمال الأبدي عشق العاشقون، وأنا عشيقهم، وبرمز العشق أخاطبهم، حتى لا يطّلع على أحوالها أهل الرسوم فيهلكوا، لأن من بين العاشق والمعشوق ارتفع حشمة الربوبية وكلفة العبودية في مقام المشاهدة، ثم أقسم الحق بهذه النعوت أي: بحياتي يا حبيبي ومجدي وجمالي وملكي =

هذه الحروف وأنها واسطة بين حروف أم الكتاب وحروف القرآن والله أعلم، وهي عبارة وحي وصفة لتنزيل القرآن، ووصف لما هنالك من العلاء والعظمة، ومن توصيل الوحي وتفصيله، وإيصال الوحي إلى قلوب الأنبياء، والفهم إلى قلوب المؤمنين لو عبر عنها بعبارة ظاهرة لبدا من سر الإيحاء ما لم يشأ الله إبداءه، نظم ما هو تنزيل له وتبيين قوله: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ وقرئ ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الشورى:٣] اسمه الله رفع إما على القراءة الأولى: فلأنه فاعل الإيحاء، وعلى الثانية: فعلى الإعلام بأنه ﴿اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٤ - ٥] هذا منتظم بما في قوله: ﴿حم * عسق﴾ [الشورى:١ - ٢] من معنى تتفطرن من فوقهن؛ أي: من عظيم العظمة والجلال والكبرياء والعزة، فتكاد أن تتفطرن لما يرد عليهن من علو.

﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ هذا كله من تسبيح الملائكة وتحميدهم واستغفارهم لمن في الأرض لما يشاهدونه من عظمة ذي الكبرياء وجلال ذي الجبروت، فعيشهم في التسبيح والتحميد الليل والنهار لا يفترون، وذكر الليل والنهار فيما هنالك على المعهود فيما هاهنا وإلا فليس عند ربكم ليل ولا نهار، وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٥] لم يشأ الله ﷻ كون شيء إلا وقيض ملائكة من عباده يشفعون في كونه، وكذلك في إبقاء ما شاء إبقاءه وإعدام ما شاء إعدامه، فقيض - سبحانه وله الحمد - ملائكة السماوات

=

ومحبتي لك والأولياء أمتك يا محب يا محمد، وبعلو شأني وعلمي المحيط وعزي وعياني، وخلقي يا عارف يا عالم يا عالي الهمة يا عزيز، وبسنائي وقدسي وسرمديتي، وسبق وجودي على كل شيء، يا صاحب سري، ويا سبَّاق كل سابقٍ بالشرف والفضل والتقدم، ويا سبَّاح بحر قدسي وأنسى ومقدمي وقيوميتي وقيامي على كل شيء، وبقولي الحق، وبقدرتي القديمة، وبقضائي وقدري، وبعشقي يا عاشقي، وبصدقي يا صادق، إن هذه الإشارة قد أشرتها إليك، كذلك أشرتها إلى أنبيائي قبلك وأوليائي وأهل خالصتي.

إلى الشفاعة لمن في الأرض يستغفرون لهم، لولا ذلك من لطفه ويسره في تشفيعه إياهم ما امتسكت الأرض، لكنه شاء إمساكها فهم يستغفرون لذنوب أهل الأرض.

والغفران منه على ضربين: غفران إمهال إلى الأجل المسمى، وغفران ذنوب، فلا يأخذ بها في الدنيا ولا في الآخرة، وإنما ذلك للمؤمنين إن شاء الله تعالى، وقد قيض أيضًا ملائكة هم حملة العرش ومن حوله؛ للاستغفار للمؤمنين والدعاء لهم، كل ذلك يجبر بعبادة الملائكة ما نقص من عبادة أهل الأرض، وأين يقع أهل الأرض من أهل السماء؟ مع أنه ما من شيء إلا يسبح بحمده هو اللطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم، وهذه أصول الشفاعة فلا تكن من الممترين.

قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ**﴾ [الشورى:٦] يقول، وهو أعلم: إن الملائكة يستغفرون لمن في الأرض؛ أي: في أن يمسك عليهم السماء والأرض أن تزولا، ويمسك عنهم أخذه لهم بذنوبهم، ثم قال: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ**﴾ [الشورى:٦] أي: لأعمالهم ليجازيهم، لم يقل: حفيظ لهم.

قوله ﷻ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾[١] [الشورى:٧] هذان نوعان من الوحي:

- حروف مقطعة محكمة مجملة غير مفصلة في أنفسها، بل فصلت فيما بعدها، أنزلها - جل ذكره - حروفًا في أوائل بعض السور، أتم بذلك إنزالها ولم يتم تنزيلها في أنفسها إلا تنزيلاً وتسفيرًا في إنباء الكتاب يفقهه أولوا الألباب، فنقول: ﴿**آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ**﴾ [المائدة:٥٩] كل من عند ربنا.

- **والثاني**: إيحاؤه إليه القرآن المحكم المفصل، فقال: ﴿**وَكَذَلِكَ**﴾ الكاف للتشبيه والمشبه به هو ما أوحاه إليه من سائر القرآن العظيم والقرآن الحكيم

(١) لأن كونه عربيًّا يليق بحال المنذَرين به وهم أهل مكّة ومَن حولها، فأولئك هم المخاطبون بالدِّين ابتداء لما اقتضته الحكمة الإلهية من اختيار الأمة العربية لتكون أوّل من يتلقّى الإسلام وينشره بين الأمم، ولو روعي فيه جميع الأمم المخاطبين بدعوة الإسلام لاقتضى أن ينزل بلغات لا تُحصى، فلا جرم اختار الله له أفضل اللّغات واختار إنزاله على أفضل البشر. [التحرير والتنوير (١٣/٨٤)].

والقرآن المبين ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ يعني: مكة وبحقيقة ما لزمها هذا الاسم؛ إذ إليها التوجه، فهي الإمام من هذه الجهة، وقيل: عنها دحيت الأرض ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يوم البعث والحشر والنشور فيه يجمع الله الأولين والآخرين، ويجمع فيه أهل السماوات مع أهل الأرض ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى:٧] الريب يكون بمعنى: الشك، وقد يكون بمعنى: الكذب، وقد ارتاب فيه من لم يؤمن به ولم يصدق بكونه.

قال الله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢] فلم يبقَ إلا أن يكون بمعنى الكذب، فتقدير الكلام وتدبر يوم الجمع لا كذب في قول من أخبر عنه أو أنذر به أو ما يكون في معنى هذا، ولا ريب عند أهل السماوات والمؤمنين من أهل الأرض وسائر الموجودات.

قال رسول الله ﷺ: «**ما من دابة إلا وهي مصيخة صبيحة يوم الجمعة إلى أن تطلع الشمس فرقًا من الساعة**»[1].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن

(١) أخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك (١/٣٧٧).

﴿يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى:٨ - ١٣].

قوله ﷻ: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ [الشورى:٩] انتظم هذا الكلام بمعنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى:٦] فالله هو الولي الحق ولي الخلقة وولي الولاية التي بمعنى الاختصاص.

قال الله جل ذكره: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة:٢٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ [الشورى:١٠] هذا أمر منه - عز جلاله - بالرجوع إلى كتابه ورسوله عند الاختلاف، وإنما يستصحب النظر والتفكر ما أصاب النبوة والكتاب، فإذا عدم ذلك فالرجوع إلى الله والرسول خير وأحسن تأويلاً، فمتى تشاركت الدلائل ووقع الاختلاف ولم يكن أحد الوجوه أولى بالصواب من غيره فليعدل في طلب المطلوب إلى نصوص الكتاب وظاهر الوحي.

كذلك يقول الله - جل من قائل - على لسان رسوله: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى:١٠] انتظم هذا بمعنى قوله: ﴿فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٩].

أتبع ذلك قوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ [الشورى:١١] تقدم الكلام في الفَطْر، يقول: جعل لكم من أنفسكم أزواجًا وجعل من الأنعام لها أزواجًا، وعطف على قوله: ﴿لَكُم﴾ لما جعل لنا فيها من الملك لها وله الحمد، كذلك فعل بكل جنس خلق أوله، ثم جعل من ذلك الأول زوجة ليسكن إليه؛ لذلك قال وهو أعلم: وجعل من الأنعام لها أزواجًا ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ يذرؤكم معشر العباد في أزواجكم جملاً فيهن واستقرارًا واستيداعًا، وفي الأنعام غذاء شرابًا وأكلاً منهن وكونًا عن ذلك.

ثم قال - عز من قائل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1] [الشورى:١١] هو ليس بذي

---

(١) قال المصنف: فالعلامة التي بينهم وبينه والله أعلم معنيان: أحدهما: توحيد مجرد وتنزيه مطلق يشمل معناه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١] والمعنى الثاني: لطيفة من لدنه إلى =

جنس ولا بمخلوق ولا محدث، ولم يتخذ صاحبة ولم يكن له ولد، ولم يكن له ولي من الذل ولا كفؤ ولا عدل، هو الكبير المتعالي عن نقائص المحدثات وشبه الموجودات، وهو السميع البصير، خص هاتين الصفتين بالذكر تذكيرًا بصفة الحياة والعلم، هو الحي لا إله إلا هو؛ إذ الحياة بها وجود الصفات والأسماء، فمعنى الكلام: له الأسماء الحسنى والصفات العلا على الكمال الأرفع والتمام الأقصى.

كان الفطْر بمعنى: الشق بوجه، يقال من ذلك: فَطَرَ ناب البعير كان الخروج والإخراج، كما قيل لبثور يخرج في وجه الغلام حين بلوغه: تفاطير، وكان إذًا حقيقة ما يسمى به بالفاطر؛ لأنه أخرج الأشياء من عدمها إلى وجودها، وقد كانت قبل موجودة في علمه وقدرته ومشيئته ولم تكن بذلك موجودة لأنفسها فأخرجها بقدرته إلى وجودها لها، فلذلك تنزه عن مشابهة الآباء والمراضع والأغذية، فإن لبن الرضاعة فطرة والأغذية مفطرة للصائم، والآباء مخرجون لأبنائهم بوجه ما حقيقة لا كسبًا، فعبر عن تبين هذا المراد بقوله: ﴿**فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ**﴾ [الشورى:١١] فكانت هذه آيات

=

بواطنهم تطمئن بها إليه قلوبهم بواسطة إيمانهم به. آية ذلك في الدنيا اللطيفة التي لم يقدروا معها أن يجهلوه، وهو ما فطر هو عليه من المعرفة، وكلما قلنا: فعلية من القرآن العزيز، وشواهد ظاهره وباطنه الحق من ربك ﴿**فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ**﴾ [آل عمران:٦٠] والمعرفة به والعلم من صفات الحق الموجود في جبلة العالم المفطور عليه، وكما ينشأ كل شيء فكذلك تنشأ ذوات بني آدم، ألا ترى إلى ضعفها اليوم في العاجلة وهي في الآخرة تحمل أهوال يوم القيامة وزلزالها وعذاب النار وسرور الجنة ونعيمها، وكما لا يلزم أن يعلم في ناحية ولا مقابلاً ولا بمحاذاة ولا محدودًا ولا محاطة به ولا متحيزًا ولا في مكان، وكذلك رؤيته ﷻ بل يرونه كما شاء، وإنما معنى العلم والمعرفة: مشاهدة معلوم ومعرفة معروف، هو موجود له وجود ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ**﴾ ومسمى له أسماء وموصوف له صفات مع مشاهدة إعظام وإكبار وإجلال لا يحاط بعلم ذلك الجلال، ولا يبلغ كنهه ولا يقدر قدره، يشاهد العالم به علم تقصيره عن ذلك وعجزه وحضره، ولولا لطف رحمته ورأفته، وبره وامتنانه، وعطفه وكريم قربه، وجميل رضاه وإحسانه في نزوله من عظيم عظمته وشموخ كبريائه، وعزة علائه إلى قلوب عباده ما استطاع أحد أن يعلم شيئًا من علمه، كما أنه وقد شاء نزولاً إلى قلوبهم لم يستطع أحد مع ذلك أن يجهله ﴿**وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ**﴾ [الروم:٥٤].

على صنعه المصنوعات ودلائل على فطره الموجودات.

قال الله - جل من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية...**»[1] كالمتغذين في الأغذية، والحيوان في الماء والنبات والحيوان، تنزه العلي الكبير عن مشابهة شيء سواه، بل هو السميع البصير، لم يزل يبصر المبصرين ويسمع المسموعين في أزل أزله، ليس كذلك من هو في عدمه ومسخر ليخرج منه ما اختزن فيه من خلق وأمر تبارك الله أحسن الخالفين.

أتبع ذلك ما هو في معناه، قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2]

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مفاتيحها كما قال ابن عباس، والحسن، وقتادة، وغيرهم فقيل: هو جمع لا واحد له من لفظه، وقيل: جمع مقليد، وقيل: جمع مقلاد من التقليد بمعنى الإلزام ومنه تقليد القضاء وهو إلزامه النظر في أموره، وكذا القلادة للزومها للعنق، وجعل اسمًا للآلة المعروفة للإلزام بمعنى الحفظ، وهو على جميع هذه الأقوال عربي، والأشهر الأظهر كونه معربًا فهو جمع اقليد معرب إكليد وهو جمع شاذ؛ لأن جمع «افعيل» على «مفاعيل» مخالف للقياس، وجاء أقاليد على القياس ويقال في اكليد كليد بلا همزة، وله مقاليد كذا قيل : مجاز عن كونه مالك أمره ومتصرفًا فيه بعلاقة اللزوم، ويكنى به عن معنى القدرة والحفظ، وجوز كون المعنى الأول كنائيًا لكن قد اشتهر فنزل منزلة المدلول الحقيقي فكنى به عن المعنى الآخر فيكون هناك كناية على كناية وقد يقتصر على المعنى الأول في ازرادة وعليه قيل هنا المعنى لا يملك أمر السماوات والأرض، ولا يتمكن من التصرف فيها غيره ﷻ، والبيضاوي بعد ذكر ذلك قال: هو كناية عن قدرته تعالى وحفظه لها وفيه مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد لمكان اللام والتقديم، وقيل: خزائنها، وقيل: مفاتيحها، والإشارة بكلها إلى معنى واحد وهو قدرته تعالى عليه وحفظه لها. وجوز أن يكون المعنى لا يملك التصرف في خزائن السماوات والأرض؛ أي: ما أودع فيها واستعدت له من المنافع غيره تعالى، ولا يخفى أن هذه الجملة إن كانت في موضع التعليل لقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ على المعنى الأول فالأظهر الاقتصار في معناها على أنه لا يملك أمر السماوات والأرض؛ أي: العالم بأسره غيره تعالى، فكأنه قيل: تعالى يتولى التصرف في كل شيء لأنه لا يملك أمره سواه ﷻ، وإن كانت تعليلاً له على المعنى الثاني فالأظهر الاقتصار في معناها على أنه لا قدرة عليها لأحد غيره جل شأنه فكأنه قيل: هو تعالى يتولى حفظه كل شيء لأنه لا قدرة لأحد عليه غيره تعالى، وجوز أن تكون عطف بيان =

[الزمر:٦٣] يقول - جل من قائل: له مفاتيح السماوات والأرض أعلى المفاتيح كلمه وقدرته ومشيئته وعلمه، إذا أراد شيئًا قال له: «كن» فيكون الكائن على وفق مشيئته، ومن مقاليد السماوات والأرض: الرياح يرسلها في الجو ملقحة، فينشئ السحاب بقدرته، وينزل الماء من السماء إلى الأرض بأمره، ثم يفصل الماء إلى ما شاء تفصيله إليه وذلك من خزائنه، ومن مقاليد السماوات والأرض: الإيمان والعمل والاستقامة والعمل بطاعة الله، والذكر والدعاء والتقوى والابتهال.

قال الله - عز من قائل: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:١٠-١٢] هذه مقاليد الدار الآخرة.

﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق:١١] ومثل هذا كثير، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٥ - ٦٦].

ومنبعث ظهور المقاليد من السماء والأرض هو الإسلام والاستقامة؛ إذ فيه الخضوع والخنوع والخشوع والتعبد، والتزام الصغار والذلة ومجانبة الكبر والتعاظم، فإنه من نازعه معنى من صفاته التي هي: الكبرياء والعظمة والجبروت قصمه، ولما ذلت له السماوات والأرض وآذنت له وأذعنت حمل عنهن المشقة، ويسر عليهن ما جعلهن له، وجعلهن من خزائنه متى شاء فتح منهن لعباده ما شاء، تقول العرب: «ألقى إليه بالمقاليد» عبارة عن الاستسلام.

قال الفرزدق يخاطب عمر بن الخطاب ﷺ:

=

للجملة قبلها وأن تكون صفة ﴿وَكِيلٌ﴾ وأن تكون خبرًا بعد خبر فأمعن النظر في ذلك وتدبر. [انظر: تفسير الألوسي (١٨ /١٠)].

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألقت إليه مقاليد النهى البشر

ما آثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى:١٣] يعني - والله أعلم بما ينزل - وأوحينا إليهم الذي أوحينا إليك، وهذا منتظم بما في أول السورة من معنى: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الشورى:١-٣] والمعنى بهذا والله أعلم: وحي الروح إليه أوحاه إليه محكمًا مجملاً مفهومًا لديه منه به، ثم يفصله فيما يشرعه لذلك وهو أعلم.

عطف بالواو في قوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ على قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ والذي اجتمع عليه معنى ما أوحى إليهم هو ما عبر عنه قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أن تكونوا يدًا واحدة تعبدون ربًا واحدًا على دين واحد، وهو الذي كبر على المشركين، لكن ﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يستخلصه ويصطفيه ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣] أي: إلى الإسلام وإقامة دين التوحيد.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى:١٤ - ١٩].

دلَّ على هذا التأويل قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ يعني وهو أعلم: أهل الكتاب ما تفرقوا إلا عن علم بأن الاختلاف ضلال، لكنهم فعلوه بغيًا بينهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم الجمع وإنهم ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى:١٤] أي: في شك من يوم الجمع مكذب به.

أتبع ذلك ما هو متمم له، قوله ﷻ: ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي: لعلمك بيوم الجمع أنه كائن لا محالة ﴿فَادْعُ﴾ إلى ربك ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ على صراط الله ﴿كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ في تفريق التوحيد وعبادة ما هو سوى الله ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ [الشورى:١٥].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بعلمه وبما شرعه، وهو الحق وهو كلامه، وهو الحق نزله الملك من عند الله، وهو الحق كله وبإخباره عن موجودات الآخرة، وهو الحق الذي إليه المصير ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى:١٧] هذا منتظم بقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى:١٥] أنزل الميزان وأمر بالعدل ليحكم بالقسط ويوحد ويعطى بالميزان والعدل.

ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[1] [الشورى:١٧] انتظم هذا بمعنى

---

(١) قوله : ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ تمهيد لقوله : ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ لأنه يؤذن بمقدر يقتضيه المعنى، تقديره: فجُعل الجزاء للسائرين على الحق والناكبين عنه في يوم السّاعة فلا محيص للعباد عن لقاء الجزاء وما يدريك لعل الساعة قريب، فهو ناظر إلى قوله: ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كلُّ نفسٍ بما تسعى﴾ [طه:١٥]. وهذه الجملة موقعها من جملة ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ [الشورى:١٦] موقع الدّليل، والدليلُ من ضروب البيان، ولذلك فصلت الجملة عن التي قبلها لشدة اتصال معناها بمعنى الأخرى. والإخبار عن اسم الجلالة باسم الموصول الذي مضمون صلته إنزالُه الكتابَ والميزانَ، لأجل ما في الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر الآتي، وأنه من جنس الحق والعدل، مثل الموصول في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] ولام التعريف في الكتاب لتعريف الجنس، أي: إنزال الكُتب وهو ينظر إلى قوله آنفًا: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ [الشورى:١٥] والباء في (بالحق) للملابسة، أي أنزل الكتب مقترنة بالحق بعيدة عن الباطل. والحق: كلّ ما يَحق، أي يجب في باب الصلاح عملُه ويصح أن يفسر بالأغراض الصحيحة النافعة. و(الميزان) حقيقته: آلة الوزن، والوزن: =

ما تقدم من قوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى:١٥] يصبره ويعزيه، ويقرب له المدة نظيرتها في سورة «هود» إلى قوله: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود:١١٥].

قوله تعالى: ﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى:١٩] انتظام هذا بمعنى قوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى:١٢].

﴿كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الشورى: ٢٠ - ٢٣].

نظم بذلك قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ يريد، وهو أعلم: يجعل له الحسنة بعشرة أمثالها إلى تسعمائة ضعف إلى ما هو بغير حساب ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى:٢٠] ليس كل الذي تمناه من الدنيا يناله وإن عمل له ويفزع إليه، ورزق الآخرة ما تمناه وعمل له كما يجب أعطيه.

=

تَقديرُ ثِقَل جسم، والميزان آلة ذات كفتين معتدلتين معلقتين في طرفي قضيب مستوٍ معتدل، له عروة في وسطه، بحيث لا تتدلى إحدى الكفتين على الأخرى إذا أمسك القضيب من عُروته. والميزان هنا مستعار للعدل والهدْي بقرينة قوله (أنزل) فإن الدّين هو المنزل والدّين يدعو إلى العدل والإنصاف في المجادلة في الدّين وفي إعطاء الحقوق، فشبه بالميزان في تساوي رجحان كفتيه. انظر: [التحرير والتنوير(١٣/١٠٧)].

قال الله - جل من قائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٨ - ١٩].

فصل

هذه الآيات تشد ظهر المتوكل على الله العامل للآخرة، المؤثر لها بعمله، ويقيم أوده، فإليك الخيرة أيها العبد في إتعاب جسمك، وتقسيم قلبك، وتثقيل ظهرك بتباعات وسيئات ترجو غير واجد وتخافه.

قال الله - عز من قائل: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩].

يقول - عز من قائل: ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥] أي: الحمد لله وحده، فاعبده وحده، وخفه وحده، وارجه وحده ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وعباده ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر:٣٦].

وقال رسول الله ﷺ: «**من أحب الدنيا التاظ منها بثلاث: شغل لا ينفك، وأمل لا يدرك، وحرص لا ينال**»[١] أو إراحة جسمك وإحمام قلبك وتخفيف ظهرك، مع ما في ذلك من قربك من ربك، ترجع إليه في قليلك وكثيرك تجده معك، كما قال - عز من قائل: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة:١٢] إلى آخر المعنى.

وإلى هذا فإن الدنيا بما لك فيها تأتيك به صاغرة تابعة لك غير متبوعة، طالبة غير مطلوبة، ألا ترى أن الله - جل ذكره - فرض علينا قوت من جعل إلينا أمره وأحوجه إلى ما عندنا حتى قال رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء لومًا أن يضيع من يقوت**»[٢] وفي أخرى: «**من يقيت**»[٣] حتى لقد جعل النفقة منا عليهم أفضل من

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني (١٠٣٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (٦٤٩٥) وأبو داود (١٦٩٢) والحاكم (١٥١٥) والبيهقي (١٥٤٧٢) والطيالسي (٢٢٨١) وابن حبان (٤٢٤٠) والنسائي في الكبرى (٩١٧٧) والطبراني (١٣٤١٤).

(٣) أخرجه أحمد (٦٤٩٥)، وأبو داود (٢ ١٦٩٢)، والحاكم (١٥١٥)، والبيهقي (١٥٤٧٢) والطيالسي (٢٢٨١)، والبزار (٢٤١٥)، وابن حبان (٤٢٤٠)، والنسائي في الكبرى (٩١٧٧).

النفقة في سبيل الله الذي جعلها حبة بسبعمائة حبة، وإنما ذلك؛ لأنه أحوجهم إلينا كالزوجة والولد والخادم والدابة التي لا بد منها ولا غنى عنها، فاقضِ بذلك على أن الله - جل ذكره - غير مضيعك متى انقطعت إليه، متى أخلصت التوكل عليه وتشاغلت به عن سواه، وهو أنزه وأبعد بعدًا مما عرض به رسول الله ﷺ بقوله: «**كفى بالمرء لومًا أن يضيع من يقيت**»[1].

ومنه: إكرام الضيف وبر الجار، نزول الضيف بساحتك وحلوله بفنائك أوجب عليك كرامته وقَراه، وكذلك القرابات، فافهم عن ربك ولا ترضَ لنفسك بمنزلة الأباعد منه ولا برتبة من لم يحلل بفنائه رحلة، ولا حط بساحته ثقل شغله، ولا اعتمد عليه بقلبه، فيكون بمنزلة الأباعد منه، فيكلك بذلك إلى نفسك ويدعك وكدح يدك تملأ قلبك شغلاً ويدك كدًا، وجسمك كسلاً وتعبًا، ليس كحالك إذا أويت إليه واتكلت عليه، متى عراك مَهَمٌّ وجدت منه ملجأ، أو أصابتك مصيبة دخر لك عنده عوضها ذخرًا ما بقيت لأجل ذلك عزاء من نائبتك، وكان لك منه معتمدًا كريمًا وملجأ منيعًا، منَّ الله بها علينا وعليك من خصلة ويسرها لنا برحمته ومَنِّه.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ**﴾ [الشورى:٢١] هذا منتظم بقوله: ﴿**كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ**﴾ [الشورى:١٣] أي: من إقامة التوحيد ولزوم الصراط المستقيم ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم**﴾ [الشورى:٢١] كقوله: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ**﴾ [الشورى:٦] وينتظم إلحاق من أسلم لله وجهه وشهد بالحق، بمعنى: التوكل، يقول: أَلَهُم رازق غير الله يرزقهم من السماء والأرض.

نظم بذلك قوله: ﴿**وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ**﴾ أي: تأجيلهم إلى الأجل المسمى ﴿**لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**﴾ [الشورى:٢١] فيما هم فيه يختلفون، فترى المشركون غب شركهم، وترى المتوكلون على الله العاملون له المشغلون أنفسهم وجوارحهم بطاعته حسن مآبهم وكريم منقلبهم، كشف عن الحقيقة بقوله: ﴿**تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ**

---

(١) تقدم تخريجه، وفي (ف) يقوت.

﴿الجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ﴾[1] [الشورى:٢٢] هم درجات عند الله هؤلاء وهؤلاء.

ثم استمر على وصف حسن مآب العاملين له والمتوكلين عليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لذلك، وهو أعلم قال: ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣] أي: إلى الله بطاعته والدعاء إليه.

كذلك قالت الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم، كقول هود عليه السلام: ﴿لَا

(١) ﴿تَرَى الظالمين مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ أي: خائفين وجلين مما كسبوا من السيئات، وذلك الخوف، والوجل يوم القيامة ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ الضمير راجع إلى ما كسبوا بتقدير مضاف قاله الزجاج، أي: وجزاء ما كسبوا واقع منهم نازل عليهم لا محالة أشفقوا، أو لم يشفقوا، والجملة في محل نصب على الحال. ولما ذكر حال الظالمين ذكر حال المؤمنين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ روضات جمع روضة، والروضة: الموضع النزه الكثير الخضرة، وقد مضى بيان هذا في سورة الروم، وروضة الجنة: أطيب مساكنها كما أنها في الدنيا لأحسن أمكنتها ﴿لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من صنوف النعم، وأنواع المستلذّات، والعامل في عند ربهم «يشاءون»أو العامل في «روضات الجنات» وهو: الاستقرار، والإشارة بقوله: (ذلك) إلى ما ذكر للمؤمنين قبله، وخبره الجملة المذكورة بعده، وهي (هُوَ الفضل الكبير) أي: الذي لا يوصف، ولا تهتدي العقول إلى معرفة حقيقته. ثم وصف العباد بقوله: ﴿الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات﴾ فهؤلاء الجامعون بين الإيمان، والعمل بما أمر الله به، وترك ما نهى عنه هم: المبشرون بتلك البشارة ، قرأ الجمهور: (يبشر) مشدّدًا من بشر. وقرأ مجاهد، وحميد بن قيس بضم التحتية، وسكون الموحدة، وكسر الشين من أبشر، وقرأ بفتح التحتية، وضم الشين بعض السبعة، وقد تقدّم بيان القراءات في هذه اللفظة، ثم لما ذكر سبحانه ما أخبر به نبيه صلى الله عليه وسلم من هذه الأحكام الشريفة التي اشتمل عليها كتابه، أمره بأنه يخبرهم بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ ثوابًا منهم، فقال: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: قل يا محمد: لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلا، ولا نفعًا ﴿إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ هذا الاستثناء يجوز أن يكون متصلاً، أي: إلّا أن تودّوني لقرابتي بينكم، أو تودّوا أهل قرابتي ويجوز أن يكون منقطعًا. قال الزجاج: (إلّا المودّة) استثناء ليس من الأوّل، أي: إلّا أن تودّوني لقرابتي، فتحفظوني، والخطاب لقريش. وهذا قول عكرمة، ومجاهد، وأبي مالك، والشعبي، فيكون المعنى على الانقطاع: لا أسألكم أجرًا قط، ولكن أسألكم المودّة في القربى التي بيني وبينكم، ارقبوني فيها، ولا تعجلوا إليّ، ودعوني والناس، وبه قال قتادة، ومقاتل، والسدّي، والضحاك، وابن زيد، وغيرهم، وهو الثابت عن ابن عباس. وقال سعيد بن جبير، وغيره: هم: آل محمد. [«فتح القدير» (٦ /٣٧٧)].

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ والدعاء إليه ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود:٥١] وعلى الله، ونحو ذلك قال نوح عليه السلام، وهم إن اهتدوا به كان للرسول أجر التبليغ والتعليم والنصيحة، وكان له مثل أجر من عمل بما بلغه إليه وعمل بعملهم أبدًا على الولاء، لا ينقص أجر ذي أجر من أجره شيئًا، وإن هم لم يهتدوا به فيكون له مثل أجورهم لو أنهم اهتدوا، ويكون معنى «إلا» هنا في قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى:٢٣] بمعنى: سوى، تقديره: لا أسألكم عليه أجرًا سوى المودة في القربى، والقربة من الله لي ولكم.

وقد يكون معناها أيضًا معنى «لكن» كأنه قال: لا أسألكم عليه أجرًا، لكن المودة في القربى أبتغي تبليغ رسالة ربي إليكم، عطف على ذلك قوله الحق: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى:٢٣].

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٢٤ - ٢٨].

نظم بذلك ما هو في معناه محاجة وجدلاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا﴾ [الشورى:٢٤] ما تقدم فهو محاجة لهم في معنى التوحيد قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾ [الشورى:٢١] وفيما هاهنا محاجة في إثبات النبوة، وما كان يعلمه منهم من روحهم إبطالها.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَإِن يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: بما فيه من هداية ووحي فلا يخرجه على لسانك ﴿وَيَمْحُ اللهُ البَاطِلَ﴾ من جميع الأرض أو ما شاء من ذلك ﴿وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى:٢٤] لا برسول ولا برسالة، وهدايته بالرسالة سنة له، وهدايته بما هو من لدنه كلمة وهو على كل شيء قدير.

الكلمة أصل إيجاده الموجودات ووجود سنن السنة عارض حكم حق، وإلى الكلمة يرجع الكل في الإيجاد والتدبير، وكل موجود وذلك في التمثيل كالجبر والاضطرار في إخراج أفعال العباد الاضطرار من الله تعالى، والخير هو الأصل، وأحكام الكسب والاستطاعة عارض حكم حق، وإلى الخير يرجع كل فعل ما شاء الله من ذلك كان وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بالله، الله خالق كل شيء.

ثم دخل حكم الأمر والنهي والجزاء على ما تقدم بحق واجب وحكم لازم فافهم، فمن إثارة حكم الكلمة شهادة التوحيد لله - جل ذكره - بما له من أسماء وصفات، وعن إثارة حكم المشيئة في تتميم كلماته إرساله الرسل وإنزاله الكتب والأمر بطاعته والنهي عن معاصيه، كذلك حكم الخير والاضطرار من حكم الكلمة والكسب والاستطاعة عن وجود الزعامة في العبد، فوجب وجود المحبة ولم يكن ذلك إلا بوجود الرسالة وما جاءت به من سنة وسنن.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [الشورى:٢٥ - ٢٦] يستجيبون له بتوفيقه وهدايته، هذا منتظم بما في قوله من معنى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الشورى:٣] المعنى إلى آخره حيث ظهر، وهو كله مما يحتوشه من المعنى المجمل في صدر السورة فصله فيما بعد تفصيلاً.

نظم به قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨] فكما ينزل الغيث بما يفصله إليه كذلك ينزل الوحي إلى ما ينزله إليه، ويفصله تفصيلاً ينبه بهذا على نعمه في الدنيا وفي الآخرة، فهذه من نعمه في الدنيا، والوحي من نعمه المؤدية إلى الآخرة، يقال للمطر يأتي بعد المطر على نبوته، كذلك الشمس بعد المطر المغدق يقال لها: ولي، كذلك يقال لما ينشره عن الماء ويخلفه عنه: ولي؛ لأنه ولي ذلك؛ أي: قرب عنه قضاء وكان عنه خلقًا وأمرًا.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ

قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشورى: ٢٩ - ٣٦].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ [الشورى:٢٩] اجتلابه هذه الآيات شواهد على ما ذكره من أسمائه وصفاته في صدر السورة، وأن النظر في ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ يعلم العلم ويورث اليقين، معرفة خلقه إياهم يوجب اليقين بقدرته على أن يجمعهم، وقد أخبر بذلك فهو لا بد كائن، والنظر إلى الموجودات من حيث هي أفعال توجب اليقين التام بأنها لا بد لها من فاعل فعلها وموجد أوجدها، ثم إن تهمم الناظر فنظر في معاني الصنعة وتابع التدبر وصل إلى معرفة صانعها بأسمائه وصفاته وما ينبغي أن يكون عليه، ومعرفة ما يستحيل لديه، فيحمده بمحامده ويسبحه بسبحاته، ثم إن تهمم وسما بتطلبه وصل إلى الوقوف على مباني الإسلام وخصال الإيمان، وقرأ فيه القرآن مفصلاً على فصوله، ورأى حكمة ما جاءت به الرسل حقيقة.

نظم به قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[1]

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قرأ نافع وابن عامر(بما كسبت) بغير فاء. الباقون (فبما) بالفاء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم للزيادة في الحرف والأجر. قال المهدوي: إن قدرت أن (ما) الموصولة جاز حذف الفاء وإثباتها، والاثبات أحسن. وإن قدرتها التي للشرط لم يجز الحذف عند سيبويه، وأجازه الاخفش واحتج بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١] والمصيبة هنا الحدود على المعاصي، قاله الحسن. وقال الضحاك: ما تعلم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ثم قال: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن، ذكره ابن المبارك عن عبد العزيز بن أبي رواد. قال أبو عبيد: إنما هذا على الترك، فأما الذي هو =

[الشورى:٣٠] هذه أيضًا من آياته الدالة عليه كما دلت عليه مصنوعاته في السماء والأرض.

ثم قوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ...﴾ [الشورى:٣١] كلام راجع معناه إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩] ومن قرأ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠] فهو إخبار منه - جل ذكره - أن الذي يصيب العباد من مصائب فذلك بما كسبت أيديهم من ذنوب اكتسبوها، ولولا عفوه وتجاوزه عن أهل الأرض ما ترك على ظهرها من دابة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الجَوَارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الشورى:٣٢] الأعلام: الجبال، والجواري: الفلك والسفن، واحدهن: جارية، قد تقدم الكلام على الاعتبار بها بما فيه تنبيه وإلماع إلى المقصود، غير أن جريها بالريح الطيبة وعلى المرغوب منها آية لكل صبار شكور على جريها بهم فيما هنالك في أنهار الجنة، وكونها راكدة والريح ساكنة عنها دلالة على الجريان والتوقيف في يوم العرض؛ إذ لا عمل له يرجيه إلى مرغوبه هناك، وكذلك في دار البرزخ وإهلاكها بالرياح العواصف آية تدل على عذاب أهل النار بهن يضطرون إلى ركوبهن في بحار الحميم والغساق نار في نار.

آية ذلك: اضطرار أهل الدنيا إلى ركوب البحار بالحرص والأطماع، فإذا لحجوا بهن فيما هنالك جاءتهم عواصف الرياح العتمة فأغرقتهم بما كسبوه في

=

دائب في تلاوته حريص على حفظه إلا أن النسيان يغلبه فليس من ذلك في شيء. ومما يحقق ذلك أن النبي ﷺ كان ينسى الشيء من القرآن حتى يذكره، من ذلك حديث عائشة عن النبي ﷺ: سمع قراءة رجل في المسجد فقال: «**ما له رحمه الله لقد أذكرني آيات كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا**». وقيل: (ما) بمعنى الذي، والمعنى الذي أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم. وقال علي ﷺ: هذه الآية أرجى آية في كتاب الله ﷻ. وإذا كان يكفر عني بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه ! وقد روي هذا المعنى مرفوعا عنه رضي الله عنه، قال علي بن أبي طالب ﷺ: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها النبي ﷺ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ «يا علي ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم» والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا عنه. [القرطبي (٣٠/١٦)].

الدنيا كما تغرق أهل الدنيا فيما هاهنا بذنوبهم، ثم يدخل الاعتبار بعضه على بعض، لذلك وهو أعلم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ [الشورى:٣٣] إلى قوله - عز من قائل: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشورى:٣٥] أي: فيما هنالك.

وقال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان:٣٢] نظم بذلك ما هو كمال للعبرة قوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشورى:٣٥] عطف بالواو في قوله: ﴿وَيَعْلَمَ﴾ والله أعلم بما ينزل، على محذوف من ذكر ما هو معلوم لكل صبار شكور، بذلك تبين للصبار الشكور ما هو في مقابلته ومناله فيما هنالك.

ثم قال: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ ويكذبون بها غدًا فيما هنالك إذا اضطروا إلى ذلك العذاب ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ كما قال: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤] ومن قرأ «ويعلم» بالنصب من يعلم، فتقديره: ذلك من آياتنا في الدنيا على ما في الآخرة من أمثالها ليعلم ذلك، وأنهم ما لهم عن ذلك من محيص.

كما قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣] إلى قوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [سبأ:٤] إلى قوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦] سبحانه وله الحمد، كما كتب في الذكر كل شيء هو كائن فأخرج المكتوب كله على وفق ذلك، أنزل كتابه فخبر بما هو في الآخرة كائن، فيخرجه لا محالة على وفق كتابه ووحيه وإخبار رسله وإعلامهم؛ ليعلموا في الآخرة أن الذي بلغتهم الرسل والكتب حق، كما علم أهل العلم والعبرة كائنات ما سطره في الكتاب المبين أنها كائنة، فليسمع من له أذن سامعة ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٦٠] انتظم هذا بمعنى ما تقدم من قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى:٢٠] المعنى: وهي كلمة جامعة لموجودات الدنيا خلا ذكر الله وما أدى

إليه من قول وعمل ووحي وكتاب ورسالة ونحو هذا، ثم قال: ﴿وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الشورى:٣٦] يدعوهم من الدنيا إلى الآخرة.

يقول - عز من قائل: ﴿وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد:١٨] مما أتاكموه يصيره لكم آخره، فيؤتكم مما عنده فهو خير وأبقى، ثم بين أن السابقين إلى هذه التجارة الرابحة هم الذين آمنوا؛ أي: بحسن الجزاء وكريم الخلف ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى:٣٦] في إيجاب وعده في الآخرة وكريم ضمانه في الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٣٧ - ٤٣].

ثم ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧].

ثم ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى:٣٨].

ثم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ البَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى:٣٩] ذكر العباد على مراتبهم ومنازلهم، ثم ندب إلى إيثار الصفح والعفو ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [الشورى:٤٠] إلى قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى: ٤٤ - ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [الشورى:٤٤] هذا كلام راجع معناه إلى المتخذين أولياء وشركاء من دون الله إلى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ [الشورى:٤٥] خسروا أنفسهم: أوردوها النار ﴿وَبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨] وخسروا أهليهم الذين كانوا معهم في الدنيا إن كانوا معهم في ضلالهم.

فصل

بينهم فيما هنالك ويكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضًا ومأواهم النار، وإن كانوا على هدى من ربهم أعلى بهؤلاء وأسفل بهؤلاء إلى بئس المصير، وأمَّا أهلوهم الذين كانوا في منازلهم من الجنة يرثهم فيها أهل الجنة كما ورثوهم في الهداية في دار الدنيا، كذلك يرث أهل النار منازل السعداء في النار.

قال الله ﷻ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف:٣٨] يقول المؤمنون الذين ورثوهم في منازلهم من الجنة: ﴿إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ [الشورى:٤٥] كذلك المؤمنون في نعيم مقيم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا﴾[1] يريد وهو أعلم إلى سره، كما قال رسول الله ﷺ: «إن روح القدس نفث في رَوعي»[2] ونحوه ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كتكليمه موسى ﵇ وما سمعه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء: «أمضيت

---

(١) قال روزبهان البقلي: إذا دخل القلب في عالم الغيب فما يراه فهو كشف، وما يسمعه فهو كلام وما يتكلم به فهو وحي، فيتولد مما يسمع الفهم، وما يتولد مما يبصر فهو بيان وكشف ونظر، وما يتولد مما يتكلم به فهو حكمة ومعرفة وعلم، وما يقع في موضع العقل من القلب فهو علم لدني، وما يقع في الفؤاد وهو الرؤية والإدراك. تقسيم الخواطر (ص٩٥) بتحقيقنا.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٣٣٢)، وهناد في الزهد (٤٩٤)، والدارقطني في العلل (٨٧٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٣٧٦).

فريضتي وخففت عن عبادي»[1] هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى:٥١] جبريل، ومن شاء من الملائكة عليهم السلام ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥].

وقال - عز من قائل: ﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا﴾ [النحل:٢] ثم ذكر هاهنا وحيًا آخر فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ [الشورى:٥٢] هذا منتظم - والله أعلم بما ينزل - بما ذكره في صدر السورة على أثر المجمل منه المحكم.

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الشورى:٣] إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًا لِّتُنذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ﴾ [الشورى:٧].

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى:٤٨ - ٥٣].

فهذا ما تفصلت إليه تلك الجملة، ثم إلى قوله فيما قبل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١] ثم عطف على هذا المعنى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] يفهم عنه أنبياؤه وحيه إليهم وإلقاءه ما يلقيه في ذواتهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧) وأحمد (١٧٨٦٩).

قال الله - عز من قائل: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] فيما ألقاه إليه عن هذا الوحي من روح به يعرف وحيه ويفهم عنه وعن الملك المراد، وهذا قد يقسم الله تعالى منه لمن شاء من عباده، وبما قسم لهم من ذلك يكون فهمهم للكتاب والوحي والإيمان وبه يفهم عن ربه ويعرفه ويطيعه؛ إذ بهذا الروح يحيي المحل الذي هو حامل حياة الإيمان، وكل محل لم يحل فيه هذا الروح فهو ميت الإحياء لا يعقل الهدى ولا يبصره ولا يسمعه ولا يتحرك إليه، والقرآن نور ولا يدخل إلا في محل الإيمان، وهو روح ولا يدخل إلا حيث الروح، وهذه الحياة تنشأ من لدن عالم الجماد، ثم إلى النبات، ثم إلى الحيوان.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤] ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم:٢٦] ثم الإنسان، ثم الولي، ثم النبي، ثم الملك، وبه يسمع الولي بالله، ويتكلم بالله، ويرى به، ويبطش به، ويمشي به؛ إذ هو من الله - جل ذكره - العلي الأعلى الحي، ومنه روح القدس، ومنه روح الأمر، وهذا هو الواصل، ألَّا تسمعه ﷺ يقول: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢] أي: من الأنبياء والمؤمنين التابعين لهم بإحسان، ثم هم درجات عند الله.

ثم قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[1] [الشورى:٥٢ - ٥٣] تعريض بالحق المخلوق به

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ فيه أربع مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: وكالذي أوحينا إلى الانبياء من قبلك أوحينا إليك (رُوحًا) أي: نبوة، قاله ابن عباس. وقال الحسن وقتادة: رحمة من عندنا، والسدي: وحيًا، والكلبي: كتابًا، والضحاك: هو القرآن. وهو قول مالك بن دينار وسماه روحًا؛ لأن فيه حياة من موت الجهل، وجعله من أمره بمعنى أنزله كما شاء على من يشاء من النظم المعجز والتأليف المعجب.

الثانية: قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ أي: لم تكن تعرف الطريق إلى الايمان، وظاهر هذا يدل على أنه ما كان قبل الايحاء متصفًا بالايمان. قال القاضي أبو الفضل عياض: وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة فللناس فيه خلاف، والصواب أنهم =

السماوات والأرض ﴿أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣] فأنبأك نصًّا صريحًا بمعنى ما عرضنا إليه ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

فصل

الاجتباء خاص من ذلك جباية المال من مواضعه وإن بعد، ثم الاصطناع يصطنع من اجتباه بما شاء من ذلك، ثم الاصطفاء وهو خاص، وهو الاختيار منه لهم في سابق العلم، وهو من الصفاء من: صفى يصفو صفاء وصفوًا، ثم التولي يتولى بولايته من أحبه ورضيه، ثم هم في الولاية بعد ذلك على درجاتهم ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الجمعة:٤] والهداية منه والمعونة تعمهم وتصحبهم في درجاتهم، هو يهديهم به إليه في علومهم ويقينهم ومعارفهم ومشاهدتهم إلى من هو أرفع من هذا وأسنى وأهدى إليه سبيلاً، فمن رزقه الفرقان الذي يفرق به بين المشتبهات والنور الذي يمشي به في الظلمات فذاك الذي أبصر سياع النور، وشاهد الضياء المبثوث في العالم المفطور بالحق المبين، وعاين اتصال ذلك بالحق المبين، وعلى قدر الإقبال عليه والتفرغ عن كل ما شغل عنه بالعمل بما يرضيه، والوقوف على معالمه وسؤال معاهده واستشهاد شواهده وآثاره التي آثرها، واستنطاق رسومه التي رسمها للمتوسمين يكون قبوله له وهدايته إياه.

معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شئ من ذلك. وقد تعاضدت الاخبار والآثار عن الانبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والايمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك كما عرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام. قال الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢] قال المفسرون: أعطي يحيى العلم بكتاب الله في حال صباه، فقال له الصبيان: لم لا تلعب؟ فقال: أللعب خلقت؟! وقيل في قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ﴾ [آل عمران:٣٩] صدق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين، فشهد له أنه كلمة الله وروحه، وقيل: صدقه وهو في بطن أمه، فكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك تحية له. [تفسير القرطبي (٥٦/١٦)].

تفسير سورة الزخرف[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾ [الزخرف:١ - ٨].

قوله تعالى: ﴿حم﴾ [الزخرف:١] إنباء منه عن بعض مقتضيات الكتاب المثبت من علمه بخلقه وإعلام موجودات الكتاب المبين بما شاء من ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣] جعله قرآنًا عربيًا مجموع الحروف والمعاني التي حواها نُزُله إلى أن يكون مقروءًا لعباده مكتوبًا بعد أن كان قيمًا لديه مكتوبًا في الكلام العلي، وفي علمه بخلقه ومثبتًا بظاهر الكتب في اللوح المحفوظ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: ما فيه عنا من معاني الخطاب وسر المراد ولولا تيسيره إياه ﷻ لم يكن للعقول أن تصل إليه تلاوة له ولا عقلاً عنه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَإِنَّهُ﴾ يريد القرآن ﴿فِي أُمِّ الكِتَابِ﴾ المثبت فيه علمه بخلقه ثم في الكتاب المبين ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا وفي حضرتنا ﴿لَعَلِيٌّ﴾ أي: عن أفهامكم وتلاوتكم ﴿حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤].

﴿لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢] وصفه بصفتين من صفاته: العُلا والحكمة، وسماه منهما باسمين هما من أسمائه: العلي الحكيم؛ ذلك لأنه كلامه العلي وكتابه الحكيم، فهو منه وبه وإليه، فافهم.

---

(١) هي مكية كلها، انظر: [تفسير ابن أبي زمنين (١٤٤/٢)] بتحقيقنا.

قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف:٥] قرئ بكسر «أن» وفتحها، فعلى الكسر تقديره: أرأيتم إن كنتم قومًا مسرفين نعدل عنكم بالذكر فلا نرسل إليكم رسولاً ولا ننزل عليكم كتابًا، وعلى الفتح: أَلِأَنْ كنتم قومًا مسرفين نعدل عنكم بالذكر، ومجموع هذين المعنيين في هذا التقدير: ألإسرافكم يكون هذا منا فنعذب المعذب منكم دون إعذار منا له ولا إنذار قد تقدم مني في العهد قولي: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٣٨ - ٣٩].

ألإسرافكم أنقض عهدي وأثلم حكمتي ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ ثم قال: ﴿وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف٦ - ٨] إضراب منه عن ذكرهم؛ أي: تقدم حكمنا فيهم وذكر خبرهم وسنن سنتنا في الأولين منهم فيمن أطاعنا أو عصانا.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزخرف:٩ - ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩] استقراء من أفعالهم ومقالهم ما كَسَر به حجتهم وبَيَّن به غلطهم حتى وضح لأولي الألباب أنهم لا حياة بهم.

يقول - جل من قائل: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ﴾ الذي امتنع من الأوهام أن تكيفه، ومن العقول أن تدركه، ومن الشركاء والأنداد والأولاد والصاحبة والمثل والنظير أن يوصف به ﴿العَلِيمُ﴾ بكل شيء إحاطة كاملة يستحيل عليها الحصر ولا

يجوز في وصفه القصر، هو لا يعجزه شيء ولا يفوته فائت فهو يعيد كما أبدأ.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف:١٠] جعل ذلك آية منه على أرض الجنة فجر فيها أنهارها وعيونها، وأنزل من السماء ماء فأخرج منها نباتها وزرعها وأنواع أشجارها وضروب فواكهها وثمارها، وجعل عدم ذلك آية على أحوال أهل النار فيها لا يستقرون على قرار، ولا يعتمدون على معتمد، ولا تقف أقدامهم أبدًا على أرض، لا يذوقون برد الشراب ولا لذة ضجعة أبدًا، يرسب بهم الغليان ولهب النيران تارة ويصعد بهم أخرى، نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا وفي الآخرة وفيما بين ذلك.

قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:١٠] عدد نعمه في هاتين، يقول - عز من قائل: قد كانت لكم آية على وجود إرسال الرسل وإنباء الأنبياء وجودكم السبل في الأرض هادية لكم إلى مقاصدكم؛ لذلك قال وقوله الحق: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بذلك إلى صحة الرسالة والنبوة.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ الذي جعل لكم ذلك زائدًا إلى أنعمه العامة لكم دلالة على الوحدانية والرسالة والنبوة، وحسن النظر للعباد في كونه بقدر، وعلى الإحياء بعد الإماتة، وعلى وجود النشور والخروج؛ لذلك قال - عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف:١١].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ فجعلها إعلامًا باسمه الفرد[١] واسمه الوتر[٢] ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾

---

(١) قال المصنف: إن الفرد الحق - جَلَّ ذِكْرُهُ - انفرد بالملك دون المملوك، وبالربوبية دون المربوب، وبالألوهية دون المألوه، وكذلك أفرد الجنة من النار بخاصيتهما، وما أوجد كل واحد منهما له أفرد المؤمنين بإكرامه، والمجرمين بإهانته، وأفرد كل ذي شكل بشكله، وكل ذي صورة بصورته وخاصة بخاصته وحاله بحالته؛ إفرادًا منه للأشياء، وتمييزًا لذواتها وأحوالها، لولا ذلك ما انفرد شيء بشيء، ولا امتاز شكل من شكل، ولكان الاختلاط والأشكال فكنا لا نعرف أبنائنا من أبنائنا ولا من غيرهم، ولا أمهاتنا من أزواجنا ولا من غيرهن، ولا كان لمنازلنا حلال فنبت فيه ولا حرام فنتقيه، ولا كان يكون لأحدنا اختصاص بشيء سوى اللبس والعمى لا علم ولا معلوم ولله ﷻ التدبير المبرم والقضاء المحكم. [شرح الأسماء ١/١٠٥].

(٢) قال المصنف: هو أيضًا من باب الوحدة، والوتر هو: الجامع بين الشيئين الذين هما الشفع، =

[الزخرف: ١٢] أنعم عليكم بها في هذه الحياة الدنيا، وجعلها تذكرة لكم بإبل وخيل في الجنة وأنعام وفلك ومركوبات كثيرة من لؤلؤ ونور مخلوقة لا تبول ولا تروث، تطير بهم طيرًا وتمشي بهم كيف شاءوا، وكذلك الفلك والسفن يركبونها في أنهار الزنجبيل والسلسبيل وأنهار الماء والخمر، يرجعون فيها من زيارتهم إذا شاءوا تمخر بهم في تلك الأنهار تمر بهم على سواحل مماليكهم، تحفها روضات الجنات وقصب العقيان والزبرجد والياقوت واللؤلؤ.

قال الله - عز من قائل: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ ثم قال عز من قائل: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر:٧٩ - ٨٠] أي: فيما هنالك لم يكن ليعلمنا بما قد أوجدناه وإنما أخبر بهذا بلفظ المستقبل إعلامًا بما يكون في تلك.

ثم قال منبهًا للفطن: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: فيما حضر على ما غاب ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر:٨١].

وقال: ﴿وَلَهُ الجَوَارِ المُنشَآتُ فِي البَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الرحمن:٢٤] ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٢٥] والآل: هو ما يظهر عن وجود حقيقة الموجود في الدنيا آلاء لوجود العلي الأعلى ولموجودات الآخرة وفي الآخرة الوجود الحق، وجميع موجودات ما هنا آلاء لحقائق ما هنالك، فافهم.

ألا تسمعه - عز من قائل - يقول على أثر ذلك: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ يعني: المركبين البري والبحري ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ وتذكروا بها ما في هنالك وتشكروه على ما متعكم به من آلاء ذلك في هذه فتقولوا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ [الزخرف:١٣] وأنزله لنا كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر:٦] ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾(١) [الزخرف:١٣] أي: مطيقين

وهو العائد عليهما بفائدتهما... ثم سبحانه الفرد بحكم الفردانية عن العدل والنظير والشبه والمثل والكفء ونحو ذلك، وسبحة الوتر هي عمّا يلحق المصنوع من نقائص الحدث وافتقار الصنع وعن العدد ولواحقه، ومن لحقه الصنع لحقه العدد. [شرح الأسماء ١/١٠٧].

(١) أي: مطيعين، وكم سَخَّرَ لهم الفُلْكَ في البحر، والدوابَّ للركوب، وأعَظم عليهم المنة بذلك فكذلك سَهَّلَ للمؤمنين مركب التوفيق فَحَمَلهم عليه إلى بساط الطاعة، وسهَّلَ للمريدين

الإقران إلا طاقة قرنت لهذا الفرس والبعير؛ أي: أطقته.

وأصله مأخوذ من القرن؛ أي: صرت له قرنًا؛ أي: مطيقًا، فتقولوا: لولا أن الله سخرها لنا ما كنا لها بمطيقين، هذا على أن نعتقد أن الإنزال هو إنزال عن خلق [البشر][(١)] والإنزال أيضًا هو أنه أنزلها من الجنة في الماء، ثم قال: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف:١٢٥] عرض لهم ﷻ بأن يرموا بأوهامهم إلى المآل والمنقلب الذين يجدون فيه من هذا ومما لا تعلمون ما هو خير وأبقى.

﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزخرف:١٥ - ٢٠].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف:١٥] الجزء: النصيب نسبوا إليه الأولاد ﷻ عما يقولون، وقد يكون بمعنى الجزء البنات خاصة وهي لغة، أنشد بعضهم شاهدًا على ذلك:

إن أجزأت حرة يومًا فلا عجب ... قد تجزئ الحرة المذكار أحيانًا

ومعهود اسم الجزء أنه واقع على النصيب، كما قال ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام:١٣٦] المعنى إلى آخره.

مركبَ الإرادة فَحَمَلهم عليه إلى عرَصَات الجود، وسَهَّل للعارفين مركبَ الهِمَمِ فأناخوا بعقْوة العِزَّةِ وعند ذلك مَحَطُّ الكافة؛ إذ لم تخرق سرادقاتِ العزَّةِ هِمَّةُ مخلوقٍ سواء كان مَلَكًا مُقَرَّبًا أو نبيًّا مُرْسَلاً أو وليًّا مُكَرَّمًا، فعند سطواتِ العِزَّةِ يتلاشى كلُّ مخلوقٍ ويقف وراءَها كلُّ مُحْدَثٍ مسبوق. تفسير القشيري (٧/٢١٠).

(١) في (ف): «البشر» وفي (خ): «البشر أمته».

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف:١٦] هذا منتظم بما قبله من ذكر الجزء، فهذا انتظام صحيح من حيث المجاورة، وبوجه آخر أرى - والله أعلم - أنه كلام تقدم على موضعه، والمنتظم به معنى قوله: ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨] أي: البنات تنسبون إليه وإلى أنفسكم الذكران وإليه الإناث ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف:١٦].

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:٥٨] يكظم غيظه يفكر في نفسه كيف يمسكها ﴿عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:٥٩] حرموا الإصابة في وصفهم الرحمن ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بالولد في اتخاذهم الأثرة عليه فرضوا له ما لم يرضوه لأنفسهم على خطابهم، ثم ينتظم به أو من ينشأ في الحلية، المعنى: نسبتم إلي وجعلتم لي وجعلتم لأنفسكم الأفضل عندكم.

وذكر قول الآخرين في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف:١٩] وقرئ: «الذين هم عباد الرحمن» وهذه القراءة أعلى وأليق بسياق المعنى الذي جاءت له، وهي قراءة ابن مسعود، ومن قرأ: «عند ربك» ذهب إلى الجاه والخصوصية، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠] رد الله - جلَّ ذكره - قولهم عليهم وإن كان ما قالوه حقًّا، لكنهم لمَّا استمروا على كفرهم وشركهم فخرجت كلمتهم هذه عن غير علم ولا معرفة، جعله منهم تخرصًا وتظننًا.

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الزخرف:٢١ - ٢٩].

أتبع ذلك قوله محاجًا لهم: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ أي: بكفرهم وبما أشركوا به ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ يعني القرآن أو الرسول ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف:٢١].

نظم بذلك قوله: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ سنة، وهي أيضًا من الإتمام، وقرئ بكسر الهمزة من «أمة» وهي: الملة، والأمة أيضًا: الملل، مهتدون بهدايتهم ومقتدون ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أتهتدون به وترجعون عن ضلالكم هذا ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف:٢٤] تشابهت قلوبهم فتشابه جوابهم وعملهم.

يقول - جل من قائل: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف:٢٥] ورحم الله هذه الأمة فلم يعاجلها بالعذاب ولم يعمها بإهلاك، بل جعل لها فيمن مضى عبرة، وأقام لها سنته فيمن خلا عظة، والحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾[1] [الزخرف:٢٦ - ٢٧] هداه إلى كلمة «لا إله إلا الله».

يقول ﷻ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٨] عن شركهم وكفرهم إليها وذكرهم الآن بها يوم نزول القرآن، ثم أضرب عن ذلك لما تجهموا لها ونسوا ما ذكروا به، فقال: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ يقول: ولذلك نسوا الذكر ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف:٢٩] الآيات إلى آخر

---

(١) ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ يثبتني على الهداية، فالسين للتأكيد لا للاستقبال؛ لأنه جاء في الشعراء: ﴿يَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٧٨] بدونها والقصة واحدة، والمضارع في الموضعين للاستمرار. وقيل: المراد: سَيَهْدِينِ إلى وراء ما هداني إليه أولاً؛ فالسين على ظاهرها، والتغاير في الحكاية والمحكي بناء على تكرر القصة. تفسير الألوسي (٣٤٧/١٨).

المعنى.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٠ - ٣٦].

نظم بذلك من معنى التمتيع قوله: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ...﴾ [الزخرف:٣٣] عرض لبره بالمؤمنين وحسن لطفه بهم في ترفيهه عنهم شدة المجاهدة ومصابرة حال تزل الأقدام عن سنن الهدى إلى الميل والإصغاء إلى مظان الغنى والملك والعافية بالهوى، فكان يفشو ذلك ويعم، فيصير الناس أمة واحدة على الكفر إلا من عصم الله هذا على الأكثر، فجعل الله - جل من قائل - دنيا صدر هذه الأمة في طريق آخرتها جمع لها بذلك خير العاجلة والآجلة.

قال الله - جل من قائل: ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ [آل عمران:١٤٨] والكافر مغبون في الدنيا، وإن بلغ ما وصفه الله - جلَّ ذكره - [...][1] عن مذاق طعم حلاوة الإيمان والتمتع بطاعة الله، وعلى العلم بالله والمعرفة به وطلب رضوانه، وهي الجنة المعجلة، وأما في الآخرة فاجتمع له الغبن كله لا ريب في ذلك، فإن الدنيا وإن استوسقت ملكًا وغنى فهو فيها قصير المدة، مبعض الوجود، وهو متاع قليل في جنب ما منعه في الآخرة النجاة من النار والفوز بالجنة في الملك الدائم والنعيم المقيم.

---

(١) غير واضحة في (خ)، وغير موجودة في (ف).

فصل

ما جاء مثل هذا الخطاب منه - جلَّ ذكره - إلا وهو كائن ولو يومًا ما، وما أراه كائنًا إلا في مماليك الدجال - لعنه الله - فإنه جاء في الثابت عن رسول الله ﷺ: «**أنه يطأ الأرض كلها إلا مكة والمدينة، وأنه ليمر بالخربة فيقول لها: أخرج ما معك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل**»[(١)] وقد جاء في نبوة أشعيا عليه السلام ما يدل على هذا، ويعرض إليه قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ يريد من يعرض ومن قرأ بفتح الشين من «يعش» فهو من العمى ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦] هذا منتظم بما مضى من ذكر نسيان الذكر والغفلة عنه، يزين له الشيطان ما هو فيه من الأعراض والتعامي عن سبيل رشده.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)﴾ [الزخرف: ٣٧ - ٤٤].

يقول الله - جلَّ ذكره: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [الزخرف:٣٧] يقول ﷻ: إنه ليبلغ من تزيينهم الضلال إلى قرنائهم من الإنس أنهم يصدون عن السبيل وهم يحسبون أنهم مهتدون، يرونهم الحق في معرض الباطل والهدى في معرض الضلال، وبالغ هذا الدرك قد ضعف الرجاء في هدايته، كيف يهتدي من يعتقد أنه هو المهتدي؟ ومفهوم هذا أنه من والى الله ورسوله والذين آمنوا، وتابع التذكر والذكر والتفكر في كتاب الله وآياته قُيِّض له ملك وربما ملائكة، فهم له قرناء يلهمونه الذكر والعمل بطاعة الله وطلب رضوانه، ويكون له عند الموت وبعده، كما

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٧)، والترمذي (٢٢٤٠).

يقولون صلوات الله وسلامه على جميعهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت:٣١] المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ اليَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩] انتظم هذا بما قبله من ذكر القرنين، فخاطب بهذا كل مقترن، وخطاب ما أبلغه وموعظة ما أوجعها للقلوب الحية، وينتظم هذا وهذا بما قبل وهم المعنيون في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف:١٥] إلى قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ [الزخرف:٢٢ - ٢٣] المعنى إلى آخره.

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٥ - ٥٠].

قوله عز من قائل: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥] هذا منتظم بما تقدم له من مخاطبته إياه ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٣ - ٤٤] أي: شرف لك ولهم في الدنيا، وذكر بوردهم ثواب الآخرة، لم يعن - وهو أعلم - أن يسأل الرسل وقد ذهبوا، ولا أن يسأل المرسل إليهم، فإنهم قد ضلوا عن هدايتهم واختلفوا من بعد العلم الذي جاءهم، فليسوا على ذلك بشهداء ولا بموثوقين عن أدائها، ولو سألهم فأخبروه بما ليس عنده لم يسعه أن يترك ما هو عليه إلى ما هو عندهم، بهذه أمره ﷻ في قوله: ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام:١٥٠] المعنى حيث وقع وإنما أمره أن يسأل عنهم القرآن في قوله: ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ

﴿لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٢٤] وأمره أيضًا أن يسأل عن ذلك علمه ويقينه والوحي الذي أوحى إليه، فذلك يخبره باليقين في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [محمد:١٤] هذا الكتاب والوحي، ويتلوه شاهد منه؛ أي: من إيمانه وعلمه ويقينه، غير هذا من التأويل محال.

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الزخرف:٤٩] الساحر عندهم: العالم، وقد قال في موضع آخر: ﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الأعراف:١٣٤] أي: بما خصك به وأظهر لك من بينات الأمر.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦)﴾ [الزخرف:٥٠ - ٥٦].

فقوله ﷻ فيما حكاه عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾ [الزخرف:٥٢ - ٥٣] إلى قوله: ﴿فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف:٥٤] المهين: الضعيف، لفقره استضعفه ولا يكاد يبين، قالوا للعقدة التي ذكر في لسانه قالوا: وتلك العقدة عن جمرة وضعها في فيه في صغره لقصة ذكروها لم يأت ما ذكروه من طريق مقطوع به أنه كان به خرس أو بكم، ولا يرسل الله لعباده إلا أكملهم، لا سيما موضع التبليغ.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤] وما ذكروه فليس على معهود الوحي ولا المراد به، وإنما كانت عقدة لسانه ﷺ أنه كان عبرانيًا، وكان قد نشأ بين القبط وربى في حجر فرعون، فكان يتكلم بالقبطية والعبرانية معًا، ولما فر من فرعون للجناية التي جناها عليهم خوفًا على نفسه ولبث في مدين سنين اعتقل لسانه عن القبطية لأجل ذلك، فكان فيها كالدخيل، فإن عبر

ببعض العبارة فقال - صلوات الله وسلامه عليه - يوم أمره ربه جلَّ ذكره بالتبليغ إلى فرعون وقومه: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه:٢٥-٢٨] وقال فرعون لما خاطبه ورأى ذلك منه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢].

يقول: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾[1] [الزخرف:٥٣] كناية عن المُلك يقول: فهلا أعطاه الله الملك، فكان بذلك يقهر الناس ويغلبهم على أمرهم أو جاء معه الملائكة مقترنين؛ أي: يخبرون الناس على ما يأتيهم به ويحملونهم عليه ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة:١١٨].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥] قد يكون الأسف: الحزن، ويكون أيضًا: الغضب، لكن الفرق بينهما: إن كان الذي أسفك فوقك أحزنك، وإن كان ذلك ممن هو دونك أغضبك، ويتخرج معنى الحزن على أن يكون معنى الكلام: فلما أحزنوا أرسلنا وأولياؤنا انتقمنا منهم، ويتخرج المعنى على معنى قول الله - جلَّ ذكره: «**كنت سمعه الذي يسمع به...**»[2] وقوله: «**ابن آدم مرضت فلم تزرني**»[3] ولذلك قال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ [الزخرف:٥٥] وإلا كان يقول: «فلما أغضبونا» وهذا الخطاب بهذا القول مصداق للحديثين المتقدمين، فافهم.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٦] سلفًا للمهلكين بعدهم

---

(١) كناية عن تمليكه، قال مجاهد: كانوا إذا سوَّدوا رجلاً سوَّروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسودده، فقال فرعون: هلا ألقى رب موسى عليه أساور من ذهب إن كان صادقًا، وهذا من اللعين؛ لزعمه أن الرئاسة من لوازم الرسالة كما قال كفار قريش في عظيم القريتين، والأسورة جمع: سوار، نحو: خمار وأخمرة، وقرأ الأعمش «**أَسَاوِرَ**» ورويت عن أبي، وعن أبي عمرو جمع أسورة، فهو جمع الجمع، وقرأ الجمهور: «**أساورة**» جمع: أسوار، بمعنى: السوار، والهاء عوض عن ياء أساوير، فإنها تكون في الجمع المحذوف مدته للعوض عنها كما في زنادقة جمع: زنديق. وقد قرأ «**أساوير**» عبد الله وأبي في الرواية المشهورة، وقرأ الضحاك: «ألقى» مبنيًّا للفاعل؛ أي: الله تعالى «أساورة» بالنصب. تفسير الألوسي (١٨/٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٣٤٧)، والبيهقي (٢٠٧٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/٤).

(٣) أخرجه بنحوه مسلم (٢٥٦٩)، وابن حبان (٢٦٩).

ومثلاً للآخرين يضربون بهم الأمثال فيتعظون بما أصابهم.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢)﴾ [الزخرف:٥٧ - ٦٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] بالرفع: يعرضون، يصدون، بالكسر: يصحون تهزئًا وضحكًا، والكسر أعلى القراءتين.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩] أي: شبهة شبهنا بها عليهم والله أعلم، دلَّ على ذلك: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٦٠].

فصل

قد يكون المثل مضروبًا للعبرة وأقرب ما يكون إلى إصابة المراد وهو - والله أعلم - أن يكون معنى قوله مثلاً لبني إسرائيل، فخصهم بالذكر؛ لأنهم المفتونون بالدجال، المسارعون إلى إجابته، فإن الدجال - لعنه الله - إن كان قد يجيء وتخرج له كنوز الأرض ويأتي بآيات عظيمة وقدرة قد قدرها رب العالمين لإتيانه لحكمة لله في ذلك، فإن عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - سيجيء له الصالحون، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه أن يعيش، وسيقتل الدجال فيمكن من جميع مماليكه وجميع مماليك يأجوج ومأجوج، وستخرج الأرض إليه أثقالها وتسير إليه بجميع بركاتها، حتى أن الدنيا ستعود إلى أفضل ما كانت قبل ولا يوم بدلها، وإنما المثل في ذلك متى جاء الدجال بتلك الآيات يدعو إلى نفسه فيعارض ما يأتي به بإحياء عيسى عليه السلام الموتى وتأييده بروح القدس، وكونه عن روح من الله جل جلاله وكلمته وإبرائه الأكمه والأبرص وإطلاقه الزمني وكفايته ضروب الابتلاء.

ولما بلغ يحيى بن زكريا عليه السلام وهو في الحبس أفعال المسيح أرسل إليه رجلين

من تلاميذه يقولان له: أنت المقبل أم غيرك ينتظر؟ فقال لهما عليه السلام: أعلِما يحيى بما رأيتُما وسمعتُما فإن العمي يبصرون والصمّ يسمعون والعرج يمشون والجذماء يستقون والموتى يحيون والفقراء يستبشرون، فطوبى لمن تشكك نفسه فيّ بهذا، ومثل هذا يكون عيسى مثلاً لبني إسرائيل وغيرهم.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٦٠] جعل له الإحياء بالريح الحي فنفخ في الطين على صور الطير فيصير طيرًا حيًّا، ويعلم كثيرًا من الغيب، ويتكلم بالحكمة، ويبرئ الأكمه والأبرص، هذا كله بإذن الله، كان ذلك من الله - جلَّ ذكره - آية على أن الله يبلغ بالاختصاص إلى أكثر من ذلك ثم إلى ما شاء بمن شاء من عباده.

وقد فعل ذلك وزاد أضعافًا كثيرة بالملائكة - عليهم السلام - لكل صنف من العالم مقاربة بين صنف وصنف، يقال لذلك المقارب به الوصل، فإن الله قد خلق الجماد ثم قدر فيه النشأة إلى النبات وجعل منه بين الصنفين وصلاً بين الجماد والنبات؛ ثم أنشأ النبات إلى الحيوان فجعل بينهما وصلاً يلتقيان فيه؛ ثم أنشأ الحيوان فجعل بينه وبين الإنسان وصلاً؛ ثم أنشأ معنى الإنسانية فجعل بينه وبين النبي وصلاً هو الولي والصديق؛ ثم أنشأ الولاية والنبوة فجعل بين ذلك وبين الملك وصلاً هو النبي؛ ثم أنشأ ذلك مقاربة حتى أوجد تحقيق وصل بين ذلك كعيسى ابن مريم والخضر، ومن شاء الله عز وجل.

يقول الله - جل من قائل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢] فأخبر بأنه أوجد شياطين إنس فلا ينكر إذًا أن يوجد ملائكة إنس، وقد أخبر عن جواز إلحاق الحقيقة بقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٦٠] وبقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩] وقد تقدم من تبيان ما هذا سبيله في الكتاب ما فيه مرشد إلى الصواب، والله يقول الحق وهو يهدي إلى السبيل.

وبهذا التدريج والنشء يوقف على فضل الملك على الولي - عليهم السلام - إلا أن يكون من الله - جلَّ ذكره - في عبده الولي إرادة خصوصية فهو أعلم.، على أنه قد جاء في الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل متصلاً بما تقدم ذكره من قوله:

فطوبى لمن لم يشكك نفسه فيّ.

ثم جعل - صلوات الله وسلامه عليه - يحدث الناس عن يحيى بن زكريا عليه السلام يقول: ماذا أردتم بخروجكم إلى المفاز؛ يعني - والله أعلم - بالمفاز: عبادة غير الله ﷻ والعمل بغير أمره، أظننتم أنكم تجدون فضة تلويها الرياح مثل ضربه ليحيى في صلابته في الله، ثم قال: أتراكم تشوقتم إلى رجل عليه كسوة لينة أمس أقول لكم لم يولد في الآدميين أشرف من يحيى ولكن أصغر من في ملكوت السماوات هو أشرف منه، فكل كتاب أوتي منتهاه إلى يحيى وإن تقبلوا غيره هو في مثابة اليأس القادم؛ فمن كانت له أذن سامعة فلتسمع قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف:٦١] أي: هو آتيها، فإذا نزل ﷺ فذلك آية على قرب الساعة وعلامة للانقراض، وقد قرئ «وإنه لعلم للساعة» وفي قراءة أُبي: «وإنه لذكر للساعة».

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الزخرف:٦٣ - ٧١].

قوله تعالى حكاية عن عبده ورسوله عيسى عليه السلام: ﴿وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف:٦٣] يعني: ما يختلفون فيه، وقوله: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠] هو - صلوات الله وسلامه عليه - معقب مقفى، تتميم للأمة فهم ما لم يبلغه فهمها، فيحل لهم ويحرم عليهم بذلك، ويتمم ما عليهم تتميمه.

قال الله ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [الصف:٨]

فقد أتم من ذلك ما شاء وسيكمل الإتمام به، كما قال لبني إسرائيل: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠] وقال رسول الله ﷺ: «ويزيد في الحلال»[١] والله عليم حكيم.

قوله ﷻ: ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف:٧٠] سئل رسول الله ﷺ عن الحبرة: ما هي؟ فقال: «اللذة والسماع لما شاء الله من ذكر»[٢].

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الزخرف:٧٢ - ٨٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ﴾[٣] [الزخرف:٨١] يشبه أن يكون معنى ذلك الأنفين والعبد شبه الأنفة والحمية كل شيء يكرهه ويستنكفه تعبد لذلك؛ أي: تأنف، يذكر عن علي ﷺ أنه قال: عندتُ فصمتُ؛ يعني: أنفتُ فسكتُ.

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٥٤٢).

(٢) ذكره القشيري في تفسيره (٢٢٧/٧).

(٣) أي : إن كان له ولد في قولكم وعلى زعمكم فأنا أوّل من عبد الله وحده؛ لأن من عبد الله وحده فقد دفع أن يكون له ولد، كذا قال ابن قتيبة. وقال الحسن والسدّي: إن المعنى: ما كان للرحمن ولد، ويكون قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ﴾ ابتداء كلام. وقيل: المعنى: قل يا محمد: إن ثبت لله ولد فأنا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته، ولكنه يستحيل أن يكون له ولد. وفيه نفي للولد على أبلغ وجه وأتمّ عبارة وأحسن أسلوب، وهذا هو الظاهر من النظم القرآني. فتح القدير (٤١٨/٦).

وأوجه التوجيهات في هذا - والله أعلم - فأنا أول العابدين لله والرحمن على معنى ما يأتي بعد هذا من قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السموات وَالأَرْضِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف:٨٢] أي: أنا أول العابدين على هذا المعتقد وعلى هذا الإيمان والعلم؛ فيكون تقدير الكلام إن كان للرحمن ولد عندكم فأنا أول العابدين له على التنزيه له والإكثار عن ذلك، وأقول: سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما تصفون.

ومن هذا اتباعه وتعقيبه بقوله الحق - عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف:٨٣] وحقق ما تقدم بقوله الحق: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٥ - ٨٩].

ثم أعقب ذلك بقوله العلي: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السموات وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف:٨٥] رميًا بذلك إلى الإعلام بملك الدار الآخرة وعظيم قدره؛ وذلك كله لا ينبغي لمن يجوز عليه أن يكون له ولد يكون أولاً له أو ولد يكون آخرًا له، سبحانه وله الحمد في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف:٨٤] أي: هو إله في السماء إله في الأرض، هو في السماء بما هو على العرش مستوى، لا تحويه الأقطار ولا تكتنفه الأمكنة والأزمان، ولا ينبغي لأحكامها أن تبلغ عزته وعظمته، بيّن ذلك بقوله الحق: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السموات وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [الزخرف:٨٥] علا بعلائه وعزته وعظمته عن أن تبلغه

الحدود والأقطار أو تناله الأحوال والأحكام، سبحانه وله الحمد.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ﴾ [الزخرف:٨٨ - ٨٩] قرأ بالرفع للام من «قيلُه» والنصب والخفض، هذا سلام متاركة لا سلام تحية، وهو سلام تباعد لا سلام تواصل، بيّن ذلك قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٩].

ومن قرأ بكسر اللام من «قيلِه» فعطف على علم الساعة تقديره: وعنده علم الساعة، وعلم قيله يا رب، ومن قرأ بفتح اللام فعطف على يسمع سرهم تقديره: يعلم سرهم ويسمع قيله يا رب، ومن ضم فعلى وجهين:

أحدهما: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف:٨٧] وقيله يا رب.

والآخر: على الحكاية كما يقال، وقوله هذا الكلام كسرها عاصم والسلمي وحمزة، ونصبها أهل المدينة، وذكر ذلك عن الحسن.

تفسير سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩﴾ [الدخان:١ - ٩].

﴿حم * وَالْكِتَابِ المُبِينِ﴾ [الدخان:١ - ٢] قال في غير هذه ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ﴾ القرآن وكتاب مبين و﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ﴾ [الشعراء:١ - ٢] وأما في هذه فهو قسم بالكتاب المبين وتختلف المعاني باختلاف المراد المعبر عنه بها وقد قرئ ﴿حم * وَالْكِتَابِ المُبِينِ﴾ [الدخان:١ - ٢] و﴿يس * وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ﴾ [يس:١ - ٢] و﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ [القلم:١] و﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١] أو يكون ذكر الحروف المقطعة «حم» هي المعبر بها عن أسماء الوحي والحياة والروح والحلم والحكمة.

ثم أقسم بالكتاب المبين الذي هو لوح الوجود من سماوات وأرضين وجبال ونبات وحيوان ونجوم وأفلاك، مثال لذلك: اللوح المحفوظ ظاهر لغيب علمه في خلقه وهو باطن للوح الوجود، وكان القسم واقعًا على أنه أنزل القرآن في ليلة مباركة وفي جعله قرآنًا عربيًا ومظهرًا لما في أم الكتاب منه باطنًا لظاهر الوجود، فربما كان تقدير ذلك هذا وحي الحي القيوم بالروح من أمره نزل به الروح الأمين وحق الكتاب المبين، فإنه يقسم من مفعولاته بما شاء، أخبر عن قدرته ومشيئته وعلمه، فكأنه قسم به وبصفاته، ولما كان من العباد من أشرك بالمفعولات نهوا عن القسم بها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[1] [الدخان:٣] يعني: ليلة القدر وجودها في العشر الأواخر من رمضان ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤] بمعنى: محكم، ووصف الأمر أيضًا بأنه حكيم سائغ حسن، ويفسر اسمها من التقدير؛ أي: يقدر فيها ما هو كائن إلى مثلها أقل ذلك إلى العام المقبل ثم إلى ما شاء الله من مستقبل يفرق ذلك من التقدير المثبت في أم الكتاب؛ أي: يفصل، ثم

---

(١) واختلف أهل التأويل في تلك الليلة، أيّ ليلة من ليالي السنة هي؟ فقال بعضهم: هي ليلة القدر.

* ذكر من قال ذلك: عن قتادة (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ): ليلة القدر، ونزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من رمضان، ونزلت التوراة لستّ ليال مضت من رمضان، ونزل الزَّبور لستّ عشرة مضت من رمضان، ونزل الإنجيل لثمان عشرة مضت من رمضان، ونزل الفُرقَان لأربع وعشرين مضت من رمضان. وقال ابن زيد، في قوله عزّ وجلّ(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) قال: تلك الليلة ليلة القدر، أنزل الله هذا القرآن من أمّ الكتاب في ليلة القدر، ثم أنزله على الأنبياء في الليالي والأيام، وفي غير ليلة القدر. وقال آخرون: بل هي ليلة النصف من شعبان.

والصواب من القول في ذلك قول من قال: عنى بها ليلة القدر، لأن الله جلّ ثناؤه أخبر أن ذلك كذلك لقوله تعالى (إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) خلقْنا بهذا الكتاب الذي أنزلناه في الليلة المباركة عقوبتنا أن تحلّ بمن كفر منهم، فلم ينب إلى توحيدنا، وإفراد الألوهة لنا. وقوله (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) اختلف أهل التأويل في هذه الليلة التي يُفرق فيها كلّ أمر حكيم، نحو اختلافهم في الليلة المباركة، وذلك أن الهاء التي في قوله (فِيهَا) عائدة على الليلة المباركة، فقال بعضهم: هي ليلة القدر، يقضي فيها أمر السنة كلها من يموت، ومن يولد، ومن يعزّ، ومن يذل، وسائر أمور السنة.

* **ذكر من قال ذلك:** عن ربيعة بن كلثوم، قال: كنت عند الحسن، فقال له رجل: يا أبا سعيد، ليلة القدر في كلّ رمضان؟ قال: إي والله، إنها لفي كلّ رمضان، وإنها الليلة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضي الله كلّ أجل وأمل ورزق إلى مثلها. وعن ربيعة بن كلثوم، قال: قال رجل للحسن وأنا أسمع: أرأيت ليلة القدر، أفي كل رمضان هي؟ قال: نعم والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي كل رمضان، وإنها الليلة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم، يقضي الله كلّ أجل وخلق ورزق إلى مثلها. وعن عمر مولى غفرة، قال: يقال: ينسخ لملك الموت من يموت ليلة القدر إلى مثلها، وذلك لأن الله عزّ وجلّ يقول: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ) وقال: (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) قال: فتجد الرجل ينكح النساء، ويغرس الغرس واسمه في الأموات. وعن أبي مالك، في قوله: (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) قال: أمر السنة إلى السنة ما كان من خلق أو رزق أو أجل أو مصيبة، أو نحو هذا. وعن هلال بن يساف، قال: كان يقال: انتظروا القضاء في شهر رمضان.

يكون بعد - أعني: الكائنات - كل على نوبها المكيفة وآجالها المحددة.

فصل

إذا كان ما تقدمه كما ذكرته فما معنى إنزاله إياه في ليلة القدر وقد قلت أنه يفرق فيها من أم الكتاب ما يكون من تلك الليلة إلى مثلها في المستقبل، والقرآن قلة الميون من السنين، وهو من الأمر المفروق؛ فالجواب: أن أقل ما تكون ليلة القدر له لوحًا سنة، كما جاء أن: «**الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما**»[(١)] كذلك ليلة القدر يفرق بعض ما يفصل فيها من الأمر منها إلى مثلها؛ كالصلاة إلى الصلاة والجمعة إلى الجمعة والرمضان إلى الرمضان، كذلك أسابيع ليلة القدر وأسابيع أسابيعهن وخواميسهن وأسابيعهن، ثم ضرب أسابيع الأسابيع وأسابيع الخواميس، والله أعلم.

قوله، له الحمد: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:٣] إنذار منه - عز جلاله - برفع القرآن الذي أنذر به رسول الله ﷺ وهو متصل الانتظام - والله أعلم بما ينزل - بمعنى ما تقدم أنذر بما يكون مما قدر كونه من ليلته إلى مثلها في عام عام، وفي خمس خمس، وتسع تسع، وتسع وأربعين إلى مثلها، وألف شهر إلى مثلها، وما ضرب فيه من خواميس وأسابيع، وما بين ذلك من تقدير العزيز العليم.

نظم بذلك قوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان:٥] بشر بما يكون في ذلك مما قد قدره من نصر الإسلام وإظهاره وإصلاح جملة أهل الإسلام بلادًا وعبادًا، أو ما يديل من ذلك لبعض دون بعض، كما قال رسول الله ﷺ: «**دعوت الله لأمتي ألا يهلكهم بسنة عامة ودعوته ألا يسلط عليهم عدوًا من غيرهم فيستأصل شأفتهم ففعل**»[(٢)].

فدخلت النذارة في البشارة على هذا والبشارة في النذارة، حتى يأتي أمر الله في القرآن المفروق من أم الكتاب المحدود كونه ولبثه بين ظهراني العباد، وإن كان

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٠٥٨٤).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١٧١٥٦) قال الهيثمي (٧/٢٢١): رجال أحمد رجال الصحيح. والبزار (٣٤٨٧).

المراد بقوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: من لدنا القرآن؛ فالمعنى سواء فإنما أعلم القرآن بسر المراد من ظاهر الأمر المثبت في لوح الوجود، والقرآن هو المنزل بالملائكة بالروح من أمره على محمد رسول الله ﷺ، وما في ليلة القدر من خاصة خصها الله بها من فضيلة وإعلام بما يكون على نحو الإشارة إلى الناحية وبالأمم فهو أيضًا من أمره ووحيه فيها؛ لذلك هي ليلة القدر أمر من لدنه أيضًا كما قال: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر:٤].

فقرب بذكر الرسالة قوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان:٦] كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان:٦] مشفع لدعاء من شفع عنده من الملائكة - عليهم السلام - في تأخير رفع القرآن وتأخير ساعة الانقراض وإيجاب المغفرة لأهل الأرض وللذين آمنوا، والتوبة عليهم والدعاء لهم بالإمهال والإصلاح حتى يبتغوا سبيله، عليم بما يكون منهم ومن تقديره وما قد كان.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان:٧] أي: بأنه رب كل شيء ومليكه، وأن السماوات تكدن أن يتفطرن من فوقهن، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض، وبما يكون من إرجاعه الحكمة أواخرها على أوائلها، وفي ذلك تمام الآجال وتعويض من الأحكام بأحكام، ومن هو رب السماوات وما بينهما والكرسي الكريم والعرش العظيم، فله ملك ذلك وملكوته بما في ذلك من تدبير وتقدير وإنفاذ ما شاء إنفاذه من إحياء وإماتة وتقديم وتأخير وعطاء وحرمان إلى غير ذلك.

نظم بذلك قوله الحق - جلَّ ذكره: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان:٩] أي: فمن أجل ذلك لا خشية لهم ولا رهبة عندهم ﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:٣] يريد استصحاب هذا الأمر أو يكون المعنى وهم على عظيم هذا الشأن وجلاله الخطب في غفلة ولهو يلعبون.

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان: ١٠ - ١٦].

أتبع ذلك قوله: **﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾** [الدخان: ١٠] أول هذا الدخان كان في السبع السنين التي دعا عليهم فيها رسول الله ﷺ بقوله: «**اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف**»[1] فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والشعر والميتة، وكان أحدهم يرى بينه وبين السماء شبه الدخان، ولهذا قال ابن مسعود - رحمة الله عليه: «إن الدخان قد ذهب» وإنما كان ذلك آية على ما يأتي منه، وهو من جملة أشراط الساعة أحد العشرة منها، ووصفُه ﷻ الدخان بأنه مبين لأهل هذا - والله أعلم - أي: أنه مبين عن ذلك وآية عليه كما يقول آيات بينات **﴿كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾** [البقرة: ٢١١].

ثم قال: **﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [الدخان: ١١] وفي مستقبل ذلك الدخان يقول الكافرون: **﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾**[2] [الدخان: ١٢] ولم تقل قريش ذلك.

يقول - عز من قائل: **﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾** [الدخان: ١٣] كما قال: **﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾** [محمد: ١٨] هذا يؤيد القول بأن الدخان متأخر مجيئه إلى آخر الزمان، وأن ما ذكر من وجوده في أول الأمر هو آية على المتأخر منه.

يقول - عز من قائل: **﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾** [الدخان: ١٣] كيف لهم بها وقد جاءهم رسول مبين **﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾** هذا يشترك فيه العاملون من آخر هذه الأمة مع كفار أولها وهم قريش، ومن كان على سبيلهم فإنه يرجع على الأغلب المتولي منهم على المتولي الأول من أوائلهم، ثم خص بالذكر قريشًا بقوله: **﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ضعف الإيمان ما يكون عند نزول البليات، بل الإيمان الأصلي ما يكون أعظم في العافية مما يكون في البلاء، ولا ينكشف العذاب والحجاب إلا بصدق الافتقار والحياء من الله في النظر إلى غيره.

مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان:١٤].

يقول تعالى: **﴿إِنَّا كَاشِفُوا العَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾** [الدخان:١٥] يمكن أن تكون آية الدخان المستقبلة قبل عيسى عليه السلام فيكشف العذاب بعبده ورسوله وذلك قليل، ثم هم بعد عائدون وما بعد ذلك إلا البشطة الكبرى، وقد يمكن أن يكون الدخان خارجًا في أيام مسيح الضلالة - لعنه الله - ويكون ذلك في الخمس الشداد، كما قال رسول الله ﷺ: «**حتى يهلك كل ذي حافر**» قيل له: فبم يعيش المؤمنون يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: «**بما يعيش الملائكة**»(١) أي: بالتقديس والتسبيح، ويكون قوله: **﴿إِنَّا كَاشِفُوا العَذَابِ﴾** [الدخان:١٥] معبرًا عن استقبال ذلك مع التراخي طول مدة اللعين.

وصف الله ﷻ يوم أمة محمد ﷺ من الدهر الذي هو العصر - يعني: واحد الأعصار - إلى وقت غروب الشمس منه؛ ولهذا والله أعلم كان من رسول الله ﷺ يوم قصد ابن صياد ليطلع على بعض شأنه، ولما لقيه وكلمه كما جاء به الخبر عنه قال له ﷺ: «**إني قد خبأت لك خبأ فما هو؟**»(٢) قال له ابن صياد: هو الدخ، وهي لغة في الدخان.

قال الشاعر يصف الشح:

تحت رواق البيت يغشى الدخان

ولما كان الدخان آية على ظهور الدجال أو سببًا من أسباب ظهوره ولم يكن الدجال بنفسه، بنا رسول الله ﷺ على تكهن ابن صائد هو الدخ، فقال: «**اخسأ فلن تعدو قدرك**»(٣) يقول: لست به.

وجاء في بعض الروايات: أن رسول الله ﷺ لما كلم ابن صائد قال: «**اللهم إني قد خبأت له خباءً هو الدخان**»(٤) أو قال: «**سورة الدخان**»(٥) ثم قال له: «**إني قد**

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٩١٥).
(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٤)، ومسلم (٧٥٢٩).
(٣) انظر الحديث السابق.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٥٣٣).

خبأت لك خبأ»[(١)] فها هو قال: هو الدخ، وإنما خبأ له ﷺ ما هو آية على خروجه أو ما يكون في وقته، ثم صرف وجه الخطاب إلى محاجة قريش يقول: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا العَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان:١٥].

ثم صرف وجه الخطاب إلى يوم القيامة بقوله الحق: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان:١٦] أي: نكشف عنهم هذا العذاب وهم عائدون لا بد ولا محالة ينتظر بهم ﴿البَطْشَةَ الكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ وما دون البطشة الكبرى هو انتقامه بالجزاء العاجل في هذه الدنيا، وبخاصة لقريش غزوة بدر فهي الصغرى بالإضافة إلى بطشته الكبرى يوم القيامة، ولتداخل هذا الخطاب بعضه في بعض قالوا: إن اللزام والبطشة والدخان قد مضت، وعلى القول بالحق إنما هذه كلها آيات على ما يأتي بعد هذه آيات عليهن وعلامات لهن فافهم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان:١٧ - ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾[(٢)] [الدخان:١٧] أي: وجيه عند الله - جلَّ ذكره - فيهم عن الهدى لوى برقابهم عنه ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ﴾ [الدخان:١٨] كما قال: أن أرسل معي بني إسرائيل ولا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أي: امتحناهم بإرسال موسى ﷺ إليهم على أنه من فتن الفضة عرضها على النار، فيكون بمعنى الامتحان، وهو استعارة، والمراد: عاملناهم معاملة الممتحن؛ ليظهر حالهم لغيرهم، أو أوقعناهم في الفتنة على أنه بمعناه المعروف، والمراد بالفتنة حينئذٍ: ما يفتن به الشخص؛ أي: يغتر ويغفل عما فيه صلاحه كما في قوله تعالى: ﴿إنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥] وفسرت هنا بالإمهال وتوسيع الرزق. وفسر بعضهم الفتنة بالعذاب، ثم تجوز به عن المعاصي التي هي سبب وهو تكلف ما لا داعي له. وقرىء «فَتَّنَّا» بتشديد التاء إما لتأكيد معناه المصدري، أو لتكثير المفعول أو الفعل. تفسير الألوسي (١٨/٤٤٣).

تعذبهم رسول أمين يريد على الوحي ناصح لهم.

ثم قال: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان:١٩] فكان إرساله إليه أن يرسل بني إسرائيل وأن يسلم كما قال: ﴿هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات:١٨ - ١٩] وأرسل معي بني إسرائيل ولا تعذبهم.

قوله تعالى فيما حكاه عن رسوله ﷺ: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان:٢٠ - ٢١] الرجم: قد يكون بسيئ القول، وهو القذف، وقد يكون القتل بالحجارة، فقد قالوا فيه: ساحر ومجنون وكذاب، وقال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر:٢٦] ولما بلغ ذلك موسى - صلوات الله وسلامه عليه - قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ﴾ [غافر:٢٧].

يقول ﵇: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان:٢١] أي: سالموني ينتظر بهم وعد الله تعالى.

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الدخان:٢٥ - ٣٣].

قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان:٢٥ - ٢٦] وقال في سورة الظلة: ﴿أَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٥٧ - ٥٨].

لما كان المعهود من الزرع الحصد في أقرب المدة قابل ذلك بقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان:٢٨] لم يكن لبني إسرائيل في تلك المدة رجوع إلى مصر، فأورث زروعها وجناتها وما فيها من مقام كريم قومًا آخرين ليسوا بآل

فرعون فإنهم قد أهلكوا، ولا ببني إسرائيل فإنهم قد عبروا البحر، ولما توطد ملكهم بالأرض المقدسة اتصل بمصر فورثوا كنوزها وأموالها وأرضها ونعمتها ومقامها الكريم.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف للتشبيه، و«ذلك» مشار إليه، وهو إهلاكه الأمم قبلهم وبعدهم لأجل كفرهم وردهم رسالات ربهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات:١٨] وقال فيهم: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٦].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾[1] [الدخان:٢٩] أي: أنهم لم يؤخروا إلى عذاب الآخرة، ولا عظم قدر إهلاكهم لهوانهم في أهل السماوات والأرض، بل عجّل لهم خزي الدنيا وعذاب الآخرة فخسروا الدارين، نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا والآخرة، جاء أن المؤمن إذا مات بكى عليه مصعد عمله ومهبط رزقه حزنًا لفقده، والكافر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدخان: ٣٤ - ٤٢].

قوله - عز من قائل - فيما حكاه عنهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ

(١) قال البقلي: كيف تبكي السماء والأرض على من يدَّعي الأنائية في ساحة كبرياء الأزل، والسماوات والأرضون في عظمها تصير هناك أقل من خردلة من هيبة عزة جبروته وملكوته، فغارت عليهم السماوات والأرض؛ إذ ادَّعوا ما ليس لهم في أمر الربوبية، وهي تبكي على العارفين الذين لا يجترئون أن يصفوا معروفهم بجميع الألسنة حياءً منه، إذا فارقوا من الدنيا تبكي السماوات والأرض بمفارقتهم حين لا تصعد عليهم أنوار أنفاسهم ولا يجري عليها بركات آثارهم كما روي في الحديث أن: «السماءُ والأرضُ تبكي بموت العلماء».

بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان:٣٥] قد علموا أنهم يموتون إثر هذه الحياة الدنيا كما مات آباؤهم الذين سألوا إرجاعهم، فالموتة الأولى هي إذن الموتة التي أعقبتها هذه الحياة، ثم قالوا مع هذا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان:٣٥] فقد أقروا بالموتة الأولى وبالإحياء منها وبالإماتة من هذه الحياة، وأنكروا البعث والنشور؛ أي: بعث الأجسام ونشرها مرة أخرى كما قالوا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة:٤٧] فإذن إنما أنكروا خلق الأجسام ثانية والمجازاة، وهذا مقال الدهرية، يقولون: أنهم يحيون ويموتون ثم يحيون ثم يموتون لآماد ذكروها.

حكى الله ﷻ ذلك في كتابه عنهم بقوله الصدق: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون:٣٧] وفي غير هذا الموضع: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

يقول الله وقوله الصدق ووعده الحق لرسوله ﷺ: ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: هذه الحياة عن الموتة التي كانت قبلها ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ أي: للجزاء بأعمالكم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٦] أنهم مجازون، فمن قال ممن ينسب إلى الإسلام والإيمان بما جاء في كتاب الله أن الأجسام بأعيانها ليست المعادة فقد غلط وأخطأ قول الحق، بل الله العليم القدير خالقها مرة أخرى ومعيدها للجزاء على ما هي عليه من البلاء، وكونها في التراب والأجواء وظلالها في وجود الموجودات إن ربك عليم قدير.

ولأجل هذا اغتبط السعداء - رضي الله عنا وعنهم - في مقامهم الأمين، حيث قال منهم القائل: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ المُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات:٥١ - ٥٤] إلى قوله: ﴿تَالله إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات:٥٦] إلى قوله لأصحابه المكرمين - رضي الله عنا وعنهم: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الأُولَى﴾ [الصافات:٥٨ - ٥٩] يعنون التي كانت قبل هذه الحياة ثم ماتوا عنها يقولون التي بقيت علينا ظواهرها: ﴿وَمَا نَحْنُ﴾ فيها ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات:٥٩] كما هم الآن أولئك ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [الصافات:٦٠].

يقول الله - عز من قائل: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾ [الصافات:٦١]

فيجدون جزاء ذلك حال الموت وفيما بعده الحياة الآخرة.

لذلك أعقبه هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السموات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[1] الذي هو الإرجاع إليه والجزاء ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨ - ٣٩] هذا منتظم بقولهم ردًا عليهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان:٣٥ - ٣٦].

يقول الله ﷻ: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان:٣٧].

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السموات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨] إلى آخر المعنى، كما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥ - ١١٦] لو نظروا إلى اختلاف الليل والنهار وتدوار الأفلاك، وإيلاج الأزمان بعضها في بعض لعلموا يقينًا أنه لا بد من حياتين وموتتين، وأن الابتداء كان من موت، وأن القرار يكون على حياة كما قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِالله وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أي: من موت ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج:٦٦] فالموت الآتي بعد حياتنا هذه يرجع على الموت الذي كانت حياتنا هذه عنه، ثم تكون الحياة الأخرى ترجع على هذه الحياة كدائرة من أربعة أجزاء، وفي ذلك يتبين الحق المخلوق به السماوات والأرض ما هو هذا المشاهد به عليه ذلك له.

نظم بذلك ما هو من العبرة قوله الحق: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ اللهُ﴾ [الدخان:٤٠ - ٤٢] أي: لا يغني ناصر عن حميمه ولا ولي عن وليه، ولا من كان النصر منه في

---

(١) قال البقلي: كان في علم الله في أزل أزله أنه يوجد الكون من العدم، فأوجده بحق العلم السابق، وذلك الحق حقُّ سوابق إرادته الأزلية على وجود الأكوان والحدثان؛ لتحقق بأنوار حقائق اصطناعه حقائق أنوار قلوب العارفين، وليتطرقوا بوسائط الشواهد إلى مشاهد جلاله وجماله؛ لئلا يحترقوا بالبديهة في بروز سطوات قدسه وكبريائه.

الدنيا معهودًا فينصر، يقول: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللهُ﴾ وإنما وجبت رحمته للمؤمنين، لما فصل النهار من الليل والليل من النهار، والخير من الشر، والضر من النفع، والإيمان من الكفر، وحدد الحدود وأجل الآجال دل بذلك كله على القضاء يوم الدنيا واستقبال اليوم الآخر.

ولما خلق السماوات والأرض وما بينهما وكل شيء له قانت وله عابد وساجد ومسبح وحامد ومكبر ومصلٍ ومنفق مما عنده، وشاهد له بما هو أهله من الوحدانية والتفرد بحقيقة الألوهية والأسماء الحسنى والصفات العلا، كان مالك ذلك كله دون ممانع له ولا مظاهر عليه أمر بما شاء وتمنى عما شاء، وكان ذلك منه في موجود ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما عليه من الحق الذي شرعه لها وفطرها عليه وهو الصراط المستقيم.

أرسل بذلك رسله وكتب به كتبه، واصطفى على ذلك وهدى، ووالى عليه وعادى، وأكرم به من شاء وأهان، وقرب من أجله من شاء وأقصى، فهو إذا قضى بتمام يوم الدنيا وأقبل بيوم الأخرى جمعهم بين يديه؛ ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، وليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فأمن بذلك المؤمنون وسلموا لله أنفسهم كما سبق لهم عنده في الأزل، فأوجب لهم بذلك رحمته النجاة من جهنم وعذابها والفوز العظيم من الجنة ومثال ما فيها، وهذا من الحق المخلوق به السماوات والأرض الجنة وجهنم، من ذلك ما نظم به من ذكر جهنم والجنة قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ [الدخان:٤٣].

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان:٤٣ - ٥٠].

قوله ﷻ وقوله الحق: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٤] هو: المتكبر الكافر ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي البُطُونِ * كَغَلْيِ الحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٥ - ٤٦] قالوا: المهل: عكر الزيت. وقالوا: الصديد، والله أعلم.

والصديد بما هو حيثما حلَّ من الجسد فسكن فيه أفسده ورهله، هذا معهوده في الدنيا، ولأنه كان من دمائهم ولحومهم فهو شرابهم، وإليه يؤول طعامهم يغلي في البطون كغلي الحميم، وربما كان كعكر الزيت لونًا وصديدًا في الحقيقة، وشجرة الزقوم في جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - في مقابلة شجرة طوبى في الجنة، نسأل الله رحمته في يسر وعافية.

قالوا: هي أيبس من الحجر وأحر من النار حال السعير وأبرد من الزمهرير في دولته، تتحول في بطونهم غليانًا في السعير ونكالاً في الزمهرير، يضطرون إلى أكلها وإلى شراب الغسلين كما يضطر أهل الدنيا لإدخال الطعام والشراب.

قال الله - عز من قائل: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ أي: في موجودات الدنيا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ فيما هو عنها ومنها ﴿إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤].

يقول - عز من قائل: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾[1] العتل: هو أن تأخذ بتلبيب الرجل فتجره إليك ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان:٤٧] وسطها ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٨] هو: مطر يمطرونه من فوقهم له عذاب زائد إلى ما هم فيه، كما أن بركة الماء تنزل من السماء ليست لغير ذلك، كذلك لما ينزل عليهم مما هو بدل من ماء السماء عذاب يجدونه ليس لسواه.

لذلك - وهو أعلم - قال: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٨] فمن ذلك أنه يصهر به جلودهم ولحومهم، ويضطرون إلى شربه فيصهر به أيضًا ما في بطونهم من حشوة - نعوذ بالله من عذابه ومن جميع ما يوجبه - ثم يسحبون فيه وقد انسلخت جلودهم عن لحومهم فيسجرون في النار؛ أي: يوقدون.

---

(١) قال الراغب: العتل: الأخذ بمجامع الشيء وجره بقهر، وبعضهم يعبر بالثوب بدل الشيء، وليس ذاك بلازم، والمدار على الجر مع الإمساك بعنف. وقال الأعمش ومجاهد: معنى «اعتلوه»: اقصفون كما يقصف الحطب، والظاهر عليه التضمين أو تعلق الجار بـ«خذوه» والمعنى الأول هو المشهور. وقرأ زيد بن علي والحجازيان وابن عامر ويعقوب: «خُذُوهُ فاعتلوه» بضم التاء، وروي ذلك عن الحسن وقتادة والأعرج، على أنه من باب قعد، وعلى قراءة الجمهور من باب نصر، وهما لغتان. تفسير الألوسي (٤٧٩/١٨).

يُقال للآثم على ذلك: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] هذا الآثم كان في الدنيا داعيًا إلى نفسه نازع ربه العزة والكرم فقصمه، يقال له ذلك على التهزؤ منه، وقيل: إن أبا جهل بن هشام قال يومًا للنبي : ﷺ ما بين جبليها أعز ولا أكرم مني، فإن يكن هذا هكذا فليس أيضًا بمقصود عليه ذلك وحده، فإنه يقال لهم: ﴿هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان:٥٠] هذا مما يعرف يقينًا من الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما، فافهم.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الدخان:٥١ - ٥٩].

نظم بذلك ما هو من العبرة بالحق المذكور قوله الحق: ﴿إِنَّ المُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان:٥١] بالفتح في الميم وضمها، فمن قرأ بضمها فقراءته خارجة على وصف كون التقي في جنات وعيون، ومن قرأ بنصبها فقراءته خارجة على وصف حالهم فيها وإقامتهم ولبسهم السندس والاستبرق، فإن المقام: هو الإقامة بالمكان. وبالفتح هو: المكان الذي يقام فيه والحال الذي ينال في ذلك المقام.

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف للتشبيه، و«ذلك» مشار إليه، وهو المعهود في الدنيا أي: كالذي عهدتم منه بما هو مشبه به على بعد من الشبه وآية عليه، ثم قال: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان:٥٤] وفي قراءة عبد الله: «وأمددناهم بعيس عين» والعيساء: البيضاء الحوراء.

وقرأ عكرمة: «وزوجناهم بحور عين» على الإضافة، وقرأها إبراهيم النخعي: «وزوجناهم بعين عين».

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ ما يتحد ويستدعى بعد قضاء الحاجة فهو فاكهة، ونقل المستعمل كذلك بفاكهة «فاكهين مسرورين» وتقرأ: «فكهين» يعني: أشرين

فرحين، وهو معدول من الفكاهة، فكه الرجل؛ أي: مزح، ومتفكه: مسرور متنعم ﴿آمِنِينَ﴾ [الدخان:٥٥] من حساب ومن عذاب ومن غضب ربهم، ومن مؤاخذة بما هم فيه، قد علموا أن ربهم راضٍ عنهم، وبذلك طابت الجنة ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢].

ثم قال - وقوله الحق: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ﴾ [الدخان:٥٦] لما كان من في النار من الموحدين تمسهم النار بما كانوا في الدنيا يكسبون، يميتهم الله فيها إماتة وكأن الكفار فيها لا يحيون ولا يموتون، وصفهم بقوله الحق ووعده الصدق: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ إِلَّا المَوْتَةَ الأُولَى﴾ [الدخان:٥٦] التي كانوا ماتوها في الدنيا، وحسن الاستثناء بموت أصابهم في الدنيا من حال يكون لهم في الجنة من أجل أن الدنيا إذا تحققت في حق المؤمن التقي وتتبع النظر فيها فإنها جنة صغرى؛ لتوليه إياهم فيها وقربه منهم ونظره إليهم، وذكرهم له وعبادتهم وشغلهم به وهو معهم أينما كانوا، ويفتح برحمته في الدنيا ورؤية المؤمن ذلك وعلمه به وإطلاع الله - جلَّ ذكره - إياه على ذلك.

قال رسول الله ﷺ في مجالس الذكر: «إنها رياض الجنة»[1] وكذلك سائر العبادات المؤدية إلى الجنة جنة، فحسن لذلك الاستثناء من هذه، فافهم.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الجَحِيمِ * فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان:٥٦ - ٥٧] كانوا في الدنيا خلقوا من فيح جهنم وفتح رحمة الله وغذوا بذلك ونشأوا عنه.

يقول الله - جل من قائل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًا﴾ [مريم:٧١] فكان العذاب في جهنم والنعيم في الجنة لهم لزامًا، فامتن عليهم بفضله ورحمته أن عدل بهم إلى جنبة الجنة ووقاهم عذاب الجحيم.

يقول الله - جل من قائل ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الحديد:٢١] لذلك

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٤٥) والترمذي (٣٥١٠) وقال: حسن غريب. وأبو يعلى (٣٤٣٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩)، والطبراني في الدعاء (١٨٩٠)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٦٨).

قال، عز من قائل: ﴿ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [الدخان:٥٧].

فصل

قال الله - جل من قائل: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس:١٠٢] فذكر الله - جلَّ ذكره - أيام الأمم في هذه السورة، فمن يوم أمعن في وصفه، وهو يوم محمد ﷺ وأمته، ثم يوم موسى وأمته مختصرًا، ثم أحال على أيام القرون غيرهم، ثم ذكر بيوم الحق المخلوق به السماوات والأرض، ثم بيوم الفصل وأن منهم المرحوم وغيرهم، ثم بيوم الفرار ووصف الدارين بأبلغ وصف.

ثم قال - عز من قائل: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان:٥٨] أي: بما حواه الخطاب من ذكر الخزائن في عاجل وآجل ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ [الدخان:٥٩] أي: بما ذكر فيه من علم بمآل ما حواه يومه الذي أوله ليلة القدر المنزل فيها القرآن إلى آخر أجله وقت رفعه، ثم إلى يوم البطشة الكبرى يوم الانقراض، وبحق ما جاء وصف هذه السورة في العظم وإجزال حظ قارئها، وأن فيها لما قال رسول الله في حملة القرآن: «**فيه علم ما كان قبلكم ونبأ ما بعدكم**»[1].

فصل

قال الله - عز من قائل - حاكيًا عن أهل الجنة عندما يقفون عليه من رحمته بهم وغبطتهم بكريم منقلبهم: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [الصافات:٥٨ - ٦٠].

وكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم إني أسألك فكاك رقبتي من النار**»[2] وكما أن هذه جنة صغرى بالإضافة إلى المؤمن، كذلك هي جهنم الصغرى بالإضافة إلى الكافر.

قال الله - جل من قائل - يوم قضاء القضية لأهل اليمين: «**هؤلاء للجنة وبعمل**

---

(١) أخرجه أحمد (٧٠٤)، والدارقطني في الأفراد كما في أطراف ابن طاهر (٢٦٩)، والبزار (٨٣٤)، وأبو يعلى (٣٦٧).

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (١٨٩٧).

أهل الجنة يعملون»[١] وقال لأهل القضية الأخرى: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»**[٢] وقد عبر الوحي عن أعمال أهل الطاعة بأنها جنة، وعن أعمال أهل الكفر والمعاصي بأنها من النار، كما جاء في عائد المريض: «**أنه في خرفة من خرف الجنة»**[٣] وفي مجلس الذكر: «**أنه روضة من رياض الجنة»**[٤] وقال رسول الله ﷺ: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»**[٥] وقال في أعمال المعاصي ما يقابل ذلك كقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا**﴾ [النساء:١٠].

وقول الرسول ﷺ: «**الذي يشرب في آنية الذهب إنما يجرجر في بطنه نار جهنم»**[٦] كما قال في المصلي: «**إنه يناجي ربه وأن الله مواجهه إذا صلى»**[٧] وقد جاء في ذلك أن الله ﷻ يقول: «**ما ترددت في شيء ترددي في مؤمن يكره الموت ولا بد له منه»**[٨].

معنى ذلك: إنه في الجنة وفي جوار الله ﷻ والعمل بطاعته، وقد آمن بالمصيرين والقضاء قد سبق عليه بوجوب الموت لمعنى ما ولحكمة بالغة له في ذلك، والعبارة بمعنى التردد هو هذا - والله أعلم - فقول أهل الجنة في مقعد الصدق: ﴿**أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الأُولَى**﴾ [الصافات:٥٨ - ٥٩] التي كانت في الحياة الأولى واستثنوها من الموتة التي أصابت من أصابته في النار من هذا المعنى؛ لأنها جنة، فحسن الاستثناء منها.

ومن ذلك: قول الله - جل من قائل: ﴿**لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه بنحوه مسلم (٢٥٦٨)، والطبراني (١٤٤٦)، والطيالسي (٩٨٨)، وابن حبان (٢٩٥٧).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه أحمد (٧٢٢٢)، والبخاري (٦٩٠٤)، ومسلم (١٣٩١)، والترمذي (٣٩١٦) وابن حبان (٣٧٥٠).

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٨٧٨).

(٧) أخرجه عبد الرزاق (١٦٨٢)، وأحمد (٤٩٠٨).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا (١)، وأبو نعيم في الحلية (٣١٨/٨)، وابن عساكر (٩٥/٧).

الأُولَى﴾[1] [الدخان:٥٦] والكافر يُلقى في النار فهو لا يموت فيها ولا يحيى، وهو في حال البرزخ يحيا لعذاب ما هنالك، وإنما يعطى من الإحياء القدر الذي يحس به عذاب ما هو فيه، وما يعلم به جري مقامه وقدر ما فاته ويبالغ له في ذلك جدًّا، وقد جاء أن: «**قومًا تشرخ رءوسهم، وقوم تشرشر أشداقهم، وقوم يقتلون بكل من قتلوه**»[2] وهذا كله يعطي إماتة كبيرة إلى حياة خسيسة مخزية، نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا والآخرة وفيما بين ذلك.

نظم بذلك قوله: **﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** [الدخان:٥٨] الدنيا والآخرة وما بين ذلك والمصيرين ويناسب الأولى من الآخرة.

﴿فَارْتَقِبْ﴾ أي: ما يعروهم ويصيبهم من أجل تكذيبهم وكفرهم **﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾** [الدخان:٥٩] موتك وذهابك؛ لأنهم لا يعقلون مآل هذا كله، فالمفهوم مما ذكره في هذه الصحيفة المباركة المطهرة الصادقة: أن العبد نائل عند خروجه من هذه الدار وحلول الموت به من وعد الله ووعيده ما هو وجوده على التوسط والمرج من جنة أو جهنم بين موجود ما في هذه الحياة الدنيا وبين ما هو في الحياة الآخرة، ولذلك ما أخبر بقوله الصدق عن المتقين أنهم في مقام أمين في جنات

---

(١) قال الورتجبي: افهم يا فَهِم لو تدرك حقائق أمور المعارف لا تتهمني بالجهل فيما أقول لك؛ فإن الموت الأصلي هو العدم، وكيف يموت من أوجده الحق بنور القدم، الموتة الأولى هي عدمهم قبل وجودهم، فبعد الوجود لا يكون القدم بالحقيقة، إنما يجري عليهم أطوار فنون امتحانات الحق كالذهب ساعة في طين، وساعة في نار، وساعة في بوتقة، وساعة في سواد، وساعة في بياض حتى يعود إلى ما خرج من المعدن، فأطوار الخليقة إلى الأبد في تقلبها بقاء في بقاء، وكيف يفنى بالحقيقة من أوجده الحق من مكمن الغيب إلى قضاء ربوبيته، فإذا أحضرهم في ساحة كبريائه ويتجلى لهم بالبداهة من عين الجبارية والقهارية يكونون في محل الفناء وفي فناء الفناء من عليات سطوات ألوهيته، فإذا صاروا فانين ألبسهم الله لباس بقائه؛ فيبقون ببقائه أبد الآبدين، فإذا الاستثناء وقع على التحقيق لا على التأويل فيأرب موت هناك؛ ويأرب حياة هناك؛ لأن الحدث لا يستقيم عند بروز حقائق بواطن القدم، ألا ترى إلى إشارة النبي ﷺ كيف قال: «حجابه النورُ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

(٢) ذكره ابن تيمية في منهاج السنة (٧٢/٥)، وقال: هذا كذب، فإن المعراج كان بمكة قبل الهجرة بإجماع الناس.

وعيون؛ أي: الآن كما قال في غير هذه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الذاريات:١٥ - ١٦] فذكر ذلك على الحال في قوله: ﴿آخِذِينَ﴾ أي: هذه حالهم الآن، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

تفسير سورة الجاثية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠)﴾ [الجاثية:١ - ١٠].

قوله - عز من قائل: ﴿حم * تَنزِيلُ الكِتَابِ﴾ [الجاثية:١ - ٢] أي: اللوح المحفوظ، تنزيل: تيسير فهمه وتيسره للتذكر ﴿مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾ [الجاثية:٢].

ثم أنشأ يذكر من [نسخه][١] الكتاب المبين بقوله - جل من قائل: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية:٣] إلى قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية:٥] ذكر عن الفراء أنه قال في قراءة عبد الله: «آيات» في [ثلاثتها][٢]، وكذلك قرأ عبد الله: «وفي اختلاف الليل والنهار» بزيادة «في».

فصل

قوله: آيات لقوم يؤمنون و﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٣] [الجاثية:٤] و﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

---

(١) هكذا في (خ).

(٢) هكذا في (خ)، وغير واضحة في (ف).

(٣) قال الورتجيبي: أي: ما بان في السماوات والأرض بان في خلق الإنسان والحيوان أيضًا، فما بان في السماوات والأرض للمؤمنين بان في خلق الإنسان والحيوان للموقنين؛ لأن ما بان في خلق الإنسان حقيقة مباشرة الصفة في الفعل، وذلك يوجب حقيقة اليقين، وبين اليقين =

[الجاثية:٥] أي: آيات موصلة إليه وإلى مقتضيات أسمائه وصفاته، واليقين بالحق الذي فطر الخليقة كلها عليه في النظر في الكائنات من السماوات والأرضين وما بين ذلك بدءًا يحصل الإيمان، ثم بمداومة البحث وتعاهد الأذكار واستصحاب الاعتبار يترقى في الدرجات، وبالنظر من المرء في نفسه وخلقته وخلقه وصفاته وأسمائه يتحصل اليقين، ثم بمداومة التعبد ولزوم التقوى إلى الممات يتحصل القرب ومحض المعرفة وعلي العلم.

ويلحق بذلك النظر في الحيوان والجماد أيضًا لكن على حكم تمهيد النشء، وبالنظر في النشأة الأولى تعرف النشأة الآخرة، وبالتفكر في وجود الدنيا تعقل وجود الآخرة، وبالنظر في موجوداتها تعلم موجودات ما هنالك، وبالتذكر لصغر الدنيا والإيمان بانقطاعها والطريق المؤدي إلى الإيمان بذلك هو في اختلاف الليل والنهار وتعاقب الأزمان ودوران الأفلاك، ثم بذلك يعلم كبر الآخرة وسعتها وفضلها على هذه، وطريق ذلك استصحاب حكم النشء، وأن ذلك كله صائر من صغر إلى كبر، وبذلك يتقرر العلم بتوالي وجود الآخرة، وهو المسمى بالخلود، وبرؤية تيسير الله - جلَّ ذكره - إجزاءه الموجودات في الدنيا حال إعدامه إياها إلى موجودات أخر تنشأ عن ذلك أو تفنى عندها لمعنى مرصد بها يعقل إرجاعه إياها إليها على سبلها يوم بعثها حين إحيائها، ويحصل اليقين الحق بذلك بالوقوف على المحصول من أن من الله - ﷻ - المبدأ وإليه إذًا المنتهى، وإليه المرجع والعود عنه، بدأنا وإليه يعيدنا كما بدأنا من التراب وإليه يعيدنا، فلا بد من لقاء الله لا مرية في ذلك.

نظم بذلك قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ

=

والإيمان فروقٌ كثيرةٌ، وحقيقة الإيمان هو اليقين؛ حين باشر الأسرار بظهور الأنوار، ألا ترى كيف سأل النبي ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك إيمانًا يباشرُ قلبِي ويقينًا ليس بعده كفرٌ». قال بعضهم: في شواهد القدرة وآثار الصنع دلالاتٌ وآياتٌ على وحدانيته، فمن استشهد بها على وحدانيته فهو الموحِّد، ومن كان نظره إلى القادر الصانع المبدي لها ثم يرجع إلى الصنع والقدرة فهو العارف.

وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦].

﴿ هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الجاثية: ١١ - ١٧].

نظم بذلك قوله - جل من قائل: **﴿هَذَا هُدًى﴾** [الجاثية:١١] يعني، وهو أعلم: القرآن والوجود الذي قدم ذكره قوله تعالى: **﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾** [الجاثية:١٢] أي: بحفظه وكلأته وإذنه وبأمره أيضًا الذي إليه المصير في الدار الآخرة **﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [الجاثية:١٢] يقول: فتصيروا إلى أمثالها فيما هنالك وما هو خير من هذا وأبقى، ويعم ما هاهنا قد عم به المؤمن والكافر، فمن شكر فإنما يشكر لنفسه، يصير فيما هنالك إلى جزاء ما عمل وجزاء ما آمن به جزاءً وفاقًا، ومن كفر يصير في ظلمات تهوره إلى جزاء ما عمله وجزاء ما كفر به في أسفل السافلين **﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾** [الأنعام:١٣٩] فافهم.

أتبع ذلك ما هو منه قوله - جلَّ ذكره: **﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾** [الجاثية:١٣] أي: من عنده، هذا فيما يكون النظر فيه من جهة الإيجاد والخلق، وإن كان النظر جاملاً في الإنعام والمن والفضل فمن مشيئته به وقدرته عليه، وإن كان المنظور فيه فيما هو الهداية والآيات والدلالات وأنه النور والعالم كله كبيت ملئ سرجًا وأضواء ونيرات بهن يتبين موجودات البيت، وإن كان البحث عن منبعث الأنوار والهدايات والعلامات والدلالات وجاعلها فارجع إلى ما

تقدم ذكره من الشرح التي أضاء به البيت؛ فتوهم الزيت الذي تضيء به السرج فهو المنبعث والشجرة المباركة الزيتونة مَثَل للحق المخلوق به السماوات والأرض ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٣].

وقرأ ابن عباس وعبيد الله بن عبيد بن عمير: «وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميْعًا مِنّة» مثقلة منونة على المصدر، وقرأ مسلمة بن حارث: «مَنُّهُ» بفتح الميم وضم النون والهاء مثقلة، ويروى عنه: «مِنَّه» بفتح النون ورفع التاء وكسر الميم أي: ذلك مِنّه.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ الله لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية:١٤] هذا الخطاب حيث جاء وشبهه من الشيء المذكور في قوله - جل من قائل: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أو مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] وليس ينسخ، وهو حكم يجيء ويذهب، وعلى قدر القدرة على الانتصار والموجد، وكان نزل مثل هذا ورسول الله ﷺ بمكة والمسلمون والإسلام في ضعف، ولما ظهر الإسلام بعد الهجرة وغلب - والحمد لله رب العالمين - نزلت آيات الانتصار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقتال والجهاد، وتركت هذه وأشباهها مسطورة في القرآن مرصدة لما عسى أن يدور من دائرة.

وقوله - جلَّ ذكره: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ الله﴾ [الجاثية:١٤] تنبيه لأولي الألباب على صحة ما ذكرنا مع ما قد أوضحه الوجود فأيام الله للإسلام والمسلمين هي دوائر حكمه لهم بالغلبة على أعداء الإسلام من سبيهم وقتلهم واستيلائهم على أرضهم وديارهم وإعزاز الإسلام والمسلمين، وهي بنفسها نقم من الله على أعدائه وأعداء المسلمين، ومن أيامه أن يبتلي المسلمين بتدوار الدائرة عليهم إدالة لأهل الكفر عليهم، وتنبيهًا للمسلمين ليراجعوا أمرهم ويصلحوا ما بينهم وبين ربهم بالتوبة، فقوله: ﴿يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ الله﴾ [الجاثية:١٤] أي: لكم التي أتى بها من النصر لكم والتمكين والإعزاز، وإنما هو يدبر ﷻ الأمر ويديل الأيام بين الناس ليجزي العباد بما كسبوا من خير وشر، لذلك نظم به: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية:١٥] فهذا وما كان في معناه هو: النشء لا النسخ، فافهم فهمنا الله وإياك.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية:١٨ - ٢٢].

نظم بذلك ما هو في معناه قوله الحق: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾(١) [الجاثية:٢١] يقول - عز من قائل: انظروا إلى مجيء أحدهم، فإن كان عاملاً بالإيمان والإحسان وطاعة الله كذلك يكون مماته وحاله فيها وبالضد، وسمى الحياة للمؤمنين والكافرين والممات للصنفين على معنى قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥] وإلا فالمؤمن حي في الدنيا حتى حال الموت، والكافر ميت في الدنيا ميت في الآخرة إلا ما كان من معنى الحياة تلحقه لإذاقة العذاب الذي يصيبه، وتكون على معنى أنها من النشء.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [الجاثية:٢١] يعني: الكفار أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، كقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨] يعني: في الدنيا بالقتل والجلاء والخزي، وفي الآخرة عذاب جهنم، ويكون معنى

---

(١) استئناف مسوق لبيان حال المسيئين والمحسنين إثر بيان حال الظالمين والمتقين، و«أم» منقطعة، وما فيها من معنى «بل» للانتقال من البيان الأول إلى الثاني، والهمزة لإنكار الحسبان على معنى أنه لا يليق ولا ينبغي لظهور خلافه، والاجتراح: الاكتساب، ومنه الجارحة للأعضاء التي يكتسب بها كالأيدي، وجاء: «هو جارحة أهله» أي: كاسبهم. وقال الراغب: الاجتراح: اكتساب الإثم، وأصله من الجراحة، كما أن الاقتراف من قرف القرحة، والظاهر تفسيره ها هنا بالاكتساب لمكان السيئات، والمراد بها على ما في «البحر»: سيئات الكفر. تفسير الألوسي (١٩/١٩).

ذلك أيضًا في جنبة الخلائف والخلوف ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: المؤمنين العاصين، أن نجعلهم في النصر والغلبة لأعدائهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء محياهم عصيان هؤلاء وإدالة أعدائهم عليهم ومماتهم في نزولهم عن ثواب المتقين في الآخرة ونصرهم وأمنهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام:١٣٦].

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

ويكون المعنى أيضًا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [الجاثية:٢١] أي: الكفر كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم، يقول: انظروا إلى محيا هؤلاء عمى وكفرًا وضلالة، فإنهم في مماتهم وبعد مماتهم في جزاء ذلك وإلى محيا هؤلاء هداية وإيمانًا وإحسانًا، ففي جزاء ذلك يكونون حال مماتهم، وبعد ذلك يوم الحشر والعرض على الله ﷻ في يوم الخلود ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس:٣٠].

نظم بذلك ما هو إتمام للعبرة قوله الحق: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٢] وفي معهود الحق المخلوق به السماوات والأرض، وموعود القرآن والوحي الإعلام والجزاء واستيفاء الحق مع التعريض بالفضل وإعطاء القسط وإقامة الوزن مع الإعلام بالتجاوز والعفو.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ائْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية:٢٣ - ٢٦].

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ قرئ: «آلهة هواه» أي: أنه يعبد ما يهوى ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أي: على علم من الله تعالى أنه لا يهتدي، وأنه يستحب العمى على الهدى ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾

ويكون المعنى أيضًا على علم منه بالهدى فأعرض عنه، وعلم ذلك يتحصل لهم بالفطرة يريد فعل ذلك به عقوبة لإعراضه عن الهدى بعد إذ جاءه ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية:٢٣] إذا كان المرء لا يقدر على هداية نفسه فكيف يهديه غيره إلا الله لا إله إلا هو؟!.

فصل

ذكر عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: القدر سر من أسرار الله، وحجاب من حُجَب الله، مثله كمثل بحر عميق كما بين السماء والأرض، في قعره شمس تضيء لا يطلعها إلا المدبر الحكيم، وإذا كان يوم القيامة كشف عن علم القدر، فعلم الخلق ﴿أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج:١٠] ومن تكلم فيه فقد ضاد الله في ملكه وكاشفه في سره، وأن الله سبحانه قد علم في الأزل ما العباد به عاملون، كما قال: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ويكتب للعبد في بطن أمه رزقه وعمله وعمره وشقي أم سعيد**»(١).

وفي هذا أنه لا بد ولا محالة قد سبق علمه العلي بما هم به عاملون لو جعل المشيئة إليهم، فكتب علمه في عمل كل واحد منهم بما هو محققه لنفسه ومؤثره إذا هو أوجده لو كانت المشيئة إليه، ثم استعمل كلاً بما علم منه من مشيئته التي هو يشاؤها لو جعل المشيئة إليه فصار كل الخلق محمولاً على ما علمه الله منه أنه يفعله بمشيئته من نفسه لنفسه وإرادته لذاته مقسورًا عليه لا بد من فعله ولا خروج له عنه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ وفي قراءة عبد الله: «**وما يهلكنا إلا دهر**» لما لم يقولوها عن علم صحيح مستقر في قرارة قلوبهم لم تنسبهم إلى العلم، وإن كانوا قد وافقوا الحق فلم يصوب مقالهم فقال: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بالدهر، والله أعلم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤] وإنما عنوا بقولهم الدهر: الزمان، والدهر هو: الله لا إله

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٧٤٥٤).

إلا هو.

قال في غير هذا الموضع: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس:٣٩] أي: كذلك قالوا وكذبوا قولهم بفعلهم.

وقال في موضع آخر: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨].

يقول الله - جل من قائل: ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٦].

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الجاثية:٢٧ - ٣١].

أتبع ذلك: ﴿وَللهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ لا يعجزه شيء ولا يفوته فائت، يحيي ويميت ثم يحيي ويفعل ما يريد؛ لذلك قال - عز من قائل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية:٢٧] خسروا أنفسهم وأهليهم والجنة وجوار ربهم ﷻ وملك السماوات والأرض ما هو باطنهن وهي الآخرة.

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية:٣٢ - ٣٧].

نظم بذلك خسارتهم وغبينتهم قوله يخاطبون في النار: ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: دون إكرام ولا دخول الجنة فيها كما تركتم الإيمان والعمل في النجاة منها، ثم قال وعطف بالواو: ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: حال الموت طول مدة البرزخ ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الجاثية:٣٤].

نظم بذلك قوله: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ الله هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ [الجاثية:٣٥] بأنهم غرتهم الحياة الدنيا استحقوا البقاء في العذاب طول أعمارهم، وباتخاذهم آيات الله هزوًا وغفلتهم عن آيات الله في الوجود استحقوا أن يمكثوا فيها مادامت السماوات والأرض، وبكفرهم بالله وبآيات الله ولقائه وبما له من الأسماء والصفات استحقوا الخلود أبدًا في البعد من جوار الله ﷻ في الدار الآخرة.

تفسير سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف:١ - ٥].

قوله ﷻ: ﴿حم * تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾[1] [الأحقاف:١ - ٢] محذوف «هذا» والله أعلم، فاستمعوا له وأحضروه قلوبكم أو ما يكون معناه هذا.

قوله ﷻ: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأحقاف:٣] وقد تقدم أن جميع الوجود أوله وآخره نسخة لأم الكتاب، والسماوات والأرض إشارة إلى بعض الوجود، وبعضه يعطى من الدلالة على المطلوب ما يعطيه الكل بوجه ما غير أن ما علا أوضح دلالة وأقرب شهادة وأبين إشارة، وما صغر من الموجودات دلالته محملة يحتاج المستعرض فيه إلى التثبت وتدقيق النظر والبحث.

وقد تقدم الكلام في الحق الذي تضمنه وجود السماوات والأرض وما بين ذلك والمشير إلى انقضاء الآجال، والشاهد عليه هو في تدوار الدوائر بالأمر ورجوع أواخر الحكمة بذلك على أوائلها، والإقبال بأوائلها على أواخرها من الليل والنهار والشمس والقمر وتسيار الكواكب واختلاف الأزمان إلى غير ذلك.

---

(١) هذه السورة مكية، وعن ابن عباس وقتادة: إن ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ﴾ و﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ﴾ الآيتين مدنيتان. ومناسبة أولها لما قبلها: إن في آخر ما قبلها ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا﴾ [الجاثية:٣٥] وقلتم: إنه ﷺ اختلقها، فقال تعالى: ﴿حم * تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾ وهاتان الصفتان هما آخر تلك، وهما أول هذه. تفسير البحر المحيط (١٠/٤٥).

يقول الله - جل من قائل: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ**﴾ [الأحقاف: ٣] شهدت عندهم شواهد الوجود فما سمعوا لها ولا أصغوا إليها، وأنذرتهم الرسل والكتب من عند الله فأعرضوا عنها.

قوله - عز من قائل: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ**﴾ [الأحقاف:٤] وفي قراءة ابن مسعود: «قل أرأيتكم من تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض» هذا كله من تنزيل الكتاب المبين وتبيين له وتيسير.

أتبع ذلك قوله: ﴿**ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَو أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ**﴾ [الأحقاف:٤] وقرئ «أو أثرة» بغير ألف، قراءة قتادة، فالأثرة: خاصة العلم، وكالمكنون منه يخص الله به قومًا دون قوم.

قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**إنكم سترون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**»(١) يقول: سيأتي بعدي أمراء يؤثرون عليكم سواكم ويستأثرون بأموال الله دونكم فاصبروا.

والأثارة: هي البقية من أثر يؤثر من كل شيء يرى بعد ذهابه وحال دروسه، والأثارة من العلم: ما يأثره خلف عن سلف وقوم عن قوم يتحدثون به في أثارهم، يعني: بعدهم.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه: «**الخط**»(٢).

وسئل عن الخط، فقال: «**كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك**»(٣).

وقد قرئ «أو إثْرة» بتسكين الثاء، وهي: كالخطفة، فقوله: ﴿**أو أَثَارَةٍ**﴾ كأنه قال: ائتوني بمن أوثر بعلم؛ أي: من علم النبوة أو نبوة قبل هذا أنبأكم أو أمركم بعبادة ما تعبدون، والأثرة هي: المنزلة في ذلك والمكانة، فإن صح أن المراد بالأثرة هو الخط، وجاء من طريق صحيح مقطوع به، فالخط أيضًا يوضح طريقه إلى ذلك النبي

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٠٠١)، وأحمد (١٦٥١٧)، والبخاري (٤٠٧٥)، ومسلم (١٠٦١).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٩٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٨١٦)، ومسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، والنسائي (١٢١٨).

الذي كان يخط أنه هذا الخط، فهي أثرة.

لكن الطريق إلى ذلك غير واضح فيه إشكال كبير، ولعله أراد - جل من مريد وعز: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ يعني: القرآن، بكتاب كالتوراة والإنجيل والزبور والصحف إذا صحت الطريق إليها، وهذا سنام الهدى، ثم نزل إلى ما هو دون ذلك فقال: ﴿أو أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ كما يقول القائل: ائتني على صحة ما تقول وتزعم بدليل قاطع أو حجة قاهر أو شبهة يتوجه بها ما قلت.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف: ٦ - ١٠].

ثم نظم بذلك ما هو في معناه إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾[1] هو: عيسى - والله أعلم -

---

(١) المثل: صلة بعين عَلَيْهِ؛ أي: على أنه من عند الله ﴿فَآمَنَ﴾ يعني: الشاهد ﴿وَاسْتَكْبرتُمْ﴾ عن الإيمان به. واختلفوا في هذا الشاهد؛ فقال قتادة والضحاك وأكثر المفسرين: هو عبد الله بن سلام، شهد نبوة المصطفى ﷺ فآمن به واستكبر اليهود، فلم يؤمنوا كما روى أنس ﷺ قال: سمع عبد الله بن سَلَامٍ بِمَقْدِم رسول الله ﷺ فأتاه وهو يخترف في أرض، فنظر إلى وجهه فعلم أنه ليس وجه كذَّاب، وتأمله فتحقق أنه النبي المُنْتظَر، فقال له: إني سائلك عن ثلاثة لا يَعْلَمُهُنَّ إلَّا نبي: ما أَوَّلُ أَشْرَاطَ السَّاعَةِ؟ وما أَوَّلُ طَعَام أَهْلِ الجَنَّةِ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال ﷺ: «أخبرني بهن جبريلُ آنفًا» قال: جبريل؟ قال: «نعم» قال: ذَاكَ عدوّ اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة:٩٧]. «أما أول أشراط الساعة: فنار تحشر الناس من المَشْرِق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كَبِد حُوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعهُ وإن سبق ماء المرأة نزعته» فقال: أشهد أنك رسول الله حقًّا. ثم قال: يا رسول الله، إن
=

وربما كان عيسى ومن جاء بعده من الأنبياء والرسل، وجاء بلفظ الموحد على معنى الإخبار عن الجنس ﴿فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف:١٠] دل على هذا التأويل قوله بعد هذا: ﴿فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف:١٠].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحقاف:١١ - ١٤].

﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ [الأحقاف:١٢] لما بين يديه؛ أي: لما بين يديه من التوراة والإنجيل والزبور والصحف كلها.

وقرأ الجحدري والحسن ويعقوب:«وهذا كتاب مصدق لنا بين يديه لسانًا عربيًا».

وجاء في التفسير: أن الشاهد من بني إسرائيل على مثله هو عبد الله بن سلام وأنه هو الذي آمن به واستكبر هؤلاء، وهذا وإن كان كذلك من أنه شاهد على التوراة وشاهد على القرآن، وأنه آمن به واستكبر هؤلاء فلا ينبغي أن يقصر عليه دون من ذكرناه قبل هذا، إلى أن السورة نزلت بمكة، وكان إسلام عبد الله بن سلام

=

اليهود قوم بُهتٌ، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بَهَتُوني عنْدك ، فجاءت اليهود، فقال لهم النبي ﷺ: «**أيُّ رجل عبد الله فيكم؟**» فقالوا : خَيْرُنا وابن خَيْرِنَا وسيدُنا وابنُ سيّدِنا وأعلَمُنا وابن أعْلَمِنَا. قال: «**أفرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟**» فقالوا: أعاذَه الله من ذلك. فخرج إليه عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسولُ الله. فقالوا: «أشَرُّنَا وابنُ شَرِّنَا» وانتقصوه، فقال: هذا ما كنت أخاف منه يا رسول الله. فقال سعد بن أبي وقّاص: ما كنا نقول - وفي رواية: ما سمعت النبي ﷺ يقول - لأحد يمْشِي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سَلَام، وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ على مِثْلِهِ﴾ قيل: الشاهد هو موسى بن عِمْرَانَ عليه الصَّلَاة والسَّلام. [اللباب لابن عادل (١٤/ ٢١٠).

- رحمة الله عليه - أول صدر الهجرة بالمدينة، ودلائل القرآن تدل على ما تقدم، وليس بمدفوع فضل عبد الله بن سلام وصحة إيمانه قد كان سعد بن أبي وقاص ﷺ يقول: إني لا أشهد لأحد أنه من أهل الجنة إلا عبد الله بن سلام، وشهادة الأنبياء والكتب للأنبياء والكتب هي المقدمة في الشهادة، ثم شهادة الأمم بعد ذلك.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩].

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[الأحقاف:١٥ - ١٦].

وانتظم به من جهة المعنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً...﴾ [الأحقاف:١٥] الأشد أشدان:

أحدهما: البلوغ به يلزم التكليف والامتحان وأول أمده خمسة عشر عامًا أو ستة عشر على اختلاف بين العلماء، هذا مع عدم الحُلم والمحيض، يرفق به ما بينه وبين العشرين، ثم يشدد عليه ما بينه وبين ستة وثلاثين، وهو الأشد الثاني، وهو أرفع السن من حيث وجوب المحنة وعند ذلك تجب التوبة.

الثانية: التي هي بمعنى الورع في تناول الفضول والزهد في الحلال، والتقليل من المباح، وإشعار النفس الحزم والعزم، ويرفق به في هذا المطلب ما بينه وبين الأربعين، ثم يشدد عليه بعد في التجرد للآخرة بقطع العلائق واستشعار أخذ النفس بالحقائق، والتحيز بالتوبة عن كل ما يشغل عن الله ﷻ، وهو تفسير قوله: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف:١٥] وهذا هو الموعود بأن يتجاوز عن سيئاته ويجازي بأحسن أعماله، وهو من أصحاب الجنة إن شاء الله، وما عدا هذا الضرب من المسلمين فليسوا على يقين من نجاتهم، بل على خطر، ومن تعلق بالعلائق علق، ومن تقدم قدمًا إلى ربه ﷻ قدم ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي

جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة:١٠-١٢].

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) ﴾ [الأحقاف:١٧ - ٢٠].

أتبع ذلك ما يقابله في الطرف الآخر قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ [الأحقاف:١٧] إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [الأحقاف:١٨] فهؤلاء في موضع اليقين مما يصيرون إليه.

ومن بين هاتين المنزلتين بعد تحصيل الشهادة على خطر من السلامة يقول - جل من قائل: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف:١٩] فالأعلى يعلو بأعماله ويقينه في الدرجات إلى عليين، والأسفل يسفل بأعماله وكفره أو شكه أو مرضه في الدركات إلى سافلين، ثم على التدريج وفي ذلك يوفيه الأعمال على أوزانها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف:٢٠] الطيبات هنا قد تكون: الأعمال الصالحات والرزق الحلال والعدل والإحسان في القول والعمل، أذهبوها في الحياة الدنيا بإبعادها على حكم الهوى، وتوجيهها إلى غير متوجه، وإعمالها في غير معتمل، وإنفاق القوى والأرزاق في غير السبيل المرتضى، وقد تكون الطيبات هي: شهوات النفوس وإبعادها عن هواها، كذلك أولها عمر بن الخطاب ﷺ، ولما وردوا بذلك من أعمالهم بدا لهم في ما هنالك سيئات ما كسبوا.

قال الله ﷻ: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ

الحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف:٢٠] هذا خطاب ظاهر المراد به: الذين كفروا، وفيه تعريض مراد بأهل الشهادة شهادة الحق، إن لم يرد الله أن يغفر لهم يوقفون على غفلاتهم وسيّئ أعمالهم، وإنفاذ شهواتهم في سبيل أهوائهم، يقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ [الأحقاف:٢٠] المعنى إلى آخره، فيجازون على أعمالهم بأوزانها جزاء المفرطين في حظهم، الغافلين عما خلقوا له، وإن عفا عنهم وقفت أنفسهم دون مخاطبة بذلك على علو أهل اليقين وإكرام الله للمتقين الذين استعدوا وتزودوا للقاء الله - جلَّ ذكره - في ذلك اليوم، يرونهم قد ركبوا نجائب الأعمال تطير بهم في الهواء، لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون، فيشاهدون بأنفسهم تخلفهم كما شاهدوا في الدنيا تخلفهم عن التوبة العليا واستمتاعهم بشهواتهم وشغلهم بها.

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف:٢١ - ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١] أخو عاد هو: هود عليه السلام كان أخاهم نسبًا لا ولاية، والأحقاف: الرمال المتراكمة، جبال مستطيلة مشرفة دون الجبال، والتأفيك: الصد والقلب عن مرادهم ومعتقدهم، وكان قد أنذرهم بعذاب يصيبهم من عند الله إن هم لم يستجيبوا لله والرسول عليه السلام، ولنفورهم وإبائهم فقالوا له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢] أي: في رسالتك.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ قيل لهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ [الأحقاف:٢٤].

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ

عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف:٢٦ - ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ يعني: أولئك فيما مضى ﴿فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف:٢٦] ومعنى «إن» هنا، واقترانها بما هو بمعنى «ما» لم يقول ﷻ: ولقد مكنا أولئك فيما لم نمكنكم فيه من الأيدي [والعتاد][1] والأموال والأولاد وكثرة الأتباع والغاشية والعدد، والعدد وهو موجز من هنا كقول القائل: «ما إن سمعت بمثلك وما إن رأيت لك شبيهًا».

وقال دريد بن الصمة:

ما إن سمعت ولا رأيت بمثله   كاليوم طالني أينق حرب

يقول الله - عز من قائل: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله وَحَاقَ بِهِم﴾ لأجل ذلك ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦] إلى هنا ومعدم من هنا، والعقل والحلم والميز والعلم والصفات المنسوبة للإنسان الموصوف بها عظماء الأمم من الرأي والبصر فيما يأتون وما يذرون في سبل مكابداتهم وتصرفهم في شئون دنياهم، كما قال في أمثالهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ العِلْمِ﴾ [غافر:٨٣] من العلم وقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن:٦].

يقول - جل من قائل: فلم يغن عنهم ذلك من قوتهم ونفاذ بصائرهم في الأمور شيئًا، وهذا ومثل هذا يؤل بعد الإعلام بما إليه صاروا، والوعظ ساقهم إلى التعجيب بعظيم اقتداره على إخراج الظاهر من الوجود على مثال الباطن منه لإتمام كلماته في ذلك قوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون وهؤلاء للنار وبعمل**

(١) هكذا في (ف)، وغير واضحة في (خ).

أهل النار يعملون»[1] وإليه يرجع الأمر كله، وعلى مثل هذا يكون القرآن والوجود كله راجعًا إليه وإلى الإعلام بأسمائه وصفاته، ألا تسمعه يقول - عز من قائل: ﴿**فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم**﴾ يعني: عقولهم ﴿**مِّن شَيْءٍ**﴾ [الأحقاف:٢٦] إن هذا العجب المعجب، سبحانه وله الحمد.

إلى هنا نظم بذلك قوله - جلَّ ذكره: ﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ**﴾ [الأحقاف:٢٧] فهلا تذكروا فابصروا.

يقول الله ﷻ: ﴿**فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ الله قُرْبَانًا آلِهَةً**﴾ [الأحقاف:٢٨] كانوا يقولون: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى**﴾ [الزمر:٣] يقول: فهلا نصروهم؟ بل ضلوا عنهم ﴿**وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ**﴾ [الأحقاف:٢٨] أفكوا في الدنيا عن الحق المسعى فأفكوا في الآخرة عما أفكوا إليه، وأفكوا أيضًا عن ثواب من ثبت على الحق، ويقرأ: «وذلك أفَكَهُم» بنصب الفاء والكاف؛ أي: ذلك جعلهم ضلالاً كفرة. قرأه ابن عباس ومجاهد وأبو عياض.

﴿**وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٢)**﴾ [الأحقاف:٢٩ - ٣٢].

قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ**﴾ يعني - وهو أعلم: جئناك بهم وسقناهم إليك لتبلغ إليهم عن ربك فتكون رسولاً إلى الجن والإنس ﴿**فَلَمَّا حَضَرُوهُ**﴾ يعني: القرآن ﴿**قَالُوا أَنصِتُوا**﴾[2] [الأحقاف:٢٩] هكذا

(١) تقدم تخريجه.

(٢) وصف الله أهل معرفته من الجن كيف حبست ألسنتهم هيبة الخطاب وحشمة المشاهدة، وهكذا من ألبس أنوار الهيبة والعظمة يخرس لسانه عن الانبساط والمخاطبة وإفشاء السر، =

يكون أدب الاستماع.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤] أي: بإجزال الأجر وزيادة الإيمان، والفتح فيه بالفهم عنه ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩] وقرأ حبيب بن عبد الله بن الزبير: «فلما قَضَى» بفتح القاف والضاد.

فصل

في قولهم هذا إلى آخر السورة لمن تدبره إقرار منهم برسالة الإنس، ودلالة على أنهم مترقبين رسالة الرسل من الإنس إليهم من الله - جلَّ ذكره - من طريق الإنس، ولم يبلغنا أن الله اصطفى من الجن الذين هم ولد إبليس رسلاً، إنما الرسل من الإنس والنذر منهم إليهم، والنذر رسل الرسل، ومن المحنة وتحقيق الاختبار لهم أن يكون هذا هكذا؛ إذ كان وقوع أبيهم قبل من جهة الإباء عن الاقتداء بآدم ﵇ في السجود والائتمام به، فإنما تكون توبة من تاب منهم وإسلام من أسلم منهم بما يكون راجعًا إلى الإقبال على ما شرد عنه سفيههم، واعلم أن لمؤمنهم ثواب في الجنة وملك ليس كما قال بعضهم، نطق بذلك القرآن ومتى أردت موضعه منه مكشوفًا فاقرأ سورة الرحمن ﷻ.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف:٣٣ - ٣٥].

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السموات وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ

= وهذا بعد شهود القلوب أنوار الغيوب بنعت إصغاء الأسرار إلى وقوع الخطاب وكشف النقاب.

بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى﴾ [الأحقاف:٣٣] نظم آخر السورة بما في أولها من ذكر جحدهم وإبعادهم الإعادة بعد البداية ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ ولا يجوز عليه درك نَصَب ولا لُغُوب؛ لعزته عن ذلك وعلوه، وإحياء الموتى شعبة يسيرة من خلق السماوات والأرض.

أعقب ذلك بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا...﴾ [الأحقاف:٣٤].

ثم قال يخاطب رسوله - صلوات الله وسلامه عليه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥] نظم هذا بمعنى ما تقدم من ذكر تكذيبهم إياه في صدر السورة وقوله لهم: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ....﴾ [الأحقاف:٩].

تفسير سورة القتال

«محمد ﷺ»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [محمد: ١ - ٤].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[1] [محمد:١] أي: أبطلها.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد:٢] البال: عبارة عن باطن العبد،

---

(١) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله﴾ أي: أعرضوا عن الدخول في الإسلام، أو صدوا غيرهم عنه، وهم أهل مكة الذين أخرجوا رسول الله ﷺ. قال ابن عباس: وهم المطعمون يوم بدر. وقال مقاتل: كانوا اثني عشر رجلاً من أهل الشرك يصدون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر. وقيل: هم أهل الكتاب، صدوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل في الإسلام. وقال الضحاك: ﴿عَن سَبِيلِ الله﴾: عن بيت الله يمنع قاصديه، وهو عام في كل من كفر وصد. ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾: أي أتلفها، حيث لم ينشأ عنها خير ولا نفع، بل ضرر محض. وقيل: نزلت هذه الآية ببدر، وأن الإشارة بقوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ إلى الاتفاق الذي اتفقوه في سفرهم إلى بدر. وقيل: المراد بالأعمال: أعمالهم البرة في الجاهلية من صلة رحم وفك عان ونحو ذلك، واللفظ يعم جميع ذلك. البحر المحيط (١٠/٦٤).

وهو موضع الاعتقاد حيث يوجد عقد الإيمان أو ضده، فإذا أصلح الله ذلك من العبد صلح ما يدخل إليه وما يخرج عنه وما يلبث فيه، وإذا فسد فبالضد، ولذلك إذا اشتغل البال لم ينتفع من صفات الباطن بشيء، وإذا صلح ذلك في جهة الدنيا فرح وسر ورخى عيشه ونعم، وإذا أهمه الشيء اكترث له واهتم، ومنه قولهم: ما باليت بهذا الأمر، ولم أبال، ولم أبل.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا البَاطِلَ﴾ فأبطلنا أعمالهم ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٣] وهو الإيمان بالله ورسوله وما أنزله عليه، حقق لذلك أعمالهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٤٧].

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد:٣] يحض على طلب العلم في كتابه قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ ولا يكون ذلك إلا لعيسى ابن مريم ﵇، وقد جاء أن ذلك يعجل أيضًا للرجل الصالح المنتظر وهو صاحب الملحمة العظمى.

أتبع ذلك قوله: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤] فمادام الابتلاء فالقتل والقتال والمن والفداء مستمر.

﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) ﴾ [محمد:٥ – ١١].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]

---

(١) نصرة العبد لله أن يجاهد نفسه وهواه وشيطانه؛ فإنهم أعداء الله؛ فإذا خاصمها يقويه الله وينصره عليهم، بأن يدفع شرهم عنه، ويجعله مستقيمًا في طاعة الله، ويجازيه بكشف جماله =

[محمد:٧] وعد الله - جلَّ ذكره - المؤمنين إذا هم نصروا الله ورسوله أن ينصرهم ويشجع قلوبهم فتثبت أقدامهم، وأوعد الكافرين بالتعس وإحباط الأعمال، التعس: الانحطاط والعثور، وأن يكون صاحبه في هون وسفال، ومع العزم على طاعة الله تكون المعونة، وعلى قدر الصبر يكون الجزاء.

يقول الله - جل من قائل: أولئك؛ أي: من حكمنا فيهم ونصرنا لكم لأجل أنهم ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٩] يعني: أهل الكتاب، نظم هذا بقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٨].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الذين كفروا بآيات الله ورسله ﴿دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد:١٠] أوعدهم وتهددهم بما قد أنجزهم إياه، فكم قد أجل بهم في أقطار الأرض من غلبة ونهب وأسر وقتل وجلاء.

ثم قال ﷻ: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: من فعلنا بهم وإهلاكنا إياهم ونصرنا المؤمنين ﴿بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:١١] وفي باطن هذا الخطاب وعيد لهذه الأمة وتهديد أنه متى تخلت عن نصرة الله - جلَّ ذكره - والجهاد في سبيله والحكم بالحق تخلى هو ﷻ عن نصرها والكلأة لها، وسلط عليها عدوها، فقد تخلى بعض التخلي عن موالاتها بقدر ما تخلت هي عن نصرته وموالاته، وماداموا عاملين بطاعة الله وأمرهم شورى بينهم على إقامة أمر الله فالله مولاهم وناصرهم، وإن ظهر عليهم عدوهم وأخفقوا فللاختبار المكتوب، لكنهم الأعلون والله معهم، ولن يترهم أعمالهم إن شاء الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ

=

حتى يثبت في مقام العبودية وانكشاف أنوار الربوبية.

عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد: ١٢- ١٥].

نظم بما تقدم قوله الحق - جل من قائل: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٤] إنما يكون على بينة من ربه من شهدت عنده شواهده، وأعربت له عنه آياته، وبينت مجاري الحق المخلوق به السماوات والأرض والوحي ببيانه، يقول: أيكون هذا كمن زين له سوء عمله فعمي عن رشده وضل عن هدايته، واتبع هواه وأغواه عدوه فانتظم بما تقدم ذكره من أول السورة وبخاصة بالمتصل به قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢].

ونظم قوله الحق: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:١٣] بما تقدم في أثناء السورة من التهديد والوعيد للكافرين، فإن السورة تأسست على التمييز بين الذين آمنوا والذين كفروا وذكر أعمالهم، وتحريض المؤمنين على القتال والوعد بالنصر لهم إن صدقوا الله في قتالهم وسائر أعمالهم.

نظم بذلك وصفه للفائزين قوله - عز من قائل: ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:١٥] تبين في هذه الآية فضل موجودات الجنة على موجودات الدنيا، وذلك أن لبن ما هاهنا يحتلب من الضرع، يخرجه الله من بين فرث ودم يعدل به عن هذا وهذا إلى أن يكون لبنًا في عضو الضرع يستخرج بالحلب من أحاليل ضيقة، كذلك إن الماء الكائن عنه اللبن النازل من السماء ماء بين حميم برد الزمهرير وفيح السعير، وامتن الله - تبارك وتعالى - على عباده بفضله بأن غلب فتح رحمته على

فيح عذابه فأخرجه لذلك عذبًا ولم يخرجه أجاجًا.

يقول الله - جل من قائل: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠] والحمد لله رب العالمين على تغليبه رحمته على غضبه، ثم أسلكه في الأرض ظهرها وبطنها فأكسبه من الأرض معاني خلقتها، ثم أسلكه بعد في النبات على اختلافه والنبات، فهو ابن لأبيه وأمه، فتقوى الشبه من فتح وفيح، ثم أسلكه في الحيوان أيضًا فأكسبه بذلك خلقة ما أسلكه فيه، ثم أخرجه العليم القدير لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين من بين فرث ودم في هذه المسالك.

كذلك العسل قد أسلك الماء مسالكه التي تقدم ذكرها إلى النبات فحرست النحل من كل الأزهار والثمرات، ثم اتخذت من كهوف الجبال وشعفها وسقوفها ومن الشجر ومما يعرش بنو آدم لها بيوتًا فكان لها مسالك في ذلك، وقال ربك ﷻ لها ولمختلف الثمرات والأزهار: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل:٦٩] فسلك كل مسالكه التي أسلكه، فأخرج الله - جلَّ ذكره - من بطونها من ما ركبت النحل منه وبين ما يخرج منها من ثقل شرابًا مختلفًا ألوانه لاختلاف مسالكه، وما أخذ عنه فيه شفاء للناس يختلط فيه أنواع الشمع وتمتزج عصارة فراخ النحل، وما قد يختلط فيه من رجيعها، لذلك قال ﷻ ما هنالك من عسل مصفى.

يقول :ﷻ وعلى ذلك ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:٦٧] ما هنالك بما هاهنا، كذلك الخمر قد أسلك الله الماء مسالكه التي تقدم ذكرها إلى الزرع والنخيل والأعناب والثمرات يجعل عليه الماء وتخمر لتجتمع فيه أغزية كالتعفين له، ويخرج بذلك عن وجوده الأول إلى ما ليس به، فيكون عن ذلك لشاربه ضد ما يكون من الماء على علات مسالكه من ظهوره وخباءه به، وعن العسل على علاته أيضًا من شفاء فيه للناس؛ أي: لجميع الناس بواسطة ما يضاف إليه لمقاربة ما بينه وبين الموجودات، يرد ما أضيف إليه بالقوة، ويتوسط هو بين نفسه وبين ما أضيف إليه، وبخلاف اللبن الذي هو الخالص كالفطرة للإسلام السائغ للشاربين، ليس كالسكْر الذي يذهب العقل ويستنزف الميز ويجني على شاربه كثرة الصداع وضروب الإذايات، ويعقب

الخدر ويهتك الستر ويكشف السر ويخالع العذار في نبذ المروءة؛ ذلك لأنه أركس من كونه عن فتح وفيح إلى ما هو الخبال وخالص عمل الشيطان، فهذه سبل هذه الأربعة في موجود الحياة الدنيا، وهي في الحياة الآخرة أنهار من ماء غير آسن، كيف يأسن ذلك الماء وهو من خالص رحمة الله وفي قرارة رضوانه؟.

الآسن: الآجن المتغير، يقال: أسن الماء وتأسن هو، بل كيف لا يصفى عسلها ولم يسلك به مسالك ما هاهنا ولا اختلط بشمع ولا بأبعاض موتى النحل ولا بمرضوخ فراخها؟ وقد سلك مسالك الرحمة في وجود الكون واستقر في قرارة الرضوان، كذلك اللبن والخمر هذا مع ما لهم فيها من مغفرة الله ومضمون رضوانه الأكبر كل ذلك أنها جارية حالها المسك الأذفر، وحصباؤها الياقوت والجوهر، تجري في غير أخاديد، تنبت سواحلها الحور العين بين قصب الزبرجد والعقيق، طوبى لهم وحسن مآب، هذا مع ما لهم فيها من كل الثمرات ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣].

نظم بهذا قوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥].

يقول - جل من قائل: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ فكان مصيره إلى الجنة التي فيها أنهار من ماء غير آسن إلى آخر الوصف ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾[1] [محمد:١٤] واتبع هواه فكان مصيره إلى نار جهنم خالدًا فيها أبدًا يسقى ماء حميمًا فيقطع أمعاءه، كما قال: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج:١٩-٢٢].

---

(١) أخرج جماعة عن ابن عباس: أن ﴿مَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ هو رسول الله ﷺ و﴿مَّن زينَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ﴾ هم المشركون. وروى عن قتادة نحوه، وإليه ذهب الزمخشري، وتعقب بأن التخصيص لا يساعده النظم الكريم ولا داعي إليه. وقيل: ومثله كون «مِنْ» الأولى عبارة عنه ﷺ وعن المؤمنين، والمعنى: أيستوي الفريقان؟ أو أليس الأمر كما ذكر؟ فمن كان ثابتًا على حجة ظاهرة وبرهان نير من مالك أمره ومربيه وهو القرآن العظيم وسائر المعجزات والحجج العقلية كمن زين له الشيطان عمله السيء من الشرك وسائر المعاصي كإخراجك من قريتك مع كون ذلك في نفسه أقبح القبائح. تفسير الألوسي (١٩/١١٥).

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد:١٦- ١٩].

نظم بذلك عمى بصائرهم ووقر أسماعهم وبعدهم عن فهم سماع الوحي بقوله الحق: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وهم المنافقون ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ يريدون قبل افتراقنا وخروجنا عنه، يقول الله - جل من قائل: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٦].

ثم وصف خروج المؤمنين عن مجلس الذكر والقرآن بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي: زادهم إيمانًا ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧] التقوى: عمل الإيمان كما أعمال الجوارح عمل الإسلام.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ [محمد:١٨] قال رسول الله ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[1] وأشار بإصبعيه المسبحة والوسطى، وإذ لا مجيء لنبي بعده فهو من أشراطها، وأشراطها: علاماتها، ومجيء عيسى عليه السلام من أشراطها القريبة.

يقول الله - عز من قائل: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف:٦١].

فصل

الساعة من هذه الجملة ساعتان:

ساعة: بمعنى الموت، وأشراط هذه: ظهور الشيب وموت الأتراب ونقص

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٦٧) والبخاري (٦١٣٩) ومسلم (٢٩٥١) والترمذي (٢٢١٤) وعبد بن حميد (١١٦٦)، وابن حبان (٦٦٤٠).

القوى، ومنذ ولد فهو يحب جواز حلول الموت في كل أحواله و«**من مات قامت قيامته**»[(١)].

الساعة: التي هي ظهور القيامة لانقراض الدنيا واستفتاح يوم الآخرة، وكان من أشراطها يومئذٍ: ظهور محمد ﷺ وظهور أصحابه، ثم أشراطها كثيرة قد شاهدنا أكثرها، وإنما بقي منها ما يقوم مقام بوادر خيل الجيش، وفي كلتا المعاينتين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو نفسًا مؤمنة لم تكتسب في إيمانها توبة.

قال الله - عز من قائل: ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد:١٨] لذلك أتبع ما تقدم ذكره قوله، عز من قائل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ هذا هو الاعتداد للساعة، وهو أمر بطلب العلم بالله ووحدانيته وأسمائه وصفاته، وما يجوز عليه وما يستحيل أن يوصف به أو يسمى، لذلك أمر بالعلم والتعلم ثم قال: ﴿اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ هذا كله عدة للموت قبل حلوله، والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات وكلاهما من ابتغاء الوسيلة عنده، فإن اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة، فمن علم وعمل واستغفر للمؤمنين والمؤمنات شفع يوم القيامة إن شاء الله.

نظم بذلك قول الحق: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد:١٩] أشار - وهو أعلم بما ينزل - إلى أنه يغفر الذنوب على ذلك؛ إذ هي مقدرة قبل الخلق ومسماة عنده، معلومة ويمحوها الإيمان والاستغفار والعمل الصالح على ما يرضي الله ﷻ، وهو معنى قوله: «**وبعمل أهل الجنة يعملون**»[(٢)].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/٢٦٨).

(٢) تقدم تخريجه.

ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٠ - ٢٤].

قوله ﷻ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ﴾ [محمد:٢٠] أي: مثبتة الأحكام مفروضة واجبة الكتاب المبين الذي هو اللوح المحفوظ محكم له واجب الوجوب.

يقول الله - عز من قائل: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ﴾ والقتال لا يزيد وجوبه إلا تأكيدًا ﴿حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد:٤] كما تقدم وكان المنافقون يظهرون تمني نزول سورة يفرض فيها القتال مساعدة للمؤمنين، ودخولاً بذلك في جملتهم ﴿وَأَقْسَمُوا بِالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنّ﴾ [النور:٥٣].

يقول الله - عز من قائل: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ﴾ [محمد:٢٠] جبنًا عن القتال وكراهة أن يقاتلوا أولياءهم من المشركين واليهود.

يقول الله - عز من قائل: ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد:٢٠ - ٢١] أي: قبل نزول القرآن، كما قال رسول الله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموهم فاصبروا»[1].

يقول الله - عز من قائل: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا الله لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد:٢١] أي: من تعللهم وتسللهم عنه لواذًا، وعزم الأمور حدها عزم الأمر حد.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: إن توليتم الأمر إن توليتم من الولاية؛ يعني: إن تولاكم المؤمنون فيبايعونكم ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ تضيعوا الجهاد فتفسدوا في الأرض بدلاً من ذلك ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد:٢٢] تقرأ: «عسيتم» بفتح السين وكسرها، والفتح أكثر وأجود، ويقرأ: «إن تَوَلَّيْتم» بفتح التاء والواو واللام وجزم الياء، ويقرأ: «إن تُوُلِّيتم» برفع التاء والواو وكسر اللام مشددة، أنذر الله تعالى بولاية أمراء فجرة، كما قال رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٤)، ومسلم (١٧٤٢)، وأبو داود (٢٦٣١)، وأحمد (١٩١٣٧).

«**أخوف ما أخاف عليكم أئمة مضلين**»[١] فقد كان ذلك، وكان بذلك تضييع الجهاد والفساد والقطيعة.

فصل

قتال العدو والجهاد كفاءة لقطيعة الأرحام، كما الضحايا والبدن فداء لإراقة الدماء، فكل قوم أضاعوا الجهاد قطعوا أرحامهم وسفكوا دماءهم.

قال الله - جل من قائل - في الضحايا والبدن والهدايا: ﴿**لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ**﴾ [الحج:٣٧] إذ دماؤها ولحومها فداء لدماء المتقربين بهن ولحومهم من النار، والتقوى من المتقربين توصلهم إلى الله، وإنما سمين: قرابين؛ لأجل المتقرب بهن إلى الله بإذنه وبأمره وسنة رسوله، أخرجهن بذلك من دار الدنيا إلى الجنة، فإذا كان يوم القيامة يخلص المتقرب بهن عليهن من أهوال ما هنالك.

جاء في الحديث: «**إن أهل الجمع في حال قيامهم إذ ينظرون في أعلى الجو إلى نجائب تطير بالراكبين فيقولون: من هؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا...**»[٢] كذلك دم الكافر المقتول فداء لدم قاتله في سبيل الله من النار، ولحمه فداء للحمه، وما غنم من ماله وولده فداء لأموال المسلمين وأهليهم، كما أن دم المقتول في سبيل الله ولحمه وماله به يصل إلى الله ويدخل الجنة، يصلحه الله لذلك ثم يقربه.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله - جل من قائل: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[٣] [محمد:٢٤] يعني، والله أعلم: هؤلاء المنافقين الذين تولوا نبذوا

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٩٥٦).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ**﴾ أي: لا يلاحظونه ولا يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات ﴿**أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ تمثيل لعدم وصول الذكر إليها وانكشاف الأمر لها، فكأنه قيل: أفلا يتدبرون القرآن؛ إذ وصل إلى قلوبهم أم لم يصل إليها، فتكون «أم» متصلة على مذهب سيبويه، وظاهر كلام بعض اختياره.

وذهب أبو حيان وجماعة إلى أنها منقطعة، وما فيها من معنى «بل» للانتقال من التوبيخ بترك التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر، والهمزة للتقرير، وتنكير القلوب؛ لتهويل حالها وتفظيع شأنها، وأمرها في القساوة والجهالة، كأنه قيل: **على قلوب** =

الجهاد وأفسدوا البلاد وقطعوا الأرحام، فلو تدبروا القرآن حق التدبر لعلموا أن الجهاد أصل لتواصل المسلمين وإصلاح دينهم ودنياهم، ولألفوا فيه ما فيه شفاء صدورهم وهداية لهم من عمايتهم، ولعلموا يقينًا شرف الإخلاص لله ورفعه قدر التوحيد والعمل بطاعة الله، وأن الأدب من العبد أن يعقد على الطاعة لله، والقول بالمعروف يستصحب هذه الحالة قبل ورود الأمر، فإذا وجب الكائن وعزم الأمر فالدعاء والابتهال في حسن العون والصدق في الفعل والعقد.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور:٥٣] أي: في مستقبل أمركم ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور:٥٤] المعنى إلى آخره حيث جاء.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [محمد:٢٥ - ٢٩].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:٢٥] يعني: مد في الأمل، وزين لهم سوء العمل، وقرئ: «وأملى لهم» على وزن ما لم يسم فاعله، معناه: أن الله استدرجهم

منكرة لا يعرف حالها ولا يقادر قدرها في القساوة، وقيل: لأن المراد قلوب بعض منهم وهم المنافقون، فتنكيرها للتبعيض أو للتنويع كما قيل، وإضافة الأقفال إليها؛ للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لها، غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة. وقرئ: «**أَقْفَالُهَا**» بكسر الهمزة، وهو مصدر من الأفعال، و«**أقفلها**» بالجمع على أفعل. تفسير الألوسي (١٩/ ١٥٤).

بالجد والعافية.

وإنما هذا في قوم كانوا في الجاهلية على عداوة لله والرسول والمؤمنين، فلما قوي الإسلام ولزمهم قهره أسلموا فرأوا الهدى، وربما نسوا ما كانوا عليه في الجاهلية، فلما أقضى الأمر إليهم رفعت في بواطنهم الفتن رؤوسها وتجددت الأجر التي كانت قوة الإسلام سهلتها، فاستأثروا وانتقموا من سادات الإسلام وممن جاهدهم وأتاهم بيده في الله، وسفكوا الدماء وأفسدوا في البلاد، ولو تفرغوا لجهاد عدوهم لكانت أيديهم واحدة وكان أمرهم جميع.

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿ذَلِكَ﴾ من تمكن الشيطان بهم بأنهم والوا الذين كرهوا ما أنزل الله وقالوا لهم: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾ وإنما قالوا لهم في بعض الأمر على معنى التوسط بين ما كانوا عليه من مرادهم في الإسلام والمسلمين وبين المسلمين؛ إذ بدعائه الإسلام يأمروا يقول الله - جل من قائل: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد:٢٦] قرأ حمزة وغيره بكسر همزة الألف، فهو مصدر أسرَّ يُسِرُّ فهو: إسرار، وقرأ غيره: «أسرارهم» بفتح همزة الألف، جمع: سر.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ [محمد:٢٩] سبحانه وله الحمد علم ما يكون منهم ومن آبائهم وممن يكون على معتقدهم في الإسلام، فأنذر بهم في كتابه قبل وجود أعمالهم وقبل إيجاده أكثرهم، فالأضغان هي: الأحقاد، وقرأها ابن عباس وابن سيرين: «ويخرج أضغانكم» على ما لم يسمَّ فاعله.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد: ٣٠-٣٥].

نظم بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠] أي: منهم، و«لحن القول» هو: ما تنحو إليه بلسانك؛ أي: تميل إليه ليفطن لك صاحبك، وتخفيه على من لم يكن له عهد بمرادك، وعلى القول بالتحقيق فلحن القول: ما يبدو من عرض الكلام وخبيات الخطاب وسياق اللفظ وهيئة الشحنة حال القول وإن لم يرد المتكلم أن يظهره، ولكنه على الأغلب يغلبه حالاً فلا يقدر على كل كتمه وإن كان في تكليمه معتمدًا على ذلك، وحقيقة حال تلوح عن السر وإظهار كلام للباطن يكاد يناقض كلام اللسان بحال خفيه ومعان يقف عليها باطن المخاطب واللحن يعرفه ذوو الألباب.

نظم به قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى﴾ [محمد:٣٢] هذا منتظم بوصف المنافقين الذين أطفأوا نورهم بعد إضاءته، ويكون المعني بهذا الخطاب أيضًا: يهودهم الذين أطفأوا نورهم من بعد إضاءته وصاروا إلى ظلمات لا يبصرون.

ثم وعظ المؤمنين أن يقعوا في مثلها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٣] أي: كما فعل أولئك، وكما فعل بالكافرين أيضًا اتبعوا الباطل فأضل أعمالهم، فالتزموا أنتم الحق والتحقق به يحققكم الله به ويحقق أعمالكم.

ثم سرد عليه قوله - جل من قائل: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾[1] [محمد:٣٥] يحذرهم من ترك جهاد

---

(١) ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ ولن يظلمكم. وقيل: ولن ينقصكم. وقيل: ولن يضيعها. وهو كما قال أبو عبيد والمبرد: من وترت الرجل؛ إذا قتلت له قتيلاً من ولد أو أخ أو حميم، أو سلبته ماله وذهبت به. قال الزمخشري: وحقيقته: أفردته من قريبه أو ماله، من الوتر وهو الفرد، فشبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر، وهو من فصيح الكلام، وفيه هنا من الدلالة على مزيد لطف الله تعالى ما فيه، ومنه قوله ﷺ: «**من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله** وماله» والظاهر على ما ذكره أنه لا بد من تضمين وترته معنى السلب ونحوه؛ ليتعدى =

عدوهم في سبيل الله، بل يغلظوا عليهم ويتعززوا ولن يتركم من الترة[1] يقول: ولن يفقدكم جزاء أعمالكم.

﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد:٣٦-٣٨].

ثم قصر لهم مدة المحنة وزهدهم في الحياة بقوله: ﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ [محمد:٣٦].

أخبر الله جل من مخبر أن هذه الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، وما عدا ذلك فهو آخرة، فإن كان إيمانًا وتقوى وذكر الله - جلَّ ذكره - وما جر إليه فهو رضا لله ورضوانه، وما بينه وبين الجنة إلا أن يثبته الله على ذلك ويموت، وإن كان غير ذلك من كفر أو عصيان فهو بعد عن الله ولعن منه، وما بينه وبين النار إلا أن يموت، لكن على النشء، فالدار الوسطى أكبر من هذه والدار الآخرة أعظم وأكبر جدًّا.

فصل

ولا يجوز لإمام المسلمين أن يدعو إلى السلم ولا أن يجيب إليه وبالمسلمين قوة على عدوهم وظفر عليهم، ولا يحل له ترك الجهاد في سبيل الله على حال إلا لمعنى يظهر فيه النظر للمسلمين عليه برهان من الله ظاهر، ومتى لم يجاهد في سبيل الله انصرف بأسه على المسلمين، وقد تقدم معنى ذلك.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٦] نبه على المعنى

=

إلى المفعول الثاني بنفسه. [الألوسي (١٦٧/١٩)].

(١) الترة: النقص. انظر النهاية في غريب الأثر (٤٩٤/١).

الواجب الوجود متى لم يقاتل القوم والإمام في سبيل الله، ولم ينفقوا أموالهم وأنفسهم سئلوا أموالهم، ومتى سئلوا أموالهم بخلوا، فإن أكرهوا على ذلك أشحنوا ضغائن وأحقاد، ولم يكن من الإمام لهم نصيحة ولا منهم للإمام ولا من بعضهم لبعض وكان الخلاف، وفي ذلك هي الخالفة، وهو إنذار منه ﷺ بما يكون بعد، وما ذكر شيئًا إلا كان منه ما شاء الله.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد:٣٨] متى كان الخلاف وقع النذائر وذهب التناصر والتناصح، و«**الدين النصيحة**»[1] فقد كان ذلك استبدل من العرب غيرهم ثم لم يلحقهم بأن يكونوا مثلهم وكل ذلك عقوبة الإعراض والتولي عن الحق.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٩٨٢) ومسلم (٥٥) وأبو داود (٤٩٤٤) والنسائي (٤١٩٧) وأبو عوانة (١٠١)، وابن خزيمة في السياسة كما في إتحاف المهرة للحافظ (٢٤٥٦) وابن حبان (٤٥٧٤) والبغوي في الجعديات (٢٦٨١) وابن قانع (١/١٠٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٥٢٦٥) وأبو نعيم في المعرفة (١٢٩١) والطبراني (١٢٦٧) وابن عساكر (١١/٥٤).

تفسير سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ [الفتح:١ - ٥].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1] [الفتح:١ - ٢] إلى قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:٣] الفتح هنا بمعنى: القضاء.

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:٨٩].

﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [السجدة:٢٨].

نزلت عليه هذه السورة منصرفة من غزوة الحديبية، فعلى هذا معناه: أنا قضينا لك قضاء مبينًا للفتح، وإلا فهي هيئات أربعة خامسهن الفتح، وقد نطق بهن القرآن وقوة الوحي أعلمت في مفترقه بأن الله قد أقطعه إياهن، وكان وجود نزولها عند هذا السبب إعلامًا بأن الأمر قد حان والنعمة به قد أزفت وقت حلولها، وتعزية له

---

(١) قال البقلي: نبَّهنا الله في ذلك من سرٍّ عجيبٍ، وهو أن أبواب كشف القدم مسدودةٌ على أهل الحدثان، ولم يظهر لأحدٍ عين ذات الأزل، ففتح الله أبوابه لعين محمد ﷺ حتى رآه كفاحًا، فتح سمعه فأسمعه كلامه شفاهًا، وفتح باب قلبه وروحه وسرَّه، فعرف نفسه لها، حتى وجدت أبواب خزائن علومه الغيبية مفتوحة وفتح الله جميع أبواب وجود حبيبه ﷺ حتى الشعرة على بدنه وجعلها عيونًا مفتوحة بمفاتيح توحيده وأنوار حقيقته حتى رآه بجميع عيون وجوده، وذلك الفتح ظاهرٌ من وجوده حتى لا يراه أحدٌ إلا ويرى نور الصمدية ينتشر من بشريته لكن كان محجوبًا من عيون الأغيار.

وللمسلمين لإخفاقهم في تلك الغزوة.

ويمكن أن يكون الفتح المذكور والقضاء المعبر عنه هو أمر له بإعطاء الجهد في جهاد أعداء الله وأعدائه، والتزام العمل بطاعته وابتغاء مرضاته والاستقامة على سبيل وجيه، كما قال - عز من قائل: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [الشورى:١٥].

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ [هود:١١٢] إلى قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إلى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود:١١٣].

فبهذا الفتح يستوجب الغفران وإتمام النعمة في استصحاب ذلك إلى الخاتمة والنصر العزيز، وغير ذلك من الجزاء العاجل والآجل، ويمكن أن يكون الفتح المذكور ما قضى له عنده في الأزل يوم جعله في قبضته اليمين وخصه بالرسالة، وعقد له لواء النبوة في النبيين والمرسلين، وأخذه الميثاق منه ومنهم بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، فهذا القضاء هو الفتح المبين عن كل ما أوتيه، وكان فضل الله عليه عظيمًا، عبر عن هذا قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخر السورة.

فصل

قراء القرآن التالون له حق تلاوته على ضربين:

فضرب: يقرءونه على ربهم، فما اغتم عليهم من علمه سألوه أن يفتح عليهم من رحمته، وتضرعوا إليه وتبرأوا إليه من الحول والقوة، فيفتح عليهم ما شاء من رحمته، وليعلم أن من فتحه الأول ما يجعله في قلوبهم، فبقدر ما يقنعهم به من الفتح بالعلم يكون العلم.

وضرب: منهم كان الله - جلَّ ذكره - يقرءوه وهم يتلقوه عنه، وهؤلاء أرفع مقامًا وأحسن نديًا، وكل على خير من ربه، غير أن هذا الضرب منهم هم أحق تحققًا في وراثة النبوة.

قال رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا

درهمًا وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بالحظ الأوفر»[(١)].

فكذلك - وفقك الله وأرشدك إليه - فاقرأ القرآن عليه بلسانك، واتله بإيمانك وعملك وسليم عقدك، واستمع لما يوحى إليك في أثناء الخطاب، وتطلب سر المراد، فقد قال: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه:٢] فتذكر قوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: «**أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**»[(٢)].

وأنت فقد علمك القرآن وأوصلك إليه، وفتح لك بابه وأذن لك في مناجاته، فلعله قد أصابك من رحمته بحكم التبعية ألا تشقى، وارجُ مع هذا أن يجعلك بتبعيتك ومكان وراثتك أن تستمع لما يوحى، فاعبده وأقم الصلاة لذكره، وابشر نفسك عنه بحسن التجاور وجزيل المثوبة، واعلم أن للمؤمن جزاءً لعمله وجزاءً لنيته وجزاءً لعلمه في ذلك.

وتذكر حديث رسول الله ﷺ في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين ثم قتل الراهب فتمم المائة به، وأنه سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على عالم فأمره بالتوبة ويسر عليه أمرها، وقال له: «**اذهب إلى هذه القرية فإن فيها قومًا صالحين**» ولما أخذ في السير إليها جاءه الموت وهو في الطريق فناء بصدره، ولما تحاكم الفريقان من الملائكة - عليهم السلام - فيه، وأمروا أن يقيسوا ما بين القريتين وإلى أيهما كان أقرب فهو إلى ذلك، فقال - الله جل ثناؤه للصالحة: «**تقربي**» وللأخرى: «**تباعدي**» ووجد إلى الصالحة أقرب بشبر[(٣)].

فقياس ما بين القريتين حكم ما بين العملين ووزن لهما، وأمر الله - جلَّ ذكره - للصالحة أن تقربي ولتلك أن تباعدي؛ جزاءً لنيته المعبر عنها بقوله: «**ناء بصدره**»[(٤)]

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٧٦٣)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢) وقال: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة، وليس هو عندى بمتصل. ثم أورد له إسنادًا وقال: هذا أصح. وابن ماجة (٢٢٣)، وابن حبان (٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٦٩٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مطولاً ابن أبي شيبة (٣٤٢٢٠)، وأحمد (١١٧٠٥) ومسلم (٢٧٦٦) وابن ماجة (٢٦٢٢) وأبو يعلى (١٣٥٦) وابن حبان (٦١١).

(٤) انظر السابق.

كذلك فعل موسى لما رضاه الله - جلَّ ذكره - بالموت فرضى، سأل ربه أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، فهذه كناية عن النية، وعبارة عن إعطاء المجهود.

وجاء عن رسول الله ﷺ في حديث آخر: «**من يدخل الجنة من أهل الجنة**» وذكر سؤاله السحرة بعد السحرة كل ذلك يقول له ربه ﷻ: «**يا ابن آدم، ألم تقل؟ فيقول له**: يا رب، ومن **مثلك فادنني**» فلما انتهى إلى آخرها قيل له: «**أعِدْ، فلك ما بلغته رجلاك ورأته عيناك**» قال: فيعدو حتى إذا بلح - يعني: أعيا - قال: «يا رب، هذا لي وهذا لي» فيقول له: «**هذا لك ومثله معه وأضعافه**»[1] فالذي بلغته رجلاه هو عمله وسعيه والذي رأته عيناه هو ما رآه بالعلم.

فإذا قرأت - وفقك الله - قوله: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ [الفتح:١] إلى آخر الهيئات، فاحمد الله على عظيم ما أولى نبيك ﷺ من الفتح المبين والفضل العظيم، وارج لنفسك بحكم التبعية من الله الكريم نحو ذلك، فقد جاء أنه إذا عفا عن صاحب ذنب عفا عمن عمل بمثل ذلك، وأشعر نفسك حسن الاقتداء وصحيح الاتباع.

قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الفتح: ٤] السكينة: أمر من الله، وهو من قبيل الإيمان والطمأنينة إذا أنزلها على قوم سكن به تحريك الصفات واطمأنت لذكره، ولا يزال الإيمان يضطرب حتى تنزل السكينة عليه من الله، وكذلك صفات الباطن ما عدمت الحلم، وكذلك العلم والذكر والفكر والفطنة ما عدمت اليقين، وقد كانت السكينة قبل ظاهرًا أمر يشار إليه.

قال الله ﷻ في وصف ملك طالوت: ﴿**إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ**﴾ [البقرة:٢٤٨] فنزول السكينة على أصحاب رسول الله ﷺ سكونهم عن طلب الانتصار، ورضاهم بحكم الله ورسوله في اشتراط سهيل بن عمرو عليه، وكان ذلك باب فتح لنعمة الله ورحمته، وزادهم الله بذلك إيمانًا إلى إيمانهم بالله وبرسوله وبقضائه وحكمه، وبما أمرهم به ونهاهم عنه.

أعقب ذلك بقوله: ﴿**وَلله جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [الفتح:٤] والسكينة

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥٩).

من جنوده.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح:٦ - ٩].

نظم بذلك قوله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الفتح:٥] إلى قوله: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بالله ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح:٦] ذكر اسم العلم في الأولى في قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٤] وذكر اسم العزة في الثانية في قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٧] إذ العلم في البدء أظهر في قوله: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي»[1] فاسم العلم أظهر في هذا التقدير كما أن اسم العزة أظهر في الانتقام.

أتبع ذلك قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ أي: على من بعثت إليه ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك بالرحمة والفضل وحسن المآب ﴿وَنَذِيرًا﴾ [الفتح:٨] لمن تولى ﴿لِتُؤْمِنُوا بالله وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تنصروه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ هذا للرسول ﷺ، ثم قال: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: الله - جلَّ ذكره ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح:٩].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٨٤).

تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الفتح: ١٠ - ١٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح:١٠] من أطاع الرسول فقد أطاع الله، كانت هذه البيعة بالحديبية، وهي بئر يعرف به ذلك الموضع، وكان رسول الله ﷺ تحت شجرة بها، وتسمى تلك البيعة: بيعة الرضوان.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح: ١٤ - ١٧].

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨] نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1] [الفتح:١٠] هذه عبارة عن حقيقة

---

(١) استئناف مؤكد لما قبله؛ لأنه عبارة عن المبايعة، قال في «الكشاف»: لما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ أكده على طريقة التخييل، فقال تعالى: ﴿يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وإنه سبحانه منزَّه عن الجوارح وصفات الأجسام، وإنما المعنى: تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما. وفي «المفتاح»: أما حسن الاستعارة التخييلية فبحسب حسن الاستعارة بالكناية متى كانت تابعة لها كما في قولك: «فلان بين أنياب المنية ومخالبها» ثم إذا انضم إليها المشاكلة كما في ﴿يَدُ الله﴾ إلخ كانت أحسن وأحسن؛ يعني: إن في اسم الله تعالى استعارة بالكناية تشبيهًا له ﷻ بالمبايع، واليد استعارة تخييلية مع أن فيها =

وجوده - جل وعلا - هو العلي ويده العليا وهو العلي الكبير، وخاصة قوله: ﴿يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ التذكير بقدر المبايعة، وأن الوفاء لهم بالأجر من وراء ما عاهدوا الله عليه من النصر والصبر، فإنه - جلَّ ذكره - عزيز لا ينال ما عنده في سبيل المعاملة إلا بعد الوفاء بالعمل، فمن أوفى بعهده فالله أصدق وعدًا وأوفى عهدًا وأكرم مثوبة، ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ الله فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:١٠].

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَو يُسْلِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَلِيمًا﴾ [الفتح:١٦] قيل في هؤلاء: إنهم أهل الردة، وقيل: هم فارس، وهو الظاهر، وكل من أوجب الله قتاله إلى أن يسلم ولا يقبل منه جزية فهم أولئك.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح:١٧] أي: في الخروج إلى الجهاد، وهذا منتظم بقوله: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ.....﴾ [الفتح:١٦].

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا

أيضًا مشاكلة؛ لذكرها مع أيدي الناس، وامتناع الاستعارة في اسم الله تعالى إنما هو في الاستعارة التصريحية دون المكنية؛ لأنه لا يلزم إطلاق اسمه تعالى على غيره سبحانه. وروى الواحدي عن ابن كيسان: «اليد القوة» أي: قوة الله تعالى ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم؛ أي: ثق بنصرة الله تعالى لك لا بنصرتهم وإن بايعوك. وقال الزجاج: المعنى: يد الله في الوفاء فوق أيديهم أو في الثواب فوق أيديهم في الطاعة، أو يد الله سبحانه في المنة عليهم في الهداية فوق أيديهم في الطاعة. وقيل: المعنى: نعمة الله تعالى عليهم بتوفيقهم لمبايعتك فوق نعمتهم، وهي مبايعتهم إياك وأعظم منها. تفسير الألوسي (١٩٢/١٩).

وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح:١٨ - ٢٣].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨] قد تقدم أن هذه المبايعة كانت بالحديبية، والسكينة هنا هو: سكونهم تحت شجرة حكم الله وحكم رسوله من اشتراط سهيل بن عمرو من محو «بسم الله الرحمن الرحيم» ومحو «محمد رسول الله» وسكونهم عن نصراني جندل، وقد كان فر إلى المسلمين، وذلك أن الله ﷻ حبس ذلك الجيش عن مكة كما حبس جيش الحبشة الذي كان فيها الفيل.

قال رسول الله ﷺ يعني ناقته: «العصباء حبسها عنهم حابس الفيل»[1].

نظم بذلك قوله الحق: ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨] فتح خيبر ومغانمها، وغير ذلك من غنائم المسلمين.

نظم بذلك قوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ ثم امتن عليهم بأن ﴿كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ﴾ عنهم مع قلتهم، ولو شاء لسلطهم فاجتمعوا عليهم من أقطارها، ثم عطف بالواو في قوله: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:٢٠] تقديره: رحمة بكم، ولتكون آية للمؤمنين.

كان الرسول ﷺ وأصحابه جملة الأمة يومئذٍ، وقد وعده الله - جلَّ ذكره - ألَّا يسلط على الجملة عدوًا من غيرها يستأصل شأفتهم، فجعل الله ذلك يومئذٍ آية للمؤمنين على هذه التي يصحبهم إياها إلى يوم القيامة، فأصار ذلك من فعله آية للمؤمنين في آخر الزمان حين ضعفهم وقلتهم من مخالفيهم على ما هم عليه يأتهم الله بالكفاية أو بالنصر، وإن كان الإخبار عن المغانم التي عوضهم وعجل لهم يومئذٍ بعضها، فتكون أيضًا آية للمؤمنين على المغانم الكثيرة التي وعدهم بها في الآجل.

عطف على ذلك قوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:٢٠] هذا مما تقدم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) بلفظ: «مَا خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ».

ذكره صدر السورة من إظهار الرغبة إلى الله - جل ثناؤه - في أن يمن على أحدنا بما أعطاه نبيه بحكم التبعية، وفي الخبر: «إنه لما نزلت هذه السورة فقرأها عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:١-٣] قالوا: هذا لك يا رسول الله فما لنا؟ فقرأ عليهم: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الفتح:٥]»[1].

والفتح على الرسول فتح على أمته، وفيما ذكره دخول الجنة والخلود فيها والمغفرة، وأتمها لهم في قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:١٨] فذكر إنزال السكينة عليهم والفتح والغنائم، وهو النصر العزيز، وذكر كف أيدي الناس عنهم كما فعل بجملة المؤمنين حال القلة، ثم قال: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:٢٠] على ما يأتي من المغانم الكثيرة، وكف الأيدي عن جملتهم والنصر لهم في آخر الأمر، وذكر هدايتهم إلى الصراط المستقيم.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ [الفتح:٢١] يعني: وهو أعلم الغنائم؛ أي: فيما يأتي قد أحاط الله بها، وربما كان من ذلك الفتح فتح مكة، كل ذلك إلى أجله المسمى له.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)﴾ [الفتح: ٢٤ - ٢٦].

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد في مسنده (١٢٥٥٧).

أتبع ذلك قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ هذا وصف لقساوة قلوب كفار مكة وعتوهم، يقول الله جل من قائل: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ المعنى إلى آخره هؤلاء الذين كانوا قد آمنوا من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان المعذورين، وفي مفهوم الخطاب: أن قومًا لم يؤمنوا بعد مرجون لأمر الله، ثم علق بهذا المعنى قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الفتح:٢٥] وهم الذين لم يعلموا ويعلمهم الله، فامتن على المسلمين برفع الحرج عنهم وكفايته إياهم معرة المكروه، وتحمل ما شق كونه من صوم يجب أو فدية تستحق لأجل قتل من كان يقتل من المسلمين بغير علم، والمعرة مأخوذة من العرة، وهو: لطيخ العيب وما يلصق بذلك من المشقة.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:٢٧ - ٢٩].

قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾[1] كان الله - جلَّ ذكره - قد

---

(١) قال الواحدي: قال المفسرون: إن الله سبحانه أري نبيه في المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية كأنه هو وأصحابه حلقوا وقصروا، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك، فلما رجعوا من الحديبية، ولم يدخلوا مكة قال المنافقون: والله ما حلقنا ولا قصرنا، ولا دخلنا المسجد الحرام؛ فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إن الرؤيا كانت بالحديبية وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: صدقًا ملتبسًا بالحقّ، وجواب القسم =

أرى رسوله في ذلك رؤيا فعبرها له يومئذٍ بشارة له وللمؤمنين بقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح:٢٧] والاستثناء بالمشيئة لتصديق الله الرؤيا - والله أعلم.

[يقول الله جل من قائل][١]: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣ - ٢٤] فقد تقدم ذكره لما كان الوعد في الاستقبال إعلامًا برؤيا أنزل في حقيقة الإنباء من الوحي الذي هو بالمشافهة من الملك، واستثنى بالمشيئة ولو كان وحي مشافهة أو وحيًا يكون من جملة القرآن لكان عزمًا دون استثناء، كقوله: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن:٧].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج:٤٠] هذا ومثله في القرآن كثير دون استثناء بالمشيئة.

وكقول رسول الله ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم ولتركبن القلاص ولا يسعى عليها ولتعودن من حيث بدأتم**»[٢].

وهذا كثير من إخباره عن وحي الله دون استثناء، بمشيئة ذلك؛ لأن وحي المشافعة والوحي بالقرآن والنفث في الروع مفروغ منه، يأتي بعلمه ويقينه تامًا مفروغًا منه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وقد قال ﷺ لعائشة: «**أُرِيتُكِ فِي الْمَنَامِ مَرَّتَيْنِ، أَرَى أَنَّكِ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ وَيَقُولُ هَذِهِ امْرَأَتُكَ فَاكْشِفْ عَنْهَا فَإِذَا هِيَ أَنْتِ فَأَقُولُ إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمْضِهِ**»[٣] فهذه حال الرؤيا من حال الوحي بالمشافهة، ولهذا - والله أعلم - جاء بذكر الاستثناء في هذا الموضع.

= المحذوف المدلول عليه باللام الموطئة هو قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ أي: في العام القابل، وقوله: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ تعليق للعدة بالمشيئة؛ لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه. فتح القدير (٧/٢).

(١) في (خ): «يقول الله جل من قائل، وأما قوله».

(٢) أخرجه مختصرًا الترمذي (٢١٨٠) وقال: حسن صحيح. والقلاص: جمع قلوص، وهي الشابة من الإبل.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤١٨٨)، والبخاري (٣٦٨٢)، ومسلم (٢٤٣٨).

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح:٢٨] ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩] قد كان من ذلك ما شاء الله، ثم دارت دائرة الانتقاص، وإنما يكون تمام ما ذكره كما ذكره عند نزول عيسى ابن مريم ﷺ إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] إلى آخر السورة، فهؤلاء هم الأقلون من هذه الأمة ووصف الآخرين منهم بقوله - جل من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤] كما قال في الأولين: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ فذكر كيف مثلهم في التوراة، وكيف مثلهم في الإنجيل، وشطء الزرع: ما خرج حول أصوله ﴿فَآزَرَهُ﴾ يعني: أعانه وقواه، مأخوذ من المؤازرة شطؤ الزرع زائدًا إلى هذا هو على ضربين يسمى: السكر:

فضرب منه: يخرج منه خلوف في قصب الزرع على مواضع العقد منه، ذلك يكون حين يحرف ذلك الزرع أول لحاقه، فيقوم على ذلك ويتم أضعاف ما كان ويعظم مع ذلك سنبله.

والضرب الآخر: هو أن يزرع الموضع فيصان زرعه ويحصد ويتم، فإذا كان من العام المقبل نبت ما وقع في الأرض من حب وقام زرعًا وتم على ذلك، وإنما يكون ذلك في الأرض الشكورة، ويسمى هذان النوعان: السكر، وأطيب ما يكون هذا بعد حرف الحصيد، والله أعلم بما يمثل به وهو العليم الخبير.

﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ يعني: على قصبه، جمع: ساق، مثله بالزرع يخرج منه أوله مفردًا ثم يتلاحق بها ويتولد منه حتى ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ فكذلك محمد أول هذه الأمة، ثم قام أصحابه فاكتنفوه حوله، فأنماهم الله وكثرهم بعد القلة ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩] ويعجب بهم الملائكة - عليهم السلام - والمؤمنين.

فصل

ذكر أن مثلهم؛ أي: خبرهم في التوراة ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ إلى

قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩] فما قال رسول الله ﷺ: «**لكم سيماء ليست لأحد من الأمم**»[1] وذكر الغرة والتحجيل هذا بعد البعث، وفي الحياة الدنيا سيماهم الخضوع والخشوع وأثر السجود في الحياة، وكان لرسول الله ﷺ بعده خلائف أربعة أصحابه، بهم ظهر الإسلام واتصل في الأقطار، ثم بمن وفق الله من بعدهم من أتباعهم.

وقال في مثلهم الموجود في الإنجيل أنه: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ يعني: ما تولد منه فهؤلاء هم إخوانه، آزروه ونصروه وأحيوا سنته بعد موتها حتى استغلظ واستوى على عروشه، فالمثل الموجود في التوراة إخبار عن وجوده ﷺ في أصحابه وظهورهم عنه ونصرته بهم ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ﴾ إخبار عن وجود أمره منصورًا مؤزرًا وإخوانه المؤمنين.

دل ذلك على قوله: ﴿فَآزَرَهُ﴾ هذا فعل أصحابه ﴿فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ [الفتح:٢٩] هذا ما يكون من ولده وعيسى - عليهما السلام - وإخوانهما في الآخر.

ثم هذا وهذا في قوله - جل من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي: موتى الدين، وهي القرية الخاوية على عروشها، إلى قوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ...﴾ [البقرة:٢٦٠].

والمثل الآخر في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١] فهذه حبة واحدة أوجد الله عنها سبع سنابل، وجعل من كل سنبلة مائة حبة فهذه سبعمائة.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١] عبّر رسول الله ﷺ عن هذه المضاعفة بقوله: «**وددت أني رأيت إخواني**» قالوا: أولسنا بإخوانك يا رسول الله؟ قال: «**أنتم أصحابي وإخواني الذين لم**

---

(١) أخرجه بنحوه ابن ماجة (٤٤٢٣).

يأتوا بعد، وأنا فرطهم على الحوض»[١].

وقال: «**إنهم سبعون ألفًا، مع كل ألف سبعون ألفًا**»[٢] فضاعف من واحد إلى سبعة، ثم ضاعف من السبعة بالمئتين فكانت سبعمائة، ثم ضاعف بذلك السبعمائة إلى سبعين ألفًا، ثم ضاعف إلى سبعمائة ألف، ثم ضاعف من ذلك بقوله: «**أو سبعمائة ألف**»[٣] و«أو» هنا بمعنى العطف: مع كل ألف سبعمائة ألف.

﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة:١٣ - ١٤].

﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة:٣٩ - ٤٠] وهؤلاء هم سباق الثلاث، فافهم فهمنا الله وإياك.

﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ [الفتح:٢٩] ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقال الملائكة - عليهم السلام: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠] فهم الزراع وهؤلاء هم الزرع، وقد أغاظ بهم الكفار ثم يتم الله بهم كلمته في المستقبل، إن شاء الله ولله الحمد من قبل ومن بعد.

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ الله يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ الله لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم:٤ - ٦] المعنى إلى آخره، وأنه اليوم ليباهي بهم الملائكة عندما يجتمعون على ذكره وتعرف نعمه، وفي المستقبل تتميم كلمته التي عبر بها بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠].

﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣] ولا يهولنك - رحمك الله - ما تسمعه فإنه الحق، وكلام الله العظيم يسع الأوجه كما يتفصل مجمل القرآن إلى ما يتفصل إليه كذلك يتفصل معانيه، فاعلم ذلك.

---

(١) أخرجه مالك (٥٨)، وأحمد (٧٩٨٠)، ومسلم (٢٤٩)، والنسائي (١٥٠)، وابن ماجة (٤٣٠٦)، وابن حبان (١٠٤٦)، وأبو يعلى (٦٥٠٢)، وأبو عوانة (٣٦٠)، والبيهقي (٣٩٢).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٢٢٣٥٧) والترمذي (٢٤٣٧) وقال: حسن غريب. والطبراني (٧٥٢٠) وابن حبان (٧٢٤٦) والدارقطني في الصفات (٥٠) وابن ماجة (٤٢٨٦) والمحاملي (٦٠) والديلمي (٧١١٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٧٥)، ومسلم (٢١٩)، وأحمد (٢٢٨٩٠).

تفسير سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات: ١ - ٤].

قوله تعالى: **﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾** [الحجرات: ١] وقرأ يعقوب والضحاك: «لا تقدموا» أمر المؤمنين ﷻ ألَّا يتقدموا بأمر من عندهم أنفسهم ولا قول حتى يكون الله - جلَّ ذكره - ورسوله ﷺ هو الذي يقضي بما شاء الله، فيجب على المؤمنين اتباعه، وذكر صفتي السمع والبصر إعلامًا منه بخفي المراقبة لشأنهم كله.

فصل

كان الصحابة ﷺ في حضرة واحدة مع نبيهم والله ربهم ﷻ ينزل عليه القرآن بين ظهرانيهم، فكيف يجوز لأحد التقدم على هذا، وحالتهم تلك بمنزلة وجود النص المكشوف عند نزول الحادثة؟ فحرام العدول عن ذلك النص إلى قول قائل، بل حالهم ﷺ أبين وأظهر جدًّا.

قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾**(١) [الحجرات: ٢] هذا الخطاب منتظم بما

(١) أعلمنا الله سبحانه بهذا التأديب أن خاطر حبيبه من كمال لطافته ومراقبته، جمال ملكوته كان يتغير من الأصوات الجهرية، وذلك من غاية شغله بالله وجمع همومه بين يدي الله، فإذا =

تقدم في سورة الفتح، وبما اتصل به من هذه السورة قبله من الأمر بالتعزيز له والتوقير لشأنه كله، فعلمهم في هذا الخطاب كيف التعزيز والتوقير، ولعظم شأنه جعل العقوبة على خلافه حبط العمل؛ أي: إنه يستدرج المستخف بحقه، ثم يخذله فيفارق إيمانه به فيحبط عمله وهو لا يشعر، وإنما يحس ألم الجراح الأحياء.

ولما كان بالإيمان به وبما جاء به من عند الله تصحيح العمل بطاعة الله، فبقلة التوقير له والتعظيم لشأنه يجب إحباط العمل وإن لم يبلغ إلى الشرك والكفر، لكن ذلك مخوف مواقعته مع التساهل وقلة المبالاة، وقد كان أبو بكر ﷺ فيما نقل عنه بعد ذلك يكلم رسول الله ﷺ ومما يخفض صوته لا يكاد يسمع رسول الله ﷺ، فكلمه رسول الله في ذلك، فقال ﷺ: والله يا رسول الله ما أكلمك إلا كاحي السرار منذ أنزلت سورة الحجرات.

أعقب ذلك بقوله - جل من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات:٣] الامتحان: التطهير والتنقية، فالذهب والفضة يمتحنان من الشوائب بسواهما، يقول ﷻ: امتحن قلوبهم: طهرها وطيبها للتقوى ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:٣].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات:٤] كان وفد بني تميم قد جاءه، فوافق ذلك في وقت الظهيرة وهو نائم، فنادوا من وراء حجراته أخرج إلينا يا محمد.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

=

صوت أحد بالجهر عنده خاصة أن يكلم كان يتأذى قلبه من صوته، ويضيق صدره من ذلك، كأنه يتقاعد سره لحظة عن السير في ميادين الأزل والأبد، فخوَّفهم من ذلك؛ فإن تشويش خاطره ﷺ سبب بطلان أعمالكم. وقال ابن عجيبة: شروع في النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي ﷺ بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والفعل، وإعادة النداء مع قرب العهد؛ للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه، والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه؛ أي: لا تبلغوا بأصواتكم وراء حدٍّ يبلغه صوته ﷺ بل يكون كلامه عاليًا لكلامكم، وجهره باهرًا لجهركم، حتى تكون مزيّته عليكم لائحةً، وسابقته لديكم واضحة. البحر المديد (١٠١/٦).

ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾ [الحجرات:٥ - ٨].

فذم الله فعلهم ذلك وعلمهم كيف الأدب بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات:٥] وعذرهم بالجهل فأرصد لهم المغفرة والرحمة.

ذكر عن ابن عباس ﷺ أنه كان يختلف إلى زيد بن ثابت ليأخذ عنه، فربما وجد الباب مرصدًا وزيد في الدار فيجلس عند الباب وربما نام لطول الانتظار فتسفي الريح عليه الغبار، فيخرج زيد ويجده كذلك فيقول له: يا ابن عم رسول الله، هلا أعلمتني بمكانك؟

وركب يومًا زيد بن ثابت ﷺ فأخذ عبد الله بن عباس بركابه، فقال له زيد في ذلك، فقال له: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، فأخذ زيد بن ثابت بيد ابن عباس وقبَّلها وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

فهذا فعل بعضهم ببعض بحكم التبعية، فكيف بهم معه، صلوات الله عليه ورضوانه على جميعهم وجمعنا بهم ومعهم ببرد رحمته؟.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات:٦] وفي قراءة ابن مسعود: «فتثبتوا» وفي هذا من الفقه أن خبر الفاسق إذا تثبت فيه حتى يتبين بقول العدل فإنفاذ الحكم بقول العدلين واجب إلا أن تتعارض الأخبار أو الشهادات فيلزم التثبت.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾ أي: لو يطيع فيكم من لم تثبت عدالته لأعنتكم ذلك منه؛ أي: لشق عليكم ثم صرف وجه الخطاب إلى المؤمنين أهل التقوى بقوله: ﴿وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧] هؤلاء هم أهل العدالة التي تقبل شهادتهم، الذين

[عظة][1] الله في قلوبهم، فمن توسم مثل هذا عنده وما يقاربه فلتقبل شهادته وليمض الحكم بشهادته وشهادة مثله.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١﴾ [الحجرات: ٩ - ١١].

أتبع ذلك قوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ لما ذكر الفاسق والطائع ذكر الحكم بينهما والأخذ بالقسط فيهما بقوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ نزلت هذه في طائفتين من المؤمنين والمنافقين، واجه أحد المنافقين رسول الله بما يتأذى به فسبه أحد المؤمنين في ذلك المجلس، وقام لهذا قومه ولهذا قومه، حتى أصلح بينهم رسول الله، يقول الله - عز من قائل: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى...﴾[2] [الحجرات:٩] وفي قراءة ابن مسعود: «فحدوا بينهما

---

(١) في (خ): «عطه» وغير واضحة في (ف).

(٢) قال الشيرازي: إشارة الحقيقة في الآية أن وقائع الغيب عند كشوفها في صدور الأولياء على خلاف مذاق الروح والقلب والعقل والسر؛ لوجود إتيانها من الغيب بالبديهة، فبعضها للروح، وبعضها للسر، وبعضها للعقل، وبعضها للقلب فما وقع في السر فهو أعظم مما وقع على الروح، وما وقع على الروح أعظم مما وقع على القلب، وما وقع على القلب أعظم مما وقع على العقل؛ لأن واقعة السر كشف الأولية والآخرية من الأزل والأبد، ونوادره الشطح والعلم المجهول، وما وقع على الروح من كشف الجمال والجلال وعجائبه الشوق والمحبة والسكر والانبساط، وما وقع على القلب من كشف العظمة ولطائفه الهيبة والإجلال وعلوم الصفات وحكم الربوبية، وما وقع على العقل من كشف نور الأفعال ونتائجها الأذكار والأفكار والمعاملة والعبودية، وهذه الأحكام عند أربابها مختلفةٌ باختلاف كواشفها، ولبعضها على بعض معارضة من جهة غرائبها؛ فإصلاح بينهم لا يكون إلا بالكتاب والسنة وموازينهما؛ لا أن يعلمها بفرق بيان موارد الأسرار وعجائب الأنوار.

بالقسط» وهذا منتظم بما تقدم من استعمال التثبت حتى يقع البيان.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾ وقرأ زيد بن ثابت: «بين إخوانكم» وقرأ بذلك أيضًا جماعة، وقرأ أبو حيوة: «بين أخوتكم» بالتاء، وكذلك قرأ يعقوب، وروي ذلك عن عاصم.

ثم قال عز من قائل: ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الحجرات:١٠] المراد المقصود بهذا: إطفاء شعلة النفاق، وإصلاح شين المنكر، وقطع الكفر والفسوق والعصيان، وأن المنكر إذا فشا فمخوف عموم العذاب من أجله، نسأل الله العافية والعفو وحسن العون على إقامة أمره، إنه لا يقدر على ذلك إلا به.

ثم أخذ - جلَّ ذكره - بسرد القول في حماية المؤمنين ألا يسخر مؤمن بمؤمن ولا بمؤمنة، وصى بذلك ذكرانهم وإناثهم، وألا يلقبه ولا يلمزه ولا يهمزه، وسمى ذلك: فسوقًا، بيّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر**»[١] وأوجب التوبة من ذلك والنزوع عنه، وألا يظن مؤمن بمؤمن سوءًا، وليناده بأحب أسمائه إليه ويستشر له.

والظن: هو تغليب أحد الجانبين، فأوجب الله - جلَّ ذكره - التثبت عندما يعرض للنفس حتى يقع البيان، ومتى وقع البيان فالأفضل الستر وترك كشف العورة، والظن المراد هنا بالنهي عنه هو: تجويز أحد الجائزات من الشر، فهذا واجب اجتنابه وصرف النفس عن التحدث به، وتحويل وجه القلب عن ملاحظته، وهو معنى قوله: ﴿**اجْتَنِبُوا**﴾.

وعلم الله - جلَّ ذكره - أن النفوس مسارعة إلى ذلك؛ لأجل إغواء الشيطان إياها، فجعل هذا الظن في حيز الكبر، ونهى عن التجسس، وقرأ عبد الله: «ولا تجسسوا» بالحاء غير معجمة، وقرأ بذلك الحسن وابن سيرين، والتجسس بالجيم: في الأخبار، والتحسس: في الآثار.

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب**

---

(١) أخرجه أحمد (٤١٧٨) وابن أبي شيبة (١١).

بَعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًاۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٢ - ١٤].

وقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ نصب «ميتًا» على الحال، وهي حال المغتاب أخاه غدًا في البرزخ يظفر لحم أخيه ويجعل في فيه، فيتكرهه ولا يجد بُدًّا من أكله.

يقول الله ﷻ: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢] أي: في الدنيا، فأنتم في تلك الدار أشد كراهة له، رفع ذلك إلى النبي ﷺ؛ أعني: هذا التأويل.

وقرأ ابن حيوة: «فكُرهتموه» بضم الكاف مثقلاً، وفسرها عباد: فكلفتموه أي: فيما هنالك، ثم دعاهم إلى التوبة بقوله ﷻ: ﴿واتَّقُوا الله إنَّ الله تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾ إلى: ﴿خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] هذا كقول رسول الله ﷺ: «الناس لآدم وآدم من تراب لا كرم إلا بالتقوى»[١] القبائل أكبر من الشعوب، والشعوب ما تشعب عن الأول؛ فإذا عظم الشعب صار قبيلة.

يقول الله - جل من قائل: لم أجعلكم قبائل وشعوبًا للتفاخروا بينكم وتتكاثروا بالعدد والمال، إنما جعلت ذلك كذلك لتتعارفوا بينكم فمن عرفتموه أتقى لله فهو أبركم وأكرمكم وأفضلكم، وقرأها عبد الله: «لتتعارفوا بينكم وخيركم عند الله أتقاكم».

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ

(١) هذا ما معناه مما ورد في السنة المطهرة.

الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] هؤلاء قوم شهدوا شهادة الحق ولا يعلمون ما شهدوا به غير أن أنفسهم ليست تنازعهم إلى تكذيب ما شهدوا به.

قال الله تعالى: **﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾** إذ قد أذعنوا للعمل بطاعة الله **﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾** إذ لم يدخل علمه فيها دل على صحة هذا التأويل قوله جل من قائل: **﴿وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾** أي: على ما أنتم عليه **﴿لَا يَلِتْكُم﴾** أي: لا ينقصكم **﴿مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾** [الحجرات:١٤] إن الله عليم بأعمالكم خبير ببواطنكم.

وجاء من مفهوم هذا الخطاب: أن العلم بما شهد به هو الإيمان، فمن لم يكن له علم بما آمن به وصدق به وشهد به فليس بمؤمن على التحقيق إلا على القول بالعموم، بل هو مسلم لكنه على سبيل خير إن شاء الله، وأمر رسول الله ﷺ في بعض مواطنه أن ينادي مناديه في الناس: «**ألا أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة**»[١] وفي أخرى: «**مسلمة**»[٢].

ذلك قوله - جل من قائل: **﴿وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾** أي: على ما أنتم عليه من الإقرار والتسليم والإذعان **﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾** [الحجرات:١٤] فعموم الناس وأكثر أهل الغفلة مسلمون غير مؤمنين، فإن تعلموا علم ما شهدوا وعقدوا عليه علمًا ويقينًا فهم المؤمنون.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ

---

(١) أخرجه الحميدي (٤٨) والضياء (٤٦٢) وابن أبي شيبة (١٤٦٩٨) وأحمد (٥٩٤) والدارمي (١٩١٩) والترمذي (٨٧١) وأبو يعلى (٤٥٢) والحاكم (٤٣٧٦) والبيهقي (١٨٥٢٤) وسعيد ابن منصور (١٠٠٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٦١)، والترمذي (٢٥٤٧) وابن ماجة (٤٢٨٣) والطيالسي (٣٢٤) والبخاري (٦١٦٣) ومسلم (٢٢١) والبزار (١٨٥٠) وأبو عوانة (٢٥٠) والبيهقي (٥٤١٠).

غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات: ١٥ - ١٨].

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرَسُولِهِ﴾ أي: إيمان صدق وشهادة علم بما آمن به ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥] صدقوا الله في إيمانهم باطنًا، وصدقوا بما صدقوا به إيمانهم من إسلامهم ظاهرًا طيبة بذلك أنفسهم، الصدق هنا هو: صدق القلوب بالإيمان والعلم، ثم الصدق بالعمل لمن آمن به، فمتى انفرد تصديق الجوارح واللسان مع سلامة القلب من التكذيب فهو الإسلام.

نظم بذلك قوله لتلك الطائفة: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ الله بِدِينِكُمْ﴾ [الحجرات:١٦] فأوجد لهم دينًا وأضافه إليهم، وقد قال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ الله الإِسْلامُ﴾ [آل عمران:١٩].

﴿وَالله يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فكيف لا يعلم، حيث بلغ إيمانكم وحيث قصر عنه ﴿وَالله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١٦].

ثم استمر على خطابهم باسم الإسلام بقوله - جل ثناؤه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ أي: الذي نسبتموه إلى أنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧] لم يخلهم من خير لعدم نزاع التكذيب والجحد فيهم.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّ الله يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعرض بالإيمان الذي نسبوه إلى أنفسهم وما هو وما قدره ﴿وَالله بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات:١٨] يعرض بموضع إسلامهم وفيهم من الإيمان أن أمنهم الناس على أنفسهم وأموالهم.

تفسير سورة «ق»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨﴾ [ق: ١ - ٨].

قرأ ابن أبي إسحاق وأبو السمال: «قاف» بالخفض، وقرأ عيسى بن عمر: «قاف» و«صاد» و«نون» بالنصب، وتأسيس خطاب هذه السورة على وصف الاقتدار على الإحياء والإماتة، ثم العود بعد البدء والإرشاد إلى دلائل ذلك وآياته، ولزوم المراقبة والحفظ، وذكر المصيرين بما في ذلك وما تبعه من الوعد على الإيمان والوعيد على الكفر والتكذيب به، فقوله: ﴿ق﴾ إشارة إلى ما أعلمت به في ذكر الأسماء، وإلى ما عبرت عنه في الوجود؛ فكأنه قال - عز من قائل، وهو أعلم بما ينزل: وعد حق وقول صدق ورسول أمين ونبي كريم ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[1] [ق: ١].

---

(١) الذي هو مخبرٌ عن جميع الذات والصفات، المشتمل على حكميات الأفعال، المقدس عن تغاير الأزمنة والدهور، الذي كشف بيان ما يقع لأرواح العارفين وأسرار الواصلين، وقلوب المحبين، وعقول الصديقين، وصدور المقربين، ظاهره ظاهر البيان من حيث العبودية، وباطنه باطن العيان من حيث الربوبية، وحرف القاف كنايةٌ عن كل اسمٍ فيه القاف، مثل القديم والقادر والباقي والقيوم والقوي والقاهر والمقتدر والقريب أي: بقربي عن قلوب العارفين، وقرب أرواحهم وأسرارهم من مشاهدة بقائي وقدمي، وبقصد كل ذي قصد بنعت الإرادة والشوق إلى مشاهدتي، وأيضًا أي: بقيامي على كل ذرة من العرش إلى الثرى، وبقيامهم بقيوميتي إلى الأبد، وأيضًا أي: بالقلم القادر الذي رقَّم القرآن على أوراق لوح الملكوت، وأيضًا أي: بحرقة قلوب العاشقين والشائقين والمشتاقين إلى جمالي، والقرآن =

ثم أضرب بحرف «بل» عن ذكر حقائق ما عبر عنه بحرف القاف وما أقسم عليه، فقال: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:٢].

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق:٤] يعني ما تنقص أبدانهم من الأرض لأكل التراب إياها، هذا وجه.

ووجه آخر: قد علمنا ما تنقص الأرض منهم التي هي أبدانهم حال الحياة الدنيا؛ فإن الغذاء يتغذون به ويخلق الله عنه أجزاء لو تجمعت ولم تنقص لذهبت الأجسام كل مذهب؛ لكن الله يخلق عن الغذاء أجزاء ويعدم أجزاء، فهو أبدًا يخلق ويعدم، فها هو الآن يوجد ويعدم ويحيي ويميت، فما بالهم يكذبون بالرجعة بعد الذهاب بالموت، أفلا يتفكروا في أنفسهم كما قال: ﴿بَلَى وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ﴾ [يس:٨١].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩].

ووجه ثالث: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ﴾ [ق:٤] التي هي أجسامهم تأكلها التراب كلها إلا عجب الذنب ﴿مِنْهُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب فإنه فيه ركب ومنه يعود**»[١] يقال لواحدها: عجب، ويجمع

الذي يشوقهم إلى قربي، وأيضًا أي: بقسمي الاصطفائية لأنبيائي وأوليائي والمقربين في سوابق علوم قِدمي، أنا أقرب إلى قلوب الفرَّارين مني من عروق قلوبهم، أكشف بكشف جمالي قساوة قلوبهم، وأقرِّبهم مني حتى يشتاقوا إليَّ، وأيضًا بقربك مني يا محمد يا قرة عيون الأنبياء والأولياء والمرسلين والعارفين والصديقين وما أنزلت إليك من القرآن المجيد قف عند قوام كبريائي، ولا تغص في قاموس «قلزم» قِدمي؛ حتى لا تستغرق في قعر بحر بقائي، فينقطع منك قوافل الحدثان، ويبقوا عن محل القربان، بل قف في مقابلة قمر جمالي؛ لتشرب قهوات ودادي وعشقي في مشاهدة برقان جلالي، وتبقى ببقائي، وتلقى عجائب قرآني المجيد على قلوب القائمين في مقام الاستقامة، يا فَهِم إنما يتعلق بحرف القاف ما يكون فيه القاف من جميع كلمات الله، وما كان وما يكون في أفعاله، فهذا القاف القاسم عليه رمز جميعًا، فإذا قال سبحانه: ﴿قٓ﴾: أعلم بذلك حبيبه ﷺ جميع معانيها من خبر الذات والصفات والأفعال، وهو عرف بالله ما قال الله فيه بأقل لمحة، فإنها تنبئ عن جميعها، وهذا رمز بين المحب والحبيب.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٥)، وأبو داود (٤٧٤٣)، والنسائي (٢٠٧٧).

على عجوب، هو كالبزر لأجسام بني آدم، ثم قال: ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق:٤] أي: يزم ما يوجده وما يعدمه.

أتبع ذلك قوله - عز جلاله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥] يقال: أرض مستمرجة إذا اختلط نبتها بأنواع النبات والتف، انتظم هذا بما في أول السورة من معنى ما أضرب عنه إلى ذكره بحرف «بل» وهو ما كذبوا به لم يؤمنوا، فعجبوا من رسول يأتي منهم إليهم من عند الله بهذا الذي لم يتحققوه، وعجبوا منه وكذبوا به المديح المختلط الملتبس لما لم يستضيئوا بنور نبوة، ولا استروحوا نسيم اليقين، ولا حيوا بروح الإيمان، اختلطت آراؤهم والتبست مذاهبهم، فهم لذلك ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢١] إنما يبعثهم من هذه الموتة بالملائكة حين تتوفاهم ﴿يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد:٢٧] ثم يبعثهم البعث الأكبر للجزاء الأكبر.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق:٩ - ١٥].

نظم بذلك قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ [ق:٦] إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق:١١] قد تقدم الكلام في مثل هذا بما يتطرق به إلى النظر فيما يأتي منه؛ فإنه لا يأتي مع تكراره إلا لفائدة وزيادة علم تجديد النظر ويزداد التذكر بكون الفتح بإذن الله، لكن على ما يأتي عليه من خطاب قوله ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى آخر المعنى ﴿الرَّسِّ﴾ [ق:١٢] قالوا: وادٍ بعينه، وقالوا: هو البئر غير المطوية: وقيل: هم قوم عاد، والله أعلم، والمطلوب من معرفتهم أنهم قد كذبوا رسل ربهم إليهم فعوجلوا بالعذاب لأجل ذلك، وجعلوا عبرة لمن بعدهم وعظة لأمثالهم.

أتبع ذلك قوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ [ق:١٥] يقول - جلَّ ذكره - فكيف

توهمتم ما أريناكم أنا نعجز أو نعيى بالخلق الآخر، يقال: عيي فلان يعيى عيًّا: إذا لم يهتد لوجه عمله، ويقال من ذلك: أعياني هذا الشيء بمعنى: أعجزني.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق:١٦ - ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾[١] [ق:١٦] هما وريدان؛ أي: عرقان يكتنفان صفحتي العنق مما يلي مقدمه، متصلان من الرأس إلى الوتين، وهو عرق القلب.

نظم به قوله - عز من قائل: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧].

يقول - عز جلاله: يعلم ما توسوس به نفس العبد ﴿إِذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني: الحفيظين - عليهما السلام - أي: إنه لم يجعلهما كاتبين لعمله؛ لأنه يغيب عنه علم ما هو عامله، بل هو يعلم سر ذلك وأخفى من السر، وهو ما لم ينقدح بعد من خزائن الغيب إلى سر النفس وعبارته عن ذلك بنون الجمع إعلام بأنه قد جعل

---

(١) قال المصنف: فالله ﷻ أقرب إلى المخلوق من نفسه ومن حياته، ومن مجرى الروح فيه، وأقرب من القرب؛ لأنه فاعل ذلك كله ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١] له الصفات العلا وللمخلوق مجازها. وأما قربه من عباده المؤمنين فعلى قدر تحققهم في صفات الإيمان والإسلام ومعاني التطيب والطهارة والتزلف لديه بطاعته، ومعنى قربه جل وعز منهم سرعة إجابته لدعائهم، وسماعه لنجواهم، وعلمه بخفايا ضمائرهم وشهوده لأحوالهم كلها، وحضوره معهم وأنه ليس بالغائب عنهم، ولا بالعازب عنه شيء في السماوات ولا في الأرض، ليس في معرفة قربه مسافة ولا في العلم أمم ولا ناحية. [٢/٢٥٤].

للملائكة من ذلك أنهما يعلمان سر يقين العبد.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الملك يقول: رب، ذلك عبدك يريد أن يعمل سيئة، قال: ارقبوه فإن عملها...**»(١).

وقد قال الله في غير هذا الموضع: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الانفطار:١٠ - ١٢] وكل نون عبر بها عن علم أو عمل أو مفيد أمر فهو عبارة عنه وعن الملائكة الذين جعل لهم ذلك لذلك.

قال: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ [ق:١٨] أي: حاضر رقيب، بمعنى: مراقب، وقعيد بمعنى: مقاعد.

قوله ﷻ: ﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ**﴾ معناه جاءت سكرة الموت بما فيها من معاينة وبما بعدها، وهو من الحق الواجب على كل عبد الإيمان بوجوده والشهادة به، وقرأها أبو بكر: «وجاءت سكرة الحق بالموت» ﴿**ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ**﴾ [ق:١٩] أي: تنفر.

أتبع ذلك ما هو من الحق قوله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ**﴾ [ق:٢٠ - ٢١].

ثم قال يعني الكافر والغافل عن مقام ربه: ﴿**لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾ [ق:٢٢] غطاء الجهل والغفلة في هذه الحياة، اعلم أنه من كان بصره في هذه الحياة الدنيا حديدًا رأى هذا الحق المشهود به بشهادة الحق كله أو جله وهو عمدة الوجود، بل هو من الموجودات بمثابة النقطة من الخط بها مبدؤه وبها اتصاله وبها انتهاؤه، كذلك الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه هو الأول في كل موجود وهو الآخر وهو الظاهر فيه وهو الباطن، فافهم - فهمنا الله وإياك - وقف على هذا ومبينة جدًا، فمتى أحكمته لم تر شيئًا غيره، وكان المفعول على هذا التحقيق هو كالغرض والمطلوب كالجوهر ﴿**وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ**﴾ في السماوات والأرض ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠].

نظم بذلك قوله الحق: ﴿**وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ**﴾ [ق:٢٣] هذا القرين

---

(١) أخرجه مسلم (٣٥٢)، وأحمد (٨٢٠٣).

هو: الملك، يقول: هذا الذي كتبته عليه من عمله طول حياته عتيد حاضر.

قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق:٢٤] بمعنى: معاند، التثنية هنا مخاطبة للسائق والشهيد معًا؛ إذ السائق يسوقه وبشهادة الشاهد يحق عليه الحكم، فحسن العبارة عنه بلفظ التثنية إلى قوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق:٢٦].

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق:٢٧ - ٣٥].

نظم بذلك قول القرين من الشياطين: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أي: إني لم يكن لي عليه سلطان ولو اعتصم مني بك لم يكن لي فيه ولا عليه حجة، لكنه كان عن عبادته إياك ﴿فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق:٢٧] ينظر إلى قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢].

نظم بذلك قوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [ق:٢٨].

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٣٨ - ٣٩] المعنى حيث وجد ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩].

﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٤٢ - ٤٣].

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩] بعد الإعذار مني والإنذار والنار.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق:٣٠] يحمل هذا الكلام على وجهين:

أحدهما: أن يكون معنى قولها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ بعد الملء؛ أي: لا مزيد على هذا، ويمكن أن يكون هذا المعنى منها في دولة الزمهرير تعظم أجسامهم كما جاء أن: «**ضرس الكافر مثل جبل أحد وكثف جلده أربعون ذراعًا**»[١] ويكون معنى جوابها أيضًا: هل من مزيد حريقًا وسعيرًا في دولة السعير والحريق، والوجه الآخر هو: الأعلى أن يكون معنى قولها ذلك طلبًا منها للمزيد للمعهود من النار أنها كلما زيدت حطبًا زادت لهبًا.

قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع الرحمن فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط وعزتك**»[٢] آية ذلك اختلاف الزمان بالحر والبرد، وإذا أفرط الحر جاءت رحمته بالبرد والماء من السماء فامتزجا معًا وكان التوسط، وإذا أفرط البرد جاءت رحمته بالحر بواسطة الشمس، فامتزج الوجودان وكان التوسط، وكل ذلك له دوائر موزونة بأقساط مقسطة تقدير العزيز العليم، والعبرة في ذلك إلى موجود الدار الآخرة وهي الكبرى فسعير ما هنالك وزمهريره على قدر ذلك، وعلى مشيئة الله ﷻ في ذلك، والملء يكون بها ومنها وفيها سعرًا ولهبًا، ويكون ممن يجعل فيها، نعوذ بالله من ذلك.

قال الله - عز من قائل: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] اذهب فمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين، فإذا كان الملء ممن جعل فيها فإنما يكون ذلك حال دولة الزمهرير وضع فيها - جلَّ ذكره - قدمه الذي قدمه في قدمه تقديره الأول، فانزوى زمهريرها وبردها وجاء سعيرها ولهيبها وتزايد؛ فالتهم ذلك من فيها أكلاً واتسعت بهم، وقد كانت قبل أن يضع فيها قدمه كالزج على كعبه الرمح ضيقًا، فصاروا منها في بحار وسعير ليذوقوا عذابها، ثم هي إذا امتلأت منها بها سعرًا ولهبًا، قيل لها: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ فتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ حررًا ونهامة، وضع فيها قدمه أيضا فينزوي بعضها إلى بعض ضيقا بهم وإظلامًا وبردًا وزمهريرًا، ويتضاعف عظم أجسامهم ليذوقوا عذاب ما هم فيه، حتى إذا تناهت قيل لها: ﴿هَلِ

---

(١) أخرجه هناد في الزهد (١/١٨٩).

(٢) تقدم تخريجه.

امْتَلأْتِ﴾ فتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي: لا مزيد، قد امتلأت بأهلي، فيضع فيها قدمه هكذا، نعوذ بالله من جهنم ومن أحوال أهلها في الدنيا والآخرة إنه خير معاذ.

وذكر القدم هاهنا عبارة عن قوله العلي في قدمه الأمر يوم استوى على العرش الكريم: «**إن رحمتي تسبق غضبي**»[١] وفي أخرى: «**تغلب**»[٢] مكان «تسبق».

نظم بذكر جهنم ذكر الجنة بقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

نظم بذلك إشارة منه إلى قربها من المتقين قوله الحق: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣٢] الأواب: الرجاع بالتوبة إلى ربه، وإنما بعد الجنة منه في الدنيا على قدر بعد التوبة من التقى من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب، الله لا إله إلا هو قريب لا ريب في ذلك، من عبده كذلك الجنة أو النار قريب هذه وهذه من هذا أو هذا، فمن كفر ربه ﷻ في هذه قربت منه جهنم عقدًا وقولاً وعملاً وأكلاً منها وشربًا عيبًا.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار:١٦] أي: اليوم ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:٤٩] فإذا كان يوم القيامة نشأ ذلك نشأة يزيد على ما هو اليوم كما بين الدنيا والآخرة، فإنما هو التجلي منها ورؤيتها حتى إذا كان في دار القيامة أدخلها وصليها جزاءً وعذابًا ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٥] من خشيه بالغيب تجلى له برحمته، وأزلف له جنته التي عمل لها بالغيب.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[٣] [ق:٣٥] مزيدهم أبدًا يزيد على

---

(١) أخرجه بنحوه الدارقطني في الصفات (١٦) وأحمد (٧٥٢٠) وإسحاق بن راهويه (٤٥٩) والبخاري (٦٩٦٩)، ومسلم (٢٧٥١) وأبو نعيم في الحلية (٨٧/٧) والديلمي (٥٢٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٧١٤٥).

(٣) هو ما لا يخطر ببالهم، ولا يندرج تحت مشيئتهم من معالي الكرامات التي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ومنه كما أخرجه ابن أبي حاتم عن كثير بن مرة: أن تمر السحابة بهم فتقول: ماذا تريدون فأمطره عليكم؟ فلا يريدون شيئًا إلا أمطرته عليهم. وأخرج البيهقي في «الرؤية» والديلمي عن علي - كرم الله تعالى وجهه - عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال: «يتجلى لهم الرب ﷻ». وأخرج ابن المنذر وجماعة عن أنس أنه قال في ذلك أيضًا: يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى في كل جمعة. وجاء في حديث =

أمانيهم ويربو على آمالهم وعلومهم؛ فلا تزال أبدًا علومهم تزيد وأمانيهم على قدر ذلك ترتفع وتزيد، والمزيد يتزايد أبدًا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [ق:٣٦ - ٤١].

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ رجع نظم الخطاب إلى أوله حيث ذكر تكذيب المكذبين وارتيابهم وعلوهم على رسلهم وإهلاكه إياهم ﴿فَنَقَّبُوا فِي البِلادِ﴾ بعثوا نقباء في البلاد ﴿هَلْ﴾ يجدوا فيها ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق:٣٦] أي: منجا مما حل بهم، والتنقيب: شدة الطلب والبحث.

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ يفقه به عن ربه فسار في الأرض ووقف على مواضع إهلاكهم،؛ فيعلم أن الذي أصاب أولئك نصيب من حذا حذوهم ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ من لم يتهيأ له التسيار؛ فليلق سمعه إلى نقلة الأخبار، ولما جاء في القرآن وسائر الوحي ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧] القلب حاضره، يسمع بأذن قلبه وكأنه يرى ربه غير غائب عنه، فإن غفلة القلب موته، وذكره لربه ﷻ حياته، كما أن الإصرار على المعصية موت للقلب، والتوبة مع إدامة الذكر حياة العبد، وكل قلب لم ينل هاتين المنزلتين لزوم المراقبة بالعلم وإدامة الذكر؛ فهو ميت بقدر ما نزل عن هذا المقام كما بالقدر الذي صعد إليه وتحقق فيه عد

=

أخرجه الشافعي في «الأم» وغيره: «أن يوم الجمعة يدعى يوم المزيد». وقيل: المزيد: أزواج من الحور العين عليهن تيجان أدنى لؤلؤة منها تضيء ما بين المشرق والمغرب، وعلى كل سبعون حلة، وأن الناظر لينفذ بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك. وقيل: هو مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها. تفسير الألوسي (١٩/٣٤٣).

في الأحياء، فعلى هذا فأول من مات ممن خلق الله إبليس - لعنه الله - فإنه من عصى الله عد في الموتى.

قال الله - جل من قائل: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي: بالإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ أي: بالعلم والذكر لله ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يعني: ظلمات الجهل والكفر والمعاصي ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] أي: إعياء، هذا منتظم بذكر وصف الاقتدار على إيجاد المخلوقات، وإنزاله الماء وإنباته ضروب النبات، ثم صرح عن المراد بقوله الحق: ﴿كَذَلِكَ الخُرُوجُ﴾ [ق:١١].

يقول - جل من قائل: فكيف أنكرتم القدرة على الإعادة بعد البداية وإنما أنتم شعبة يسيرة من خلق السماوات والأرض.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ الفجر ﴿وَقَبْلَ الغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩] العصر والظهر بمفهوم الخطاب ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ المغرب والعشاء ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق:٤٠] وقيل: ركعتا الفجر، وقيل: ركعتان بعد صلاة المغرب، وأرى - والله أعلم - أنه خص منه جلَّ ذكره على الركوع بعد انقضاء صلوات الفريضة التي كان رسول الله ﷺ يحافظ عليهن: ركعتا الفجر، وأربع قبل الظهر، واثنتان بعدها، وأربع قبل العصر، واثنتان بعد صلاة المغرب، وأربع قبل صلاة العشاء، واثنتان بعدها، ثم صلاة الوتر، أمر رسوله بالصبر على ما يقولون حتى يأتي الله بأمره وبالنصر والانتصار.

أتبع ذلك ما هو في معنى ما تقدم قوله ﷻ: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق:٤١] أي: ارتقب ذلك بقلب مترقب منتظر يوم يسمعون الصيحة بالحق؛ أي: بما فيها من إحياء ونشور وحشر ولقاء وحساب وميزان وصراط وحوض وشفاعة، إلى غير ذلك مما في ذلك اليوم وما بعده الذي هو يوم الخلود، **ذلك يوم الخروج** من القبور والأرض التي منها خلقوا وهو ما شكوا فيه وكذبوا به.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق:٤٢ - ٤٥].

ثم حكم بحكمه الحق الذي هو المطلوب في السورة قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا المَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي: سريع خروجهم، ليس خروجهم على المعهود من خروج النبات في البطء ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق:٤٣ - ٤٤] كانت النشأة الأولى على سبيل السنة وتكون الآخرة على سبيل الكلمة، فهو اليسير والهون المذكوران، فافهم.

تفسير سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)﴾ [الذاريات: ١ - ١٤].

جاءت دلائل هذه السورة أن الجزاء واقع، والوعد والوعيد صادق، ثم ما انضم إلى ذلك أو كان سبيلاً إلى التعريف به قوله ﷻ: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾[1] [الذاريات: ١] الرياح تدبرها الملائكة وتصرفها إلى أمر الله بمشيئته وإذنه.

﴿فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات: ٢] السحاب ومن وكل بهن من الملائكة - عليهم السلام - تسوقها الرياح.

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ [الذاريات:٣] الفلك في البحر والملائكة الموكلون بهن تجريها الرياح والملائكة الموكلون بهن، على جميعهم السلام.

﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات:٤] عم هنا جميع الأمر والخلق، نزل الأمر من السماء من عند رب العزة ﷻ فتتلقاه الملائكة حملة العرش ومن حوله - عليهم السلام، ثم ملائكة السماوات سماءً سماءً بعد الخضوع له بالقبول، فيصرفه الله على مشيئة ربهم - جلَّ ذكره - وبحوله وقوته، وهم بأمره يعملون ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

---

(١) أقسم الله سبحانه بعواصف تجلي عظمته وكواشف أنوار كبريائه التي تفرق أسرار العارفين في هواء القدم، والبقاء حتى لا يبقى من وجودها من صولة ظهور القيومية في سماء الهوية أثر؛ لغلبة القدم على الحدث وبشمال جماله الذي يأتي بنسيم الوصلة إلى قلوب المحبين، وينشق طيب نسائم الدنو أرواح الشائقين ومحمل أنين العاشقين إلى بساتين الملكوت، ويطيبها بطيب الجبروت.

وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [الأنبياء:٢٨] ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات:٥] المراد بقوله: ﴿تُوعَدُونَ﴾ العقاب.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات:٦] العقاب والثواب لأهله، نظم بذلك قسمًا على معنى ما تقدم، ما توعدون: هو ما تثابون به وتعاقبون، والدين هو نُزل هؤلاء وهؤلاء، وقد جاء ذكر هذا وهذا في المقسم من أجله بعد هذا، و«**كما تدين تدان**»[1] ويكون أيضًا بمعنى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات:٥] أي: من محبوب ومن مكروه موجود في الموت وفيما بعده هو حق وجوده لا مرية في ذلك.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات:٦] أي: الجزاء على الأعمال كائن لا بد ولا محالة والقسم واقع على وجود قلة ذكرهم وعدم الصواب منهم في العلم به واليقين بما هم إليه صائرون.

قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات:٧] هو: الصنع الحسن الجميل؛ فكأنه قال: والسماء ذات الزينة والخلق الحسن والدروع محبوكة؛ لأن حلقها مطرقة طرقًا، وكل ما كان كذلك فهو ذو حبك ومحبوك، ويقال: إن خلقه السماء كذلك يقول ﷻ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات:٧ - ٨] أي: مختلف في الحق، يؤفك عن الحق من أفك؛ أي: عن حقيقة الحق، وعدل به عن سواء السبيل.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [الذاريات:١٠] هم: الذين يقولون عن غير علم لا يسندونه إلى كتاب ولا سنة ولا أثارة من علم، وهو دعاء منه مجاب إلى من تلقاه منه برحمة.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات:١١] السهو: الذهول، فهم في غمرة، والغمرة: غمة الظلام، وغمرة الماء: عمته، وغمرة الموت: همومه وكروبه.

قال رسول الله ﷺ في أبي طالب: «**وجدته في غمرات من النار**» أي: في داخلها وفي أعماقها «**فأخرجته إلى ضحضاح، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من**

---

(١) أخرجه البخاري (١).

النار»[١] فالكفار في ذهول عما يراد بهم.

يقول الله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٤٤] هم لا يسمعون ما يوعظون به، ولا يعقلون ما يرونه من الآيات وما يأكلون أو يشربون ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠] [...][٢] هو بعدهم عن الإيمان والعلم وبخاصة إبعاده إياهم عن قربه، فهم لذلك لا يعقلون ولا يسمعون ولا يجدون حلاوة الإيمان ولذاذة القرب وروح العلم والذكر، قُتِلوا: أبعدوا عن الله الحي الذي لا يموت ومن قربه الله فقد أحياه ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات:١٢] متى يوم الجزاء؟ وهو ما كانوا عنه في غمرة ساهون.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣] أي: يعذبون، يقول - جل من قائل: الدين هو في يوم هم على النار يفتنون ونصب يوم بسقوط الخافض الفتن أيضًا بوجه الحرق بالنار، واعلم وفقك الله إنما أقسم بقسم إلا مطابقًا معناه لمعان في المقسم من أجله سراج منير يهدي به الله من يشاء، وإنما يعمي عن رؤية ذلك ظواهر أشخاص المحسوسات، ويصم عن سماع ندائها ضوضاء المشاهدات، لولا ذلك لنودوا بها من مكان قريب: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات:١٤] أي: ذوقوا صدكم عن سبيل الله وانصرافكم عن هدايته، فتنوا الناس في الدنيا بالضلال عن الهدى وافتتنوا ففتنوا في الآخرة بالنار، أحرقوا وفتنوا بذلك أيضًا عما صار إليه أهل الإيمان والاستجابة لله والرسول من الثواب والنعيم المقيم.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢).

(٢) غير واضحة في (خ) وغير موجودة في (ف).

تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ١٥ - ٢٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الذاريات:١٥ - ١٦] أتاهم في الدنيا الإيمان والعمل بالطاعة وفي الآخرة جزاء ذلك جوار ربهم.

ومثال نزل أعده لهم قوله ﷻ: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ [الذاريات:٢٠ - ٢١] كما قال: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٤] فأما الآيات التي في الأرض فقد تقدم ذكر البعض منها في صدر الكتاب، والمشار إليه منها هاهنا على الأكثر هي آلاؤه ﷻ منها حكمته في الأمم الماضية من إهلاك من أهلكه منهم، وإنجاء من أنجاه وأكرمه من أوليائه.

وأما قوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ فإنه من نظر في نفسه بإيمان صحيح وعقل مسترشد عرف نفسه، يعلم بذلك أنه عبد، وفي علمه بذلك أن الله له رب وبعلمه ذلك يعلم أسماءه وصفاته، ثم بإيمانه ذلك يعلم أنه واحد أحد، وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وأن ﴿لَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧] ليس كمثله شيء وهو العلي الكبير، فافهم فهمنا الله وإياك، فقد حصلت على الحادة وجمع لك المقصود في أطراف الكلام.

لذلك ختم بقوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١] فإنك لو وقفت بعقلك وصحيح إيمانك على فطره إياك وإخراجك من عدمك إلى وجودك، وإنك لم تكن قط عدمًا له إنما كنت عدمًا لنفسك، بل كان يراك ويسمع المسموع ويعلم المعلوم منك، ثم أوجدك فأخذ عليك العهود والمواثيق بعد أن كتبك في الذكر وهو اللوح المحفوظ ولم ينقلك عن علمه، ثم كتبك في الكون، ولما أخذ ميثاقك وأعطيته عهودك بما أخذه عليك صيرك في خزائن السماوات والأرض، ولذلك جعل رزقك فيهما ومرجعك إليهما، ولذلك كله كانت فيك إثارة الأسماء والصفات ومعاني الفتح والفيح، ثم لذلك كان مرجعك إليه - جلَّ ذكره - ومرجعك إلى أحد المصيرين؛ لوجوب وجودك عن إثارتيهما وأنه كان رزقك في هذه عنهما لهذا وما أكثر وأكبر من هذا ختم القول بقوله: ﴿أَفَلَا

تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١].

ثم نظم به قوله الحق: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] وأقسم على ذلك؛ لأنه ظاهر للعقول الصحيحة بقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٣] جعل القسم من الطريق التي يتوصل بها إلى المطلوب؛ إذ كنا مفطورين في فطرة السماوات والأرض، ثم فطرنا بعد في البدء الأول كما تقدم، ثم أصارنا مختزنين فيهما، وإذا أراد شيئًا قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] و﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣] فكما أننا ننطق كذلك هو الحق، وهذا المعني بهذا الخطاب من جزاء ووصف هو موجود في دار البرزخ في الدار الآخرة أكبر وأعظم جزاءً.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] الرزق هنا على أحد الوجهين:

- الماء كما قال - عز من قائل: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية:٥].

- **والوجه الآخر في تأويل الرزق**: أن الماء قد دل بما هو بما ينبت الله عنه من جنت ويجري به من الأنهار ويفجره عنه عيونًا على جميع ضروب ذلك كله وأنواع فنونه: فدل بذلك على الرزق المدخور في الدار الآخرة، وأنه أيضًا أحال بذكر الرزق النازل من السماء عن الماء الواحد على الإله الواحد الحق كان ولا شيء معه مذكورًا سواه، ثم أوجد الموجودات وابتدع الأرض والسماوات وما علا فوق ذلك وما سفل.

كذلك الماء واحد ينزله من السماء طاهرًا مطهرًا مباركًا إلى الأرض، ثم يصرفه إلى ما شاء من كثرة كذلك أحال بذكر الرزق في الماء على معنى الإيجاد بعد البداية، يقول: خلقهم من الماء ومما يصرفه إليه رزقًا وغذاء خلقًا بعد خلق وإنشاء بعد إنشاء، ثم يميتهم كذلك يحييهم كما بدأهم إحياء، إطلاق اسم الرزق واقع على مأكولات الجنة، ثم اتسع بذلك على متاع الدنيا، لكنه على التحقيق لا ينطلق إلا على الحلال من ذلك أحياء عند ربهم يرزقون فيها بكرة وعشيًّا، وما أنزل الله من السماء من رزق وعرض بذكر السماء ينزل منها الماء فيخلق عنه الرزق إلى ذكر الجنة.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] فكل ما يكون عن الماء يفتح الله رحمته بعد إنزاله من السماء من أبناء وبنين، وشبان وشيب، وكواعب حسان ومراكب [مزينة][١] وجنات وحدائق معروشات وغير معروشات، وثمرات وزروع، ومقام كريم دال على الجنة للمعهود، ومن شبه الأبناء للآباء، وكذلك ما يكون عن الماء أيضًا بعد امتزاجه بالأرض وبالفيح من شابك ومرار وأدواء وسموم وحيات وأفاعي وعقارب وحشاش وسباع دال على جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - للمعهود أيضًا من شبه الأبناء بالآباء، ألا ترى إلى السحاب والهواء والجو البرق فيها يلمع، والرعد يزفر، والصواعق تصعق فتصيب من شاء الله، والبرد ببرد ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٤] فقوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] إعلام بما يكون عن الوعيد.

أتبع ذلك قسمًا برًا وقولاً حقًا: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[٢] [الذاريات:٢٣] فكما لا مرية في أننا نطق ونتكلم، ولا شك فيما نشاهده من نزول الماء من السماء وتصريفه إلى ما نشاهده، ويكون عنه كذلك لا مرية في إظهار ذلك الغيب، ولا لبس في كون ما نوعد.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا

---

(١) هكذا في (ف)، وغير واضحة في (خ).

(٢) قرأ الجمهور بنصب «مثل» على تقدير: كمثل نطقكم و«ما» زائدة، كذا قال بعض الكوفيون: إنه منصوب بنزع الخافض. وقال الزجاج والفراء: يجوز أن ينتصب على التوكيد؛ أي: لحق حقًا مثل نطقكم. وقال المازني: إن «مثل» مع «ما» بمنزلة شيء واحد، فبني على الفتح. وقال سيبويه: هو مبنيّ لإضافته إلى غير متمكن، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر والأعمش: «مثل» بالرفع على أنه صفة لحقّ؛ لأن «مثل» نكرة وإن أضيفت، فهي لا تتعرّف بالإضافة كـ«غير». فتح القدير (٤٣/٧).

ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٤٠].

ثم جعل ﷻ يسرد ذكر الآيات الدالة على الثواب والعقاب من لدن قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [الذاريات:٣٧] ثم قوله - جلَّ ذكره: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٥ - ٣٦].

فصل

في هذا الخطاب من الفقه أن اسم المسلمين قد يقع على غير المؤمنين لقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٣٥] يريد لوطًا وبناته - عليهم السلام.

وقوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٦] لكون امرأته في جملتهم، و﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٢] لكونها في الباطن من أهل القرية وأخرجت منها؛ لكونها متلبسة بحلية الإسلام ولم تكن من الناجين؛ إذ لم تكن من المؤمنين.

قيل في الكتاب الذي يذكر أنه «التوراة»: إنها التفتت فمسخت مكانها تمثالاً مالحًا بعد خروجها من القرية.

وفيه أيضًا من الفقه: أن المرأة من أهل البيت، فعائشة إذن وحفصة وصفية وسائر نساء النبي ﷺ من أهل البيت بنص القرآن.

قال الله ﷻ **يخاطبهن** - رضي الله عنهن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣] فهن من أهل البيت بمواجهة الخطاب، وأصحاب الكساء الخمسة أهل البيت بنص الحديث وبعموم خطاب

القرآن بقوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ [الأحزاب:٣٣] فاستاق جمع المذكر وغلَّبه كالمعهود الشائع من كلام العرب.

وقال محمد بن أبي بكر - رضي الله عنهما - وقد رامه أبوه على فراق امرأته:

وإن فراقي أهـل بـيت جمعـتهم على كبرة مني لإحدى العظائم

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١)﴾ [الذاريات: ٤١ - ٥١].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الذاريات:٣٨] إلى قوله: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ [الذاريات:٤١] إلى قوله: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ [الذاريات:٤٣] إلى تمام القصص، إلى قوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: أهلكناهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات:٤٦] فكانت تلك آيات على إهلاك من لم يؤمن بالله وكذب المرسلين في الآخرة، نظم بذلك - جلَّ ذكره - لينسق الآيات بعضهن على بعض.

قوله الحق: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] أي: بقوة، يريد - وهو أعلم بما ينزل: والسماء بنيناها فجعلنها على ما هي عليه خلقها وأمرها ممسكة بغير عمد ترونها، بل بقدرة منا وأيدٍ آية، وقد تقدم أن السماء والأرض وما بينهما خلقهن العزيز العليم بالحق.

ومن تقصى النظر وتابع التذكر وقف على أن هذا الحق المعني قد أسلكه فيهن صغير ذلك وكبيره سلوك الأرواح في الأجسام والأغذية في الأبدان، بل أحله من ذلك حلول الأول فيها والآخر والظاهر والباطن أبطن ذلك اليوم عن الأبصار

وأظهره لبصائر ذوي الألباب؛ فإذا كان اليوم الآخر وقوض البناء وبدل الأرض غير الأرض والسماء أظهره إظهارًا وكشفه عيانًا، وهو المسمى: الحق المبين، أشار إلى ذلك بقوله الحق: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧].

كان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من الليل إلى الصلاة ونظر إلى السماء: «**اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد، أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد، أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والملائكة حق، ورسلك حق، وكتبك حق، والصراط حق، والميزان حق، والحوض حق، وما جاءت به رسلك وكتبك حق، اللهم إني أسألك فكاك رقبتي من النار**»[1].

وقال الله - جل من قائل: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران:١٩٠] إلى قوله: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ**﴾ [آل عمران:١٩٥] ثم إلى آخر السورة، فاحرص - وفقك الله - إلى أن تعلم تفصيل هذا الحق من خلقه السماوات والأرض وما بين ذلك، فطوبى لك إن أوصلك إلى ذلك.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧] يعني: في اليوم الآخر أوسع يومئذٍ توسيعًا لا تناسب بين ما هو الآن وبين ما هو يومئذٍ، عبر عن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم فانظر بما يرجع منها**»[2].

نظم بذلك قوله الحق - تبارك وتعالى: ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ [الذاريات:٤٨] يعني: اليوم، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ [الذاريات:٤٧].

ثم قال: ﴿فَنِعْمَ المَاهِدُونَ﴾[3] [الذاريات:٤٨] أي: في اليوم الآخر وفي هذا

---

(١) لم أقف عليه هكذا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) المخصوص بالمدح محذوف؛ لفهم المعنى، أي: نَحْنُ، كقوله: ﴿نِعْمَ العَبْدُ﴾ [ص:٣٠] قال ابن عباس، معناه: الباسطون؛ أي: نعم ما وطأت لعبادي. [اللباب لابن عادل (٤٠١/١٤)].

اليوم أيضًا، لكن تمهيدها على النهاية ذلك اليوم ذكر تمهيد الأرض آية على تمهيده أرض الجنة، كما قد جاء من وصفها وتعداد أنعم؛ إذ جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - لا أرض فيها، إنما حالهم فيها رسوب إلى قعر ما هم فيه وصعود بالغليان، وربما اضطروا إلى جبال فيها ليصعدوا عليها نوع من العذاب يضع أحدهم يده عليه فتذوب، ويضع رجله فتذوب، ثم يجد ذلك منهم هكذا؛ فإذا صعد إلى حيث شاء الله به ذلك زل فهوي إلى حيث شاء الله به ذلك، لا يذوقون لذيذ الشراب أبدًا، ولا يستقرون على أرض أبدًا، ولا يضطجعون أبدًا، نعوذ بالله من أحوال أهل جهنم في الدنيا وفي الآخرة، فحيثما جاء ذكر تمهيد الأرض أو تعداد نعم فهو وصف للجنة باعتقاد الفضل وتعريض بوصف جهنم، فافهم وفقنا الله وإياك.

أتبع ذلك جلَّ ذكره: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩] يقول، وهو أعلم: أوجدنا نورًا وظلامًا ونهارًا وليلاً، وشقاءً وسعادة، وصحة وسقمًا، وخيرًا وشرًا، وغنىً وفقرًا، وشدةً ورخاءً؛ ليتذكروا بذلك الوعد والوعيد والثواب والعقاب، وقد جاء في القرآن ذكر الزوجين بمعنى: الذكر والأنثى في قوله - عز من قائل: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ [النجم:٤٥].

وجاء أيضًا ذكر الأزواج بمعنى: النبات، والتمييز بين ضروب الثمرات، فكل نوع من ذلك زوج، لكن تمام العبرة بذلك إن شاء الله، وهو الموفق المرشد، إن الله ﷻ خلق الدنيا مبنية على نفس جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - وأنزل رحمته بالماء من السماء، وقد مزجه بماء من ذلك في أجواء الهواء، ثم بما في الأرض من ذلك أيضًا، ففصل الماء إلى الثلاث شعب فتح رحمته وفيح نفس جهنم على المزج من ذلك، وإن كان قد أمال من ذلك ما أماله إلى خاصة كل شعبة منها، فمنها إلى الرحمة ومنها إلى الحر ومنها إلى البرد، وعلى وصف التفاوت المذكور ليدل بذلك على داري القرار في الآخرة الجنة والنار، ثم بالتفصيل والتنويع بالمقاربة والمباعدة من الأصول المذكور لذلك، وهو أعلم بما ينزل.

أعقب ذلك بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩] نظم بذلك ما هو تبيين لما تقدم قوله - عز من قائل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥٠] أي: فروا من وعيده الموجب لعذابه الذي دلكم على وجوده بما

أراكم في الزوجين إلى وعده الموجب لثوابه الذي دلكم عليه فيما خلقه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥١] أظهر ما يكون دلالة هذا في العبرة وتنويع الوجود كجعله ليلاً ونهارًا، ونورًا وظلمة، وخيرًا وشرًا، فالنهار بما هو، والنور والخير دلالة على الإله الحق، ثم في العبرة الأخيرة يتم ظهور الدلالة، والحمد لله رب العالمين.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٦٠)﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٦٠].

نظم بذلك قوله الحق - جل من قائل: ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف للتشبيه و«ذلك» إشارة منه إلى مشار إليه، وهو فعل من تقدمهم من الأمم الضالة قبلهم، يقول كذلك فعل ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ ما أتاهم ﴿مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أو مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ [الذاريات:٥٢ - ٥٣] يقول: أعهد بعضهم إلى بعض بذلك أولهم لآخرهم، ثم أضرب عن ذلك بحرف «بل» أي: لم يكن ذلك كذلك، إنما تشابهت قلوبهم في الطغيان فتشابه فعلهم وقولهم وطغيانهم على أنبيائهم، يمدح ﷻ تسوقه إياهم إلى هلاكهم ودمارهم بأنفسهم وإراداتهم، لا إله إلا هو هو المقصود بكل وجه والمراد بكل معنى.

أتبع ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات:٥٤] شهد الله ﷻ لرسوله بالتبليغ عنه، وإتمام ما أمره به وإكماله.

ثم قال: ﴿وَذَكِّرْ﴾ يعني: من ذكروهم ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥] الذين ينفعهم الذكر. كما قال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ [الأعلى:١٠] وربما كان معنى ذلك: امضِ لأمرك في التذكير والإبلاغ والنصيحة فسيذكر من يخشى، فاستاق ذلك بلفظ

الاستقبال يريد: من أناب على وقته وتوبته، وكل ذلك إلى أجل مسمى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] أي: على إرادتي منهم ومشيئتي فيهم، فقد كان ذلك ما من شيء خلقه الله ﷻ إلا وهو عائد له وقانت إما كونًا كالجماد والأرض والسماوات والنبات والأفلاك وما في ذلك، وإما شرعًا كالملائكة والأنبياء والرسل والصديقين والمؤمنين، والعابد له شرعًا هو عابده كونًا، كما أن عابده كونًا هو عابده شرعًا باطنًا يعلم ذلك هو منها، ويعلمه أيضًا من قد خصه بعلم ذلك من عباده.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٧] يقول: لم أطلب منهم على عبادتهم رزقًا يرزقون أنفسهم أو يطعمونيه، أظهر الله من صفته سبحانه التام في هذه الآية وشمائل الكرم الذي هو له أهل ولا يقدر العباد قدره، وهو حبه العلي في أن يُطعِم ولا يُطعَم، وفي هذا أبين البيان أن الله قد ضمن الرزق لعباده وبخاصة المشتغلين بعبادته طوعًا؛ لذلك قال وهو أعلم: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

ثم ختم السورة بمعنى ما اجتلب من أجله ما احتوت عليه من خطاب قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ [الذاريات:٥٩] أي: المذكورين من المهلكين الذين لم يستجيبوا لله ولرسله، لكن ذلك كله له أجل مسمى عاجلاً أو آجلاً، والذنوب هنا: هو الحظ والنصيب، ضربه مثلاً بالدلو العظيم.

ثم قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٦٠] يريد: اليوم الآخر.

تفسير سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ① وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ② فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ③ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ⑧ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ⑨ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ⑩ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑪ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ⑫ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ⑬ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ⑭ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ⑮ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⑯﴾ [الطور:١ - ١٦].

قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾ [الطور:١] إلى قوله: ﴿الْمَسْجُورِ﴾ [الطور:٦] الطور: جبل بعينه بمدين، أقسم الله به رب العزة تخصيصًا له، ولأنه كلم الله موسى فيه وواعده إلى جانبه وخيار أصحابه.

﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ [الطور:٢ - ٣] وقرأ ابن السماك: «في رِق» بكسر الراء، جاء من هذا أن الرق ليس الجلد لا محالة، بل الرق: ما كتب عليه، وسمى هذا بذاك يمكن أن يكون أقسم بكل كتاب أنزله التوراة والإنجيل والزبور والقرآن والصحف المنزلة فهو مسطوره في الرقوق، ويكون أيضًا اللوح المحفوظ وهو الأظهر، ويكون الرق اسم لكل ما كتب فيه وإن كان لوحًا، والكتاب الذي أنزله على موسى الذي هو التوراة، إنما كتبها الله - جلَّ ذكره - في ألواح، وسمى هذا الرق المكتوب عليه هذا الكتاب: رقًا، باسم ذلك.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور:٤] هو الذي تحج إليه الملائكة على ظهر السماء السابعة.

قال رسول الله ﷺ: «**يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أحرما**

عليهم وهو في السماء بحيال الكعبة في الأرض»[١] أقسم الله به؛ لكرمه عنده، ولأنه **بحيال** البلد الأمين، والذي هو مبعث محمد ﷺ.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ [الطور:٥] السماء.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾[٢] [الطور:٦] المعلق الآن، وفي يوم القيامة المسجور:

---

(١) أخرجه بنحوه البيهقي في شعب الإيمان (٣٨٥٥).

(٢) قال البقلي: أقسم الله ها هنا بذاته وصفاته وفعله، الطور ذاته القديم، والكتاب المسطور صفاته القديمة والرق المنشور أفعاله اللطيفة وأيضًا الطور قلب محمد ﷺ والكتاب المسطور رموز ما أوحى، والرق المنشور أسراره المنقوشة بأنوار وحيه وإلهامه وغرائب علومه اللدنية، ظاهر قسمه على الطور الذي تجلى له الحق، فإذا كان ذلك محل قسمه بتجلٍ واحدٍ فما تقول في طور لا تنفكُّ أنوار تجليه منه، وهو قلب محمد ﷺ، سماه طور العظمة واستقامته في موازاة سطوات عزته، وسمى قلب غيره من الأنبياء والأولياء بالبيت المعمور الذي عمَّره بنور القربة والمشاهدة والعلم والحكمة والمعرفة والوجد والحال والمكاشفة، ويمكن أنه تعالى أراد به صورة محمد ﷺ وصورة أبيه آدم، الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وجعله مرآة ظهوره، وجعل روحه ورق أسرار علومه التي ذكرها بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ روح محمد ﷺ الذي رفعه الحق إليه، ومقام عنديته أرفع من كل رفيع من العرش إلى الثرى، وأيضًا يمكن أنه أراد به العرش.
﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾: بحر سر محمد ﷺ؛ لأن ذلك البحر ملأته أنهار قاموس علومه القدمية، وأسرار كلماته الباقية، وأيضًا الطور طور سيناء الذي هو موضع التجلي والكلام. والكتاب المسطور ما كلَّم الله به موسى، فصار منقوشًا في ورق قلبه، أقسم بالطور وبقلبه وبما فيه مما سمع من كلامه. ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾: أيضًا ما كتبه بيده على ألواح موسى. ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾: أيضًا قلبه كان معمورًا بنور مشاهدته؛ ولذلك خاطب الله موسى بقوله: فرغ بيتًا لي أسكن، فلما سكن في بيت قلبه عمَّره بنور قربه. ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾: كنايةٌ عن ذاته القديم الذي امتنع بعزته عن تناول الحدثان، ألا ترى كيفما بلغ أماني موسى، فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ بعد قوله: ﴿أَرِنِي﴾. ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾: صدر موسى الذي هو مملوءٌ من نيران شوقه وحزنه، حين لم يدرك حقائق جلال الألوهية الذي استحال وجود الحدث عن إدراكه بوصف الإحاطة والحقيقة، وأيضًا عم في هذه الأقسام جميع العارفين والصديقين، الطور أرواحهم، والكتاب المسطور إلهامهم، والرق المنشور عقولهم، والبيت المعمور قلوبهم، والسقف المرفوع أسرارهم، والبحر المسجور صدورهم، أقسم بأرواحهم؛ لأنها مواضع تجليه، وأقسم بما خاطبهم من الوحي والإلهام، وأقسم بعقولهم؛ إذ هي ألواح علومه الغيبية، وأقسم بقلوبهم؛ إذ هي مساكن المعارف ومساقط أنوار الكواشف، وأقسم بأسرارهم؛ إذ هي تصعد إلى مصاعد الملكوت ومعارج الجبروت، وأقسم بصدورهم؛ إذ هي مملوءةٌ من سناء العرفان
=

الموقد نارًا، يقال: سجرت التنور أسجرها، وربما كان البحر المسجور هو المعني به جهنم - أعاذنا الله منها - وكل شيء واسع فهو: بحر.

قال رسول الله ﷺ وذكر إبليس - لعنه الله - وأن عرشه على البحر حول الحيات، فهو في الدنيا على البحر الأجاج من الماء الزعاق، وفي الآخرة في جهنم مع جنوده من الجن والإنس جواب.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور:٧ - ٩] يعني: يوم القيامة مارت السماء تمور: إذا تحركت وتموجت، ولا تزول عن مكانها وتسير؛ أي: تصير كثيبًا مهيلاً، ويسلط الرياح عليها فينسفها نسفًا حتى تذر الرياح الأرض قاعًا صفصفًا لا يرى فيها عوج ولا أمتًا.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ [الطور:١٢] الخوض من الكلام أن يكون في الباطل الكذب الدع الدفع.

قال الله ﷻ: ﴿الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون:٢] يدفعه.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور: ١٧ - ٣١].

=

وضياء الإيمان وأنوار الإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يرفع الأدنى إلى الأعلى دون أن ينزل الأعلى إلى الأدنى، ذلك معنى قوله - جل من قائل: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ يقول: وما نقصنا الأعلى من عمله في الجمع من شيء بينه وبين ذويه، قوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١] وقرأها أبي وعبدالله: «إن كانوا غير مؤمنين» أو كان أحد الفريقين من الآباء والذرية مؤمنًا والآخر كافرًا فكل امرء منهم بما كسب رهين، وقرأها أُبي وعبدالله: «وما لتناهم» بإسقاط الألف؛ يعني: نقصناهم، ورويت كذلك عن ابن كثير وقرأها الأعرج: «آلتناهم» ممدودة الألف.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور:٢٣] يتعاطون فيها، لا يتكلم فيها بما هو لغو ولا يتنعم فيه، بل بذكر الله - جل ثناؤه - وما يتنعم به أهل تلك الدار، ولا يقولون باطلاً ولا تأثيمًا ما يأثمون به في قول ولا فعل، قد رضيهم ربهم ﷻ ورضي عنهم واستعملهم بما يرضيه، فهم المتقلبون في رضوان الله لا يسخط عليهم أبدًا، جعل عيشهم في التسبيح والذكر فهم يلهمونه مع الأنفاس، وجعل نعيمهم في الموافقة لرضا ربهم، وجبلت الجنة على موافقة ما يرضيهم فنعمهم أبدًا دائم، وجبل ذلك كله على النشء ووجود المريد، طوبى لهم بأحسن مآبهم وكريم ما صاروا إليه فاكهين بما أتاهم ربهم؛ أي: هم معجبون مغتبطون، الفكِه: المعجب المحبور.

قوله ﷻ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ هؤلاء - والله أعلم - هم بنوهم الذين قدموهم ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور:٢٤] وقال في غير هذه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة:١٧] فهم - والله أعلم - من يموت من أبناء الكفار قبل وجوب التكليف هم على الفطرة، وكذلك يخلق الله ﷻ في الجنة ولدانًا غير هؤلاء وهؤلاء ينشؤهم فيها إنشاء.

أتبع ذلك قوله - عز جلاله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور:٢٩] بنعمة ربك؛ أي: بالعافية، وخاصة النبوة والرسالة.

يقول - تبارك وتعالى: ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ كما يقولون ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما زعموا، فكان في معنى هذا الخطاب معنى سؤال التقرير والتقريع.

ثم نظم به: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ﴾ [الطور:٣٠] كأنه قال: أتقولون هذا أم تقولون نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ المُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور:٣١].

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: ٣٢ - ٤٩].

ثم قال - عز من قائل: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا﴾ نظمًا على ما تقدم، ويكون المعنى أيضًا: أن يكون ذكر الصفة بدلاً من الموصوفين، تقدير الكلام: أم تأمرهم حلماؤهم بهذا وهم أهل التؤدة والرأي، فليسوا إذن ذو حلم ولا عقل ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ [الطور:٣٢ - ٣٣] كل هذه الوجوه قد وجهوها وقالوا بها، بل لا يؤمنون بأنه من عند الله، لو تفكروا في الخطاب وتدبروا آيات القرآن لأطلعهم حق الكتاب على أنه من عند الله ﴿لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢] لذلك قال - عز من قائل: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور:٣٣].

نظم به قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور:٣٤].

ثم قال - عز من قائل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ من غير طين أو من غير نور كالذي هو خلق الملائكة - عليهم السلام - أو من غير نار كالذي هو خلق الجن، ولما كان قسيم هذا الكلام قوله: ﴿أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ﴾ [الطور:٣٥] كان محذوفه «أم

لم يخلقوا» ثم ينتظم به على الولاء قوله: فهم الخالقون، حكم بهذا للزوم وجودهم.

ثم قال - عز من قائل: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ لما كان العلم بخلقه العبد نفسه وبخلقه السماوات والأرض بكسب اليقين كان قسيمه في النظم قوله: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٦].

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور:٣٧] فيعطون ويمنعون كما قالوا: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ [ص:٨].

﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١].

يقول الله - تبارك وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمةَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣٢].

ثم جعل قسيم هذا في النظم قوله - جل من قائل: ﴿أَمْ هُمُ المُسَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٧] هم الرقباء والحفظة والمتعقبون، وقيل: المسيطرون: هم الأرباب المسلطون، يقال من ذلك: تسيطر علينا؛ أي: ترأس وتسلط وتحكم، ونحو هذا.

ثم قال - عز من قائل: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ السلم للشياطين والمعارج للملائكة - عليهم السلام - والمعراج مبلغ والسلم ليس بمبلغ يقول ﷻ: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور:٣٨] أنزلهم منزلة التهمة والظنة فطالبهم بالسلطان؛ أي: بالبرهان المبين، كما قال: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٣].

نظم بذلك قوله: ﴿أَمْ لَهُ البَنَاتُ وَلَكُمُ البَنُونَ﴾ [الطور:٣٩] تقدم الكلام في هذا.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: على ما تبلغ عني إليهم ﴿فَهُم مِّن﴾ ذلك ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور:٤٠] بالمغرم.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾(١) [الطور:٤١] هذا منتظم بمعنى قوله: ﴿أَمْ

---

(١) أي: بل أيدّعون أن عندهم علم الغيب؟ وهو ما في اللوح المحفوظ، فهم يكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب. قال قتادة: هذا جواب لقولهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ﴾ يقول الله: أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمدًا يموت قبلهم فهم يكتبون؟ قال ابن قتيبة: معنى يكتبون: يحكمون بما يقولون. فتح القدير (٦٣/٧).

هُمُ الخَالِقُونَ﴾ [الطور:٣٥].

﴿أَمْ عِندَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ وهؤلاء هم: الملائكة يكتبون من الغيب ما يلقيه إليهم عالم الغيب والشهادة.

نظم بذلك قوله: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ والمقصود بذلك: إطفاؤهم نور الله بأفواههم، وجحدهم الحق، وردهم على الوحي، وتكذيبهم الرسل ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ المَكِيدُونَ﴾ [الطور:٤٢] أي: بسوء فعلهم بعمى أبصارهم وقلوبهم، فهم لا يهتدون سبيلاً ويصيرون إلى سوء المصير بمجازاة أعمالهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٤٧].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤] هذا منهم إما لعظيم ما أملوه من كيد، وإما لكبر في صدورهم ما هم ببالغيه - نعوذ بالله العظيم من سوء ما قسم لهم - وإنما ذلك لعمى أبصارهم وبصائرهم، وموتهم عن الحق، وهو معنى قوله الحق - عز جلاله: فهم المكيدون، فهم لعقوبة إعراضهم ضرب بالأقفال على قلوبهم، فهم لا يبصرون حقيقة ولا يفقهون حديثًا، فإذا شاهدوا عظائم المشاهدات ألحدوا بها إلى المعهود المتعارف فهو منتظم بقوله في المقابلة: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ المَكِيدُونَ﴾ [الطور:٤٢].

يقول: بلغ من كيدنا لهم لأجل كيدهم أنهم لا يبصرون ولا يسمعون ولا يعقلون، حتى لو أنهم رأوا السماء تسقط عليهم كسفًا لقالوا: ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ فهو إلحادهم بالآيات إلى المعهود، فهم لأجل ذلك لو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور:٤٥] يوم يأتي كل نفس حمامها، ويوم ينفخ في الصور فيصعقون.

قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أما ما هو دون الموت فالقتل والسبي والخزي والجلاء، وأما ما هو دون عذاب الآخرة فعذاب في البرزخ، وهو المعروف بعذاب القبر؛ لذلك قال وهو أعلم: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور:٤٧] لخفاء ذلك على أكثر أهل الإيمان فكيف بأهل الإعراض والتكذيب؟.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[1] [الطور:٤٨] معطوف على قوله: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ [الطور:٤٥] بأعيننا أي: بمرأى منا وبحفظ منا.

قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور:٤٨] أي: عند الصبح ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ صلاة العشاءين وصلاة الليل ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور:٤٩] ركعتي الفجر ثم الفريضة، وقد تقدم ذكر معنى قوله: ﴿فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور:٤٩] وقد قال في سواه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [الرعد:١١].

وهذا حفظ الخلقة وولايتها التي لا تسمى بولاية، فكيف به - صلوات الله وسلامه عليه - وقد قال ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم عشر مرات كان له كذا وكذا، وبعث الله إليه ملائكة يحفظونه ذلك اليوم إلى الليل، وإن قالها من الليل فكذلك**»[2] والعرب تقول: «فلان عين الملك في البلد» إذا كان رقيبًا له مبلغًا إليه منفذًا لأمره، وتسمى الطليعة على الجيش: عينًا.

---

(١) أي: بأعيننا ترانا. قال سهل: ما نظهره عليك من فعل وقدرة تتولى جملتك بالرعاية والكلاءة بالرضا والمحبة والحراسة من الأعداء. وقال ابن عطاء: فإنك بأعيننا أي: مغمور في حفظنا، وغريق في فضلنا، ومستور بحفظنا، ومن اختصَّ بالله كان في حفظه، ومن كان في حفظه كان في مشاهدته، ومن كان في مشاهدته استقام معه ووصل إليه، ومن وصل إليه انقطع عما سواه، ومن انقطع عما سواه عاش معه عيش الربانيين. وقال الحسين: اصبر؛ فإن صبرك بتوفيقنا وبشهود عيوننا؛ فلذلك حصلت العيون منك عيونًا؛ إذ أنت الناظر إلينا بنا، ولم تنظر إلينا بما لنا وعنا، فتكون بذلك محجوبًا عن واجبنا. وقال جعفر: عند هذا الخطاب سهَّل عليه معالجة الصبر واحتمال مؤنه، وكذلك كل حال يرد على العبد في حال المشاهدة.

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٠٤) والنسائي في الكبرى (٩٨٥٤) قال الهيثمي (١١٣/١٠) رجاله رجال الصحيح.

تفسير سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧)﴾ [النجم: ١ - ١٧].

قوله ﷻ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾[1] [النجم: ١] اسم النجم يقع على مسميات شتى، فالنجم ما نجم من النبات؛ أي: ارتفع على ساق، ويقال للثريا: نجم، وجميع النجوم ينطلق عليها: نجم، كما يقال لجنس الأناسي: إنسان، ويقال للقرآن أنزل من عند رب العالمين - جلَّ ذكره - إلى السماء الدنيا: نجم، ثم يقال لكل منزل منه الشيء بعد الشيء: نجوم، وكل رزق مرتب أو دين يؤدى لإحالة وموظف على

---

(١) أقسم الله بالنجم، وذلك النجم إلهام قلوب الملهمين حين يسقط من صحائف الغيوب إلى معادن القلوب، وأيضًا أي: بأنوار تجلي جماله وجلاله إذا وقع على أرواح العاشقين، وأيضًا بألحان بلابل علومه اللدنية التي تترنم بحقائق ما كنز الحق في كنوز القدم إذا جلست على أغصان ورد بساتين أسرار العارفين، فتكلموا، وأخبروا بها من مكنون غرائب علوم الصفات والذات، وأيضًا أي: بواردات الجذبية التي تبدو بأنوارها من الغيوب لفهوم المحبين، وتسقط على أسرار الواصلين، وتزعجها إلى مشاهدة رب العالمين حقائقها المواجيد والحالات والكشف والمشاهدات وأيضًا أي: بالأرواح العاشقة الشائقة إذا صعدت إلى ملكوت الغيب، وتسقط إلى بحر جبروت الرب، وتحمل مياه حياة القدم من بحر البقاء، وتأتي سكرى إلى معادن الأشباح، وتضوع نفحاتها في بساتين العقول ورياض القلوب، وأيضًا بما نبت في بساتين قلوب الأولياء من عجائب أصناف أزهار الحكم والمعارف والعلوم والفهوم، أي: بهذه المقسمات الشريفة والنيرات الواضحة ما ضلَّ حبيبي عني لمحة وما احتجب بشيء دوني لحظة، وما اعوجَّ عن طريق استقامته قط.

وظائفه يقال لذلك: نجوم، وكل منزلة من منازل القمر يقال لها: نجم، فربما كان هذا القسم قسيمًا بجملة القرآن أو بما ينزل منه الشيء بعد الشيء، وربما كان القسم بجميع النجوم عبر عنها باسم الجنس كما تقدم.

قد تقدم فيما مضى أن أقسام القرآن تأتي على الأغلب بما يكون معنى لما أقسم بها عليه وما لم يظهر من ذلك بأول نظر فإنه يتوصل إلى ذلك بالإمعان في النظر فقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [النجم:١] يريد - وهو أعلم بما ينزل: الشهاب الثاقب المرسل على مسترق السمع.

قال الله ﷻ: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:٨ - ١٠] وقال في جملتها: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك:٥].

ولما كانت الكهانة الغرض بها تقدمة المعرفة، وكان المعهود منها أن كذبها مستغرق لصدقها، وكانت قريش وكفار العرب مرة يقولون فيه: إنه كاهن وشاعر، وتارة مجنون وساحر، وهذا كله عن إثارة الشياطين، أما الكهانة والجنون والسحر فظاهر، وقد قال - عز من قائل: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٤] بعد قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٣] فأقسم بالنجم إذا هوى؛ أي: يهوى إتباعًا لمسترق السمع، أو يهوى الملك بالروح من أمر الله - جلَّ ذكره - بالنجم من القرآن تنزيلاً له.

يقول - جل من قائل: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ أي: عن سبيل النبوة ﴿وَمَا غَوَى﴾ [النجم:٢] أي: ما أغواه شيطان ولا استهواه، فإن الرسول محروس من الشياطين كما السماء محروسة منهم، فاعلم ذلك.

ثم قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم:٣] أي: بالكذب الذي يكون في سبيل الكهانة والسحر والشعر والجنون، ولا بقوله من تلقاء نفسه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٤] أي: من الله العلي الأعلى.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم:٥] جبريل - صلوات الله وسلامه عليهما.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: ذو قوة وأيد أيده الله به ﴿فَاسْتَوَى﴾ [النجم:٦] هذا وصف

للنبي ﷺ أي: استوى نبوة وعلمًا وحلمًا وحكمًا، ولما استوى نبوة وعلمًا أسري به إلى السماوات العلا وإلى السدرة المنتهى إلى أن استوى للمستوى حيث سمع فيه صريف الأقلام في الأفق الأعلى، وهذا وصف أعني وهو بالأفق الأعلى لجبريل ومحمد - صلى الله عليهما وسلم.

بيّن رسول الله ﷺ ذلك بقوله وقد فرغ من وصف لقيا الأنبياء - عليهم السلام - ومن وصف البيت المعمور على ظهر السماء السابعة ولقاء إبراهيم ﵇ فيما هنالك قال: «**ثم رفعت إلى السدرة المنتهى**»[١] إليها ينتهي ما ينزل به من علو فيتلقى هنالك وإليها ينتهي ما يصعد به من سفل فيتلقى هنالك قال: «**فرفعت حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام**»[٢].

عبر عن حاله هذه القرآن بقوله الحق: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ من الدنو ﴿فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨] وهذا وصف لمصعد صعب لا يرتقي فيه إلا بمعونة زائدة وأيدٍ من الله محدد، ويمكن أن يقدر هنا محذوف، وهو: ذكر الدنو ثانية، فكأنه قال: ثم دنا فتدلى فدنا، ويمكن أن يكون تقدير القول: ثم تدلى فدنا، ويمكن أن يكون المعنى: فتدلى رسول الله ﷺ فدنا الله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه؛ لأنه عز ذكره يوصف بالدنو ولا يوصف بالتدلي، إنما التدلي وصف للمخلوق.

يقول الله - جل ثناؤه: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَو أَدْنَى﴾ [النجم:٩] الله أعلم ما هو الدنو، قاب القوس: ما بين السيَّتين، وقيل قاب القوس: ما بين القبضة والوتر منه، وقيل: لكل قوس قابان فمن القبضة إلى السيَّة قاب، ومنها إلى السيَّة الأخرى قاب، والعرض يعرف هذا القرب والمتقرب منه وقد علمنا أنه - جل ثناؤه - القريب لا أقرب منه فما معناه وما المراد به.

وقد تقدم أن القرب قربان: قرب خلقة، فهو أقرب إلى كل موجود من نفس ذلك الموجود، وأقرب إلى العين من القوة الباصرة، وأقرب من الروح إلى حامله، ومن حياة الحي إلى الحي، وقرب آخر هو: قرب ولاية، هو أغرق في وصف

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٢) والطبراني (٨٢١) ومسلم (١٦٣) وابن حبان (٧٤٠٦).

القرب من الأول حتى عبر عنه بقوله الحق: «**إني لأجد الغالب على قلب عبد ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**»[١] وحتى قال: «**ابن آدم، مرضت فلم تعدني، وجعت فلم تطعمني، وظمئت فلم تسقني، وكنت عريانًا فلم تكسني...**» وفيه: «**أما أنك لو فعلت ذلك بعبدي فعلته بي**»[٢] وهذا أقرب والذي قبله لم يذكر فيه مكان ولا عرض إليه، وقد ذكر فيما هاهنا قطع المسافات وذكر المركوب وهو البراق، وذكر المعراج والصعود، وتفتتح أبواب السماوات سماء سماء، والذهاب إلى سدرة المنتهى، ثم التقدم مع الاعتلاء إلى الظهور إلى المستوى.

وقال الله - جل من قائل: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي: هو ﷻ وهو أعلم بما ينزل ﴿فَتَدَلَّى﴾ [النجم:٨] أي: الرسول ﷺ ثم وصف القرب وقياسه بأقرب ما يكون من وصف المجالسة والوقوف بين يدي الملك، اللهم علمنا من علمك وأجزل حظنا من معرفتك، وأحسن عوننا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

نظم بذلك ﷻ: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:١٠] وقال رسول الله ﷺ: «**حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، فأوحى إلي ما أوحى**»[٣] وفي أخرى: «**ففرض علي ربي خمسين صلاة...**»[٤] وكلام الله - جلَّ ذكره - يسع كل شيء حينئذٍ أوحى إليه مجملاً كلما فصله بعد وجعل له فرض الصلوات كالعنوان، لذلك فما عامة لكل ما أوحي إليه أناله من بركة قربه روحًا منه جمع له بذلك كل ما فصله له بعد، وإذا كانت «ما» هنا عامة فهي اسم في معنى المفعول؛ لأنها بمعنى: الذي، كأنه قال: فأوحى إلى عبده الذي أوحى، ويكون أيضًا مع ذلك بمعنى التعجيب والتعظيم لقدر ما أوحى به إليه؛ إذ هو الذي أوحى إليه حينئذٍ شامل بركته خير الدنيا والآخرة ولا أعظم قدرًا مما أوحى به.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (٣١٦٤) ومسلم (١٦٣) وابن حبان (٧٤٠٦) وأبو عوانة (٣٥٤) والنسائي في الكبرى (٣١٤) وأبو يعلى (٣٦١٦) وابن منده في الإيمان (٧١٤).

ولما كانت الصلاة هي الحاجز بين الإسلام والشرك جعلت لذلك كالعنوان ويقرب لك تعرف بعض تعظيم ما عظمه وما عجب به قوله: «**فرض علي خمسين صلاة**»[١] وإن في ذلك إشغال الفراغ كله، ثم تفضل فعفا عن جل حقه وردها إلى خمس، وذلك دون الطاقة بكثير، ثم تفضل بأن جعل الصلاة بعشر صلوات فهي خمسون، لا يبدل القول لديه - عز جلاله - ثم تفضل بأن أوجب علينا الصلاة في الجماعة ورفعها في الأجر بالتضعيف إلى سبع وعشرين صلاة من صلاة الفذِّ، ثم رفع التضعيف بالكرام الكاتبين - عليهم السلام - في صلاة الصبح وصلاة العصر بشهادتهم للمؤمنين وكتبهم صلاة الصبح في صحيفتين، فرفع وله الحمد بذلك صلاة الثنائية إلى ما يزيد على الخمسين.

وكذلك فعل بالصلاة الرباعية في صلاة العصر، وهذا مما لا مرية فيه والحمد لله رب العالمين ذلك فضله وبركة قوله وفضل كلامه وصدقه: «**هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي**»[٢] وكان الذي علمه جبريل عليه السلام القرآن وسئل الوحي، وكان الذي أوحى إليه ربه ما فضله له بعد إلى يوم وفاته، ثم إلى ما يفتحه بعده على علماء أمته إلى يوم القيامة ليبين للناس ما نزل إليهم لعلهم يتفكرون.

قال الله ﷻ: ﴿**حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ * لَهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ...**﴾ [الشورى:١ - ٤].

ثم قال: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾ [الشورى:٧].

ثم قال: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ**﴾ [الشورى:٥٢] إلى آخر السورة.

يقول الله - جل ثناؤه: ﴿**مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾[٣] [النجم:١١] فأخبر الصادق

---

(١) انظر السابق.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٤)، ومسلم (١٦٣) وابن حبان (٧٤٠٦)، وأبو عوانة (٣٥٤)، والنسائي في الكبرى (٣١٤)، وأبو يعلى (٣٦١٦) وابن منده في الإيمان (٧١٤).

(٣) قرأ الجمهور: «ما كذب» مخففًا، وقرأ هشام وأبو جعفر بالتشديد، و«مَا» في ﴿مَا رَأَى﴾ موصولة أو مصدرية في محل نصب بـ«كذب» مخففًا ومشدّدًا. فتح القدير (٦٨/٧).

أن رؤية هذا الإسراء كان رؤية فؤاد.

ثم أتبع ذلك الإخبار عن إسراء آخر بقوله: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ [النجم:١٢] يقول: أفتشككونه، فجاء بما هو أعظم من ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم:١٣] والتنزل مما يوصف به رب العزة - جلَّ ذكره.

﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [النجم:١٥ - ١٦] هذا من وصف السدرة، وذكر جنة المأوى - والله أعلم بما ينزل - للإخبار عن الرؤية هناك، وقرأها ابن عباس: «عندها جنات المأوى» وقال: هي كقوله: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٩].

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم:١٦].

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «**لما انتهيت إلى السدرة المنتهى إذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا نبقها أمثال القلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها فما يستطيع أحد أن يصفها أو أن ينتعها من حسنها**»(١).

وفي أخرى: «**فلما غشيها من أمر الله ما غشى تحولت**» أي: تحول لي مراءها قال: «**فذكرت الياقوت**»(٢).

قيل: إنه غشيها رفرف أخضر ونزل على كل ورقة منها ملك.

وفي أخرى من تخريج الحرث بن أسامة قال: «**ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى، قال: فإذا الورقة من ورقها لو غطيت بها الأمة لغطتهم، وإذا السلسبيل يخرج من أسفلها نهران نهر الرحمة ونهر الكوثر، قال: فاغتسلت في نهر الرحمة فغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وأعطيت الكوثر فسلكته حتى انفجر لي في الجنة فإذا طيرها كالبخت، وإذا الرمانة فيها كجلد البعير، وإذا فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ونظرت في النار فإذا عذاب الله شديد، لا تقوم له الحجارة ولا الحديد، قال: فرجعت في الكوثر حتى انتهيت إلى السدرة**

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٢٧)، ومسلم (١٦٢)، وأبو يعلى (٣٣٧٥)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٠)، وأبو عوانة (٣٤٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧٩).

المنتهى، فغشيها من أمر الله ما غشى، ووقع على كل ورقة منها ملك، وأيدها الله بأياديه، وأوحى إلي ما أوحى»[١] وساق الحديث.

قال الله أصدق القائلين: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [النجم:١٣-١٥] وهذا قول حق وخبر صدق وليس بمنكر ولا مردود قول من جوز الرؤية العلية في الجنة.

وقد قال الله - جل من قائل: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٧].

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم:١٨ - ٣١].

ثم قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾ [النجم:١٨] وصف - والله أعلم - للإسراء الأول المقول فيه: ﴿مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:١١] وكيف لا يوصف ما رآه أنه من آيات ربه الكبرى إلى حيث ما وصفه، فكان ذلك رجوعًا في الإخبار إلى الإسراء الأول.

وبالجملة: فالرؤية تتفاضل في حق الرائيين كما تتفاضل رؤية الآيات في حق الرائيين حتى أن منهم من لا يراها آية ألبتة، كذلك سماع القرآن منهم من لا يسمع

---

(١) أخرجه الحارث في مسنده (٢٦).

ما يقول إلا قولاً وصوتًا، ليست رؤية [الرائي][(١)] من رآه في المنام كرؤية الإسراء، ولا رؤية الإسراء كرؤيته ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في الجنة، ولا يستوي إمضاء رؤية الرائيين له في الجنة، بل إنما الرؤية على قدر القرب والعلم والله أعلم، يقول الحق وهو يهدي السبيل.

أتبع ذلك قوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٧] فأخبر الصادق ﷻ أنها رؤية بصر كما أخبر عن تلك بأنها رؤية فؤاد.

نظم بذلك قوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:١٨] وكأنه أوقع رؤية البصر على رؤية الآيات، هذا على ظاهر الخطاب، وإنما هذه إخبار ورجوع إلى الإسراء الأول، ويترجح معنى الخطاب إلى رؤية الله - عز جلاله - بقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم:١٣] والتنزل: فعل الرب - جلَّ ذكره - وهو بمعنى الدنو المتقدم ذكره، فذكر نزلتين ورؤيتين:

الأولى: رؤية الفؤاد.

والأخرى: قال فيها: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٧].

وقد جاء أن كعب الأحبار سأل ابن عباس عن هذه الآية فقال ابن عباس: «أما نحن بنو هاشم فنزعم أو نقول: إن محمدًا ﷺ رأى ربه مرتين».

قال كعب: «إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى - صلوات الله وسلامه عليهما - فكلم موسى ورآه محمد».

وقال ابن عباس: «إن الله اصطفى بالخلة إبراهيم، واصطفى موسى بالكلام، ومحمدًا بالرؤية - صلوات الله وسلامه على جميعهم».

ابن عباس قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾[(٢)] [النجم:١٣].

---

(١) هكذا في (ف)، وغير واضحة في (خ).

(٢) ﴿نَزْلَةً أُخْرَى﴾ أي: مرة أخرى من النزول، وهي فعلة من النزول أقيمت مقام المرة ونصبت نصبها على الظرفية؛ لأن أصل المرة مصدر مرّ يمر، ولشدة اتصال الفعل بالزمان يعبر به عنه، ولم يقل «مرة» بدلها؛ ليفيد أن الرؤية في هذه المرة كانت بنزول ودنو كالرؤية في المرة الأولى الدال عليها ما مر. وقال الحوفي وابن عطية: إن «نزلة» منصوب على المصدرية للحال المقدرة؛ أي: نازلاً نزلة. وجوَّز أبو البقاء كونه منصوبًا على المصدرية لـ«رأى» من معناه؛ أي: رؤية أخرى، وفيه نظر، والمراد من الجملة القسمية: نفي الريبة والشك عن المرة =

وأنكرت عائشة الرؤية، وكذلك أنكرت الإسراء، فقالت: «ما فقدت رسول الله من مضجعي» وصدقت ما فقدته؛ لأن النبي ﷺ تزوجها بعد الإسراء، وإنما كان الإسراء من مكة مرة من عند البيت الحرام ومرة من مضجعه، وتزوجها رسول الله ﷺ بالمدينة، وكان الإسراء في أيام خديجة، ثم توفيت وتزوج بعدها سودة، وعقد نكاح عائشة بمكة وبنى بها بالمدينة، وأغلب الظن أن هذا حديث منقول عليها هو صحيح سنده مضطرب متنه، وهو من حديث الآحاد لا يوجب علمًا وما نحن بسبيل طلبة العلم.

وقد تجلى ربنا ﷻ لجبل من الجبال وصار دكًا لما رآه، وكان ذلك المراد منه، وعلى التحقيق إنما نفى الله - جل ثناؤه - أن تدركه الأبصار؛ إذ الإدراك إحاطة وﷻ ربنا عن ذلك، بل هو يدرك الأبصار ولا تدركه.

فصل

قال الله - جل ثناؤه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣] المعنى إلى آخره، وتأويل الجبل في تعريف خطاب الإنباء هو: الرجل العظيم، كالذي جاء في نبوة دانيال ﷺ إذا دخت الجبال من ناحية الجنوب فذلك ظهور الأمة المقدسة، والجبال هاهنا: هم عظماء هذه الأمة الصحابة والتابعون، والأمة المقدسة هي: هذه الأمة.

ثم قال ﷺ: وإذا اشتعلت نارًا فتلك علامة انقراض العالم، فاشتعالها بالنار ربما كان إحراقها بالمعاصي وعظيم الاجترام، كالذي أنذر به رسول الله ﷺ من جور الأئمة وفساد العلماء، وربما كان اشتعالها بالنار عبارة عن ظهور عيسى ﷺ وأصحابه؛ لوجود الضياء في الاشتعال، وربما كان معنى وصفها بالاشتعال بالنار غلبة الدجال على ما غلب منها - والله أعلم - وإنما الغرض: الإعلام بأن الجبال في معهود تخاطب الإنباء الرجال رجع الكلام إلى أوله، فتجلى الله ﷻ للجبل آية

= الأخيرة، وكانت ليلة الإسراء. تفسير الألوسي (١٩/٤٨٦).

على تصديق الموعد منه بأنه منجزه لمن ضرب الجبل مثلاً له.

فصل

في سؤال موسى ﷺ الرؤية ربه دليل دال على جوازها المعلوم بأنهم الأئمة المقتدى بهم، وهم أعلم البشر بربهم وما يجوز عليه وما يستحيل، وإنما قال له: ﴿لَن تَرَانِي﴾ أي: في الدنيا قطعًا، ويكون المعنى أيضًا: لَن تَرَانِي أنت قبل الموت، ومن الجائز الممكن أن يكون موسى ﷺ قد أعلمه ربه ﷻ أنه يرى، وأن من عباده من يوعد منه للمعهود منه - جلَّ ذكره - أنه يكشف للأنبياء والرسل من العلم به والمعرفة ما لا يكشفه لسواهم، ولم يكن موسى يعلم من الموعود بذلك منه - جلَّ ذكره - فلما قربه نجيًا وسمع الكلام العلي جاشت نفسه شوقًا إلى رؤية من هذا كلامه فسأله الرؤية، وكان - صلوات الله وسلامه عليه - لديه وجيهًا وعنده أمينًا كريمًا، فأجابه ﷻ بقوله: ﴿لَن تَرَانِي﴾ ومن الجائز الممكن أن يكون معنى ذلك: لَن تَرَانِي أنت؛ أي: لست صاحب ذلك مني.

دل على ذلك فحوى قوله: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤] وأن ظاهر هذا الخطاب زائدًا إلى ما أفهمه تعزية لموسى عن سؤله، وتعريض إعلام بأنه قسم لغيره آمن به موسى ﷺ، ثم جعل له استقرار الجبل آية منه على جواز الرؤية منه له، وفي ضمن ذلك أنه لا يطيق الرؤية إلا من طوقه الله إياها وأيده عليها، ألا تسمع إلى قول رسول الله ﷺ حين وصف التنزل إلى سدرة المنتهى قال: «**وغشيها من أمر الله ما غشى**»[١] وأيدها الله بأيده فتدكدك الجبل وصعق موسى ﷺ، ولو كانت الرؤية ممتنعة ألبتة لم يجعل استقرار الجبل آية على كونها، وليس المعهود من الجبل إلا الاستقرار.

ولما أفاق موسى ﷺ من صعقته قال: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أي: من أن أسألك ما ليس لي بقسم ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣] بمن جعلت له

---

(١) تقدم تخريجه.

ذلك ووعدته به، فموسى أول أهل الكتاب آمن بمحمد - صلى الله عليهما وسلم - هذا إلى ما تقدم ذكره من دلائل النبوة.

فصل

قال الله ﷻ في قوم موسى ﷺ: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**﴾ [البقرة:٥٥] وفي موضع آخر: ﴿**بِظُلْمِهِمْ**﴾ [النساء:١٥٣].

وقال: ﴿**وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ**﴾ [الأعراف:١٥٥].

ولم يكن - جلَّ ذكره - يواعدهم الرؤية ويجعل لهم لذلك ميقاتًا ثم يخلفهم كما قال: ﴿**وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ**﴾ [طه:٨٠].

وكان الميعاد من أجل سؤالهم الرؤية، فصح من ذلك عند من صدق الله في وعده أنه أراهم نفسه كما شاء من ذلك، وأن ذلك منهم حال صعقتهم أو موتتهم التي ذكرها بقوله - جل قوله: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**﴾ [البقرة:٥٥].

قال موسى ﷺ: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ [الأعراف:١٤٣].

﴿**ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ**﴾ [البقرة:٥٦] وكما فعل بموسى ﷺ حال صعقته، والرؤية في حال الصعق أو النوم أو الموت معهود وجودها، والحمد لله رب العالمين.

قال رسول الله ﷺ: «**رأيت ربي في أحسن صورة فقال لي: فيم يختصم الملأ الأعلى...**»(١).

وكان تمني موسى الرؤية شوقًا وتوقًا إلى ربه - عز جلاله - وتمني قومه الرؤية عتوًا وإضرابًا عن الإيمان به وبآيات الله، والاستدلال بدلائله واستشهاد شواهده، فقالوا: ﴿**يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً**﴾ [البقرة:٥٥].

---

(١) أخرجه الطبراني (٩٣٨).

قال الله ﷻ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات:٤٤] وفي موضع آخر: ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء:١٥٣] والظلم هنا: هو جعلهم الإيمان لا يصح وجوده منهم إلا بشرط رؤيتهم الله جلَّ ذكره.

فصل

إذا كان الموت فيه لقاء الله لا محالة، فرؤية الله أرفع اللقاء وأعلاه، وقد قال الله ﷻ:«**يضحك الله إلى ثلاثة...**» [1] وجاء مثل هذا في غير ما وجه، والصعق والنوم من آيات الله على ذلك ومقدماته، ولكل حقيقة حق يتقدمها، دل على ذلك اشتراط القيمة قبلها، وإعلام كل شيء وأوائله قبله، والإسراء وإن لم يكن موتًا ولا صعقًا ولا نومًا على أشهر الوجوه، فقد خرج بما هو عن مشاهدات الدنيا إلى مشاهدة الأفق الأعلى، ولا تنكر الرؤية هنالك، وقد جاء النص بها مكشوفًا فوجب المصير إلى اعتقاد كونها إن شاء الله والإيمان بذلك، والحمد لله وهو المستعان.

الإسراء: حالته غير حال الرسائل هي من أحوال الآخرة وكما يفتح على الأنبياء والرسل موجودات المقدور الغائب، فلا ينكر أن يبلغ أحدهم إلى الرؤية؛ إذ هي من موجودات الغيب ويكون ذلك بحكم النشء في طريق الكرامات من الأنبياء والرسل، كما قد يكرم الله بعض الأولياء بأن يوجد على أيديهم من المقدور الغائب، والله واسع كريم.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠] قيل: إن اسم هذه اللات كان لأجل رجل كان يلت السويق عندها ويطعمه، ولما مات عكفوا على قبره وجعلوه وثنًا، ثم نصبوا هذا الصنم وسموه بفعل ذلك الرجل.

وقد قرأ ابن عباس وأبو صالح ومجاهد وابن كثير في رواية عنه: «اللاتّ» مشددة التاء مفتوحة ومكسورة، وأرى - والله أعلم - أن الشيطان زينها لهم وهي معدولة عن اسم الله - تبارك وتعالى - وهي عندهم من الملائكة على قبيح معتقدهم في هذه الآلهة، والعزى من اسمه العزيز ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٣٨)، وابن أبي عاصم (٥٦٠).

يقول الله - جل من قائل: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[1] [النجم:٢٢] أي: جائرة، يقول: سميتموهن تسمية الأنثى ونسبتموهن إلينا على كراهتكم للبنات ونسبتم إلى أنفسكم الذكران، لقد جرتم في القسمة تسمية ما أنزل الله بها من سلطان إتباعًا منكم لرجم الظنون وحكم الهوى، ولقد جاءكم من ربكم الهدى لو اهتديتم.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ [النجم:٢٤] يقول: سميتموهن على أمانيكم بالعزى واللات ومناة: من المنا أو الأمن فلله الآخرة والأولى، كما قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] الأولى: في الذكر هي اللات ومناة هي الآخرة؛ أي: في الذكر، فلله الآخرة في الذكر الأولى؛ أي: له الآخرة منهما، والأولى في الذكر والوضع الذي ذكروهما أو الوضع منهم لهما وله أيضًا الوسطى التي هي العزى عبيد وملك ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤].

وقد يكون معنى ذكره ﷻ الآخرة والأولى: الدارين؛ أي: ما عدلوا بتسميتها عنه من اسمه الله والعزيز والأمين والأمانة ونحو هذا ﴿فَلله الآخِرَةُ﴾ والدار ﴿الأُولَى﴾ [النجم:٢٥] وكيف توجه الخطاب فهو له، هو مالك الملك والملكوت، وله الأسماء الحسنى.

نظم بذلك قوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] يقول - عز جلاله: أتطمعون في شفاعتها ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ...﴾ والأرض.

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ المَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى * وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ [النجم:٢٧ - ٢٨] إلى قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ [النجم:٣٠].

---

(١) وقرأ الجمهور: «ضيزى» من غير همز، والظاهر أنه صفة على وزن فعلى بضم الفاء، كسرت لتصح الياء. ويجوز أن تكون مصدرًا على وزن فعلى، كذكرى ووصف به. وقرأ ابن كثير: «ضئزى» بالهمز، فوجه على أنه مصدر كذكرى. وقرأ زيد بن علي: «ضيزى» بفتح الضاد وسكون الياء، ويوجه على أنه مصدر، كدعوى وصف به، أو وصف كسكرى وناقة خرمى. ويقال: «ضوزى» بالواو وبالهمز. تفسير البحر المحيط (١٠/١٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَلله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [النجم:٣١] هذا بيان لما تقدم من قوله: ﴿فَلله الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾ [النجم:٢٥] أي: له الأسماء الحسنى ومقتضياتها في العالم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ [النجم:٣٢ - ٤٤].

نظم بذلك قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [النجم:٣٢] قد مضى في هذا الكتاب وفي كتاب «الإرشاد إلى سبيل السداد» الكلام على الكبائر والفواحش بما يكون تطريقًا للمبتدئ وتذكيرًا للمنتهي.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم:٣٢] أنشأكم من الأرض، وهي في نفسها باردة يابسة، أشبهت الموت من أصل جبلتها في اليبوسة والبرودة القسوة؛ إذ أصلها من فيح الزمهرير ومن الهواء، وهو حار بارد؛ أي: في بعض آنائه حار يابس، وفي بعض الآناء: حار رطب، وعلى نحو ما يكون من ممتزج الفيحين اللذين يكونان عن نفسي جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - الزمهرير والسعير، ومن الماء الموجود في الأغلب عن فتح رحمة الله، وقد امتزج بالأرض والهواء كما امتزج الأرض والهواء بالماء، وقد ضرمت به جهنم مرتين سعيرها وزمهريرها.

وقد سبق علمه بأنه يخلقنا من هذا ومما امتزج من هذا، وينشؤنا من ذلك، ثم أقرنا في الأرحام، نتغذى مع ذلك بأمشاج أخلاط البشرية الكائنة عن ذلك، يقلبنا على ذلك في طبقات الخلقة، ومن المعهود شبه الأبناء بالآباء، فأنى لنا بالتزكي إلا

برحمته بواسطة الاجتباء منه والاصطفاء لنا؟ بل من أين لنا خروج من جهنم بعد هذا أو نجاة منها وهي لنا إحدى الأمّيين وإحدى الموضعتين، منقلب فيها ومأوى إلا بأن يفتح لنا من رحمته كما كان يفتح لنا في الحياة الدنيا بالماء فينزله زلالاً، فيخرج لنا به من كل الثمرات، ويفجر الأنهار عنه ويجري العيون ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور:٢١] فيجيبه بروح الإيمان ويرسل إلى باطنه تباشير الهداية ويمطره من ماء التوبة ما ينبت به في باطنه وظاهره ما يرضاه ويحبه من الأعمال الزكية والأقوال المرضية.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾ [النجم:٣٣ - ٣٤] المتولي هو: المكذب العاتي، والذي ﴿أَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾ هو: المرتد عن دينه بعد إسلامه، أو الناكص على عقبيه لظلم نفسه، أو المتعاجر بعد الإعطاء من نفسه العهد بالوفاء لعلي الإيمان.

يقول ﷻ: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ [النجم:٣٥] أي: ما أعد له فيما هنالك من حسن مآب فاكتفى بذلك، وقطع العمل أكدى في العمل إذا قطع، وهو مأخوذ من الكدية يعرض لحافر البئر بحفرها وأمله أن يستخرج الماء فيجد حجرًا في طريق الحفر لا تقطعه المعاول فيقطع حفره، لذلك فقيل لكل عمل قطع عمله: فله أكدى فلان.

نظم بذلك ﷻ قوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم:٣٦ - ٣٧] بقول إبراهيم؛ أي: الذي لم يتول ولم يكد بل وفى، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤] وقد مضى ذكر هذا في سورة البقرة.

ثم استمر ﷻ على ما في الصحف من ذكر التوحيد وإثبات النبوة والرسالة، وذكر نعم الله - جلَّ ذكره - وأياديه ونقمه وذكر أيامه، وأنه - جلَّ ذكره - إليه المنتهى بكل وجه وبكل مقصد ومطلب، وأن إليه يرجع الأمر كله، وأنه خالق كل شيء ومدبره، وذكر الجزاء العاجل والآجل، وأنه يعيد كما أبدأ، وأنه رب كل شيء، وذكر المهلكين وأنه هو الذي أهلكهم؛ ليدل بذلك على إهلاك من سلك سبيلهم وأخذ على طريقهم في الآخرة، فكان معنى قوله - وهو أعلم بما ينزل: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ

﴿الَّذِي وَفَّى﴾ أي: استصحب المذكور من لدن قوله ﷻ: **﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾** [النجم:٣٨] إلى آخر الخصال المذكورات، فعمل بها وداوم على ذلك حتى توفي - صلوات الله وسلامه عليه[1].

---

(١) قال المصنف فائدة على قوله تعالى: **فصل أن له صفة هي الضحك** وإن له - جل ذكره - **الضحك**، يضحك إلى أوليائه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه. **الضحك** صفة من صفات الحق، كغيرها من الصفات التي تقدم ذكرها ينشأ بنشء العالم، وكل صفة حق موجودة في العام على سنن الحكمة فهو أولى بها وأهل لها، لكن على وصف الكمال الأقصى والتمام الأرفع، والسبحات المنزهة عمّا لا يليق به، ويستحيل عليه من لواحقها؛ لأنه جل وعلا المتفرد بالكمال، ومن سواه فله من ذلك الكمال مجازه وعلى نحو ما قسم له منه، قال رسول الله ﷺ: «**ضحك ربنا من قنوط عباده، وقرب غيره أو خيره منهم**» فقال أبو رزين بن لقيط بن عامر: يا رسول الله، أو يضحك الرب؟ قال: «**نعم**» فقال: لن نعدم من رب يضحك خيرًا» ضحك الحق المنسوب إلى الحكمة يكون لموافقة الحق. كما قال كميل: كنت رديف عليّ بن أبي طالب ﷺ بالكوفة، فمررنا بالجبانة فرفع رأسه إلى السماء، ثم قال: ربِّ اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب أحدٌ غيرك، قال: ثم التفت إلي وهو يضحك، فقلت: يا أمير المؤمنين، استغفارك ربك والتفاتك إلي تضحك؟ قال: كنت رديف النبي ﷺ، فمررنا بالبقيع فرفع رأسه إلى السماء، وقال: «**رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب أحد غيرك**»، ثم التفت إلي يضحك، فقلت: يا رسول الله، استغفارك ربك والتفاتك إلي تضحك؟ قال: «**ضحكت لضحك ربي؛ لقول - أو من قول - عبده: فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب أحد غيرك**» فهذا ضحك لموافقة الحق لما أقره العبد له بالوحدانية، وعلى نفسه بالعبودية، واعترف بذنبه وشهد له الحق أنه لا يغفر الذنوب أحد غيره، ولا يؤخذ بها سواه، ولا معقب لحكمه، ولا مكره له، ضحك له رضا فذلك منه ﷻ. ومن ضحك العجب، وهو ضحكه ﷻ من **قنوط** عباده، وقرب عباده وقرب خيره، ومعنى ذلك - والله أعلم - أنه يعلم من نفسه - جل ثناؤه - إرادته غياثهم، ورحمته إياهم وعطفه عليهم، وكشف ما بهم من ضير، وأنه غير مضيعهم ولا تاركهم، ويعلم قرب ذلك منه لهم، ويرى غفلتهم عنه، وإعراضهم بالسؤال، وعدولهم عنه بالتضرع إليه إلى الجزع والقنوط، مع ما تسمى به من أسماء الرحمة والغياث والكفاية ونحو هذا، فيكون بين هذا كله، وبين كله وبين هذا العجب العجب العجيب؛ فضحك رب العالمين لعظم شأنه، وقرب خيره، ويأسهم وقنوطهم، مع عظيم اقتداره على صرفهم إليه باللجوء والتضرع، وإظهار الفاقة والشكوى إليه الدعاء، وهم لا يهتدون لذلك لا يستطيعون الخروج عما هم فيه، فاجتمع في هذه الجملة العبارة عن عظيم اقتداره وجليل شأنه وحقيقة ضعفهم، فهذا ضحك حق، وإذا ضحك ﷻ لهذا أدال النوب وأتى بالفوح، وكشف الضر من حيث لا يحتسب. ومن ضحك الحق: ضحك المحبة، قال رسول الله ﷺ: «**يضحك الله إلى ثلاثة: رجل قام من الليل يصلي، يقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي هذا**
=

ترك نومه ودفئه وقام إلي طمعًا فيما عندي فرقًا مما عندي، ورجل قاتل في سبيل الله هو وأصحابه فانهزم أصحابه وقاتل هو حتى يفتح الله عليه أو يقتل، ورجل أسرى هو وأصحابه ثم عرسوا من آخر الليل فرقد أصحابه وقام هو من بينهم يصلي، فهؤلاء قد أحسنوا والله يحب المحسنين» وفيه من ضحك العجب كيف آثروه على أنفسهم، وتحملوا فيه المكاره، وكيف علا إيمانهم بالغيب، وقوى عزمهم على ترك العاجل لموعود لم يروه وهو في الأجل، وهو يجب على ذلك كله. ومن ضحك الحق: ضحك الحنان والرحمة، قال رسول الله : ﷺ «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها: رجل يجوز الصراط حبوًا، حتى إذا جاوزه نظرا إلى جهنم، وقال: تبارك الله الذي نجاني منك، لقد أعطاني ما لم يعط أحد من العالمين، فذكر كيف ترفع له الشجرة بعد الشجرة، وكيف يدعو ربه ويتضرع إليه أن يوصله مقام بعد مقام، وعند سؤال كل مقامًا يعطي ربه من العهود والمواثيق ألَّا يسأله غير الذي يعطيه، ويقول ﷻ له كلما نكث عهده بسؤاله غير الذي أعطيه: «ويحك يا ابن آدم، ما أغررك، ألم تعاهدني ألا تسألني غير الذي أعطيتك؟» فيقول: يا رب، ومن مثلك، قال: وربه يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه، حتى إذا كان عند آخر شجرة ورأى الجنة انفهقت له وسمع أصوات أهلها، قال: ربِّ، أدخلني الجنة، فيقول له: «يا ابن آدم، ما أغدرك، ألم تعاهدني ألَّا تسألني غير الذي أعطيتك؟» وهو يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيقول: يا رب، لا أكون أشقى خلقك، فلا يزال يدعو ويدعو حتى يضحك الله إليه، فإذا ضحك إليه قال: «ادخل الجنة»، ويقول له: «تمن»، فيتمنى ويتمنى حتى تنقطع به الأماني، وربه يقول له: «ومن كذا ومن كذا»، فإذا انتهت به الأماني قال له: «ذلك وعشرة أمثاله، وعشرة أضعاف الدنيا كلها، ولك ما اشتهت نفسك وقرت به عينك»، فيقول له: أتسخر بي وأنت رب العزة؟ فيضحك الله منه، ويقول: «إني لا أسخر بك ولكني على ما أشاء قادر» فهذا ضحك حنان ورحمة؛ لضعف هذا العبد وفقره، وضحك وجود وكرم، وضحك إرادة، وضحك عزة، وكله ضحك حق. ومن ضحك الحق: اقتدار ولطف وحسن تدبير. قال رسول الله: «يضحك الله لرجلين يقتل أحدهما الآخر يجتمعان في الجنة: رجل مسلم يقتله كافر، ثم يتوب الله على الكافر، فيقتل في سبيل الله، فيدخلان الجنة جميعًا» وفي مثل هذين قول الله جل قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧] فضحك ربنا ﷻ لعظيم اقتداره على سوقهما في سلاسل قهره، ولطيف تدبيره عن مرادهما إلى مراده، وهو أيضًا ضحك محبة لإحسانها في علمهما وهو يحب المحسنين.

ومن ضحكه للمحسنين والمحبوبين من عباده ما يذكر من قصة برخ، كما ذكر أنه أغضب موسى ﷺ في أمر ما فكاد أن يسطو به، فقال الله ﷻ: «دعه يا موسى؛ فإنه يضحكني في اليوم ثلاث مرات» وقد جاء أن الله ﷻ ليضحك للشاب ليست له صبوة، وفي أخرى: ليعجب وأصل العجب الإغراب، فإضافة صورة الشباب الذي قيل فيه: إنه قطعة من الجنون، وعليه صفات الهوى الذي قيل فيه: إنه إله معبود، مع ضعف العقل غالبًا في ذلك السن عن

فصل

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ

=

مصادمة جنود الهوى إلى تغليب العقل، ونصر حزب الله ﷻ، وإعلاء خصال الإيمان، وخرق العادة بذلك هو العجب، وهو أيضًا يعجب لعظيم شأنه وعلو علائه، وما هو عليه من حسن أسمائه وعلى صفاته؛ لأنه الحق ومحقق وله الحق وهو الحق المبين، فيضحك لذلك وحق له فهو لم يزل ضاحكًا، ولا يزال ضاحكًا ضحك حق، وحكمه لعجب عجيب معجب ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ولذلك يثني على نفسه ويمجد نفسه، لا إله إلا هو لا مثيل له ولا عديل، ومعنى العجب والتعجب والضحك الحق والكلام والصفات الحق والأسماء الحسنى كلها موجودة في الموجودات، مأخوذة مما هناك لا ما هنالك، تبارك الله رب العالمين. ومن نحو ذلك: «ضحك رسول الله ﷺ إذ قال له الخبر: يا محمد، إذا كان يوم القيامة يجعل الله السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر والدواب على إصبع، ثم يقول: أنا الملك.. أنا الملك، ابن ملوك الأرض، قال: «وضحك رسول الله، حتى بدت نواجذه» تصديقًا لقول الحبر. وهو أيضًا بمعنى آخر ضحك سرور إذا وافق الخبر ما عنده من الحق فسره، ولو سئل ﷺ عن ضحك ذلك؛ لأعرب - والله أعلم - أن ضحك من ضحك الرب تبارك وتعالى عجبًا من اقتداره وانفراده يومئذٍ، كما سبق في علمه أنه يكون، وهذا يتقرر بطول الاستقراء جميع وجوه الضحك في الصفات الحق، الحق من ربك ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠] ومن الضحك ظاهر ومنه باطن، فالضحك الباطن ضحك الحال، وهو ينبي عن سرور الذات والكرم فعل في تلك الحال، وإنما قال: بكت السماء هاهنا محافظة على صناعة الشعر عند ذكره ضحك الأرض، وصف السماء بالبكاء، وشبه حال نزول المطر بهموع الدموع، وإلا فعلى الاعتبار الحق؛ فالسماء حينئذٍ ضاحكة، يعبر ذلك منها جودها بالغياب، ولضحكها ضحكت الأرض، وقد شبه بعض الشعراء البرق بالتبسم، ونزول الغياث بالجود وهو أقرب إلى طريق الاعتبار وأشبه بوصف الحق، وقول الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس:٢٤] وقوله: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:٣٩] يعبر عن ذلك بوجود السرور بها في تلك الحال، والضحك والظاهر يكون حكمة، ولأجل الحق والحكمة، وقد تقدمت الإشارة إليه وما عدا ذلك فهو لهو ولعب ﷻ عن ذلك وشأنه عن ذلك، وشأنه سبحانه وبحمده. [شرح الأسماء ١٠٨/٢].

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ (٦٢)﴾ [النجم: ٤٥ - ٦٢].

من تتبع النظر على استقصاء في هذه الجملة من لدن قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم:٣٧] إلى قوله: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى * أَزِفَتِ الآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ الله كَاشِفَةٌ﴾ [النجم:٥٦-٥٨].

وأضاف إليها قوله - جل قوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود:٤].

وأضاف إلى ذلك قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى:١-٣] إلى آخر السورة.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وتابع التفكر والتدبر وأضاف إليهن أمثالها من آي القرآن ومعانيه، فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان المنزل على كل نبي وكل صحيفة، وسيشرف من ذلك على عمد الكتب والصحف المتقدمة ويقف على جوامعها ومعاقد تنزيلها، ولا يفوته منها سوى ضرب أمثالها المضروب بها، وأما ما جعلت له وضربت أمثالاً من أجله فقد أشرف عليه، وزيادة إعلام لسياق أنواع الخطاب ونحو هذا، فإن القصص تتكرر في القرآن المرتين والثلاث، ولا يخلو كل قصص منها من مزيد علم وإعلام بأمر وإلا فما كان يكون فائدة تنوير القرآن وتدبره.

وقد مضى في سورة الأعراف أن الله - جل قوله وتعالى جده - يقول: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥] وقال بعد هذا: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤] وفيما بين هذين هو السبب الذي أصار التوراة عندهم من تلك الدرجة إلى هذه المتأخرة، وإنما فيما بين هذين لما قد أوجب رفع فهم القرآن عن القلوب حتى أنه

لم يبق منه فيما لديهم إلا نحو ما أحملت إليه التوراة بالرفع عنهم وما أثبت منها لديهم بعد نسخها، وهو قوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤] وأن المحجوب منه عن قلوب أكثرهم فهم قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف:١٨٥] واختلاف ما يبين هذا يطول، وربما أفردنا له فصلاً إن شاء الله، والله المستعان.

قوله تعالى: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ [النجم:٥٤ - ٥٥] آلاؤه: آثاره التي يذكر بها أفعاله وأحكامه التي تعرف به، وهن له في سبيل الاعتبار بمنزلة ظل الشخص له، فكما أنه لا يكون ظل إلا لشخص، كذلك لا يكون أثر إلا لمؤثر ولا فعل إلا لفاعل.

أتبع ذلك قوله: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾ [النجم:٥٦] يعني: محمدًا ﷺ فإذا كان منهم وقد أهلك الله من كذب أولئك ورد نصيحتهم فإنه يجب عن هذا كالذي يجب عن من سواه من النذر.

نظم بذلك قوله: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ [النجم:٥٧] أي: قرب ما أنذركم به من عذاب أو جزاء عاجل أو آجل ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ الله كَاشِفَةٌ﴾ [النجم:٥٨] كما قال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد:١٨].

أتبع ذلك قوله: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم:٥٩-٦١] السامد: الغافل الساهي في لعبه ولهوه، والحديث الذي ذكره هنا هو ما قصه من أول السورة، وأعلم به من الوحي على معاني خطابه التي أتى بها إلى قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم:٣٧] ثم إلى آخر السورة، ثم القرآن من أوله إلى آخره.

تفسير سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سأل قوم من قريش النبي ﷺ آية تدلهم على صدقه وصدق ما جاء به فأراهم انشقاق القمر.

قال ابن مسعود: «لقد رأيته في قوم من قريش قد انشق فلقتين حتى رأيت جزاء بين فلقتيه» فقال رسول الله ﷺ: «**اشهدوا**»[1].

والغرض في هذه السورة: إثبات نبوة محمد ﷺ وتصحيح رسالته، وأنه في ذلك على سبيل سلوكه للأنبياء والرسل قبله الذين أرسلوا إلى أمم لهم، فعصوهم وأهلكهم الله، وأن موعدهم الساعة، والحض على التذكر والتفكر والاعتبار، وأن العاقبة للمؤمنين والمتقين.

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝١٠﴾ [القمر:١-١٠].

قوله ﷻ: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ [القمر:١] لم يأت إلا من طريق آحاد، لكن القرآن أثبته في عليّ النقل وانشقاق القمر مع أنه آية على تصحيح نبوته ورسالته، وتصديق ما جاء به هو أيضًا آية على خسوفه الأكبر وانكداره وجمعه مع الشمس عند انقراض الدنيا، كذلك الساعة لقربها تظهر أعلامها وتتقدمها أشراطها.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٧٢٤٩).

وفي مجيء الخبر بانشقاق القمر من طريق آحاد على شهرته في سياق القرآن من الفقه عن الله - جلَّ ذكره - أن أخبار الآحاد قد توجب العلم باطنًا، وأنه ليس بمنكر أن يأتي الحق من الحديث والسنة من طريق غير مقطوع بصحته، فمتى جاء حديث أو خبر على هذا الوجه فلينظر هل له في القرآن معنى أولاً، ولا يقال: هذا لم يأت من طريق صحيح ولم تروه الثقات، وليكن النظر فيه على طريق ما جاء في كتاب «الإرشاد» كما أنه قد يأتي في الأحاديث من طريق صحيح مسند إلى ثقة أو ثقات عدة، ولا يوجد أصله على تحقيق، ولذلك قالوا فيما ليس بالتواتر: إنه لا يوجب العلم وإن أوجب العمل.

قوله تعالى: ﴿**وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ**﴾ [القمر:٣] انتظم هذا في المعنى بقوله: ﴿**وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ**﴾[1] [القمر:٢] كما قال: ﴿**وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ**﴾ [الطور:٤٤] فقوله: ﴿**وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ**﴾ [القمر:٣] أي: كل شيء قد فرغ، فالآجال والهدايات والضلالات والسعادات والشقاوات كل إلى مستقره، كما قال: ﴿**لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنعام:٦٧].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ**﴾ [القمر:٤] أي: لو ازدجروا عن كفرهم وضلالهم، وهذا منتظم بظاهر الأمر من إرسال الرسل

---

(١) ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: مطرد دائم يأتي به محمد ﷺ على مر الزمان، وهو ظاهر في ترادف الآيات وتتابع المعجزات. وقال أبو العالية والضحاك: ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ محكم موثق، من المرة بالفتح أو الكسر بمعنى: القوة، وهو في الأصل مصدر مررت الحبل مرة: إذا فتلته فتلاً محكمًا، فأريد به مطلق المحكم مجازًا مرسلاً. وقال أنس ويمان ومجاهد والكسائي والفراء، واختاره النحاس: مستمر؛ أي: مارّ ذاهب زائل عن قريب عللوا بذلك أنفسهم ومنوهًا بالأماني الفارغة كأنهم قالوا: إن حاله ﷺ وما ظهر من معجزاته سبحانه سحابة صيف عن قريب تقشع ﴿**وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ**﴾ [التوبة:٣٢] وقيل: ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ مشتدّ المرارة؛ أي: مستبشع عندنا منفور عنه؛ لشدة مرارته، يقال: مرّ الشيء وأمرّ إذا صار مُرًّا، وأمرّ غيره ومرّه يكون لازمًا ومتعديًا. وقيل: ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ يشبه بعضه بعضًا؛ أي: استمرت أفعاله على هذا الوجه من التخييلات، وقيل: ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ مار من الأرض إلى السماء؛ أي: بلغ من سحره أنه سحر القمر، وهذا ليس بشيء، ولعل الأنسب بغلوهم في العناد والمكابرة ما روي عن أنس ومن معه. وقرىء: «وأن يروا» بالبناء للمفعول من الإراءة. تفسير الألوسي (٥١/٢٠).

وإظهار الآيات.

ثم قال: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ [القمر:٥] نظم هذا بقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ [القمر:٣] ثم نظم بذلك: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر:٥] ظاهر «ما» هنا بمعنى الاستفهام وليس به، لكنها مع هذا بمعنى التقرير، والإخبار عنها بأنها لا تنفع ولا تغني شيئًا إنما الهادي المضل الله - جلَّ ذكره - يقول: فما تغني النذر في قوم قد استقر أمرهم أنهم أصحاب الضلال في الدنيا، وفي الآخرة أصحاب النار - نعوذ بالله من أحوالهم في الدنيا وفي الآخرة.

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ [القمر:٦] تنكره النفوس فتوجل منه القلوب و﴿تَذْهَلُ﴾ لأجله ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج:٢] المعنى إلى آخره، وقد قرئ: «إلى شيء نُكِرَ» بكسر الكاف وفتح الراء، يقول: إلى شيء جهل وجحد، وهذا منتظم بما تقدم.

نظم به قوله: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ [القمر:٧] وفي قراءة عبد الله والأعمش: «خاشعة أبصارهم» خشوع البصر: هو أن يرمي به صاحبه إلى الأرض ذلاً، كقوله: ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥] وعلى قراءة عبد الله فإنه ذكر الفعل؛ إذ قد تقدم أسماء مؤنثة، قوله: ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ وذلك مخير فيه تأنيث الفعل وتذكيره وجمعه وإفراده، والمهطع: هو المقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه ولا يلتفت إلى سواه.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣] المقنع رأسه: الرَّافعهُ.

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ

مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾ [القمر: ١١-٢١].

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤] أي: بحفظ منا، ويجوز أن يكون معنى ذلك بأوليائنا، وقد تقدم الكلام فيه، ويجوز مع هذا أن يكون معنى قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ عبارة عن الماء الذي تحمله أكفنا.

قال - عز من قائل: ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢] فجمع هنا جمعًا مسلمًا، ثم جمع ذلك جمعًا مكسرًا، وذات ألواح: هي السفينة، والدسر: المسامير، والدسار أيضًا: حبل من ليف يشد به ألواح السفن بدلاً من المسامير في بحر المشرق، وقد قيل الدسر: أضلاع السفينة.

﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر:١٤] أي: جزاء من بلغ رسالة ربه ونصح له في عباده أن نؤمنه وننجيه وتكون له العاقبة كما قال: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة:٢١] وقرأ يزيد بن رومان: «جزاءً لمن كان كَفَر» بفتح الكاف والفاء؛ أي: أن يغرق أو يهلك ونحو هذا، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً﴾ [القمر:١٥] «الهاء» عائدة على السفينة - والله أعلم - جاء أن الله أبقى بقايا من السفينة على ظهر الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة، وهذا مصداق لما ذكروه.

ينتظم بهذا المعنى قوله ﷻ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ لمن كفر ﴿وَنُذُرِ﴾ [القمر:١٦] أي: الذين بلغوا عني رسالاتي كيف أنجيتهم، والآية الواجب حكمها المفروض بطلبها زائدًا على ما تقدم ما هي عليه آية في المستقبل، لذلك ولما تقدم قال عز من قائل: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] وهو ما ذكره في قوله - جل قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١١ - ١٢].

فذكرنا ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بحمل أولئك وحملنا في أصلابهم، ونحن

غير محسوسين ولا موجودين حتى أخرجنا كلاً على نوبته إلى رزقه وعلمه وأجله وشقاوته أو سعادته، كذلك يحملنا حال الموت من بين هذه الحياة والحياة الآخرة في مثال هذه الأجسام التي هي بواطنها إلى الحياة الآخرة الكائنة في يوم النشور.

وأما الذين لم يحملهم في الجارية فلم يحمل أيضًا أنسالهم وأنسال أنسالهم إلى يوم القيامة، بل أبطلهم وأبطل أعمالهم وأرزاقهم وسعادتهم وشقاوتهم وآجالهم وآثارهم، نسخ ذلك كله وأزاله، سبحانه وله الحمد، ما أعجب قضاءه وأمضى حكمه، لا إله إلا هو، لذلك قال وهو أعلم: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ ثم قال: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٢] يشير إلى هذا العجب المعجب.

قال الله - جل من قائل: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤١ - ٤٢] أي: في البر والبحر، وتماثلت مراكب البر والبحر في أنها حمولة ومراكب يعبر عليها من موضع إلى موضع، ونبه بقوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [يس:٤٣ - ٤٤] وهذا قد يصبغه ببعض الفلك في هذه الدار، وهو أيضًا قد يفعله لبعض مراكب البرزخ في عذاب القبر، كالذي يشدخ رأسه، والذي يشرشر شدقاه، وكالذي يسلط عليه الحيات في قبره، فهذا إهلاك لتلك المراكب وتغريق لتلك الفلك وإلى هذا ففي الآخرة أيضًا تغريق وإهلاك في بحار الحمم وغير ذلك من المهالك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى:٣٣].

ثم يقول - جل من قائل: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ لمن عصاني وكذب رسلي ﴿وَنُذُرِ﴾ [القمر:١٦] يقول: كيف نضربهم ومن آمن بهم وجعلت لهم العاقبة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣].

أتبع ذلك قوله الحق عز جلاله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] يقول - جل من قائل: جعلنا للتذكر مجالاً رحبًا ومتسعًا سهلاً في آيات الأرض والسماء، وأنزلنا القرآن على اللسان العربي ونزلناه للأفهام تنزيلاً، وخاطبناهم بعوائدهم وأعلمناهم من قبل أعمالهم فأقبسناهم المعرفة واليقين من قبل ذواتهم، وضربنا لهم الأمثال وأطلنا لهم في مدة الإعذار، وذكرناهم بالرسل والكتب؛ ليتذكروا الميثاق المأخوذ عليهم ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وقرأ قتادة: «من مذكر»

بالذال.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ يعني: باردة ذات صوت، الصرصرة: عبارة عن شدتها وبردها وصوتها ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩] أي: دام عليهم حتى أهلكهم.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢)﴾ [القمر: ٢٢-٣٢].

قالوا: ﴿إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٢٤] يقولون: ضلال من ديننا وعقولنا، وسعر الجنون الأشر البطر، وقرئ: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ [القمر:٢٦] مرتفعة الشين، وقرأ قتادة: «الأشرّ» مشددة الراء من الشر.

﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[1] [القمر:٣١] الشجر إذا يبس وتحطم، فجعله المحتظر حرزًا على حظيرته يمنعها بذلك، والمحظور: الممنوع.

﴿نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر:٣٤] السحر سحران: سحر أعلى، وسحر عند انصداع الفجر، والمراد به هنا - والله أعلم: السحر الأعلى.

يقول الله ﷻ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ وقال فيهم: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ

---

(١) قرأ الجمهور بكسر الظاء، والهشيم: حطام الشجر ويابسه، والمحتظر: صاحب الحظيرة، وهو الذي يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها عن برد الرّيح، يقال: احتظر على غنمه: إذا جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض. قال في «الصحاح»: والمحتظر: الذي يعمل الحظيرة. وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية بفتح الظاء؛ أي: كهشيم الحظيرة، فمن قرأ بالكسر أراد الفاعل للاحتظار، ومن قرأ بالفتح أراد الحظيرة، وهي فعيلة بمعنى مفعولة، ومعنى الآية: إنهم صاروا كالشجر إذا يبس في الحظيرة، وداسته الغنم بعد سقوطه. فتح القدير (٧/٩٥).

الصُّبْحُ﴾ [هود:٨١].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾ [القمر: ٣٣-٤٠].

ونجي لوطًا في السحر الأعلى ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٦] شكوا في المنذرين وفيما أنذروهم به وكذبوا بهم حتى حل بهم العذاب.

﴿رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ أي: أرادوه على ذلك ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر:٣٧] عجلت بعض العقوبة لطالبي تلك الفاحشة إلى أن عمهم مع قومهم العذاب.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر:٤١-٥٥].

﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٤٢] لا يخاف الفوت ولا الامتناع ولا يترقب معقبًا في حكمه.

نظم بذلك كله قوله ﷻ: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلائِكُمْ﴾ يقول لقريش والعرب: ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ﴾ [القمر:٤٣] من الإهلاك كما أهلك أولئك، ألكم براءة في الكتب المتقدمة من ذلك؟.

أتبع ذلك قوله حاكيًا عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر:٤٤] أي: نحن كثير ننصر من أرادنا بسوء.

﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ﴾ أي: في الدنيا، فهزموا يوم بدر ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥] ثم أضرب عن ذلك بقوله: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ انتظم هذا الخطاب بعموم من تقدم ومن تأخر.

يقول - جل من قائل: دع عنك ذكر ما أصابهم في الدنيا وما يصيبهم من عذابها ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر:٤٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ المُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٤٧] الضلال منهم كونهم في الحياة الدنيا ضالين عن الهدى، كافرين مكذبين، وهم في الآخرة في سعر، وهو سعار النار ولهبها ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر:٤٨].

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وَجُوهِهِمْ﴾ وصف كونهم وحالهم في السعر ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٨ - ٤٩] والأظهر أن هذه الآية نزلت في القدرية ومن أخذ بمأخذهم، ولقول قريش وكفار العرب: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨].

﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف:٢٠].

فجوابهم عند مسيس العذاب: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٨ - ٤٩] يقول: اصبروا إذن على العذاب كما كنتم تصبرون على مشيئة الله - جلَّ ذكره - في شرككم وكفركم، ولما ذكر المجرمين أعقب بذكر المتقين فقال: ﴿إِنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر:٥٤] أي: في جنات وضياء وسعة، ويقرأ: «ونُهُر» جمع نهر، أنهار من ماء، وأنهار من خمر، وأنهار من لبن، وأنهار من عسل مصفى، ونهر بمعنى: أنهار.

تفسير سورة الرحمن
عز جلاله وتعالى علاؤه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن:١-١٣].

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾[1] [الرحمن:١ - ٢] إلى قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] اسمه الرحمن ﷻ هو ظاهر اسمه الله، وباطن لاسمه الرب تعالى جعل هذه الأسماء الثلاثة في ظهورها مقام للذات يخبر بها عنه وحجابًا بينه وبين خلقه يوصل بها الخطاب منه إليهم، ثم أسماؤه الظاهرة مبينة لهذه الأسماء الثلاثة[2] إنباء عنه - جلَّ ذكره - أنه ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن:٢] عبده

(١) قدسية رحمانية إسلام أبدية مختومة بختام المسك مما ينافسه المتنافسون وفيه يرغب الراغبون، وله يزهد الزاهدون، وإليه يتوجه المتوجهون، وبه يسلك السالكون، ومعه يطرب المطربون ويرقص الراقصون، ومنه يستريح المستريحون، طوبى لمن نظر فيها بعين العبرة وانتفع منه الخير، وحمل على جند النفس حمله أهل الغيرة؛ ليخلص من بيداء الحساب ويخرج من تيه الحيرة، ويخلص نفسه من رق الشيطان ويدخله في زمرة عباد الرحمن، ويقرأ سورة الرحمن ويتدبر في هذا البيان الذي جاء من حضرة القرآن، ونقش على صحيفة الجنان؛ ليشاهد حقيقة بعين العيان، ويعرف حقيقة بحق الإيقان.

(٢) قال المصنف: اعلم - وفقنا الله وإياك لما يرضيه - أن للأسماء مقامات ودرجات من حيث العلم والمعرفة، وهي على ذلك ظاهرة وباطنة بالإضافة إلى طالبين العلم بها، وأعلاها درجة أدلها على الذات ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، والباطنة منها أعلى مقاماتها: الاسم المحجوب، والظاهرة منها أعلى مقاماتها: ثلاثة أسماء ذكرها الله ﷻ في أم الكتاب، وهي: الله، الرحمن، =

الرب، جعلها ﷻ في ظهورها مقامًا للذات جل ذكره يُخبر بها عنه، وحجابًا بينه وبين خلقه يوصل بها الخطاب منه إليهم، فاسم الله - جل ذكره - باطن لاسم الرحمن، وهو يشير أن جميع البواطن من الأسماء.

واسمه الرحمن باطن لاسمه الرب، وهو مفيض على جميع الظواهر، ثم بعده اسم الرب تباركت أسماؤه وتعالى شأنه، ثم أسماؤه الظاهرة مبينة لهذه الأسماء الثلاثة ... قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٥٩] ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ [الرعد:٣٠] هذه الأسماء الثلاثة يخبر عنها به ولم يخبر بها عن غيره، يقيمها بذلك مقام الذات ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، حجب بها خلقه عنه، كذلك بطن بذاته وظهر بصفاته، واستعن بأسمائه وتجل في أفعاله سبحانه وله الحمد، وكانت أسماؤه كلها باطنة عن خلقه لمكان عدمهم، ولما أوجد خلقه أظهر منها ما أظهره لآدم ﵇، يوم علمه الأسماء كلها، أي: الذي شاء أن يظهر منها مقدار وسع الخليقة، وهو أبدًا يظهر منها ما لم يكن أظهر إلى ما شاء من ذلك، فإذا كان اليوم الآخر أظهر زائدًا على ما كان أظهره، على مقدار عظيم ذلك اليوم بالإضافة إلى يوم الدنيا، ثم في دار القرار يظهر من ذلك، يكن أظهره قبل زائدًا على ما تقدم على مقدار زيادة تلك الدار على ما قبلها، وكذلك يظهر لعباده وأولياءه هناك من أسمائه المحجوبة والمكنونة، وما أبطن من أسمائه هذه المظهرة في الدنيا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وتتسع العبرة جدًّا على هذه السبل، ويكثر الوصف، وتكل الألسن، ويبهر العقول، وينقطع بها العلوم دون ذلك. وكان إظهار هذا الاسم الكريم للخليقة يوم استوائه على العرش؛ لما أوجد عن ذكره العرش على الماء أظهر، من أسمائه هذه الاسم الكريم، اشتقه من صفته الذاتية، وكتب بمقتضاه على نفسه يومئذٍ كتابًا هو عنده على العرش: «**إن رحمتي سبقت غضبي**» فكان هذا الكتاب المبارك عقدًا لجميع العالم علوه وسفله، وإمساكًا له ولو جاء للإمهال والانتظار، والعفو والمغفرة والصفح والتجاوز والتوبة، والحلم والأناة وحسن المعاملة كلها، وجميع ما كان وصفًا للحلم وفعلاً له، ومن ذلك أن أوجد عن هذه الصفة العالية نورًا، ثم خلق من ذلك النور حجابًا حجب به خلقه منه، كما كان من ضدها بهذا الاسم الكريم حجابًا وحجب به خلقه عنه، لو كشف تلك الحجب لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، فكان والله أعلم يهلك كبرياءه كل كبر وعزته كل عزة، وعظمته كل عظمة، وكرمه كل كرم، وأخذه كل أخذ، وقدرته كل قدرة، وبطشه كل بطش، هكذا كانت تهلك كل صفة ما قبلها من الصفات، فكان لا يقوم له شيء لولا رحمته السابقة .. ومن رحمته بمقتضى هذا الاسم الكريم أن أوجد جملة العالم كله متواشج الأرحام، متقارب الأصول من حيث هو، فجعل الأعلى يعطف على الأسفل، والأسفل يتعلق بالأعلى، وأفقر الخلائق كلها بعضها إلى بعض الأعلى إلى الأسفل؛ ليؤدي إليه ما له عنده والأسفل إلى الأعلى ليقبل منه ما به وجوده، ثم أفقر الكل إليه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وهو الغني الحميد، ولما خلق الأرض من ممزوج الماء.

جبريل، ثم رسوله محمد - عليهما السلام - و﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ [الرحمن:٣].

وفي تعليمه القرآن والبيان تعليمه كل شيء شاء تعليمه كما خلق آدم وعلمه الأسماء كلها، وفيما علمه من ذلك تبيان للحق المخلوق به السماوات والأرض، وفي ذكر خلقه الإنسان الإعلام بأنه خالق كل شيء موجود وكل شيء هو وصف لعبده الكلي كما قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

وقال: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام:٩١] عدد ذلك من إثارة النبوة المبثوثة في العالم.

فانتظم قوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:٤] بما تقدم من ذكر تعليمه سائر العلوم كما انتظم.

قوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن:٥] المعنى إلى آخره، فذكر سائر المخلوقات.

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:٦] عرض بذكر هذين القسمين الشمس والقمر والنجم والشجر بقنوت الخلائق له وتوحيد جميعها له قولاً وفعلاً، ثم ذكر رفعه السماء ووضعه الميزان تنبيهًا على عدله في موجوداته، وقيامه بالقسط في بريته، وأمره الثقلين الإنس والجن بسلوك سبيل العدل، وإعطاء القسط من أنفسهم، وفيما يلونه ويحكمون فيه؛ إذ كان التكليف منه لهم هو سبيل نجاتهم من عقابه ووصولهم إلى منال ثوابه، وذكر الأرض وأنه وضعها للأنام، والأنام: اسم عام لكل ما دب أو درج، وذكر بما جعل فيها من فاكهة ونخل ذات أكمام يذكر الجنة.

روى عبد الله بن عمرو بن العاص - رحمه الله - قال: «سأل رجل رسول الله ﷺ عن ثياب الجنة: أتخلق تخلق أم نسج تنسج؟» فقال رسول الله ﷺ: «لا، بل **تتشقق عنها ثمر الجنة**»[1] وكما تؤكل الفواكه والثمرات فيكون **عنها** الولدان والنسوان وغير ذلك، فكذلك يخلقهم الله ﷻ من ثمار ما هنالك، ومن أرض ما هنالك، طاهر من طاهر دون واسطة، بل تتشقق الفواكه والرمان وغيرهما عما يشاءون من ذلك، ويبين على سواحل الأنهار، وحين يخرج يجعل عليها حجابها

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢٣٨٠)، والبزار (٢٤٣٤).

إلى أن يتم نشوؤها، ثم ترحل إلى ما أعد لها من الملك، وعرض بذكر الأكمام لخفايا في نخل الجنة وثمارها وأزهار أشجارها من أزواج، ولبس ومراكب وولدان وحور عين.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن:١٢] الأكمام: كل ما غطى، وكل شجرة تخرج ما هو مكم فهي ذات أكمام، وأكمام النخلة: ما غطى ثمارها من السعف والليف والجذع والكرانيف، وكل ما أخرجته النخلة فهو: ذو أكمام، فالطلعة: كمها قشرها، والزرع ذو أكمام، وقيل للقلنسوة: كم؛ لأنها تغطي الرأس، وكما القميص كذلك؛ لأنهما يغطيان اليدين ويخرجان عنهما.

والحب؛ أي: من الحنطة وأنواع الحبوب كلها، ذو العصف: ما على ساق الزرع من الورق، ويقال له: الهبور، وسمي الورق الذي يكون للزرع لم يقم بعد على ساق: عصفًا، إذا يبس وتهشم، **والريحان**: اسم لكل نبت طيب الريح، والريحان أيضًا: الرزق، هذا كله من مقتضى اسمه الرحمن، عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه.

وقرأ إبراهيم التيمي وعبد الله بن مسعود: «والسماء رفعها وخفض الميزان» وانفرد دونه عبد الله بقوله: «وخفض الميزان لا تطغوا» بإسقاط «أن» فعلى قراءة من قرأه: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن:٧ - ٨] يقول: انظروا إلى عدلي في الخليقة وإعطائي القسط في البرية، من سماء مرفوعة، وأرض مذللة مدحية، وجبال راسية، ونجوم طالعة وغاربة، ونبات طاهر ناجم وغير ناجم، كل ذلك على وزن مقسوم وحظ من العدل والقسط في عيادته ونشوؤه وغذاءه، وجميع وجوده معلوم؛ فكذلك فاسلكوا سبيلي في ذلك تبلغوا مرضاتي، لا تطغوا في المكيال ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن:٩] كما أريتكم من حكمتي وأعلمتكم به من صنيعي وأمرتكم به ونهيتكم على ألسنة رسلي.

أتبع ذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] قالوا: الآلاء: النعم، واحدها الأمثل قفى وإقفاء، وإنما هذا متناول بعض المراد مخصص بعض المقصود، بل لفظ «الآلاء» واقع في القرآن العزيز الذي هو كلام أحكم الحاكمين وخير الفاصلين على النعم والنقم، وعلى الصنع كله والوجود من

الآيات البينات والشواهد والدلالات.

أما ذكره إياها على النعم والنقم، فقوله في سورة الأعراف في قصة هود ﷺ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الخَلْقِ بَصْطَةً﴾ وحذف ذكر إهلاكهم، بل أحالهم على ما يعلمونه من قطع دابرهم وفظيع مصابهم، ثم قال: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩] أي: اذكروا نعمه عليكم كما قد أنعم على من كان قبلكم واذكروا إهلاكه إياهم لما كفروا به وبرسله فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فإن الذي أرسل إليهم نوحًا هو الذي أرسلني إليكم، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون.

ثم قال في قصة صالح ﷺ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ الله وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤] أي: فيصيبكم كالذي أصاب من قبلكم، وأما ذكره الآلاء منتظمة بكل وجه، فقوله في سورة النجم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم:٣٦ - ٣٧] إلى قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ [النجم:٥٥] وأما ذكر الآلاء لصنعه وحكمه وقدرته وكلامه وبكل معنى ففي أثناء هذه السورة، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

فصل

آلاء الله هي: ما أظهرت لعباده معرفته وأبدت لهم العلم به إليه انتهت الشواهد وإليه قصدت وعلى وجوده في ظهورها اعتمدت؛ إذ هو فيما بيَّنَّا من آل يؤل؛ أي: إن منتهى كل شيء إليه، ألا ترى أن الوجود الكائن في الهواء، وفي كلال الأبصار الذي عنه يكون رفع الشخص في بصر الرائي في بعض على المرئي وأنهى الرؤية إليه، ولولا ذلك الكائن في الهواء وفي كلال الأبصار لم يبصر البصر؛ إذ قد خرج ذلك المرئي عن حد منتهى الروح الخارج عن الحدقة، وكونه مزينًا لذلك الرائي عن جنب.

فكذلك الله - جل ثناءه - قد تعالى عن إدراك أبصار المبصرين وجل قدرًا عن توهم المتوهمين أقام ما بثه في العالم، وأسس عليه خليقته من معاني أسمائه

وإشارات صفاته، وشواهد أفعاله ودلائل تبيانه، وسبل أنبيائه وسنن رسله، مع ما أقامه من مقتضى ذلك في ألباب الألباب من عباده، وركبه في فطرهم من بصائر سالمة وقلوب واعية، وحقيقة إيمان ونور إيقان ما أظهر به وجوده العلي للبصائر، وأوقف عليه العقول مشاهدة حتى لم يجددونه مقصرًا ولا وراءه مرمى، كالشمس المنيرة للأبصار أشاعت من ضيائها في أقطار أجوائها ما به أبصرتها الأبصار معاينة ووقفت عليها مشاهدة؛ فليس إذًا بمبعد أن يكون عنى هذا.

وعبر عنه بالآل؛ لكثرة طرقه وشمول سبله، وجمعه بـ: آلاء، كصحب وأصحاب، وشكل وأشكال، وقوم وأقوام، ونحو هذا كثير متعارف، لكن البصائر علمته غير محدود ولا مكيف، وعرفته دون توهم ولا تصور ﷻ له المثل الأعلى في السماوات والأرض ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

يقول الله - جلَّ ذكره - يخاطب الثقلين: الجن والإنس، ويذكر بآلائه في السماوات والأرض والدنيا والآخرة، هو الله الرحمن ربكم، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، جعل الشمس والقمر بحسبان، يجريان بحساب تقدير العزيز العليم، والنجم يريد النجوم، وقد يجوز أن يلحق مع ذلك النبات ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا...﴾ [الرحمن:٦ - ٧].

يقول: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] بأي آياتي وبيناتي ومصانعي وحكمي وحكمتي وعدلي في خليقتي، وما فطرت جميعها عليه من معرفتها آياتي واستسلامها وقنوتها وسجودها، بأي ذلك من آلاء ربكما تكذبان يأيها الثقلان.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ (٢٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)﴾ [الرحمن: ١٤-٢٨].

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٤ - ١٥] الصلصال هنا هو: الفخار المصوت حين يمس، سمي صلصلاً لصوته؛ أي: لصلصلته، والصلصال أيضًا: المنتن، من قولهم: صل اللحم إذا أنتن.

قال الله - عز من قائل: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٨] المسنون: المتغير، وإذا تغير الحمأ سن به سنن الخلقة.

﴿وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٥] والمارج: المختلط، واختلاط النار هنا هو: اختلاطها ببرد الزمهرير الموجود فيما ها هنا عن فيح جهنم.

وقال في موضع آخر: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل خلق آدم عليه السلام ﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧] ولكل فيح جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - سموم، ولما خلق آدم من تراب هذه الأرض خلق الجان من فيح جهنم فيما ها هنا أسكنهما في حيث خلقهما منه، فأخبر جل جلاله عن أصل خلقتهما.

أما الإنسان: فخلقه من التراب الأرضي ممن، وجاء بالماء صار طينًا لازبًا، والأرض أمه والماء أبوه، ثم سلط عليه الهواء الحامل لحر فيح جهنم وبرده، فمن التراب جسده ونفسه، ومن الماء روحه وعقله، وعن النار غوايته وحدته، ومن الهواء حركته وتقلبه في محامده ومذامه؛ لحمل الهواء الفتح والفيح معًا، وعن إثارة النار والبرد فيه شيطانه الذي هو قرينه، كما عن إثارة الماء فيه ملكيته المقارن له، ثم عن نفخ الملك فيه الروح، فعجب الله جل جلاله ونبه على حكمته وعظيم قدرته أن خلق الإنسان من تراب وماء، ثم سواه حتى بلغه إلى أن يكون خصيمًا مبينًا أو وليًا لله - جلَّ ذكره - قريبًا يعلمه القرآن ويرزقه البيان، كذلك في خلقه الجان.

ثم قال لهما؛ أعني: الثقلين الجن والإنس: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٦] أبالعبودية اللازمة لكما لرب واحد أحد قاهر قادر لا يعجزه شيء، ولا يفوته في السماوات ولا في الأرض أمر؟ أم بالدار الآخرة وعنها خلقتكما ومنها نعشتكما وفيما هي من صروفها صرفتكما؟ أم بالبعث والإحياء لكما بعد الموت؟ أم بالجزاء حال الموت وبعد الإحياء لكم فيما هنالك بالإحياء تارة أخرى لكم في الدار الآخرة التي عنها خلقتكما، كما في هذه كونتكما فأحييتكما في هذه

وأنعشتكما فيها من تلكما، وسأعيدكما إلى ما هنالك وأصيركما إليها؟ أم بحديثي عن هذا وإخباري به وكلامي وكتبي إليكما ورسلي؟ بأي آلائي تكذبان؟.

قوله ﷻ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾[1] [الرحمن:١٧] مشرقا الصيف ومشرقا الشتاء، ومغربا الصيف ومغربا الشتاء، فأول مشارق الصيف وقت استواء الليل والنهار عند حلول الشمس بأول البروج الشمالية - وهو الكبش - يعتدل الزمان يومئذٍ لقطعها الجنوبية واستقبالها الشمالية، ثم آخر مشارق الصيف إذا كانت الشمس في آخر الشمالية وأول الجنوبية عند حلولها برأس الميزان يعتدل الزمان ثانيًا لاستقبالها البروج الجنوبية، ثم بحلولها بآخر القوس ورأس الجدي يكون الانتهاء في قصر الأيام وطول الليالي لتوسطها البروج الجنوبية، كذلك عند خروجها من برج التوأمان إلى السرطان من برج الشمال، وهي آخر درجات الشمس منه يكون طول الأيام وقصر الليالي؛ فيختلف على هذين الفصلان البرد والحر باختلاف الفيح والله يفتح برحمته فيصلح هذا وهذا ويسخرهما، وذلك لإثارة تغليبه رحمته على عذابه الذي كتبه على نفسه - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - وقدمه أمام تدبيره الحكيم قوله: «**إن رحمتي تسبق غضبي وتغلب غضبي**»[2] والحمد لله رب العالمين.

وفي صعود الشمس في مشارقها إلى ناحية الشمال ونزولها في مغاربها إلى ناحية الجنوب يكون اختلاف الليل والنهار، وتدبير الأمر في الإيلاج والغشيان، وفي أثناء ذلك تفيح جهنم - أعاذنا الله منها برحمته - ويفتح الله رحمته، ويقلب الله بذلك الليل والنهار والأيام والأزمان.

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس تطلع بين قرني الشيطان فإذا طلعت فارقها، ثم إذا استوت قارنها، فإذا دحضت فارقها، فإذا دنت للغروب قارنها، فإذا غربت فارقها**»[3].

---

(١) قرأ الجمهور: «ربّ» بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أيْ: هو ربّ المشرقين والمغربين، وقيل: مبتدأ، وخبره: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ وما بينهما اعتراض، والأوّل أولى. فتح القدير (٧/ ١٠٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن ماجة (١٣١١).

وقال لعنبسة - رحمه الله - وقد سأله عن أوقات الصلاة، فقال: «**صلِّ الصبح ما لم تطلع الشمس، فإذا أخذت في الطلوع فاترك الصلاة، فإنها تطلع بين قرني الشيطان، فإذا طلعت فصلِّ فإن الصلاة حينئذٍ محضورة مشهودة، ثم إذا استوت فاترك الصلاة، فإنها حينئذٍ بين قرني الشيطان، فإذا دحضت فصلِّ، فإن الصلاة حينئذٍ محضورة مشهودة، ثم إذا دنت للغروب فاترك الصلاة، فإنها تغرب بين قرني الشيطان، فإذا غربت فصلِّ فإن الصلاة حينئذٍ محضورة مشهودة**»[1].

وقال الله - جل من قائل: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨] وقال رسول الله ﷺ: «**ينزل ربنا - عز جلاله - كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلثا الليل**»[2] وفي أخرى: «**حين يبقى شطر الليل**»[3] وفي أخرى: «**حين يبقى ثلث الليل**»[4] وفيه: «**فلا يزال كذلك حتى ينفتل القارئ من صلاة الفجر**»[5].

وقال: «**إذا كانت فحمة العشاء فكفوا فواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء فإن للشياطين حينئذ انتشارًا**»[6].

فهذه أفعال من الله - جلَّ ذكره - وأحكام في التولي بوجه والتجلي بوجه، وكلها أحكامه وأمره تجري على تداوير محكمة التدوار في مشارق ومغارب، والمشارق والمغارب لمقادير مقدرة لحكمه بالغة وأمر عزم له في ذينك الحكمين ابتلاء ورحمة، فأشبهت نعمة ونقمة وأيامه في تداولها بين عباده بالبأساء والضراء، وكل ذلك من آياته وبيناته في معارفه وشواهده التي جعلها شواهد له مخبرة عنه معلمة به.

وكما جعل للشيطان - لعنه الله - اقترانًا للشمس في طلوعها وعند استوائها

---

(١) أخرجه بنحوه النسائي (٥٧٢).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١٦٢٦٠).

(٣) أخرجه بنحوه ابن حبان (١٩٩).

(٤) أخرجه مالك (٤٩٨) وأحمد (١٠٣١٨) والبخاري (١٠٩٤) ومسلم (٧٥٨) وأبو داود (١٣١٥)، والترمذي (٣٤٩٨) وابن ماجة (١٣٦٦).

(٥) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨/١١) بلفظ: «وينصرف القارئ من صلاة الصبح».

(٦) أخرجه أحمد (١٤٣٨١) ومسلم (٢٠١٣) وأبو داود (٢٦٠٤) وأبو عوانة (٨١٦٢) والبيهقي (١٠١٢٥).

وغروبها كل يوم؛ فكذلك جعل له في مشارقها أيضًا ومغاربها وتوسطها، فالتوسطان بمنزلة طلوع الشمس وغروبها، وكونها في مشارقها من أول برج الكبش هو بمثابة طلوعها وكونها في الاعتدال الثاني عند استقبالها البروج الجنوبية عند حلولها برأس الميزان هو بمثابة غروبها، ثم يكونها في الانتهائين في طول الأيام وقصر الليالي حين حلولها ببرج السرطان هو بمثابة استوائها في الصيف في كبد السماء، كما بحلولها برأس الجدي يكون الانتهاء في الشتاء في قصر الأيام وطول الليالي هو بمثابة استوائها فيما يقابل استوائها في كبد السماء في النهار.

يقول - عز من قائل: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن:١٧] فلا تعبدوا سواي ولا تدينوا لغيري، فعرض بما شرع الشيطان - لعنه الله - لأتباعه من عباده أعيار فيما هنالك وحدود حدها لهم وشرائع شرعها لم ينزل الله بها من سلطان، لذلك قال - عز من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٨] أي: هو خالق الشمس والقمر، وأدار الأزمان دورانها، وخلق الأيام والمشارق والمغارب والنجوم، وسخر ذلك كله لعباده، فلِمَ تتخذون الشيطان ﴿وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف:٥٠]؟.

يقول: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السموات وَالأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ لما أنزلت عليه هذه السورة خرج على المسلمين فقرأها عليهم فاستمعوا له وأنصتوا، فقال لهم رسول الله: «**لَلْجِنُّ كان أحسن مردودًا منكم؛ كلما مررت في قراءتي عليهم بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا شيء من آلائك نكذب، ربنا لك الحمد**»[1].

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[2] [الرحمن:١٩

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، وقال: غريب.

(٢) في « مَرَجَ » قولان :

أحدهما: بمعنى خلط ومرج ، ومنه: مرج الأمر؛ أي : اختلط. قاله ابن عرفة. وقيل: «مرج» أجرى، وأمرج لغة فيه. وقيل: مرج لغة الحجاز، وأَمْرَجَ لغة نجد، وفي كلام بعض الفصحاء:

=

- ٢٠] مرج: خلط البحرين الملح والعذب ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ ما ليس هو بصريح هذا ولا بصريح هذا خارج عنهما، كذلك الجبل والسهل بينهما برزخ يسمى الخيف، كذلك الليل والنهار بينهما برزخان يسميان: العيشين، كذلك بين الدنيا والآخرة برزخ ليس من هذه ولا من هذه، ولا هو خارج عنهما.

كذلك جعل بين كل صنفين من الموجودات برزخًا ليس من هذا ولا من هذا، وهو منهما كالجماد والنبات، كذلك بين الحيوان والنبات وبين الحيوان والإنسان، كذلك بين الإنسان والملك، ثم الملائكة يتفاضلون في الاصطفاء وجود عام لكل فضلين من مفضول منهما وعنهما.

يقول - عز من قائل - للذين لا يؤمنون بالآخرة ويكذبون بلقاء الله: هلا اعتبرتم بهذه الوصل من أنواع الموجودات فتعلمون من ذلك أن موتتكم هذه فصل بين الدنيا والآخرة كالعشائين النهار والليل، والعيشين بين الليل والنهار، واستقرأتم ذلك في آيات السماوات والأرض تجدون ذلك شائعًا في الوجود ودليل الحق وفاقه واطراد وجوده، هلا صدقتم رسلي وكتبي وتدبرتم كلامي؟ : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٢١].

هذا ظاهر العبرة في الموجودات من جهة ظاهرها، ويمكن مع هذا أن يكون البحران الممزجان فيح جهنم بنفسيها، فكل واسع بحر، وليس في الدنيا أوسع بحرًا من هذا، نعم ويجوز في العبرة أن يجعل النفسان فرقًا، وفتح الله برحمته بالماء ومشيئته في ذلك فرقًا آخر، فيكونان البحرين، فمنهما وعنهما يخرج اللؤلؤ على الحقيقة والمرجان، ويكون البرزخ على هذه العبرة فصلا الربيعين؛ فإنهما عنهما وليسا بهما، وقد تقدم الكلام فيهما فتعرفه فيما هنالك، وفي هذين يتمكن تحقيق لفظ العموم في قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٢١] .

-

بحران أحدهما بالآخر مَمْرُوج، وماء العذب منهما بالأجاج ممزوج. وقيل: أرسلهما في مجاريهما وخلَّاهما كما ترسل الخيل في المرج. قاله ابن عباس. وأصل المرج: الخلط والإرسال، يقال: مرجت الدابة وأمرجتها: إذا أرسلتها في المرعى وخليتها تذهب حيث تشاء. اللباب لابن عادل (١٢/٢٠٣).

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢] البحر العذب في الدنيا آية على مياه الجنة، والملح الأجاج آية على بعض موجود شراب أهل النار لا يروي شاربه ولا يغنيه.

قال الله - عز من قائل: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٦٨-٧٠] كيف لا وقد كونه في مضطرب فيح جهنم سموم حرورها وسموم زمهريرها، لكنه - أعني: الماء - لما كان من فتح رحمته غلب رحمته على عذابه فأخرجها - أعني: جهنم - عن الماء بروقًا ورعودًا وصواعق وما شاء من ذلك، فخلصه حيًّا طيبًا مباركًا طاهرًا مطهرًا.

كذلك قال - عز من قائل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ثم قال: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [فاطر:١٢] المعنى حيث جاء.

والمعهود أن البحر يستخرج منه اللؤلؤ والمرجان، وإنما يستخرج منه الدر على ما ذكره المستخرجون له من أصدافه، وأن الله يخلقه من ماء المطر فتنفتح تلك الأصداف، الماء ينزل من السماء في أوان مخصوص فتقع فيها فتقوم الأصداف له مقام الأرحام للنطف أو بيض الطير لما وجد له وماء البحر مقام الحضانة وهذا يقوي القول بأن البحرين المذكورين هما: الفتح والفيح، وبآخره يكون المعني بذلك البحران العذب والمالح، ألا تراه لما جاء إلى الإخبار عن جري الفلك أفرد ذكر البحر بقوله: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل:١٤].

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٢٣] بنعمه الموعود بها في الآخرة أو بالمعجل منها في الدنيا؟ أم بعذابه الذي أوعد به في الآخرة أو بما عجل منه لمن شاء من عباده؟ سخر لكم البحر يعطيكم مما عنده وينفعكم بما فيه، وتعبرون عليه إلى مقاصدكم في الفلك؛ ولتبتغوا من فضله، ولتشكروا الذي سخر لكم جهنم وهي لكم عدو فيصير لكم منها جنة معجلة ينعشكم منها ويخلقكم من موجوداتها بواسطة رحمته، لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد في الأولى والآخرة ولك الحكم وإليك يرجع الأمر كله.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الرحمن:٢٤] قد

تقدم الكلام في الاعتبار بالفلك جارية في البحر بنعمة الله، أو اهلاكها بانتقامه وأن طريق ذلك هو أن يفرض الفلك توهمًا مناب جميع المخلوقات علوًّا وسفلاً، وأنها تجري لأعلى مخلوق؛ إذ الماء الذي تجري عليه ليس من الفلك، بل الأمر مكتنفها وعامدها وأن وزان خدامها وملاحيها وزان الملائكة في إقامة الملكوت وتحصين بماسكه بإذن ربهم، ووزان المسافرين فيها الذين لأجلهم أنشأت الفلك وزان المكلفين المأمورين المنهيين الذين من أجلهم خلق السماوات والأرض وما بينهما، تعبر بهم من غربتهم إلى قرارهم، ومن غيبتهم إلى حضورهم ومشاهدتهم ومساكها، ومدبر أمرها في أعلاها يأمرهم بأمره فينفذونه ويسمعون له.

ثم قد يصرف الاعتبار إلى أن تكون آية على قطع المؤمن أيام الدنيا، فالدنيا هي البحر والسفينة جسمه، وباطن العبد هو المحمول فيها، والعقل صاحب سياستها، والقوى خدمتها، وأمر الله وتدبره محيط بها، والإيمان أمنتها، والتوفيق ريحها، والذكر شراعها، والرسول سائقها بما جاء به من عند ربه، والعمل الطيب يصلح شأنه، ثم قد يفرق الاعتبار إلى قوله ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤١ - ٤٢] وقد تقدم ذكره.

يقول ﷻ: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٢٥].

قوله - جلَّ ذكره: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾[1] [الرحمن:٢٦ - ٢٧] عم في هذه الآية آلاءه بقوله هذا؛ إذ كل من

---

(١) يعني: من يكون على أرض البشرية فانٍ، والفناء إشارة إلى فناء المركبات، كما أن الهلاك إشارة إلى هلاك المفردات، ولأجل هذا إشارة في الفناء إلى تجلي الصفات، وفي الهلاك إلى تجلي الذات، وأطلق الهلاك على كل شيء حيث قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] وأضاف الوجه إلى هويته، وأطلق الفناء على من على وجه الأرض البشرية من المركبات بقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ وأضاف الوجه إلى الصفة حيث قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾؛ يعني: صاحب تجلي الجمال والجلال؛ يعني: بتجلي الجلال الصوب الكثيفة، ويبقى بتجلي الجمال المعاني المكتسبة اللطيفة من الصورة الكثيفة، والفرق بين الهلاك والفناء بين فناء نور القمر عند حجاب الأرض له عن أخذ النور من الشمس وهلاك أنوار الكواكب عند طلوع الشمس، وأبين لك فرق أظهر من هذا في =

عليها إنما بقاؤه بين عدمين:

أحدهما: أنه لم يكن ثم كان.

والثاني: أنه سوف لا يكون، وهو فيما بين ذلك يتعاوره الإفناء والإيجاد ما شاء الله إبقاءه فهو فان، وإن بطن فناؤه حتى يأتيه اليقين.

ثم بوجه آخر من الاعتبار: أنه وإن كان قد كتب عليه الفناء فإنه إلى البقاء خلق، فإنه بعدما يفنيه يوجده عودًا بعد بدء، ثم يبقيه، ويكون قوله: ﴿**ذُو الجَلالِ**﴾ رفع؛ أي: وجه ربك ذو الجلال ابتداء وخبر، فتكون القراءة «كل من عليها فان» ويبقى ذكر الوجه عبارة عن الذات ﷻ؛ أي: ويبقى ربك هذا على القراءة الأولى، وينجر إلى ذلك الإعلام بما هو موجه إليه ومخلص له، والوجه أيضًا صفة له ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

قال رسول الله ﷺ: «**لا تسألوا بوجه الله إلا الجنة**»[1] فمعنى سياق الكلام: قد كان لكما أيها الثقلان في مشاهدة ما هو عليها، أو جواز الفناء عليه في الجوار الجاريات في البحر كالجبال بما تحمله ما يحجركم عن التكذيب بآلاء ربكما فبأيها تكذبان.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

صورة النبات، إذا وضعته في قدح فيه ماء يفني تركيب الصورة النباتية القائمة ثلاثة قوائم، ويهلك معنى حلاوة في الماء؛ لغلبة الماء عليه، وفي الهلاك والفناء أسرار سوى هذا يتعلق بعضها تجد القرآن وبعضها بمطلع القرآن، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني: أيتها القوتان، أبنعمة إفناء الصور الكثيفة، أم بنعمة إبقاء المعاني اللطيفة المكتسبة من الصور الكثيفة في دار الكتب تكذبان؟.

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧١)، والبيهقي (٧٦٧٨).

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرحمن:٢٩-٣٦].

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] هو مدبر الأمر كله، ومقلب الليل والنهار، ومرسل الرسل، ومنزل الكتب، يخفض ويرفع، ويقدم ويؤخر، ويغني ويفقر، ويعز ويذل، منذ خلق الخليقة ورفع السماء ووضع الأرض ما كرر صورة، ولا كرر يومًا ولا ليلة ولا شهرًا ولا سنة، ولا ما في أثناء ذلك، كل بصورته المخصوصة وكيفيته المقدرة له وشأنه المراد به.

قال الله - عز من قائل - فيما حكاه عن رسوله نوح، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٣ - ١٤].

ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٣٠] أفبإيجادي إياكم على صور مختلفة أو بإيجادي الشمس والقمر والنجوم في مطالع ومغارب محدودة، أو بتقليبي الليل والنهار والقلوب والخواطر، أو بإفرادي كل ذي صورة بصورته وكل ذي حال بحالته وكل ذي أمر بأمره، بأي آلائي تكذبان؟ لا بشيء من آلائك نكذب، ربنا لك الحمد أبدًا، كذلك ما في السماوات ولا في الأرض من شيء إلا وهو قانت له عابد، مسبح له ساجد، شاهد له دال عليه ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤].

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١].

يقول الله - جل من قائل: ﴿أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ [الرحمن:٣١] هذه من آلائي ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٣٢].

قوله ﷻ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ [الرحمن:٣١] وقرأها أبو حيوة: «سيُفرَغ» بالياء مضمومة وفتح الراء على ما لم يسمَّ فاعله، الفراغ في لغة العرب على وجهين: فراغ من شغل بشيء إلى شيء، وليس هذا هو المراد هاهنا بهذا الخطاب أن الله لا يشغله شيء عن شيء، وفراغ بمعنى: القصد، تفرغت للشيء: قصدت إليه وعمدت، فمعنى الخطاب على هذا: سنقصد لمجازاتكم بأعمالكم وسؤالكم عن جميع ما فرط منكم يوم الجزاء حين حلول الأجل.

وقد تقدم فيما مضى أن نون الجميع في القرآن كله المسماة بنون الربوبية ونون الملوك إنما هي عبارة عما يديره ويحكم به ويأمر بأمره، تنفذه الملائكة وتفعله بإذنه وحوله وقوته، فيكون التفرغ في حظ الملائكة الحافظين والشاهدين على العباد وملائكة الجزاء، وما يتناوله حكم اليوم الآخر بما فيه في يوم الجمع وفصل الحكم، وفي الجنة والنار من جنود الله ومن ملائكة رضوانه ومنفذي أحكام انتقامه ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١] وهذه الآلاء جمعت الملك والملكوت، وأحكام الدنيا والآخرة وما هو إليه المصير.

يقول الله - جل من قائل - يخاطب الثقلين: إن الملائكة الذين أمروا فيكم بما أمروا به لم يأن لهم بعد ولم يتفرغوا بتنفيذ ما أمروا بالعمل فلو قد كان ذلك لتفرغنا لكم، كما قال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [هود:١١٠] في أمثالها من القرآن، وقد مر بكم في أيام الدنيا وما أصاب سواكم فيمن هو منكم من ضروب المثلات وأنواع الأخذ بالسيئات والحسنات ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٣٢].

قوله ﷻ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن:٣٣] نظم هذه الآية بالتي قبلها، خاطبهم في الأولى وهم في الدنيا يوعدهم بأسه ويحذرهم ما هم إليه صائرون، وناداهم في هذه الآية وهم بحيث صبرهم بالوعيد من كونهم في عرضة الحكم في اليوم المجموع له الناس، واليوم المشهود وقوفًا ينتظرون ما قد فرغ إليه من شأنهم ملائكته، وما أنجز لهم من وعيده وتهديده.

يقول: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا﴾ هربًا من وقوع الجزاء بكم ﴿فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ والسلطان هنا: هو الإيمان والعمل المرضي، وأن وجه الخطاب إلى المؤمنين فالنفوذ إلى الجنة، وكانت كلمة «انفذوا» أولى من سواها؛ لإحداق الملائكة بهم ملائكة السماوات السبع سماء سماء من وراء الخليقة، وسرادق النار قد أحاط بالكافرين، لا منفذ لهم إلا على الصراط ولا يجوزه سالمًا إلا كل ضامر مخف أو مغفور له، وكما قربت النار للكافرين وسعرت لهم فكذلك أزلفت الجنة للمتقين الذين هم عن النار مبعدون، فهم لا يسمعون حسيسها.

قال رسول الله ﷺ: «**من صام يومًا في سبيل الله بعد الله وجهه عن النار سبعين خريفًا**»[١] وهم الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٤] وهنا تبين طريق اليمين - وهو طريق النجاة - من طريق الشمال: طريق الهلاك، جعلنا الله من الذين سبقت لهم منه الحسنى والذين هم عن النار مبعدون.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٣٤] أبيوم الجمع وقد جمعكم قبل في قبضتيه الكريمتين؟ أو باليوم المشهود؟ أو بشهودكم إياه وسؤالكم؟ وقد أشهدكم قبل على أنفسكم بما عاهدكم عليه ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولاً﴾ [الأحزاب:١٥] أو بتكشيط السماوات السبع وقد شاهدتم تكشيطه السحاب بعد بسطه إياها وإعدامها بعد إيجادها؟ أم بجهنم المحيط بكم يومئذٍ سرادقها ولو آمنتم وتيقظتم لعلمتم يقينًا إحاطتها بكم في الدنيا خلقًا وأمرًا، ثم على ذلك صاحبتم من أعمالكم وأنفذتم أعماركم في كفرانكم؟ أم بالجزاء على أعمالكم خيرها وشرها، وقد رأيتم الجزاء العاجل وشاهدتم ما أصاب الأمم الماضية من ذلك؟ أم بكلامي وإعلامي إياكم؟ أم برسلي وكتبي إليكم وآياتي فيكم تكذبان؟.

قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ...﴾ [الرحمن:٣٥] يقرأ: «الشواظ» بالكسر والرفع، وهو: لهب النار، والنحاس: الدخان، وقيل هو: الصفر المذاب، والأول أولى والله أعلم، هذا مصداق قول رسول الله ﷺ: «**يخرج عنق من النار فيقول: أمرت بكل جبار عنيد، فتلتقطهم من بين أهل الجمع**»[٢] لقط الحمام حب السمسم، ويغشى المجرمين دخان جهنم من بين المؤمنين، ولا يضرهم آية الشواظ وعنق النار فيما هنالك صواعق ما هاهنا وبروقها والنار المعهودة.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٣٦] ألم يكن لكم فيما شاهدتموه في الدنيا من دلائل ذلك وآياته ما تؤمنون عليه.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢١٨٦)، وأحمد (١١٥٧٧)، والبخاري (٢٦٨٥)، ومسلم (١١٥٣)، والترمذي (١٦٢٣) والنسائي (٢٢٤٥)، والبيهقي (٨٢٣٥).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١١٣٧٢)، وعبد بن حميد (٨٩٦)، وأبو يعلى (١١٤٦).

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾ [الرحمن:٣٧-٥٣].

قوله - عز جلاله: ﴿**فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ**﴾[١] [الرحمن:٣٧] جعل الله ﷻ الشمس في هذه الدار من آياته الخاصة، فقبل طلوع الشمس في الأغلب تحمر السماء، وعند انشقاق الصبح كذلك، وربما ابيضَّ موضع الانشقاق، وكذلك عند الغروب، ذلك من آلاء الله ﷻ وآيات علم التنزل العلي يوم الجمع ليفصل بين العباد؛ لذلك قال رسول الله ﷺ وقد أسحر يومًا في بعض أسفاره: «**سمع سامع يحمد الله حسن بلائه علينا ربنا صاحبنا وأفضل علينا عياذًا بالله من النار**»[٢].

قال الله - جل من قائل: ﴿**وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً* الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحْمَنِ**﴾ [الفرقان:٢٥ - ٢٦] فعند حقيقة المجيء العلي قبل

---

(١) أي: كوردة حمراء. قال سعيد بن جبير وقتادة: المعنى: فكانت حمراء. وقيل: فكانت كلون الفرس الورد، وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة أو الصفرة. قال الفراء وأبو عبيدة: تصير السماء كالأديم؛ لشدّة حرّ النار. وقال الفراء أيضًا: شبه تلوّن السماء بتلوّن الورد من الخيل، وشبّه الورد في ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه، والدهان: جمع دهن، وقيل: المعنى: تصير السماء في حمرة الورد وجريان الدهن؛ أي: تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، وتصير مثل الدهن لذوبانها، وقيل: الدهان: الجلد الأحمر. وقال الحسن: ﴿**كَالدِّهَانِ**﴾ أي : كصبيب الدهن ، فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانًا. وقال زيد بن أسلم: إنها تصير كعصير الزيت. قال الزجاج: إنها اليوم خضراء، وسيكون لها لون أحمر. قال الماوردي: وزعم المتقدّمون أن أصل لون السماء الحمرة، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق. فتح القدير (١٠٨/٧).

(٢) أخرجه مسلم (٧٠٧٥).

ذلك تشقق السماء بالغمام، قال الله ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة:٢١٠] ويومئذٍ تصير وردة كالدهان آية ذلك الشفقان عند الطلوع والغروب، لذلك - والله أعلم - قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٣٨].

يقول - عز من قائل: ليس شيء مما أخبرتم به أنه كائن في الآخرة إلا قد أريتم في الدنيا ما تهتدون به إلى العلم بكونه فيما هنالك لو تعقلون.

نظم به قوله ﷻ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن:٣٩] كما أنه ليس لليل حكم يعارض طلوع الفجر وظهور النهار وتجلي الشمس، كذلك ذلك لأنه لم يكن التنزل العلي بعد، فإذا حان حين الفصل والحكم كان السؤال.

يقول الله - جل قوله: ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢ - ٩٣].

﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦].

ثم بعد إذا وقع القول عليهم وأمر بهم إلى سوء المصير - نعوذ بالله من ذلك - فيومئذٍ أيضًا ﴿لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٥ - ٣٦] غمرهم الذل، ووقع القول عليهم، لزمهم القهر وأحاطت بهم الغلبة من لدن العزيز القهار ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:٣٤] للغلبة في معهود الوجود بفقد الاحتجاج والقهر بقطع المعاذير، ووقوع القول بصحة الاحتجاج يوجب الانقطاع في معهود الاحتجاج، فليس لإنس يومئذٍ ولا جان معارضة تكلم ولا حجة بيان ولا تلعثم لأجل وقوع القول عليهم.

يقول ﷻ: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٠] هذه المشاهدة إلى تبيان إعلامه وصدق كلامه، وكل ذلك من آلائه، كما قال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦] كذلك قال في محاوره هذا: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ [الرحمن:٤٠] لا بشيء من آلائك ربنا نكذب.

قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن:٤١] سيماهم يومئذٍ زرق العيون وسواد الوجوه والعمى والصمم والمشي على الوجوه بدل المشي على الأقدام.

قال الله ﷻ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾

[الإسراء:٩٧] وقال: الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم قد كانوا في الدنيا يدعون إلى الإيمان فلا يستجيبون، ويرون الهدى فلا يهتدون، عمي بكم صم، وكانت الأغلال في أعناقهم وأيديهم إلى الأذقان باطنًا، ومن بين أيديهم سدًا، لا يمشون إلى صالحة ولا يهتدون سبيلاً إلى طاعة الله العلي الكبير، ومن خلفهم سدًا، لا يتأخرون عما سخط الله، فتقرن الملائكة - عليهم السلام - يومئذٍ بين نواصيهم وأقدامهم من وراء ظهورهم.

يقول - جل من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٢] ألم تروهم في الدنيا على ما يجب أن يكون عقابهم هكذا؟ ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٤٧].

وهذا الخطاب إما أنه للمؤمنين خاصة، فإنه لا يرى ذلك إلا المؤمنون أهل العلم والإيمان والملائكة أبصر بذلك، ودخل الكفار في الخطاب بالتبعية، ووصف التكذيب أو يكون الأمر يومئذٍ يبلغ أن يشهدهم حالهم التي غيبت عنهم في حياتهم الدنيا، فالله أعلم، وأيضًا فإنه في الوجود أن زبانية ملوك الدنيا إذا بطشوا بمن أمروا به وسلطوا عليه فلهذا أو للمعنيين، وما هو أكثر من هذا.

قال - عز من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٢] أفبحديثي وكتابي ورسولي أم بآياتي؟.

قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن:٤٣ - ٤٤] نظم هذه بالتي تقدم؛ أي: يقال للمجرمين إذا سوقوا إليها مقرونة نواصيهم بأقدامهم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ أو يكون الخطاب بهذا للرسول ﷺ والمؤمنين؛ إعلامًا لهم بذلك، وعلى ذلك سياق الخطاب، وقرأ عبد الله - رحمة الله عليه: «هذه جهنم التي كنتم بها تكذبان تصليانها لا تموتان فيها ولا تحييان» أي: يطوفون بين سعيرها وزمهريرها كما كانوا في دار الدنيا يطاف عليهم بحرورها وزمهريرها.

قال رسول الله ﷺ في الشمس: «**ما تطلع من قصبة إلا فتح لها باب من**

جهنم»[1].

وقال: «**إن أشد ما تجدون من الحر أو من الحرور فمن جهنم، وإن أشد ما تجدون من البرد فمن الزمهرير**»[2].

يقول - عز من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٥] أبما أراكم من آياته وظاهر عليكم من بيناته في السماء والأرض؟ وما أراكم من مطالع الدنيا والآخرة فمن فيح وفتح ومطالع الشمس والقمر والنيرات، وإيجاد الموجودات على أحكام ذلك الإله ظاهر وآيات بينات، اختلاف الشتاء والصيف بالبرد والحرور فيحًا من سعير وزمهرير فيما هنالك، أو إجرائه العادات في الوجود بفتح من رحمته ويسور من خلقه وبسط من رزقه عند طالع أو غارب بإذنه ومشيئته [...][3] أم بحديثه الصدق وكلامه الحق؟.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] اعلم - وفقنا الله وإياك - أن داخل الجنة مصيره إلى جنتين، أعربت عن ذلك حقيقة الوجود. جنة مصيف وجنة شتاء، بل إلى أربع جنات، آية ذلك انقسام السنة إلى أربعة فصول جعل الله - جلَّ ذكره - لكل فصل فوائده وثماره من غير قطع لشيء من ذلك ولا إغباب.

قال رسول الله ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما**»[4] وكما انقسمت الدنيا إلى موجود جهنم لأجل فيحها، فكذلك انقسمت الدنيا إلى موجود الجنة لأجل فتح الله برحمته إليها وإرادة الله فيها ومنها بتغليب رحمته على عذابه حتى سخر لعباده جهنم وهي أعدا عدو لهم، فأخرج لهم منها وبها بواسطة رحمته الزرع والنخيل والزيتون والرمان والأعناب والجنات المعروشات وغير المعروشات ومن كل الثمرات.

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٩٧٧)، والطبراني (٩٢٨٠).

(٢) أخرجه بنحوه مالك (٢٨) والشافعي (٢٧/١) وابن حبان (٧٤٦٦) والبخاري (٣٠٨٧) ومسلم (٦١٧) وابن ماجة (٤٣١٩) وأحمد (١٠٥٤٥).

(٣) غير واضحة في (خ) وغير موجودة في (ف).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤١٠).

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٧].

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

نظم بذلك: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن:٤٨] يصف الجنتين، وأن أشجارهما لها الأفنان.

قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها**» ثم قال: «**اقرؤوا إن شئتم**: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة:٣٠]»[1] وإنما وصفهما بهذا وأحال على ما خلفه في هذه الدار من أشجارها وموجود أفنانها على اختلاف ذلك.

ثم قال للثقلين: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٩] وفي مفهوم هذا أن للجن في غيب مستقرهم ومتاع متعوا به إلى حين شجر وأفنان وجنات غائبة عنا كذلك قال - عز من قائل: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة:٣٨] ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦] ولهم إذن أبنية وأدؤر وقصور وجنات، كما لهم نساء أبكار وعون، كما لهم دواب وأنعام سوى ما أبيح لهم من مشاركتهم الأنس في بعض أموالهم وأولادهم، فإن الله ﷻ قرن بيننا وبينهم في الخطاب بتعداد النعم والتحذير من النقم، ويقول لنا ولهم: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٩] عندما يسوق ذكر الموجودات كلها.

قوله ﷻ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن:٥٠] هاتان الجنتان - والله أعلم بما ينزل - في تلك الدار مثالان لجنتا الدنيا اللتان يكونان والشمس صاعدة إلى البروج الشمالية، فإن المياه فيهن جارية وأنهارها قد تكاملت زيادتها فهي تنفجر عيونًا، لذلك وهو أعلم قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٥١] وعند ذكره الجنتين بعد هذا يقوى دليل هذا الاعتبار - إن شاء الله تعالى.

نظم بذلك قوله الحق - عز من قائل: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢] جمع في هاتين في جميع جنات الدار الآخرة فواكه ما من شأن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٨١).

المصيف والشتاء أن يحضر فيهما يحضران في تلك معًا كمالاً ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣] وبوجه آخر أنه يبلغ بالنشء إلى أن توجد هاتان الجنتان عن موضع إيجاده جهنم، فإنه أوجدها عن غضبه، وصورها صورة على مقتضى سخطه وانتقامه، والجنة موضع موجود مفيض رضوانه ومحبته وفيض جوده وإعطائه فهو يوجد برضاه من موضع غضبه إكرامًا وإجلالاً.

ويوجد عن ذلك من موجودات الجنة من نسوانها وولدانها وجناتها وأشجارها وثمارها وفواكهها، كما أوجد في هذه عن فيح جهنم بواسطة فتح رحمته الجنات، وأكثر الموجودات من نساء وولدان ودواب وأنعام، بل الموجود كله في هذه الدار عن هذا، فافهم لذلك وهو أعلم أحال على ما هاهنا بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٥٣].

وهذه عبرة لا يصح لك اعتقادها حتى تؤمن بها وتعلم يقينًا أن الله - جلَّ ذكره - لو شاء أن يجعل من جهنم جنة بأن يدخل فيها رحمته وينشأ ذلك منها لفعل، وأنه لفاعل ذلك في الجنة إن شاء الله، ينشئ جنة من موضع رضوانه وينشئ أخرى من موضع سخطه بواسطة رضوانه ورحمته ومشيئته في ذلك، فاعلم يقينًا.

ومن ذلك قوله - جل من قائل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] جنة جزاء؛ لأنهم انتهوا عما يسخطه، وجنة جزاء؛ لأنهم عملوا بما يرضيه.

ومن ذلك قوله - عز من قائل - في وصف موجودات هذه الدار: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: من مقتضى فتح الرحمن ومقتضى فيح جهنم، لذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إلى الله....﴾ [الذاريات:٤٩ - ٥٠].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٧ - ٨] أي: ذلك آية منه على رحمته وغفرانه، لذلك اجتلب من الأسماء بعد هذا قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ﴾ أي: ذو انتقام ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٩] أي: ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم، وعلى هذا يتخرج أيضًا قوله فيما هاهنا: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٥٣].

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾ [الرحمن: ٥٤ - ٦٥].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن:٥٤] وقرئ: «فُرْش» بإسكان الراء، قالوا: الاستبرق: الديباج الغليظ، والبطائن قد تكون: الظواهر، العرب تقول: بطن السماء لهذا الذي تقع عليه العين، وهذا إنما هو وصف بالإضافة إلى المتكئين عليها، وأما قولهم: الاستبرق: غليظ الديباج، ووصفوا به فرش المكرمين - رضي الله عنا وعنهم - فيجوز في النظر وقصور منهم عن بلوغ المعتقد في موجودات ما هنالك وما ذكر الله الاستبرق إلا في موجودات الجنة.

قالوا: وهو اسم معرب أصله من لسان الفارسية، قالوا: ويسمونه بلسانهم: استبره، وقد أبى ذلك أهل الغلغلة العلم، فهو لم يأتِ في لسان العرب إلا في وصف الجنة، وزعموا أنه مأخوذ من غير لسانها، وازدادوا بعدًا عن حقيقة المعنى إلى بعدهم عن أوله، وإنما هو - والله أعلم بما ينزل - استفعل من البريق، وهو وصف للنور استبرق.

يقول - وهو أعلم: بطائن هذه الفرش تبرق نورًا، دع عنك وصف ظواهرها، فهي - والله أعلم - نور تألق به ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء:١٠٠] أفكان الله ﷻ يجعل بطائن فرشهم من غليظ الديباج وظواهرها من رقيقه.

ولقد جاء في كتاب «المناجاة» لابن المخبر أو غيره أن رائيًا رأى أحمد بن حنبل - رحمة الله عليه - في النوم، أظنه قال: راكبًا مركوبًا ما وصفه، قال: وعلى

رأسه عمامة من نور، في رجليه نعلان من نور، لابسًا ثوب فضة ينثني عليه بانثنائه، وإنما فضة ما هنالك وذهبه نور لكن على درجة الموصوف والمالك لذلك فافهم، ألا تسمع إلى قوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في وصفهم - رضي الله عنا وعنهم: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان:٢١] أفكان يلبسهم غليظ الديباج.

قوله: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن:٥٤] أي: ميسر حاضر غير مغيب عنهم ولا متعب ولا ممنوع ولا ممنون، ولما قد أوجد من مثالات ذلك في هذه الدار قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٥٥].

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ﴾ يعني: الفرش ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾[1] [الرحمن:٥٦] القاصرات الطرف: العفائف، قالوا: قيل لهن ذلك؛ لأنهن قصرن أبصارهن على أزواجهن، وأرى - والله أعلم - أن المعنى زائدًا على ما تقدم أنه كناية عن فتور الطرف، فإن الحدة في نظر المرأة مكروه مذموم وهو خضوع في الطرف، ويقال للمرأة الفاترة الطرف: ساجدة، قال الشاعر:

ولهوى إلى حور العيون سواجد

يقال من ذلك: عين ساجدة، وعيون سواجد.

قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾[2] [الرحمن:٥٦] الطمث هنا هو: الدم الخارج عن العذرة، يقول: هن عذارى لم يطمثهن بعد لا إنس قبلهم ولا جان، ودل بهذا الخطاب: أن الجن ينالون من نعيم الجنة في مواضعهم فيها ما يناله

---

(١) يعني: في هذه الجنان صور حسنة خالدة من صور الأعمال الصالحة، يقصر طرفهن على صاحبها ولا يقدر أن ينظرن إلى غير صاحبها، وكل ما ينظر إلى صاحبها يريد في عينها جمال صاحبها، لم يمسهن يد قوة علوية ولا سفلية قبل يد صاحبها، وحسنهن من حسن الأعمال، وزيادة حسنهن في كل نظرة من حسن النية والصدق والإخلاص في العمل.

(٢) قرأ الجمهور بكسر ميم «يطمثهن» في الموضعين؛ وطلحة وعيسى وأصحاب عبد الله وعليّ بالضم. وقرأ ناس بضم الأول وكسر الثاني، وناس بالعكس، وناس بالتخيير، والجحدري بفتح الميم فيهما، ونفي وطئهن عن الإنس ظاهر، وأما عن الجن فقال مجاهد والحسن: قد تجامع نساء البشر مع أزواجهن؛ إذ لم يذكر الزوج الله تعالى، فنفى هنا جميع المجامعين. وقال ضمرة بن حبيب: الجن في الجنة لهم قاصرات الطرف من الجن نوعهم، فنفي الافتضاض عن البشريات والجنيات. تفسير البحر المحيط (١٠/١٩٨).

الإنس، ومنهم المقربون والأبرار أصحاب اليمين، وأن الجنيات أبكار، ولمعهود هذا عند هؤلاء وهؤلاء قال - عز من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٥٧] أي: وقد شاهدتم ذلك فيما متعتم به في مستقركم هذا، هلا قضيتم بما عهدتموه وحضركم على ما غاب عنكم؟ ثم شرط وجدان المزيد فيما هنالك، وقد أخبركم الوجود وأنبأتكم الرسل والكتب لو كنتم تعقلون.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٥٨].

قال الحسن: المرجان: عظام اللؤلؤ، واللؤلؤ صغاره.

وقال غيره: المرجان: صغار اللؤلؤ، واللؤلؤ: اسم جامع لما استخرج من البحر.

وقالوا: المرجان: أحمره، والمعنى المقصود من هذا: أنهن في صفاء الياقوت وحمرة المرجان.

وقال في موضع غير هذا: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات:٤٨ - ٤٩] والظاهر من إعلام المتلو إن شاء الله أنهن بيض في صفاء الياقوت وحمرة المرجان، قال الشاعر في نحو هذا:

وإذا جرى النور يد في وجناتها فكأنه صرف المدامة في المها

وأنهن أيضًا بيض كالبيض المكنون، وبياض ما هنالك نور يخالط ذلك منهن نور صفرة، كما قال: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات:٤٨ - ٤٩] وقال الشاعر يصف محار ما هاهنا مما هو آية على ما هنالك:

بيضا في دعج صفراء في بعج كأنها فضة قد شابها ذهب

وهذا كله معهود في الوجود ولما كان موجود ما هاهنا من نساء وولدان وبنات وغير ذلك عن الفتح والفيح والدار الآخرة ليس فيها إلا ما استخرج عنها، ومنها بمعتقد مزيد لا تعلمه نفس ولا يتوهمه وهم، وحسب المعتبر الدلالة بالآيات والإشارات والعبور منها إلى ما هذا آية عليه وإشارة إليه، فلذلك قال - عز من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٥٩].

نظم بذلك قوله الحق - عز من قائل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾

[الرحمن:٦٠] قرر - جل ثناؤه - على المعهود المتعارف.

قال الله ﷻ فيما وعد به على ألسنة رسله - عليهم السلام: ﴿**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا...**﴾ [نوح:١٠ - ١١] وقال: استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارًا ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**﴾ [هود:٣].

ومن المعهود أنه من استصحب العافية أوتيها، ومن أَحسن أُحسن إليه وإنما تصيب المصائب على الأغلب بسوء المكتسب، فكذلك فيما هنالك ﴿**وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً**﴾ [الإسراء:٢١] ولهذا المعهود قال - عز من قائل: ﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ [الرحمن:٦١] قوله الحق، ووعده الصدق، اللهم لا بشيء من آلائك نكذب، لا إله إلا أنت، ربنا لك الحمد.

قوله تعالى: ﴿**وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٦٢] قد تقدم حديث رسول الله ﷺ قوله: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما**»[1] وأنهن أربع جنات كما كانت الدنيا أربعة فصول السنة بأربع جناتها بيان، وإن كان الأمر كما قاله الصادق الحق وبلغه المصدوق الأمين فإن قوله: ﴿**وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٦٢] موضع للتثبت، وإن كان ذلك كما قال - عز من قائل - وذكر الذين كفروا وسوء مصيرهم.

ثم قال: ﴿**وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الطور:٤٧] فهذا عذاب القبر كما قال الله: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النحل:٦٣] أي: في الدار الآخرة، فالأدنى إذن هو الذي هو أقرب منك كما قال: ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ**﴾ يريد في الدنيا قبل الموت، دل على ذلك قوله إثر هذا: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [السجدة:٢١] ولذلك سميت هذه: الدار الدنيا؛ لأنها الأدنى إلينا، فقوله وهو أعلم: ﴿**وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٦٢] يريد: بعد الموت.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقد تقدم أنه كما من أهل النار فراط إليها كذلك من أهل الجنة فراط إلى الجنة، وهي جنة المقربين بعد الموت، وكما قال رسول الله ﷺ وذكر إخوانه - على جميعهم السلام: «**وأنا فرطهم على الحوض**»[1] أي: أنا متقدمهم إليه.

قال الله - عز من قائل - وذكر المختصر: ﴿**فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ**﴾ [الواقعة:٨٨ - ٩٤].

ثم قال: ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ**﴾ [الواقعة:٩٥] يعني: حق الموت، وقد تقدم الكلام في إثبات ذلك في غير موضع قبل هذا، ولذلك قال - عز من قائل: ﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ [الرحمن:٦٣].

وكما أنه في كل برزخ مزج من الذي قبله والذي بعده كبرزخ البحرين المالح والعذب، وكغشي الليل والنهار، وكخيف الجبل والسهل، فكذلك برزخ ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة كائن فيه لا محالة مما مضى ومما لم يأت بعد، ويخص قوم بالإكرام وقوم بالإهانة بقدر الاستجابة لله والرسل، والنكوص عن ذلك والتأخر، لكن على شريطة اعتقاد النشء، فكما أن في هذه الدار جنات وعدن وأنهار وفواكه ونساء، فكذلك في الدار الوسطى التي هي البرزخ بين هذه الدار والدار الآخرة، وهي أكبر وأظهر، وما هذه في الدار الآخرة إلا قليل.

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿**مُدْهَامَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٦٤] ظاهر هذا أنهما مدهامتان نعمة ونضارة، وإن كان ذلك فيما هنالك لا بد ولا محالة؛ أي: أنهما نضرتان إلى السواد والدهمة، وهذا في وزان قوله في الأولتين: ﴿**ذَوَاتَا أَفْنَانٍ**﴾ [الرحمن:٤٨] وذلك معهود في جنات الدنيا بشرط اعتقاد فضل الآخرة على الدنيا، ووصف الدهمة في جنات الآخرة وأنها تضرب إلى السواد ليس يعني الوصف، والله أعلم.

وإنما ذلك - والله أعلم بما ينزل - أن هاتين الجنتين فيما هنالك في وزان

---

(١) تقدم تخريجه.

جنتا الدنيا في فصلي الخريف والشتاء، والشمس قد جنحت هابطة إلى البروج الجنوبية في أولها عند حلولها برأس الميزان حين الاعتدال، ثم إلى حلولها بآخر القوس ورأس الجدي، فتكون الدنيا يومئذٍ قليلة ضوء الشمس التي جعلها الله من خواص آياته، هذا إلى أن الميت في قبره أو حيث كان قد غربت عنه شمس الدنيا، وإن كان قد غشيه من نور الآخرة ما شاء الله فأين ذلك من نور الحق المبين في الدار الآخرة الذي لا أفول له ولا غيبة؟ ثم إذا كان يوم القيامة سعت حقيقة الجنة العملي في هذه فكانت هي، لكنه يبقى عليها كما يبقى على غيرها آيات تدل من هنالك على هذه، فإنه ما أعدم قط عين شيء إلا أبقى له حكمًا ما، ولا أزال حكم شيء إلا أثبت له عينًا أو حكمًا غيره يدل عليه بوجه ما.

فهاتان الجنتان يبقى عليهما في الدار الآخرة حكم الدهمة، بالإضافة إلى تينك الجنتين اللتين هما مثلاً لهاتين الكائنتين، والشمس صاعدة إلى بروجها الشمالية إلى موضع شرفها، لكنه يبقى عليهما ذلك المعنى نعمة ونضارة وغبطة بذلك، يجد لها ساكنها نعيمًا محددًا سوى وجده لذلك، فافهم.

وهذه من أخفى الآلاء - والله أعلم - ولظهورهما فيما كان أولاً لهما بالدلالة عليهما والإشارة إليهما قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٦٥] ولأنه حدث بذلك وأعلم به، وأرسل وكتب، اللهم لا بشيء من آلائك نكذب، لا إله إلا أنت، ربنا لك الحمد.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن:٦٦-٧٨].

نظم بذلك قوله جل جلاله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن:٦٦] وقال فيما هنالك: ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن:٥٠] لما كانت الجنتان الأولتان مدلولتا جنتي

ربيع ما ها هنا ومصيفه، والماء جارٍ في ذلك؛ لقرب عهده بالأمطار، فجري الماء هو المعهود، ولما كانت - أعني: هاتين الجنتين - مدلولتا جنتي خريف ما ها هنا وشتائه يكون ما ها هنا آية على ما هنالك، وكان أقرب عهدهما من غور المياه وصفهما في مياههما بالنضح، وهو دون الجري وأكثر من النضح.

وربما اعترضك هنا عارض تشكيك فيقول لك: إن هاتين الجنتين اللتين ذكرت أنهما جنتا الخريف والشتاء، فإن الشتاء أكثر جري فيه، وعنه فاعلم أن الشتاء بما هو قد يكون في أثنائه إفراط البلات على مواضع من الأرض لتصلح على ذلك مواضع أخر، وربما عمَّ الإفراط فيكون فتح الله برحمته على تلك الحال بالشمس كما قال عز من قائل: **﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾** فقد يكون ذلك عبارة عن نشره رحمته بالنبات وما يفصله إليه، وقد يكون عبارة عن فتحه بالشمس، ولذلك أعقب ذلك بقوله الحق: **﴿وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ﴾** [الشورى:٢٨] فقد أهلك بالمطر، وقد أغاث به، وقد أهلك بالشمس ومداومة الصحو، وقد أغاث به.

وقد استسقى رسول الله ﷺ ثم استصحى **﴿وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ﴾** يأتي بهذا إثر هذا وبهذا إثر هذا، والجنة بما هي قد عوفيت من الإفراطات وأنزلت الجنات فيما هنالك على وزان ما يكون ما هاهنا دلالة عليه، وكذلك جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - جعلت أيضًا موجوداتها على وزان ما يكون ما هاهنا مما هو عن آثارها دلالة عليه بشرط اعتقاد مزيد الآخرة على الدنيا، كما قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم فانظر بم يخرج منها**»[1].

ومن تقصى النظر وتابع التذكر وصل إلى البغية عبرة، فما هنا إلا ما هنالك، وإنما هذه الدار جدبة جذبت من تلك وقطعة اقتطعت منها، غير أنها صغير من كبير وقليل من كثير وفانٍ من باقٍ، فافهم لذلك.

قال: **﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾** [الرحمن:٦٧].

نظم بذلك ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه قوله: **﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾**

---

(١) تقدم تخريجه.

[الرحمن:٦٨] كالمعهود أيضًا من الجنان في الدُّنى، معنى قوله هذا: إني جعلت الدنيا على شبه من الآخرة؛ إذ عنها خلقتها وإليها أعيدها، فقال - وقوله الحق - في تينك الجنتين الأولتين: ﴿**فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ**﴾ [الرحمن:٥٢] وقال في هاتين: ﴿**فِيهِمَا فَاكِهَةٌ**﴾ [الرحمن:٦٨] وقوله هذا إحالة منه على ما في قوله: إن فاكهتها كثيرة ﴿**لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ**﴾ [الواقعة:٣٣] لكنه خص هاتين بذكر النخل والرمان وإنما تكونان فيما هنا في الخريف.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا طلع النجم أمنت العاهة**»[1] يعني: إن الثمر قد بدا صلاحه فيصلح حينئذٍ للبيع، فخص ذكر هاتين الفاكهتين تنبيهًا على هذا الاعتبار، ولوجه آخر من العبرة أيضًا؛ وذلك أن النخيل فيما هنالك والرمان فيهما الكساء لأهل الجنة، ولهم فيهما نساء وولدان ونخيل وغير ذلك من موجودات الجنة، آية ذلك فيما ها هنا أنهما يؤكلان؛ فيكون عنهما المني، فيوضع في قراره فيخلق الله عن ذلك في الأناسي أناسي، ومن الحيوان غيره حيوانًا مثله.

والله ﷻ خلق الدار الآخرة أولاً، وإنما سماها: آخرة، بالإضافة إلى كوننا في هذه الدار أولاً، وسمى هذه لذلك: دنيا، ثم خلق ما خلق في هذه الدار عما أخرجه من تلك كما خلقنا عنها، كذلك يعيد جميع ما خلقه إلى الآخرة؛ لأنه بدأ الكل عنها، فمن واجب الحكمة وحقيقة الوجود أن يرجع الكل إليها حتى لا يبقى من هذه نباتًا ولا حجرًا ولا مدرًا ولا ورقة ولا رطبًا ولا يابسًا إلا قد أثبته في كتاب مبين، ليعيده إلى الدار الآخرة كما بدأه عنها، كحكمه فيما خلقه من الأرض أن يعيده إليه، وكلما قدره بتقديره وكما أبدأ الخلق من وجوده العلي كذلك يرجعهم إليه ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**﴾ [العنكبوت:١٩].

كذلك لما بدأ الخلق يعيده، سنة الله لا تبديل لكلماته التي أتمها صدقًا وعدلاً، فالخيرات من الولدان والنساء والخيول موجودون في باطن الزمان، والنخيل

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٩٠٢٧) والطبراني في الأوسط (١٣٠٥) وأبو نعيم في مسند أبي حنيفة (١٣٨/١) والعقيلي (١٤٦٧).

والزروع وفي سائر نعم هذه الدار؛ فإذا ذلك المذكور من الخيرات الحسان موجود في ظاهرها هنالك، وقد أخبر بذلك الصادق الحق، فلا ريب.

ألا ترى أن كل حي هو موجود في باطن الماء ينزله الله من السماء، فاعبر إلى ما هنالك واقضِ بإيمانك إن ذلك موجود في ظاهر ما هنالك على ما جاء به إلينا؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٦٩].

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾[1] [الرحمن:٧٠] هذا يؤيد ما تقدم ذكره؛ لأن أقرب الضمائر إليه ذكر الفاكهة والنخل والرمان، وكل ما يكون منه غذاء في هذه الحياة الدنيا للإنس أو الجن، فإن الله قد أجرى العادة أن يخلق عن ذلك الغذاء من المتغذين به ما شاء أن يخلقه من إنس أو جن أو حيوان، لكنه هنا على سبيل السنة في كونه غذاء للزوجين ويصيره خلقًا، ثم نفسًا ولحمًا ودمًا وصفات، ثم منيًا، ثم ينقله إلى قراره من الأرحام، ثم يخلق ما شاء من ذكر أو أنثى، ثم كذلك إلى حد الاستواء من المخلوق، وأما في الجنة: فكل ما يكون منها وفيها فعلى سبيل الكلمة، وكل ما يكون غذاء فهو هناك ما يكون عن الغذاء على ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس:٥٧] أي: ما يتمنون، فالخيرات الحسان والولدان فيما ها هنا في التمر والرمان والفاكهة كلها والحبوب والبقل وجميع المأكولات، وكذلك ملابس ما ها هنا من الأرض من جلود الأنعام وأصوافها وأوبارها وكتانها وحريرها إلى غير ذلك كل هذا مما تنبته الأرض وينزله من السماء.

كذلك في الجنة على نسبة الكلمة ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] بل من خيرات ما هنالك ما تنبته أرض الجنة على شواطئ

---

(١) قرأ الجمهور: «خيرات» بالتخفيف، وقرأ قتادة وابن السميفع وأبو رجاء العطاردي وبكر بن حبيب السهمي وابن مقسم والنهدي بالتشديد، فعلى القراءة الأولى هي جمع: خيرة، بزنة فعلة بسكون العين، يقال: «امرأة خيرة وأخرى شرّة» أو جمع: خيرة مخفف خيرة، وعلى القراءة الثانية جمع: خيرة بالتشديد. قال الواحدي: قال المفسرون: الخيرات: النساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه. قيل: وهذه الصفة عائدة إلى الجنان الأربع، ولا وجه لهذا، فإنه قد وصف نساء الجنتين الأوليين بأنهنّ قاصرات الطرف. فتح القدير (١١٤/٧).

أنهارها وفي رياضها كما ينبت النبات والزرع والأشجار التي في الدنيا، وعنهن يكون النساء والرجال من الإنس والجن، كذلك أيضًا عن النخل والرمان يكون بعض حلل أهل الجنة ولباسهم وما يشاؤونه، وكذلك الرمان قد يكون حقها مقصور لجماعة ولدان وخيرات، كاجتماع الحب فيها اليوم، وإذا استخرجن منها أدركن وأينعن يلازمان محسوس، ثم قصرت في الخيام في قصور أعدت لهن وخيام تنشأ من الياقوت والزبرجد وغير ذلك في ملكهن.

وعلى نحو ما تكون الجنات المعدلة ذلك كما كانت هذه المأكولات فواكه ومأكولات، فيأكلهن الإنسي والجني فيكون هو، ثم يكون عنها لأكلها هنا المني، فيتوجه الأمر إلى ما تقدم ذكره من ولدان ونسوان، قرِّب - وفقك الله - بعيد ما هاهنا إلى تقريب ما هنالك وعسر ما هاهنا إلى يسر ما هنالك تصب، لذلك - وهو أعلم - قال عز من قائل: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٧١] ولما تقدم من ذكر مآل هذه إلى تلك مع خبره الصادق وكلامه العلي ووعده الحق، فافهم.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن:٧٤] ينشئ الله ﷻ نشأ الجن والإنس اللواتي كن في الدنيا المؤمنات الصالحات منهن عذارى أبكارًا كما كن في أول خلقتهن في الدنيا قبل الافتضاض، وهذا آية على ما هو كائن فيما هنالك من هذا، وعبرة يعبر عليه إلى ما هنالك.

والظاهر من مفهوم هذا الخطاب: أن خيرات ما في هاتين الجنتين هن مخلوقات منها في فواكهها وثمارها وأرضيها ورياضها خيرات حسانًا، ثم ينقلهن إلى ما وصفهن به من كونهن حورًا مقصورات في الخيام أبكارًا لم **يطمثهن** إنس قبلهم ولا جان، وأن المذكورات في قوله في وصف الجنتين الأولتين في الفرش: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ [الرحمن:٥٦] ﴿كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٥٨] بعضهن من نساء الدنيا المؤمنات الصالحات.

ومن ذلك ما روي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ [الواقعة:٣٥] فقال: «**إن من المنشآت اللاتي كن في الدنيا عجائز**

عُمشًا رُمصًا»[1] فكما خلق هؤلاء مما تنبت الأرض وأنشأهن أبكارًا في الدنيا ثم أماتهن، فأنشأهن عودًا بعد بدء أبكارًا عربًا أترابًا، كما خلق أولئك من موجودات الجنة وأنشأهن على ذلك، فلوجود هذا وغيره وكلامه وحديثه قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٧٥].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن:٧٦] وقرأها الجحدري وابن جبير والحسن بن محمد بن عبد الله بن أبي زيد وابن محيصن وغيرهم: «رفارف وعباقري» على الجمع من غير تنوين، ونونهما ابن علقمة القارئ، وروى ذلك الجحدري عن أبي بكرة عن النبي ﷺ.

وقرأ الأعرج: «خضُر» برفع الضاد، وقد تقدم الكلام على المعهود المتعارف، وأن الدنيا تبدأ من الآخرة، يعبر من هذه إلى تلك يقول ﷻ: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٧٧].

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨] وقرئ بالرفع: «ذو الجلال» تبارك: تفاعل، من البركة، ولا يكاد يذكره - جلَّ ذكره - إلا عند أمر معجب، والاسم على هذا هو المسمى، وأظهر ما يكون على وجه الرفع في الذال.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٦) وقال: غريب. وهناد في الزهد (٢١)، والطبري (١٨٦/٢٧)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢٩٢/٤).

تفسير سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الواقعة:١ - ١٧].

﴿الوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة:١] اسم من أسماء القيامة ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ [الواقعة:٢] ما يكذبها ترفع أقوامًا إلى عليين وتخفض آخرين إلى أسفل سافلين، رجت: زلزت، بست: خلطت، خلط حجرها بترابها فصارت ﴿هَبَاءً مُّنْبَثًّا﴾[1] [الواقعة:٦] وكما قال: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ [المزمل:١٤] وسمى الله هنا كل صنف: زوجًا.

يقول - عز من قائل: **﴿فَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ﴾** [الواقعة:٨] «ما» للتعجيب **﴿وَأَصْحَابُ المَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ﴾** [الواقعة:٩] عجب الله ﷻ بهم وبما يصير هؤلاء إليه من الكرامة والنعيم وما يصير هؤلاء إليه من الإهانة والعذاب الأليم، وربما كان التعجيب زائدًا على ما تقدم بعظيم اقتداره على سوق ذواتهم بعزيمة إراداتهم إلى إنفاذ ما سبق لهم بقوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل**

---

(١) أي : غبارًا متفرّقًا منتشرًا. قال مجاهد: الهباء: الشعاع الذي يكون في الكوّة كهيئة الغبار، وقيل: هو الرّهج الذي يسطع من حوافر الدّواب ثم يذهب، وقيل : ما تطاير من النار إذا اضطرمت على سورة الشرر ، فإذا وقع لم يكن شيئًا. قرأ الجمهور: «منبثًّا» بالمثلثة. وقرأ مسروق والنخعي وأبو حيوة بالتاء المثناة من فوق؛ أي: منقطعًا، من قولهم: «بتّه الله» أي: قطعه. فتح القدير (١٢١/٧).

الجنة يعملون وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»[(١)] ثم أخرجهم على أنفسهم حتى جنوا عليها ما أورثهم سوء المصير، ويسر على أوليائه حسن المأتى حتى ألحقهم بما وعدهم وأنالهم ما أعد لهم، وهو العليم القدير، فهذا وجه تكرار الكلام، والله أعلم.

ثم قال - عز من قائل: ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ**﴾ [الواقعة:١٠] يقول ﷻ: والسابقون إلى العمل بطاعتي هم السابقون إلى الجنة والقرب والكرامة.

قوله تعالى: ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ**﴾ [الواقعة:١٣ - ١٤] وقال في أصحاب اليمين: ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ**﴾ [الواقعة:٣٩ - ٤٠] الثلة: القطعة، وهي الجماعة، والذين عاينوا جميع الأنبياء - عليهم السلام - وآمنوا بهم واتبعوهم أكثر ممن عاين النبي محمدًا ﷺ وآمن به واتبعه، كذلك الذين عاينوا النبي ﷺ من هذه الأمة وجاهدوا معه واتبعوه، ثم الذين اتبعوهم بإحسان إلى انقضاء القرن الثالث أو الرابع أكثر من السابقين بعدهم.

قال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»[(٢)] ففي كلا الوجهين: ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ**﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «**أبشروا، فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة**»[(٣)].

ثم قال: «**إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة**»[(٤)].

ثم قال: «**والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة**»[(٥)] فهذه ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ**﴾.

ثم أخذ في وصف نزل السابقين﴿**فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾ وفي قراءة عبد الله وسعيد بن جبير: «في جنة النعيم» على التوحيد ﴿**عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ**﴾ [الواقعة:١٥]

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد (١١٣٠٢) وعبد بن حميد (٩١٧) والبخاري (٣١٧٠) ومسلم (٢٢٢).

(٤) أخرجه أحمد (١٤٧٦٦)، وأبو عوانة (٢٥٨).

(٥) أخرجه الحميدي (٨٦٩).

منسوجة بالذهب والجوهر الوضن نسج السرير، وقيل الموضون: المصفوف، يقال للحبل: وضن، لدخول بعضه في بعض.

﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة:١٦] ذكر السور عبارة عن الملك لكن ملكهم لا تنافس فيه ولا تباغض ولا تحاسد، بل هم متقابلون حبًا وودًا، وفي قراءة عبد الله: «متكئين عليها ناعمين» والقراءة الأولى أعلى، وهم على ما هم فيه في جنات النعيم، وقرأ أبو السمال: «على سرر متقابلين» بفتح الراء.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الواقعة:١٨-٣٤].

نظم ذلك بقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة:٢٥] كلامهم وحركاتهم وشأنهم كله في الجنة لا يلغي منه شيء، إنما هو رضا الله ﷻ بنعيم كله لا يأثمون بشيء ولا يؤثمون، بل هم المتقلبون في رضوان الله ﷻ، وإنما ذكر اللغو والتأثيم؛ لأنه الذي قطع قلوب السائرين إليه والمتقربين منه في هذه الدنيا، بينا أحدهم في هذه الدنيا يبني فيما يؤمل؛ إذ هو يهدم وبينا هو يظن أنه قد قرب إذا يعارضه ما يبعده، فأمنهم ﷻ من ذلك، وهو من أفضل ما أعطاهم، والحمد لله رب العالمين.

﴿إِلَّا قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة:٢٦] لا يسمعون فيها إلا ما يؤمنهم وينعمهم ويبشرهم عرض بذلك في قوله: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة:١٢] وصفهم بحسن العشرة وجميل الصحبة، وتهذيب الأخلاق وصفاء المودة، بيّن ذلك بقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧] تقابلت أخلاقهم وتشابهت قلوبهم.

كرر قوله: ﴿سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة:٢٦] حكاية عن المتخاطبين، وربما كانت إحدى الكلمتين عبارة عن قوله: «سلام» كما قال: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]، ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ [يونس:١٠] ولهذا وأمثال هذا يقولون: ﴿الحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤].

قوله ﷻ: ﴿وَأَصْحَابُ اليَمِينِ مَا أَصْحَابُ اليَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة:٢٧ - ٢٨] السدر في الدنيا: شجر له شوك يعفر ثمرها هو النبق، فأخبر ﷻ أنه فيما هنالك مخضود شوكه؛ أي: مزال.

قال رسول الله ﷺ: «فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا نبقها كقلال هجر»[1] والطلح: الموز، في هذا من الفقه أن كل نبات لا منفعة فيه، وكل شائك ومرار له هنالك وجود كريم بربه.

قال الله ﷻ: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢] وذكر أن الدنيا قبل معصية آدم ﵇ كانت شجرة كلها مثمرة لا يوجد منها شجر لا ثمر فيه وإلا وهو ينتفع به، والله أعلم، وتقول العرب للشجرة ذات شوك في الصحراء: أم غيلان، وإن ما كان فليس في الجنة ما يؤذي إنما جعلت لما خلقت له وهو التنعيم.

وقرأ علي بن أبي طالب: «وطلع منضود» والمنضود: المتطابق بعضه فوق بعض على ترتيب معجب، ومفهوم هذا أن جميع ما يؤذي أو ما هو لا يثمر فإنه في الجنة مثمر ولا إذاية فيه، وقد جاء أن أول الأمر حين [أولية][2] آدم ﵇ كانت أشجار الأرض كلها لا يأتي منها أي شيء إلا أكل منها حتى واقع المعصية فمنع من الشجر ما منع، واكتسى الإذاية منها ما قدر له، وهذا موجود في قول الله - جل ثناؤه: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة:٣٥].

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ

(١) تقدم تخريجه.
(٢) هكذا في الأصل.

وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة:٣٥-٥٠].

قوله ﷻ: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾[1] [الواقعة:٤١ - ٤٣] السموم: شدة حر النار، والحميم قد تقدم ذكره - والله أعلم - واليحموم: الدخان.

يقول الله - عز من قائل: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة:٤٣ - ٤٤] الكريم: الحسن المكرم، بل هو مهين لذويه - نعوذ بالله من عذابه وغضبه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة:٤٥] الترف: سعة العيش، ذكر ذلك في مقابلة ما أصابهم به من الهون وسوء ما صاروا إليه.

﴿وَكَانُوا﴾ مع ذلك ﴿يُصِرُّونَ﴾ أي: يجمعون ويعقدون في أنفسهم ﴿عَلَى الحِنثِ العَظِيمِ﴾ [الواقعة:٤٦] يعني: الإثم، وهو الكفر بالله والشرك به، والتكذيب للكتب والرسل وما جاءوا به، يقال: حنث في يمينه: إذا أثم، ومعنى ذلك الحنث هنا: هو أنهم كانوا يقسمون بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت.

ألا تسمع إلى ما أتبع به ذكر الحنث وعطف عليه بالواو قوله: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أو آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة:٤٧ - ٤٨] فالمحذوف من الخطاب أنهم كانوا يقسمون ألَّا يبعث الله من يموت، وكانوا

---

(١) ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أي: دخان أسود كما قال ابن عباس. وأبو مالك وابن زيد والجمهور، وهي على وزن يفعول، وله نظائر قليلة، من الحممة: القطعة من الفحم، وتسميته «ظلاً» على التشبيه التهكمي، وعن ابن عباس أيضًا: إنه سرادق النار المحيط بأهلها يرتفع من كل ناحية حتى يظللهم. وقال ابن كيسان: هو من أسماء جهنم، فإنها سوداء، وكذا كل ما فيها أسود بهيم، نعوذ بالله تعالى منها. وقال ابن بريدة وابن زيد أيضًا: هو جبل في النار أسود يفزع أهل النار إلى ذراه فيجدونه أشد شيء، والجار والمجرور في موضع الصفة لـ«ظل». تفسير الألوسي (٢٠/٢٣٥).

يقولون: يقول الله - جل من قائل: يا محمد، أو يأيها المؤمن ﴿إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ * إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٤٩ - ٥١] إلى قوله: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة:٥٦].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة:٥١- ٦٤].

نظم بذلك قوله الحق - عز من قائل: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة:٥٧] أي: قضيتم بالخلقة الأولى على الآخرة فكنتم تصدقون؛ أي: تكونوا من المصدقين.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة:٥٨] أي: ما تقذفونه في الأرحام من مني يكون عنه الولد.

﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٩] ومن قولهم: إن الله يخلق ذلك: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

ثم خاطبهم من حيث انتهى إيمانهم بما هو أعظم كأنه يقول: الأمر أعظم وأشنع من ذلك، ثم أخذ بالإخبار عن الحقيقة بقوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: ننقلكم؛ يعني: الذوات المفارقة للأجسام عند الموت، فنجعلها في مثالات ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ أي: ننشئ أجسامكم في دار البرزخ ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:٦٠ - ٦١] في نبات أو شجر تأكله الأنعام وأواكل النبات والعشب من أناسي وغيرهم، وربما أكلت السباع وهوام الأرض وحيتان البحر لحومهم فنشأت أو أكلها من ذلك الغذاء الذي كان عن أجسامهم.

وربما أصار الأجسام بعد كونها ترابًا فأصلها في أتربة الأرض، وربما أصارها

إلى ما جاورها من أحجار الأرض ومعادنها حديدها وذهبها وفضتها وغير ذلك من جميع فلز الأرض، كما قال - عز من قائل - حين قالوا ما قال هؤلاء: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ [الواقعة:٤٧] ﴿وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء:٩٨].

فأجابهم ﷻ بما فحواه: أن الأمر أجل والخطب أطم وأشنع مما أكبرتموه بقوله: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَو حَدِيدًا * أَو خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ فإنكم معادون مبعوثون، ثم قال من هو العالم بمقالهم: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا * قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء:٥٠ - ٥١].

يقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى﴾ [الواقعة:٦٢] هي منذ نفخ في أحدهم روح الحياة، ثم ما بعد ذلك نشأ وما قبل ذلك خلقه، ثم تدخل الخلقة في حال النشء.

يقول ﷻ: ألم تشاهدوا من أنفسكم وأبنائكم النشأة الأولى تنقلكم من صغر إلى كبر ومن شباب إلى هرم، يغذيكم بما يخرج من الأرض وما يكون عن الماء المنزل من السماء، هلا تذكرتم ذلك في النشأة التي أنكرتموها وكونتم بكونها فتحققتم الآخرة منهما بالأولى، لكنكم تؤفكون.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣ - ٦٤] أي: من الذي يخلقه زرعًا وطعامًا تأكلونه فتكونون عنه يعرض بخلقه إياهم عن الأرض ويوقفهم على مشاهدة عجزهم عن إخراجه وإنباته وإنشائه؛ أعني: الزرع وإتمامه إلى غايته، ثم إذا أكلوه من المقسم غذاءه على أجزاء أجسامهم من الخالق النشء عن ذلك من جاعل الحياة فيما ينشئه عن ذلك.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ

عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: ٦٥- ٧٦].

يقول: ومما تحقق أن أنشأناه أننا ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ فإن المعهود أنه من اقتدر على شيء وأن من كماله أن يدفع عنه آفاته ليخلص عمله، فإن كنتم أنتم زرعتموه هلا دفعتم عنه آفة اليبس حتى تتمونه ذلك؟.

قوله - جل من قائل: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة:٦٥] قرأ أبو حيوة: «فظلتم» بكسر الظاء، وقرأ حمد بن موسى: «فظللتم» بلامين، وقرأ عبد الله: «فظلتم تفكنون» وهي لغة عكل في التندم في الوجهين جميعًا يتعجبون، الفكه هو: المتردد في القول الذاهب فيه كل مذهب.

من ذلك قولهم تارة: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ [الواقعة:٦٦] وتارة: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة:٦٧] وقوله في أهل الجنة: ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الطور:١٨] معجبون مغتبطون، آخذون منه ما شاءوا كيف شاءوا، والفكه أيضًا: النادم، **فظلتم** تندمون؛ أي: على أعمال أوجبت ذلك، كقوله: ﴿فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران:١١٧] يعرض بالمن والإفضال ويعدد أنعامه في ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨ - ٦٩] يعرض بخلقه إياهم من الماء كما تقدم من تعريضه بخلقه إياهم من التراب ومن المني المجموع فيه الأصول كلها، ومضاف إلى ذلك الحيوان أبوه وأمه، والحيوان هي الدار الآخرة ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤] ولذلك كان ما يكون عنه هو الحيوان والإحياء والجنات على أنواعها.

ثم قال - عز من قائل: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٧٠] الأجاج: الملح الزعاق، فكان لا ينبت نباتًا ينفع ولا يشفي غلة عاطش، وبوجه آخر: وهو أن الله ﷻ يرسل الرياح لواقح فتلقح السحاب في الجو، ثم ينزله إلى الأرض والأجواء قد امتلأت والأرض من فيح جهنم - أعاذنا الله منها برحمته - ومنبعث الأجاج صفات جهنم، كما منبعث الزلال العذب صفات الجنة، فكان أقرب إلى الماء المنزل إلى

الأرض أن يكون أجاجًا؛ إذ الهواء أبوه والأرض مستقره، لولا يسبقه فتح رحمته على ذلك بأن أنزله زلالاً طاهرًا مطهرًا مباركًا جعل منه كل شيء حي، والحمد لله رب العالمين.

لذلك أعقب بقوله - جل من قائل: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٧٠] أي: تؤمنون بالله الذي خلقه وأنزله رحمة بكم وتصدقوا برسوله المبلغ عنه إليكم، وبالدار الآخرة التي عنها منبعث هذا الأمر، وتطيعون قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ [الواقعة:٧١ - ٧٢] يقول: أَوْرَيْتُ النار: إذا قدحتها من زنادها، ووريت الزند أرى ووري، وهو يورى: إذا انقدحت منه النار، والعرب تقدح بالزند والزندة، وهو خشب يحك بعضه إلى بعض فتخرج منه النار.

يقول تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ [الواقعة:٧٢] يعرض بخلقه إياهم من الأرض والماء والهواء والنار إلا أن الماء والأرض لخلق الأركان والأخلاق والصفات للهواء والنار وبآخره يدخل هذا الصنف على هذا وهذا على هذا، فكما هو منشئ النار في الشجر وإن لم تكن نارًا في الشجر، فكذلك ينشئ أجسام العباد وإن لم يكن بها حياة فإذا شاء إحياءها نفخ في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨] فوزان قدح النار من الشجر والزناد وزان الصيحة بهم، ووزان إنشائه الأجسام وزان إنشائه شجرة النار.

يقول - جل قوله وتعالى جده: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ [الواقعة:٧٣] أي: بأنه يذكر بإنشائه في الشجر إنشاء الحياة في الأجسام، ويذكر أيضًا بإظهارها من غيبها النار الكبرى أنها في غيب ما نشاهده، وهذا من إثارة كونها في الجو منبعث وجودها فيه عن الفيح المشتمل على نفسيها، كذلك ما هو عن إثارة فتحه برحمته - جلَّ ذكره - وهو المعنى المنبعث عن الجنة بواسطة الماء ينشئه في الشجر نشاهدها أعوادًا ماثلة؛ ثم يخلق فيها الثمر الرمان والزيتون والأعناب والتين وجميع الفواكه.

وغيب هذا الوجود من هذا الآل في وزان إيجاده النار غيبًا في شجرتها، وظاهر إيجاده ما هو عن إثارة الجنة من الطيبات كلها، وزان إيجاده كل ذي طعم

خبيث في شجراته وقوله: ﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾[1] [الواقعة:٧٣] هم: القوم يصيرون في الأرض الخالية وتلك الأرض هي القي[2] يعرض بذلك بنعمه في إنشاء عباده على ما تصلحه النار من مأكول ومشروب [ومغلي][3] وفي ذلك تعريض بنعمه علينا، وأمر بالشكر والاعتبار[4].

قوله - عز من قائل: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤] هذا تسبيح تعجيب يعلي قهره وتنزيه عن أن يعجزه شيء أو يفوته شيء، وهو أيضًا تسبيح إكبار وإعظام مما يكون خلافًا للصدق وقول الحق وفعله، وهو أيضًا أمر منه بالاقتداء بجميع المخلوقات؛ إذ كل شيء مسبح له قانت عابد له، كأمره بالسجود عندما يأتي ذكر الساجدين له من الأنبياء والملائكة وجميع الخليقة، وهو المسبح في السماوات والأرض والدنيا والآخرة، أما سجود ما في الدنيا وتسبيحه فقد يراه المعتبرون ببصائرهم.

---

(١) ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ للذين ينزلون القواء، وهي القفر، من أقوى: دخل القواء، كأصحر: دخل الصحراء، وتخصيص المقوين بذلك؛ لأنهم أحوج إليها، فإن المقيمين أو النازلين بقرب منهم ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح بالزناد. وقيل: ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي: المسافرين، ورواه جمع عن ابن عباس وعبد بن حميد عن الحسن، وهو وابن جرير وعبد الرزاق عن قتادة بزيادة كم من قوم قد سافروا ثم أرملوا فأججوا نارًا فاستدفئوا وانتفعوا بها، وكان إطلاق المقوين على المسافرين؛ لأنهم كثيرًا ما يسلكون القفراء والمفاوز، وقيل: ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ للفقراء يستضيئون بها في الظلمة ويصطلون من البرد، كأنه تصور من حال الحاصل في القفر الفقر، فقيل: أقوى فلان؛ أي: افتقر كقولهم أترب وأرمل، وقال ابن زيد: للجائعين؛ لأنهم أقوت؛ أي: خلت بطونهم ومزاودهم من الطعام، فهم يحتاجون إليها لطبخ ما يأكلون وخصوا على ما قيل؛ لأن غيرهم يتنعم بها لا يجعلها متاعًا، وتعقب بأنه بعيد؛ لعدم انحصار ما يهمهم ويسدّ خلتهم فيما لا يؤكل إلا بالطبخ، وقال عكرمة ومجاهد: المقوين: المستمتعين بها من الناس أجمعين المسافرين والحاضرين، يستضيئون بها ويصطلون من البرد، وينتفعون بها في الطبخ والخبز. تفسير الألوسي (٢٠/٢٦٥).

(٢) القي والقوا: القفر الخالية البعيدة عن العمران. انظر تفسير البغوي (٨/٢١).

(٣) هكذا في (ف)، وغير واضحة في (خ).

(٤) قال المصنف: قالوا: أرض قواء وقي، يريدون خالية من الأنيس، وأقوت الدار إذا خلت من أهلها، وأقوى زيد وتره يقوّيه، إذا جعل له قوًّا فلم يجده قواه، ومنه الإقواء في الشعر لخلو ذلك البيت من قافيته، وفاعل ذلك مقوّي وقالوا أيضًا: اقْتَوَيْتُ الرجلَ: إذا استخلصته لنفسي من بينهم. [٢/١٨٣].

وأما تسبيح ما في الآخرة وسجوده فتسبيح جهنم والجنة في الفيح والفتح، وما يكون عنهما في هذه الدار دلالة عليه، ألا تراه كيف سخر جهنم لعباده وجعل لهم منها جنات وثمرات وفواكه وزروعًا ومعايش وحيوانًا، ومن ليسوا له برازقين، ثم ما عنده في خزائنه من شيء فهو له فيما هنالك مسبح ساجد عابد؟ دل على ذلك إنزاله إياه إلى ما هنا بقدر معلوم، وتفصيله إلى ما فصله من شيء، وتسخيره لعباده أتم تسخير، فلذلك أمر بالتسبيح اقتداءً بالموجودات في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥] قرئ هكذا بالمد، وقرأ الحسن وغيره: «**فلا قسم**» بالقصر، وكذلك في الحاقَّة والقيامة، فمن قرأ بالقصر فاللام للتأكيد وأقسم للقسم، ومن قرأ بالمد فقوله: لا رد لكاذب مقالهم، وقوله: ﴿أُقْسِمُ﴾ إخبار عن قسمه، ويتوجه إلى معنيين:

أحدهما: أن يكون قوله: «لا» رد لكلام قد تقدم، وإنكار لمذهب غير مرضي؛ إذ اليمين قد تكون ابتداء من الحالف وتكون ردًا لكلام قد تقدم وجحدًا له، فيكون ذلك قسمًا على كذب الكاذب، وذلك أنهم لما أنكروا البعث بعد الموت وكفروا به وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، فحرف «لا» في مقابلة ذلك منهم، والقسم لتحقيق الحق وآياته الذي يأتي ذكره بعد، والقسم بنفسه يكون لإثبات صدق المخبر، كقولك: والله ما خرج زيد، فيكون بذلك مخبرًا عن تركه الخروج، وتقول: لا والله ما زيد بخارج، فيكون ذلك ردًا لقول من زعم أنه خارج وإنكارًا له.

فكذلك لما قال الكفار: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ [الواقعة:٤٧] إلى آخر قولهم في الرسالة والقرآن من سحر وشعر وأساطير الأولين وكاهن ومجنون ونحو هذا قال - جل من قائل: ﴿فَلَا﴾ ردًا لقولهم وتكذيبًا لهم ثم أقسم بمواقع النجوم ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٧] كان قال - عز من قائل: ﴿فَلَا﴾ أي: ليس كما زعمتم أقسم بمواقع النجوم ما أنتم بصادقين في قولكم هذا من تكذيبكم بالبعث، وإنه لقرآن كريم.

ووجه ثالث: وهو أن يكون قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥] أي: لست بمقيم بمواقع النجوم ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٦] لكني

لست بمقسم بها؛ إذ قد أشركتم بها وكفرتم من أجلها، دل على صحة هذا التأويل قول رسول الله ﷺ وقد أصبح على إثر سماء كانت من الليل: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»[1] وذكر النجوم هنا مشترك بين نجوم تنزيل القرآن نجمًا نجمًا.

وإلى هذا المعنى يتوجه القرآن بوجه، ويكون بمعنى قوله: ﴿**بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ**﴾ منازل الشمس ومحالها من البروج، وإلى هذا المعنى توجه تبيان الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وكلاهما أمر من أمر الله - جل ثناؤه - ومطلع يطلع منه على مطالع الدنيا والآخرة؛ لذلك قال الصادق الحق: ﴿**وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾ [الواقعة:٧٦] وكلام الله يسع ما شاء والله واسع عليم.

ومواقع النجوم: هي مغاربها حين وقوعها في المغرب، ومن إبقائه ﷻ في خليقته، واتساق حكمته في بريته أن جعل لكل واقع منها طالعًا يسمى بالإضافة إلى الواقع الرقيب دون تأخر، وهي نجوم منازل القمر عددها ثمانية وعشرون منزلة سوى التي تحجبها الشمس، فتمت تسعًا وعشرين يستسر فيها القمر، فربما استسر ليلتين.

قال رسول الله ﷺ: «**الشهر تسع وعشرون، فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين**»[2] والقمر ينزل من هذه المنازل كل ليلة منزلة حتى يتمها لتمام الشهر، وأما الشمس فإنها تقيم في كل منزلة منها ثلاثة عشر يومًا ما خلى الجبهة، فإنها تقيم فيها أربعة عشر يومًا ويسمى حلولها في هذه المحال، ثم طلوع المنزلة التي تليها لوقوع ما هذه غيب لها: نوءًا، وجمعها: أنواء، فتحل الشمس منها.

مثلاً أقول: بسعد بلغ في اليوم الرابع من شهر ينير ويقم فيه تقطعه في ثلاثة

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٠٢) والبخاري (٨١٠) ومسلم (٧١) والنسائي (١٨٣٣) والشافعي (١/ ٨٠)، وأبو داود (٣٩٠٦) وابن حبان (١٨٨) وأبو عوانة (١/٢٦)، والبيهقي (٦٢٤٣).

(٢) أخرجه مالك (٦٣١) وأحمد (٤٤٨٨)، والبخاري (١٨٠٨) ومسلم (١٠٨٠)، وأبو داود (٢٣٢٠)، وابن حبان (٣٥٩٣)، والشافعي (١/١٠٣)، وابن خزيمة (١٩٠٧).

عشر يومًا، ثم ترتحل منه وتحل بسعد السعود غداة سبعة عشر من ينير، ثم تحتل بسعد الأخبية يوم ثلاثين من ينير، ثم كذلك وتحتل بالفرع الأول يوم اثني عشر من فبراير، ثم كذلك ثم تحتل بالفرع الآخر يوم خمسة وعشرين منه، ثم بالبطين يوم عشرة من مارس، ثم بالبطح يوم ثلاثة وعشرين من مارس، ثم بالبطين في الخامس من أبريل، ثم بالثريا في الثامن عشر من أبريل، ثم بالدبران في أول يوم من ماية، ثم بالهقعة في الرابع عشر من ماية، ثم بالهنعة في يوم سبعة وعشرين من ماية، ثم بالذراع في اليوم التاسع من يونية، ثم بالنثرة في يوم اثنين وعشرين من يونية، ثم بالطرف في اليوم الخامس من يولية، ثم بالجبهة في التاسع عشر من يونية، ثم بالخرتان في اليوم الأول من أعشت، ثم بالصرفة في اليوم الرابع عشر من أعشت، ثم بالعوا في يوم سبعة وعشرين من أعشت، ثم بالسماك في اليوم التاسع من شتنبر، ثم بالغفر في يوم اثنين وعشرين من شتنبر، ثم بالزبانا في اليوم الخامس من أكتوبر، ثم بالإكليل في اليوم الثامن عشر من أكتوبر، ثم بالقلب في آخر يوم من أكتوبر، ثم بالأبرة في الثالث عشر من نونبر، ثم بالنعايم في السادس وعشرين من نونبر، ثم بالبلدة في السابع من دجنبر، ثم بسعد الذابح في يوم اثنين وعشرين من دجنبر، ثم بسعد بلع في اليوم الرابع من ينير من حيث ابتدأت عند انقضاء السنة.

وأجرى الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه العوائد على الأغلب أن يرسل الرياح في ذلك اليوم الذي تنتقل فيه أو فيما قرب منه بمشيئته ﷻ وربما خلق عنها سحابًا، وربما كان المطر على الأغلب، لا سيما في فصل الشتاء وفصلي الربيع، فمن نسب إنزال المطر إلى تلك الأنواء التي يحدثها الله عند تبدل تلك المحال في اتساق الهيئة فهو ضال مضل، ومن رد الأمر كله إلى وليه الحق لا إله إلا هو العلي الكبير فهو المهتدي، فهذا من بعض الوجوه في قوله - جل قوله: **﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾** [الواقعة:٧٦] لما قد جعل من أمره في مطالعها ومغاربها، ولذلك قال عز من قائل: **﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾** [الرحمن:١٧ - ١٨].

جمع ذلك قوله الحق: **﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** [الأعراف:٥٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن النار اشتكت إلى ربها فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر فمن جهنم، وأشد ما تجدون من البرد فمن الزمهرير**»[١].

وقال رسول الله ﷺ في الشمس أنها: «**ما تطلع من قصبة إلا فتح لها باب من جهنم**»[٢] فهي كذلك حتى تستوي، فحينئذٍ تسجر جهنم، وأما في مطالعها من المشارق والمغارب فهي أشد تحققًا في هذا الوصف، متى حلت في منزلة بعد منزلة فتح لها باب من سعيرها إن كانت صاعدة في البروج الشمالية، أو من زمهريرها إن كانت نازلة في البروج الجنوبية على قدر مبرم وأمر محكم، ولهذه النجوم نظائر متى وقع منهن نجم في المغرب طلع رقيبه من المشرق، يقال للطالع: نوءًا، لأنه ناء؛ أي: ارتفع، تنقل على الأغلب هذا كله من حكمه الحق وحكمته في هذا الوجود، يعلم بما هو الأمر الحق عن الله الحق المبين من قوة الأمر الذي الجمع عليه هنا من الشهور والسنون والأعياد وفصول السنة دلائل على ما هنالك من حق إليه المصير.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس:٤] أي: على سواء حكمته فيما خلقه هنا، كذلك ما يجزي به المجرمين في دار قرارهم، لذلك أتبع ما تقدم ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:٤] أي: بآياته في الوجود من العالم والوحي أعلم بهذا كله بقوله الحق: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: الذي إليه المصير في الدار الآخرة؛ لذلك أتبعه بقوله الحق: ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥].

﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السموات وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ...﴾ [يونس:٦] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

مثلاً أقول: إن كانت في الكبش فنظيره الميزان، وإن كانت في برج الثور فنظيره

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٢٤١).

(٢) تقدم تخريجه.

العقرب، وإن كانت في البونان فنظيره القوس، وإن كانت في السرطان فنظيره الجدي، وإن كانت في الأسد فنظيره الدلو، وإن كانت في السنبلة فنظيره الحوت، ولكل برج يحل فيه شهر، وقد قسم الله ﷻ فيح جهنم على هذه الاثني عشر شهرًا.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [التوبة:٣٦] وكذلك يطلع مع غروب كل منزلة رقيبها في البروج منزلة أخرى، فمتى طلع النطح وقع العقر، وإذا طلع البطين وقع الزبانا، وإذا طلع الثريا وقع الإكليل، وإذا طلع الدبران وقع القلب، وإذا طلعت الهقعة وقع الأبرة، وإذا طلعت الهنعة وقعت النعائم، وإذا طلع الذراع وقعت البلد، وإذا طلعت النثرة وقع سعد الذابح، وإذا طلع الطرف وقع سعد بلع، وإذا طلعت الجبهة وقع سعد السعود، وإذا طلعت الزبرة وقع سعد الأخبية، وإذا طلعت الصرفة وقع الفرع الأول، وإذا طلعت العوا وقع الفرع الآخر، وإذا طلع السماك وقع البطين.

فهذه مواقع النجوم، قسم الله تعالى أمره في السنة على مطالع الشمس فيما بين هذه من مشارق ومغارب فافهم، وهو قسم عظيم لمن علمه وآمن به، ونسب الفعل إلى فاعله والتدبير إلى مدبره، ثم مواقع النجوم أيضًا هي: نجوم الوحي المنزل من عند الله سبحانه وسيأتي ذكره، ثم أمره في الفيح على محالها في المنازل المتقدمة الذكر، ثم على مطالعها ومغاربها في المنازل، وبفضل الله يفتح رحمته كما يشاء بمشيئته العالية، فينزل به من السماء ماء مباركًا، يكسر به يبس الزمهرير فيرطبه ويبرد من حر السعير فيعدله، وقسم السنة على أربعة فصول أتم فيها أمره في الأرض من بركاتها وتقدير أقواتها.

قال الله ﷻ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً﴾ [فصلت:١٠] ثم عجب عباده وعرض لهم بطلب العلم بقوله للسائلين، يقول الله - جل من قائل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل:١٢] فبمشيئته بالرحمة وإنزاله الماء سخر لنا جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - وجعل هذه الدنيا على هذا الاعتبار الجنة الصغرى، ثم على الاعتبار بحقيقة الفيح وإثارته من حيث هو هي جهنم الصغرى، لهذا ولمثل هذا وما هو أكبر وأطم من هذا قال وقوله الحق: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٦].

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة:٧٧-٩٦].

ثم قال - عز من قائل: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾[١] [الواقعة:٧٧-٧٨] فعرض بذلك أن المراد على وجه ما يقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥] بأنها نجوم القرآن المنزلة نجمًا بعد نجم إلى آخر التنزيل، وبيَّن بذلك الإيمان من الكفر والهداية من الضلالة، وأوضح منهاج الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وكشف عن حقيقة الحق الذي خلق به السماوات والأرض، وعلم به الأسماء كلها المقتضية لجميع ما خلقه التي بها يتعرف حكمة الله وقدرته ومشيئته.

ويشرف بعلمها من بصر من حقائقها على جملة أحكام الله، وبها يبلغ علم التوحيد، وبها يتعلم العباد إعطاء القسط بينهم وبين بارئهم، وبها يتعرف الحكمة الموصوفة لتدبر ملكوت الله، وبها يرى إتقان الظاهر بالباطن والباطن بالظاهر من الله ﷻ، وبها يتظاهر لصدق، وبها يشرف على مطالع الدنيا والآخرة، وبها يرى كيف

---

(١) ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ ذكر المقسم عليه؛ أي: أقسم بمواقع النجوم أن هذا القرآن قرآن ليس بسحرٍ ولا كهانة ولا بمفترى، بل هو قرآن كريم، محمود جعله الله معجزة نبيه، وهو كريم على المؤمنين؛ لأنَّه كلام ربهم وشفاء صدورهم، كريم على أهل السماء والأرض؛ لأنه تنزيل ربهم ووحيه. وقيل: «كريم» أي: غير مخلوق. وقيل: «كريم» لما فيه من كرم الأخلاق، ومعالي الأمور. وقيل: لأنه يكرم حافظه، ويعظم قدره . تفسير اللباب لابن عادل (١٥/١٠٧).

سرد على نظامها كتابه العزيز فأدخل العباد من الثقلين مداخلهم من الدار الآخرة من ثواب كريم أو عقاب أليم، وأنه بها أمر ونهى، وبها نطق وإياها حقق وصدق، وكيف أبطنها وكيف أظهرها، وأنها مكتوبة في اللوح المحفوظ، وعلى مقتضاها أوجد جميع الوجود، فإذًا القسم بمواقع النجوم هو القسم العظيم.

قال الله سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الحشر:٢١] ثم قال: ﴿هُوَ اللهُ﴾ أي: القرآن المذكور ﴿هُوَ﴾ قولي ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢] هو الله الذي لا إله إلا هو إلى آخر السورة.

يقول - عز من قائل: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

ثم قال إنه: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا المُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٨ - ٧٩] فالمكتوب في اللوح المحفوظ، حمله هو الأسماء ثم نزلها؛ أي: فصلها إلى ما فصل كالماء هو واحد من حيث هو الماء، ثم يفصله إلى ما يفصله إليه تفصيلاً.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَذَا الحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة:٨١] الإدهان والمداهنة: الملاينة في الأمور، والتغافل والركون إلى التجاوز، هذا خطاب للمصدقين الذين لم يعلنوا الحد والحزم في المسابقة في تعلم علمه والتفكر في آياته، بل غلبوا مع التصديق التغافل والتساهل والعدول عن الترقي إلى التحقق.

يقول الله - عز من قائل: ﴿أَفَبِهَذَا الحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة:٨١] يعني: القرآن، كما قال وقد ذكر ما ذكر من عظائم الأمور وتبيان الآلاء: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم:٥٩-٦١] هذا خطاب للكفار.

ثم أتبع ذلك: ﴿فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم:٦٢].

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦].

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1]

(١) لم أقف عليه.

[الواقعة:٨٢] يقول للكفار والمكذبون: وتجعلون رزقي إياكم الذي رزقتكموه من قرآن عظيم أنزلته، وكلام عظيم نزلته، ونور إيمان بينته، وضياء يقين جليته، وما أنزلته من السماء لبركات قدرتها لأقواتكم وأرزاقكم من رياح أرسلتها، وسحاب أطلعتها بقدرتي وسخرتها بمشيئتي، واستعملت لها ملائكتي بعظمتي.

وأضاف الرزق إليه؛ لأنه كان يكون رزقًا لهم في الجنة لو أنهم آمنوا واتقوا وشكروا، لكنهم جعلوا مكان ذلك الكفر والتكذيب، فحرمهم رزقهم في الجنة، كما أضاف إليهم أهليهم في الجنة لو أنهم آمنوا بقوله: ﴿إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ [الزمر:١٥] ولها نظائر في القرآن كثيرة، يجعلون مكان الشكر على ذلك التكذيب به، وإن شركوا بي خلقًا خلقته ولأجلكم سخرته، وقد يكون الرزق هنا: العلم بالله والإيمان ونحو هذا، وهو أكرم الرزق وأعلاه، وهو قد يحصل بذواتهم بالفطرة، يقول: وتجعلون رزقكم إيمانكم وإقراركم وإشهادكم على أنفسك أنكم اليوم تكذبون به وتنسبون خلقي إلى سواي.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣ - ٨٤] أي: إلى المحتضر في علز الموت وما هو فيه من شدائد الهول لا تستطيعون له صرفًا ولا نصرًا.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٥] تنبيه على الغيب المصاحب للظواهر، وهو القرب من محتضرهم قرب خلقه، وقرب ملائكة الرحمة أو العذاب - على جميعهم السلام - وملائكة الموت المزعجين نفسه إلى الخروج، يقول: فلم لا تؤمنون بغيب كفرتم به وإن كنتم لا تبصرونه ولا تشاهدونه.

وبوجه آخر: قال الله - عز من قائل: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣ - ٨٤] الآيتين يقول ﷺ للمدهنين، والإدهان الأكبر هو: الإغضاء على الحق والإصغاء إلى الباطل على علم، والإدهان الأصغر: الملاينة في ذلك، وركوب الهوينا، وترك الأخذ بالعزم مع رؤية التقصير، كما قال رسول الله

ﷺ: «تقرون بالذنب ولا تنتهون تتهوكون كما تتهوك اليهود في الظلمة»[(١)].

فهو يقول - جل قوله - لهؤلاء في منزلتهم ولهؤلاء في منزلتهم: ﴿أَفَبِهَٰذَا الحَدِيث أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ[(٢)] * فَلَوْلَا﴾ أي: فهلا ﴿إِذَا بلَغتِ الحُلْقُومَ﴾ [الواقعة:٨١ - ٨٣] وهنا محذوف تقديره - والله أعلم: فلولا كنتم كحالكم إذا بلغت الحلقوم، أشار بذلك إلى قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون:٩٩ - ١٠٠].

وقوله: ﴿وحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٥].

ثم قال: ﴿فَلَوْلَا إن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة:٨٦] أي: غير مملوكين يعني وهو أعلم بحال الموت ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أي: الأنفس إلى التوبة والتقوى والإيمان والعمل الصالح ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة:٨٧] في ذلك يعرض بعلمه في عباده المعبر عنه بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨] وهذه موعظة وذكرى لأولي الألباب، فينبغي للعبد أن يهز نفسه بهذا الذكر لعله يتذكر أو يخشى، وقد كان بعضهم يحفر لنفسه قبرًا في بيته، فمتى كسل دخله واستوى فيه مضطجعًا، ثم يتذكر حاله ذلك في المستقبل ويسأل الرجعة، ويعقد على نفسه المسارعة ثم يقوم ويكيس.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ﴾ [الواقعة:٨٨] أي: هذا المحتضر

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) قال المصنف: ومعهود الرزق أنه من الجنة ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ يقول وهو أعلم: نحن نفتحه عليكم من الجنة وتنسبونه إلى النجوم والأنوار، ومعنى إضافة الرزق إلينا - والله أعلم - عن قوله المتقدم لأبوينا آدم وحواء - عليهما السلام - ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة:٣٥] وكنا نحن في جملتيهما فذكرنا بذلك، كما ذكرنا بجملة إيانا في سفينة نوح عليه السلام حيث قال جل قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ ثم قال وقوله الحق: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١١ - ١٢] فمعنى الآية - والله أعلم - تجعلون رزقكم الذي خرجتم عنه وكنتم منه لترجعون إليه، وإن آمنتم وصدقتم تكذبون به، فتحرمون من أجل تكذيبهم الرجوع إليه، فيكون بدلاً من ذلك البعد عنه وسوء المصير، صدق الله وهو أصدق القائلين. [١٩٧/٢].

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ والروح بفتح الراء: الراحة والسرور والفرح، والروح برفعها هو: الحياة والبقاء، قيل: إنه يقبض روحه في ريحان ويبسط له قبره ريحانًا، والريحان أيضًا: الرزق[1] وهذا القسم قد دخل في قوله: ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٩] وهؤلاء هم المفرطون إن شاء الله إلى الجنة، كما قال في أهل الطرف الآخر: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:٦٢] أي: مقدمون إليها.

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة:٩٠ - ٩١] أي: تقول له الملائكة: سلام عليك يا من هو من أصحاب اليمين.

قال رسول الله ﷺ: «**يقال له: نم نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه**»[2].

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:٩٢-٩٤] وهذا أيضًا من المفرطين إلى جهنم - نعوذ بالله منها - إلى ما هنا هو مصيرهم - أعني المحتضرين - أي: في دار البرزخ من هؤلاء وهؤلاء، نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥] الحق هنا هو: الواجب كونه، وهو ما وصفه في مصير هؤلاء الأصناف الثلاثة، واليقين: الموت، يقول - وهو أعلم بما ينزل: إن هذا لهو حق ما في الموت وما في حال الموت وما بعد الموت.

---

(١) قال المصنف: قد قُرِئَ ﴿فَرُوحٌ وريحان﴾ أي: فحياة دائمة قائمة. والروح بفتح الراء على قراءة الحرف الأول حال للروح في الحبور والسرور؛ ولذلك لقي رسول الله ﷺ موسى عليه السلام قائمًا في قبره يصلي، وإبراهيم تحت الشجرة قبل صعوده إلى السماء الدنيا، ولقيهما في السماوات العلى، فتلك أرواحهما، وهذه نفوسهما، وأجسادهما في قبورهما. وإن كان شقيًّا لم تفتح له أبواب السماء، ورُمِيَ من علو إلى الأرض وعمر به أسفل السافلين في شقاء وعذاب إلى يوم الدين - نعوذ بالله من درك الشقاء ومن سوء ما سبقت به المقادير. تقريب ذلك بأن تتحقق أن الدنيا وهو معنى يعني به غيره، وعرض يعرض وحقيقة العرض هو ما يبقى. [شرح الأسماء ٢/٣٤].

(٢) أخرجه الترمذي (١٠٩٢).

نظم بذلك قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٩٦] أي: ليكون من الرعيل الأول، وهذه من نصائح القرآن الكريم، يقول: العدة لهذا أن تسبح باسم ربك العظيم، كما قال ﷻ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٨ - ٩٩].

تفسير سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٦﴾ [الحديد:١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد:١] التسبيح: تنزيه لله تعالى، والحمد: تسبيح ومدحة جامعة.

قوله ﷻ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد:٢] الملك ظاهر وباطن، فظاهره ما هو الآن موجود ما هو منسوب إلى دار الدنيا من أرض مدحية وسماوات مبنية وكواكب وأفلاك ورياح وسحاب وماء، وما يفصل إليه من أمر وخلق إلى غير ذلك مما هو حاضر ظاهر علوًّا وسفلاً، وباطنه ما هو مضاف إلى الدار الآخرة ومنسوب إليها، وهو أيضًا ما يكون يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وسعة ما هنالك عريض، وأمره عظيم وملكه كبير جدًّا لذلك قال: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هذه الحياة وموتتها ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد:٢] أي: على إحياء الموتى وبعثهم ونشورهم وحسابهم وثوابهم إلى ذلك الجزاء الأجل من نعيم سرمد أو عذاب أليم مجدد، نعوذ بالله من عذابه ونسأله رحمته ورضوانه.

وقدم ذكر الإحياء على الإماتة، واستاق ذلك بلفظ الاستقبال، وجل القرآن الحكيم جاء على هذا، كقوله - عز من قائل: ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ

يُمِيتُكُمْ﴾ [الجاثية:٢٦].

وقوله: **﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾** [المؤمنون:٨٠].

وقوله: **﴿أَلَا إِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** [يونس:٥٥ - ٥٦] وهو كثير.

وقال رسول الله ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، كتب له كذا**»[١] **الله** أعلم بما ينزل وهو العليم الحكيم.

وأرى ذلك - والله أعلم - أنه إشارة إلى التذكير منه لنا باستمرار الإحياء الذي عبر عنه قوله: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ...﴾** [الأعراف:١٧٢] فحين أخذنا من ظهر آدم كما قال رسول **الله** ﷺ **في** حديثه ذلك حيث قال: «**إن الله لما خلق آدم مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية...**»[٢] أخذ من ظهر كل ذي ذرية ذريته، كما حملنا مع نوح عليه السلام **في الفلك** يوم حمله فيه وأهله، فهو أبدًا **يحيي**؛ أي: يخلق من كل ذي ذرية ذريته ويميت.

وعلى هذا يصح لفظ الاستقبال، وإلى هذا فإن جميع الخليقة كانوا قبل إيجاده إياهم عدمًا لأنفسهم، فإن كانوا موجودين عنده في علمه وقدرته ومشيئته يشاهدهم ويراهم ويسمعهم فأوجدهم؛ إذ شاء الإيجاد الذي عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «**إن الله خلق الخلق وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء، ثم ردهم إلى علمه بهم عدمًا لأنفسهم**»[٣] فكان ذلك من حكمه فيهم إماتة، ثم أوجدهم يوم استخرجهم من ظهر آدم عليه السلام فكان إحياء، ثم ردهم إلى حيث كانوا، فكان ذلك إماتة منه لهم.

عبر عن ذلك قوله الحق: **﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨] فاستاق هذا الخطاب على معنى التكليف بالإيمان بالإحياء الذي بعد الموتة المنتظرة، وما تقدم ذكره هو تكليف بالإيمان بالأولية التي استأثر بها ﷻ فأحياهم؛ لأنه المحيي، وأماتهم؛ لأنه المميت، ولأنه الحي الدائم الباقي، يحييهم في المستقبل إرجاعًا إليه فلا يميتهم، وهو على كل شيء قدير.

ويوم يرجعهم إليه - أعني: أولياءه ﷺ - وجعلنا منهم لا تخالف بينهم ولا غل في قلوبهم، ولا غش قدودهم على قد واحد، وقلوبهم على قلب واحد ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧] ذلك لأنهم كانوا حيث لم يكونوا لأنفسهم، بل موجودين له مشاهدين له في هدنة ووحدة، لم ينبغ لخلاف أن يصعد إلى ما هنالك من وجوده العلي النزيه الرفيع، فلهذا ولما هو به أعلم قدم الإحياء قبل الإماتة في أكثر المواضع من كتابه الحكيم، واستاقها بلفظ الاستقبال لإظهار ما هو قد أبطنه، وقد كان قبل أظهره، وهو العليم الحكيم.

نظم بذلك ما هو منتظم بمعناه قوله: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ أي: هو الأول في البداية وهو الآخر في النهاية، وهو الظاهر فيما ظهر وهو الباطن فيما بطن، وهو الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء، والظاهر في المصنوع والباطن بالإمساك والحفظ وتجديد الإبقاء والإعدام، وهو الأول بكل وجه، وهو الآخر والظاهر والباطن كذلك، وهو أيضًا الأول لا أول له، والآخر لا آخر له، وهو الظاهر ليس فوقه شيء، والباطن ليس دونه شيء، وحق لمن كان هذا وصفه أن يكون ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1] [الحديد:٣].

---

(١) قال الشيخ البيطار: قال أبو يزيد البسطامي ﵁: حظوظ كرامات الأولياء على اختلافها تكون من أربعة أسماء: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣] وكل فريق له اسم منها، فمن فني عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام، فأصحاب اسمه الظاهر يلاحظون عجائب قدرته، وأصحاب اسمه الباطن يلاحظون ما يجري في الأسرار والسرائر وأصحاب اسمه الأول يلاحظون بما سبق، وأصحاب اسمه الأخر متربصون بما يستقبلهم، فكل يكاشف على قدر طاقته إلا من تولى الحق تعالى تدبيره. انتهى كلامه ﵁. واعلم - رحمك الله - أن هذه الأسماء الأربعة هي الأب العلوي للعالم والأم السفلية، فالاسم الأول كالعقل الأول، والاسم الآخر كالنفس المنفعلة عن العقل انفعال الأخر عن الأول، كما انفعلت حواء عن
=

نظم بذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾ [الحديد:٤] هذا تبيان للأربع الصفات التي تقدم ذكرها وشرح للجملة، وحق للجملة أن تكون مشاهدة لمن استوى على العرش فحييت به الجملة وقامت بأمره، وتواصلت وتعاطفت لرحمن حي قيوم، لا إله إلا هو العلي الكبير، يتخللها الروح من أمره علوًّا وسفلاً، ظهرًا وبطنًا، أولاً وآخرًا، سرًّا، فهو فيها جمعًا بما هو لا بما هي ليست له بمعنى المكان والحال، وحق لمن كان هكذا أن يكون مع كل شيء ومشاهدًا لكل شيء، وحاصرًا لكل شيء بعيدًا عنها بما هي، فالأمكنة لا تحيط به والأزمان لا تحصره، سبحانه وله الحمد ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ إلى قوله: ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:٦١].

قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السموات وَالأَرْضِ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [الحديد:٥] تعريض بملك الآخرة وما يؤول إليه ملك الدنيا إلى ما وراء ذلك وكل ذلك له.

أتبع ذلك قوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحديد:٦] يتوجه هذا إلى معنيين:

أحدهما: ما يزيد من نهار الصيف في ليل الشتاء، وما يزيد من ليل الشتاء في نهار الصيف.

والوجه الآخر: معنى قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس:٣٧] فعلى هذا يكون الليل في ضمن النهار باطنًا فيه، والتكوير هو أن يتبع هذا هذا وهذا هذا، ثم ختم بقوله: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد:٦].

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

=

آدم، ثم توجه الأول إلى الآخر توجهًا باطنًا يسمى بالنكاح المعنوي، ويسمى بالنكاح الإلهي بين الأسماء الإلهية، فكان الاسم الباطن محل الحمل، وهو الكنز المخفي في ظهر الاسم الأول، فاستقر في الاسم الآخر بطونًا كباطن رحم الأنثى، فظهر العالم بحكم الاسم الظاهر، فهو المولود، فلهذا السر ما صدر كل أمر في العالم إلا عن تثليث.

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)﴾ [الحديد: ٧ - ١٢].

قوله تعالى: ﴿آمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧] وعظهم - جلَّ ذكره - بما ذكر من استخلافه إياهم في أملاكهم، وكما استخلفهم فيها من بعد غيرهم كذلك يستخلف غيرهم فيها بعدهم، يقول - عز من قائل: فاغتنموا ما جعل إليكم من ذلك وأنفقوا لتعتاضوا به مما عندي في الدار الآخرة ما هوخير لكم وأبقى.

ثم قال - عز من قائل: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧] قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ تعريض لهذه الأمة بما وعدها أن يضاعف لهم أجرهم على أجرى عليه أهل الكتاب، كما قال رسول الله ﷺ في حديثه المشهور: «نحن الآخرون السابقون»[(١)] وفيه أنه يبدأ بنا - يعني: هذه الأمة - فيؤتيهم الله أجرهم مرتين، ويؤتي المهتدين من أهل الكتاب أجرهم مرة، فيقولون: ما لنا أكثر عملاً وأقل عطاء، فيقول لهم: «ذلك فضلي أؤتيه من أشاء».

قوله ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِالله وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ يذكرهم بالعهد الأول وأنه أرسل إليهم الرسول يذكرهم، لما عسى أن يكونوا قد نسوه، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ [الحديد:٨].

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل

(١) أخرجه أحمد (٧٣٠٨) والبخاري (٨٣٦) ومسلم (٨٥٥) والنسائي (١٣٦٧) والشافعي (١/ ٦٠) وابن خزيمة (١٧٢٠) والبيهقي (٥٣٥٤).

عمران:٨١] ونظيرتها في سورة الأعراف، يقول - عز من قائل: وقد بعثنا إليكم رسولاً يدعوكم إلى ما عاهدتم عليه بآيات بينات إن كنتم مؤمنين؛ أي: مصدقين بما عاهدتم عليه خلق الله الإنسان في نور الفطرة.

ثم في حين النشء سبق إليه الجهل قبل العلم، والغفلة قبل الذكر، وعدم الإيمان والعقل قبل وجوده، وإذا أتاهم العلم والإيمان والذكر فذلك إخراجه إياهم من الظلمات إلى النور؛ أي: ظلمات الغفلة والنسيان والجهل إلى نور العلم والذكر والإيمان، كونهم موجودين في موجود علمه وقدرته ومشيئته لم يزل يعلمهم ويعلم ما يكون منهم وعنهم، ثم أخرجهم إلى وجود أنفسهم قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وأخذ عليهم ميثاق العبودية له والإذعان منهم بالربوبية، ثم أخرجهم من صلب آدم بعد أن خلقه وأخذ عليهم الميثاق، فعطف أخذ الميثاق منهم حين أوجدهم لأنفسهم في البدء على كونهم موجودين في وجود ربهم.

قالوا وفي قوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ [الحديد:٨] زائدًا على الموجود من علمكم به وعلمكم بأنفسكم، فقررهم مؤاخذة وتذكرًا بالأولية بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِالله﴾ يعرض بما تقدم ذكره، ثم عطف على ذلك قوله: ﴿وَالرَّسُولُ﴾ الآن ﴿يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ المعهود معرفته في فطركم ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ في البدء الأول بذلك ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد:٨] في قولكم يومئذٍ جوابًا لقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقلتم: ﴿بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢] إن كنتم مؤمنين أيضًا بإخباره إياكم عن ذلك وإعلامكم به.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ الله وَلله مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد:١٠].

يقول - عز من قائل: مالكم وترك النفقة في سبيل الله والموت من ورائكم، وإنما أنتم مستخلفون فيما أتيناكم ورثتموه من غيركم وطوارق الحوادث مطيقة بكم يرثكم سواكم كما ورثتم أنتم غيركم حتى يرث الله السماوات والأرض ومن عليها.

يقول ﷻ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾[1] يعني: فتح مكة ﴿وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾ يجزى على قدر عمله ونيته؛ لذلك قال: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد:١٠].

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحديد:١٣ - ١٧].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ﴾ [الحديد:١٦] يأن: يحين، وقرأ أُبَيٌّ: «ألمَّا يأن» وقرأ أبو السمال: «ألم يئن» من آن، وهي لغة، يقال: أنى يأنى وأن يئن؛ بمعنى: حان، وما نزل من الحق - يعني: القرآن - عاتبهم الله بعد إسلامهم قيل: بأربع سنين، والمطلوب منهم هنا هي درجة من وراء الإيمان، وذلك لزوم الخضوع والخشوع والزهد في الفني والرغبة في الباقي، ومواظبة التفكر ولزوم التذكر، وطلب اليقين والاشتغال بالعبادة والبكاء، ومحاذية الحزن وإعطاء الجهد من النفس في ذلك والصدق.

---

(١) قيل: نزلت في أبي بكر ﷺ إذ كان أول من أسلم وهاجر وأنفق ﷺ وكذا من تابعه في السبق في ذلك، ولذلك قال: ﴿أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ وقيل: نزلت بسبب أن ناسًا من الصحابة أنفقوا نفقات جليلة حتى قيل: إن هؤلاء أعظم أجرًا من كل من أنفق. وهذه الجملة تضمنت تباين ما بين المنفقين. وقرأ الجمهور: «من قبل الفتح» وزيد بن علي، قيل: بغير «من». والفتح: مكة، وهو المشهور، وقول قتادة وزيد بن أسلم ومجاهد. وقال أبو سعيد والشعبي: هو فتح الحديبية. تفسير البحر المحيط (١٠/٢٢١).

وكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد**»[1].

وكان بعض الصالحين حين يسأل الله ﷻ يقول: «اللهم إني أسألك همة مساعدة وقوة معينة على طاعتك».

حذر الله - جلَّ ذكره - المؤمنين من سوء ما أصاب أهل الكتاب من كل ما يوجب ميراث التغافل والتربص، ومحادثة السهو واللهو، كالذي عرى ما تقدم حتى استولت على قلوبهم القسوة وغشيتهم ظلم الفتن، فاجترتهم إلى الضلال حتى فسقوا عن أمر ربهم، حتى كذبوا الأنبياء وقتلوهم وقتلوا الآمرين بالقسط من الناس بغير حق.

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ [الحديد:١٧] فكما يحيي الأرض بعد موتها بالماء ينزله من السماء، كذلك يحيي موتى القلوب بالذكر والفكر والعلم بالله وطلب اليقين، ومواظبة استعمال التقوى والحزن، واستشعار الخضوع والخشوع وتصور ما إليه المآل والمصير.

لذلك ختم ﷻ بقوله: ﴿**قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [الحديد:١٧] تنبه وتفطن رحمك الله.

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٣٥٨) وأحمد (١٧١٥٥) وابن حبان (١٩٧٤)، والطبراني (٧١٣٥)، والحاكم (١٨٧٢) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأبو نعيم في الحلية (٦/٧٧)، والنسائي (١٣٠٤).

ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾[الحديد:١٨ - ٢١].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ [الحديد:١٨] قرئ بتشديد الصاد وتخفيفها؛ فالتشديد معناه: الصدقة والنفقة في سبيل الله وفي طاعته، هذا خطاب منتظم بقوله في صدر السورة: ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧] وقرأه أبي: «إن المتصدقين والمتصدقات» والتخفيف معناه: الإيمان والتصديق لله والرسل.

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ الذين ينفقون أموالهم وأنفسهم في سبيل الله ويتصدقون؛ أي: يتغفعلون الصدق ويقرضون الله ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ من أعمالهم وقلوبهم ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ [الحديد:١٨] وعدهم بالتضعيف والأجر الكريم، أقل التضعيف عزة وأعلاه أن يؤتيهم أجرهم بغير حساب، والتضعيف أيضًا بالإضافة إلى مجازاة أهل الكتابين، وذلك أن هذه الأمة تؤتى الأجر مرتين، دل على هذا التأويل في هذا الموضع انتظام الخطاب بذكر أهل الكتاب قبل هذا في قوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلُ...﴾ [الحديد:١٦].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد:١٩] هذا يعطي أن المؤمنين بالله ورسله مؤمنون صديقون شهداء، لكنهم في ذلك على درجات؛ فأفضلهم في ذلك: أتباع الرسل باليقين والعلم والعمل، وهم الذين أوجب الله الإيمان على عباده المؤمنين بوجودهم، وهم الذين يأتون يوم القيامة زمرًا تلو الأنبياء.

قال الله ﷻ: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾ [النساء:١٦٢] أي: وبالمقيمين الصلاة، وهؤلاء هم إخوان الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - الذين حافظوا على عهده وحفظوا وصاياه واتبعوا هديه ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ على أعمالهم ولهم ﴿وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد:١٩] لتصديقهم وإيمانهم.

قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا - أو سبعمائة ألف -**

مع كل ألف سبعون ألفًا - أو سبعمائة ألف - بغير حساب، أول زمرة منهم صورهم على صورة القمر ليلة البدر، ثم على أشد كوكب إضاءة في السماء»[1] جعلنا الله منهم وألحقنا بهم في الدنيا والآخرة في ستر وفي عافية، ثم ذكر الذين كذبوا وكفروا ومآلهم.

قوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ**﴾ [الحديد:٢٠] المعنى إلى آخره، هذه هي الدنيا التي عاقبتها النار وسوء المصير، وما كان منها وفيها إيمان بالله ورسله وطاعة له وطلب لرضوانه، فهي على التحقيق آخرة وعاقبتها الجنة وحسن المآب، فإن الله ﷻ إنما أخرج أبانا آدم ﵇ من الجنة بعد أن خلقه فيها، وكانت تلك أول درجة فيها.

قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى**﴾ [طه:١١٨ - ١١٩] فلما واقع المعصية، أزلهما عنها إخراجًا لهما عنها وحبسهما في هذه، ثم قال له ولعدوه: ﴿**اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة:٣٨ - ٣٩] ووعدهم بأنه من اتبع هداه فإنه لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم يأجره في الدنيا.

يقول الله - جل من قائل: ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى**﴾ [طه:١٢٣ - ١٢٤] ولما أوعد بالمعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره كان مفهوم الطرف الآخر طيب المعيشة، بيّن ذلك في موضع آخر من كتابه العزيز بقوله الحق: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَو أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل:٩٧].

ثم ما قد يصيب المؤمن من بلاء وامتحان؛ فذلك أيضًا لحكمة بالغة منه في ذلك، يكفر عنه بذلك سوء عمله أو يرفعه إلى أرفع من مبلغ عمله، فافهم.

يقول الله - جل من قائل: ﴿**وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ**﴾ لمن أعرض عن ذكره

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٧١٦٥)، والبخاري (٣١٤٩)، ومسلم (٢٨٣٤)، وابن ماجة (٤٣٣٣).

فكذب بآياته ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ﴾ لأهل الإيمان الأول ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ لأهل الإيمان العلي ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠] إنها لا تسر بقدر ما تغر، أيها العبد انتهج محجة اهتدائك، وعالج معالجة دائك، وأفرغ نفسك فهي أكبر أعدائك، إلى متى تستمر على ظنك، وتستمرئ مرعى يعنك، تبارز بمعصيتك، مالك ناصيتك، وتواري عن قريبك، وأنت بمراء رقيبك، أتظن أن ينفعك حالك إذا حان ارتحالك، أو ينقذك مالك حين توبقك أعمالك، طال ما أيقظك الدهر فتناعست، وتجلت لك آيات الوجود بالعبر فتعاميت، وذكرك الموت فتناسيت؛ ذلك لأنك تؤثر فلسًا توعيه على ذكر تعيه، وتختار قصرًا تعليه على بر توليه، وترغب عن هاد تستهديه إلى مال تقتنيه، وتغلب حب ما تشتهيه على ثواب تشتريه، وأنت تأمر بالمعروف وتنتهك حماه، وتحمي على النكير ولا تتحاماه، وتزحزح عن الطلب غيرك وأنت تغشاه، وتخشى الناس والله أحق أنت تخشاه.

اذكر أيها الغافل وشمر أيها المقصر، وإياك أن تطيع أحدًا في معصية الله، وأن ترضي أحدًا بإسخاط الله، وإن من أشد الشدائد على العبد: أن يخرج من الدنيا وهو يحبها، ويدخل في الآخرة وهو يكرهها، ويلقى الله - جلَّ ذكره - وهو يكره لقاءه، قد خلف ماله لمن لا يحمده، وانقلب إلى رب لا يعذره، تيقظ فوالله ما يغني عنك ندمك إذا زلت قدمك، ولا يعطف عليك معشرك إذا ضمك محشرك ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر:١٨].

فصل

للإيمان أول وأعلى ولا آخر له، فالأول منه إليه الدعاية الأولى دعاية الرسل الكفار والمشركين، والأعلى إليه الدعاية الثانية.

يقول الله - جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦] ولم يخاطبهم باسم الإيمان وناداهم به إلا وقد علم منهم الإيمان، لكنه دعاهم إلى أن يصعدوا بهممهم علوًا إلى رفيع درجاته في النظر في الآيات واستشهاد الشواهد في الأرض والسماوات، ويعرف الحق المخلوق به الخليقة وتدبر الكتاب والتيقظ لسر المراد؛

فيبوء التذكر لما سلت عنه النفوس ونسيته من العهود والمواثيق، واستشعار الصدق والأخذ بالوثيقة والحزم والعزم على أخذ الجد ومجانبة أخذ هذا الشأن بالهوينا.

يقول الله - عز من قائل: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرُسُلِهِ﴾ أي: إيمانًا لا ريب يتخلله واقتداء لا مخالفة فيه.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: الإيمان الأعلى والاقتداء الأرفع، ثم جزاء ذلك في الآخرة، فهؤلاء هم الذين أخذوا الكتاب والاقتداء بقوة إيمانًا وتمسكًا به ﴿وَالله ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾[1] [الحديد:٢١].

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٥].

نظم بذلك ﷻ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد:٢٢] أي: من قبل أن نبرأ الأنفس والمصائب؛ يريد أنه كتبها قبل أن يخلق السماوات والأرض ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] يعني: علمه بها قبل التكوين والخلق وكتبها في كتاب، ثم سبقته النفوس والأسباب إلى إخراجها بعد التكميل على مقدار ما سبق علمه بها وكتبه لها.

---

(١) يقول القشيري في تفسيره: وفي ذلك ردٌّ على من يقول: «إن الجنة مُستَحقَّةٌ على الطاعات، ويجب على الله إيصالُ العبدِ إليها» لأن الفضلَ لا يكون واجبًا. ويقال: لمَّا سمعت أسرار المؤمنين هذا الخطاب ابتدرت الأرواحُ مُقْتَضِيةً المسارعة من الجوارح، وصارت الجوارحُ مستجيبةً للمُطالَبةِ، مُستبشرة برعاية حقوق الله؛ لأنها علمت أن هذا الاستدعاء من جانب الحقِّ سبحانه. (٣٩١/٧).

فصل

أول المصائب وأجلّها: خروج أبينا آدم من الجنة، ونسيانه عهد ربه إليه، ثم بآخره جميع المصائب التي تصيب المؤمنين في أولاد وأموال وأنفس ونحو هذا، فعزى الله - جلَّ ذكره - المؤمنين في مصائبهم في أجسامهم وأنفسهم بأن ذلك قد سبق كتبه له وتقديره وما يكون عنده عوضًا منه.

«**وتحاج آدم وموسى عند ربهما، فقال موسى لآدم: أنت الذي أخرجت الناس بخطيئتك من الجنة وأشقيتهم، قال آدم لموسى - عليهما السلام: فيكم وجدت ذلك كتب علي قبل أن أخلق قال بأربعين سنة، قال: أفتلومني على أمر كتب علي قبل أن أخلق بأربعين سنة، قال: فحج آدم موسى، فحج آدم موسى ثلاثًا**»[1].

يقول: وقد تبت إلى ربي وفي ضمن ذلك وإني وإن كنت أولاً بخطيئتي فإني أول بتوبتي، يرفعكم الله بالتوبة إلى رفيع الدرجات، ويرفعكم بحسن أعمالكم إلى رضوانه والقرب منه، فحجه ثلاث، ولذلك كرر رسول الله ﷺ قوله: «**فحج آدم موسى**» ثلاث مرات، وكان موضع نظر آدم إلى المؤمنين من بنيه، وكان نظر موسى إلى الكفار منهم وشقاء من شقي منهم، وإنما يعتق الله بعباده المؤمنين.

لما ذكر - عز جلاله - الدنيا فوصفها بسرعة الانقطاع ووشيك الفناء [انسد علمهم][2] منها إلى الجنة، فوصفها بأن عرضها كعرض السماء والأرض وأمرهم في ذلك بالمسابقة، وغاية المتسابقين إلى غاية يبلغونها، وعند غاية المسابقة توجد الغاية وهو تعريض منه - عز جلاله - بما ينزل عليه الميت حال الموت، وهي الجنة التي هي غيب في هذه السماء والأرض قبل أن تتبدل بغيرها، وهي التي عبر عنها بقوله - جل قوله: ﴿**جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا**﴾ [مريم:٦١] أي: إنهن غيب في ظاهر هذه السماوات والأرض بمغفرة الله ورحمته.

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٧٥٧٨) والبخاري (٣٢٢٨) ومسلم (٢٦٥٢) وأبو داود (٤٧٠١) والترمذي (٢١٣٤) وابن ماجة (٨٠) وابن حبان (٦١٧٩).

(٢) هكذا في (ف) وغير واضحة في (خ).

يقول: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ﴾ [الحديد:٢١] وذكر الفضل هنا؛ إذ كان البرزخ مدة للموت فلما أحياهم وأدخلهم الجنة الوسطى، فذلك فضل منه بالإضافة إلى الجنة الآخرة التي وعدهم إياها حال حياتهم الآخرة.

ثم ذكر التعزية منه لعباده المؤمنين بقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد:٢٢] يقول: فلا تحزنوا على ما فاتكم من مال أو أهل أو نفس فأنتم المؤمنون، وكل ذلك تجدونه عندي إذا توفيتكم.

لذلك أعقب هذا بقوله الحق: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من متاع الدنيا ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٣] في أنفسكم، وإخباركم بجار الخطاب إعلامكم بهذا تعزية لكم؛ لئلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم، فهكذا فليكن التعزي منا لإخواننا، فعزى الله ﷻ المؤمنين في مصائبهم بما به حج آدم موسى، وهي من الكلمات التي تلقاها منه.

نظم بذلك قوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣] يقول - جلَّ ذكره: أعلمتكم بهذا؛ أي: بالدنيا وما هي وما مآلها، وبالعوض منها وأنه خير وأبقى؛ لكي لا تحزنوا على فوت مطلوب ولا فقد محبوب، ولا تفرحوا لوجود ذلك وحصوله؛ إذ هو مما لا يبقى لكم ولا أنتم تبقون له إلا أن توجهوه إلي وتدخروه عندي لكم وتحسبوا ذلك لأجلي، فليقل المصاب هكذا قدر هكذا قضى قبل أن أخلق فيصطبر، وليقل المنعم عليه: هكذا قضى ولا أدري إلى ما مآله، وما الذي أريد بي، وليحمد الله وليشكره، وليبتهل وليخف وليرح، ثم ليلجأ إلى الله ويستغفر أن يقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالْمِيزَانَ...﴾ [الحديد:٢٥] انتظام هذا بقوله ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ [الحديد:٨] إلى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٩] الكتاب: الهدى، والميزان: العدل، وكل ما أتت به الرسل فهو العدل

والهدى؛ ليقوم الناس بالقسط في أنفسهم وفيما أوتوا وما ولوا.

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥] الفلز كله أصله الماء، لذلك قال - عز من قائل: ﴿وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ﴾ أنزله من السماء إلى الأرض، ثم أقام له الأرض مقام الأرحام للنطف، خصَّ ما شاء بمشيته، وقدر التكوين بعلمه، وخلق كل شيء بقدرته.

البأس: القوة وشدة العارضة، لذلك قال - عز من قائل - معرضًا بالقتال والجهاد والمدافعة: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد:٢٥] أي: ليعلمه كائنًا كما علمه قبل الكون أنه سيكون، فيقع الجزاء على الأعمال لا على علمه بهم وفيهم، فافهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾ [الحديد:٢٦ - ٢٩].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٦] هذا منتظم المعنى والمجاورة بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ...﴾ [الأعراف:٣٥].

ثم قال - عز من قائل: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ﴾ [الحديد:٢٧] كل رسول بعثه الله من بعد نوح عليه السلام فهو مقفى، ومحمد - صلوات الله عليه وسلامه - هو أعرق وصفًا في هذا؛ لأنه آخر الرسل،

ولذلك كان اسمًا من أسمائه، وأما عيسى فهو المقفي، قفى الرسل قبله ويقفي محمدًا - صلى الله عليهما وسلم - وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

نظم بذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني، وهو أعلم: في أول التنزيل الذي نزلنا عليهم والشرع الذي شرعناه لهم، لكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله فكتبناها عليهم، وبآخره يتوجه المعنى: كتبناها عليهم ﴿ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ﴾ وهذا مبني على الأول ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ يعني: فما رعاها بعضهم حق رعايتها، ومن هنا كان رسول الله ﷺ ينهى عن التعمق في الدين وطرح وظائف العبادات وعلى الأنفس، وكان يخاف أن يلتزموا ما لم يلزموه فيكتب عليهم، وقد قرئت: «ما كتبتها عليهم ولكن ابتدعوها» وهذا موافق لمعنى ما تقدم ذكره، ثم قال: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ﴾ أي: الذين رعوها ﴿أَجْرَهُمْ﴾ وهو رضوان الله بأحسن ما أتاهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٧].

الفاسق عن أمر الله: الخارج منه، وإذا خرج من هدايته فقد صار إلى الضلال، لذلك سموا: الضالين، كان عيسى - صلوات الله وسلامه عليه - قد أرسله الله - جل ثناؤه - وأنزل عليه الإنجيل مصدقًا لما بين يديه من التوراة إلى بني إسرائيل، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر واتبعه المؤمنون منهم، ويقرءون التوراة والإنجيل ويعملون بما جاءهم به بعد رفعه - صلوات الله وسلامه عليه - إلى أن يظهر ملك بدل التوراة والإنجيل، وشايعه على ذلك روم ويونان، واجتلب الأساقفة من أقطار الأرض وانتدبوا ثلاثمائة أسقف وبضعة عشر أسقفًا، واجتمعوا على تأليف قانون يحملون عليه أهل ممالكهم ففعلوا.

وقتل أتباع عيسى عليه السلام ومزقوا كل ممزق إلا قليل منهم حمتهم الدولة يومئذٍ، فبقي أولئك يقرءون التوراة والإنجيل ويعبدون الله، إلى أن خلفهم بعد ذلك خلف شكوهم إلى ملكهم يومئذٍ، وقالوا: ما سبَّنا أحد بأشد سبًا سبَّنا به هؤلاء؛ لأنهم يقرءون في الكتاب التوراة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] وفي الإنجيل: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، وأولئك هم الفاسقون، وهذا نحن في كتابنا أيضًا ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا

تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ﴾ [المائدة:٤٨].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

وقد تقدم ذكر قراءة الكتب الأول في القرآن لمن تفقده ويسر لفهمه رجع الكلام، قالوا: هذا إلى ما يعيبوننا به ويعدونه علينا في قرآنهم فادعهم، فليقرأوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمنا، فدعاهم ذلك الملك وجمعهم، وعرض عليهم القتل أو يتركوا ما هم عليه من قراءة التوراة والإنجيل إلى ما بدل هؤلاء منهما، فقال المؤمنون: ما تريدون إلى هذا، قالوا: ألا تظهروا بيننا، قالوا: متى ظهرنا لكم فافعلوا بنا مرادكم، فافترقوا على ثلاث فرق:

قالت طائفة: نتخذ في المواضع الخالية منكم بيوتًا تنقطع منكم لا نداخلكم، وابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم، فهم الرهبان.

وقالت طائفة: دعونا نسيح في الأرض نعبد ربنا ونطيع رسولنا، نشرب كما تشرب الوحش حتى يأتينا الموت، فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا.

وقالت طائفة: ابنوا لنا دورًا في الفيافي، ونحتفر الآبار ونحترث البقول، فلا نرد عليكم ولا نمر بكم، وكانوا ليس أحد من القبائل إلا وله حميم فيهم ففعلوا بهم ذلك.

قال: فأنزل الله في أولئك: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ...﴾ [الحديد:٢٧] ثم مات أولئك، فقال الآخرون منهم: نتعبد كما يتعبد فلان وفلان ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ دورًا كما اتخذ فلان، وهم في ذلك على شركهم وكفرهم، لا علم لهم بعلم الذين اقتدوا بهم ولا إيمانهم، فلما بعث رسول الله ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل انحط رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته وصاحب الدير من ديره وآمنوا به وصدقوه، فأنزل الله - جلَّ ذكره - فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بعيسى ﴿اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ يعني: محمدًا ﴿يُؤْتِكُمْ

كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾[1] أي: أجرين أجرًا بإيمانهم بعيسى عليه السلام وتصديقهم بالتوراة والإنجيل، وتصديقهم بمحمد ﷺ ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد:٢٨] القرآن واتباعهم النبي ﷺ.

ثم قال ﷻ: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾ أي: الذين تشبهوا بكم ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِن فَضْلِ الله وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الحديد:٢٩] عكرمة وعبد الله بن أبي سلمة قرأ أحدهما: «ليعلم أهل الكتاب» وقرأ لآخر: «لكي يعلم أهل الكتاب» وقرأ ابن عباس: «لكيلا يعلم أهل الكتاب» وروي عنه: «ليعلم أهل الكتاب» ابن مسعود: «لكي يعلم أهل الكتاب» وروي عن ابن عباس أنه قرأها كذلك، أخذها من قراءة ابن مسعود أبو هارون عن شيبان؛ أي: لا يعلم أهل الكتاب، قرأ الحسن والأعمش: «لَيْلَا يعلم أهل الكتاب» ساكنة الياء مفتوحة اللام غير مهموزة، ابن مسعود: «ألا يقدروا» بغير نون، وقرأ: «ما كتبتها عليهم ولكن ابتدعوها».

فصل

قوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾ [الحديد:٢٩] قد تقدم بذكر اختلاف القراء بها، وانقسم معنى الخطاب لأجل ذلك إلى معنيين:

أحدهما: إرادة إعلام أهل الكتاب، وذلك يتوجه على قراءة من قرأ: «ليعلم».

والثاني: إرادة ألا يعلموا، وعلى هذا الوجه مفهوم: «لئلا» و«لكيلا» فمعنى قوله: «ليعلم أهل الكتاب» أي: المهتدون منهم يوم الجزاء، إذا وردوا ووردتم وآتيتكم أجرين أجرين ولهم أجرًا أجرًا أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، إذا قال لهم الله - جل ثناؤه: «هل بخستكم من

---

(١) قال أبو موسى الأشعري: ضعفين بلسان الحبشة. وقال غير واحد: نصيبين، والمراد إيتاؤهم أجرين كمؤمني أهل الكتاب، كأنه قيل: يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الأجرين؛ لأنكم مثلهم في الإيمان بالرسل المتقدمين، وبخاتمهم صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين، لاتفرقون بين أحد من رسله. وقال الراغب: الكفل: الحظ، الذي فيه الكفاية كأنه تكفل بأمره، والكفلان: هما المرغوب فيهما بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ءاتِنَا فِى الدنيا حَسَنَةً وَفِي الاخرة حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠١] الألوسي (٢٠/٣٤٧).

حقكم شيئًا؟» قالوا: لا، قال: «فذلك فضلي أؤتيه من أشاء».

ومعنى قوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ فإن المراد: ألا يعلموا وهم غبرات أهل الكتاب الذين أدركوا رسول الله فلم يؤمنوا، فيكون بقاؤهم كذلك على غفلتهم حتى يأتيهم أمر الله، وهم الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم.

وفي الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل وكثيرًا يتقدم الآخرون الأولين، ويكون الأولون ساقة الآخرين، ولذلك يشبه ملك السماوات برجل مَليّ خرج في استجارة الأعوان لحفر كرمة في أول النهار، وعامل كل واحد منهم في نهاره على درهم، ثم أدخلهم كرمة، فلما كان في الساعة الثالثة بصر بغيرهم في الرحاب لا شغل لهم، فقال: اذهبوا أنتم أيضًا إلى الكرم وسآمر لكم بحقوقكم، ففعلوا.

ثم فعل مثل ذلك في الساعة السادسة، هذه هي لعيسى عليه السلام ولأصحابه في أول الأمر، والتاسعة هذه لمحمد ﷺ فلما كان في الساعة الإحدى عشرة هذه بينهما في آخر الزمان إن شاء الله وجد غيرهم وقوفًا، فقال لهم: لِمَ وقفتم هاهنا طول نهاركم دون عمل؟ فقالوا له: لأنا لم يستأجرنا أحد، فقال: اذهبوا أنتم وسآمر لكم بحقوقكم، فلما انقضى النهار قال صاحب الكرم لوكيله: ادع الأعوان وأعطهم أجرتهم، وابدأ بالآخرين حتى تنتهي إلى الأولين، فبدأ بالذين أدخلوا في الساعة الإحدى عشرة وأعطى كل واحد منهم درهمًا، وأقبل الأولون وهم يرجون بالزيادة فأعطى كل واحد منهم درهمًا، فاستنكروا ذلك على صاحب الكرم، وقالوا: أسويتنا بالذين لم يعملوا إلا ساعة من النهار في شخوصنا طول نهارنا وعذابنا بحرارته، فأجاب أحدهم وقال له: لست أظلمك يا صديق، أما عاملتني على درهم فخذ حقك وانطلق فإنه يوافقني أن أعطي الآخر كما أعطيتك، أفلا يحل لي ذلك وإن كنت أنت حسودًا، فإني أنا رحيم، ومن أجل ذلك يتقدم الآخرون الأولين، ويكون الأولون ساقه الآخرين فالمدعون كثير والمتحيرون قليل.

فصل

أتت سورة الحديد على طلب الإيمان الأعلى ورفيع الدرجات، فافتتح السورة بالقرآن العظيم وذكر التوحيد العلي، ثم أمر بالإيمان والإنفاق وذكر بالعهد المأخوذ

والميثاق المؤكد، ثم كذلك إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾ [الحديد:١٦] ثم كذلك على ما تقدم إلى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد:٢٨].

وذكر ما انبنى عليه من معنى ما عزى أهل الكتاب، وقال رسول الله ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه**»[(١)] وفي أخرى: «**حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان فيكم**»[(٢)] ولما توفي رسول الله ﷺ ونقصت دولة الخلافة الراشدة تراكمت الفتن بعد واشتد البلاء على المتمسكين بصريح الإيمان وخالص الإسلام، وهدم البيت ورجم بحجارة المنجنيق، وقتل فيه عبد الله بن الزبير، واستبيحت مدينة الرسول ﷺ ثلاثة أيام، وقتل فيها خيار المسلمين وجل صحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم، وكان ذلك على يدي مسلم بن عقبة، كانوا يقولون له: مسرف بن عقبة، وذكر أن عبد الله بن عمر قال له: أنت الذي قتلت ستة آلاف من أهل القبلة تالله لو كانت من غنم أبيك لكان مسرفًا.

وذكر أن الذي حصل ممن قتله الحجاج بن يوسف صبرًا مائة ألف وعشرون ألفًا، وقيل: إن السفاح يلقى الله تعالى يوم القيامة بدماء ثلث أهل عصره، فاشتدت لذلك البلية بالمسلمين ورأوا العزلة واجبة فلزموا الزوايا والمساجد، وابتنوا الرباطات على سواحل البحور وفي أواخر الدروب من جهة العدو، وأخذوا في تصفية أخلاقهم، ولزموا الفقر، أخذوا ذلك من أحوال أهل الصفة في زمان رسول الله ﷺ الذين كانوا يلزمون المسجد على الفقر، كانوا يحتطبون بالنهار ويقرؤون القرآن بالليل، فتفرغ هؤلاء لذلك وتسموا بـ: الصوفية، وهو اسم معدول من الصفة والتصافي، وأخذوا الكتاب بقوة، وجعلوا الفقر شعارًا، والصبر والجوع والخوف والحزن حالاً، وتكلموا على الورع والزهد والصدق وتحقيق التوبة

---

(١) أخرجه الحاكم (٨٤٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١).

والإنابة والصبر والشكر والحمد والرضا والدنيا، وبيان المحمود منها والمذموم، وعلى الفقر والغنى، والإخلاص والرياء، والنفاق والمعرفة، وعلى العلم والمعرفة والتوحيد، وعلى القلوب وطهارتها وأوصافها، والحكمة والخوف والرجاء، والحزن والحب والود، وعلامات أهل ذلك، وعلى الحق والحقيقة وعلى الذكر، والتقوى والتوكل والإرادة واليقين، وحسن الظن والمراقبة والحياء والأنس بالله، والتواضع والكبر، وعلى العقل وترتيب المقامات، وكيف الترقي إليها ولهم في ذلك عبارات ومقاصد وأسماء عرفية يتعارفون بها فيما بينهم.

فهؤلاء في وزان أولئك الذين قال الله - جلَّ ذكره - فيهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ما ابتدعوها ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ﴾ والمبتدع عندهم منها العزلة والأسماء والأوصاف، وليس ذلك بضائر، إنما كتبت عليهم ابتغاء رضوان الله، وابتدعها أولهم ابتغاء رضوان الله، ورعاها كثير منهم حق رعايتها، فهم - والله أعلم - في وزان المقول فيهم: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [الحديد:٢٧] ولكل مقدمة ساقه، ولكل جمع ملاء، والله يؤتي فضله من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فالآخرون هنا هم أوائل هذه الأمة بالإضافة إلى من كان قبلهم يعطي الأولون، كما قال رسول الله ﷺ: «قيراطًا قيراطًا، ويعطى المسلمون قيراطين قيراطين»[١] وهم الذين استعملوا في الساعة التاسعة وهو وقت صلاة العصر، كما قال رسول الله ﷺ في المثل الذي مثله من يعمل إلى وقت العصر إلى الليل على قيراطين قيراطين، فجاء الله بنا وهو ما أنبأ به عيسى عليه السلام درهم، واحترى محمد ﷺ بالإنباء عن المستعملين من صلاة العصر إلى الليل؛ لأنهم أمته، وتفرد عيسى عليه السلام بعده ينبئ عن المستعملين في الساعة الإحدى عشرة، وهم أصحابه وبقايا هذه الأمة - صلى الله عليه ورضي عن جميعهم - وذكر التسوية بينهم في العطاء مع أوليتهم؛ أعني: أوائل هذه الأمة.

وقوله: فتقدم الآخرون؛ يعني: أصحابه، والله أعلم بما أراد رسوله، الأولين؛

---

(١) أخرجه بنحوه الطيالسي (١٨٢٠)، والبخاري (٥٣٢).

أي: من كان قبل هذه الأمة من أهل الكتابين، ويكون الأولون ساقه، وربما كان أصحابه أولئك من هذه الأمة هم المقتضى لهم أولاً، ويجتمع في ذلك هو ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهما - هذا ترتيب الوجود، والله أعلم كيف يكون ترتيب الإنباء، رزقنا الله من فضله ما يبلغنا به إلى فضله العظيم بفضله العظيم إنه هو الرحمن الرحيم ذو الفضل العظيم.

تفسير سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة: ١ - ٤].

قوله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(١) [المجادلة:١] روي: أنها نزلت في خولة

---

(١) بإظهارِ الدالِ وَقُرِئَ بإدغامِهَا في السِّينِ ﴿قَوْلَ التى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ أيْ: تراجعكَ الكلامَ في شأنِهِ وفيمَا صدرَ عنْهُ في حَقِّهَا من الظهارِ وَقُرِئَ تُحاوِرُكَ وَتُحاوِلُكَ أيْ تسائلكَ ﴿وَتَشْتَكِى إِلَى الله﴾ عطفٌ عَلَى تجادلك أيْ تتضرعُ إليهِ تَعالَى وَقيلَ حالٌ منْ فاعله أيْ تجادلكَ وَهيَ مُتضرعةٌ إليهِ تَعالَى وَهِيَ خَولَة بنتُ ثَعْلبَةَ بنِ مالكِ بنِ خُزامةَ الخزرجيةُ، ظاهرَ عنْهَا زوجُهَا أَوْسُ بْنُ الصامتِ أخُو عُبادةَ ثُمَّ ندِمَ عَلَى مَا قالَ فقالَ لَها مَا أظنكَ إلَّا قَدْ حرمتِ عليَّ فشقَّ عَلَيْهَا ذلكَ فاستفتتْ رسولَ الله ﷺ فقالَ حرُمتِ عليهِ، فقالتْ: يا رسولَ الله ما ذكَرَ طَلاقًا فقالَ حرمتِ عليهِ، وَفي روايةٍ: مَا أُراكِ إلا قدْ حرمتِ عليه في المرارِ كُلِّها فقالتْ أشكُو إلى الله فَاقتِي وَوَجْدِي وجعلتْ تراجعُ رسولَ الله ﷺ وَكُلَّما قالَ ﷺ: حرمتِ عليهِ هتفتْ وشكتْ إِلَى الله تَعَالَى فنزلتْ وَفي كلمةِ قَدْ إشعارٌ بأنَّ الرسولَ ﷺ والمجادلةَ كانَا يتوقعانِ أنْ يُنزلَ الله تعالَى حكَم الحادثةِ ويفرجَ عَنْهَا كَرْبَهَا كَمَا يلوحُ بهِ مَا رُوِيَ أنَّه ﷺ قالَ لها عندَ استفتائِها: مَا عندِي في أمركِ شيءٌ وَأنَّها كانتْ ترفعُ رأسَهَا إلى السماءِ وتقولُ: اللهمَّ أني أشكُو إليكَ فأنزلْ عَلَى لسانِ نبيكَ ومَعنَى سَمْعِهِ تَعَالَى لقولِهَا إجابةُ دُعائِها لَا مجردَ علمِهِ تَعَالَى بذلكَ كما هُوَ المَعْنِيُّ بقولِهِ تَعَالَى: ﴿والله يَسْمَعُ =

بنت ثعلبة، كان زوجها أوس بن الصامت وكان من الأنصار، قال لها: أنت علي كظهر أمي، فأتت النبي ﷺ فكلمته في بيته في ذلك، قالت عائشة لما نزل بذلك القرآن: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد كلمت رسول الله في جانب البيت وما أسمع ما تقول حتى نزل بذلك القرآن».

التحاور: التراجع في الكلام، من حار يحور؛ أي: رجع يرجع، والظهار يكون بذوات المحارم كلهن؛ لما سنذكره بعد إن شاء الله، وذلك أن الله ﷻ قال مُبيِّنًا نكير ما قاله المظاهر وزور ما ذكره: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ وقرأها عاصم: «أمهاتُهم» برفع التاء.

﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة:٢] فأعلم - جلَّ ذكره - بصدق قيله: إن نساءنا لا يكن لنا بأمهات لتظاهرنا منهن، وإنما أمهاتنا اللاتي ولدننا والدات مرضعات حاملات، وفي ذلك كله معاني الخلقة، وتماشج أمشاج ونشء عن رضاع، فيجتمع فيها من معاني اسم الرحمن - جلَّ ذكره - الخلقة والنشء والرزق والمصور، فوجب بذلك تحريمهن ألبتة، واسم الرزق والنشء في الرضاع، فوجب أيضًا بالحق الواجب تحريم المراضع، وموجود معنى الخلقة بالأخوات والأمهات والبنات، فوجب بذلك كله تحريم قرابات النسب المداني لمعاني الخلقة والنشء والرزق في مدة الافتقار إلى ذلك الرزق لتوحده بنشء الخلقة.

ولما تظاهر هذا المظاهر من امرأته وجاء من الله - جلَّ ذكره - هذا النكير

= تَحَاوُرَكُما﴾ أيْ: يعلُم تراجعَكُمَا الكلامَ وَصيغةُ المضارع للدلالةِ على استمرار السمعِ حسَبُ استمرارِ التحاورِ وتجددِهِ وَفي نَظْمِها في سلك الخطابِ تغليبًا تشريفٌ لَهَا منْ جهتينِ وَالجملةُ استئنافٌ جارٍ مَجْرَى التعليلِ لِمَا قبلَهُ فإنَّ إلحافَهَا في المسألةِ ومبالغَتَها في التضرعِ إلى الله تَعَالَى ومدافعتَهُ ﷺ إيَّاهَا بجوابٍ منبئٍ عنِ التوقفِ وترقبِ الوحيِ وَعِلمَهُ تَعَالَى بحالهِمَا منْ دَواعي الإجابةِ وَقيلَ هيَ حالٌ وهُوَ بعيدٌ وَقَولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ تعليلٌ لِمَا قبلَهُ بطريق التحقيقِ أيْ مبالغٌ في العلمِ بالمسموعات والمبصَراتِ وَمنْ قضيتِهِ أنْ يسمعَ تحاورَهُمَا ويَرَى ما يقارنُهُ منَ الهيئاتِ التي منْ جُملِتَها رفعُ رأسِهَا إلى السماءِ وسائرُ آثارِ التضرعِ، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في الموقعينِ لتربيةِ المهابةِ وتعليلِ الحكمِ بوصفِ الألوهيةِ وتأكيدِ استقلالِ الجملتينِ. انظر: [تفسير أبي السعود (٦ /٢٨٥)].

عليه؛ لزور قوله وتكذيبه علمنا أنه ما جعل ذلك عليه إلا لحرمة الأم الوالدة، ولم يحرم عليه من والدته النظر ولا الكلام بالمعروف، وإنما حرم الوطء والرفث الجالب للوطء.

فوجب أن يكون معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ [المجادلة:٣]: الوطء وما جر إليه أو كان منه بسبب؛ إذ لا خلاف في أن معنى قوله لامرأته: «أنت علي كظهر أمي»: لا أطؤك، وقد التزمت تحريمك التزامي تحريم أمي، فمعنى العود منه إذن إلى هذا، والعود هو هاهنا بمعنى المسيس؛ إذ وطؤه إياها عود إلى ما كان منه قبل التظاهر، ويمكن أن يكون معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي: لما قالوه قبل من منكر وزور، فيبطلونه أو يكذبون أنفسهم بالعود إلى المسيس، فلا يكون ذلك منهم إلا بعد الكفارة.

قال الله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ [المجادلة:٣] ولم يلحق المرأة بالأم لأجل زور قوله، وإنما وجبت الكفارة لنكير ما جاء به وجناه على نفسه من ذكر احترام هنا، واعتماده عليها في حرمة النكاح لاتصال حرمتها بالحرمة العليا.

يقول الله - جل من قائل: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ﴾ [المجادلة:٤] سبيل الإيمان هنا في معرفة اتصال الحرمة بالحرمة العليا من طريق الأسماء، ولما ظاهر فذكر الظهر من أمه وألحقه الله بالنكير والزور وأوجب عليه الكفارة لاحترامه على مقاربة الحرمة وجب أنه متى ظاهر من امرأته بأمه أو بأخته أو بغيرهما من سائر ذوات المحارم، فذكر رجلها أو بطنها أو جارحة من جوارحها أن يلحق به الظهار؛ إذ جميع جوارح الأم وذوات المحارم حجر محجور من جميع وجوه الاستمتاع على الأبناء وسائر ذوي المحارم.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ﴾ فسبحوه عما قاله المبطلون، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ الله﴾ أي: فالتزموها فيما سبيله للإيمان والائتمار للآمر ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بما أنزلناه من كتاب ومن رسول، والقائلين على الله سبحانه ما قد نزهه عنه بسوق عظمته وبعالي علائه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٤] الكبت: الهلاك، وقيل هو: الغيظ، فعلى هذا تكون التاء مبدلة من دال، والكبت: أيضًا الصرع على الوجه، ويرجع ذلك كله إلى نسج واحد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٨﴾ [المجادلة: ٥ - ٨].

﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [المجادلة:٥] تدل على نزاهته عما نسبه إليه الجاهلون، وتبين على نعوت تعاليه وعظم عظمته يدل أيضًا على رسالة رسولنا إليكم وصحيح ما جاءكم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا...﴾ [المجادلة:٧] هذا منتظم بما جاوزه قبل من قوله - عز من قائل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ [المجادلة:٦] ﴿يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [المجادلة:٧] ﴿أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦] فنظم بمعنى الإحصاء والعلم وصف الحضور والشهود، وهذا كله منتظم المعنى بما قبله من حرمة الأمهات لاتصالها بأسماء من مقتضيات الرحمانية.

ويمكن أيضًا أن يكون انتظام هذا الخطاب بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى﴾ [المجادلة:٧] المعنى إلى آخره بما ذكرته عائشة لما سمعت رسول الله ﷺ يخطب الناس على المنبر، ويقرأ ما أنزل الله عليه، فمن ذلك تعجبت وازدادت إيمانًا إلى إيمانها، ثم قالت: «سبحان الذي وسع الأصوات سمعه لقد كلمت رسول الله ﷺ في جانب البيت ولا أسمع ما تقول له

حتى نزل القرآن بذلك» ويكون إخراج قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعلم على التذكير؛ لأن المخاطب بذلك هو رسول الله ﷺ.

فصل

ولما استوى على العرش وهو الحي القيوم حييت الجملة بمقتضى الاستواء، ولم يبق فيها جزء من أجزائها، وإن بلغ من دقته إلى ما لا ينقسم إلى أقل منه إلا وهو يشاهده علمًا وحفظًا وإحاطة وحضورًا، آية ذلك المخلوق منا يركب فيه الروح فيحيي به جملة الجسم حتى لا يبقى فيها جزء من أجزائها وإن قل إلا أحس به حامله، وإذا كان ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لا يحجب بصره ولا سمعه ولا علمه حجاب ولا يتصور في حقه البعد ولا الحجب فهو الحضور.

وإذا كان ذلك كذلك فقد صحت المعية، لا يغيب عنه غائب ولا يبعد عليه بعيد الحجاب، والبعد والعسر والتعذر كل ذلك ليس في حقه، إنما عسر ذلك على سواه فلا يمنعه عبده ولا يحجبه ملكه، فإذن هي في كل مكان بما هو ومع كل أحد بما هو المكان لا يحويه، والعدد لا يحصره، يقبض المخلوق ويبسطه، لا يصعد المخلوق ولا صفته ولا فعله ولا معنى من معانيه إلى صفة من صفاته، إنما له من المكان المكانة، ومن العلو العلاء، ومن الأسماء والصفات مقتضاها.

ومن تدبر ما قرأه وتفهم ما تعلمه أدرك من تحقيق ما نحن بسبيل تبيانه ما قدر له، ألا ترى إلى الجن أين مكانهم وإن كانوا موصوفين به؟ ثم الملائكة أرفع قدرًا ومكانة، بل أين الروح من جميع الجملة وبه حييت وبه تدبيرها وبه قيامها بإذن الله جاعله ﷻ؟.

قال رسول الله ﷺ في خطبته الكبرى، وهي آخر خطبة خطبها، خرجها الحرث بن أسامة: رقى المنبر وقال: «**يأيها الناس، ادنوا وأوسعوا لمن خلفكم**» ثلاث مرات، فدنا الناس واضطم بعضهم إلى بعض والتفتوا ولم يروا أحدًا، فقال رجل منهم بعد الثالثة: لمن نوسع يا رسول الله، أللملائكة؟ فقال: «**لا، إنهم إذا كانوا معكم لم يكونوا بين أيديكم ولا خلفكم، ولكن عن أيمانكم وعن شمائلكم**»[1]

---

(١) أخرجه الحارث في مسنده (٢٠٤).

وعلى ذلك فليسوا في مكان الأيمان منا والشمائل في المكانة من ذلك، والله ﷻ أعلى وأجل وأنزه مكانة وأكرم استواء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١١﴾ [المجادلة: ٩ - ١١].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي المَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١] قرأها قتادة: «تفاسحوا في المجالس» هذا الأمر عام في مجالس الخير مجالس العلم والجمعة والجماعات والتشاور في الأمر يقع، وكان أولاً في مجلس الرسول ﷺ ﴿انشُزُوا﴾ ارتفعوا، وقرئ: «انشِزوا» لغتان، مثل: يعكُفون ويعكِفون، ويعرُشون ويعرِشون، ويفسُقون ويفسِقون، وكذلك يحسُدون ويحسِدون.

﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] قال ابن مسعود وابن عباس: الذين أوتوا العلم يرفعون على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات، واحتجا معًا بقول الله - جلَّ ذكره: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فلم يبق من وصف الإيمان إلا الإيمان الأعلى، فمن علم منه قوة في الإيمان كان أولى بالتقديم، وإن لم يعلم ذلك لخفائه فالله يعلمه.

لذلك - وهو أعلم - قال: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ [المجادلة: ١١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا

تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المجادلة: ١٢ - ١٧].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾[1] [المجادلة:١٢] نسخها الله ﷻ بالتي بعدها، وكذلك كل نسخ في القرآن إنما يتبعه بناسخه، كإيجابه على إبراهيم ذبح ابنه - عليهما السلام - ثم نسخه عنهما، وكنسخه إيجاب القتال على واحد لعشرة بقوله: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٦].

وهكذا ضمن الله ﷻ النسخ في كتابه العزيز بقوله الحق: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أو مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] فما هي شرط ننسخ جزم بالشرط، وقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أو مِثْلِهَا﴾ جواب الشرط، وتخريج الخطاب على سبيل الشرط يعطي الإتيان بالبدل من المبدل منه بغير مهلة، فافهم فهمنا الله وإياك.

﴿وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المجادلة:١٣] يعني: عطف وعفا وخفف ونحوه.

وقوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة:١٤] هي: الغموس.

﴿ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ

---

(١) قال ابن العربي: يروى أن عليًا بن أبي طالب قال: لما نزلت الآية قال لي رسول الله ﷺ: «تصدق بدينار». قلت: لا أطيقه. قال: «فنصف دينار». قلت لا أطيقه. فقال: «بكم؟» قلت: بشعيرة فنزل قوله تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾. والمراد: وزن شعيرة. وقد دلت الآية على نسخ العبادات قبل فعلها، وعلى القياس في المقدرات. قال مجاهد: وأول من تصدق علي، فإنه تصدق بدينار. ثم ناجى، وقد كان رسول الله ﷺ لا يمنع أحدًا من مناجاته فكان الشيطان يقول: إن محمدًا ناجاه فلان، لأن جموعًا أتت لقتال المدينة فيحزن المسلمين ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وكان المنافقون يقولون: إن محمدًا يسمع من كل أحد يناجيه، فأنزل الله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ ثم أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾.

ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة:١٨ - ٢٢].

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾[(١)] [المجادلة:١٩] يعني: زين لهم سوء أعمالهم حتى غلبهم على أنفسهم، العرب تقول: حذت الإبل؛ أي: استوليت عليها، وبنى على أصله فقيل فيه: استحوذ على وزن: استفعل، كما بنى افتقر من الفقر، ولم يقل فيه فقر.

﴿يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة:٢٠] يعادون الله ورسوله.

﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة:٢١] كتب هنا بمعنى: قضى وحتم، لا يجوز لمؤمن ولا مؤمنة أن يود من حاد الله ورسوله؛ أي: من عادى الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ ثبته في قلوبهم ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أحياهم به وقواهم وأعانهم وشجعهم ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ﴾ [المجادلة:٢٢] أولياؤه.

(١) قال البقلي: إذ رأى الشيطان أن ينبت في سبخة أرض النفس الأمّارة حنظل الشهوة يثبت إليها، ويغريها إلى إنقاذ مرادها، فتكون النفس مركبة، فيهجم على بلد القلب ويخربه، بأن يُدْخل فيه ظلمات الطبيعة وظلمات الشيطان، ولا يرى عن القلب مسلك الذكر وصفاته، فلمّا احتجب عن الذكر صار وطن إبليس وجنوده، غلب الملعون عليه، وهذا يكون بإرادة الله سبحانه، وسببه اشتراء غرور الملعون وتزيينه، بأنْ يلابس أمر الدين بأمر الدنيا، ويغويه من طريق العلم، فإذا لم يعرف دقائقه صار فريسة الشيطان.

تفسير سورة الحشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ [الحشر: ١ - ٦].

قوله ﷻ: ﴿سَبَّحَ لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ...﴾ [الحشر: ١] ذكر التسبيح في أوائل سور بلفظ الماضي، وتارة بلفظ المستقبل إعلام منه بأن كل مسبح سبحه في الماضي فهو على عبادته في المستقبل، وإن كلاً كان له مسبحًا؛ إذ لم يكن شيئًا مذكورًا سوى الله - جلَّ ذكره؛ إذ كانوا موجودين له لا موجودين لأنفسهم، بل في نوره العلي سبحانه وله الحمد وسع كل شيء رحمة وعلمًا، ثم فطرهم على ما قد كان عليهم، وفيه أيضًا إعلام بالواحدنية المحضة؛ إذ كل مسبح له عابد، وكل عابد فهو عبد لمعبوده ﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ ذل كل شيء لعزته وإنقاد كل شيء لأمره ﴿الحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١] أحكم جميع الموجودات على العبادة له وفطرها على معرفته.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ

الحَشْرِ﴾[(١)] [الحشر:٢] يمكن أن يكون معنى ذكر الحشر هنا لأول جيش جمعه رسول الله ﷺ، ويمكن أن يكون أول الحشر إشارة إلى أرض الشام، فإنه نفاهم إلى تيما وأريحا من أرض الشام، أجلى بني النضير وعذبت قريظة بالقتل والسبا.

قال الله ﷻ: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ لما شاقوا الله ورسوله سلط الله عليهم رسوله والمؤمنين؛ لذلك قال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢].

---

(١) ﴿هُوَ الذى أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن ديارهم لأَوَّلِ الحشر﴾ هم بنو النضير، وهم، رهط من اليهود من ذرية هارون، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل انتظارًا منهم لمحمد ﷺ فغدروا بالنبيّ ﷺ بعد أن عاهدوه، وصاروا عليه مع المشركين، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى رضوا بالجلاء. قال الكلبي: كانوا أوّل من أجلي من أهل الذمّة من جزيرة العرب، ثم أجلي آخرهم في زمن عمر بن الخطاب، فكان جلاؤهم أوّل حشر من المدينة ، وآخر حشر إجلاء عمر لهم. وقيل : إن أوّل الحشر إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، وآخر الحشر إخراجهم من خيبر إلى الشام ، وقيل: آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر، وهي الشام. قال عكرمة : من شك أن المحشر يوم القيامة في الشام، فليقرأ هذه الآية، وأن النبيّ ﷺ قال لهم: « اخرجوا » قالوا : إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر» قال ابن العربي: الحشر أوّل وأوسط وآخر، فالأوّل إجلاء بني النضير، والأوسط إجلاء أهل خيبر، والآخر يوم القيامة وقد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المذكورين في الآية هم بنو النضير، ولم يخالف في ذلك إلّا الحسن البصري فقال: هم بنو قريظة، وهو غلط ، فإن بني قريظة ما حشروا، بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه، فحكم عليهم بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم، وتغنم أموالهم ، فقال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة» واللام في ﴿لأوّل الحشر﴾ متعلقة بـ ﴿أخرج﴾ وهي لام التوقيت كقوله: ﴿لِدُلُوكِ الشمس﴾ ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ هذا خطاب للمسلمين، أي: ما ظننتم أيها المسلمون أن بني النضير يخرجون من ديارهم؛ لعزتهم، ومنعتهم، وذلك أنهم كانوا أهل حصون مانعة ، وعقار، ونخيل واسعة، وأهل عدد وعدّة ﴿وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ الله﴾ أي: وظنّ بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، وقوله : ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ خبر مقدّم، و﴿حصونهم﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ﴿أنهم﴾ ويجوز أن يكون ﴿مانعتهم﴾ خبر ﴿أنهم﴾، و﴿حصونهم﴾ فاعل ﴿مانعتهم﴾ ورجح الثاني أبو حيان، والأوّل أولى ﴿فَأَتَاهُم الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ أي: أتاهم أمر الله من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة، وهو أنه سبحانه أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلائهم وكانوا لا يظنون ذلك، وقيل: هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف، قاله ابن جريج، والسديّ، وأبو صالح، فإنّ قتله أضعف شوكتهم. انظر: [فتح القدير (٧ /١٨٢)].

قال رسول الله ﷺ: «**لتسلكن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع**»[١] فلقد كان منها أيتها الأمة أكبر الذي عذب عليه، ومن أجله من كان قبلنا وكان فينا من الجلاء والتعذيب بالأسر والقتل كبير جدًا - نسأل الله لجميع المسلمين عوائد رحمته.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر:٧ - ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر:٩] التبوء: الاقتطاع ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج:٢٦] أي: اقتطاعنا ذلك، وقد يكون التبوء: الاختيار. قال الشاعر:

لها أمرها حتى إذا ما تبوأت لا خفاء فيها مرعى تبواء مضجعا

جاء في الذين تبوأوا الدار من قبل المهاجرين: أن تُبَّعًا الأول كان جوالاً في البلاد يتطلع سير أهلها وأشكالهم، وخرج لذلك في مائة ألف وثلاثين ألف راكب ومائة ألف وعشرين ألف راجل، وكان إذا حلَّ بالبلد خرج إليه أهلها بالهدايا والتحف وبرزوا له، وعظموا شأنه ودانوا له، وكان إذا دخل البلد سأل عن علمائه وحكمائه فاختار منهم عشرة وحملهم مع نفسه، ولما جاء مكة وقد اجتمع عنده من

---

(١) تقدم تخريجه.

العلماء والحكماء أربعمائة رجل، فلما نزل بساحة مكة لم يخرجوا إليه ولا فعلوا معه ما كان يفعله غيرهم، فغضب لذلك ودعا بوزيره فسأله عن ذلك، فأخبره أنهم سدنة هذا البيت وبه يفخرون على غيرهم، وهم عبدة أصنام، فأضمر في نفسه تلك الليلة أن يهينهم ويهدم بيتهم ويقتل رجالهم ويسبي نساءهم.

فأخذه الله - تبارك وتعالى - تلك الليلة بصداع وفيح من أذنيه وعينيه وأنفه ماء يجري منها منتنًا لا يقدر أحد أن يقرب منه، فأمر بإحضار الحكماء، وعرض ذلك عليهم فعمي عليهم شأنه وقالوا: نظرنا في العلل الأرضية، وأما العلل السماوية فلا علم لنا بها.

وجاء منهم حكيم إلى الوزير وقال: أدخلني على الملك حتى أستخبره عن حاله بحضرتك، ولما دخل عليه قال: أصدقني أيها الملك ولا تكتمني شيئًا، هل نويت في هذا البيت شيئًا في نفسك؟ قال: نعم، فأخبره الخبر، قال له: أيها الملك، إن دواءك أن تتوب مما نويته، وتحول نيتك إلى الإحسان إلى البيت وإلى أهله، والإيمان برسول يولد في هذا البلد يهاجر إلى يثرب، قال: فإني قد نويت الخير فيهم، ولم يلبث العالم من عند الملك غير يسير وقد تماثلت حاله وخف شأنه، ثم توجهت صحته حتى تمكنت بقدرة الله فعجبوا لذلك، فآمن الملك والحكيم والوزير وآمن جميع عسكره.

ثم خرج من الغد صحيحًا وهو على ملة إبراهيم ﷺ وأهل عسكره، وكسا الكعبة، وهو أول من كساها، وأحسن إلى أهل مكة وأطعمهم وسقاهم، وأمرهم بحفظ البيت، وأعلى منزلة ذلك الحكيم الناصح له، وأمَّا العلماء الذين كان اختارهم لصحبته فقالوا له: لا نبرح نحن من يثرب ننتظر هذا النبي المهاجر إلى هذه البلدة الذي نطقت الكتب بوصفه والتواريخ بخروجه، يهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

وبقي الوزير معهم وبذل الملك لهم الأموال، وأمر لهم ببناء منازل يسكنوها، وكتب كتابًا عنوانه: من تُبَّع الملك إلى محمد رسول الله، يا محمد يا رسول الله، إني آمنت بك وبما تجيء به من عند ربك، فإن أدركْتُكَ فنعمة من الله، وإن لم أدركك فقد دفعت كتابي هذا إلى من يبلغه إليك، فاشفع لي عند ربك فإنني آمنت بك قبل

مجيئك، ثم دفع ذلك الكتاب إلى الوزير وأمرهم بالمحافظة عليه والتبليغ عنه، فذكر أن ذلك قد كان، وذكر أن دار أبي أيوب الأنصاري مما اختطه تُبّع، وأن أبا أيوب من ولد ذلك العالم الناصح، فالله أعلم أكان ذلك أم لا، وذكر أن رسول الله ﷺ لما عرض عليه الكتاب قال: «**مرحبًا بالأخ الصالح**»[١].

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾ [الحشر:١٨] هذه الآية تأمر بمحاسبة النفوس، وإنما المحاسبة فيما مضى فمن آداب المؤتمِر لها أن يحاسب نفسه بكرة على ما مضى لها في ليلها وفي عشيه على ما مضى لها في نهارها، والأكياس يضيفون إلى ذلك المحاسبة في كل ساعة، وعند كل نفس وطرفة.

﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)**﴾ [الحشر:١١ - ١٨].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿**إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الحشر:١٨] ذكر التقوى في صدر الآية تحذير من المناهي وإهمال النفوس وإمراحها، وفي آخرها توصية بالطاعات والإخلاص له.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٨٦٩)، والبخاري (٣٦٧٤)، ومسلم (١٦٤)، والنسائي في الكبرى (٣١٣).

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر: ١٩- ٢٤].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾(١) [الحشر:٢٠] تذكير ووعظ، وقرأ أبو السماك: «لا يستوي أصحاب النار ولا أصحاب الجنة».

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الحشر:٢١] أخبر ﷻ أن هذا القرآن الذي يأتي بعد هذه الآية لو أنزله على جبل لتصدع من خشيته، ويخشع لعظمة كلام ربه، وذكر أسمائه وصفاته، ونظيره هذه في سورة الرعد، وفي هذا إعلام بأن للجمادات خشوع وخشية وتعظيم يظهر الله ذلك منها لعباده ما شاء لمن شاء، وقد تجلى للجبل فصار دكًّا من جلاله، وهو العظيم المهيب المهول، وهو الرحيم العطوف الودود الحنان المنان.

وفي هذا أيضًا إعلام منه بأنه لا يحمل تجليه ولا كلامه ولا شيئًا من شأنه

---

(١) لعل تقديم أصحاب النار في الذكر؛ للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذي ينبيء عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابليهم، فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانًا وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد، لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص؛ وعليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد:١٦] إلى غير ذلك. ولعل تقديم الفاضل في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ والذين لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] لأن صفته ملكة لصفة المفضول، والأعدام مسبوقة بملكاتها، والمراد بعدم الاستواء: عدم الاستواء في الأحوال الأخروية كما ينبيء عنه التعبير عن الفريقين بصاحبية النار وصاحبية الجنة. تفسير الألوسي (٢٠/٤٤١).

أرض ولا سماء ولا كرسي ولا عرش لولا تأييده لها قصده بأمر من ذلك بأيده ورحمته ورأفته، ألا ترى أنه أنزله على رسوله، ثم على المؤمنين من عباده، فيعطي كلاً منه ما شاء برحمته، وينزل من كلامه ما شاء على من شاء كيف شاء برحمته، ويقسم لهم من فهمه بقدر احتمالهم لذلك، وقد يحجب عنهم نور كتابه بجهلهم، وأما الكافرون والمكذبون فلم يردهم به، فإذن حمل للمؤمنين بالقرآن من آياته وشواهد بيناته؛ إذ لأسمائه خواص، ولكلامه عظمة، لا يحمل ذلك إلا من أيده الله بأيده.

ولقد صعق قوم لأجله وغشي على قوم ومات آخرون؛ وإنما ذلك لزيادة الكشف على الحظ الذي أوتي من التأييد، ألا ترى أن رسول الله ﷺ أعظم الناس حظًّا من القرآن ومعرفة عظمة المتكلم، وأجزلهم نصيبًا من العلم بالأسماء مع مباشرة الإنزال وقصده إياه بالتنزيل عليه، فإذًا ما احتمله إلا لعظيم حظه المقسوم له من التأييد، فاحتمال العباد لعظمة القرآن من أعظم الآيات وأبين الدلالات على إمساكه السماوات والأرض أن تزولا.

قوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر:٢٢] إلى آخر السورة منتظم بقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ﴾ [الحديد:١٧] كما قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨] إلى ما بعدها بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ﴾ [الحديد:١٦] المعنى إلى آخره، وقد تقدم في «**شرح الأسماء**» حسب الاستطاعة فأغنى ذلك عن التكرار.

واعلم أنه أول العلم وأرفعه وأسه الذي انبنى عليه سواه وإليه ينتهي، والطريق إليه هو أن تتعرف أن الأسماء المروية التي هي التسعة والتسعون هي الأمهات، ثم تعتقد أن كل اسم حسن في عرفان العقول وصفه عليًا فهو الأحق بها والأولى، ثم يجب عليك أن تنظر لكل اسم معنى كلمته باستقراء مجاري حروفه في اللغة لتعرف معناه في نفسه معرفة حسنة ثابتة، فإذا أتممت ذلك وجب عليك أن تعرف مسالكها في العالم ومجاريها في موجوداته، لتتعرف بذلك درجة كل اسم في دار القرار في الجنة والنار.

ثم إذا عرفت ذلك فأسرع الكرة ثانية إلى تعرف مسالكها أيضًا في العالم، فإذا فعلت ذلك سهل عليك الوصول بها في قضايا الديانات ومباني الإسلام ومخارجها عنها ومواقعها منها، وكيف هي كلها قواعد الوجودين العالم والوحي، وكيف تخللت معانيها العالم والوحي وشملته شهادة وغيبًا شمول الحياة والغذاء الأجسام، فعلى هذه الطريق فاسلك تصب إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تفسير سورة الممتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [الممتحنة: ١- ٣].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[1] حذر ﷻ

---

(١) نزلت: ﴿ياأيها الذين ءامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء﴾ في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى مشركي قريش يخبرهم بمسير النبيّ ﷺ إليهم. وقوله: ﴿عَدُوّى﴾ هو المفعول الأوّل ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ معطوف عليه، والمفعول الثاني أولياء، وأضاف سبحانه العدوّ إلى نفسه تعظيمًا لجرمهم، والعدوُّ مصدر يطلق على الواحد، والاثنين، والجماعة، والآية تدلّ على النهي عن موالاة الكفار بوجه من الوجوه ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة﴾ أي: توصلون إليهم المودّة على أن الباء زائدة، أو هي سببية، والمعنى: تلقون إليهم أخبار النبيّ ﷺ بسبب المودّة التي بينكم وبينهم. قال الزجاج: تلقون إليهم أخبار النبيّ ﷺ وسرّه بالمودّة التي بينكم وبينهم، والجملة في محل نصب على الحال من ضمير تتخذوا؛ ويجوز أن تكون مستأنفة؛ لقصد الإخبار بما تضمنته، أو لتفسير موالاتهم إياهم، ويجوز أن تكون في محل نصب صفة لأولياء، وجملة ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَاءكُمْ مّنَ الحق﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تلقون، أو من فاعل لا تتخذوا، ويجوز أن تكون مستأنفة؛ لبيان حال الكفار. قرأ الجمهور: «بما جاءكم» بالباء الموحدة. وقرأ الجحدري، وعاصم في رواية عنه: (لما جاءكم) باللام ، أي : لأجل ما جاءكم من الحق على حذف المكفور به ، أي : كفروا بالله والرسول لأجل ما جاءكم من الحق، أو على جعل ما هو سبب للإيمان سببًا للكفر توبيخًا لهم: ﴿يُخْرِجُونَ الرسول وإياكم﴾ الجملة مستأنفة لبيان كفرهم، أو في محل نصب على الحال ، وقوله : ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بالله رَبّكُمْ﴾ تعليل للإخراج، أي: يخرجونكم لأجل إيمانكم، أو كراهة أن تؤمنوا ﴿إِن =

من موالاة أعدائه المشركين والمكذبين والكافرين والمنافقين، وبآخره يلحق بهم الظالمون من الموحدين، نص على ذلك بقوله: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**﴾ [هود:١١٣] وهو خطاب عموم على هذا المعنى سرد السورة من أولها إلى آخرها إلا قليلاً مما هو من هذا بسبب ﴿**وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ**﴾ هو القرآن، والرسول وما جاء به من الهدي ﴿**يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ**﴾ يقول - عز من قائل: يخرجونكم والرسول من أجل إيمانكم بالله وحده، يريد: قريشًا، وكان هذا قبل الفتح في المدة التي مادهم فيها رسول الله ﷺ، والذي نزل هذا الخطاب بسببه هو حاطب بن أبي بلتعة وقصته في هذا مشهورة، يقول: هكذا فافعلوا تبرأوا من موالاة من لا يؤمن بالله والرسول واليوم الآخر ﴿**إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي**﴾ كيف يصح لكم إيمان بالله وموالاة للرسول والمؤمنين وأنتم تلقون إليهم بالمودة ﴿**وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ [الممتحنة:١].

﴿**إِن يَثْقَفُوكُمْ**﴾ يعني: يأسروكم، يظهرون العداوة لكم ويبسطون ﴿**أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم**﴾ لكم ﴿**بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ**﴾ [الممتحنة:٢] فتكونوا مثلهم.

﴿**لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ**﴾ الذين من أجلهم توالونهم وتلقون إليهم بالمودة ﴿**يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ**﴾ [الممتحنة:٣].

﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا**

=

كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وابتغاء مَرْضَاتِي﴾ جواب الشرط محذوف، أي: إن كنتم كذلك ، فلا تلقوا إليهم بالمودّة، أو إن كنتم كذلك، فلا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء، وانتصاب «جهادًا» «وابتغاء» على العلة، أي: إن كنتم خرجتم لأجل الجهاد في سبيلي؛ ولأجل ابتغاء مرضاتي، وجملة : ﴿**تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمودة**﴾ مستأنفة للتقريع والتوبيخ، أي: تسرّون إليهم الأخبار بسبب المودّة، وقيل: هي بدل من قوله: ﴿**تُلْقُونَ**﴾ ثم أخبر سبحانه بأنه لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فقال: ﴿**وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ**﴾ والجملة في محل نصب على الحال، أي: بما أضمرتم وما أظهرتم، والباء في «بما» زائدة، يقال: علمت كذا، وعلمت بكذا، هذا على أن أعلم مضارع، وقيل: هو أفعل تفضيل، أي: أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون ﴿**وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السبيل**﴾ أي : من يفعل ذلك الاتخاذ لعدوّي وعدوّكم أولياء، ويلقي إليهم بالمودّة، فقد أخطأ طريق الحق والصواب، وضلّ عن قصد السبيل. انظر [فتح القدير (٧/٢٠٠)].

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة: ٤- ٩].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ....﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة:٤] يقول: اقتدوا بإبراهيم والذين معه في تبرئهم من الكافرين، إلا في قوله: ﴿لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فإن ذلك إنما كان لأمر صواب كان في حقه.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهتَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ﴾ أي: على هداية الضالين وإرجاع المولين عنه ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة:٧] بعباده، يدخل من يشاء في رحمته، وهذا خطاب تعزية للمؤمنين ووعد لهم أن يأتيهم بأهليهم مسلمين، أنجزهم ذلك في المستقبل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ

فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة: ١٠ - ١٣].

ختم السورة بالمعنى الذي افتتحها به قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ عم في أول السورة وخص اليهود في هذه الآية ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ﴾ أي: المشركون، ومن لا علم له بالآخرة يئسوا من لقاء من مات منهم؛ لأنهم ما آمنوا بأن يجمعهم الله في الدار الآخرة ويهود لما كفروا بعيسى ومحمد - عليهما السلام - على علم منهم وبصيرة يئسوا ﴿مِنَ﴾ خير ﴿الآخِرَةِ﴾ ويمكن أيضًا أن يوجه معنى الخطاب زائدًا إلى ما تقدم ذكره، إلى أن من التي جاءت فيه معناها التبعيض، فيكون لمعنى كما يئس الكفار الأموات الذين هم ﴿أَصْحَابِ القُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣] فإنهم وقفوا على حقيقة العلم ومشاهدة اليأس(١).

---

(١) قال ابن عباس: من خيرها وثوابها، والظاهر أن من في (من أصحاب القبور) لابتداء الغاية، أي لقاء أصحاب القبور. فمن الثانية كالأولى من الآخرة. فالمعنى أنهم لا يلقونهم في دار الدنيا بعد موتهم. وقال ابن عرفة: هم الذين قالوا : ما يهلكنا إلا الدهر، والكفار على هذا كفار مكة، لأنهم إذا مات لهم حميم قالوا: هذا آخر العهد به ، لن يبعث أبدًا ، وهذا تأويل ابن عباس وقتادة والحسن، وقيل: من لبيان الجنس، أي الكفار الذين هم أصحاب القبور، والمأيوس منه محذوف، أي كما يئس الكفار المقبورون من رحمة الله، لأنه إذا كان حيًا لم يقبر، كان يرجى له أن لا ييأس من رحمة الله، إذ هو متوقع إيمانه، وهذا تأويل مجاهد وابن جبير وابن زيد، وقال ابن عطية: وبيان الجنس أظهر، وقد ذكرنا أن الظاهر كون من لابتداء الغاية، إذ لا يحتاج الكلام إلى تقدير محذوف، وقرأ ابن أبي الزناد : كما يئس الكافر على الإفراد. والجمهور: على الجمع. ولما فتح هذه السورة بالنهي عن اتخاذ الكفار أولياء، ختمها بمثل ذلك تأكيدًا لترك موالاتهم وتنفير المسلمين عن توليهم وإلقاء المودّة إليهم. انظر [تفسير البحر المحيط (١٠ /٢٦٥)].

تفسير سورة الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥)﴾ [الصف:١ - ٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ الله﴾ [الصف:٥] قد تقدم ذكر عتوهم وعسر انقيادهم لرسولهم، وسوء مراجعتهم له في سورة البقرة وفي سورة الأعراف وسورة الأحزاب، واستاق هذا الخطاب تحذيرًا للمؤمنين من الوقوع في مثل ذلك مع الرسول ﷺ، وأن التحذير في ذلك لباق والأمر بالتعزيز والتوقير والإعظام والنصر لبركته، وهو القرآن والوحي والحكمة.

قال الله - جل من قائل: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] ثم حذر من فعل النصارى في نبوة عيسى عليه السلام وغلوهم فيه وكفرهم به.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)﴾ [الصف:٦ — ٩].

ثم شملهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله الكَذِبَ﴾ [الصف:٧] وهو

يدعي إلى الإسلام إلى قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[(١)] أي: بما يثبتونه من كذب وإلباس على المسلمين ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ [الصف:٨] هم: أهل الكتابين، وقد قال في سورة التوبة: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣] فعم بالخطابين الكل، فقد أنجز من وعده ما أنجز وباقي الوعد منتظر مستقبل إن شاء الله.

وإنما كثرت الفتن وطال العهد، ولا يكون تمام الوعد إلا في آخر الزمان، والوعد إنما تضمن إظهار الإسلام على دين أهل الكتابين، فقد كان من ذلك ما كان، والمنتظر إتمام الوعد كما تقدم، وأما كفار أطراف الأرض كالحبشة والصقلب ويأجوج ومأجوج فلا دين لهم، فلذلك لم يتناولهم عموم الخطاب، وقد أدخل الله الإسلام أجناسًا كثيرة كالمجوس والترك والديلم، وكثيرًا من الحبشة، وكثيرًا من أهل البلاد النائية والأجناس البعيدة، لكن لم يدخل أولئك في معنى الاستئصال كأهل الكتابين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ (١٠) تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (١١) يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (١٢) وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ

---

(١) تمثيل لحالهم في اجتهادهم في إبطال الحق بحالة من ينفخ الشمس بفيه ليطفئها؛ تهكمًا وسخرية بهم كما تقول الناس: «هو يطفىء عين الشمس». وذهب بعض الأجلة إلى أن المراد بنور الله: دينه تعالى الحق، كما روي عن السدى على سبيل الاستعارة التصريحية، وكذا في قوله سبحانه: ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورَهُ﴾ و«متم» تجريد، وفي قوله تعالى: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ تورية. وعن ابن عباس وابن زيد: يريدون إبطال القرآن وتكذيبه بالقول. وقال ابن بحر: يريدون إبطال حجج الله تعالى بتكذيبهم. وقال الضحاك: يريدون هلاك الرسول ﷺ بالأراجيف. وقيل: يريدون إبطال شأن النبي ﷺ وإخفاء ظهوره بكلامهم وأكاذيبهم، فقد روي عن ابن عباس أن الوحي أبطأ أربعين يومًا فقال كعب بن الأشرف: «يا معشر يهود، أبشروا أطفأ الله تعالى نور محمد فيما كان ينزل عليه، وما كان ليتم نوره» فحزن الرسول ﷺ فنزلت ﴿يُرِيدُونَ...﴾ إلى آخره. تفسير الألوسي (٤٨٦/٢٠).

مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصف:١٠ - ١٤].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف:١٠] المعنى إلى آخره، فذكر الجهاد في سبيله والإنفاق، وأعلم بأن ذلك خير لنا؛ إذ في ذلك عز الدنيا والآخرة وخيرهما.

ثم قال: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ﴾ أي: معجل ومؤجل ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ لكم؛ يعني: الصحابة، وهو ما أصابوه من فتح مع رسول الله ﷺ وبعده والتابعون وتابعوهم، ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:١٣] أي: بفتح يكون لهم في آخر الزمان، كما قال: ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: ما أصابوه قبل، ثم قال: ﴿وَلِتَكُونَ﴾ أي: هذه الغنائم ﴿آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: على مغانم لم تقدروا أنتم عليها، ثم قال: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:٢٠].

هذا وعد مستقبل، وقد كان تحصلت لهم الهداية إلى الصراط المستقيم برسول الله ﷺ وبالقرآن المنزل عليه والوحي علم - تبارك وتعالى - أن الفتن ستكثر والصراط يخفى أثره إلا ما شاء الله من ذلك، فوعدنا بالهداية إلى الصراط المستقيم بعد ذلك إن شاء الله ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣] على ذلك الفتح والهداية إنك عليم قدير.

نظم بذلك قوله - جلَّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[1] [الصف:١٤] وأنصار عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه

---

(١) ندب المؤمنين إلى النصرة ووضع لهم هذا الاسم، وإن كان قد صار عرفًا للأوس والخزرج، وسماهم الله به، وقرأ الأعرج وعيسى وأبو عمرو والحرميان: أنصارًا لله بالتنوين؛ والحسن والجحدري وباقي السبعة: بالإضافة إلى الله، والظاهر أن كما في موضع نصب على إضمار، أي قلنا لكم ذلك كما قال عيسى. وقال مكي: نعت لمصدر محذوف، والتقدير: كونوا كونًا. وقيل: نعت لأنصارًا، أي كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال: (من أنصاري إلى الله). والحواريون اثنا عشر رجلاً، وهم أول من آمن بعيسى، بثهم عيسى في =

عليه - فلم يظهروا بعد، بل قتلوا تحت كل نجم ومزقوا كل ممزق إلا قليل منهم، وقد تقدم ذكرهم في آخر سورة الحديد، فقوله ﷻ: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف:١٤] وعد حق منتظر قد كان منه ما شاءه الله تعالى وتمامه مؤجل إلى وقت، كما قال - عز من قائل: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهذا قد مضى وتقضى، ثم قال: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهذا مستقبل منتظر، ثم قال: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:٥٥] فافهم.

الآفاق، بعث بطرس وبولس إلى رومية، وأندارس ومتى إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس، وبوقاس إلى أرض بابل، وفيليس إلى قرطاجنة وهي إفريقية، ويحنس إلى أقسوس قرية أصحاب الكهف، ويعقوبين إلى بيت المقدس، وابن بليمن إلى أرض الحجاز وتستمر إلى أرض البربر وما حولها، وفي بعض أسمائهم إشكال من جهة الضبط، فليلتمس ذلك من مظانه. انظر [تفسير البحر المحيط (١٠ /٢٧٠)].

تفسير سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة:١ - ١١].

قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢] عربيًا أميًا، الكتاب المتلو: هو القرآن، والحكمة: السنة ومفهوم القرآن.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة:٣] يريد: من الأميين، كالفرس والحبشة والترك والديلم والبربر وغيرهم من الأجناس، وهم المعنيون بقوله الحق يخاطب العرب: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد:٣٨] فقد تولوا في ولاية بني أمية وظلموا واستأثروا، فأدال الله من أولئك بني العباس وتحيدوا الفرس والترك والديلم، واستبدلوا من العرب، ثم لم يكونوا أمثال أولئك، فإن تلك على علاتها كانت دولة عربية، ولقرب العهد تأثير وبقية نور، والله المستعان.

ثم يتناول الخطاب استبدال آخرين في آخر الزمان، ثم لا يكونوا أمثال هؤلاء وهؤلاء، أشار إلى فضل هذه الإدالة وصحاتها بقوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

نظم بذلك قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[1] [الجمعة:٥] وقرأ عبد الله: «كمثل حمار يحمل أسفارًا» بغير ألف ولام، لما ذكر الأميين، وأنه حباهم من فضله برسوله المرسل إليهم منهم، وأنه هداهم به إليه الصراط المستقيم، نظم بذلك ذكر أهل الكتاب ونبذهم إياه بالتبديل والتغيير وترك النصيحة لله - جلَّ ذكره - فيه لمن آمن بالله ورسله وإلباسهم الحق بالباطل وكذبهم عليه.

فصل

ضرب الله لقراء السوء مثلاً بالحمير هنا وبالكلاب في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٧٥] إلى قوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَو تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٦] ووصف أحوالهم بأقبح وصف وسيرهم بشر سيرة وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ فهذا إيمانه وشهادته بالقول ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤] كقوله متى عوتب: ليس إلي من الأمر شيء، لو شاء الله هداني، ونحو هذا.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥] وجعل من علاماته: إنه متى عوتب في شأنه ووعظ بالله أو آمن بتقوى الله أخذته العزة بالإثم؛ أي: عاقب الوعاظ بأشد عقوبة لعزته، وعبر عن إنفاذ مراده في ذلك بالإثم.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ﴾ [البقرة:٢٠٦] كما

---

(١) هي جمع: سفر، وهو الكتاب الكبير؛ لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ. قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبل؟ فهكذا اليهود. وقال الجرجاني: هو يعني: حملوا من الحمالة؛ بمعنى: الكفالة؛ أي : ضمنوا أحكام التوراة، وقوله: ﴿يَحْمِلُ﴾ في محلّ نصب على الحال، أو صفة للحمار؛ إذ ليس المراد به حمارًا معينًا، فهو في حكم النكرة. فتح القدير (٧/٢٢٠).

قال فيهم أيضًا: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني: أمر المسلمين ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد:٢٢ - ٢٣].

تفسير سورة المنافقين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦)﴾ [المنافقون:١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ المُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾ هؤلاء وافقوا الحق بظاهر قولهم، ولما لم تكن الشهادة عن علم ونية أكذبهم الله - جلَّ ذكره - وذمهم، فلم يحمد قولهم بقوله: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون:١] أي: على أنفسهم أنهم يشهدون برسالتك، ففقه هذا أن قول الحق من شرطه أن يتصل ظاهره بصحة باطنه وسره بعلانيته، فمتى خالف ذلك فهو كذب، كذلك الأحكام والعبادات وإن وافقت في إخراجها الحق إذا لم تكن على مقتضى السنة فهي كذب.

قال الله ﷻ في حد الزنا: ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ [النور:١٣] ومن الممكن أن يشاهد الشاهدان شهادة حق ويرتاب الآخران، ويشهد الثلاثة ويرتاب الرابع في تعيين صورة المشهود عليه لتقديره، ولما لم تتم الشهادة على حدودها أكذبهم الله ﷻ.

تبيان

أما الله - جلَّ ذكره - فعنده الغيب ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣].

ومن شأنه في فعال كرمه وجميل ستره الرحمة بعباده، فحد هذا الحد على ما هو عليه من التعذير وبعده على المشاهدة، وأنزل كلامه هذا - جل كلامه وتعالى علاؤه وشأنه - في قصة ظاهرة بره، فوسع كلامه العلي الحكم والصدق من جميع جهاته، فالذين جاءوا بالإفك في شأن عائشة لم يأتوا على ما قالوه بأربعة شهداء، فهم الكاذبون عند الله - جلَّ ذكره - وعند المؤمنين، وأما في قصة لم يكشف الغيب ما كشفه في هذه، وشهد شهود عدل على حد الشهادة في ذلك، فالحاكم صادق عند الله - جلَّ ذكره - وعند المؤمنين من حيث عمل بما أمروا، والشهداء عند الله على علم الله ﷻ فيهم من برهم أو كذبهم.

قوله ﷻ في المنافقين: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾[١] [المنافقون:٤] يقال للعيدان الضخمة: خشب، لما أن قطعت من منابتها فارقها روح النبات فهو موات لذلك في منزلتها من الحياة، ولما كان المنافقون قد عدموا روح الحياة كانوا لذلك أمواتًا، فشبههم بالخشب المسندة إلى حائط أو غير ذلك؛ لكون المنافقين قيامًا وقعودًا وعلى غير ذلك من أحوالهم، ولخاصة في حكم هذا التشبيه بحالهم في قيامهم قد عدموا روح الحياة لا توكل عندهم ولا إيمان بالله - جلَّ ذكره، وبوقايته لأهل الإيمان فهم لذلك يحسبون كل صيحة عليهم.

---

(١) مستأنفة لتقرير ما تقدّم من أن أجسامهم تعجب الرائي وتروق الناظر، ويجوز أن تكون في محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، شبّهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله ﷺ مستندين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط التي لا تفهم ولا تعلم، وهم كذلك لخلوّهم عن الفهم النافع، والعلم الذي ينتفع به صاحبه، قال الزجاج: وصفهم بتمام الصور، ثم اعلم إنهم في ترك الفهم والاستبصار بمنزلة الخشب. قرأ الجمهور: «خشب» بضمتين، وقرأ أبو عمرو، والكسائي، وقنبل بإسكان الشين، وبها قرأ البراء بن عازب، واختارها أبو عبيد؛ لأن واحدتها خشبة كبدنة وبدن، واختار القراءة الأولى أبو حاتم. وقرأ سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب بفتحتين، ومعنى ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾: أنها أسندت إلى غيرها، من قولهم: أسندت كذا إلى كذا، والتشديد للتكثير. [فتح القدير (٢٢٦/٧)].

السيف: الخشب، والمخشوب: الذي لم يحكم عليه، ويقال: قدح مخشوب: إذا نحت بعد العمل، وجبهة خشبًا: يابسة، ورجل خشب ومخشوشب: إذا كان عاري العظام من اللحم، فيكون على ذلك أخشب؛ أي: غليظًا، وأخشبا مكة: جبلاها؛ لغلظهما، بالإضافة إلى جملة ما هي مكة عليه من كونها واديًا، فالمنافقون على هذا أموات غير أحياء؛ لعدمهم روح الإيمان كما عدمت الخشب روح النبات لأجل مفارقتها بالقطع منابتها.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)﴾ [المنافقون: ٧ - ١١].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾[1] [المنافقون: ٩] إلى آخر السورة هذا وعظ من الله - جلَّ ذكره - للمؤمنين أن يشغلوا قلوبهم وأنفسهم بأموالهم وأولادهم وأهليهم عن ذكر الله وحسن عبادته، بل الواجب أن يفرغوا أنفسهم وقلوبهم لله تعالى، ويتوكلوا في أنفسهم وبنيهم وأموالهم على الله، وأن يعزلوا أنفسهم له عن العمل لهم إلا ما كان من ذلك عبادة لربهم، وإلا فقد خسروا أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

---

(١) قال البقلي: بيان أن من لم يبلغ درجة التمكين في المعرفة، لا يجوز له الدخول في الدنيا من الأهل والمال، فإنها شواغل قلوب الذاكرين عن ذكر الله، ومَن كان مستقيمًا في المعرفة وقرب المذكور فذكره قائمٌ بذكر الله إياه، وذلك حظّه بأن جعله محفوظًا من الخطرات المذمومة، والشاغلات المحجبة، والضعفاء لا يخرجون من بحر هموم الدنيا، فإذا باشرت قلوبهم الحظوظ والشهوات لا يكون ذكرهم صافيًا عن كدوريات الخطرات.

ثم قال: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ يعني: أنفق مما رزقتني ﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون:١٠] أي: أشغل نفسي بعبادتك والعمل لك، والنظر ليوم لقائك، كما يقول الآخر: يا ليتني قدمت ليوم حياتي.

ابن عباس قال: «من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو يجب عليه فيه زكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت» فقال رجل: اتق الله يا ابن عباس، إنما سأل الرجعة الكفار، قال: «سأتلو عليك بذلك قرآنًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾ [المنافقون:٩] إلى قوله: ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:١١].

وذكر ابن عباس ﷺ الإنفاق ووعظ فيه؛ إذ ذلك يومئذٍ يقرب الخوف عليه من التضييع، وسكت ﷺ عن الاشتغال بالمال والولد والأهلين عن العبادة، لأن العبادة يومئذٍ كانت شائعة، والاشتغال بالله - جلَّ ذكره - دون من سواه معهود في ذلك الزمان.

تفسير سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)﴾ [التغابن: ١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ معهود الملك أن يكون في مملكته الولي والعدو، والموالف والمخالف، والطائع والعاصي، والملك ينتقم ويثيب ويعاقب، ويقدم ويؤخر، ويرفع ويضع، ويولي ويعزل، ويعطي ويمنع، ويقرب ويبعد، ويغفر ويعذب، لذلك خلق خلقه مؤمنًا وكافرًا وجعلهم أطوارًا.

قال رسول الله ﷺ: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ثم جاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم**»[1].

نظم بذلك قوله: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢].

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِ﴾ قد تقدم الكلام فيه حسب الطاقة ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[2] صورة على صورة الحق، كذلك صور باطنه على أحسن تقويم لما فطره على الإسلام عرض بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ

---

(١) أخرجه أحمد (٨٠٦٨)، ومسلم (٢٧٤٩)، وعبد الرزاق عن معمر في الجامع (٢٠٢٧١) والبيهقي في شعب الإيمان (٧١٠٢).

(٢) أي: خلقكم في أحسن صورة. قال الزجاج: خلقكم أحسن الحيوان كله. قرأ الجمهور: (صوركم) بضم الصاد، وقرأ الأعمش، وأبو رزين بكسرها. قال الجوهري: والصور بكسر الصاد لغة في الصور بضمها. انظر [فتح القدير (٦ /٣٣٣)].

﴿الْمَصِيرُ﴾ [التغابن:٣] إلى الوعد والوعيد، فمصير من ثبت على فطرته إلى الجنة والرضوان، ومصير من خالف هداية فطرته إلى أسفل السافلين.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التغابن:٥] ينتظم هذا بذكر الكافرين من خلقه في صدر السورة، غير أن ذلك من حكم العدل الأول، وهذا حكم السنة وهو العد الثاني، وبه يقع الجزاء وعليه يتوجه الوعيد.

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ [التغابن: ٧ - ١٣].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ من هنا أتوا لم يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر ولا بالرسل والكتب، وربما آمن من آمن منهم ببعض وكفر ببعض أجابهم الله ﷻ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن:٧].

نظم بذلك قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ هو: القرآن والحكمة والهدي ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن:٨] فيه؛ أعني قوله: هذا وعيد وتهديد، وفيه أيضًا رجاء كما قال: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء:٣٩].

أتبع ذلك نظمًا به قوله الحق: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾[1] [التغابن:٩] كلام منتظم بعضه ببعض متسق، غبن المؤمنون الكافرين: اعتاض بعضهم منازل بعض في الجنة والنار، وغبن ما هنالك عظيم، وخسارة ما هنالك خسارة شنعاء، لما شرى المؤمنون الآخرة بالدنيا والمغفرة بالعذاب، وشرى الكافرون الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، نسأل الله معافاته ومغفرته.

نظم بذلك ما يعزي به المؤمن في مصابه في الدنيا والأهل والولد، والمفهوم من ذلك: أن يوطن العبد نفسه في الدنيا على ذلك، وعلى ذلك فلن يصيبه إلا ما كتب عليه؛ ليعوضه مما عنده ويدخر له ما هو الأفضل الباقي.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِالله يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١] يقول هذا على النفوس عسير المسلك، لكنه ميسر على من آمن بالله وتوكل عليه، وقراءة الأعمش: «**يهدي** قلبه» بياء ثابتة في الوصل، والوقف بغير ياء، قراءة طلحة بن مصرف: «**نهدي** قلبه» بنون، الضحاك: «يهدى قلبه» على مفعول ما لم يسمَّ فاعله، وروي عنه: «يُهدِ قلبَه» بضم الياء وكسر الدال ونصب الباء من **قلبه**، عمرو بن دينار: «**نهدأ قلبُه**» بالهمز ورفع الباء من **قلبه** من الهدوء والسكون والهداية، وإذا سكن القلب لذكر الله واطمأن رضي بالعوض، فليكن عنوان ذلك أن يخرج على لسانه كلمة التفويض: ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦].

---

(١) الغبن كل الغبن ألا يعرف مكان خطابه والطاقة التي ظهرت له في الدنيا والآخرة بلباس القهريات ومكان الامتحان، وربما زاده الحق في أوحش مقام وهو مشغول الرسم، ولم يعرف شرف حاله، فكان مشغولاً عنه برسم الاعتذار والعبودية، فيا رُبَّ صفاء في الكدورة، ويا رُبَّ مكاشفة في المعصية، اكتم يا أخي غيب الحق بستر غيره حتى لا يكون السر ظاهرًا لأهل الرسوم، فيسقطون من إيمانهم، يقع الغبن يوم التغابن لمن كان مشغولاً بالجزاء والعطاء ورؤية الأعواض ورؤية المعصية والطاعة، ومن كان شاهد الحق خرج من وصف الغبن؛ إذ الغبن من أوصاف من كان غائبًا عن مشاهدته، فإذا استغرق في بحار جماله وجلاله لا يبقى عليه فرح الغبن، ولا حزن الفوت، إذ الكل غابن له، وسقط عند ذكر ما مضى وما يستقبل، ولي لسان آخر في التوحيد أن الكل يقع في الغبن، إذا عاينوا الحق بوصفه وهم وجدوه أعظم وأجل مما وجدوا منه في مكاشفتهم في الدنيا، فيكونون مبهوتين متحيرين مغبونين؛ حيث لم يعرفوه حق معرفته، ولم يعبدوه حق عبادته، ولا يعرفون أبدًا حقيقة المعرفة، وأي غبن أعظم من هذا؛ إذ يرونه ولا يصلون إلى وجوده بالحقيقة.

وقد تقدم تفسيرها في سورة البقرة، لا بد من الرجوع إلى الله ﷻ كما لا بد لنا من الموت، وكما لا بد لنا من الحياة بعد الموت، وكما خلقنا من الأرض ثم يعيدنا إليها، كذلك لما كان أول الوجود عنه وبه ومنه فلا بد من العود إليه والإرجاع إليه، لذلك قال بعضهم:

ألا أننا كلنا بأيد ... فأي بني آدم خالد

بدؤهم كان من عنده ... وكل إلى ربه عائد

فيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

فكنا أولاً في علمه وقدرته ومشيئته موجودين له لا موجودين لأنفسنا، ولما أوجدنا وأظهرنا لأنفسنا كنا بأنفسنا له ملكًا وعبيدًا، وبذلك كان علمه بنا في حيث لم نكن، وكان هو لنا بما كنا له ثم نحن إليه راجعون، نسأل الله البر الرحيم أن يجعلنا ممن أسعده بلقائه وأكرمه بإرجاعه إليه في يسر وفي عافية.

نظم بذلك قوله تعالى: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن:١٣] انتظم هذا بذكر الطمأنينة عند المصيبة والرضى بالقضاء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ [التغابن: ١٤ - ١٨].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ...﴾ [التغابن:١٤].

سئل ابن عباس عن هذه الآية قال: «هؤلاء قوم أسلموا من أهل مكة وأرادوا

أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى عليهم أزواجهم وأولادهم ذلك، فلما أتوا رسول الله ﷺ وجدوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [التغابن: ١٤] إلى آخر السورة».

وفيه التحذير من أن يتشاغل العباد بأموالهم وأولادهم عن الله - جلَّ ذكره - والتوصية بأن يتقوا الله حسب الاستطاعة، وأن يسمعوا لله ولرسوله، ويطيعوا وينفقوا مما رزقهم الله، ويحذرهم الشح والبخل فيه، والوعد بالتضعيف على الأعمال والإنفاق.

﴿وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [التغابن: ١٧ - ١٨] فهو خطاب عام وأمر شامل في التحذر من الأزواج والأموال والأولاد أن يشغلوا عن الله.

تفسير سورة الطلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)﴾ [الطلاق: ١ - ٣].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[1] قرأ ابن عباس:

---

(١) فيها مسائل: المسألة الأولى: طلق رسول الله ﷺ حفصة، فلما أتت أهلها، نزلت الآية. وقيل له: راجعها، فإنها صوامة. وهي من أزواجك في الجنة، والخطاب لرسول الله ﷺ، وأتى بلفظ الجمع تعظيمًا وتشريفًا. وقيل: الخطاب له. والمراد أمته، والمعنى يا أيها النبي قل لأمتك، إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن، والمراد النساء المدخول لهن إذ لا عدة على غير المدخول بها، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ وقيل: لعدتهن أي في عدتهن، لأن اللام تأتي بمعنى في، قال تعالى: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾. أي في حياتي. المسألة الثانية: قال مالك والشافعي: المعتبر زمان الطهر لأن الأقراء الأطهار. وقال أبو حنيفة: المعتبر زمان الحيض، لأن الأقراء: الحيض وفي الحديث: «فطلقوهن لقبل عدتهن». وقد طلب عبد الله بن عمر زوجته في الحيض فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فتغيظ، ثم قال: «مرة فليراجعلها، ثم يمسك حتى تطهر ثم تحيض ثم تطر، فإن بدا له أن يطلقلها، فليطلقها طاهرًا، قبل أن يمسها». فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء. المسألة الثالثة: الطلاق سني وبدعي. أما السني، فقال علماؤنا: هو ما اجتمعت فيه سبعة شروط، وهي أن يطلقها واحدة، طاهرًا، وهي ممن تحيض، ولم يمسها، في ذلك الطهر، ولا تقدمه طلاق في حيض، ولا تبعه طلاق، في طهر يتلوه وخلا عن العوض، وهذه الشروط مستقرأة من حديث ابن عمر. وقال الشافعي: طلاق السنة، أن =

يطلقها في كل طهر خاصة. ولو طلقها ثلاثًا في طهر لم يكن بدعيًا، وقال أبو حنيفة: طلاق السنة: أن يطلقها في كل قرء طلقة، وقوله ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي احفظوها والإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾. والأمر بالإحصاء خاص بالأزواج، وقيل: خاص بالزوجات، وقيل: للمسلمين. **فائدة:** أسباب العدة أربعة: الطلاق، والفسخ، والوفاة، وانتقال المالك، فالوفاة والطلاق مذكوران في القرآن، والفسخ محمول على الطلاق، والاستبراء مذكور في السنة وسمي الاستبراء عدة، لأنه يقع في مدة ذات عدد، وفروع ذلك مذكورة في كتب الفروع، وقوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾. جعل الله للمطلقة السكنى فرضًا لازمًا، وحقًا واجبًا، وفيه حق الله تعالى لا يجوز إمساكه عنها، ولا يجوز لها إسقاطه عن الزوج، وقوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾. المراد إضافتهن إلى البيوت، بمعنى الإسكان، فإن الزوج لا يجوز له إخراج المطلقة في زمن عدتها من بيت سكناها، ولا يجوز لها أن تخرج منه. **تنبيه:** ذكر الله تعالى الإخراج، والخروج، ومنع من ذلك، لكن جاء في مسلم عن جابر أن خالته أذن لها رسول الله ﷺ بجذاذ نخلها، وفي الصحيحين أن فاطمة بنت قيس طلقها زوجها بآخر الثلاث، فقال لها رسول الله ﷺ: «لا نفقة لك، ولا سكنى» وفي مسلم: «أن فاطمة قال لرسول الله ﷺ: إني أخلف أن يقتحم علي، فقال لها: اخرجي» وفي البخاري: «إن عائشة قالت كانت فاطمة في مكان وحش فخيف عليها». وفي الصحيح: «إن عمر قال في حديث فاطمة بنت قيس لا ندع كتاب ربنا ولا سنة نبينا. لقول امرأة لا ندري أحفظت أم نسيت؟» وقد أنكره عمر متمسكًا بالقرآن، فإنه تعالى يقول: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾. وهو عموم في كل مطلقة، وقد ردته عائشة بعلة التوحش، ورأت أن الخروج لعذر يجوز، وفي الصحيح: «إن فاطمة قالت: بيني وبينكم كتاب الله. قال تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. فأي أمر يحدث بعد الثلاث، فبينت أن التحريم ليس في الإخراج والخروج. إنما في الرجعة. قال القاضي أبو بكر: ظهر من هذا أن لزوم البيت للمعتدة شرع لازم، وأن الخروج لأجل حاجة المعاش وخوف عورة المسكن جائز بالسنة. **تفريع:** أما الخروج للتوحش والإذاية وطلب المعاش، فيكون انتقالاً محضًا، وأما الخروج للتصرف في الحاجات، فيكون نهارًا لا ليلاً، إذ لا سبيل لها إلى المبيت عن منزلها، وإنما بالأسحار، وترجع قبل نزول فحمه الليل، قال مالك: ولا تخرج دائمًا، وإنما تخرج إن احتاجت إلى الخروج، وإنما تخرج في العدة كما تخرج في النكاح، لكن النكاح يتوقف الخروج فيه على إذن الزوج، والعدة يتوقف الخروج فيها على إذن الله تعالى، وإذنه إنما هو بسبب الحاجة. **المسألة الرابعة:** قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾. الفاحشة، هنا الزنا، وقيل: إنها كل معصية، واختاره الطبري. وقال ابن عمر: هي الخروج من المنزل. وقوله: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. قال المفسرون: الأمر هنا: الرغبة في الرجعة، ودلت الآية على طلاق الواحدة. وعلى النهي عن الثلاث، لأن فيه إضرارًا على المطلق إذ لا يجد سبيلاً إلى الرجعة.

«لقبل عدتهن» وقرأ ابن عمر ومجاهد: «في قبل عدتهن» وروي ذلك عن ابن عباس، وروى ابن عمر القراءتين عن النبي ﷺ جميعًا، وقرأ ابن مسعود: «لقبل طهرهن».

أتبع ذلك قوله – جلَّ ذكره: ﴿وَأَحْصُوا العِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ﴾ هذا خطاب متوجه إلى الأولياء والحكام ألَّا ينكحن في العدة ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق:١] وقرأ أبي: «إلا أن يفحشن عليكم».

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ﴾ أمر – جلَّ ذكره – المستشهدين بتخير العدول في الإشهاد، وأمر الشهداء بإقامة الشهادة لله ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢ – ٣] خطاب شامل وأمر عام، فليرج ذلك من ربه كل مؤمن.

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الطلاق: ٤ – ٦].

وكذلك قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤] ويهيئ له من أمره رشدًا.

أتبع ذلك قوله – جل من قائل: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أي: الذي أنبأتكم به من الأمر بالتقوى والوعد عليه باليسر والرشد والفرج وحسن المخرج من صعاب الأمور، أمر الله أنزله إليكم واليسر في الأمور وكفاية صعابها والرزق بغير حساب، ولا تجشم مؤنة من أمر الله – جلَّ ذكره – في الجنة أنزله إلينا في هذه الدار لأهل التقوى والعمل الصالح.

﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق:٥].

قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق:٦] قرأ الحسن وأبو حيوة: «من وجدكم» بفتح الواو، وبالكسر قرأها الفياض بن عروان ويعقوب في رواية روح عنه.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:٧- ١٢].

أرجع الكلام إلى الخطاب في أحكام النساء والطلاق والتوصية بهن إلى قوله: ﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧] فقد فتح الله عليهم وكانوا في ضيقة وفقر، ثم فتح عليهم جزيرة العرب ومعادنها وخيراتها، وحتى فتح عليهم فارس والروم.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق:٨] أخذ في الوعظ إلى قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق:١٠] هو: القرآن والوحي.

﴿رَسُولاً﴾ ويجوز أن يكون نصبه بإضمار فعل تقديره وأرسلنا إليكم رسولاً، ويجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿ذِكْرًا﴾ فيكون الرسول بما أنزله الله عليه من القرآن والحكمة ذكرًا يؤيد هذا التأويل.

قوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ يعني: ظلمات الجهل والشرك والغفلة ﴿إِلَى النُّورِ﴾ نور الذكر والتوبة

ومزيد الإيمان بعد الإيمان والعمل على ذلك، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق:١١] هذا - والله أعلم - هو الإيمان الأول، والذي تقدم ذكره هو الإيمان المجدد بالتفكر والذكر والنظر.

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] وقرأ عصمة عن أبي بكر عن عاصم: «مثلُهن» برفع اللام، هذه آية المعرفة، يعلم عباده سبيل النظر والاستدلال؛ ليتوصلوا إلى معرفة بارئهم، فإنه من خلق سماء واحدة فهو لا شك قادر على أن يخلق أخرى، ومن خلق سبع سماوات فهو قادر على أن يخلق مثلهن، وكذلك من الأرضين، ومن خلق السماوات السبع والأرضين السبع فأمره يتنزل بينهن، وما كان هكذا فلا يجوز في ذلك شرك لشريك ولا نصيب لدعي، تعالى الله عن ذلك.

ومن كان هكذا فهو القادر بلا امتراء على أن يبدلهن بغيرهن، وإذا فعل ذلك فهي الآخرة، فهو رب الدنيا والآخرة، وأمره الآن يتنزل من السماوات السبع والأرضين السبع بما هن دنيا وبما هن أخرى، وكذلك فيما فوق ذلك وفيما أسفل من ذلك و﴿اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق:١٢].

آية ذلك: قيامها على ما هي عليه وقيامها على ذلك لا يكون منها ولا بذواتها، ولا بد لهن من مقيم قائم قيوم يقيمهن، وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ أي: بخلقه هذه الجملة أنه قادر على أمثالها من التضعيف فيما صغر وتناهى ﴿وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ طريق هذا يؤخذ من قوله: ﴿يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء، كذلك ليس بخفي عليه ما هو كائن كما قد علم ما هو الآن من تنزل الأمر بينهن قبل أن يكون، ثم أوجده ودبره على ما سبق به علمه كذلك يعلم ما لا يكون أبدًا ولم لا يكون، وكيف كان يكون لو كان وما هو بعلمه يقدر عليه إن شاء فهو العليم القدير.

تفسير سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)﴾ [التحريم: ١ - ٥].

قوله ﷻ: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ...﴾** [التحريم:١] ذكر ذلك كان حرم على نفسه شربة عسل كانت زوجه زينب - رضي الله عنها - تسقيه في قصة فيها طول، وقال:«**لا أشربها أبدًا**»[1] وقيل: إن ذلك المحرم على نفسه ألا يضاجع جاريته مارية في بيت بعض نسائه لأمر حدث بينهن، وكان قد أسر إلى عائشة حديثًا فأطلعت عليه حفصة، فأنزل الله هذه الآيات في ذلك.

وجاء عن أنس: «**أن نبي الله ﷺ كانت له أمة يطأها فلم تزل به حفصة وعائشة حتى حرمها على نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾** [التحريم:١]»[2] والمراد منها: أن العبد إذا حلف على حلال ليحرمه فالمخرج له من ذلك كفارة يمين بالله.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٦٧).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٨٢٤).

ثم أتبع التحريم بقوله: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾[1] [التحريم:٥] إلى قوله: ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ [التحريم:٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾﴾ [التحريم:٦– ٨].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦] وعظ الله عباده ليقوموا له أنفسهم وأهليهم.

نظم بذلك جزاء الكفار قوله - عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم:٧] إنما يتصور مطابقة الجزاء بالنار أو بالجنة للعمل في الدنيا يتصور ما قد تقدم ذكره من خلق الله - جل ثناؤه - الدنيا نبذة من الآخرة جنتها ونارها وسعيرها وزمهريرها، ولما ضيعوا النظر لم يفقهوا عن الله في مصنوعاته موجودات الآخرة ولا معرفة الله ﷻ، وصمموا في رد الكتب

---

(١) الخطاب لجميع زوجاته ﷺ أمهات المؤمنين على سبيل الالتفات، وخوطبن لأنهن في مهبط الوحي وساحة العز والحضور، ويرشد إلى هذا ما أخرج البخاري عن أنس قال: قال عمر: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ فنزلت هذه الآية، وليس فيها أنه ﷺ لم يطلق حفصة، وأن في النساء خيرًا منهن مع أن المذهب على ما قيل؛ إنه ليس على وجه الأرض خير منهن؛ لأن تعلق طلاق الكل لا ينافي تطليق واحدة، والمعلق بما لم يقع لا يجب وقوعه، وجوز أن يكون الخطاب للجميع على التغليب، وأصل الخطاب لاثنتين منهن؛ وهما المخاطبتان أولاً بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا...﴾ [التحريم: ٤] إلخ، فكأنه قيل: عسى ربه إن طلقكما وغيركما أن يبدله خيرًا منكما ومن غيركما من الأزواج، والظاهر أن عدم دلالة الآية على أنه ﷺ لم يطلق حفصة، وأن في النساء خيرًا من أزواجه ﷺ على حاله؛ لأن التعليق على طلاق الاثنتين ولم يقع، فلا يجب وقوع المعلق ولا ينافي تطليق واحدة. تفسير الألوسي (٩٩/٢١).

وفي تكذيب الرسل، ولم يتذكروا بها ولا صدقوا بآياته في الوجودين الوحي والعالم أدخلهم جهنم يوم القيامة ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة:٢٠].

ولما آمن المؤمنون بالله ﷻ وبالوجودين الوحي والعالم وصدقوا الرسل والكتب أدخلهم في اليوم الآخر الجنة، وقيل لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤] ثم أعلم أن لكل عمل من الطاعات فيما هنالك جزاؤه المطابق له، وكذلك أعمال توجب النار وما فيها.

كذلك نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨] يعني: مزيد الإيمان الذي تقدم ذكره في تفسير قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ﴾ [الحديد:١٦] ومن لم يطالب نفسه في كل يوم بالتوبة النصوح والتطهر ويفتشها ويحاسبها ويتطلب المعرفة ويسأل ربه المزيد من الإيمان واليقين والعلم، وإلا خلفت ذلك الغفلة والنسيان وطال الأمد في ذلك فتحققت القسوة، وربما أضن إلى النكوص ثم التزيين، نسأل الله المعافاة والتوبة النصوح الخالصة.

قيل: إن ذلك مأخوذ من النصاح، وهو الحائط؛ أي: توبة مفردة لا يتعلق بها سواها، كالحائط المفرد من كل شيء سواه، وربما كان مأخوذًا من النصيحة، وذلك بأن ينصح لله ولرسوله وللمؤمنين ولنفسه ولأهله ولإمامه ولعامة المسلمين وخاصتهم، ولا يبلغ حقيقة التوبة حتى يكون هكذا ويحل هذا المحل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ

﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ٩ – ١٢].

نظم بذلك قوله: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾ [التحريم: ١٠] كانت امرأة نوح عليه السلام كافرة، وامرأة لوط كانت منافقة، فكان لها نظر إلى الكفرة ونظر إلى لوط عليه السلام وأهل بيته.

قال الله – عز من قائل: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥] هم: لوط عليه السلام وبناته ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦] هو: لوط وبناته وزوجه، فلما أخرج أهل البيت وأمرهم الله ألَّا يلتفت أحد منهم، فالتفتت المرأة فمسخت لذلك تمثالاً مالحًا، قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣] فلم ينفع المؤمنان الكريمان على ربهما امرأتيهما ولا أغنيا عنهما من الله شيئًا.

أتبع ذلك ما هو منتظم المعنى به قوله ﷻ: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١] هذه مؤمنة كانت تحت كافر لم يضرها زوجها بكفره ولا انتفع بإيمانها ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

ثم قال: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ﴾ هذه في مقابلة امرأة لوط عليه السلام ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعني: مريم هذه صديقة، رفعت في درجات الزلف وعلت إلى الإيمان العلي، يقول الله – جل ثناؤه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢] فذاك كفر نفاق وما هو أكبر منه، وهذا إيمان ثم إيمان في إيمان وطهارة وعبادة، فعوفيت واستخلصت، وأتم عليها رب العالمين النعمة.

تفسير سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)﴾ [الملك: ١ - ١١].

قوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] [الملك: ١]

---

(١) قال المصنف: تبارك: أي: لم يزل الله بأسمائه الحسنى والصفات العلا، واستحال عليه ضد ذلك، ثم أوجد كل شيء، وكان هذا أيضًا في بابه بمنزلة تكرم وتعالي وتمجد وتعزز وتقدس، وربما أتى بيان معنى هذا البناء، أعني التفعل في الأسماء كالمتكبر والمتعالي والمتعاظم، ونحو ذلك في باب مفرد إن شاء الله، وهو المستعان. وتبارك الله تفاعل البركة والخير والفضل في إظهار الأسماء الحسنى وإعلان الصفات العلا، ومقتضيات ذلك من الوجود أجمع كان جَلَّ ذِكْرُهُ أحدًا في كونه النزيه العَلِيّ، ثم جاد بجوده الكريم فقدر المقادير ثم خلق الخلائق وقضى القضايا، فكان في ذلك أن أوجد العرش العظيم والكرسي الكريم والملائكة المكرمين والأنبياء والمرسلين والأولياء والصادقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وأوجد لذلك الإيمان والإسلام والعلم واليقين وأعمال الطاعات كلها، وأوجد كل موجود كريم، وكل مرئي شهي، وكل مبصر حسن بهيج، وبالقول بالإجمال، فإن الموجود كله بفضل جوده وبعَلِيّ مشيئته ومقتضى أسمائه وصفاته، فكان الوجود بركة منه =

المعهود أنه - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - لا يتبارك إلا عند ذكر أمر معجب من خلق أو أمر كقوله وقد ذكر خلقه الإنسان وتقليبه إياه في طبقات الخلقة طبقًا عن طبق إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤] وذلك لبعد ما بين كونه مثبوتًا في خزائن السماوات والأرض، فجمعه بالرياح اللواقح من أجواء الهواء، ثم أنزله في الماء إلى الأرض؛ فأخرج به أنواع المغذيات، فخلق عن ذلك المني، ثم أقره قراره، ثم نقله بعد تقليبًا خلقًا من بعد خلق في ظلمات ثلاث إلى أن بلغ به حدِّ النفخ في الروح أجمل التعجيب كله في قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون:١٤].

فنبّه بذلك على بعد كونه مقلبًا في تلك الأحوال إلى أن بلغه نهايته، فجعله سميعًا بصيرًا ذا صفات وأسماء إلى أن جعله خصيمًا مبينًا يجادل في الله وفي آياته أو عبدًا كريمًا عليه وليًّا له، يدعوه فيجيبه ويسأله فيعطيه، ينزل ببركته الماء من السماء ويرفع من أجله عن أهل الأرض البلاء، ثم يرفعه إلى ما تبارك من أجله، كقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

فأين حاله نطفة من كونه رسولاً من عند رب العالمين إلى كافة الناس في مختلف الأزمان وتناوب الأعصار ﴿شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إلى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥ - ٤٦] نورًا مبينًا ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٦].

ثم أعلى ذكره الخبير به المخبر عنه الدال عليه، فكلم العقول على لسان الحق، وأنهى إليه الشهادات عنه بعبارات الحكمة وقول الصدق، عبر عن ذلك بقوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أو أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦١ - ٦٢].

قوله تعالى: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ﴾ [الملك:١] الملك: ظاهر العالم، وهو

=

عنه، لذلك لا تكون بركة إلا عن شيء موجود سابق أول له، فافهم. [١/٢٦٨].

المشاهد منه، ثم الملكوت: هو باطنه، وهو فعل الملائكة، فالملك هو المصنوع، والملك المالك هو الصانع، والصنعة فعل الملائكة في تدبير الأمر بإذن الصانع الملك الحق وبجميع مواد الخلقة وتنفيذ مراد الصانع - جلَّ ذكره - ولإخفائه الصنعة في المصنوع، سمى المخفي: ملكوتًا، فافهم.

ثم الملك الأعظم هو ما يؤله إليه بعد تقويض البناء وتبديل الأرض والسماء، ويومئذٍ يكون ذلك الظاهر المشاهد الباقي على الدوام، فقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة:١٠٧] و﴿بِيَدِهِ المُلْكُ﴾ [الملك:١] إشارة إلى هذين الظاهرين الأول والآخر، فالأول منهما هو المعبر عنه بالمقدور الحاضر، والآخر هو المقدور الغائب، منه يكرم أولياءه ويظهر المعجزات على أيدي أنبيائه، ومنه يفتح من رحمته، وعنه تفيح جهنم بقدرته، فإذًا اسم «الملك» يقع على الظاهر المشاهد ويقع على الباطن منه الذي عبر عنه بقوله: ﴿يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النمل:٢٥].

لذلك أعقب هذا الخطاب بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١] نظم بذلك قوله الحق – عز جلاله: ﴿الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ خلق الحياة لعباده ليكلفهم ابتلاء فيعملون أو يتركون، وخلق الموت ليرجعهم إليه فيجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ثم ختم بقوله: ﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ الذي لا تلحقه آفات الحدث ولا نقائص البشر، وليس له في ملكه من شريك ولا في تدبيره من وزير ﴿الغَفُورُ﴾ [الملك:٢] لذنوب من ابتلاه بالأمر والنهي فاستجاب له، يغفر للمؤمنين وقد يمهل الكافرين.

نظم بذلك قوله – جل من قائل: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك:٣] هذا من وصف الملك، والسماوات الطباق هي: الأفلاك، والله أعلم العلي منهن طبق لما في ضمنها منهن من حيث ما نظرت فهن كذلك، والتفاوت: عدم الإتقان والخروج عن الإحكام وحسن الاتساق، بل المشاهد منها خلق معجب وتدبير مبرم وأمر محكم، وترتيب يعجز الوصف ويربى على نهاية النعت لعجب ما أظهر فيهن من غرائب الصنعة ولطائف كائنات الحكمة.

فانظر بعقل وتدبر قلب فإنك ترى ما يبهر العقل ويحير اللب من جري كل

فلك فيها على ترتيب مطرد ونظام غير منخرم مقدارًا من الجري بقسط مقسط من غير انبثاث في الطلب مسرع ولا فتور وإن تخلف عن المراد الذي جعلت له، وإلى شمس تجري في مشارقها ومغاربها إلى مستقر لها، وأمر ينبعث بانبعاثها في مطالعها ومغاربها، نعم دنيا وآخرة دلالة وشهادة، وإلى قمر يسري في منازل بروج مقسمة في محال للأمر مقسطة، وإلى نجوم تزهر في مطالع ومغارب في طرقاتها المقدرة بتقدير العزيز العليم، كل ذلك يسبح في فلك يجمع أمرها وكل واحد منها متوحد بأمره المجعول له، كل ذلك يلوح تحت أديم ظاهر كالغمام جامع لما دونه من الأحكام.

ثم قال – عز من قائل: ﴿**فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ**﴾[١] [الملك:٣] أي: من شقوق أو انخرام.

ثم قال – عز من قائل: ﴿**ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ**﴾ أي: إلى ما دلت عليه من أمثالها السماوات العلا ﴿**يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾ [الملك:٤] ليس لبصر العين هنا مجال؛ إذ ليست السماوات العلا مدركة للأبصار، فهي حسيرة عن إدراكها لبعد شأوها، فانظر بلبك وتوهم بوهمك إلى سماوات مبينة مسموكة، وبحار دونهن مكفوفة على هواء لطيف لا يتعدى طورها، ولا تتخطى إلى غير حدودها، ولا تبسط في الهواء الذي يليها، ولا ترسب فيه فتهوى، ولا ترتفع عن محلها المحدود لها فتعلو، قد أحاط بها الأمر ولزمها القهر جري بحارها في وجوه السماوات كجري بحار الأرض على ظهرها.

قد أوحى في كل سماء أمرها، وزين سماء الدنيا منهن بالنجوم وحرسها بالرجوم أعاجيب توقظ من السنة ودلائل تهدي من الحيرة، ثم العبرة إلى ما إليه تؤول، والأمر الذي من أجله تزول الكرة الثانية، فأسرع الكرة بالبصيرة ثانية بصدق من إيمانك ونور يقينك إلى بنائهن مقوضًا بعدما مارت بإذن ممسكها مورًا، وعادت

---

(١) يقال: فطره فانفطر أي شقه فانشق والمعنى من شقوق وصدوع لامتناع خرقها والتئامها قاله القاشاني، ولو كان لها فروج لفاتت المنافع التى رتبت لها النجوم المفرقة في طبقاتها أو بعضها أو كمالها كما في المناسبات فإذا لم ير في السماء فطور وهى مخلوقة فالخالق اشد امتناعًا من خواص الجسمانيات.

بقدرة خالقها كالدهان وردة، وبدلت كلها جنانًا، فيراها المتقون من عرضة القيامة عيانًا.

وكان رسول الله ﷺ يقول في صلاته إذا استوى قائمًا من الركوع: «**ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما بينهما**» هذا موجود الدنيا على حالهن اليوم، ثم يقول: «**وملء ما شئت من شيء بعد هذا**»[1] موجودهن يومئذٍ، وعند هذه العبرة والتي قبلها ﴿**يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾ [الملك:٤].

نظم بذلك قوله: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ**﴾ [الملك:٥] ذكر الرجوم والحراسة من الشياطين وما أعد لهم من عذاب السعير، آيات ذلك كله فيها تدركه الأبصار من السماوات الدنيا.

﴿**وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ**﴾ خالق ذلك كله وجاعله كفروا بآياته الدالة على الآخرة جنتها وجحيمها ﴿**عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ**﴾ [الملك:٦ – ٧] هكذا آياته فيما يبدو للأبصار في السماوات الدنيا فتطلب ذلك، ولا ترض لنفسك في اقتباس العلم بوزن المخسر.

نظم بذلك قوله – عز من قائل: ﴿**كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ**﴾ [الملك:٨ – ٩] إنباء منه ﷻ كيف حالهم فيما هنالك.

﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَو نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك:١٠] هنا محذوف دل عليه المذكور، وهو لما ذكروا ما ردوه على رسلهم وتكذيبهم إياهم، كأن الخزنة قالت لهم: ألم تشاهدوا المثلات التي خلت بالقرون التي كذبت رسلها وكفرت بربها؟ ألم تسمعوا عنها؟ ألم تقرءوا كتب ربكم إليكم؟ ألم تأتكم رسلكم بالبينات بذلك كله؟ فقالوا: ﴿**لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ**﴾ أي: نصائح ربنا ورسله وكتبه ﴿**أَو نَعْقِلُ**﴾ ما أراد الله بإهلاك المكذبين وإنجاء المصدقين المؤمنين وشهادة الشواهد

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٥٢) وعبد الرزاق (٢٥٦٧) وابن أبي شيبة (٢٣٩٩) وأحمد (٧٢٩) ومسلم (٧٧١) وأبو داود (٧٦٠) والترمذي (٣٤٢١) والنسائي (٨٩٧) وابن خزيمة (٤٦٢) والطحاوي (١/١٩٩) وابن حبان (١٧٧٤) والدارقطني (١) والبيهقي (٢١٧٢).

من الآيات وإعلام البينات ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠].

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠)﴾ [الملك:١٢ – ٢٠].

قوله ﷻ: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾ [الملك:١٦] معناه: أأمنتم رب السماء خالقها أن يخسف بكم أرضه، ينزل عليكم من السماء الرزق وينبته لكم من الأرض، وهو خلقكم وأنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة وتعبدون غيره وتشكرون سواه، مثال قوله: أأمنتم من في السماء، مثل قوله: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف:٨٤] هذا كله تقريع للكفار المذكورين في قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [الملك:٦] تواعدهم ثم جعل يسرد عليهم ذكر آياته.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ إذا مد الطائر جناحيه في الهواء، قيل: قد صف جناحيه لم يقبضها، يقول ﷻ وقوله الحق: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك:١٩] ممسك السماوات والأرض وكل شيء بإمساكٍ متعاور[1] وإبقاء متوالي بعد إبقاء ما شاء ذلك.

---

(١) أي: متدوال.

ثم نظم بذلك قوله: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك:٢٠] يقول - عز من قائل: من ينصركم من الله إن أراد بكم سوءًا.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك:٢١ – ٣٠].

ثم قال يخاطب رسوله والمؤمنين، ويعرض بتقريع الخطاب إياهم: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢] مشي الكافر اليوم في حال ضلاله عن الصراط المستقيم كحال المكب على وجهه لا يرى ما حوله ولا يشعر لما أحاط به، ولا ينظر في آيات السماوات والأرض، لا يعتبر بآية ولا يستدل بها، فمشيه اليوم على وجهه باطن؛ فإذا كان يوم القيامة حشر ماشيًا على وجهه، وسحب في النار على وجهه جزاءً لرضاه بحاله تلك في الحياة الدنيا، فأظهر له بذلك ما أبطن عنه اليوم، والمؤمن مشيه اليوم قائمًا يرى الآيات ويعبر بها إلى ما جعلت آيات عليها يمشي على الصراط المستقيم، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، ثم إلى آخر السورة جدل وتقرير على شواهد آيات وتحقيق بينات.

تفسير سورة «ن والقلم»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القلم: ١ - ٩].

قوله ﷻ: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾(١) [القلم: ١] يمكن أن يكون من الحروف

---

(١) ﴿ن﴾: حرف من حروف المعجم، نحو ص وق، وهو غير معرب كبعض الحروف التي جاءت مع غيرها مهملة من العوامل والحكم على موضعها بالإعراب تخرص، وما يروى عن ابن عباس ومجاهد: أنه اسم الحوت الأعظم الذي عليه الأرضون السبع. وعن ابن عباس أيضًا والحسن وقتادة والضحاك: أنه اسم الدواة. وعن معاوية بن قرة: يرفعه أنه لوح من نور. وعن ابن عباس أيضًا: أنه آخر حرف من حروف الرحمن. وعن جعفر الصادق: أنه نهر من أنهار الجنة، لعله لا يصح شيء من ذلك. وقال أبو نصر عبد الرحيم القشيري في تفسيره: ن حرف من حروف المعجم، فلو كان كلمة تامة أعرب كما أعرب القلم، فهو إذن حرف هجاء كما في سائر مفاتيح السور. ومن قال إنه اسم الدواة أو الحوت وزعم أنه مقسم به كالقلم، فإن كان علمًا فينبغي أن يجر، فإن كان مؤنثًا منع الصرف، أو مذكرًا صرف، وإن كان جنسًا أعرب، ونون وليس فيه شيء من ذلك فضعف القول به. وقال ابن عطية: إذا كان اسمًا للدواة، فإما أن يكون لغة لبعض العرب، أو لفظة أعجمية عربت، فمن جعله البهموت، جعل القلم هو الذي خلقه الله وأمره بكتب الكائنات، وجعل الضمير في «يسطرون» للملائكة، ومن قال: هو اسم، جعله القلم المتعارف بأيدي الناس؛ نص على ذلك ابن عباس وجعل الضمير في «يسطرون» للناس، فجاء القسم على هذا المجموع أمر الكتاب الذي هو قوام للعلوم وأمور الدنيا والآخرة، فإن القلم أخو اللسان ونعمة من الله عامة. وقرأ الجمهور: ﴿ن﴾ بسكون النون وإدغامها في واو «والقلم» بغنة وقوم بغير غنة، وأظهرها حمزة وأبو عمرو وابن كثير وقالون وحفص. وقرأ ابن عباس وابن أبي إسحاق والحسن وأبو السمال: بكسر النون لالتقاء الساكنين؛ وسعيد بن جبير وعيسى: بخلاف عنه بفتحها، فاحتمل أن تكون حركة إعراب، وهو اسم للسورة أقسم به وحذف حرف الجر، فانتصب ومنع الصرف للعلمية والتأنيث، ويكون «والقلم» معطوفًا عليه، واحتمل أن يكون لالتقاء الساكنين، وأوثر =

التي تكون في أوائل السور، فيكون سبيلها في النظر سبيل أمثالها، وتكون معبرة عن موجودات ما حواها الكتاب المبين، وهو الأظهر، والله أعلم، ويمكن أن يكون المراد بها: النون الذي تحت الأرضين السبعة.

قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الجنة يأكلونه ويأكل من زيادة كبده سبعون ألفًا**»(١).

ويحتمل أيضًا أن يكون من الحروف المحيطة، وكيفما كان فهو محيط، فكأنه أقسم بنون سفلاً وبالقلم علوًّا أو بالقلم والمراد الأقلام كلها.

قال رسول الله ﷺ: «**فظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام**»(٢).

ثم قال - عز من قائل: ﴿**وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ [القلم:١] يعني: الملائكة.

﴿**مَا أَنْتَ**﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿**بِنِعْمَةِ رَبِّكَ**﴾ أي: بالنبوة والرسالة ﴿**بِمَجْنُونٍ**﴾ [القلم:٢].

﴿**وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ**﴾ [القلم:٣] غير مقطوع.

﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم:٤] يعني: خلق القرآن.

﴿**فَسَتُبْصِرُ**﴾ أي: في العاقبة ﴿**وَيُبْصِرُونَ**﴾ [القلم:٥] تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿**وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ**﴾ [القلم:٩] أي: لو تلاين وتتجاوز في الأمر، الإدهان: ملاينة وانجرار بالباطل وإغماض عن الحق، فيغطى على الحق بذلك الباطل مع معرفة تكون في المداهنين بذلك.

=

الفتح تخفيفًا كأين، وما يحتمل أن تكون موصولة ومصدرية، والضمير في «يسطرون» عائد على الكتاب لدلالة القلم عليهم، فإما أن يراد بهم الحفظة، وإما أن يراد كل كاتب. وقال الزمخشري: ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه، فيكون الضمير في «يسطرون» لهم، كأنه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم أو وتسطيرهم. فيكون كقوله: (كظلمات في بحر لجي) أي: وكذي ظلمات، ولهذا عاد عليه الضمير في قوله: (يغشاه موج) وجواب القسم: (ما أنت بنعمة ربك بمجنون). ويظهر أن (بنعمة ربك) قسم اعترض به بين المحكوم عليه والحكم على سبيل التوكيد والتشديد والمبالغة في انتفاء الوصف الذميم عنه ﷺ انظر [تفسير البحر المحيط (١٠ /٣١١)].

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٧٢٣).

(٢) تقدم تخريجه.

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) ﴾ [القلم: ١٠- ١٨].

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم:١٠] إلى قوله: ﴿عُتُلٍّ﴾ [القلم:١٣] العتل: الشديد العارضة القليل التأني في الخير، والمشار إليه بقوله ذلك، الأوصاف التي تقدم ذكرها ﴿زَنِيمٍ﴾ [القلم:١٣] اللاصق بالقوم، مأخوذ من زنمتي الشاة.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [القلم:١٤] يدعي في القوم بأنه منهم فيشرف فيهم وليس منه، وعلى قراءة من خفف الهمزة يقول: «ان كان ذا مال وبنين» يكون هكذا.

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم:١٥ - ١٦] نسود منه الوجه ونجعل عليه سيماء أهل جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - وربما حولت صورته إلى غير صور بني آدم، وأن قوله: «نسمه على الخرطوم» وليس الخرطوم على التحقيق من وصف الإنسان، وإنما هو للخنزير والفيل ونحو هذا - والله أعلم - وربما عجل له ذلك في الدنيا وربما أخر عنه إلى دار البرزخ فيعذب في صورة ما مسخ فيه، نعوذ بالله من عذابه وعقوبته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ﴾ [القلم:١٧] مثل ضربه، وقلَّما يضرب الله ﷻ مثلاً إلا على حديث قد كان ابتلى أهل مكة بمحمد - صلوات الله وسلامه عليه - يقول: ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ﴾ [القلم:١٧] قيل: كانت هذه الجنة وأربابها من شأنهم متى جدوها أن يتصدقوا منها على المسكين واليتيم وابن السبيل، فلما ورثها أبناؤهم ومن صارت إليه منهم تواصوا فيما بينهم إذا هم جدوها يجدونها على حين غفلة من الناس وتعاقدوا على ذلك ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم:١٨] أي: بمشيئة المالك لهم ولجنتهم.

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤)

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ۝٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ۝٢٩﴾ [القلم:١٩– ٢٩].

فلما هم الإصباح بانصداع تنادوا: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ [القلم:٢٢] الصرام: الجِداد.

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ [القلم:٢٣] الخفوت: الهمود، يقول: يخفون سيرهم ومرادهم، ويقول: بعضهم لبعض عزمًا منهم على ما نووه وقسمًا.

﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ [القلم:٢٤] قراءة الجماعة: «ألا يدخلنها اليوم» وقراءة ابن أبي عبلة: «لا يدخلها» بغير أن.

يقول - جل وعلا: ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ﴾ الحرد: شدة الغضب مع العزم على الأمر واللجاج فيه بزعامة، عبر عن ذلك بقوله: ﴿قَادِرِينَ﴾ [القلم:٢٥].

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم:١٩ - ٢٠] وهو الليل؛ أي: مظلمة.

يقول الله - جلَّ ذكره: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ [القلم:٢٦] أي: إنا أخطأنا طريقنا إليها.

ثم تذكروا سوء ما أضمروه فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ يعني: أشدهم وأفضلهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم:٢٧ - ٢٨] يعني: تعبدون الله وتطيعونه وتشكرون نعمته، فتطعمون السائل المحروم مما أتاكم.

﴿قَالُوا﴾ وقد وقع بهم البلاء ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ﴾ [القلم:٢٩ - ٣٠] يتدافعون فيما بينهم سوء الرأي والفعل الذي سبق منهم في ذلك، ندموا حين لم تنفعهم الندامة ولا يجدون سبيلاً ولا إلى تدارك فائتهم بمراجعة ولا توبة.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٣٣ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٣٤ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ

﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [القلم: ٣٠- ٤١].

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا﴾ في فعلنا ذلك وما نويناه ﴿طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم:٣١ - ٣٢] يا أهل مكة، فكل من سمع به ولم يؤمن كأهل مكة ابتلاهم الله برسوله، كما ابتلي أولئك بجبتهم فلم يعرفوا قدر النعمة التي أنعم بها عليهم، ولا شكروا المنعم بها أخرجه من بين أظهرهم، وأعرض عنهم بنعمته إلى غيرهم، كانوا بذلك أولى منهم، وكذلك كل من لم يؤمن به استعمل الكيد محافظة على دينه الذي يدين به، حتى إذا جاءه الموت وجد جنته في الآخرة ودار البرزخ قد طاف عليها حال نومهم في الدنيا من سوء أعمالهم وكفرهم وتكذيبهم ما أبطلها عليهم، وعوضوا عنها بما هو مثل الليل المظلم، وهو ظلمة أعمالهم ومآلهم، فلا يملكون سوى التندم والدعاء بالويل والثبور والإقرار بالذنب حين لا ينفعهم ذلك، وموضع قولهم: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ [القلم:٣٢] هو سؤالهم الرجعة عند الموت عندما يعرض عليهم مصيرهم.

يقول الله - جل من قائل: ﴿كَذَلِكَ العَذَابُ﴾ أي: بالأسر في الدنيا والقتل والجوع والخوف لعلهم يرجعون، ثم في دار البرزخ وقد انقطع عنهم أوان التوبة وحاق بهم الندم، ثم قال: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٣٣].

نظم بذلك قوله - جل قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في موضع ندم أولئك وخيبة رجائهم ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [القلم:٣٤] مكان ما وجده أولئك كالصريم.

ثم قال - عز من قائل: ﴿أَفَنَجْعَلُ المُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم:٣٥] يلومهم ويقرعهم على التحكم بالجهل دون وعد من الله - جلَّ ذكره - لهم بذلك بما أملوه، ولا كتاب منزل به ينطق بما من ذلك زعموه، ولا رسول يتضمن لهم ما ظنوه هذا في مقابلة قول أولئك: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم:٣٢] وهذا مستصحب لهم كقول: الإنسان، والمراد به الجنس ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠].

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦].

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم:٤٢- ٥٢].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إلى السُّجودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾[1] [القلم:٤٢ - ٤٣] يقول - وهو أعلم: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُم المَفْتُونُ﴾ [القلم:٥ - ٦].

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ [القلم:٤٢].

ويتوجه أيضًا الخطاب إلى الذين يظنون أن الله يساوي بين المسيئين والمحسنين ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ والساق: الشدة ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ فلا يبقى من كان يسجد لله - جل ثناؤه - في الدنيا راغبًا راهبًا من تلقاء نفسه إلا سجد، ومن كان يسجد اتقاء لمخلوق ورياء أو لأجل الغير إلا جعل الله ظهره طبقًا واحدًا كلما أراد أن يسجد خر على قفاه.

يقول الله - جل من قائل: ﴿قَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم:٤٣] أي: في الدنيا وظهورهم سالمة، وكانوا يستطيعون السجود.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ

(١) ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يعني: تغشاهم وتعلوهم كآبة وكشوف وسواد؛ وذلك أن المسلمين إذا رفعوا رؤوسهم من السجود صارت وجوههم بيضاء كالثلج، فلما نظر اليهود والنصارى والمنافقون، وهم عجزوا عن السجود، حزنوا واغتموا فسودت وجوههم. بحر العلوم (٤/ ٣١٩).

حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٤٤] طرق استدراج الله ﷻ العبد كثيرة خفية، ولذلك قال: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والمؤمن يعلم من ذلك ما علمه الله، فاحذر استدراجه بالنعم وبالعلم، وبالنقم وبالجهل، وبالعوافي وبالبلاء، وبالأهل وبالمال، وبالولد وبالجاه، وبالثناء وبعد الصيت، وبالأتباع وكثرة الغاشية، واستعذ بالله من شر نفسك وشر كل ذي شر.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم:٤٨] يعني يونس عليه السلام؛ أي: اصبر على ما يقولون من مجنون وشاعر وساحر وغير ذلك، ولا تضجر كأخيك يونس عليه السلام وذكر سجنه له في بطن الحوت؛ إذ ترك عمله لربه، وأبق إلى الفلك المشحون، المكظوم: المغتاظ الحزين، هذا وصف حاله في بطن الحوت.

﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم:٤٩] العراء: الأرض التي لا ينبت فيها البعيدة من الأنيس.

ثم أنبأه عن غيظ قلوب الكافرين وشدة عداوتهم وحسدهم بقوله: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ [القلم:٥١] أي: يزيلونك عن مكانك كما قال: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [الحج:٧٢] أي: يوقعون بهم نكالاً.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم:٥١ - ٥٢] رجع الخطاب في آخر السورة إلى أولها قوله: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ...﴾ [القلم:٢].

تفسير سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠)﴾ [الحاقة:١-١٠].

قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ﴾ [الحاقة:١ - ٣] سميت بذلك؛ لأنها تحق العذاب للمجرمين والثواب للمحسنين، وقد يكون إنما سميت بذلك؛ لأنها من قولهم: يحيق، من حاق يحيق، كما قال: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود:٨] وقد قيل: إنها من أسماء القيامة.

وإنما قال - عز من قائل: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ﴾ [الحاقة:٣] ثم أنشأ يخبر بما هي، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُ بِالْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة:٤] والقارعة: من أسماء القيامة؛ فلأن كذبت بها ثمود أهلكوا بالطاغية، طغت عليهم الصيحة والرجفة، وكذلك عاد كذبت بها أهلكوا ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦] عتت عليهم وأهلكتهم.

يقول - عز من قائل: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ﴾ [الحاقة:٧] لم يسخرها لهم بل عليهم، ثم ذكر فرعون وعرض بمن قبله من الأمم الماضية والقرون الخالية وقرئت: «ومن قبله» أي: من سار بسيرته قبله وبعده، وقرأ طلحة بن مصرف: «وجاء فرعون ومن حوله» أي: وجاء فرعون ومن معه، وقرأ بذلك عبد الله، وفي قراءة أبي موسى: «وجاء فرعون ومن تلقاءه».

﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة:١٠] مرتفعة القدر في البطش به والشدة والخزي والألم، أقسم باسم من أسماء القيامة، ثم أخذ في قصص الذين كذبوا كيف أهلكهم

على إساءتهم من أنواع كفرهم وتكذيبهم بالقارعة؛ أي: بيوم القيامة، فأهلكهم بقوارع أحاقها بهم سلطها من عاجل عذاب يوم القيامة، سخر ذلك عليهم لم يسخره لهم فتكون لهم رحمة، كما سخر الفيحين من جهنم في الدنيا فصيرهما لهم في الدنيا بواسطة فتح رحمته جنات وأنهارًا وعيونًا وزروعًا ومن كل الثمرات، بل سخر عليهم ما قد أخرجه عليهم من عذاب ذلك اليوم وأصحبهم خزيه في دار البرزخ، ثم في اليوم الآخر يدخلهم أشد العذاب بما كانوا يكفرون.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١١- ١٧].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] أي: في الفلك ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ [الحاقة: ١٢] لهم بحمل المتقين في الجنة في الفلك تجري بهم في أنهارها تارة وتارة على مراكب البر، كما قال: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤٢].

وتذكرة أيضًا للعلم بحياة البرزخ، وطريق العبرة إلى ذلك: أن يتوهم الأرض يومئذٍ وهي مغرقة بالطوفان، وقد هلك بها من هلك ويسر الله - جلَّ ذكره - لعباده المؤمنين الفلك، حملهم فيها ومن علمه في أصلابهم من حياة إلى حياة، كذلك الموت مدته فراق النفس الجسد، ويخلق الله للميت حاملاً من ذات الميت إما في نعيم وإما في عذاب يعبر بهم بحر الموت من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى، جعل الله ذلك آية للعلم بذلك وتذكرة للقدرة الغائبة.

ثم قال: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[1] [الحاقة: ١٢] أي: يعجب بذلك أولوا الألباب

(١) أي: حافظة لما جاء من عند الله. وقيل أذن سمعت وعقلت ما سمعت وقيل لتحفظها كل أذن فتكون عظة وعبرة لمن يأتي بعد والمراد صاحب الإذن والمعنى ليعتبر ويعمل بالموعظة. الخازن (٦/ ١٥٣).

ويذكرون بإهلاكنا من عتا عذاب الآخرة، كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣].

نظم بذلك قوله الحق: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة:١٣ - ١٤] فلا جبران لها، كما قال: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة:٢].

يقول - عز من قائل: ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة:١٥] التي هي القارعة والحاقة ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٦].

ثم قال: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ أي: حاقاتها نواحي الانشقاق منها، قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧] جاء في الكتب الأول أن حملة العرش أربعة، ذكر هذا وجرى كثيرًا على ألسنة الناس، وجاء ذكرهم في القرآن مهملاً دون عدد في قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر:٧] المعنى: ولم أرَ في إثبات أربعة حملة تبيانًا للنبي ﷺ، وقال في هذه الآية: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧] ولم يبين ما هؤلاء الثمانية أهي صفوف أم آحاد منهم، غير أن قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوهم أو يغلب الظن أن ذلك خصوص لذلك اليوم إما لثقل الأمر أو تضاعيف الشأن، والله أعلم.

فصل

جاء عن المفسرين كما في الكتب الأول: أن للعرش أربعة أملاك - عليهم السلام - وذكروا مع هذا أن أحدهم كالإنسان، ثم الآخر كالنسر، والثالث كالثور، والرابع كالأسد، وهكذا جاء في نبوة بعض الأنبياء - على جميعهم السلام - يصف الإسراء الذي أسري به.

وكذلك جاء: أن حملة العرش العظيم ميكائيل وإسرافيل وملكان غيرهما، خرج ذكر أسمائهما عن ذكري، والله أعلم، وربما أنه كما ينشئ كل شيء من العالم كذلك ينشئ الأمر فيما هنالك فيكونوا يومئذٍ ثمانية، وقد قال - عز من قائل: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر:٧]

المعنى إلى آخره، وقال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء...**»[١] وفي تأويله: إنهم إذا أفهمهم عنه قالوا لمن دونهم الحق؛ أي: المراد، ثم كذلك إلى من دونهم إلى حيث المنتهى.

فحملة العرش إذًا على هذا جميع ملائكة الله - جلَّ ذكره - صلوات الله وسلامه عليهم ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١-٣].

﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤].

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١-٥].

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ١-٤].

﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١ - ٥].

ثم هكذا في كل طبق من المخلوقات، وبكل أمر ينزل أو ينشأ نشوءًا أو اضمحلالاً، أو كان يكون فيه حمل العرش؛ أي: قيام بالأمر النازل من علو عرش أو سماء، ومن حيث نزل عنه ﷻ الأمر فعن عرش نزل، والإخبار في قوله الحق: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] عن العرش الأعلى الأعظم.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٤)، والترمذي (٣٢٢٣) وابن ماجة (١٩٤) والحميدي (١١٥١) وابن حبان (٣٦)، وابن منده في الإيمان (٧٠٠).

أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾ [الحاقة:١٨- ٢٩].

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:١٩ - ٢٠] أي: علمت وأيقنت بذلك، فعملت لربي على ذلك إرصادًا لهذا اليوم .

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٥ - ٢٦] إني كنت في الدنيا ولم أدر ما حسابيه، ويمكن مع هذا أن يكون المعنى لعظيم الغبطة بإعطاء من أعطى كتابه بالفوز العظيم والدخول في الجوار الكريم تمتد الأعناق اغتباطًا لمن أوتي كتابه بيمينه، ويبض وجهه ويرفع قدره، والملائكة تحف به، ويكرمه أهل الجمع، ويمتد له الصيت من أجل ذلك في ذلك الجمع المشهود، وينادى على رءوس الخلائق: «ألا إن فلانًا سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا».

فيتعدى بالمجرم الحرص، ويعطى على ما به الطمع لعظيم الإغباط بذلك، فإذا وقف ظهر له من عمله ما يستوجب به الحرمان والخلود في النيران، فيسود وجهه، وتزرق عيناه، ويشوه خلقه، ويعطى كتابه بشماله الذي ورد عمله من جهته، وينادى به على رءوس الخلائق في ذلك الجمع المشهود: «ألا إن فلانًا شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا» فيحيق به من الخزي والهون، ويلعنه أهل الجمع، ويعتل إلى الجحيم.

﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة:٢٥-٢٧] أي: يا ليت الموتة التي متها لم أبعث منها، فإنه يومئذٍ يشيع عند أهل الجمع من الغبطة بلقاء الله ما القلوب اليوم عن توهمه في غفلة، ولذلك لا يذكر ﷻ لقاءه إلا بلفظ الرجاء حيث ما ذكره، ثم يندب نفسه فيقول: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٨] إذ لم أنفقه في مرضات الله ولا توصلت به إليه.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٩] قد كان لي فيه متبلغ إلى رضا ربي لو عملت فيه ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤] هذه.

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٣٠-٤٣].

يقول الله ﷻ للملائكة: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠] يداه إلى عنقه ورجلاه إلى ناصيته من وراء قفاه.

﴿ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣١] يسحب على وجهه في النار.

يقول الله - تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] وما اتقى بوجهه العذاب إلا أنه يمشي على وجهه ويداه ورجلاه موثوقتان.

قال الله ﷻ: ﴿يُسْحَبُونَ * فِي الحَمِيمِ﴾ [غافر: ٧١ - ٧٢] فيضرر به جلودهم سلخًا ﴿فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٢] أي: يوقدون فيها.

﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] نعوذ بالله من النار ومن أحوال أهل النار في الدنيا والآخرة.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾[1] [الحاقة: ٣٢] ذكر السبعين أبدًا معد لكثرة لا تنحصر لمخلوق، وقد جاء أن الحجر ليلقى في جهنم من رأس السلسلة فتهوي فيها سبعين خريفًا ما تبلغ طرفها، والله أعلم، نعوذ بالله من عذاب الله ما قل منه وما كثر.

---

(١) السلسلة: حلق منتظمة، وذرعها: طولها. قال الحسن: الله أعلم بأيّ ذراع هو. قال نوف الشامي: كل ذراع سبعون باعًا، كل باع أبعد مما بينك وبين مكة، وكان نوف في رحبة الكوفة. قال مقاتل: لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص، ومعنى ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾: فاجعلوه فيها، يقال: سلكته الطريق: إذا أدخلته فيه. قال سفيان: بلغنا أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه. قال الكلبي: تسلك سلك الخيط في اللؤلؤ. وقال سويد بن أبي نجيح: بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة، وتقديم السلسلة للدلالة على الاختصاص كتقديم الجحيم. فتح القدير (٧/٢٩٦).

يقول الله - جل من قائل: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة:٣٣ - ٣٤] كما قال الشقي: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٨] فلم يستحق لذلك أن يطعم من طيبات دار الآخرة؛ إذ الكرم والسخاء من صفات الله وأسمائه، والكرم شجرة في الجنة لها أغصان من تمسك بغصن منها رفعه إلى الجنة، والبخل شجرة في النار من تمسك بغصن منها هوي به إلى جهنم، أعاذنا الله برحمته منها.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة:٣٥ - ٣٦] هو ما يجري من عصارة أهل النار صديدهم وأخلاطهم وأثفالهم[١].

آية ذلك في هذه الدار: [.....][٢] الله - جلَّ ذكره - زرع ما ها هنا وأشجاره وثماره بالأزبال والأثقال، لكن فيما هنالك يقلب العين إلى ما نفذت عنه من زرع أو شجر؛ ذلك لأن هذه الدار سجن امتزج فيها ما هو منسوب إلى هذه وهذه ونقلبه إلى شر من ظاهره وأنتن حدًا وأشد حرارة وبرودة، وإلى ما هو أبلغ في النكال.

يقول الله - عز من قائل: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة:٣٧] كذلك إنما شحنا نحن في الدنيا لأجل خطأنا، ولا يأكله في الدار الآخرة إلا الخاطئون، هم فيها درجات في ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة:٣٨ - ٣٩] «الفاء» عاطفة على ما قبلها، وهو ما تقرر من قولهم وكفرهم في رسول الله ﷺ والقرآن العزيز بأنه مجنون وساحر وشاعر وكاهن، وفي القرآن: أساطير الأولين وسحر وكذب ونحو هذا، و«لا» نافية، فمعنى الكلام على هذا ليس على ما زعمتم، أقسم بما تبصرون من أرض وسماء وأفلاك ونجوم وشمس وقمر وبحر وبر ورياح وأمطار ونبات وخلق، وما جعل له هذا كله وما هو هذا معبر إليه من أمر هنا وخلق وأمر فيما هنالك من شهادة هنا أو غيب وبكل مذكور وغير المذكور.

---

(١) الثفل: ما يبسط تحت الرحى عند الطحن، وما استقر تحت الماء ونحوه من كدر، وما يتبقى من المادة بعد عصيرها. انظر: المعجم الوسيط (١/ ٢٠٢).

(٢) غير واضحة في (خ)، وغير موجودة في (ف).

﴿إِنَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٤٠] يعني: جبريل ﷺ، ثم النبي ﷺ إلى قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة:٤٣] لكنكم لو آمنتم بمنزله لتذكرتم فعلمتم أنه معجز لا يقوم له بشر ولو اجتمعت له الجن والإنس متظاهرين، وقد تقدم الكلام على التنزيل ما هو.

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٥٢].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة:٤٤ - ٤٥] أي: أنه لو قال علينا بعض ما لم نقله ﴿لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أي: لأضللناه عن هدايته، ومحونا اسمه من ديوان الهداة المهديين.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٦] يعني: لقتلناه على ذلك من ضلالته، والوتين: عرق متصل بنياط القلب مستبطن للصلب، يملأ الجسد كله بسقيه الكبد، وهي بيت الدم، والوتين: بحر الدم في الجسد، يأخذ منه ستون عرقًا هي أنهار الدم في الجسد كله، من هذه الأنهار تأخذ عروق الجسد، ثمانية عشر تسقي الصدر، وسبعة تسقي العنق، وأربعة تسقي الدماغ، وهو - أعني: الوتين - من مجمع الوركين إلى مجمع الصدر بين الترقوتين، ثم تنقسم عنه سائر العروق إلى سائر الجسد.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٧] أي: لم يكن له مع ذلك ناصر ينصره منا.

﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة:٤٨ - ٤٩] لكنا بلوناكم به ليكون منكم التكذيب المقدر في الأزل فيأخذكم به، أو يكون منكم الإيمان السابق في التقدير فيثيبكم عليه.

﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [الحاقة:٥٠] حين يرون العذاب يقولون: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١] يا ليتنا اتخذنا مع الرسول سبيلاً.

﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: هذا الحديث والوعيد والوعد ﴿لَحَقُّ اليَقِينِ﴾ [الحاقة:٥١] الموت.

يقول: وإنه لواجب وجوده بعد الموت ثم البعث منه، كما شاهدتم من وجوب وجود النهار بعد انقضاء الليل، والليل بعد انقضاء النهار.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ﴾ [الحاقة:٥٢] يقول لرسوله ﷺ ولمن أطاعه من المؤمنين: فهو الاستعداد والعدة لذلك فالزمه، كما قال - عز من قائل: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ﴾ [الحجر:٩٨ - ٩٩].

وكقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم:٦٥].

تفسير سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤)﴾ [المعارج: ١ - ١٤].

قوله ﷻ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ﴾[(١)] [المعارج: ١ - ٢] قرئ

---

(١) قرأ الجمهور: (سأل) بالهمز: أي دعا داع، من قولهم: دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه، فالباء على أصلها. وقيل: المعنى بحث باحث واستفهم. قيل: فالباء بمعنى عن. وقرأ نافع وابن عامر: سال بألف، فيجوز أن يكون قد أبدلت همزته ألفًا، وهو بدل على غير قياس، وإنما قياس هذا بين بين، ويجوز أن يكون على لغة من قال: سلت أسأل، حكاها سيبويه. وقال الزمخشري: هي لغة قريش، يقولون: سلت تسال وهما يتسايلان، وينبغي أن يتثبت في قوله إنها لغة قريش؛ لأن ما جاء في القرآن من باب السؤال هو مهموز أو أصله الهمز، كقراءة من قرأ: وسلوا الله من فضله، إذ لا يجوز أن يكون من سال التي عينها واو، إذ كان يكون ذلك وسلوا الله مثل خافوا الأمر، فيبعد أن يجيء ذلك كله على لغة غير قريش، وهم الذين نزل القرآن بلغتهم إلا يسيرًا فيه لغة غيرهم. ثم جاء في كلام الزمخشري: وهما يتسايلان بالياء، وأظنه من الناسخ، وإنما هو يتساولان بالواو. فإن توافقت النسخ بالياء، فيكون التحريف من الزمخشري؛ وعلى تقدير أنه من السؤال، فسائل اسم فاعل منه، وتقدم ذكر الخلاف في السائل من هو. وقيل: سال من السيلان، ويؤيده قراءة ابن عباس: سال سايل. وقال زيد بن ثابت: في جهنم واد يسمى سايلاً وأخبر هنا عنه. قال ابن عطية: ويحتمل إن لم يصح أمر الوادي أن يكون الإخبار عن نفوذ القدر بذلك العذاب قد استعير له السيل لما عهد من نفوذ السيل وتصميمه. وقال الزمخشري: والسيل مصدر في معنى السايل، كالغور بمعنى الغاير، والمعنى: اندفع عليهم وادي عذاب، فذهب بهم وأهلكهم، وإذا كان السائل هم الكفار، فسؤالهم إنما كان على أنه كذب عندهم، فأخبر تعالى أنه واقع وعيدًا لهم. وقرأ =

بتخفيف الهمزة وتحقيقها، وقرأ ابن عباس: «سأل سئل بعذاب واقع للكافرين».

قال قتادة: هو وادٍ في النار، وهو كقوله: ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور:١ - ٢] إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا....﴾ [الطور:٧-٩] ويمكن أن يكون نذارة بعذاب يصيبهم به من قتل أو سبي وجلاء ونحو ذلك.

قوله ﷻ: ﴿ذِي المَعَارِجِ * تَعْرُجُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٣ - ٤] المعارج: مصاعد الملائكة والروح من سفل إلى علو، ومتنزلات من علو إلى سفل، قد تقدم الكلام في المعارج.

وقول رسول الله ﷺ: «**إن ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام**»(١).

وقال الله - جل من قائل: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥] فتلك مسيرة ألف سنة مما يعده نحن صعودًا ونزولاً، وأخبر أيضًا أن هذا ليس بمقصور على العروج والنزول فقط، بل لكل أمر تدبر وملك وروح ينزل أو يعرج(٢).

= أبي وعبد الله: سال سال مثل مال بإلقاء صورة الهمزة وهي الياء من الخط تخفيفًا. قيل: والمراد سائل، ولم يحك هل قرأ بالهمز أو بإسقاطها ألبتة. فإن قرأ بالهمز فظاهر، وإن قرأ بحذفها فهو مثل شاك شايك، حذفت عينه واللام جرى فيها الإعراب، والظاهر تعلق بعذاب بسال. وقال أبو عبد الله الرازي: يتعلق بمصدر دل عليه فعله، كأنه قيل: ما سؤاله؟ فقيل: سؤاله بعذاب، والظاهر اتصال الكافرين بواقع فيكون متعلقًا به، واللام للعلة، أي نازل بهم لأجلهم، أي لأجل كفرهم، أو على أن اللام بمعنى على، قاله بعض النحاة، ويؤيده قراءة أبيّ: على الكافرين، أو على أنه في موضع، أي واقع كائن للكافرين. وقال قتادة والحسن: المعنى: كأن قائلاً قال: لمن هذا العذاب الواقع؟ فقيل: للكافرين. وقال الزمخشري: أو بالفعل، أي دعاء للكافرين، ثم قال: وعلى الثاني، وهو ثاني ما ذكر من توجيهه في الكافرين. [تفسير البحر المحيط (١٠ /٣٣٨)].

(١) أخرجه أحمد (١٧٩٨).

(٢) قال المصنف: أي: مما نعده نحن أنهم يرونه بعيدًا ونراه قريبًا، وقد أعطى عباده في الجنة من هذا ما شاءه وهو تنعيم لهم، إنما الانتظار موجود في فعل من شمله حكم الزمان، فإن الانتظار والتمني دون معاجلة المنى عذاب، ولا يكون ذلك لأهل السماوات ولا لأهل الجنة إلا أن يكونوا، إنما يشغلون عن ذلك بما يسليهم عنه، فلا يجدون فقد ذلك؛ لأن ذلك من =

فصل

حركة عروج الأمر ونزوله حركة نحو الوسط، وهي الحركة المستقيمة، وحركة التدبير للأمر حركة حول الوسط، وهي الدائرة، ثم من المتعارف المعلوم أن الخط المستقيم المار على وسط الدائرة من محيطه إلى محيطها هو على النصف من قوس الدائرة، والفلك يصعد بعضه بنزول بعضه، فمفهوم ذلك: أن الدائرة صاعدها ونازلها متى كان مقدار مسافة السالك من محيطها مارًّا على وسطها إلى محيطها خمسمائة سنة عروجًا، فإن مثلها نزولاً أيضًا خمسمائة سنة، وذلك قوله ﷻ: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥] فإذا كان ذلك كذلك فإن مقدار محيط الدائرة مسيرة ألفي سنة، وإذا كان ذلك كذلك فهي سبع أرضين وسبع سماوات.

قال رسول الله ﷺ: «**إن ما بين سماء إلى سماء وما بين أرض إلى أرض خمسمائة خمسمائة**»[1].

وإنما هذا وصف لمسافة ما بين سماء إلى سماء وأرض إلى أرض، وإن الحكمة في العبرة إلى ما غاب أن يكون معقولاً مما شوهد، فدوائر ما علا تحيط بما دونها هكذا إلى ما علا، آية ذلك دائرة فلك القمر تحيط بها دائرة فلك عطارد، ويحيط بدائرة فلك عطارد دائرة الزهرة، وتحيط بها دائرة الشمس، وتحيط بها دائرة الأحمر وهو المريخ، وتحيط بها دائرة المشتري وهو البرجيس، وتحيط بها دائرة

الحكم يجري عليهم بأزمته، أو ما يعبر عنه فيما هذا هنالك من عبارات قد أظلتها بركة الدهر، كيف لا وإنما هم ميسرون إلا أن يريدون ما ليس بكائن، فقطعهم الآباد لذلك بغير سآمة.... ثم قال: إذ يوم تداور المياه هو أربعة عشر يومًا، ويوم تداور القمر في ثمانية وعشرين يومًا، ويوم عطارد ثلاثة أشهر وستة أيام، ويوم الزهرة ثمانية أشهر وستة أيام، ثم الشمس ويومها سنة، ثم يوم المريخ خمسة وعشرون شهرًا، ثم يوم المشترى اثنتي عشرة سنة، ثم يوم المقابل؛ وهو زحل ثلاثون سنة على سبيل التقريب في ذلك كله، ثم ربما صعد النظر في ذلك إلى يوم مقداره خمسون ألف سنة، والله أعلم أي دائرة هي؟! فإن ما هاهنا آية على ما هنالك. [٢/٣٥٧، ٣٥٩].

(١) انظر السابق.

المقابل وهو زحل، ويحيط بهذه الدوائر دائرة فلك البروج، ويحيط بها الفلك الأعظم.

قال الله - عز من قائل: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣].

وقال - عز من قائل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم:٣٣].

وقال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:١٢].

ولما رأينا هذه هكذا وأخبرنا أنه قد جعل هذه آيات على ما غاب عنا علمنا، وله الحمد أن دوائر ما علا من السماوات العلا أعلاها منتظم لما دونها حتى تكون دائرة فلك السماء السابعة منتظمة بهذه محيطة بها، وفي أعلى كل سماء من السماوات فُلكٌ يرجع ما دونه إليه، كالذي أخبرنا ﷺ عما هاهنا من دوائر بقوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ﴾ وأن ذلك كله يرجع إلى فلك تسبح الأفلاك التي دونه فيه دلالة على الوحدانية ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣].

ثم اعلم أن أوسع هذه الدوائر التي دون السماء الدنيا - كفلك البروج مثلاً - تطلع وتغرب من يومه الذي هو من أيامنا هذه ما عدا موضع التقليب، وهو خفي في هذه الدائرة كدائرة فلك القمر، يطلع من يومه ويغرب ماعدا موضع التقليب، وكذلك ما غاب عنا من دوائر التدبير، وأن دائرة السماء السابعة التي يرجع إليها ما دونها ويسبح فيها طلوعها بطلوع أدقها وغروبها بغروبه، فذلك قوله: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة:٥].

وهذا الدائر يدور فوق السماء السابعة وينزل بأمر الله ﷻ إلى ما تحت الأرض السابعة ويصعد طالعًا إلى ما فوق السماء السابعة يستدير بما دونه من الدوائر كاستدارة الفلك الأعظم الذي دون هذه السماء الدنيا ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣].

فصل

ولم يأت فيما نعلمه فيما فوق السماوات السبع ولا فيما دون الأرضين السبع ذكر مسافة.

قال رسول الله ﷺ في حديثه عن مسراه: «**فلما جئنا السماء السابعة استفتح جبريل**» صلوات الله وسلامه عليهما، فذكر ما لقي فيما هنالك، ولما فرغ من ذكر البيت المعمور وذكر إبراهيم عليه السلام قال: «**ثم عرج بي إلى السدرة المنتهى**»(١) وذكر أن ما وراءها لا يصعد إليه ملك، فإن إليها ينتهي ما يصعد به من الأمر ومنها يقبض أو يرفع إليه، فالملائكة مع الروح - عليهم السلام - يصعدون إلى ما هنالك؛ أعني: إلى السدرة المنتهى، ثم الروح مفردًا يصعد بما يكون إلى ما علا.

قال الله ﷻ: ﴿**تَعْرُجُ المَلائِكَةُ**﴾ ثم عطف بالواو في قوله: ﴿**وَالرُّوحُ إِلَيْهِ**﴾ [المعارج:٤] والملائكة والروح إلى المنتهى، ومما هنالك يصعد الروح فردًا بالأمر، والله أعلم سبحانه وله الحمد.

ثم قال - عز من قائل: ﴿**فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً**﴾ [المعارج:٥] أي: على قولهم وخوضهم واستعجالهم العذاب المذكور في صدر السورة.

ثم قال - عز من قائل: ﴿**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا**﴾ [المعارج:٦ - ٧] القريب عنده والبعيد سواء، وإنما الأجل المسمى يوم الفصل الذي ﴿**تَكُونُ**﴾ فيه ﴿**السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ**﴾ [المعارج:٨ - ٩] الصوف.

﴿**وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا**﴾ [المعارج:١٠] هذا موقف لا يتساءلون فيه، وبالجملة: فإن حميمًا؛ أي: حبيبًا، لا يسأل حميمه أن يحمل من أوزاره عنه شيئًا ﴿**وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**﴾ [فاطر:١٨] يبصرونهم لا بد من أن يتلاقى المتعارفون لتقضى حقائق كانت بينهم في الدنيا لذلك جُمعوا، وبالواجب أن يكون الشأن كما تلاقوا في الدنيا كذلك يتلاقون ذلك اليوم.

يقول الله - جل من قائل: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [النحل:١٢٤].

﴿**كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ**﴾ [الأنعام:١٢].

﴿**كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ (١٨) إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ**

(١) أخرجه مسلم (٤٢٩)، وأبو عوانة (٢٥٢).

خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المعارج:١٥ - ٣٠].

قوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ [المعارج:١٦] هذا من وصف النار الكبرى أعاذنا الله برحمته منها، الشوى: عظام الساقين تسلب العظام من لحمها، وليس ذكر هذه العظام بخصوص فعلها فيما سواها من العظام واللحم، كذلك غير أن من الموحدين من يدخل في النار ما يصيبه منها إلا كعبيه وإلى أنصاف ساقيه وإلى ركبتيه وإلى حقويه، وحيث بلغت فعلت فعلها، نعوذ بوجه الله الكريم منها إنه أرحم الراحمين.

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ [المعارج:١٧] أي: عن طاعة الله وطاعة رسوله وعن الإيمان والإسلام.

﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَى﴾ [المعارج:١٨] في وعاء وشد بوكاء، فلم ينفقه في طاعة الله ولا أطعم منه ولا زكَّاه، نسأل الله معافاته ومغفرته.

نظم بذلك وصف الإنسان فقال: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾(١) [المعارج:١٩] أي: من نكبات الزمان، وجازعًا لطوارق الحدثان غير متوكل على الله ولا مستنصر.

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:٢٠ - ٢١] هكذا الإنسان بما هو إنسان ما لم يؤمن بالله ويتولاه الله بتوفيقه وعصمته.

يقول الله - جل من قائل: ﴿إِلَّا المُصَلِّينَ...﴾ [المعارج:٢٢] المداومة على الصلاة تكون بالملازمة والمحافظة عليها والحفظ لها مما ينقصها، وتكون أيضًا

---

(١) أي: جُبل جبلة هو فيها بليغ الهلع، وهو أفحش الجزع مع شدة الحرص وقلة الصبر، والشح على المال، والرغبة فيما لا ينبغي. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنه الحريص على ما لا يحل له، وروي عنه أن تفسيره ما بعده. نظم الدرر للبقاعي (١٧١/٩).

بكثرتها مما يضاف إليها من نوافلها بأن يكون الذكر في أثنائها مستصحبًا وفيما بينها، كما قال عز من قائل: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣].

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج:٣١- ٤٤].

قوله ﷻ: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ [المعارج:٣٦] أي: مسرعين متعجبين من مقالك وحالك.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ [المعارج:٣٨] كقول أحدهم: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦].

يقول الله - جل من قائل: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ [المعارج:٣٨] ولما يؤمن بالله ورسوله والدار الآخرة وبأنه يبعث بعد موته إلى جزاء معد ثواب أو عقاب.

﴿كَلَّا﴾ ليس كما ظن ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج:٣٩] من تراب وماء من فيح وفتح، فكذلك نعيدهم من الأرض بالماء، ينزله من السماء فينبتهم منها إنباتًا، ثم يعيدهم إلى ما كان هذا الفيح عنه إلا ما أعتقهم من ذلك من إيمان بالله ورسوله وطاعة وعمل صالح، فيكون عودهم بذلك إلى ما كان الفتح عنه، ألم يروا أنا خلقناهم من الدار الآخرة حرورها وزمهريرها اللذين عن إثارة فيح جهنمها، ثم عن فتح رحمتنا بالماء ننزله من السماء نخرج لهم به جنات معروشات وغير

معروشات والطيبات ومن كل الثمرات، فكما خلقناهم من الدار الآخرة كذلك إليها نعيدهم، ألم يروا أنا خلقناهم من تراب فنردهم إلى التراب، فكذلك لما خلقناهم عن الدار الآخرة نرجعهم، ثم لا يدخل الجنة إلا من آمن بها وعمل صالحًا، ولا يدخل النار فيما هنالك إلا من أبى وشرد وكفر النعمة وبطر الحق.

نظم بذلك ما هو بيان له قوله - جل من قائل: ﴿فَلَا﴾ هذا رد لقولهم وتكذيب لطمعهم ﴿أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج:٤٠] ذكر - جلَّ ذكره وتعالى جده - بموضع منبعث الفتح والفيح عن الدار الآخرة زائد الجزاءين والمنبئ عن حقيقة الثوابين، وقد تقدم الكلام على أن تقسيمه وحكمته في ذلك على مواقع النجوم، وأنها نجوم المنازل، وهي أيضًا نجوم تنزيل القرآن والوحي المنزل على وافد الآخرة المنذر بعذاب ما هنالك المبشر بثوابه.

ثم قال - عز من قائل: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: نذهب بهم ونخلف بعدهم من هو خير منهم، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج:٤٠ - ٤١] أي: إذا أمتناهم على أن نبدل أمثالهم يحمل عليها وفيها ذواتهم في دار البرزخ لنذيقهم عذابًا دون العذاب الأكبر وفوق عذاب الدنيا في الخزي والشدة والألم، أشار بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج:٤١] إلى ما ينالهم ويلقونه من الحق اليقين.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أي: ﴿حَتَّى﴾ يأتيهم الموت فيلاقوا ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج:٤٢] إما بالموت فيفضون فيه إلى دار البرزخ، وإما يوم البعث، وهو اليوم الذي فيه ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣] شبههم في إجابتهم داعي الله يومئذٍ وسيرهم كأنهم في يوم عيدهم قد انقلبوا من جمعهم ذلك إلى أنصابهم ومذابحهم.

ثم أخذ يصف حالهم يومئذٍ في ذلك بقوله: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [المعارج:٤٤] يقال لهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣].

تفسير سورة نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ [نوح: ١-٧].

قوله ﷺ: ﴿اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣ - ٤] جمع ﷺ في قوله هذا: الإيمان والإسلام والعمل وهو الإيمان بالله - جلَّ ذكره - والرسالة وما جاءت به، وعلى هذه الأثافي مدار الإسلام كله ومدار الوحي.

قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ «مِن» هنا هي لاستغراق الجنس، كقولهم: ما في الدار من أحد.

قال رسول الله ﷺ: «**الإسلام يهدم ما كان قبله والتوبة تهدم ما كان قبلها والحج يهدم ما كان قبله**»[1].

وقوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول: متى فعلتم ما أمركم به لم يعجل إهلاكهم قبل الأجل المسمى، فإن الأجل المسمى ﴿إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ إنما التعجيل والتأجيل فيما دونه بما يجنيه العباد على أنفسهم، فإذا جاء الأجل المسمى للمؤمن هنالك يقول الله - جل من قائل: «**وما ترددت في أمر ترددي في موت مؤمن يكره الموت ولا بد له من ذلك**»[2] لذلك - والله أعلم - قال: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤].

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (١٢١)، وابن خزيمة (٢٥١٥).

(٢) تقدم تخريجه.

فصل

هذا هو الحق والله يهدي السبيل، إنما أخرج آدم ﷺ من الجنة لأجل المعصية بما كان قد قدر عليه بذلك، وإنما خلق الله سبحانه السماوات والأرض بالحق لنعلم أنه على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بكل شيء علمًا، وأنه لا إله إلا هو الحي القيوم ذو الأسماء الحسنى والصفات العلا والمثل الأعلى، وأن رسله حق، وما جاءوا به حق، وهدى إلى التوبة من الذنب لتدارك الفائت، فمن حقه ألا يموت؛ أعني: العبد وقد استأثر رب العزة بالبقاء والدوام وحتم على كل مخلوق بالفناء، وحكم على العباد بالموت، فمن الحق الواجب إذًا أن يموت.

فجاء من مفهوم هذا الحال وما عبر عنه كريم هذا المقال معنى قوله: «**ما ترددت في أمر**»[1] المعنى: أنه يحمله بعد الموت إلى حياة يعوضه إياها بدلاً من هذه التي أفقده، وإلى مشاهدة هي أكرم وأقرب إعلامًا من التي عنها أخرجه حتى يأتي وعده بالحياة والبعث من هذا الموت، فهذه فائدة قوله ﷺ: ﴿**لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [نوح:٤] لذلك نسب هذا الأجل إليه - عز جلاله - وهو المسمى وما سواه من الآجال دونه، فإنها عن أسباب وأواسط.

يقول - جلَّ ذكره: لو كنتم تعلمون كريم المآب الذي يصيركم إليه إن آمنتم فالموت إذًا للمؤمن نعمة، أي نعمة؛ إذ هو باب لخروجه من سجن سجن فيه لأجل الذنب، وقد غلب أرحم الراحمين أحد الوجهين المترددين من موته أو بقائه في الدنيا؛ ذلك ليرجعه من حيث أخرجه من أجل ذنبه.

ولهذه الرحمة تعلو درجة الأنبياء لا يقبضهم الله حتى يخيرهم في البقاء أو الخروج منها إليه، ثم يقدر عليهم محبة لقائه والرجوع إليه، فمن الواجب على كل مؤمن أن يستعمل نفسه بمحبة وفاة الله إياه والرجوع إليه، وتعجيل الراحة من هذه الدار من عدو مرصد ونفس بالسوء أمارة، واشتغال عن الله ﷻ بالأهل والولد والمال والغاشية، وليدرس هذا درسًا شافيًا ويعمل عليه، ففي ذلك الخير كله

---

(١) تقدم تخريجه.

والراحة الجمعاء، والمرجوع إليه هو أرحم الراحمين، وهو الرءوف الرحيم، ربما تعلق قلب المؤمن بأن الموت يقطع عليه عمله صلاته وصيامه وجهاده وتعلمه العلم، قد جاء أن المؤمن يجزى له أحسن عمله إن شاء الله.

يقول الله - جلَّ ذكره: ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية:٢١] ومن عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.

نظم بذلك قوله ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ [نوح:٥] إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح:٩].

﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ [نوح:٨ -١٨].

فأما موضع إعلانه وجهاره - والله أعلم - فقوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:١٠ - ١٢] فهذا هو الإجهار والإعلان لظهور مفهوم الجزاء بالإحسان لمن أحسن.

يقول الله - جل من قائل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠].

وإنما أخرجهم من الجنة المعصية، فإذا أطاعوه فجزاؤهم أن يعيد عليهم من إثارة الجنة لأجل إحسانهم، فإن هم شكروا زادهم، وإن هم كفروا كان فيهم بالخيار، إما أن يغير ما بهم ويسلبهم نعمته، وإما أن يستدرجهم بنعمه ليأخذهم على أوفر ما جنوه وأسوأ ما أتوه، وأما موضع إسراره لهم فهو في معنى قوله لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا﴾[1] [نوح:١٣] وهو وصف للقائه الكريم، وإخبار عن علم

---

(١) ما لكم لا تخافون لله عظمة في التوحيد؟ وهو قول الكلبي ومقاتل. وقال قتادة: ما لكم لا ترجون لله عاقبة؟ ويقال : ما لكم لا ترجون عاقبة الإيمان؟ يعني: في الجنة. وروى سعيد بن
=

ما يعاينونه ويشاهدونه من عليّ رؤيته على دوام الخلود من تجديد مرئى وتنويع مشاهدة، آية ذلك في قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٢٩ - ٣٠] فافهم.

قال رسول الله ﷺ: «**إن إبراهيم أول من رأى الشيب، فقال: يا رب، ما هذا؟ قال: وقار يا إبراهيم، قال: يا رب، زدني وقارًا**»[١].

قوله عليه السلام: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٤] شيبًا وشبانًا، إناثًا وذكرانًا، وخالف بين صوركم وألسنتكم وألوانكم وأخلاقكم ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٥ - ١٦] القمر: هو عظيم نجوم السماء والشمس أكبر، جعل هذين القمرين آية عليه جل جلاله فإذا كان اليوم الآخر وأدخل عباده الجنة وقد أزال الشمس والقمر والنجوم فأقام أمره على الخصوص مقام الشمس والقمر والنجوم في هذه الدار وما سخرها له، وأظهر موجودات ما هنالك بأمره عيانًا.

قال عز من قائل: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:٢٥] فالحق الذي خلق به السماوات والأرض وما بينهما فيما هاهنا يعوض به الحق المبين الذي هو هذا الحق هنا من شعاع نور ذلك الحق، فافهم.

ثم قال: ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:١٧ - ١٨] يقول: فكذلك كما خلقكم عن إثارة الآخرة إليها يردكم، وكما خلقكم عن الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما فكذلك يعيدكم إليه في الدار الآخرة جهارًا، وترونه عيانًا كما رأيتموه بالإيمان هنا فطرًا واعتبارًا.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ

جبير عن ابن عباس قال: ما لكم لا تعلمون حق عظمته؟ وقال مجاهد: ما لكم لا ترجون لله عظمة؟ بحر العلوم للسمرقندي (٤/٣٣٠).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/٢٣٣)، ومالك (١٦٧٧).

ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ١٩–٢٨].

ثم قال ﷺ: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾ [نوح:١٩ - ٢٠] يريهم دلائل النبوة وعلامات الرسالة، وكما تهدي الطرق إلى المقاصد كذلك تهدي الرسل إلى المراشد.

قال نوح ﷺ: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح:٢١] إلى آخر السورة.

وفي قوله ﷺ: ﴿وَاللهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧] وكان يكون أنبت إنباتًا، لكنه قال ﷺ: ﴿نَبَاتًا﴾ وأنزله رب العالمين كذلك لحكمة في ذلك بالغة وعلم ظاهر؛ وذلك أنه ﷻ أنبتنا من الأرض في النبات نباتًا، ثم أنزلنا بالماء من السماء، ثم أنبتنا في الحيوان نباتًا، ثم أنبتنا في بطون أمهاتنا نباتًا، ثم بعد ذلك النشء مع النبات والإنبات معًا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ الله أَنصَارًا﴾[1] [نوح:٢٥] نص منه - جلَّ ذكره - على عذاب البرزخ، وأنه قد أدخلهم

---

(١) اعلم - رحمك الله - أن الله أدخل قوم نوح ﷺ النار عقب غرقهم في الماء فانتقلوا من الغرق إلى الحرق، فطلبوا النصرة من آلهتهم الذين قالوا في حقهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ [نوح:٢٣] فلم يجدوهم، وأضل الله أعمالهم عنهم كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد:١] لأن الأعمال تطلب عاملها كما يطلب الابن أباه، وكما ضلت أعمالهم عنهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢٤] على أولئك المعبودين من أنهم آلهة ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح:٢٥] أي: لم يجدوا غير الله ناصرًا، فأخبر الله تعالى أن قوم نوح أدخلوا النار، ولا يدخلون النار إلا بعد بعثهم، فقدَّم الله بعثهم قبل خراب الدنيا.

النار متصلاً بموتهم، ألا تسمع لقوله: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا﴾ [نوح:٢٥].

ثم ذكر ﷺ دعاءه على الكافرين لما قيل له: إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، واستغفاره لنفسه ولوالديه وللمؤمنين به، ثم لجميع المؤمنين والمؤمنات، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين، ربنا آمنا بما أنزلت من كتاب وبمن أرسلت من رسول فاكتبنا مع الشاهدين، وفي دعائه هذا لأبويه دليل على أنهما كانا مؤمنين.

ذكر في الأنساب أنه: نوح عليه السلام بن لامخ بن منوشالخ بن خانوخ، قال: فكان هذا خانوخ قد التزم الحق ووقف عند أمر الله - جلَّ ذكره - بن يارث بن ملايل بن قينان بن أنوش بن شاث، وهو الذي يقال له: شيث، والله أعلم. وشيث ابن آدم عليه السلام فصلوات الله وسلامه على نوح وعلى آبائه الطاهرين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

تفسير سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧)﴾ [الجن: ١-٧].

﴿قُلْ﴾ يا محمد بلغ ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنّ﴾ [الجن:١] قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الجِنّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ﴾ المعنى إلى آخره، فذكر في أولئك أنهم ﴿وَلَّوْا إلى قَوْمِهِم مُنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩] و﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف:٣٠] أي: من كتاب ورسول.

وقال في هؤلاء: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن:١ - ٢].

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن:٣] قيل: عظمة ربنا، وربما كان معناه: تعالى ربنا وتعالت أوليته ورحمانيته، وتعالى غنى ربنا.

روى مسلم الخزاعي قال: قرأت على أم الدرداء: «وأنه تعالى ذكر ربنا» وقيل في قراءة أبي الدرداء: «وأنه تعالى جلال ربنا»، وقرأ قتادة: «وأنه تعالى جِدًا ربُنا» بكسر الجيم منونة الدال ورفع الباء من «ربنا».

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى الله شَطَطًا﴾[1] [الجن:٤] أي: أمرًا

---

(١) السفه: خفة العقل، والشطط: مجاوزة الحد في الظلم وغيره، ومنه: أشط في السوم: إذا أبعد فيه؛ أي: يقول قولاً هو في نفسه شطط، وصف بالمصدر للمبالغة. والسفيه: إبليس أو غيره =

بعيدًا عنه، سفيهنا: هو إبليس - لعنه الله، ثم إلى هذا فيكون كلمة «سفيهنا» للجنس، فكل من كفر بالله ورسله فهو سفيه سفه نفسه وسفه عقله.

وقرئ بكسر «أن» من لدن قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ [الجن:٤] إلى قوله: ﴿وَأَنَّ المَسَاجِدَ لله﴾ [الجن:١٨] وبفتحها، فمن عطف على القول من قوله: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ كسر، ومن عطف على ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ [الجن:١] فتح قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى الله كَذِبًا﴾ [الجن:٥] إلى هنا انتهى قول الجن.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ﴾ [الجن:٦] إلى قوله: ﴿لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ [الجن:٨] الجحدري: «أن لن تَقَوّل» بفتح القاف والواو مشددة: أنبأنا - جلَّ ذكره - أن الجن لا يعلمون الغيب، وأنهم قد يجهلون الحق كما قد نجهله نحن، وأنهم يظنون كما نظن، والظن يخطئ ويصيب، وأنهم رجال ونساء بقوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦] والرهق: الضيق والشدة، وهو هنا كناية عن الضلال.

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الجن:٨ – ١٣].

قوله ﷻ حكاية عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن:٨] الحرس: الملائكة، والشهب: الراجم، الملائكة ترمي بالشهب لما وجدوا السماء قد أشدت حراستها شكوا ذلك إلى سفيههم، واجتمعوا إليه في

=

من مردة الجن الذين جاوزا الحد في طرف النفي إلى أن أفضى إلى التعطيل ، أو في طرف الإثبات إلى أن أدى إلى الشريك والصاحبة والولد.

ذلك فقال: ماذا إلا لحدث قد حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فجاء النفر الذين توجهوا نحو تهامة ووجدوا رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه بسوق عكاظ وهو يصلي بهم صلاة الصبح فاستمعوا له، وقال بعضهم لبعض: هذا الذي منعكم من خبر السماء.

قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠] أظهر الله من صنعه علمه المغيب عنا وعنهم يومئذٍ، فحقق منهم قومًا بالكفر والضلالة، وخص آخرين بالإيمان والهداية.

قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الجن:١١] أنبأنا الله – جل ثناؤه – على ألسنتهم أن منهم الصالحين، ومنهم دون ذلك.

قالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ أي: نحن والمؤمنون، بمعنى: أيقنا وعلمنا ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: إذا متنا وكنا ترابًا في الأرض لن نعجزه، بل يعيدنا كما قد بدأنا ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الجن:١٢] إذ الهارب عنه إنما ينقلب في قبضته.

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجن: ١٤– ٢٢].

قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا المُسْلِمُونَ وَمِنَّا القَاسِطُونَ﴾ [الجن:١٤] قسط بمعنى: جار، وأقسط بمعنى: عدل في الحكم، وهذا منتظم المعنى بقولهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الجن:١١].

قال الله – عز من قائل: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي: على طريقة الحق الإسلام

والإيمان والعمل الصالح ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[١] [الجن:١٤ - ١٧] حتى ينفذ فيهم حكمه الحق ويصدق قوله الأول: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[٢] ويمكن أن يكون هذا من قول الجن لقومهم يدل على صحة ذلك إخباره عنهم بأن، وكأنه يعبر عن إيمانهم وهدايتهم.

قال الله سبحانه: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله فَلَا تَدْعُوا مَعَ الله أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] هذا كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١] فالمساجد هاهنا هي: آراب السجود، ثم تدخل جميع الأجسام بالتبعية لصحة القول بأن الله خالق الكل.

يقول الله ﷻ: خلق لكم آراب السجود الوجه واليدين والركبتين والقدمين فأنعم عليكم بها فلا تسجدوا بها إلا له وحده.

قالوا: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ﴾ يعنون: رسول الله ﷺ يصلي لله بأصحابه ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩] اللبد: ما تراكم على ظهر الأسد من وبرته، لما رأوه يصلي بأصحابه وهم يصلون بصلاته ويسجدون بسجوده ويركعون بركوعه ويقومون بقيامه قالوا لقومهم: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

رُوي هذا عن رسول الله ﷺ، جاء أن عمر بن الخطاب ﷺ لما بعث النعمان بن مقرن إلى الفرس غازيًا في جموع المسلمين نزل بساحتهم، فأرسل إلى ملكهم المغيرة بن شعبة يدعوه إلى الله وإلى الإسلام والإيمان، وكان قد أرسل الملك طليعة له ليخبره بشأن المسلمين، وكان مما أطلعه عليه أن قال: هم إذا صلوا صفوا أنفسهم صفوفًا، ويقدمهم رجل منهم يقومون بقيامه ويسجدون بسجوده ويقعدون بقعوده ويفعلون بفعله، لا تخالف فيما بينهم، قال: فلما سمع الملك بذلك من وفاقهم راعه ذلك، وقال: مالي ولهؤلاء، مالي ولعمر.

---

(١) الإسقاء والسقي بمعنى واحد، وقال الراغب: السقي والسقيا هو أن تعطيه ماء ليشرب والإسقاء أن تجعل له ذلك له حتى يتناوله كيف شاء كما يقال: أسقينه نهرًا فالإسقاء أبلغ، وغدق من باب علم إذا غزر وصف الماء به للمبالغة في غزارته كرجل عدل وتخصيص الماء الكثير بالذكر؛ لأنه أصل السعة.

(٢) تقدم تخريجه.

وبوجه آخر: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ﴾ أي: يدعوهم إلى الله كاد المشركون ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ عداوة له وجمعًا عليه والله يعصمه ويحوطه، دل على هذا التوجيه قول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا * قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًا وَلَا رَشَدًا...﴾ [الجن:٢٠ - ٢١].

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن:٢٣ - ٢٨].

قوله ﷻ: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ﴾ [الجن:٢٦] وقرأ السري بن منعم: «علم الغيب» بغير ألف إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٧] عام في المرسلين من الملائكة الناس، والضمير الذي في قوله: «فإنه» يسلك: راجع - والله أعلم - إلى الرسول الملك يسلك من بين يدي الرسول البشري، رصد الشيطان مارد أو ظن أو تمنى يكون من الرسول يقدح في خاطره مع الوحي أو قبله.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...﴾ [الحج:٥٢].

﴿لِيَعْلَمَ﴾ الله - جلَّ ذكره - ﴿أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يعلم ذلك واقعًا كما قد علمه سابق العلم أنه كائن، وقرأ ابن عباس والزهري: «لِيُعلم أن قد» بضم الياء ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ يعني: الرسل من الملائكة والبشر ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن:٢٨] فيما لم يزل وفيما لا يزال، وقرأه ابن أبي عبلة: «وأُحصِي كل شيء عددًا» على ما لم يسمَّ فاعله، وقرأ أيضًا: «وأحيط بما لديهم» على ما لم يسمَّ فاعله.

تفسير سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤)﴾ [المزمل:١-١٤].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾[1] [المزمل:١] أدغمت التاء في الزاي، وفي حرف

---

(١) قوله: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ أصله: المتزمل، فأدغمت التاء في الزاي، والتزمل: التلفف في الثوب. قرأ الجمهور: (المزمل) بالإدغام. وقرأ أبيّ: «المتزمل» على الأصل. وقرأ عكرمة بتخفيف الزاي، وهذا الخطاب للنبيّ ﷺ وقد اختلف في معناه، فقال جماعة: إنه كان يتزمل ﷺ بثيابه في أوّل ما جاءه جبريل بالوحي فرقًا منه حتى أنس به. وقيل المعنى: يا أيها المزمل بالنبوّة، والملتزم للرسالة. وبهذا قال عكرمة وكان يقرأ: «يا أيها المزمل» بتخفيف الزاي وفتح الميم مشدّدة اسم مفعول. وقيل المعنى: يا أيها المزمل بالقرآن. وقال الضحاك: تزمل بثيابه لمنامه. وقيل: بلغه من المشركين سوء قول، فتزمل في ثيابه وتدثر، فنزلت: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ و﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وقد ثبت أن النبيّ ﷺ لما سمع صوت الملك، ونظر إليه أخذته الرعدة، فأتى أهله، وقال: «زملوني دثروني» وكان خطابه ﷺ بهذا الخطاب في أول نزول الوحي، ثم بعد ذلك خوطب بالنبوّة والرسالة﴿قُمِ اللَّيلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي: قم للصلاة في الليل. قرأ الجمهور: (قم) بكسر الميم لالتقاء الساكنين. وقرأ أبو السماك بضمها اتباعًا لضمة القاف. قال عثمان بن جني: الغرض بهذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين فبأيّ حركة تحرك فقد وقع الغرض. وانتصاب الليل على الظرفية. وقيل: إن معنى (قم) صلّ، عبر به عنه واستعير له. واختلف هل كان هذا القيام الذي أمر به فرضًا عليه أو نفلاً؟ وسيأتي إن شاء الله ما روي في ذلك. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ استثناء من الليل أي: صلّ الليل كله إلّا يسيرًا منه، والقليل من الشيء هو ما دون النصف. وقيل: ما دون السدس. وقيل: ما دون العشر. وقال مقاتل والكلبي: المراد =

ابن مسعود: «يأيها المتزمل والمتدثر» وهو الذي تزيل بثيابه وتدثر، والدثار من الثياب: ما لبس فوق الشعار.

﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [المزمل:٢] يعني، وهو أعلم: ثلثي الليل؛ يعني: حين يبقى ثلثا الليل، يدل على صحة هذا التأويل قول رسول الله ﷺ: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا في ثلثي الليل...**»[1] وفي أخرى: «**شطر الليل**»[2] وفي أخرى: «**حتى يبقى من الليل ثلثه**»[3].

قال قائلون: إن هذا قبل أن تفرض الصلاة، ولما فرضت صار قيام الليل نافلة، وإنما فرضت الصلاة بمكة ونزول هذه السورة كان بالمدينة.

قالت عائشة - رضي الله عنها: فرض الله على رسوله قيام الليل وعلى أصحابه معه، كيف والله ﷻ يقول له: «**هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي**»[4].

وإنما ذلك، والله أعلم، أن الله - جلَّ ذكره - رَغَّبَ رسوله والمؤمنين على لسان الرسول ﷺ في قيام الليل؛ ليجعل ذلك للمؤمنين من المعهود والمتعارف من القرب ونحو هذا، فقام رسول الله ﷺ حولاً كاملاً وأصحابه معه، وكانت الأوراد آخر الليل من ثلثي الليل ونصفه وثلثه، قالت عائشة: «وأمسك الله في السماء خاتمتها حولاً كاملاً، ثم أنزل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾

=

بالقليل هنا: الثلث، وقد أغنانا عن هذا الاختلاف قوله (نِّصْفَهُ) إلخ، وانتصاب (نصفه) على أنه بدل من الليل. قال الزجاج: نصفه بدل من الليل، وإلّا قليلاً استثناء من النصف، والضمير في منه وعليه عائد إلى النصف. والمعنى: قم نصف الليل، أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث، أو زد عليه قليلاً إلى الثلثين، فكأنه قال: قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه. وقيل: إن نصفه بدل من قوله (قليلاً) فيكون المعنى: قم الليل إلّا نصفه، أو أقلّ من نصفه، أو أكثر من نصفه، قال الأخفش: نصفه أي: أو نصفه، كما يقال: أعطه درهمًا درهمين ثلاثة، يريد، أو درهمين، أو ثلاثة. انظر: [فتح القدير (٧/٣٣٥)].

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (٧٥٠٠)، والنسائي في الكبرى (١٠٣١٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣١٦٤)، ومسلم (١٦٣)، وابن حبان (٧٤٠٦)، وأبو عوانة (٣٥٤)، والنسائي في الكبرى (٣١٤)، وأبو يعلى (٣٦١٦)، وابن منده في الإيمان (٧١٤).

إلى آخر السورة».

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ١٥—٢٠].

قالت: وجعل الأوراد أجزاء من القرآن بقوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ الله وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أي: المفروضة ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المكتوبة ﴿وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: من نوافل الخيرات ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ الله هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ﴾ أي: في الأسحار ثم في سائر الأوقات ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

تفسير سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)﴾ [المدثر: ١ – ٢٥].

﴿الرُّجْزَ﴾[1] [المدثر:٥] العذاب، ولما كان الكفر والشرك وما جرَّ إلى ذلك سببًا لوجوب العذاب سمي: رجزًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦] أي: لا تعطى لتأخذ أكثر منه، ويكون المعنى أيضًا: لا تمنن بعلمك ولا بما تعطيه ولا تستكثره.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر:٧] أي: في العمل بطاعة الله وعن المعاصي وعلى المصائب، وأحضر في ذلك نية، واجعل ذلك منك في جنب الله - جلَّ ذكره - و﴿النَّاقُورِ﴾ [المدثر:٨] القرن.

---

(١) قرأ الجمهور: «الرجز» بكسر الراء. وقرأ الحسن ومجاهد وعكرمة وحفص وابن محيصن بضمها. وقال مجاهد وعكرمة: الرجز: الأوثان، كما في قوله:﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج:٣٠] وبه قال ابن زيد. وقال إبراهيم النخعي: الرجز: المأثم، والهجر: الترك. وقال قتادة: إساف ونائلة، وهما صنمان كانا عند البيت. وقال أبو العالية والربيع والكسائي: بالضم: الوثن، وبالكسر: العذاب. وقال السديّ: بضم الراء: الوعيد، والأوّل أولى. فتح القدير (٣٤٧/٧).

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر:١١] يتوجه قوله وحيدًا إلى وجهين:

أحدهما: ذرني ومن خلقت وحدي لم أشرك في خلقي له أحدًا، وخولته ووسعت له في الرزق، والمحذوف منه، ثم هو يعبد غيري ويدين لسواي ذرني وإياه وعيد منه شديد.

والوجه الآخر: أن يكون قوله: ﴿وَحِيدًا﴾ وصف للعبد، كما قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم يخرج من بطن أمه أحمر لا قشر عليه، ثم يرزقه الله**»[(١)].

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدودًا﴾ [المدثر:١٢] أي: واسعًا عريضًا.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر:١٣] وصفهم بأنهم يشهدونه، وهذا تعريض بسعة الرزق والتمكن، فلا يغنيهم عنه في طلب الأرباح ضربًا في الأرض، أشار إلى ذلك قوله: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ [المدثر:١٤].

يقول ﷻ: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر:١٥] أي: في الآخرة على شكه في وجوبها، يقول: إن كان لا بد من دار بعد هذه فأنا فيها أوسع حالاً وأكثر رزقًا كما قال غيره: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦].

يقول الله - جلَّ ذكره: ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر:١٦] بمعنى: معاند، يمانع على الإيمان بها ويجادل فيها، والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون، بل النار مأواه، نعوذ بالله من عذابه.

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر:١٧] روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**الصعود: جبل في النار يتصعد فيه سبعين خريفًا ثم يهوى فيه، كذلك أبدًا**»[(٢)].

نظم بذلك - جلَّ ذكره: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر:١٨] ذكر أنه الوليد بن المغيرة فكر فيما سمع من القرآن وقدر؛ أي: قرنه في نفسه بما تقرر في هاجسه من شعر وسحر وكهانة وجنون.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٨٩٣) وهناد (٧٨٩)، وابن ماجة (٤١٦٥)، وابن حبان (٣٢٤٢) وابن قانع (١/٣٢٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٤٩) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٤٦٦).

(٢) أخرجه الحاكم (٣٨٣٢).

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر:١٩ - ٢٠] وهو دعاء عليه مجاب لا محالة، الأولى منهما لفكره: كيف فكر؟ ولتقديره: كيف قدر؟ ومن عذاب هذا في دار البرزخ وفي دار القرار القتل زائدًا على عذابه المعد له لأجل هذا الدعاء ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٤٧].

لما كان فكره ذلك وتقديره مانعًا لبعض أتباعه من حياة الإيمان أصيب بقتل حياة جسمه بعد الموت أبدًا، والعرب تدعو بذلك على أعدائها، ثم كثر استعمال ذلك واتسعوا فيه كعادتهم، فربما قالوا ذلك مع الاستحسان، فيقولون: قاتله الله ما أشعره، وقاتله الله ما أظرفه، وأما قول الله ﷻ فحق ودعاؤه مجاب لا محالة.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر:٢١] أي: بقلبه الوسنان وعقله القاصر.

﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ العبوس: تزند في الوجه مع تقبض جلده ما بين العينين، ثم قال: ﴿وَبَسَرَ﴾ [المدثر:٢٢] والبسور: هيئة في الوجه تدل على تحزن في القلب، أما تحزنه فلأنه لا يوافق عنده ما كان يقرن القرآن به من شعر وسحر؛ لأنه قال: قد سمعنا الشعر رجزه وهرجه، ورأينا الجنون بخبطه وخبله، فكان لا يلتئم عليه ما كان يقرنه، فيبدو العبوس في وجهه والبسور حتى نكس على رأسه فأدبر عن تحقيق النظر واستكبر عن قبول الحق.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١)﴾ [المدثر:٢٦-٣١].

يقول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥-٢٧] فكان جزاؤه على ذلك القتل، ثم القتل، وأن يصليه سقر.

ثم وصف سقر وما هي ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٨ - ٢٩] أي: تغير الشراب، كما قال: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ

﴿فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٤].

نظم بذلك قوله: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠] ذكر هذه العدة وقوله الحق، فيمكن أن يكون تسعة عشر صنفًا من الملائكة - على جميعهم السلام - أو تسعة عشر ملكًا، ثم لا يعلم عدد أتباعهم ولا مقدار مددهم إلا الله.

وقد جاء في الخبر أن الله - جلَّ ذكره - يقول للكافر: خذوه، فيبتدره سبعون ألف ملك، فقيل: إنه ينقطع في أيديهم لشدة بطشهم وقوة أخذهم، فيقول: ألا ترحموني؟ فيقولون له: أرحم الراحمين لم يرحمك، أفنحن نرحمك؟ وقول الله هو الحجة البالغة.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١] وأقرب ما هو الحق في هذا الموضع أنه وصف لعذابه في دار البرزخ، والمعذبون له تسعة عشر من الملائكة عليهم السلام، وسقر في دار البرزخ لم يبلغ أن يسود الوجوه كما يفعل ذلك في دار الخلود كما وصفها الله بقوله الحق فيما هنالك: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس:٢٧] آية ذلك: ما قد تفعله الشمس هنا بوجوه تبرز إليها، فهي تلوّح وجوههم، فإذا كانوا في الدار الآخرة أتمت تسويد الوجوه فتكون كقطع الليل المظلم، نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا وفي الآخرة، وفيما بين ذلك غلب هذا التوجيه.

﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المدثر: ٣٢ - ٤٨].

قوله - عز من قائل: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢] والسلوك: عبارة عن خروجهم عنها يوم البعث لأدهى منها وأمر، وقوله أيضًا: ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] وقوله: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ [المدثر:٣٥] وهن أربع مواطن: دار الدنيا التي اكتسبوا

فيها ما هو ذلك جزاء له، ثم دار البرزخ، ثم يوم البعث، ثم الدار الآخرة دار الخلد.

ودل عليه أيضًا قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨] والرهن معرض بأن يفتدى أو يغلق، وتلك رهن قد غلقت، نعوذ بالله من ذلك، ثم استثنى منهم أصحاب اليمين، فإن منهم أصحاب المعاصي يكونون أيضًا فيما هنالك على دركات هي رهن معرضة بأن تفتك بالشفاعة وبالقصاص وبرحمة الله.

ثم اختص بالوصف أهل العلية من ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر:٣٩] بقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يقولون: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر:٤٠-٤٢] فيجيبونهم بقولهم: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر:٤٣] فمن هؤلاء الموحدون ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدثر:٤٤ - ٤٥] فمن كان من الموحدين يرجى لهم الخروج منها بعد القصاص وبرحمة الله، وأما الكفار فهم مجازون بدقائق الشريعة مع عظيم الكفر لأجل معلوم بهذا القول.

يقول - عز من قائل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1] [المدثر:٣١] أما استيقان أهل الكتاب فلأجل اتفاق ما جاء به القرآن من هدي بما جاءهم في كتابهم، فيردف العلم العلم فيصير يقينًا.

---

(١) لأنَّ عدتهم تسعة عشر في الكتابَيْن فإذا سمعوا مثلها في القرآن تيقّنوا أنه مُنزَّل من عند الله، وهو متعلق بالجعل المذكور، أي: جعلناهم كذلك ليكتسبوا اليقين بنبوته ﷺ، وصِدْقِ القرآن، لموافقته لِما في كتبهم ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿إِيمَانًا﴾ لتصديقهم بذلك، كما صدّقوا بسائر ما أُنزل، فيزيدون إيمانًا مع إيمانهم الحاصل، أو: يزداد إيمانهم تيقُّنًا؛ لما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم، ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد لِما قبله من الاستيقان وازدياد الإيمان، ونفي لما قد يعتري المستيقن من شُبهة ما، وإنما لم ينظم المؤمنين في سلك أهل الكتاب في الارتياب، حيث لم يقل: ولا يرتابوا؛ للتنبيه على تباين النفيين حالاً، فإنَّ انتفاء الارتياب عن أهل الكتاب مما ينافيه لِما فيه من الجحود، وعن المؤمنين لما يقتضيه من الإيمان، وكم بينهما؟ والتعبير عنهم باسم الفاعل بعد ذكرهم بالموصول والصلة الفعلية المُنبئة عن الحدث؛ للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازدياده ورسوخهم في ذلك.

وروى جابر بن عبد الله: أن قومًا من أهل الكتاب جاءوا إليه في قصة فيها طول، وفيها: إنهم سألوه عن خزنة جهنم، فقال رسول الله : ﷺ «**بيده هكذا وهكذا في مرة عشرة وفي مرة تسعة**» فقالوا: بارك الله عليك يا أبا القاسم، ثم سألهم: «**ما تربة الجنة؟**» قال: فسكتوا هنيهة، ثم قالوا: خبزة يا أبا القسم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**الخبزة من الدرمك**»[(١)].

أرى - والله أعلم - أن أهل الكتاب السائلين رسول الله إنما سألوه عن دار البرزخ وعدة المعذبين فيما هنالك، وأن الله قد وصفهم بأنهم عالمون بذلك؛ لقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ [المدثر:٣١].

وجاء أن امرأة من يهود دخلت على عائشة فقالت لها: «**إن أصحاب القبور يعذبون فيها...**»[(٢)].

وأما وصفه المؤمنين بازدياد الإيمان؛ فلأنهم قد آمنوا بعذاب الآخرة ونعيمها، فإذا علموا هذا ازدادوا إيمانًا إلى إيمانهم، وأما نفي الارتياب عن الذين آمنوا ويريد الإيمان لآخرين منهم فللذي تقدم من أن جنود الله لا تحصى، وبوجه آخر: لو لم يكونوا إلا تسعة عشر أو ملكًا واحدًا ثم أراد رب العزة شيئًا لكان ما شاءه منهم؛ لأنهم من أمره وبأمره يعملون، بل لو لم تكن الملائكة ولا النار في الوجود لعذبهم بأنفسهم وأنفاسهم وبنومهم وبأكلهم وبشربهم إذا شاء ذلك أشد من عذاب النار أضعافًا، فويل للمكذبين.

يقول الله - جل من قائل: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ نظم بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ﴾ يعني: جهنم ﴿إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٣١] يعرض من اليقين بما تقدم ذكره من أنه يعذب من يشاء بما شاء أشد العذاب.

ثم أقسم ﷻ يقول: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر:٣٢ - ٣٣] قرئ بالمد وبالقصر: «إذا أدبر» و«إذا دبر» ﴿إِنَّهَا﴾ يعني: جهنم ﴿لإِحْدَى الكُبَرِ﴾

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٩٢٦) قال الهيثمي (٤١٢/١٠): إسناده حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٦٦)، ومسلم (١٣٤٩).

[المدثر:٣٥] أثبت وجودها في معنى التذكار؛ لئلا يتوهم متوهم غير ما في الحقيقة بل هي إحدى الكبر في هذه الدار، كيف لا وإنما تأسست بفيحها وانبنت على نفسيها ووترهما فتح رحمته عن جنته ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر:٢].

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٣٦] أي: جعلنا ذلك نذيرًا للبشر، وأكدنا النذارة بالرسول والرسالة لمن شاء منكم أن يتقدم إلى نيل رحمته والصعود إلى الجنة التي فتح هذه الرحمة عنها، أو يتأخر إلى البعد عن الله تعالى والنار الكبر التي برد ما هنا وحره موجود عنها.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر:٣٨ - ٣٩] ليسوا بمرتهنين بأعمالهم، بل هم المكرمون بها.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦)﴾ [المدثر:٤٩ – ٥٦].

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر:٤٩-٥١] القسورة: هو الأسد، ويقال القسورة: ضجيج الناس وكثرتهم.

نظم بذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر:٥٢] هو كما قال غيرهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾ [الأنعام:١٢٤].

﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ [المدثر:٥٣ - ٥٤] إثارة الآخرة في الدنيا ويكون المراد أيضًا بالتذكرة السورة، ينتظم بقول القائل: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥].

﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [المدثر:٥٥] القرآن.

﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦].

روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قرأ هذه الآية ثم قال: «**يقول الله: أنا به أهلٌ أن أُتَّقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهًا فأنا أهلٌ أن أغفر له**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٤٦٥)، والترمذي (٣٣٢٨)، وقال: غريب. والنسائي في الكبرى (١١٦٣٠)، والدارمي (٢٧٢٤)، وأبو يعلى (٣٣١٧)، والحاكم (٣٨٧٦)، وقال: صحيح الإسناد.

تفسير سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

الغرض في هذه السورة: إثبات الإعادة بعد البداية، وإثبات الكسب للعبد، وتصحيح إضافة الفعل إليه مع إحراز العلم بتحقيق القدر، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه لا شيء إلا بمشيئة الله ولذلك - وهو أعلم - أقسم بقسمين:

- **أحدهما**: يوم القيامة؛ إذ كانت الإعادة يحل أجلها بها.

- وبالنفس اللوامة؛ إذ المؤمن يلوم نفسه على إتيان المعاصي وجنايات الزلات، ويحمد ربه في تقديره ذلك عليه ويستغفره من ذنبه، والكافر يحمد نفسه ويلوم ربه ويصر على ذنبه ويستمر على فعله، فأقسم الله بخيرهما وأفضلهما.

وغرض ثالث: هو الإعلام بأن القرآن منزل من عند الله - جلَّ ذكره - قولاً ومعنى، لا كسب فيه للرسول ﷺ إلا الاستماع له والوعي والتبليغ، ولما كان القرآن كله كسورة واحدة، وتقدم فيما تلاه علينا إنكار المنكرين للإعادة، وأبعدوا أن يصفوا الله تعالى بالقدرة على إحيائهم في حال كونهم رميمًا وترابًا، كان معنى استفتاحه السورة بـ«لا» في القسمين نفيًا لما زعموه، وتكذيبًا لظنهم الذي ظنوه.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ [القيامة: ١ - ١٥].

ثم أظهر ذلك بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾[1] [القيامة: ٣] ثم

---

(١) يعني: يظن الإنسان إنا لا نقدر على جمع العظام البالية بعد تفرقها، أما ترى في المغناطيس الذي خلقناه في الدنيا وهو حجر جسماني ظلماني وأودعنا فيه خاصية جذب المتفرقات =

قال: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة:٤] البنان: هي أصابع اليدين، والبنان: أعضاء الإنسان.

يقول - عز من قائل: أأعظمتم جمعنا عظامكم البعض منها إلى البعض، وجلب مواد الخلقة إليها التي انتزعناها عنها حال البلاء مدة فنائها، بلى ونحن قادرون على تسويته خلقًا سويًا بالحكمة التي أوجدناها عليه والقدرة التي بها قدرنا على أول خلقها.

نظم بذلك قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة:٥] إن كان الضمير الذي في قوله: ﴿أَمَامَهُ﴾ راجعًا إلى الإنسان، فمعناه: تقديمه المعصية وتأخيره التوبة، من قولهم: مضى فلان على وجهه؛ أي: على غير مقصد ولا إلى مبلغ يبلغه، وإن كانت راجعة على الله - جلَّ ذكره - فمعناه: بل يريد الإنسان ليفجر أمامه؛ أي: بين يدي الله وبمشاهدة منه، وحذف هنا كلامًا معناه ما عبر عنه، ويطمع ألا يأخذه به أو يجازيه بفجوره أو ما كان هذا معناه، فإذا ذكره النذير بعقاب الله قال: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة:٦].

أتبع ذلك ما هو منتظم به قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ [القيامة:٧] يعني: حين الموت ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة:٨ - ٩] طلوع الشمس من مغربها ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ [القيامة:١٠].

يقول الله - جلَّ ذكره: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة:١١] أي: لا ملجأ.

﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة:١٢] كقوله: ﴿وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ [التوبة:١١٨] وقول رسول الله ﷺ: «**لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك**»[1].

=

وجمعها، ومثاله بيّن في عالم الشهادة إذا سحق الحديد سحقًا وتفرق أجزاؤه في حائط ثم أقيم المغناطيس على رأس الحديد المسحوق المتفرق، كيف يجمع المتفرقات؟ بقدرتنا وبضم بعضها إلى بعض، فما ظن الكافر بالروح الإنساني وخاصيته إذا أمرنا أن ينظر إلى أجزاء قالبه المتفرقة لا يقدر أن يجمعها، وخاصية الروح الإنساني اللطيف العلوي لا يكون أقل من الحجر الجسماني الكثيف السفلي.

(١) أخرجه أحمد (١٨٥٨٤)، والبخاري (٢٤٤)، ومسلم (٢٧١٠)، وأبو داود (٥٠٤٦)، والترمذي (٣٣٩٤) والنسائي في الكبرى (١٠٦١٨)، وابن خزيمة (٢١٦)، وابن ماجة (٣٨٧٦).

يقول الله - جل من قائل: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة:١٣] كقول رسول الله ﷺ: «لا حول ولا قوة إلا بالله أنت المقدم وأنت المؤخر»[1].

فالإنسان منوط به فعله، مضاف إليه خيره أو شره، إن كان خيرًا فمن الله، وإن كان شرًا فمن نفسه، فمتى عقد على نفسه للعزيز الرحيم هذا العقد وأقر به وأمكن رقبته من ربقة العبودية وجد في أسباب الخلاص، وأجهد نفسه في مرضات ربه رحمة وإلا أخذه بعلمه فيه.

نظم بذلك قوله الحق ﷻ: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة:١٤ - ١٥] كقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨].

يقول ﷻ: يقول هذا وهو على كفره مقيم، وعلى إصراره ثابت، إنه ليعلم حين إتيانه الذنب أنه مختار له قاصد إليه، وإن قال في ذلك: إنه علي مقدور وأنا لا حول لي ولا قوة إلا بالله، فإنه يجد نفسه مطيعة لذاتها مخالفة لربها مغتبطًا بما هو عليه فرحًا به، فمتى لام نفسه وعصاها، وحمد فعل ربه وأطاعه، واستغفر لذنبه فهو المحمود المثاب، ومتى حمد نفسه وأطاعها ولام ربه وعصاه وأصر على ذنوبه فهو المذموم الملعون المعاقب.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ [القيامة:١٦ - ٣٥].

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾

---

(١) لم أقف عليه هكذا.

[القيامة:١٦ - ١٧] أعلم الله ﷻ أن القرآن منزل على الرسول ﷺ قولاً ومعنى، لا كسب له فيه ولا عبارة عنه بلسانه سوى أنه تلقاه، فيخرجه الله على لسانه قرآنًا عربيًا ليبلغه إلى الناس، يقول الله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٨ - ١٩] أي: على لسانك وألسنة العلماء من أمتك بعدك.

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [القيامة:٢٠ - ٢١] انتظم هذا الكلام بما عبر عن من تكذيبهم بالرجعة وقلة المراقبة، وإصرارهم على الكفر وترك التوبة.

نظم بذلك ما هو في معناه قوله ﷻ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: اليوم الآخر ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢].

﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣] لما سأل الفاجر ﴿أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٦] أعلم بما يؤول إليه الأمر.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤ - ٢٥] الظن هنا بمعنى: اليقين، والفاقرة: المهلكة؛ لأنها تقطع فقار الظهر، يقول: قد أيقنت بالفاقرة نصيبها.

فصل

أعلم الله ﷻ بصدق قيله أن النظر في الحياة الآخرة بقوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢] أي: ناعمة ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**ترون ربكم عيانًا كما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب، وكما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيتها ولا تضارون**»[1].

وقال الله - عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ثم قال: ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس:٧] كما قال نوح ﵇: ﴿مَا لَكُمْ لَا

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (١٤٦٦).

تَرْجُونَ لله وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا.....﴾ [نوح:١٣ - ١٤].

وقد تقدم أنه كما جعل في هذه الدار منافع ما هاهنا مقسمة على مطالع الشمس والقمر ويقيد ما سخرهما بإذن الله وبواسطة الملائكة الشافعين في ذلك، العاملين له فيه بأمره، فإذا قوض هذا البناء وبدلت الأرض والسماء، وكورت الشمس، وخسف القمر، وانكدرت النجوم، وأنجز لعباده ما وعدهم به من كريم الجزاء، كان فيما هو موجود في على المآب ما هو الشمس والقمر عليه آيتان في هذه الدار. وما هو هنا الحق المخلوق به السموات والأرض وما بينهما آية عليه فيما هنالك، هو الحق المخلوق به السماوات والأرض وهو الحق المبين.

فآية النهار ضياء، وآية الليل نور، وهو المتجلي لهم بذلك الضياء، وذلك النور كما قال رسول الله ﷺ: «**ترون ربكم كما ترون الشمس صحوًا وكما ترون القمر**»[١] فذكر القمر لدوامه وعمومه مدة الليل، والشمس لشمولها على مدة النهار، لكن ذلك التجلي لا أفول ولا غروب ولا انتقال ولا اضمحلال، ولأجل ذلك تبرأ إبراهيم ﷺ من التعبد للشمس والقمر والكوكب زائدًا إلى ما رأى فيهن من مخايل الحدث وآفات النقص وعلامات الافتقار.

فصل

وليعلم أنه ﷻ لا يتجلى لعباده بتجل قد تقدم ضياء ونورًا إنما هو تجل مجدد أبد الآباد، وكما لا يعجزه صورة يخلق عليها، كذلك لا يجدد ظهورًا قد كان آية ذلك الشمس والقمر والكوكب، لا يطلع الطالع منها من حيث طلع بالأمس.

قال الله - عز من قائل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦ - ٢٧].

ثم قال: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] فكما أن الشمس والقمر والكوكب كل يوم في مطلع، كذلك له ظهور غير ظهور قد كان لذلك.

---

(١) انظر السابق.

قال - عز من قائل: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس:٥] إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦] إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ تعجبهم أبدًا ويتعجبون، فهجراهم أبدًا، ودعواهم: سبحانك اللهم ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ [يونس:٩ - ١٠] كما قال: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨].

ثم قال - عز جلاله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وقال نوح ﷺ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] وهو وصف الجلال والكبرياء والجمال والبهاء والسناء ونحو هذا، وتجديد ظهور التجلي.

قال إبراهيم ﷺ لما رأى الشيب نزل به: «ما هذا يا رب؟ قال: وقار يا إبراهيم» أي: إن هذا تجديد ظهور لك ونحو هذا، فقال: «رب زدني وقارًا»[١].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ [القيامة:٢٦] يعني: النفس وطلب له الأُساة[٢] والرقي وأيقن بالفراق ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة:٢٩] شدة ما هو فيه من علز الموت وحسرة الفوت ومرارة الفراق لهول ما يعاين من هول المطلع.

يقول الله - جل ثناؤه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾[٣] [القيامة:٣١] أي: وجد لا مصليًا ولا مزكيًا ولا مصدقًا، بل كان مكذبًا بلقاء الله والدار الآخرة ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ [القيامة:٣٣] يمشي ممتطيًا، وهي مشية التبختر، مأخوذ من المطا، وهو: الظهر إذا مشى لوى ظهره، ويقال: إنها نزلت في أبي جهل، وهي عامة فيمن عمل بعمله واستن بسنته.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ [القيامة:٣٤] فأولى كلمة وعيد وتهديد أولى لك؛ أي: تترك ما أنت عليه وتقبل إلى ربك، وقد تكون بمعنى

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الأُساة: مفردها آسي وهو الطبيب. انظر الصحاح في اللغة (١/١٤).

(٣) هذا في أبي جهل، وفيه وجهان: أحدهما: فلا صدّق بكتاب الله ولا صلّى لله. قاله قتادة. الثاني: فلا صدّق بالرسالة ولا آمن بالمرسل، وهو معنى قول الكلبي. ويحتمل ثالثًا: فلا آمن بقلبه. ولا عمل ببدنه. النكت والعيون (٤/٣٥٨).

النصيحة للرسول، والمراد بذلك: كل المؤمنين أولى لك أن تقدم لذلك اليوم، فأولى لك أن تأخذ حذرك، ثم ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ فهذه لمن كذب بالإعادة والأولى لمن قلت مراقبته ربه وأصر على ذنبه واغتبط بجرمه.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦] أي: هملاً ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَّنِيٍّ يُمْنَى﴾ [القيامة:٣٧] قرئت بالياء والتاء من وصف النطفة والياء من وصف المني، يقول - عز من قائل: هلا رأيتم النطفة تركت على حالها حتى جعلت علقة، وكذلك العلقة لم تترك حتى خلقت مضغة، وكذلك المضغة إلى آخر درجات الخلق والإنشاء، كذلك لستم بمتروكين أمواتًا حتى نخلقكم ثانية لنجزيكم بما عملتم، وكما صح منا الفعل أولاً كذلك في الآخرة.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى﴾ [القيامة:٣٨-٤٠] انتظم هذا بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى﴾ [القيامة:٣ - ٤] والله صدق الله ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥٦].

تفسير سورة الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾[1] [الإنسان: ١] معنى «هل» هنا بمعنى: أليس، وهي لغة، والمقصود التقرير، ومن قولهم: ألست أخي، ألست صاحبي.

---

(١) «هل» حرف استفهام، فإن دخلت على الجملة الاسمية لم يمكن تأويله بـ«قد»؛ لأن «قد» من خواص الفعل، فإن دخلت على الفعل فالأكثر أن تأتي للاستفهام المحض. وقال ابن عباس وقتادة: هي هنا بمعنى: قد. قيل: لأن الأصل «أهل» فكأن الهمزة حذفت واجتزىء بها في الاستفهام، فالمعنى: أقد أتى على التقدير والتقريب جميعًا؛ أي: أتى على الإنسان قبل زمان قريب حين من الدهر لم يكن كذا، فإنه يكون الجواب: أتى عليه ذلك وهو بالحال المذكور. وما تليت عند أبي بكر، وقيل: عند عمر رضي الله تعالى عنهما قال: ليتها تمت؛ أي: ليت تلك الحالة تمت، وهي كونه شيئًا غير مذكور ولم يخلق ولم يكلف. والإنسان هنا جنس بني آدم، والحين الذي مرّ عليه، إما حين عدمه، وإما حين كونه نطفة. وانتقاله من رتبة إلى رتبة حتى حين إمكان خطابه، فإنه في تلك المدة لا ذكر له، وسمي إنسانًا باعتبار ما صار إليه. وقيل: آدم عليه الصلاة والسلام، والحين الذي مر عليه هي المدة التي بقي فيها إلى أن نفخ فيه الروح. وعن ابن عباس: بقي طينًا أربعين سنة، ثم صلصالاً أربعين، ثم حمأ مسنونًا أربعين، فتم خلقه في مائة وعشرين سنة، وسمي إنسانًا باعتبار ما آل إليه. والجملة من ﴿لَمْ يَكُن﴾ في موضع الحال من الإنسان، كأنه قيل: غير مذكور، وهو الظاهر أو في موضع الصفة لحين فيكون العائد على الموصوف محذوفًا؛ أي: لم يكن فيه. انظر [تفسير البحر المحيط (١٠/ ٤٠١)].

قال الله - عز من قائل: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] ولما تقدم ذكر الإعادة وإثباتها وإنكارهم لها نظم أول هذه السورة بما جرى في التي قبلها قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحْيِيَ المَوْتَى﴾ [القيامة:٤٠] أليس قد ﴿أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] يقول: فأوجدناه من عدم وصورناه على غير مثال، فكيف تنكرون إعادته بعد هذا؟.

ثم جعل يخبر بصدق قيله عن خلقته بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ جمع مشج كخلط وأخلاط ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: لنبتليه هذا إخبار منه عن خلقه آدم عليه السلام ثم عن خلقه بنيه من بعده بالتبعية، يقول: مشج الأمشاج بحكمته وأثار الكون إلى الصورة والتخطيط والتقدير، وإصارة الأمشاج إلى مقصود الخلقة من العدم من حيث العبد، والأمشاج هنا: هي ممزوج الفيحين مع الفتح مع المقصود بالمشيئة إلى معاني اليمين أم إلى معاني الشمال، جمع ذلك كله صنع الصانع وخلق الخالق، وهذا المعني بقوله الحق: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ ثم قال: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢].

لما كان في ممتزج الأمشاج مقتضيات الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما، وكان هو مما في أمشاج ذلك جعله سميعًا بصيرًا عالمًا قادرًا مريدًا، ثم إلى أنهى الأسماء والصفات، وكان أيضًا جاهلاً، أعمى، أصم، عاتيًا، قاسيًا، ثم ابتلاه بالأمر والنهي في المأمور والمنهي، وكان معنى الكفر والإيمان وجميع المأمور به والمنهي عنه في أمشاج ما خلقه منه، كما أنه لما مشج بأمشاج أبيه وأمشاج أمه أشبههما، وكان أقرب شبهًا بمن غلب عليه منهما، كذلك أشبه ما يكون عنه من فيح أو فتح، وإلى أيهما مالت به المشيئة العالية كان أقرب شبهًا، ثم إليه الأمر من قبل ومن بعد في تغليب مشيئته بالهداية أو الإضلال.

لذلك يقول - عز من قائل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣].

يقول الله - جل من قائل: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم:٣٢] أي: في أول

الأمر يوم قال: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**»[(١)] وإنما الابتلاء بالأمر والنهي لتقوم الحجة له أو عليه.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ يعني: سبيلي الضلالة والهداية ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣] ثم أخذ في وصف ما أعده للكفور وللشاكر بقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ [الإنسان:٤] إلى آخر المعنى، وكانت السورة أميل إلى البشارة، فأمعن في وصف ذلك لقدمه الذي قدمه قبل الخلق: «**إن رحمتي تغلب غضبي**»[(٢)] وكان آدم ﷺ أولاً فيما هذا سبيله، فغلب رحمته فيه على غضبه، والحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان:٥] لا يقال: كأس، إلا لما فيه الشراب، يقول: كان مزاج الكأس كافورًا، وهي عين ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦] فيمزج لمن دون هؤلاء منها بشرابهم المعهود، كما يمزج لأصحاب عين الكافور من يمين الزنجبيل، والأبرار هم الذين بروا الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وأطاعوه، وصدقوه في أقوالهم وأفعالهم، وصفهم بأنهم يوفون بالنذر ويخافون اليوم الآخر وهو ما حذر من خلافه بقوله: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ [القيامة:٣٤ - ٣٥].

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان:٧ - ١٤].

وبإطعام الطعام المسكين واليتيم والأسير، ولم يكن يومئذٍ أسير إلا كافرًا، وما أراه إلا مخبرًا عما يكون بعد ذلك، والمسجون أسير ووصفهم بالإخلاص في

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

قولهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩] وصف اليوم بالعبوس؛ لكثرة من يعبس فيه القمطرير المجتمع الشر، اقمطر الشر؛ أي: اجتمع واشتد، ويقال: اقمطرت الناقة: إذا رفعت ذنبها وجمعت قمطريها ورزمت بأنفها، والمستطير: الفاشي المنتشر، والنضرة: النعمة.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢] أي: ناعمة.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين:٢٤] والنظرة بالظاء ساكنة العين.

قال رسول الله ﷺ: «**إن أدنى أهل الجنة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله لمن ينظر إلى وجهه غدوة وعشية**» ثم قرأ ﷺ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢ - ٢٣][(١)].

قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٣] لما كان الحر في الدنيا عن وجود جهنم بواسطة الشمس ونشوء الحر والزمهرير، ونقصانهما وتوالجهما بأمره في انتقاصها عدة وسافلة في مشارقها ومغاربها اجتزا بذكرها عن ذكر الحر، واعتمد في مقابلتها على ذكر الزمهرير، وإنما هو فيما هنالك نورًا مؤتلق وضياء على منير، وتضيق اللغة عن عبارة وصف ما هنالك، كفى بالله حسيبًا، هو الحق المبين، آيته ما هنا هنا من حق مخلوق به السماوات والأرض وما فيهن، وأما ظلال أشجارها فهو روح زائد يحيونه ووجد نعيم يجدونه.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً﴾[(٢)] [النساء:٥٧] فهو ظل جوار الملك

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٠) وقال: غريب. وأحمد (٥٣١٧)، وعبد بن حميد (٨١٩).

(٢) قال ابن عطية: أي: يقي من الحر والبرد. ويصح أن يريد أنه ظل لا ينتقل كما يفعل ظل الدنيا، فأكده بقوله: ﴿ظَلِيلاً﴾ لذلك ويصح أن يصفه بظليل لامتداده، فقد قال ﷺ: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر في ظلها مائة سنة ما يقطعها**». انتهى كلامه. وقال أبو مسلم: الظليل: هو القوي المتمكن. قال: ونعت الشيء بمثل ما اشتق من لفظه يكون مبالغة؛ كقولهم: ليل أليل، وداهية دهياء. وقال أبو عبد الله الرازي: وإنما قال: «**ظل ظليلاً**» لأن بلاد العرب في غاية الحرارة، فكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة، ولهذا المعنى جعل كناية عن الراحة، ووصفه بالظليل مبالغة في الراحة. وفي قراءة عبد الله: «**سيدخلهم**» بالياء. انتهى.

=

الأعلى عز يجدونه، وأمن معهود ورضوان مستصحب.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان:١٤] يطيعهم بعيدها وقريبها، يدنو ذاك وينزاح هذا.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا (٢٣)﴾ [الإنسان:١٥ - ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ﴾ [الإنسان:١٥] أي: هي من قوارير، وكل شفاف يصف ما فيه أو ما وراءه فهو قارور، كأنه إنما قيل له ذلك؛ لأن الذي يجعل فيه يقر، وقد كان في مرأى العين الإناء مما يسيل.

﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾ يقول: وهذه القوارير من فضة، وأصل القوارير فيما هاهنا رمك وجندل، وهو على ذلك شفاف يرى باطنه من ظاهره، وفضة ما هنالك ليست كهذه إنما تنسب إليها هذه تسمية لا تشبيهًا بها، وصنعتها الملائكة عليهم السلام، يقول الله - جل من قائل: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان:١٦] أي: الملائكة قدروها، وصنعه قوارير ما هاهنا آدميون فاقدروا قدر ما بين الصناع وأصول المصنوع منه أرض من فضة وأرض من ذهب وأرض من لؤلؤ وأرض من نور ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ

=

وقال الحسن: قد يكون ظل ليس بظليل يدخله الحر والشمس، فلذلك وصف ظل الجنة بأنه ظليل. وعن الحسن: ظل أهل الجنة يقي الحر والسموم، وظل أهل النار من يحموم لا بارد ولا كريم. ويقال: إنّ أوقات الجنة كلها سواء اعتدال لا حر فيها ولا برد. وقرأ النخعي وابن وثاب: «سيدخلهم» بالياء، وكذا ويدخلهم ظلاً، فمن قرأ بالنون وهم الجمهور فلاحظ قوله في وعيد الكفار: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ ومن قرأ بالياء لاحظ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] فأجراه على الغيبة. تفسير البحر المحيط (١٦٩/٤).

الفَضْلُ المُبِينُ﴾ [النمل:١٦].

قوله ﷻ: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة:١٧] يلحق صغيرهم بكبيرهم ويوقف كبيرهم على قدر الصبيان، يخلدون على ذلك السن، وهم الولدان الذين ماتوا قبل وجوب التكليف عليهم فإنهم ماتوا على الفطرة، وأرى - والله أعلم - أنهم أولاد الكفار يصيرهم الله خدمًا لأهل الجنة كما كانوا لهم في الدنيا سبيًا وخدامًا، وأما أولاد المؤمنين فهم مع آبائهم، وحكمهم - والله أعلم - في الجنة غير هذا، وأرى أنهم ينشئون ويملكون، وهو من قوله - عز من قائل: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور:٢١] وبذلك يتم سرورًا لآبائهم.

سئل رسول الله ﷺ عمن مات صغيرًا قبل بلوغ السعي ووجوب التكليف، فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»[١].

أراه - والله أعلم بما ينزل - أنه أراد بقوله هذا فسر قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور:٢١] أي: ألحقناهم بآبائهم سنًّا وملكًا على ما قد كان سبق لهم في علمه العلي ما هم عاملون لو بلغ بهم ذلك، فإنه العالم بما لا يكون كيف كان يكون لو كان، وعلى هذا التأويل تجتمع الروايات، وبهذا يتم سرور الآباء والأبناء.

وقد قال ﷺ في ابنه إبراهيم يوم مات: «**إن لإبراهيم لظئرين تتمان رضاعه في الجنة**»[٢] فأنبأ باستقبال إنشائه فيما هنالك.

يقول - عز من قائل: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم﴾ أي: من عمل كنا قدرنا لهم أن يعملوه، لو أدركوا معنى هذا الخطاب لم ينقصهم من المقدور غير المعمول شيئًا، ليس كذلك أولاد الكفار فإنهم على الإسلام يكون فيما هنالك غلمانًا مخلدين لا يعذبون بما لم يعملوه فضلاً من الله ورحمة، وما عدا هؤلاء فكل ﴿بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١].

أتبع هذا قوله ﷻ: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان:١٩] يعني:

---

(١) أخرجه البخاري (١٣١٨)، ومسلم (٢٦٥٩)، وأبو داود (٤٧١٤)، والنسائي (١٩٤٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٢١٢٣)، ومسلم (٢٣١٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٠١١).

صفاءً وبياضًا.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ [الإنسان:٢٠] استحسنوا أن يقف القارئ على قوله: ﴿ثَمَّ﴾ وُقَيفةً يسيرة؛ ليتبين المراد.

قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ [الإنسان:٢١] وقرأ مجاهد: «عليهم ثياب» بغير ألف، وروي عن عائشة أنها قرأت: «علتهم ثياب سندس» وقرأ محمد بن حيان: «علتهم ثياب سندس خضر وإستبرق»، ابن محيصن: «وإستبرق» مفتوحة القاف موصولة، وقال: هم اسم عجمي فارسي لا يصرف، وما أراه إلا مأخوذ من البريق بريق النور، وعلى ذلك يتم معنى قراءة ابن محيصن يقول: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان:٢١] استفعل، من البريق، فهو فعل ماض، وهي قراءة عالية، والخلف في الرواية كآية ثانية بقرآن مجدد النور عاليهم، فهم إن لبسوا ثيابًا خضرًا كان النور عليها نور أخضر، أو بياضًا كان النور على ذلك أبيض فهو يبرق على ثيابهم النور أبدًا ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:٢١] قيل: إن هذه الحلية والثياب هي للولدان.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان:٢١] يعني: الأولياء - عليهم السلام، فلا تبقى في بواطنهم غش ولا غل ولا وسواس طبع، ولا يشتهون إلا ما يرضي مليكهم، ولا يريدون إلا ما يريد لهم، ولا يعملون إلا بما فيه رضاه، ولا يرضيهم إلا بما يرضيه وفاق كامل وسجايا مطهرة وأخلاق مصطفاة، لا عوج فيها ولا تبديل عن ذلك، لما أطاعوه في الدنيا وجاهدوا الأنفس عن مرادها إلى ما يرضيه أثابهم على ذلك أرفع ما جاهدوا أنفسهم عليه.

يقول الله - عز من قائل: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ أي: مجاهدتكم أنفسكم عن هواها إلى ما يرضيني ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:٢٢] وفيما هنالك يتم لهم ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٧].

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ

﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان: ٢٤ - ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أو كَفُورًا﴾ [الإنسان:٢٤] انتظام هذا الخطاب بمعنى ما تقدم ذكره من طعنهم على الرسالة وقولهم في القرآن، فأمره بالصبر على ذلك حتى يأتي نصر الله، ثم قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أو كَفُورًا﴾ هو العامل بما لا يرضي الله، وقد قيل: إن «أو» هنا بمعنى: العطف، وليس ذلك بمنكر، وتأويلها على وجهها أحسن، كما قال: ﴿وَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب:١] فيكون المعنى: ولا تطع عاصيًا في عصيانه ولا كفورًا.

نظم بذلك بما يعلم به السبيل إليه، وكيف التوصل إلى مرضاته قوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الإنسان:٢٥] يعني، وهو أعلم بما ينزل: صلاة الفريضة.

ثم قال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ [الإنسان:٢٦] فهذه الولاية والعمل بالطاعة، وقد قدم البراءة والصبر على وحشة الوحدة وإن خشن المسلك.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ [الإنسان:٢٧] انتظم هذا بقوله ﷺ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [القيامة:٢٠ - ٢١] وبقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧].

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي: شددنا خلقهم وقواهم، تقول العرب: ما أحسن ما أسر فلان فيه، ثم قال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ [الإنسان:٢٨] أي: يذهبهم فيذهب بذلك شد ما أسر منهم ويعدمهم ظاهرًا، ويبدل أمثالهم لأهل الآخرة تبديلاً حقيقيًا، وتلك المثالات ليست هي غيرهم، إنما الحكم في ذلك أنه أظهرهم في الدنيا ما شاء، ثم يعدمهم منها بالموت ويظهرهم لأهل الآخرة، فيكون بذلك قد أظهر ما أبطن، ثم هو بعد يبطن ما كان أظهر في الدنيا؛

أعني: الأجسام يصيرها إلى التراب، ثم يجمع ذلك في يوم الجمع فيظهره لأهل الدنيا ولأهل الآخرة، وليس يومئذٍ إلا الآخرة، وهو العليم الحكيم.

هذا منتظم بما بدأ به السورة من قوله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] ظاهر هذا منتظم بما يقابله من معنى ذلك في سورة القيامة.

نظم بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [الإنسان:٢٩] كل ما تقدم فهو تذكير ووعظ؛ ليستيقظ من سبق له من الله ذلك فيتخذ سبيلاً إلى ربه، وهو الإيمان والعمل الصالح، سبيل التذكرة في هذا المطلوب: أن يستعرض التذكر معنى ما تقدم من استبعاد الكفار الإرجاع والإعادة بعد أن كانوا عظامًا ورفاتًا، وبعد أن ضلت أجسادهم في الأرض فصاروا في التراب ترابًا وأربع طوابرهم أصولاً في أصولها، ويتذكر قول الله ﷻ ردًّا عليهم: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦] إلى آخر السورة.

ثم وصل بذلك من قوله الحق: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي: في الأزل، وقيل: البدء الأول ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] أي: لغير الله - جلَّ ذكره - حيث لا يوصف بموت ولا بحياة، بل في علم الله العلي وقدرته ومشيئته وتقديره فكتبهم في اللوح بالقلم فصاروا لذلك مذكورين للقلم واللوح، موجودين كتبًا وعلمًا، ثم أوجدهم للتقدير وأحضرهم لقضاء القضية وأخذ العهد والميثاق، فكانوا يومئذٍ بذلك معلومين لأنفسهم شاهدين لها، وعليها موجودين موصوفين بأنهم أحياء غير أموات، ثم أماتهم عن تلك الحياة.

قال الله ﷻ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِالله وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] أي: هذه الحياة التي يسميها الدنيا، وعلى ما تقدم ذكره في صدر السورة من وصف الخليقة إلى جعله سميعًا بصيرًا، ثم هداه سبيلي الهدى والضلال، ثم إلى قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾ أي: الآن في هذه الحياة ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ ثم قال، وقوله الحق: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ﴾ أي: حال الموت وأمثالهم هذه هي التي كانت موجودة في علمه السابق، ثم أوجدها ذواتًا لأخذ الميثاق، ثم أصارها في خزائن السموات والأرض، ثم أوجدها لهذه الحياة، وهو إذا شاء بدل أمثالهم هذه الحياة عودًا بعد ذلك البدء

المتقدم، ثم إذا شاء ﷻ بدل أجسامهم التي ضلت في الأرض وفي السماء في مثالاتها ﴿تَبْدِيلاً﴾ [الإنسان:٢٨].

فحياتهم هذه رجعة إلى حياتهم يوم الإقرار وأخذ المواثيق ومثالاتهم بعد هذه الحياة حال موتهم رجعة بها إلى مثالاتهم حال موتهم عن حياتهم حال الإقرار والإشهاد، وحياتهم الأخيرة من حال موتهم عن هذه الحياة رجعة إلى ربهم في الوجود العلي المعبر عنه بقوله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١].

لهذا - وهو أعلم - قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ أي: السورة ﴿تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [الإنسان:٢٩] فإنه مخلوق عن الفتحين والفيحين، مترددًا بين الجنة والنار، ومن الواجب اللازم أنه من خلق من شيء فمصيره إليه ورجوعه إلى حقيقة ما خلق منه، وإنما يخرجه من النار ويدخله الجنة إيمانه بالله ورسله وكتبه وطاعته ربه، كما أنه إنما يخرجه من الجنة ويدخله النار كفره وتكذيبه وشروده عن طاعة ربه، ولأنه إلى ربه راجع لذلك هو لا يموت، فتفهم عصمنا الله وإياك.

والعالم قد سن به سنن الانتهاء والنشء، لذلك قسمهم حال الرجوع قسمين: فريق إلى الجنة، وفريق إلى جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - فالرجوع الأعلى يحيون فيه ولا يموتون، والقسم الأول الذي له الرجوع الأدنى لا يحيون فيما هنالك ولا يموتون، بل في عذاب أليم هذا حال الموت، ثم حالهم بعد البعث وللآخرة أشد عذابًا وأبقى.

وخاطب أولاً بخطاب البسط في قوله: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ﴾ [المزمل:١٩] وهو ظاهر الوجود وعلن السنة، ثم قبض الخطاب وحقق التوحيد بقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ أي: بمن يستجيب إذا دعي، ويتذكر إذا هو ذكر فيقدمه، وبمن لا يستجيب للداعي ولا هو يسمع المنادي، وبمن لو سمع لتصام، ولو أقبل لرجع، ولو استجاب لتربص وتقاعس وتشاغل عن التقدم، وغلب هواه على علمه وظنه على يقينه، فيؤخره الله ويتركه حيث ترك نفسه ﴿حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠] في حكمه وفعله.

نظم بهذا قوله ﷻ: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾[1] وزان هذا ويمنع من يشاء الدخول في رحمته فيجعله من ﴿الظَّالِمِينَ﴾ وهم الذين ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان:٣١] وقرأ عبد الله: «وما تشاءون إلا ما شاء الله» بالياء بحرف «ما» وهي اسم في موضع مفعول، فعلى هذا هو يصوب من شاء إلى الاستقامة، ويحرف بمن شاء عنها بواسطة مسيئة كل واحد منهما لتقوم الحجة، ثم ما تقدم من التأويل في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

---

(١) قال ابن الخطيب: إن فسرنا الرحمة بالإيمان؛ فالآية صريحة في أن الإيمان من الله تعالى، وإن فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئته بسبب مشيئة الله تعالى وفضله، وإحسانه لا بسبب الاستحقاق؛ لأنه لو ثبت الاستحقاق لكان تركه يفضي إلى الجَهْل أو الحاجة، وهما محالان على الله تعالى، والمفضي إلى المحال محال ، فتركه محال، فوجوده واجبٌ عقلاً ، وعدمه ممتنعٌ عقلاً، وما كان كذلك لا يكون معلقًا على المشيئة ألبتة.

تفسير سورة المرسلات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤﴾ [المرسلات: ١ - ٢٤].

﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا﴾[1] [المرسلات: ١] هي الرياح والملائكة الموكلون بها

---

(١) قوله: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا﴾ قال جمهور المفسرين: هي الرياح. وقيل: هي الملائكة، وبه قال مقاتل وأبو صالح والكلبي. وقيل: هم الأنبياء، فعلى الأوّل أقسم سبحانه بالرياح المرسلة لما يأمرها به، كما في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ وقوله: ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ وغير ذلك. وعلى الثاني أقسم سبحانه بالملائكة المرسلة بوحيه وأمره ونهيه. وعلى الثالث أقسم سبحانه برسله المرسلة إلى عباده لتبليغ شرائعه، وانتصاب «عُرْفًا» إما على أنه مفعول لأجله؛ أي: المرسلات لأجل العرف، وهو ضدّ النكر أو على أنه حال بمعنى متتابعة يتبع بعضها بعضًا كعرف الفرس، تقول العرب: سار الناس إلى فلان عرفًا واحدًا: إذا توجهوا إليه، وهم على فلان كعرف الضبع: إذا تألبوا عليه، أو على أنه مصدر كأنه قال: والمرسلات إرسالاً؛ أي: متتابعة، أو على أنه منصوب بنزع الخافض؛ أي: والمرسلات بالعرف. قرأ الجمهور: «عرفًا» بسكون الراء. وقرأ عيسى بن عمر بضمها. وقيل: المراد بالمرسلات: السحاب؛ لما فيها من نعمة ونقمة: ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ وهي الرياح الشديدة الهبوب. قال القرطبي بغير اختلاف: يقال: عصف بالشيء: إذا أباده وأهلكه، وناقة عصوف؛ أي: تعصف براكبها، فتمضي كأنها ريح في السرعة، ويقال: عصفت الحرب بالقوم: إذا ذهبت بهم. وقيل: هي الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها، وقيل: يعصفون بروح الكافر. وقيل: هي الآيات المهلكة =

رياح رحمة، وقيل: العرف: الجملة المتتابعة من قولهم: جاء الناس عرفًا واحدًا.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ [المرسلات:٣] الملائكة تنشر السحاب وتنشر رحمة الله في كل أمر بإذن ربهم.

﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ [المرسلات:٤] الملائكة تفصل المجملات وتفرق ذوات الأشياء من أغذية تقسمها وصور تفرقها، وتعرف لكل موجود من نبات وجماد وحيوان وجوده الذي أذن الله لهم فيه، فيكون في ذلك فعلهم كأمره ﴿لَّا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات:٥] وقرأها ابن عباس: «فالملقيات ذكرًا» بتشديد القاف وفتح اللام، فيكون معنى ذلك: أنهم يتلقون الذكر من رب العالمين، ويتلقونه أيضًا من الملائكة الرسل منهم إليهم، ويلقون الوحي؛ أي: يفهمون العباد تلاوة الوحي ومعانيه، ويكون معنى قوله: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ﴾ أنهم يلقون الوحي إلى الأنبياء والرسل والأولياء والمؤمنين كل في درجته ومرتبته، يقولون لهم عند الموت؛ أعني: الأولياء ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١].

﴿عُذْرًا أو نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٦] والذكر إما إيعاد وتذكير وتخويف وإنذار،

= كالزلازل، ونحوها ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ يعني: الرياح تأتي بالمطر، وهي تنشر السحاب نشرًا، أو الملائكة الموكلون بالسحاب ينشرونها، أو ينشرون أجنحتهم في الجوّ عند النزول بالوحي، أو هي الأمطار لأنها تنشر النبات. وقال الضحاك: يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بني آدم. وقال الربيع: إنه البعث للقيامة بنشر الأرواح، وجاء بالواو هنا لأنه استئناف قسم آخر: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ يعني: الملائكة تأتي بما يفرّق بين الحق والباطل والحلال والحرام. وقال مجاهد: هي الريح تفرق بين السحاب فتبدّده. وروي عنه أنها آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل، وقيل: هي الرسل فرقوا ما بين ما أمر الله به ونهى عنه، وبه قال الحسن: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هي الملائكة. قال القرطبي بإجماع، أي: تلقي الوحي إلى الأنبياء. وقيل: هو جبريل، وسمي باسم الجمع تعظيمًا له. وقيل: هي الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم، قاله قطرب. قرأ الجمهور: «فالملقيات» بسكون اللام، وتخفيف القاف اسم فاعل، وقرأ ابن عباس بفتح اللام، وتشديد القاف من التلقية وهي إيصال الكلام إلى المخاطب، والراجح: أن الثلاثة الأول للرياح، والرابع والخامس للملائكة، وهو الذي اختاره الزجاج والقاضي، وغيرهما. [فتح القدير (٧ /٣٨٥)].

وإما إعذار من الإعذار، وقرأها الحسن: «عذرًا» بالتثقيل فيهما.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات:٧].

أتبع ذلك معلمًا متى يكون ذلك بقوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات:٨-١٠] هذا اليوم قيل الذي قيله الذي ذكر فيه إطماس النجوم وتفريج السماء.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات:١١] الهمزة هنا مبدلة من واو، والأصل وقتت، من الوقت؛ أي: أنجز للرسل ما وعدوا به، وإنما وعدوا بتأويل ما أنذروا به، وبشروا اليوم الذي أجل لهم هو اليوم الآخر، وهو يوم الفصل، ثم عظم شأنه لعظيم هول مطلعه بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٤ - ١٥].

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات:٢٠ - ٢١] يقول: ألم نخلقكم من مني، والمني عن التراب والماء، والقرار المكين هو: الرحم، بما أوجده فيه من إمساك بإذنه وهنا فيه من إنشاء خلقًا من بعد خلق إلى قدر معلوم من أجل ومقادير خلق يبلغه إياها، وسمى الرحم: قرارًا، كما سمى الأرض لنا: مستقرًا، وجعل لذلك المني والمخلوق منه إجلاء معلومًا، كما قال لنا ولكم فيها ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦] فليست هذه إذًا دارنا كما لم يكن الرحم لنا بدار، وإنما دار القرار هي الدار الآخرة.

﴿فَقَدَّرْنَا﴾ بالتشديد؛ يعني: أعمالهم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم وشقاوتهم، ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات:٢٣] أي: على إخراج المقدر على مسالكه من غيب إلى وجود ظاهر، استاق الذوات بمشيئتها إلى إخراج أعمالها وشقاوتها أو سعادتها بالجري في أسباب ذلك، وقرئ بالتخفيف «فَقَدَرْنَا» أي: على جميع مواد خلقتهم من خزائن السماوات والأرض حتى سويناهم ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ نحن إذًا على إعادتهم ثانيًا، قول حق وحكم فصل وبرهان لائح تضطر العقول السليمة إلى وجوب وجوده لا بد ولا محالة.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:٢٤] وقرأ عكرمة: «فملكنا فنعم المالكون»، ابن أبي عبلة: «فقدرنا فنعم المقدرون» أي: أنه قدر على ما مضى

فكذلك في المستقبل، والمقدرون: من أقدر يقدر؛ أي: أنه أقدر الملائكة - عليهم السلام - على جمع مواد الخلقة من خزائن السماوات والأرض، كذلك قوله تعالى: فملكنا فنعم المالكون؛ أي: أخذنا ذلك وأخذنا بماسكه، من ملكت العجين أملكه.

وقد تقدم أن نون الجميع في القرآن عبارة عن ملك الملائكة الملكوت - على جميعهم صلوات الله وسلامه - لما كانوا بأمره يعملون، وبإذنه يتقدمون ويتأخرون، وبإقداره إياهم يقدرون أدخلهم في ضمير ذكره - جلَّ ذكره - ولعلة الابتلاء، وليجد المفتونون سبيلاً إلى فتنتهم المقدرة عليهم.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المرسلات: ٢٥ - ٣٩].

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا...﴾ [المرسلات: ٢٥ - ٢٦] هذا كله تقرير منه العباد على الآية وآياته، الكفات: الضم، كفته: ضممته ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ يقول: منها خلقناكم ومنها رزقناكم بواسطة ما عناه بقوله: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم﴾ أي: من السماء ﴿مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧] أي: عذبًا، وقد كان بصدد أن يكون أجاجًا ملحًا، وجعلنا الأرض لكم قرارًا ومهادًا وفراشًا، وقد كانت ميّادة فأرسينا عليها الجبال الشامخات فاستقرت بكم، ثم صيرناكم إليها؛ أي: الأرض أمواتًا نضمكم إليها فتكونون إياها كما كنتم أول مرة، فخلقناكم من ترابها وماء السماء، كذلك نخلقكم ثانية؛ لنجزيكم بأعمالكم في داري قراركم يوم البعث والفصل في الحكم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: اليوم الذي أجلت إليه الرسل، يوم الجمع والفصل ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٨] بالإعادة.

قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات:٢٩] أي: إن الحكم فيهم يومئذٍ أن يقال فيهم: **انطلقوا** إلى ما كنتم تكذبون، وهو عذاب الآخرة، وقرأها يعقوب في رواية ورش: «انطلقوا إلى ظل» على الحكاية والوصف لما انطلقوا إليه إلى ظل ذي ثلاث شعب، قيل: إن دخان جهنم يتشعب منه شعبة إلى المحشر فتظلل الكفار، تأخذ بأنفاسهم ولا تكنهم من حر الشمس، ويكون وصفهم في جهنم ما ذكره لا ظليل ولا يغني من اللهب، كما قال: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة:٤٣] هو الدخان ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة:٤٤].

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات:٣٢] بالفتح، إن الشرر المرمي منها كقصر النخل، يُقال: قصر الشجرة لأصولها، واحدها: قصر.

قال ابن عباس: حُزم الحطب بلوح حال مرورها كالجمالات الصفر، وذلك من أبدع شيء تشبيهًا.

وقرئ: «كالقِصَر» رُوي ذلك عن ابن جبير بكسر القاف وفتح الصاد، قال: أصول الشجر.

وروي عن الحسن أيضًا عن ابن عباس: «حمل»، وروي عن الحسن: «صَفُر».

والجمع بين هذه القراءات - والله الموفق للرشاد - إن هذه الشرر كالقصر عظمًا تلوح في مرها امتدادًا كأصول الشجر وكأعناق الجمالات الصفر سائرة، والمعروف عند العرب أن الجمال السود يقال لها: صفر؛ لأن سوادها أبدًا مشوب بصفرة، ونار جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - سوداء مظلمة، فإذا انفصلت شررها شابها اصفرار رجوعًا بها إلى لونها الأول، وليكون ذلك زائدًا في جزع المرمي بها، وهو صواعق تلك الدار، نعوذ بالله من عذابه، وتفسير قراءة من قرأ «كالجمالات» وأنها حبال السفن بضم بعضها إلى بعض، فذلك تشبيه حال هويها إلى المقصود بها.

وقد يكون معنى قوله - جل من قائل: ﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات:٣٠] إن جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - ذات ثلاث صفات عليها انبنت وتأسست، وهي: الحرارة واليبوسة وهذه هي النار، ثم البرودة واليبوسة وهذه هي الزمهرير، فهذه ثلاث صفات عنها تفصلت شعبها كلها، وما كان فيها من حميم

وغساق وغسلين ونحو هذا من المائعات فمن قبل الحميم المنزل عليهم من علوها بدلاً من الماء المنزل علينا في دار الدنيا.

قال ﷻ: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج:١٩ - ٢٠] وهذا كله قد غلب عليه فيما هنالك الحر واليبس، ليس فيما هنالك ماء يمطرون به فتحًا عن رحمة، وإنه ليغلب على الظن أن كل ما يصب عليهم من علو هو أمضى فيما وجدت له جهنم، وأعظمه نكالاً من حيث هو عن أمر زائد على ما هي جهنم.

روي أن رسول الله ﷺ كان يومًا في أصحابه وأمطرت السماء، فقام يتوكفه بيديه وحسر عن رأسه حتى يصيبه الماء، فقيل له في ذلك فقال: «**إنه حديث عهد بربه**»[1] فرجا ﷺ رحمة ربه في ماء السماء؛ لقربه منه بالتكوين، فكذلك يكون له وصف زائد من الغضب؛ لحدثانه أيضًا بربه، نعوذ بالله من تلك الدار.

ثم قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:٣٤] بعذاب الآخرة وبيوم الفصل.

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[2] [المرسلات:٣٥ - ٣٦] هي مواطن، ولتمام أحكامها سميت: أيامًا، وتأتي مواطن يطلق لهم النطق والاعتذار ثم لا ينفعهم كما قد كانوا في الحياة الدنيا، لا ينطقون بالتوحيد ولا يدينون بالتصديق للكتب والرسل، ثم هم حين حضور الموت لا بد لهم من الندامة، فيقول أحدهم: ﴿رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون:١٠] وعند مساس الضر ينطق ويشهد فلا ينفعه ذلك.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٢٠)، وأحمد (١٢٣٨٨).

(٢) قرأ الجمهور: «**يؤذن**» على البناء للمفعول، وقرأ زيد بن عليّ: «**ولا يأذن**» على البناء للفاعل؛ أي: لا يأذن الله لهم؛ أي: لا يكون لهم إذن من الله فيكون لهم اعتذار من غير أن يجعل الاعتذار مسببًا عن الإذن كما لو نصب. قال الفرّاء: الفاء في «فيعتذرون» نسق على يؤذن، وأجيز ذلك؛ لأن أواخر الكلام بالنون، ولو قال: «فيعتذروا» لم يوافق الآيات، وقد قال: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ﴾ [فاطر:٣٦] بالنصب، والكل صواب. فتح القدير (٣٩٠/٧).

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات:٤١-٤٣] هذا هو الظل الظليل للمتقين - على جميعهم السلام - ذكره عز جلاله في مقابلة ذكر الظل الذي تقدم بقوله: ﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات:٣٠] لا ظليل ولا يغني من اللهب.

وقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ *لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة:٤٣ - ٤٤] لما آمنوا بالجنة أدخلوها، ولما عملوا لها رزقوا وصف ما اكتسبوه، ولما عملوا لله - جلَّ ذكره - قرَّبهم وأكرم لقياهم وحيَّاهم بالسلام، ولما كذب المكذبون بالنار أدخلوها، ولما عملوا أعمالاً هي لها عذبوا بوصف ما عملوه ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة:٩٥] كذلك لما كذبوا بالجنة ولم يعملوا لله أعمالاً لا تؤدي إليها حرموها.

يدل على صحيح هذا التخريج قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات:٤٨-٥٠].

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غمرات المَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام:٩٣] أي: بالضرب بالمقامع، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا المَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠] فقوله: ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات:٢٩] أي: من حا لهم تلك، وأظهر ما يكون المعنى على قراءة يعقوب من رواية رويس - رحمهما الله - من قوله: ﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات:٣٠] يكون إلى هذا ما بهم حال الموت في دار البرزخ.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المرسلات: ٤٠ - ٥٠].

كذلك قوله - عز من قائل: ﴿إِنَّ المُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [المرسلات:٤١ - ٤٢] أي: لأن في دار البرزخ يقال لهم اليوم فيها:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات:٤٣].

يقول - عز من قائل: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات:٤٤].

ويقول لمن في هذه الدار منهم: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات:٤٦] ثم الدار الآخرة أكبر، ونعيمها وعذابها أجل وأضخم.

فصل

جاء في القرآن الكريم الويل للمكذبين وللمجرمين، وويل لهم من يومهم الذي يوعدون، وقال كثير من المفسرين: هو واد في جهنم، كذلك قالوا أيضًا في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩] وفي قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨] ونحو هذا، وأنكر بعضهم أن تكون هذه المسميات أودية في جهنم؛ إذ لم يرد بهذا نص جلي ولا خبر صحيح يثبت أن يكون لها هناك وجود.

قالوا: وإنما هي معان يتعارفها الناس من مذموم أو ممدوح يعبر عنها أهل كل لسان بما استقرت عليه ألسنتهم واستمرت عليه في ذلك عاداتهم، ثم استمر هؤلاء القائلون على نحو هذا من كلام غير محصل ولا مفيد، ومثل هذه المسميات فليس بمنكر أن يكون لها هناك وجود هي لما هاهنا من معانيها أصول انتزعت عنها وإن لم يعرف العرب وأهل الألسنة من حيث أخذت، ولا الأصل الذي عنه انتزعت، وجهنم أصل لكل شر هو في هذه الدار موجود أو مخوف عنها انتزع، كما الجنة هي لما في هذه الدار أصل لكل خير موجود أو مرتجى عنها انتزع، وعن معان تنبه ذوي النهى على ما انتزعت عنه هنالك، فافهم.

وتنبه لتدبر هذه الجملة واستقر بوهمك أمثالها في هذه وهذه، فما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى، والله المستعان.

تفسير سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾ [النبأ: ١ - ١٦].

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾[(١)] [النبأ: ١] قرأ الضحاك: «عمه» ولا يكون هذا إلا مع الوقف

---

(١) قال: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وقرأ الجمهور: «عم» وعبد الله وأبيّ وعكرمة وعيسى: «عما» بالألف، وهو أصل عم، والأكثر حذف الألف من «ما» الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجر وأضيف إليها. وقرأ الضحاك وابن كثير في رواية: «عمه» بهاء السكت، أجرى الوصل مجرى الوقف؛ لأن الأكثر في الوقف على «ما» الاستفهامية هو بإلحاق هاء السكت، إلا إذا أضيفت إليها فلا بد من الهاء في الوقف، نحو: بحى مه. والاستفهام عن هذا فيه تفخيم وتهويل وتقرير وتعجيب، كما تقول: أي رجل زيد؟ وزيد ما زيد، كأنه لما كان عديم النظير أو قليله خفيّ عليك جنسه فأخذت تستفهم عنه. ثم جرد العبارة عن تفخيم الشيء، فجاء في القرآن، والضمير في «يتساءلون» لأهل مكة. ثم أخبر تعالى أنهم يتساءلون عن النبأ العظيم، وهو أمر رسول الله ﷺ وما جاء به من القرآن. وقيل: الضمير لجميع العالم، فيكون الاختلاف تصديق المؤمن وتكذيب الكافر. وقيل: المتساءل فيه البعث، والاختلاف فيه عم متعلق بيتساءلون. ومن قرأ عمه بالهاء في الوصل فقد ذكرنا أنه يكون أجرى الوصل مجرى الوقف، وعن النبأ متعلق بمحذوف، أي يتساءلون عن النبأ. وأجاز الزمخشري أن يكون وقف على عمه، ثم ابتدأ بيتسألون عن النبأ العظيم على أن يضمر لعمه يتساءلون، وحذفت لدلالة ما بعدها عليه، كشيء مبهم ثم يفسر. وقال ابن عطية: قال أكثر النحاة قوله ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ متعلق بـ«يتساءلون» الظاهر كأنه قال: لِمَ يتساءلون عن النبأ العظيم؟ وقال الزجاج: الكلام تام في قوله ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ثم كان مقتضى القول أن يجيب مجيب فيقول: يتساءلون عن النبأ، فاقتضى إيجاز القرآن وبلاغته أن يبادر المحتج بالجواب الذي يقتضيه الحال، والمجاورة اقتضاء بالحجة وإسراعًا إلى موضع قطعهم. وقرأ عبد الله وابن جبير: يسألون بغير تاء وشدّ
=

عليها، وقرأها عكرمة: «عما يتساءلون» بالألف ﴿عَنِ النَّبَإِ العَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ:٢ - ٣] وقال في سورة «ص»: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ [ص:١] ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص:٦٧ - ٦٨].

وقد كان قدم ذكر الجنة وأهلها وذكر النار وأهلها، وأما هاهنا - والله أعلم بما ينزل - فإنه نبه على الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما، فهو النبأ العظيم، والذي اختلفوا فيه هو الإعادة واليوم الآخر ووجود الخزائن الجنة والنار، وأما الحق المذكور فلم يكن لهم بمعلوم فيختلفون فيه؛ لذلك قال، وهو أعلم: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ:٤] يريد إذا هم عاينوا ذلك عند الموت وبعده ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ:٥] يوم البعث إذا دخلوها.

يقول - جل من قائل: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ:٦] إلى قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ المُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ:١٤] وقيل: هي الرياح، ولذلك قرأها ابن عباس: «وأنزلنا بالمعصرات» يعني: الرياح، ومن قرأ: «من المعصرات» أراد من السحاب ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ:١٥ - ١٦].

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ:١٧ - ٣٠].

ثم قال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النبأ:١٧] فهذا من النبأ الذي دلت عليه شواهده التي ذكر بعضها يدل على وجود الجنة إلى قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ

=

السين. وأصله يتساءلون بتاء الخطاب، فأدغم التاء الثانية في السين ﴿كَلَّا﴾: ردع للمتسائلين. وقرأ الجمهور: بياء الغيبة فيهما. وعن الضحاك: الأول بالتاء على الخطاب، والثاني بالياء على الغيبة. وهذا التكرار توكيد في الوعيد وحذف ما يتعلق به العلم على سبيل التهويل؛ أي: سيعلمون ما يحل بهم. انظر [تفسير البحر المحيط (١٠ /٤١٨)].

مِرْصَادًا﴾ [النبأ:٢١] وقرأها أبو معمر: «أن جهنم كانت مرصادًا» والمعنى في ذلك: إن جهنم كانت مرصادًا، وهو من النبأ الموجود شواهده في الوجود، والغساق: شراب أهل جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - طول دولة الزمهرير، وذلك ما يخرج منهم من دماء وصديد وغير ذلك، غسق بمعنى: خرج، والحميم: شرابهم طول دولة السعير.

يقول - جل من قائل: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦] يقول، وهو أعلم بما ينزل: وافق جزاؤنا هذا إياهم تكذيبهم بآياتنا على ما هو الحق المخلوق به السماوات والأرض، كما وافق جزاؤنا المتقين بالجنة ما صدقوا به من آياتنا وعملوا له.

يقول - عز من قائل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبأ:٢٧] أي: لا يؤمنون بثواب الأعمال الصالحة فلم يعملوا بها، ولا أطاعوا الله والرسول فيرجون على ثواب ذلك، كما قال - عز من قائل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ [الكهف:١١٠] المعنى: وحساب الله للمؤمن التقي هو أن يعرض عليه حسناته ويخفي سيئاته، وذلك هو الحساب اليسير.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ: ٣١ - ٤٠].

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ:٢٨] إلى قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ:٣١-٣٤] هذه موجودات ما هنالك دلت عليها موجودات ما هنا لمن له عقل حاضر وقلب منيب، إلى قوله: ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبأ:٣٦] أي: إن ذلك الجزاء يكفي الإيمان بما هاهنا من آيات دلت عليه وعمل له، وقرأ أبو السمال: «عطاء حسابًا»، وقرأ ابن عباس: «عطاء حسنًا» ويقال للرجل إذا أكثر العطية: عطاء حساب.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ﴾ [النبأ:٣٧] يعرض بذكر الحق المخلوق به السماوات والأرض.

ثم قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا * ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ [النبأ:٣٨ - ٣٩] وهذا كله آياته فيما هاهنا شاهدات الصواب من الكلم شهادة التوحيد، ثم ما كان من شأنها.

ثم قال: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآبًا﴾ [النبأ:٣٩] أي: مرجعًا يرجع إليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ:٤٠] كما قال - عز من قائل: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦ - ٧] وقال، عز من قائل: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٥٤] وقال: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار:١٣-١٥] ثم قال: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار:١٦].

وقال رسول الله ﷺ: «**للجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك**»[1] فقوله الحق - عز جلاله: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ:٤٠] يعني: حال الموت وفيما بعد الموت، لذلك كرر قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣ - ٤] أي: سوف تعلمون عند الموت ومدة البرزخ، ثم كلا سوف تعلمون إذا بعثتم البعث الآخر.

ثم قال - عز من قائل: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يوقف على ما عمله من خير ومن شر ﴿وَيَقُولُ الكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ:٤٠] أي: ولم أكن أحييت، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ﴾ [النساء:٤٢] أي: لو يكونون سواء مع التراب، وليس بمصيب من قال: إن الوحوش والهوام وحشائش الأرض والطير وغير ذلك من الموجودات غير المكلفين يقال لها يوم القيامة: كوني ترابًا، بل لم يخلق الله شيئًا يبطل، كيف وهو القائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:٢٧]؟.

---

(١) تقدم تخريجه.

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات من المكلفين وغيرهم يدخلون الجنة، والمفسدون في الأرض يجعلون في جهنم، فإنهم مما قال الله - جل من قائل: **﴿لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾** [الأنفال:٣٧] غير أن الفرق بين ما هو مُكلَّف وما ليس بمُكلَّف: أن المُكلَّف ينعم هنا أو يعذب، وغير المُكلَّف لا عذاب عليه، وإنما جعل ما جعل من خبيثات ما هنا ومفسداته آيات على ما هنالك من حيث انفصلت، كما جعل ما جعل من طيبات ماهنا آيات على ما هنالك من موجودات، فافهم فهمنا الله وإياك.

كما جعلها أيضًا دلائل على قدرته وحياته وإرادته وعلمه والعلم بوجوده العلي سبحانه وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه يرجع الأمر كله.

قال رسول الله ﷺ: «**من أهدي له ريحان فلا يرده؛ فإنه خرج من الجنة**»[١].

خلقنا من الأرض فهو يرجعنا إليها، وأبدأنا عن وجوده العلي فرجوعنا إليه واجب كائن لا محالة ولا ريب، وخلقنا من فيح جهنم وفتح رحمته فنحن لا محالة راجعون إليهما، لكنه حتَّم على نفسه أنه من آمن به ورسله وآياته وأطاعه أن يعتقه من جهنم ويدخله في رحمته، وأنه من كفر به وبرسله وآياته أن يدخله جهنم خالدًا فيها.

ليت شعري الذين أقطعهم الإيمان والعمل بمرضاته في أزله هل خلقهم من الجنة فلذلك يرجعهم إليها؟ وقال فيهم: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**»[٢] وبالضد فيمن قال فيهم: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[٣] فقدر أعمال هؤلاء مقتطعة من حيث خلقهم، وأما بعد إظهارهم فقد تبين أنه خلقهم من ممتزج القرارين.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً**»[٤] ربنا علمنا من علمك.

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٢٢٥٣)، وأبو داود (٤١٧٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٦٢) وإسحاق بن راهويه (١٠١٦) وابن حبان (١٣٨) والطبراني في =

قال الله - عز من قائل: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧] فأهل اليمين هم: أهل الجنة، وأهل الشمال هم: أهل النار، قال: ثم خلط بينهم، هم المخلوقون من موضع ممتزج الفيح والفتح.

=

الأوسط (٤٥١٥) جميعًا عن عائشة، قالت: توفي صبي فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة ... فذكره.

تفسير سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١ - ١٤].

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾(١) [النازعات: ١ - ٢] هم الملائكة -

---

(١) أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها، وهي الملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسادهم، كما ينزع النازع في القوس، فيبلغ بها غاية المدّ، وكذا المراد: بالناشطات، والسابحات، والسابقات، والمدبرات: يعني: الملائكة، والعطف مع اتحاد الكلّ؛ لتنزيل التغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي، وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وقال السديّ: النازعات: هي النفوس حين تغرق في الصدور. وقال مجاهد: هي الموت ينزع النفس. وقال قتادة: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق، من قولهم: نزع إليه إذا ذهب، أو من قولهم: نزعت بالحبل أي: إنها تغرب وتغيب وتطلع من أفق آخر. وبه قال أبو عبيدة، والأخفش، وابن كيسان. وقال عطاء، وعكرمة: النازعات القسي تنزع بالسهام، وإغراق النازع في القوس أن يمدّه غاية المدّ حتى ينتهي به إلى النصل. وقال يحيى بن سلام: تنزع بين الكلأ وتنفر، وقيل: أراد بالنازعات الغزاة الرماة، وانتصاب «غَرْقًا» على أنه مصدر بحذف الزوائد أي: إغراقًا، والناصب له ما قبله لملاقاته له في المعنى أي: إغراقًا في النزع حيث تنزعها من أقاصي الأجساد، أو على الحال؛ أي: ذوات إغراق، يقال أغرق في الشيء يغرق فيه: إذا أوغل فيه وبلغ غايته ومعنى «الناشطات»: أنها تنشط النفوس؛ أي: تخرجها من الأجساد، كما ينشط العقال من يد البعير، إذا حلّ عنه، ونشط الرجل الدلو من البئر: إذا أخرجها، والنشاط: الجذب بسرعة، ومنه الأنشوطة للعقدة التي يسهل حلها. قال أبو زيد: نشطت الحبل أنشطه نشطًا عقدته، وأنشطته، أي: حللته، وأنشطت الحبل، أي: مددته. قال الفراء: أنشط العقال أي: حلّ، ونشط أي: ربط الحبل في يديه. قال الأصمعي: بئر أنشاط أي: قريبة القعر يخرج الدلو منها بجذبة واحدة، وبئر نشوط، وهي التي لا يخرج منها الدلو حتى ينشط =

عليهم السلام - يخرجون أنفس الكفار، يقال: فلان في النزع: إذا كان في حال الموت، ويخرج أنفس المؤمنين تنشطها نشطًا كما تنشط البعير من عقاله، والأنشوطة: عقدة في العقال تخرج من غرزة أدخلت فيها فينشط البعير أو غيره، هذا في هذا الصنف الذين هم ملائكة الموت، ثم كذلك ملائكة النبات والإنشاء والإنبات والإنماء، وجمع مواد الخلقة للزيادة في المقصود بذلك أو النقصان منه، والعرف: هو أن تكثر المواد والمعاني غير المرادة لذلك المراد، فتنزعه النازعات من الملائكة؛ أي: تزيله عما لا يصلح به، وكلما زاد على المقدر المراد أو نقص عنه فهو عقال لوجود الموجود عن المراد به ومنه فبإلحاقه بمقداره أو تحقيقه فما زاد عنه ينشط من عقلته تلك.

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ [النازعات:٣] النجوم والشمس والقمر تسبح في أفلاكها، والملائكة - عليهم السلام - تدبرها بإذن ربهم وإقداره إياهم وتدبر أمرها كذا، والملائكة بأنفسهم يسبحون نازلين من علو وصاعدين من سفل والسحاب تسحب فتسبح في الهواء، والملائكة تدبر كل ذلك بإذن خالقها وتقربه.

﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النازعات:٤] الرياح ترسل مهابها، والملائكة من عند الله ﷻ يسبقونها إلى حيث أمرت به، وقد قيل: الخيل هي المعنية بقوله: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ وكل ذلك بيد الله وبأمره، قد وكل ملائكته الذين يملكون الملكوت، وهو الوكيل على كل وكيل، والوكيل على ما وكله به، هو الأول في ذلك كله وهو الآخر، وهو الظاهر وهو الباطن، وهو بكل شيء عليم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات:٦ - ٧] ليس

=

كثيرًا. وقال مجاهد: هو الموت ينشط نفس الإنسان. وقال السديّ: هي النفوس حين تنشط من القدمين. وقال عكرمة، وعطاء: هي الأوهاق التي تنشط السهام، وقال قتادة، والحسن، والأخفش: هي النجوم تنشط من أفق إلى أفق أي : تذهب. قال في الصحاح: والناشطات نشطًا: يعني: النجوم من برج إلى برج كالثور الناشط من بلد إلى بلد، والهموم تنشط بصاحبها. وقال أبو عبيدة، وقتادة: هي الوحوش حين تنشط من بلد إلى بلد. وقيل: الناشطات لأرواح المؤمنين، والنازعات لأرواح الكافرين؛ لأنها تجذب روح المؤمن برفق، وتجذب روح الكافر بعنف وقوله: ﴿نَشْطًا﴾ مصدر. انظر [فتح القدير (٧/٤٠٥)].

هذا بجواب القسم، بل هو محذوف - والله أعلم بما ينزل - تقديره: إنكم لمبعوثون من بعد الموت، ثم لمجازون بما عملتم، أو نحو هذا.

نظم بذلك المحذوف المقدر قوله ﷻ: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات:٨] يعني: اليوم المحذوف ذكره، واجفة الوجيف: شدة الاضطراب والحركة، تجف القلوب من عظيم هول ذلك اليوم.

﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات:٩] أي: ذليلة.

﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحَافِرَةِ﴾ [النازعات:١٠] أي: إلى ما كنا فيه من الحياة بعدما ﴿كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات:١١] أي: بالية، ويقرأ: «ناخرة».

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات:١٢] يقولون: ولدنا لا مال لنا ولا أهل ولا مأوى، فاتخذنا ذلك أو توارثناه، فنرد على أصلنا من فاقة وعدم تلك إذًا كرة خاسرة، فأضرب ربك ﷻ عن جوابهم على هذا، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣ - ١٤] كما قال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣].

وقرأ عبد الله: «فإنما هي رقبة واحدة». الساهرة: الأرض المبدلة من هذه، سميت بذلك - والله أعلم؛ لأجل الدوام الذي وجدت له؛ إذ السهر هو: السمر، وهو يكنى به عن الدوام والرقبة، يقال: هذا أمر سامر؛ أي: دائم، ومنه السامري؛ لأنه دائم المراقبة لموعد وعده، وهو تعريض بأمر الله - جلَّ ذكره - في الدجال، لعنه الله.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النازعات:١٥ - ٢٦].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ المُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات:١٥ - ١٦] لما أقسم على الإعادة بعد هذه البداية وعلى وجود اليوم الآخر أخذ في الوعظ والتهديد؛ ليعتبر من له قلب، ولتعي عنه أذن واعية.

قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات:٢٧ - ٢٨] يقول: فمن خلق السماء ورفع سمكها وسواها، وخلق الأرض ودحاها، وأنبت فيها ما أنبت، وأخرج منها ما أخرج، يعجزه خلقكم مرة أخرى وقد خلقكم أولاً وعنده خزائن السماوات والأرض كل في قبضته وملكه.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى﴾ [النازعات:٣] أكبر الطوام دفع الزبانية إياهم في الجحيم، ويمكن أن يكون النفخ في الصور وبعثرة القبور والمصير إلى العرض، وهذا هو الأظهر لقوله: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِمَن يَرَى﴾ [النازعات:٣٥ - ٣٦] وقرأت عائشة وعكرمة ومالك بن دينار: «وبرزت الجحيم لمن يرى» بفتح الياء والراء وبالتاء لمن ترى، وفي قراءة عبد الله: «لمن رأى».

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النازعات:٢٧ - ٤٦].

قوله تعالى: ﴿يَسأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [النازعات:٤٢] أي: متى تكون؟.

نظم بذلك قوله: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرَاهَا * إلى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات:٤٣ - ٤٤] يقول مالك: ولذكرها بالتحديد وما يدريك ذلك إلى ربك كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف:١٨٧].

نظم بذلك قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات:٤٥] معنى هذا: أن السائلين عنها بمتى مشتغلون بما لا يجدي نفعًا، «**من مات قامت قيامته**»[١] الخاصة به، فالسؤال عنها شغل عن توليد الخشية والأخذ لها بالأهبة لمجيئها ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر:١٨] وخشيتها أن يتعرف العبد أنها آتية لا محالة وكائنة ضرورة، بإثبات ذلك اختلف الملوان وتعاقب العصران واستدارت الأفلاك، ومهما شككت في قربها فاستبعدتها، فاليقين حاصل بقرب الموت، وأنه لا يتصور في إقباله بعد وعند الموت يأتيك اليقين ينزل الميت من حين موته على جزاء ما قدم خيرًا قدمه أو شرًا ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٢١] بل الكيِّس منتظر له مع اختلاف أنفاسه لذلك.

قال - عز من قائل: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا﴾ [النازعات:٤٦] متى تذكرت ما مضى فليس بيدك منه إلا أنه مذكور عندك حسب وطول الأمد أو قصره، قد تقضى وهو الآن معدوم، لذلك كان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه متى سألوه عنها: «**من مات قامت قيامته**»[٢].

وقال لهم يومًا وقد سأله سائل عنها فقال: متى الساعة يا رسول الله؟ فأشار إلى أصغر القوم، ثم قال: «**إن يعش هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم عليكم قيامتكم**»[٣] كما قال ليلة وقد صلى صلاة العشاء الآخرة، ثم أقبل عليهم فقال: «**أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض أحد**»[٤] يقرب الأمر ويزهدهم في الدنيا، ويبصرهم سرعة انقضائها وقرب قيامها، ويحذرهم ما هم قادمون عليه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٦١٤٦)، ومسلم (٢٩٥٢).

(٤) أخرجه أحمد (٥٦١٧) والبخاري (١١٦) ومسلم (٢٥٣٧) وأبو داود (٤٣٤٨) والترمذي (٢٢٥١) والبيهقي (١٩٧١).

تفسير سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾ [عبس: ١ - ٢٢].

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾[1] [عبس: ١ - ٢] عتاب منه - جلَّ ذكره - لرسوله ﷺ يقول من أجل أن جاءه الأعمى عبس وتولى: أعرض عنه بمواجهة الخطاب تحقيقًا للعتاب، وقرأ الحسن: «أأن جاءه الأعمى» فيه تقديم وتأخير، تقدير الكلام: أن جاءه الأعمى عبس وتولى، وكان رسول الله ﷺ قد أقبل على رجل من عظماء المشركين طمعًا منه في إسلامه؛ ليدخل معه بدخوله أتباعه، فجاءه ابن أم مكتوم، وكان مجيئه ذلك حال ما كان يعرض نفسه وما جاء به على ذلك الرجل، فجعل يقول ابن أم مكتوم: استدنيني يا رسول الله، استدنيني، فنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾ [عبس: ١ - ٢] يعني: ابن أم مكتوم.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [عبس: ٣] فيصعد إلي على الإيمان.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ [عبس: ٤] يزداد إيمانًا إلى إيمانه.

---

(١) قال الورتجبي: بيّن الله سبحانه ها هنا درجة الفقر وتعظيم أهله وخسة الدنيا وتحقير أهلها، وأن الفقر إذا كان نعت الصادق في المعرفة والمحبة كان شرفًا له، وهو من أهل الصحبة، ولا يجوز الاشتغال بصحبة الأغنياء ودعوتهم إلى طريق الفقر إذا كانت سجيّتهم لم تكن سجية أهل المعرفة، فإذا كان حالهم كذلك لا يأتون إلى طريق الحق بنعت التجريد، فالصحبة معهم ضائعة.

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ [عبس:٥] يقول: عما جئت به.

﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ [عبس:٦] قرئت بالتشديد والتخفيف.

نظم بذلك - جلَّ ذكره: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما ظننت ولا يجار على سنن حرصك ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس:١١] يعني: الرسالة أو السورة، والآيات التي كان يقرؤها عليه، فيقول له ﷺ: «**أترى بما أقول بأسًا**»(١) فيقول له: لا والدمن.

﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [عبس:١٢] يعني: القرآن.

﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ [عبس:١٣] الصحف التي تكتبها الملائكة - عليهم السلام - من الكتاب المبين.

﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ أي: عن قلوب الكافرين، كما قال - عز من قائل: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ [عبس:١٤] أي: من افتراء المفترين وأقوال المكذبين من قولهم: سحر وشعر وكهانة، ونحو هذا.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ [عبس:١٥] السفرة: الملائكة الرسل ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥] البررة: القائلون بالحق العاملون به، صلوات الله وسلامه على جميعهم.

أتبع ذلك بما هو وصف لذلك المشرك وأمثاله قوله - جل من قائل: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس:١٧] أي: لعن، أو يكون دعاء عليه بالقتل واللعن لم ينكر أن يعاد إلى الحياة بعد الموت.

﴿مِنْ أي شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [عبس:١٨] يقول: هلا تذكر من أي شيء خلقه ربه الذي أنشأه ورباه وعلمه البيان، ورزقه وموله وجعله معظمًا في قومه مسودًا في عشيرته.

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس:١٩ - ٢٠] إما سبيل هداية وإما سبيل ضلالة.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس:٢١ - ٢٢] يقول: الذي ﴿إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ هو الذي خلقه من نطفة وقدره إلى ما شاء من كونه وهداه

---

(١) أخرجه مالك (٤٨٠)، والترمذي (٣٦٥١).

السبيلين، ثم أماته.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس:٢٣ - ٤٢].

يقول ﷻ: **﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾** [عبس:٢٣] من الإيمان والعمل واجتناب المناهي.

يقول - عز من قائل: **﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا﴾** [عبس:٢٤-٢٩] الحب: كل ما حصد، كالحنطة والشعير، وما يتغذى به، والقضب: التبن، كذلك يسمونه أهل مكة، وليس هذا مما خلق الإنسان منه إلا أن يكون التبن طعامًا للأنعام، ثم يأكلها الإنسان فيكون عن ألبانها ولحومها، ويقال: القضب: الرطبة، وأشبه ما يكون به أن يقال فيه: إنه من طعام الأنعام التبن، أو ما يكون من أنواع المراعي رطبها أو يابسها كما قال الشاعر:

وأمجدها قضبًا وفتًا وعصفة يصب إليها كل ممسى وشارق

الحدائق الغلب: البساتين، والغلب: الغلاظ من النخيل وسائر الأشجار، الفاكهة: ما يتفكه به ويتنوع في أكله بعد أخذ الحاجة من الطعام، يصف صلاح الحال وسعته، والأَبّ: ما تأكله الأنعام والدواب من نبات الأرض، وهذا يؤيد ما تقدم ذكره، فإن ما أكلته الأنعام فهو مأكول للإنسان لكن بآخره، وما أكلته الدواب فهي حمولة له.

كذلك قال - عز من قائل: **﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾** [عبس:٣٢] وإنما وصف ﷻ فعله بما يتفضل به من فتح رحمته يعرض له بوجود الجنة، وخلق الله آدم ؑ

في الجنة وقال له: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٣٥] فكان منهما ما قد قصه علينا بصدق قيله، وكان ذلك سبب إخراجهما منها، فسجنهما في هذه الدار ليست الجنة ولا هي جهنم ولا هي غيرهما، بل هي من ممتزج الدارين، فهي مثال للدار الآخرة انتزعها من تلك، وكالبرزخ بين البحرين، فكما أن الدنيا سجن حتى أن الأكثر لم يتعدها إيمانهم إلى ما قبلها وما بعدها، كذلك مثالات الموجودات في فنائها وموت ما مات منها.

فافهم فإنه العجب العجيب، وغلب رحمته فجعل ما خلق عنه الإنسان مما يخرجه من الأرض بواسطة ما يفتحه من رحمته من الجنة حتى إذا بلغ الأشد الأول أمره ونهاه كما فعل بأبويه - عليهما السلام - فمن كانت له أذن سامعة فليسمع، ومن كان له قلب حاضر فليفهم، ألا ترى أن المحتبسين في دار الدنيا غذاؤهم إنما يكون من الدار التي حبسوا عنها، وإذا تبينت براءتهم أطلقوا من سجنهم ذلك فرجعوا إليها، وإن استحقوا إتمام العقوبة والإهلاك أنفذ عليهم ذلك بحكم الحق؟ فافهم من أنت، وعبد من أنت، ومن أين أخرجت وحيث أنت، ومن أين تأكل، وممن تنجو إن نجوت، وإلى أين تصير إن أنت تبينت براءتك فأطلقت.

ولظهور هذا التبيان قال فيه: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾[1] [عبس:١٧] أليس من المعهود أنه من سجنه السلطان لأمر اتهم به فظهرت براءته مما اتهم به فمعهوده أن

---

(١) قيل: نزلت في عتبة بن أبي لهب، غاضب أباه فأسلم، ثم استصلحه أبوه وأعطاه مالاً وجهزه إلى الشام، فبعث إلى رسول الله ﷺ أنه كافر برب النجم إذا هوى. وروي أنه ﷺ قال: «اللهم ابعث عليه كلبك يأكله» فلما انتهى إلى الغاضرة ذكر الدعاء، فجعل لمن معه ألف دينار إن أصبح حيًّا، فجعلوه وسط الرفقة والمتاع حوله. فأقبل الأسد إلى الرجال ووثب، فإذا هو فوقه فمزقه، فكان أبوه يندبه ويبكي عليه، وقال: ما قال محمد شيئاً قط إلا كان، والآية وإن نزلت في مخصوص فالإنسان يراد به: الكافر. وقتل دعاء عليه، والقتل أعظم شدائد الدنيا. ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ الظاهر أنه تعجب من إفراط كفره، والتعجب بالنسبة للمخلوقين؛ إذ هو مستحيل في حق الله تعالى؛ أي: هو ممن يقال فيه: ما أكفره. وقيل: «ما» استفهام توقيف؛ أي: أي شيء أكفره؟ أي: جعله كافرًا؛ بمعنى: لأي شيء يسوغ له أن يكفر؟. تفسير البحر المحيط (١٠/٤٣٦).

ينصرف إلى داره وأهله؟ فكذلك الحكم في آدم ﷺ وذريته المهتدين، وبالضد في الكافرين.

نظم بذلك - جلَّ ذكره: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس:٣٣] هي من أسماء القيامة، تصخ الآذان سماع زلزلتها صخًّا كأنها تطعن فيها؛ لشدة وقعتها وجلبة وجبتها، وهي أيضًا تضطر الآذان إلى أن تصخ إليها، يقال: أصخ إلي سمعك؛ أي: ألق سمعك لما أقول لك.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٤ - ٣٦] يفر منهم لأجل الملابسات التي تقدمت بينهم في الدنيا؛ خوف المطالبة بحقوق لازمة في الدين والدنيا. هذا وجه.

وبوجه آخر: قال الله - عز من قائل: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج:٢] وإنما ذلك مع ما تقدم أن الله خلق مائة رحمة، كل رحمة منها طباق السماوات والأرض، أنزل منها واحدة إلى الأرض فيها يتعاطف الحيوان والبهائم بعضها على بعض، حتى أن الفرس لتضع حافرها على ولدها فترفعه رحمة منها به، فإذا كان يوم القيامة قبض هذه إلى ما أمسك عنده فيها فرحم بها عباده المؤمنين، فإذا كانت هذه الرحمة التي قد وضعها في العباد قد قبضها ورحم بها عباده المؤمنين فبِمَ يتعاطف الإنس والجن يومئذٍ إلا المؤمنون؟.

قال الله - عز من قائل: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧] فهم الذين ينفع بعضهم بعضًا، ويشفع بعضهم لبعض ذلك اليوم، سبحانه وله الحمد، آتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

سألت عائشة - رضي الله عنها - رسول الله ﷺ وقد قرأ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١] ثم قال: «**أيها الناس، إنكم ملاقوا الله حفاة عراة غرلاً**» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤] فقالت عائشة: يا رسول الله، كيف الرجال؟ قال: «**حفاة عراة غرلاً**» قالت: فكيف تحشر النساء؟ قال: «**كذلك**» فقالت: واسوأتاه من يوم القيامة، ينظر بعضهم إلى بعض، قال لها: «**عن أي شيء تسألين؟ إنه قد نزلت علي آية لا يضرك**

كانت عليك ثياب أو لم يكن» قالت: أي آية يا رسول الله؟ قال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧]»[١].

نظم بذكر ذلك اليوم قوله الحق - عز جلاله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس:٣٨] أي: مضيئة، من أسفر الفجر: إذا أضاء، وإنما أسفر عن تلك الوجوه كدرة الغموم، فأضاءت بالأمن والإيمان والغبرة التي تغشى وجوه المجرمين، والقترة التي تلحقها وترهقها من ذلك، وأسفرت المرأة نقابها: إذا أزالته وظهر وجهها، وكل ما أضاء فقد أسفر.

(١) أخرجه بنحوه الطبراني (٩١). قال الهيثمي (١٠/٣٣٣): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عباس وهو ثقة. والحاكم (٣٨٩٨) وقال: صحيح على شرط مسلم. وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٠٦٦).

تفسير سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير:١ - ١٤].

تكوير الشمس يومئذٍ: ذهاب ضوءها، كما تطوى السماوات والأرضون تطوى الشمس والقمر وتنكدر النجوم، يرمى بها من سبل مجاريها فتسفل هويًا، وانتشارها إزالة انتظامها، فتتساقط بعضها إثر بعض، وتسيير الجبال: نسفها ليعدل بها الأرض، فتكون لذلك قاعًا صفصفًا، لا يُرى فيها عوج ولا أمت، والعشار: النوق الحوامل إذا تم لحملها عشرة أشهر سميت: عشارًا، واحدتها: عشراء، وهي يومئذٍ عزيزة مُغتَبَطٌ بها تعطل على ذلك، يقول: كرائم الأموال تبيد؛ لفظيع الأمر.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥] قضاء قضاه الله أن يعيد الخلق كما بدأهم، وحشرها: جمعها من نواحي الأرض بعد إحيائها؛ ليقتص ضعيفها من قويها.

قال رسول الله ﷺ: «**تقتص الْجَمَّاءُ من القرناء، والصغير من الكبير، ويسأل العود لم خدش العود، وأنه لا يترك الله شيئًا خلقه وكونه من أصول الموجودات أو عوارضها كريمها أو خسيسها إلا أعاده في الدار الآخرة**»[1] ﴿وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤] فمفهوم هذا: أنه كل ما فعله وأظهره في هذه يحضره في تلك، ثم يميز الله الخبيث من الطيب، فيجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم، وبالضد في كريم الوجود؛ يميزه من سواه ويجعله في

---

(١) أخرجه يحيى بن سلام في تفسيره (٢٧٥) أوله فقط، وبنحو منه.

الجنة ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف:٤٩].

﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦] فالدنيا كلها وموجوداتها محضرة في الدار الآخرة زائدًا إلى ما في الدار الآخرة وموجوداتها فانجلى ذلك، ثم يفترق الجمع كله، والمجموع فريقان: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وقد تقدم الكلام في هذه المسألة.

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[1] [التكوير:٨ - ٩] وقرئ: «سألت بأي ذنب قُتلَت» والموءودة: كانت العرب إذا ولد لأحدهم أنثى دفنها حية، وكانت تقول بأن: الملائكة بنات الله - تعالى الله عن قبيح قولهم - وكان معتقدهم في دفنها حيَّة: أنهم يصيرونها إلى الله هو أولى بها قبل أن تكسب أبويها عارًا، وقد تقدم تفسير قول الله ﷻ في ذلك وتبيان قبيح ما زعموه وكذب ما ادعوه.

يقول الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي: البنات ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الحُسْنَى﴾ الذكران، والحسنى أيضًا العافية الحسنى عند الله، لأجل ذلك كانوا يرون ذلك تقربًا منهم إلى الملائكة الذين كانوا يعبدونهم.

يقول الله - جل من قائل: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:٦٢] أي: مقدمون إليها إثر الموت ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي: في الكفر بالله وبالملائكة وبالحق.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير:١١] اجتذبت وانتزعت وطويت.

﴿سُعِّرَتْ﴾ [التكوير:١٢] قرئ بالتشديد والتخفيف، سعارها: شدة التهابها.

﴿وَإِذَا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير:١٣] قربت، ذكر الله - جلَّ ذكره - هذه الأوصاف كلها، وهي نعوت للساعة ومحال في يوم القيامة ومقامات وشدائد

---

(١) اختلف هل هي السائلة أو المسئولة، على قولين: **أحدهما**، وهو قول الأكثرين: إنها هي المسئولة ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ فتقول: لا ذنب لي، فيكون ذلك أبلغ في توبيخ قاتلها وزجره. **الثاني**: إنها هي السائلة لقاتلها: لِمَ قتلت؟ فلا يكون له عذر. قاله ابن عباس، وكان يقرأ: «**وإذا الموءودة سألت**». قال قتادة: يقتل أحدهما بنته ويغذو كلبه، فأبى الله سبحانه ذلك عليهم. النكت والعيون (٣٨٩/٤).

وأهوال.

ثم قال - عز من قائل: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٤] من قول ومن عمل خير أو شر، وهو جواب قوله - جل من قائل: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير:١] إلى آخر الأوصاف.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير:١٥ - ٢٩].

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ لا رد لقولهم في القرآن وفي الرسول، أقسم ﴿بِالْخُنَّسِ * الجَوَارِ الكُنَّسِ﴾[١] [التكوير:١٥ - ١٦] أقسم ﷻ بالخمسة الكواكب هي سبعة كواكب قد تقدم ذكرها، الخنس الجوار الكنس: هي الخمس ليس الشمس والقمر تتناهى جارية، تخنس؛ يعني: تتقهقر حين تكنس في ضمن الشمس، يقال: كنست الظباء في كناسها؛ أي: في مواضع تسترها.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير:١٧] أظلم وأطبق ظلامه وتنفس الصبح أسفاره وتزايده على ذلك.

---

(١) قال البقلي: أقسمَ الله بنيرات عالم الملكوت إذا شاهدت عرائس الصفات في روازنها، ونظرت إلى قلوب المشتاقين، وجذبتها بنورها إلى أعلى عليين، فلما بلغت الأرواح إلى سرادق الدنو تخنس باستتارها بعد تجلّيها، وتكنس باحتجابها بعد انكشافها؛ لذوبان الأرواح في نيران الأشواق، وهيجان الأشباح إلى عالم الأفراح، وأقسمَ بظلمة ليالي الهجران في وقت الاستتار في قلوب العارفين، وبطلوع صبح أنوار مشاهدته بنعت الوصال في فؤاد المحبين، وأيضًا أقسم بطيران الأرواح القدسية بجناح المحبة والمعرفة في هواء الهوية، وهذا كنوسها إذا هامت بوجوهها في غيب الغيب، فإذا وصلت إلى قاف القدم، وتذورت بسطوات الأزلية تخنس، وتفر من صدمات القيُّومية إلى عالم الأمر والحكم؛ لأن الحدوثية تزول عن موازاة القدم، وأيضًا أقسم بسير هذه الأرواح العاشقة في طرقات العلوم المجهولة، فتستفيد منها ما يكون بخلاف العلوم الرسومية.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير:١٩] يعني: جبريل عليه السلام.

﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ• مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢٠ - ٢١] يعني: في الأفق المبين - والله أعلم، هذا وصف لجبريل عليه السلام وما هو بقول شاعر ولا كاهن، لو آمنتم لأبصرتم، ولو تذكرتم لعلمتم ما هو ومن حيث هو؛ يعني: القرآن ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة:٨٠].

﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ [التكوير:٢٢] يعني: محمدًا ﷺ.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ يعني: جبريل ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير:٢٣] على صورته التي خلقه الله عليها.

﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني: جبريل عليه السلام ﴿عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٤] أي: بمتهم، بالظاء مرفوعة، وقرئ بضاد غير مرفوعة؛ يعني: محمدًا ﷺ بضاد غير معجمة أي: ببخيل؛ أي: ليس ببخيل على غيب يطلع عليه.

﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني: القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير:٢٥] صدر عن مجنون.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير:٢٦] أي: في ضلالكم.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٧] يعني: الرسول والقرآن وما جاء به.

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨] على الصراط المستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، هذا إعلام منه - جلَّ ذكره - أنه من استقام تذكر بالقرآن والرسول وما جاء به، وأما من لم يستقم فليس له في الوعد حظ، فالمشيئة لله ﷻ وحده.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩].

﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر:١٤].

تفسير سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار:١ - ١٩].

الانفطار: الانشقاق، وانفجار البحور: إفضاء بعضها إلى بعض، وبعثرة القبور: إثارتها للنشور[1].

وقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار:٥] جواب قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١] وما بعده.

ثم أعلم أنه لشبه الإنسان بالعالم وشبه الموت بالقيامة العامة قال رسول الله

(١) قال المصنف: يقال للذي يحرث الأرض: فاطر؛ لأنه يشقها بالحراثة، وفي الحديث: «قام رسول الله ﷺ يصلي حتى تفطرت قدماه» والفطر أيضًا بوجه الظهور والطلوع، من ذلك قولهم: فطر ناب البعير إذا طلع، والتفاطير: أول نبات الوسمي، قيل له ذلك والله أعلم؛ لأنه أول نبات طلع على الأرض منها وظهر، والتفاطير أيضًا: بثور تبدو في وجه الغلام أول اقتباله، والفطر: ضرب من الكمأة؛ سميت بذلك لطلوعها عن الأرض بعد انشقاقها عنها، والفطر: أكل الصائم، يقال من ذلك: فطَّرت الرجل وأفطرته فأفطر، وتأول رسول الله ﷺ اللبن الحليب بأنه الفطرة؛ لأنه أول ما يتغذى به المولود ويفطر عليه عند خروجه إلى الدنيا، وسمي دين الإسلام فطرة؛ لأنه أول شيء لقيت الذوات يوم برئها والأجسام يوم جمع خلقها والخليقة كلها كذلك. [١٧٢/٢].

ﷺ: «**من مات قامت قيامته**»(١) لما في خلقه الإنسان من موجودات الأرض والسماء من أرض وجبال ونجوم وسماء وشمس وقمر إلى غير ذلك من موجودات الجسم، يقوم في قوام حمله الإنسان مقام موجودات الأرض والسماء من أرض وجبال ونجوم وسماء وشمس وقمر، إلى غير ذلك من موجودات العالم، أشبهت قيامة المنية قيامة العالم، فيعلم الإنسان عند حصول الموت أيضًا بما قدم وأخر كما يعلم يوم القيامة بكل ما أحضره من عمل.

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦] وقرأها ابن جبير والأعمش: «ما أغرك بربك الكريم» بالمد والهمز، فهذا على التعجيب منه، والأول على معنى التقرير.

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(٢) [الانفطار:٧ - ٨] كيف تنكر على هذا أن يعيدك حيًّا كما كنت؟ كيف

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال المصنف: أي: عدل صورتك خلقها على أحسن التصوير، ومن قرأ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بتخفيف الدال، أراد ما لصورتك، وعدل فيها بها عمّا دونها من الصور إلى أحسن التصوير، وهذا يكون بمعنى الإمالة والإحالة له إلى ما أريد منه، ولذلك قالوا: عصفور صوار، إذا أجاب لإمالته صورته بالمحاكاة إلى الأصوات سواء، يقال من التصوير الذي بمعنى التقدير: صار الرجل، إذا صور، وصار أيضًا بمعنى: حال وذهب نحوه، وأصار: أحال ووجه، ويقال: صور الأمر، أي: قدره، وصاره يصوره، إذا أماله والنعت منه: أصور إذا كان مائل للعنق، وقد صور صورًا إذا أمال، والمصور من التصوير، وهو تصيير الشيء على صورة، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف:١١] وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤] أي: قدرها فأحسن تقديرها، والصوار: قطيع من البقر، والجمع: أصورة وصِيران كجبار وكبار، وصيران كغلام وغلمان، وقراد وقردان؛ سميت بذلك لميل بعضها إلى بعض واجتماعها، والصوار أيضًا: قطعة من المسك، سمي بذلك للمعلوم من المسك أن يميل النفوس بطيب أريجه إليه، ويقال: رجل صير شير إذا كان ذا صورة حسنة وشارة ظاهرة، وتجمع صورة على صورة، وقد يتأول عليه قوله جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [النمل:٨٧] أي: في الصور. قالوا: والصور القرن الذي ينفخ فيه، قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن، وجثا على ركبتيه، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر، فينفخ**» وقد قيل: إن القرن الذي هو الصور من القرن قرن الأمة، فيمكن أن ذلك القرن سمي قرنًا على العموم، أي: قرن بني آدم أجمعهم، والنفخ فيه هو النفخ في الصور أو في جميع =

اجترأت على معصيته ومخالفة أمره وهو معك يراك ويشاهدك، وله عليك رقيبان كاتبان صادقان كريمان يعلمان ما تفعله، يكتبانه عليك ويحصلانه، ويعدان عليك أنينك وأنفاسك؟ بل كيف اجترأت على كفرانه وساعدتك نفسك على تكذيبه، ونازعت عقلك وجحدت فطرتك فعبدت معه غيره وأشركت في نفسك ومالك الذي رزقكه سواه؟.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:٩ - ١٢] فأخبر - عز جلاله - أنه أحلهم من العلم بأعمالنا من [...][1] المنقدح من خزائن الغيب إلى ظاهرها، وأما ما كان منها لم ينقدح في القلب ولا جرى ذكره على النفس، فلم يتناوله وله الخبر؛ لأنه قال: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ بلفظ الاستقبال.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا همَّ العبد بأن يعمل سيئة قالت الملائكة: يا رب، هذا عبدك يريد أن يعمل سيئة كذا، فيقول الله - جلَّ ذكره: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها سيئة واحدة، وإن لم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإنما تركها من جزائي**»[2] وموضع الخوف من العبد غيب، وقال الله - جل من قائل: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦ - ٢٧] وهؤلاء رسل من عنده موكلون بهذا الشأن من العباد، فلا بد أن يعلمهم بما قد جعله إليهم من عملهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار:١٣ - ١٥] هذا حق يقين، وإنما موضع البرزخ حيث امتزج الخير بالشر والطاعة بالمعصية في الفاسق الملي، ثم ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أعني: الجحيم ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء.

ثم قال: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار:١٦] يعني - وهو أعلم بما ينزل: اليوم، وما هم عنها اليوم بغائبين لو عقلوا منبعث الفيحين سعيرها وزمهريرها.

=

الصور. [١٨٩/٢].

(١) الأُساة: مفردها آسي وهو الطبيب. انظر الصحاح في اللغة (١٤/١).

(٢) غير واضح في (خ)، وغير موجود في (ف).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ﴾ كله ﴿لِلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩] وحده لا شريك له في الدنيا ولا في الآخرة، لكن ذلك اليوم له خاصة حكم لا كسب لأحد فيه ولا إرادة شيء يجعل له ذلك ندبًا ويعطاه، بل الخير الذي هو أصل الحركة والإرادة فيما هاهنا الذي عبر عنه بقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠] هو غيب اليوم، وهو يومئذٍ ظاهر، عليه تجري الأحكام فافهم.

تفسير سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)﴾ [المطففين:١ - ١٧].

قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين:١] قد تقدم أن كل اسم شر موجود في هذه الدار فأصل وجوده في جهنم، وعنها انبعث الشر كله واستطار وتفشى، كذلك كل اسم خير موجود ها هنا فإن أصله ومنبعثه من الجنة، وإليهما يرجع ما هو موجود عن كل واحدة منهما، كما تأرز الحية إلى جحرها خلى ما أحال حكم التكليف من ذلك، فإن ذلك له حكم قد بينه الشرع، وأصار من موجودات هذه إلى هذه وموجودات هذه إلى هذه، ويجمع ذلك قول رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق الجنة ثم قال لجبريل** عليه السلام: **ادخلها فانظر إليها، ففعل ثم قال: وعزتك لا يسمع بها أحدًا إلا دخلها، فحفها بالضر** - وفي أخرى: «بالمكاره» - **ثم قال له: ادخلها فانظر إليها، ففعل ثم قال: وعزتك لقد خشيت ألَّا يدخلها أحد، وخلق النار ثم قال لجبريل** عليه السلام: **ادخلها فانظر إليها، ففعل ثم قال: وعزتك لقد حسبت ألَّا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات، ثم قال له: ادخلها فانظر إليها، ففعل ثم قال: وعزتك لقد خشيت ألَّا يبقى أحد إلا دخلها**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٦٣٣)، وهناد (٢٤٢)، وأبو داود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠) وقال: حديث =

والمطفف: الذي لا يعطي الحق في الميزان والمكيال، وطف الشيء: جانبه، والشيء الطفيف: هو الزهيد القليل، وقيل له: مطفف؛ لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا اليسير الخفي، يقال: اكتلت عليه خفي، واكتلت منه ومن عنده.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ...﴾ [المطففين:٧ - ٨].

انتظم هذا بقوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [المطففين:٤-٦] فمعنى «كلا» هنا: معنى «نعم»، ويكون بمعنى التكذيب لظن هذا المطفف، يقول - عز من قائل: كلا ليس الأمر على ما ظنه ولا على ما تهاون به وتغافل عنه، وعلى الوجه الآخر كأنه يقول ﷻ: نعم إن كتاب الفجار لفي سجين، ومن ظن أنه غير مبعوث لذلك اليوم فهو فاجر وكافر ومكذب، ومن علم ذلك ففعله فهو صغير الكافر المكذب الفاجر، ويمكن أن يكون معنى «كلا» ليس كما ظن أنه غير مبعوث.

﴿إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ قيل: هي صخرة تحت الأرض السابعة سوداء مكتوب عليها أعمال الفجار، ويمكن أن يكون «سجين» فعيل من السجن، أعمالهم فيها مكتوبة؛ أي: مثبتة، فإذا ماتوا لم تفتح لهم أبواب السماء، فأُسْفِلَ بهم إلى أعمالهم، كذلك كتاب الأبرار في عليين قوله ﷺ: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**»[1] فأثبتها معلومة له في عليين، ثم أوجدهم بعد فعملوا له بما سبق علمه به، فرفع أعمالهم معمولة إلى معلومة منهم حتى يرفعون إليها، كذلك الفجار في الطرف الآخر.

نظم بذلك قوله الحق - عز من قائل: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المطففين:١٠] يشير إلى اليوم العظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين:١١] أي: الجزاء.

= حسن صحيح. والنسائي (٣٧٦٣)، والحاكم (٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٨٤).

(١) تقدم تخريجه.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ [المطففين:١٢] لحدود الله، عامل بالآثام، إذا ذكر بآيات الله كذب بها وقال: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣].

يقول - عز من قائل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] الرين: الطبع، يكون عن تراكم أعمال السوء وتتابع أعمال الآثام حتى يعلو القلب، ثم يؤول إلى الطبع.

أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا أخطأ الخطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه**»[١] وهو الران الذي ذكره الله، الران والرين: التغشية، والغان: من غان يغين غينًا، والغين: كالغيم الرقيق، والرين: كالصدأ يغطي القلب فيذهب نوره، يقال من ذلك: رين بفلان؛ أي: مات فذهب به.

أتبع ذلك قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[٢] [المطففين:١٥] كما حجبوا عن العلم به في هذه حجبهم عن رؤيته في الآخرة جزاءً لإعراضهم عن ذكر هؤلاء الكفار يحجبون عنه في المحشر، وأما المنافقون فيرونه على ما ليس به تصديقًا لقوله - جل من قائل: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين:١٦ - ١٧].

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٣٩)، والترمذي (٣٣٣٤) وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (١٠٢٥١) وابن ماجة (٤٢٤٤) وابن أبي الدنيا في التوبة (١٩٨ ط مكتبة القرآن) وابن حبان (٢٧٨٧) والحاكم (٦) وقال: صحيح. والبيهقي في شعب الإيمان (٧٢٠٣ مكرر).

(٢) لا يقتضي الحجاب مطلقًا، فإنه يُقيَّد بيوم القيامة، فقد ينكشف عنهم عماهم، وإن كان ذلك دون انكشاف بصائر أهل النعيم؛ لأن محلَّ أهل النعيم؛ وهو الجنة، وكذا أبدانهم لطيف قابل لكل نور ذاتي، ونعيم صفاتي، وأمَّا محلُّ أهل الجحيم؛ وهو النار؛ وكذا أجسامهم فكثيف ليس بمقابل لذلك، فليس لهم نعيم صفاتي أصلاً من المطعم والمشرب والمنكح ونحوها، وأمَّا النعيم الذاتي فبقدر تصفية ذاتهم وصفاتهم؛ وإنما: قلنا النعيم الذاتي من طريق المشاكلة، وإلا فلا نعيم هناك أصلاً؛ لأنه عالم الفناء عن الحسِّ، وليس عنده ذوق، وبرد وسلام فاعرفه، واجتهد أن تكون من الذين ابيضَّت وجوههم في جميع العوالم، فإن النور الدائم لا يلحقه الظلمة.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين:١٨ - ٣٦].

أتبع ذلك قوله - عز جلاله: ﴿**كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ**﴾ [المطففين:١٨ - ١٩] كل ما قال فيه وما أدراك فقد أدراه.

قال رسول الله ﷺ «**أتيت بالبراق**»(١) وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، فذكر سيره إلى بيت المقدس، ثم عروجه إلى السماء الدنيا، ثم إلى السماوات سماء سماء إلى السابعة، وذكر أنه لقي فيها الأنبياء وإن اختلفت الروايات في محالهم، فإن آدم عليه السلام في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السابعة، فهذه - والله أعلم - عِلِّيُّون، قيل لهن ذلك بالإضافة إلى السماوات الدنى سماوات الأفلاك، فكتاب الأبرار في عليين ﴿**يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ [المطففين:٢١] الأنبياء والرسل والملائكة، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم قال - عز من قائل: ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ**﴾ [المطففين:٢٢] هذا - والله أعلم بما ينزل - في مقابلة وصفه أولئك ﴿**كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ**﴾ [المطففين:١٥ - ١٦].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿**عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ**﴾ [المطففين:٢٣] أي:

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٢٧)، ومسلم (١٦٢)، وأبو يعلى (٣٣٧٥)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٠)، وأبو عوانة (٣٤٤).

ينظرون إلى ربهم - عز جلاله - كما قال رسول الله ﷺ: «**إنكم ترون ربكم عيانًا كما ترون القمر ليلة البدر وكما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب**»[١] ورؤيتنا الشمس والقمر **عيانًا** كما قال وعلى الدوام الشمس نهارًا والقمر ليلاً وليس هناك ليل ولا نهار، وقد تقدم ذكر ما به تعرف الأيام فيما هنالك؛ يعني: الليل والنهار فيما هنالك.

فصل

النظر فيما هاهنا ينقسم إلى ستة معالم:

- **أحدها**: نظر عموم المؤمنين ممن لا يكاد يُنسب إلى نظر، لكنه لما حصل عنه الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد سُمي بفضل الله: نظر، أو هو حال عامة المؤمنين من النساء والرجال الذين شهدوا شهادة الحق وعملوا عليه، ثم نظر أهل الكلام الذين أحكموا الأجدال ونصب الدلائل وتبين البراهين، وهؤلاء أئمة المسلمين الذابون عن حملة الحق.

- ثم نظر أهل الورع والتوبة وإعمال القلوب ومحاسبة النفوس ومعرفة التوكل ونحو هذا، كعلم الخوف وعلم الرجاء واليقين، وهذا يتقوى على كل نظر وبه يتوصل إلى كل مطلوب.

- ثم لأئمة المتقين نظر في آيات الله الدالة عليه المعرفة به وبشواهده وبيِّناته على صدقه وصدق رسله وكتبه التي تريهم الآخرة بالعلم واليقين **عيانًا**، فيشهدون بها ما غاب من وعد الآخرة ووعيدها، وهو معرفة الحق المخلوق به السماوات والأرض.

- ثم نظر لأهل العلية منهم في معرفة ما تقدم ذكره باستقراء الأسماء الحسنى والصفات العلا مسالكها في العالم ومقتضياتها من الحق المخلوق به السماوات والأرض، ونسبته إلى الأسماء والصفات، ثم يعرف ذلك في الدار الآخرة وإضافته إلى الحق المبين فيما هنالك، وفي هذا النظر وصلوا إلى التوحيد العلي، وهو عين

---

(١) تقدم تخريجه.

اليقين، وهو النعيم في الدنيا، وهي المعاينة التي تُنسب إلى المشاهدة وعندها تصغر العطايا لمشاهدة قدرها، وتستغرق كل سبب؛ حتى يغيب شاهد روى العلم فيها والعلوم كلها مجموعة فيها؛ لأنها ينبوع العلم منها بدأ وإليها يعود، فافهم.

ثم السابع هو موضع الحجر المحجور والسد المسدود، ينقطع سر العقول وتحتبس عنده النفوس، وتهدأ حركات الوهم وتنسد أبواب الفطن، وإذا بلغت الألباب إلى ما هنالك سجدت ورجعت حسيرة.

قال رسول الله ﷺ: «**تفكروا في المخلوق** - وربما قال: الخلق - **ولا تتفكروا في الخالق**»[1] فإذا دخلوا الجنة وهذبوا وطيبوا شاهدوا الحق المبين عيانًا وكلمهم كفاحًا، فهم على أرائكهم ينظرون إليه، لا يبدو لهم أبدًا بمرئى واحد مرتين، ولا يكلمهم في معنى واحد بكلمتين، بل لكل كلام إفهام، ولكل إفهام معنى، ثم لا أفول ولا تنقل يتجلى إذا شاء في ضيائه وإذا شاء في نوره، سبحانه وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم، وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه.

ثم إذا استزادهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، سقاهم شرابًا طهورًا يطهرهم به من ملابسة الأغيار الموجودات في الجنة، فيرونه به - جلَّ ذكره - دون ستر عنه ولا ذهول عن ذكره، فقوله - عز جلاله: كلا ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ**﴾ [المطففين:٢٢ - ٢٣] هذا هو نظرهم، ويتفاضلون في الرؤية غبها ودائمها على مقادير علومهم ويقينهم وسلوكهم سبيل الاستقامة، ويتفاضلون أيضًا في دوام النظر إليه كما كانوا يتفاضلون في سبل تسيارهم إلي، فقوم عبدوه مخافة عذابه فأجارهم من عذابه وأدخلهم جنته، وقوم عبدوه رجاء لثوابه فرفعهم في الثواب إلى حيث بلغتهم أعمالهم، فهؤلاء ربما تشاغلوا بالأكل والشرب وأنواع النعيم.

قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ**﴾ [يس:٥٥-٥٧] في هذا معنيان: لهم فيها ما يدعون اليوم، كما قال: إن هذا ما كنتم به تدعون، والمعنى الآخر بمعنى قوله: ﴿**لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ**﴾ [النحل:٣١] وهذا - والله أعلم - لأهل

---

(١) أخرجه أبو الشيخ (٥).

الغلبة منهم، وهؤلاء هم المعنيون بقوله: ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣].

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلامًا﴾ [مريم:٦٢] يسلم عليهم ويحييهم الحق المبين بكل معنى وبكل وجود فيما هنالك، وكما به سخر لنا الشمس والقمر والنجوم والرياح والأمطار والأفلاك والليل والنهار وما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، فبالمعنى الذي به سخر لهم هذه الموجودات في الدنيا يحييهم كل شيء يفصح يومئذٍ كل شيء بالتحية لهم والسلام كما أكرمهم في الدنيا بالتسخير لهم ويحييهم الحق المبين، عز جلاله.

قال الله - عز من قائل: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨] فهم لا يرون فيها أبدًا إلا ما يعجبهم.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾ لأجل ذلك ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ على الدوام ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ ما هو معناه ﴿الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

قال رسول الله ﷺ: «**يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس**»[(١)].

وربما أرجعهم إلى أنفسهم وأزواجهم ومماليكهم فنظروا إليها، وهذا مقام ينسب إلى الصنفين الأولين من الأبرار؛ لأنه أكثر أحوالهم، وكما قال الأول:

فكأنهم لم يلبسوا أطمارهم ... لما لفوا بالعبقري الأخضر

يا حسنهم بمجالس من لؤلؤ ... يتطلعون من العلا للكوثر

وقال رسول الله ﷺ: «**إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه ومماليكه مسيرة ألف سنة، وإن أعلاهم لمن ينظر إلى ربه بكرة وعشية**»[(٢)].

قوله ﷻ: ﴿تَعْرِفُ فِي وَجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين:٢٤] النضرة: النعمة، روض ناضرة؛ أي: ناعم، وقرأها أبو جعفر: «تعرف في وجوههم نضرة النعيم» على مفعول لم يسمَّ فاعله.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾[(٣)] [المطففين:٢٥]

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٧٧٦)، وأحمد (١٤٨١١) وعبد بن حميد (١٠٣٠) ومسلم (٢٨٣٥) وأبو داود (٤٧٤١)، وابن حبان (٧٤٣٥)، والطبراني في الشاميين (١٠١٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) قال أبو عبيدة والأخفش والمبرد والزجاج: الرحيق من الخمر: ما لا غشّ فيه، ولا شيء =

الرحيق من أسماء الخمر.

﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين:٢٦] وقرئ: «خاتمه» يمكن أن يكون المعني بهذا: ما يبقى في أنفاسهم وأفواههم من رائحته كالمسك، وقد يكون الختام ما يجري عليه حالة المسك، والحال: الطين، ثم أمر ﷻ بالتنافس في هذه الكرامات والمكانات والمراتب، كما أمر بالمسابقة والمسارعة، وفي هذا يحسن التحاسد.

قال رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين**»[1].

نظم بذلك ﷻ بقوله: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين:٢٧] وهو خمر يتسنم عليهم من علو وهو عين.

﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٨] صرفًا، قال الله - عز من قائل: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء:٦٩].

الفكه: المعجب، يقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا**﴾ [المطففين:٢٩] جعلوا المؤمنين ضحكة بينهم يتهزؤون منهم.

﴿**وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ**﴾ [المطففين:٣١] معجبين بما فعلوه.

﴿**وَإِذَا**﴾ رأوا المؤمنين ﴿**قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ**﴾ [المطففين:٣٢] كذلك قال رسول الله ﷺ وذكر ما يؤول إليه الإسلام من حال الغربة: «**يكون القابض يومئذٍ على دينه كالقابض على الجمر**»[2] وفي أخرى: «**يكون المؤمن فيهم أذل من**

=

يفسده. والمختوم: الذي له ختام. وقال الخليل: الرحيق: أجود الخمر، وفي «الصحاح»: الرحيق: صفرة الخمر. وقال مجاهد: هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية، ومنه قول حسان:«يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفق بالرحيق السلسل» قال مجاهد: ﴿مَّخْتُومٍ﴾: مطين كأنه ذهب إلى معنى الختم بالطين، ويكون المعنى: إنه ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه للأبرار. وقال سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي: ختامه: آخر طعمه. فتح القدير (٧/٤٤٥).

(١) أخرجه أحمد (٤٥٥٠) والبخاري (٧٠٩١) ومسلم (٨١٥) والترمذي (١٩٣٦) وابن ماجة (٤٢٠٩) وابن حبان (١٢٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٢٦٠) وقال: غريب. وابن عدي (٥/٥٥ ، ترجمة ١٢٢٩).

الأمَة»[1] وفي أخرى: «**يكون العالم فيهم أنتن من جيفة حمار**»[2] والله المستعان.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٣٤] في حال كونهم على أرائكهم ينظرون إلى خزي أولئك ونكالهم وتنويع عذابهم.

﴿هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٦].

---

(١) أخرجه هناد في الفتن (٥١٦)، والديلمي (٨٦٧٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٨١/٥).

تفسير سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢)﴾ [الانشقاق: ١ - ١٢].

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾[1] [الانشقاق:١] كما قال - عز من قائل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١] وقال - عز من قائل: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان:٢٥] أي: الغمام الذي ينزل الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه فيه.

---

(١) قال ابن خالويه: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ بكسر التاء، عبيد عن أبي عمرو. وقال ابن عطية، وقرأ أبو عمرو: «انشقت» يقف على التاء كأنه يشمها شيئًا من الجر، وكذلك في أخواتها. قال أبو حاتم: سمعت أعرابيًا فصيحًا في بلاد قيس يكسر هذه التاءات، وهي لغة. وذلك أن الفواصل قد تجري مجرى القوافي. فكما أن هذه التاء تكسر في القوافي، تكسر في الفواصل؛ وإجراء الفواصل في الوقف مجرى القوافي مهيع معروف، كقوله تعالى: ﴿الظُّنُونَا﴾ و﴿الرَّسُولاْ﴾ في سورة الأحزاب. وحمل الوصف على حالة الوقف أيضًا موجود في الفواصل. ﴿وَأَذِنَتْ﴾: أي استمعت وسمعت أمره ونهيه، وفي الحديث: «**ما أذن الله بشيء إذنه لنبي يتغنى بالقرآن**» وقال الحجاف بن حكيم: أذنت لكم لما سمعت هريركم... وأذنها: انقيادها الله تعالى حين أراد انشقاقها، فعل المطيع إذا ورد عليه أمر المطاع أنصت وانقاد، كقوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ﴿وَحُقَّتْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير: وحق لها أن تسمع. وقال الضحاك: أطاعت وحق لها أن تطيع. وقال قتادة: وحق لها أن تفعل ذلك، وهذا الفعل مبني للمفعول، والفاعل هو الله تعالى، أي وحق الله تعالى عليها الاستماع. ويقال: فلان محقوق بكذا وحقيق بكذا، والمعنى : أنه لم يكن في جرم السماء ما يمنع من تأثير القدرة في انشقاقه وتفريق أجزائه وإعدامه. قيل: ويحتمل أن يريد: وحق لها أن تنشق لشدة الهول وخوف الله تعالى. وقال الزمخشري: وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع، ومعناه: الإيذان بأن القادر الذات يجب أن يتأتى له كل مقدور ويحق ذلك. [البحر المحيط (٤٥٢/١٠)].

﴿وَأَذِنَتْ﴾ [الانشقاق:٢]: سمعت وأطاعت، دعاها فسارت إليه، كما قال في الظل: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ [الفرقان:٤٦] وحق لها ذلك؛ لأنه أبدلها بما هي أوسع أكنافًا وأبعد أقطارًا، كما قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم فانظر بم يخرج منها**»(١).

﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق:٣] هذه نسفت عليها الجبال نسفًا فعدلت بها فلا يرى فيها عوج ولا أمت.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ ما استودع فيها من الأموات والشهادات وغير ذلك ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:٤] من ذلك.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ دعاها فأجابت وقبضها فأطاعت ﴿وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق:٥] بدلها بما هي أوسع أكنافًا وأبعد أقطارًا بأرض بيضاء كالنقى، درمكة بيضاء نزلاً لأهل الجنة، ولم يأت في هذه السورة جواب لمبتدئها، ربما كان جواب ذلك محذوفًا، وربما كان مع ذلك لو أظهر لكان على وصف ما تبدل به الأرض غير الأرض والسماوات، فيكون تقدير الكلام: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١] إلى قوله: ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:٣ - ٤] بدلها ذلك كله بما هو أوسع وأكرم، هذا في وصف ما هو من هذه الأرض إلى ما علاه، وبما هو من وصف الأرضين فيما يكون وصفًا لجهنم.

وأرى أن هذه المذكورات من انشقاق السماء ومد الأرض وتخليتها مما استودع فيها توفيت لما جاء من وعد ووعيد في سورة «المطففين» أو يكون غير ذلك، والله أعلم بما ينزل.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] متى لم يؤمن الإنسان بربه كفره، ومتى لم يعمل بطاعته عمل بمعصيته لا بد ولا محالة، وأي ذلك كان فهو المراد به.

ومنه لذلك قال: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق:٦] يقول، وهو أعلم: إنك عامل إلى ربك عملاً فملاقيه به، فانظر بم تعمل؟ وربما انتظم به قوله:

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١] فكانت جوابًا لما قبلها.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الانشقاق:٧].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق:١٠] هو بمعنى قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وأما من أوتي كتابه بشماله، هي: الشمال جنبة الظهر، وهو الخلف والأسفل، والجنبة المحمودة: هو اليمين والأمام والأعلى، والثبور: الهلاك، وذم الله - جلَّ ذكره - العبد أن يكون شأنه السرور في أهله.

وقال رسول الله ﷺ: «خيركم، خيركم لأهله»[1].

وأرى ذلك - والله أعلم - في تقويمهم على عبادة ربهم، وربما أرخص له في بعض الشأن، وكان رسول الله ﷺ يهزل ولا يقول إلا حقًّا.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾ [الانشقاق:١٣ - ٢٥].

﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق:١٤] أي: أن لن يرجع، الحور: الرجوع، وهو الإحياء بعد الموت.

قوله تعالى: ﴿فَلَا﴾ رد على ما ظنه الإنسان من ذلك، ثم ﴿أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ [الانشقاق:١٦] لما كان الشفق عند غروب الشمس وعند طلوعها، وهو وقت حور النهار وحور الليل في تكويرهما.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق:١٧] من ظلام وقضاء وقدر، وهو جائز بعد الليل المتقدم.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق:١٨] أي: استوى امتلاءً؛ وذلك بانضمام بعضه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٩٥) وقال: حسن غريب صحيح. وابن حبان (٤١٧٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٧١٨)، والدارمي (٢٢٦٠).

إلى بعض، وهو أيضًا جائز بعد اتساق تقدم له في منازله، أقسم بهذه الأقسام لما فيها من المعنى المقسم من أجله.

ثم استاق من المقدر معنى ذلك بقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩] أي: موت أول قبل هذه الحياة، ثم هذه الحياة بعدها، ثم بعد هذه الحياة الموت المنتظر، ثم بعده الحياة الآخرة.

يقول الله - جل من قائل: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق:٢٠] إشارة منه إلى ما أقسم به من حور بعد كور.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق:٢١] أي: لا يخضعون له إيمانًا به، أفلا يرون أنهم ينقلون في الأحوال طبقًا بعد طبق، فكيف لا يؤمنون بالحياة الآخرة وإنما هي واحدة من الحالات المنتقل فيهن، فلو أنهم آمنوا استدلالاً بالموجودات لأبصروا فكانوا يسجدون عندما يقرأ عليهم القرآن؟

ألا تسمعه يقول - جل من قائل: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ [الانشقاق:٢٢ - ٢٣] أي: فلذلك لا يسمعون القرآن فهمًا ولا علمًا، ولا يبصرون شواهد الموجودات عقلاً وإيمانًا، ولا يرون سجودها فقهًا واستبصارًا، والله أعلم بما توعى قلوبهم وما يسبق إلى نفوسهم من أنواع الضلالات.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق:٢٤] ليس كذلك ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لذلك ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[1] [الانشقاق:٢٥].

---

(١) فيه أربعة تأويلات: **أحدها**: غير محسوب. قاله مجاهد. **الثاني**: غير منقوص. قاله السدي. **الثالث**: غير مقطوع. قاله ابن عباس. **الرابع**: غير مكدّر بالمن والأذى وهو معنى قول الحسن. النكت والعيون (٤/٤٠١).

تفسير سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)﴾ [البروج:١ - ٩].

﴿الْبُرُوجِ﴾ [البروج:١] اثنا عشر برجًا، وقد تقدم ذكرها[1].

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ [البروج:٢] يوم القيامة.

﴿وَشَاهِدٍ﴾ هو الله - جلَّ ذكره - ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج:٣] كل ما شوهد يومئذٍ، وبحكم العموم في الدنيا من الآيات والبينات، وفي الآخرة من الحق المعتبر إليه من شواهد ما هاهنا، والمشهود أيضًا: هو اليوم الآخر، هو المجموع له الناس، وهو اليوم المشهود.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اليوم الموعود: يوم القيامة، واليوم

---

(١) قال ابن عباس والجمهور: هي المنازل التي عرفتها العرب، وهي اثنا عشر على ما قسمته، وهي التي تقطعها الشمس في سنة، والقمر في ثمانية وعشرين يومًا. وقال عكرمة والحسن ومجاهد: هي القصور. وقال الحسن ومجاهد أيضًا: هي النجوم. وقيل: عظام الكواكب، سميت بروجًا لظهورها. وقيل: هي أبواب السماء؛ وقد تقدم ذكر البروج في سورة الحجر. ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾: هو يوم القيامة، أي الموعود به. ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾: هذان منكران، وينبغي حملهما على العموم لقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٤] وإن كان اللفظ لا يقتضيه، لكن المعنى يقتضيه؛ إذ لا يقسم بنكرة ولا يدري من هي. فإذا لوحظ فيها معنى العموم، اندرج فيها المعرفة فحسن القسم. وكذا ينبغي أن يحمل ما جاء من هذا النوع نكرة، كقوله: ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور:١ - ٢] ولأنه إذا حمل ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ على العموم دخل فيه معنيان: الكتب الإلهية، كالتوراة والإنجيل والقرآن، فيحسن إذ ذاك القسم به. [البحر المحيط (١٠ /٤٥٧)].

المشهود: يوم عرفة، والشاهد: يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على أفضل منه...»[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ١٠ - ٢٢].

أقسم الله ﷻ بهذا القسم، وجواب القسم ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

ثم وصف نفسه ﷻ بأنه ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ * ذُو العَرْشِ المَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[2] [البروج:١٣ - ١٦] وقرئ: «ذي العرش» نعتًا لربك، قراءة عبد الملك بن بكار بإسناد عن ابن عامر.

وفصل بين القسم وجوابه بقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤] أي: لعن، وهو دعاء عليهم مجاب ﴿الَّذِينَ فَتَنُوا المُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج:١٠] من ذلك ولا نزعوا عنه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٩)، والبيهقي (٥٣٥٣)، والطبراني في الأوسط (١٠٨٧).

(٢) قال القشيري: إنْ أراد أن يجعل أرباب الأرواح من أرباب النفوس فهو قادر على ذلك، وهو عادل في ذلك، وإن أراد عكس ذلك فهو كذلك فلذا كان العارف لا يزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره، هل أتاك حديث الجنود، أي: جنود النفس التي تُحارب به الروح لتهوي بها إلى الحضيض الأسفل، ثم فسّرها بفرعون الهوى، وثمود حب الدنيا، والطبع الدني، بل الذين كفروا بطريق الخصوص في تكذيب، لهذا كله فلا يُفرقون بين الروح والنفس، ولا بين الفرق والجمع، والله من ورائهم محيط، لا يفوته شيء، لإحاطة المحيط بالأشياء ذاتًا وصفاتًا وفعلاً، بل هو أي: ما يوحي إلى الأسرار الصافية، والأرواح الطاهرة قرآن مجيد في لوح محفوظ عن الخواطر والهواجس الظلمانية، وهو قلب العارف.

ويمكن أن يكون قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤] إخبارًا عن المقتولين يومئذٍ ولهم قصة تقدم ذكرها فيها، ذكر ملك من الملوك كان يدعو الناس إلى عبادة نفسه، وأن ساحرًا قد كان كبر وضعف فقال له: أبعني غلامًا فطنًا يقظًا أعلمه علمي، فإني أخشى أن يذهب علمي بذهابي، فجعل له غلامًا إلى آخر القصة.

ثم قال - عز من قائل: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الجُنُودِ﴾ [البروج:١٧] أي: المهلكين، أضرب عن ذكرهم بعدما عرض بهم تشريدًا لغيرهم، ثم ذكر العرب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأنهم ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج:١٩].

﴿وَاللهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج:٢٠] أي: قدرة وعلمًا.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١ - ٢٢] أضرب بقوله: «بل» عن قولهم الكاذب في القرآن ﴿مَّجِيدٌ﴾ أي: كريم ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ نعتًا للوح، و«محفوظ» نعت للقرآن، ويقرأ: «محفوظ» بالرفع وبالخفض.

تفسير سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾ [الطارق: ١ - ١٧].

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾[1] [الطارق: ١] فسر ﷻ ذكره الطارق بقوله: إنه ﴿النَّجْمُ

(١) أقسم سبحانه بالسماء والطارق، وهو: النجم الثاقب، كما صرّح به التنزيل. قال الواحدي: قال المفسرون: أقسم الله بالسماء والطارق، يعني: الكواكب تطرق بالليل، وتخفى بالنهار. قال الفرّاء: الطارق النجم؛ لأنه يطلع بالليل، وما أتاك ليلاً فهو طارق. وكذا قال الزجاج والمبرد، وقد اختلف في الطارق هل هو نجم معين، أو جنس النجم؟ فقيل: هو زحل. وقيل: الثريا. وقيل: هو الذي ترمى به الشياطين. وقيل: هو جنس النجم. قال في الصحاح: ﴿وَالطَّارِقِ﴾: النجم الذي يقال له كوكب الصبح؛ أي: إن أبانا في الشرف كالنجم المضيء، وأصل الطروق: الدقّ، فسمي قاصد الليل طارقًا لاحتياجه في الوصول إلى الدق. وقال قوم: إن الطروق قد يكون نهارًا، والعرب تقول: أتيتك اليوم طرقتين أي: مرتين، ومنه قوله ﷺ: «أعوذ بك من شرّ طوارق الليل والنهار إلّا طارقًا يطرق بخير» ثم بيّن سبحانه ما هو الطارق، تفخيمًا لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ الثاقب: المضيء، ومنه يقال: ثقب النجم ثقوبًا، وثقابة: إذا أضاء، وثقوبه ضوؤه، قال الواحدي: الطارق يقع على كل ما طرق ليلاً، ولم يكن النبيّ ﷺ يدري ما المراد به لو لم يبينه بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ قال مجاهد: الثاقب المتوهج. قال سفيان: كل ما في القرآن ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فقد أخبره، وكل شيء قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ لم يخبره به، وارتفاع قوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر نشأ مما قبله، كأنه قيل: ما هو؟ فقيل: هو النجم الثاقب. ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ هذا جواب القسم، وما بينهما اعتراض، وقد تقدّم في سورة هود اختلاف القرّاء في: «لما» فمن قرأ بتخفيفها كانت إن هنا هي المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدّر، وهو اسمها، واللام هي الفارقة، وما =

الثَّاقِبُ﴾ [الطارق:٣] أي: المضي، وسماه: طارقًا؛ لأنه يطرق ليلاً ليطلع من مشرقه، وهي الشمس ذكرها لما سماها: نجمًا، ولا يكون هذا النجم إلا طارقًا بالإضافة إلى قوم دون قوم، فهو في حال الليل طارقًا وفي النهار طالع ومستوي وجانح إلى الغروب وغارب، ثم طارق هكذا تقدير من عزيز عليم.

وجواب القسم قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] قُرئ بالتخفيف والتشديد؛ أعني: «لما» وهو اسم بمعنى: «إلا» وهي لغة قوم من العرب يجعلون «إلا» مع «أن» المخففة كأنه قال: ما كل نفس إلا عليها حافظ، ومعنى أن كل نفس: ما كل نفس، وقد يحتمل أن تكون «لما» مخففة بمعنى: «إلا» كقوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢] يعني: إلا، وكقوله: ﴿وَإِنَّ كُلاً لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود:١١١] معناه: إلا ليوفينهم، وقد تقدم الكلام في هذا في موضعه، والحافظ: الملك يحفظ عمله يكتبه له، والحافظ أيضًا: ملك يحفظ الإنسان والموجودات كلها مما لم يقدر أن يصيبه.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق:٥] هذا تنبيه على النظر والاعتبار من النشأة الأولى إلى النشأة الآخرة.

﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٦] دفق خرج من موضعه ومستودعه إلى مستقره من الرحم، دافق ومدفوق بمعنى: فاعل ومفعول، كقولهم: ليل نائم، وهم ناصب، وسر كاتم.

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق:٧] صلب الرجل وترائب المرأة، والترائب منها: ما اكتنف لبابها، وهو موضع متعلق حلى القلائد منها ماء الرجل في ظهره وورائه وماء المرأة في قبلها.

=

مزيدة، أي: إن الشأن كل نفس لعليها حافظ، ومن قرأ بالتشديد، فإن نافية، ولما بمعنى إلا، أي: ما كل نفس إلّا عليها حافظ، وقد قرأ هنا بالتشديد ابن عامر، وعاصم، وحمزة. وقرأ الباقون بالتخفيف. قيل: والحافظ هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها، وقولها وفعلها، ويحصون ما تكسب من خير وشرّ وقيل: الحافظ هو الله ﷻ. انظر [فتح القدير (٧ /٤٦٥)].

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق:٨] يجاوز حال الموت والفناء لوجوبه في وجود الإنسان.

ثم نبه على قدرته على إرجاعه حيًّا يوم القيامة وما له يومئذٍ من قوة ينتصر بها ولا ناصر ينصره من عذاب الله ﷻ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق:١١ - ١٢] الرجع: المطر يرجع من عام إلى عام، فذكر الرجع تنبيه على الإرجاع، وقد يكون الرجع: الرعد، والأرض ذات الصدع: تتصدع بالمطر للنبات، نبه العقول بهذا على أنهم يخرجون من الأرض بأن ينزل الله الماء من السماء كمني الرجال تتصدع له الأرض عن نبات بأجسام الموتى، ثم ينفخ في الصور نفخة البعث والنشور ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١].

﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق:١٣ - ١٤] يفصل بين حقه وباطلهم، وهو الهزل.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥] بكفرهم وتكذيبهم.

﴿وَأَكِيدُ﴾ عليهم ﴿كَيْدًا﴾ [الطارق:١٦] باستدراجي إياهم لتصديق كلمتي فيهم وإمهالي لهم لأخذهم على أوفر ذنوبهم في الأجل المسمى.

﴿فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق:١٧] أي: قليلاً، وهي كلمة تعطي الرفق، وكان هذا قبل نزول الانتظار والأمر بالقتال.

تفسير سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ [الأعلى:١ - ٩].

لما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] قال رسول الله ﷺ: «**اجعلوها في سجودكم**»[1] وأمر أن يجعل قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤] في الركوع فكان ﷺ يقول في ركوعه: «**سبحان ربي العظيم**» وفي السجود: «**سبحان ربي الأعلى**»[2].

وكان أبو موسى الأشعري يقرأ: «**سبحان ربي الأعلي الذي خلق فسوى**».

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى:٢] وهي قراءة أبي وعلي وابن الزبير ومالك ابن دينار، خلق فأتم ما خلقه كما قال: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة:٧].

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[3] [الأعلى:٣] يقول، وهو أعلم: قدر ثم هدى إلى ما

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٥٤٩).

(٢) أخرجه الشافعي (٣٩/١)، وابن أبي شيبة (٢٥٧٥)، وأبو داود (٨٨٦) وقال: هذا مرسل؛ عون لم يدرك عبد الله. والترمذي (٢٦١) وقال: ليس إسناده بمتصل. وابن ماجة (٨٩٠)، والبيهقي (٢٣٩١).

(٣) صفة أخرى للربّ، أو معطوف على الموصول الذي قبله. قرأ عليّ بن أبي طالب والكسائي والسلمي: «قدر» مخففًا، وقرأ الباقون بالتشديد. قال الواحدي: قال المفسرون: قدّر خلق الذكر والأنثى من الدّواب، فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها. وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشرّ والسعادة والشقاوة. وروي عنه أيضًا أنه قال في معنى الآية: قدّر السعادة والشقاوة، وهدى للرشد والضلالة، وهدى الأنعام لمراعيها. وقيل: قدّر أرزاقهم وأقواتهم، وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنسًا، ولمراعيهم إن كانوا وحشًا. وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له. وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها. =

قدر، ينبئ بذلك بأن الأمر قد فرغ منه فيما قبل، وأنه نشء من صغر إلى كبر ومن نقص إلى كمال.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى:٤ - ٥] أنبأ في هذا الخطاب بالإعادة بعد البداية، يقول - جل من قائل: أخرج المرعى ثم جعله غثاء؛ أي: حميلاً للسيول، وهشيمًا تذروه الرياح، ثم أنبته مرة أخرى ناعمًا، أحوى: شديد الخضرة يضرب من نعمته إلى السواد.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ [الأعلى:٦ - ٧] لما كرر عليه النشأة الآخرة وسواها من التعاليم بعبارات مختلفة في مواضع شتى قال له: سنقرئك مرارًا مكررة فلا تنسى، يخبره بأنه لا ينسى، وتكراره ذلك مع إرادة الله به من الذكر داعية لعدم النسيان، وأكثر المراد به غيره من سائر أمته.

يقول الله - جل من قائل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف:٥٤].

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ «ما» هنا بمعنى: الذي، يقول - وهو أعلم: إلا الذي شاء الله أن ينساه وهو الكافر والعاصي.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥].

وقال: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه:١٢٦].

﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية:٣٤] وقد خرج جلة من أهل العلم هذا على أنه - جلَّ ذكره - ينسيه ما شاء أن ينسيه، وجاءت على هذا أحاديث من طريق آحاد والله أعلم.

وقد قال الله - جل من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] والقرآن أعظم حجة وأقوم قيلاً.

جاء أن رسول الله ﷺ كان في بيته ورجل يقرأ في المسجد فقال: «يرحمه الله،

= وقال السديّ: قدّر مدّة الجنين في الرحم تسعة أشهر وأقلّ وأكثر، ثم هداه للخروج من الرحم. فتح القدير (٤٧٠/٧).

لقد أذكرني آية كنت نسيتها»[(١)] فإن صح هذا الحديث فلحق بصحته مرتبة التواتر فهذا من الحفظ الذي شرطه له بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] وإلا فما المراد بالنسيان إلا سواه من أمته، وأنه كقوله - جل من قائل - لموسى ﷺ: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ [النمل:١٠ - ١١] فهذا هو في حظ غيره من أمته، وما النسيان في هذا الخطاب إلا بمعنى الترك.

دل على ذلك ما بعد هذا من قوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يَخْفَى * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى:٧ - ٨] وقد أخبره بالعصمة له عن هذا النسيان؛ أعني: الترك بقوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى:٨].

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى (١١) ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (١٦) وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى:١٠ - ١٩].

ثم قال له: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى:٩] يقول، والله أعلم بما ينزل: إذا بلغت فذكر، فإنما عليك البلاغ، ثم ذكر المؤمنين فهم الذين تنفعهم الذكرى، وهم المعنيون بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ [الأعلى:١٠].

ثم قال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: الذكرى ﴿الأَشْقَى﴾ [الأعلى:١١] أي: الذي كذب وتولى.

﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى﴾ [الأعلى:١٢] هي نار جهنم - أعاذنا الله منها برحمته - مجنبه الله الذكرى؛ ليحقق فيه كلمته التي سبق له بها، كما قال - عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه:١٢٦] فاليوم نساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى:١٣] لا يموت فيستريح ولا يحيا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣٨٠).

بالرضى والعافية ووجود العز والغنى والخلق الحسن والتواصل، فهو لا يحيا حياة طيبة.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ [الأعلى:١٤] يعني: آمن، وإنما يتزكى العبد بالتوحيد والإيمان فحينئذٍ يقبل عمله صلاته وصدقته وشهادته وينمو دينه، ثم كل ما تزكى به العبد من العمل فهو زكاة له.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى:١٥] وقد يحمل هذا على أنها تكبيرة الإحرام والنية.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى:١٦] أعلم - جلَّ ذكره - أن مؤثر الحياة الدنيا على الكمال هو الكافر كما قال: إن مؤثر الآخرة على الدنيا هو المؤمن وما بين ذلك درجات. واعلم أيضًا أن ما تقدم ذكره في السورة إلى آخرها هو في ﴿الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى:١٨ - ١٩].

تفسير سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾ [الغاشية: ١ - ١٦].

الغاشية: اسم من أسماء يوم القيامة، والخشوع الذل، والنصب التعب[(١)].

---

(١) قوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ قال جماعة من المفسرين: هل هنا بمعنى: «قد»، وبه قال قطرب، أي: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية، وهي القيامة؛ لأنها تغشى الخلائق بأهوالها. وقيل: إن بقاء «هل» هنا على معناها الاستفهامي المتضمن للتعجيب بما في خبره، والتشويق إلى استماعه أولى. وقد ذهب إلى أن المراد بالغاشية هنا القيامة أكثر المفسرين. وقال سعيد بن جبير، ومحمد بن كعب: الغاشية النار تغشى وجوه الكفار كما في قوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم:٥٠] وقيل: الغاشية أهل النار؛ لأنهم يغشونها ويقتحمونها. والأوّل أولى. قال الكلبي: المعنى إن لم يكن أتاك حديث الغاشية، فقد أتاك. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل: ما هو؟ أو مستأنفة استئنافًا نحويًا لبيان ما تضمنته من كون، ثم وجوه في ذلك اليوم متصفة بهذه الصفة المذكورة. ووجوه مرتفع على الابتداء، وإن كانت نكرة لوقوعه في مقام التفصيل. وقد تقدّم مثل هذا في سورة القيامة، وفي سورة النازعات. والتنوين في يومئذ عوض عن المضاف إليه، أي: يوم غشيان الغاشية. والخاشعة: الذليلة الخاضعة. وكل متضائل ساكن يقال له خاشع، يقال خشع الصوت: إذا خفي، وخشع في صلاته: إذا تذلل ونكس رأسه. والمراد بالوجوه هنا أصحابها. قال مقاتل: يعني الكفار؛ لأنهم تكبروا عن عبادة الله. قال قتادة، وابن زيد: خاشعة في النار. وقيل: أراد وجوه اليهود والنصارى على الخصوص، والأوّل أولى. قوله: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ معنى «عاملة»: إنها تعمل عملاً شاقًا. قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: عمل يعمل عملاً، ويقال للسحاب إذا دام برقه: قد عمل يعمل عملاً. قيل: وهذا العمل هو جرّ السلاسل والأغلال، والخوض في النار. «نَّاصِبَةٌ» أي: تعبة. يقال نصب بالكسر ينصب نصبًا: =

قوله ﷻ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية:٢ - ٣] إشارة إلى وجوه مخصوصة، وهم عباد اليهود والنصارى والمجوس العاكفون على عبادة الأصنام والنيران وسائر العبدة الضلال وأتباع الشياطين.

يقول - عز من قائل: هي تعمل في الحياة الدنيا في غير معتمل، وتنصب في الذي هو هلاكها عاكفة على ما يضر ولا ينفع، وهي في عرضة القيامة خاشعة خائفة من هول المطلع قد أيقنت بالعذاب والخسران، وعند المنقلب.

﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية:٤ - ٥] شديد حرقها، وهو الحميم، طعامهم الضريع الزقوم، وجاء النفي بـ«ليس»؛ إذ ليس طعامهم الذي هو الضريع والزقوم بطعام يغني من جوع أو يسمن من هزال كطعام الدنيا، ولذلك أوجب الله ﷻ علينا التسمية عند الشروع في الأكل والشرب لنشبع به ونروى ونسمن، وعند الفراغ من أخذنا الحاجة منهما أوجب علينا أن نحمده على ما أشبع وأغنى وأورى، هذا إلى أن التسمية عند تناول الطعام للتحليل، والحمد عند الفراغ للشكر؛ لأنه خلق ورزق وأعطى وأغنى وأقنى، فإن أهل النار لا يغنيهم طعامهم عن طعام ولا شرابهم عن شراب، ولا يقوى ولا يحسن حالاً، وأما طعام الجنة فما بالآمال امتداد إلى ذكره عند ذكر ذلك الطعام، بلى إنه يتذكر ذلك عند طعامنا هذا وشرابنا لما بدا منهما الغنى والشفاء.

أتبع ذلك بوصف منقلب الساعين إلى طاعته المسارعين في طلب مرضاته

=

إذا تعب، والمعنى: أنها في الآخرة تعبة لما تلاقيه من عذاب الله. وقيل: إن قوله: ﴿عَامِلَةٌ﴾ في الدنيا إذ لا عمل في الآخرة، أي: تعمل في الدنيا بالكفر والمعاصي، وتنصب في ذلك. وقيل: إنها عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة، والأوّل أولى. قال قتادة: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله، فأعملها الله، وأنصبها في النار بجرّ السلاسل الثقال، وحمل الأغلال، والوقوف حفاة عراة في العرصات ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال الحسن وسعيد بن جبير: لم تعمل لله في الدنيا، ولم تنصب فأعملها، وأنصبها في جهنم. قال الكلبي: يجرّون على وجوههم في النار. وقال أيضًا: يكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب بمعالجة السلاسل والأغلال، والخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل. انظر [فتح القدير (٤٧٧/٧)].

بقوله - جل من قائل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية:٨ - ١٠] المعنى إلى آخره هذا من الإخبار عن طعام الجنة وصفهم بالنعمة والرضا والنصرة في مقابلة وصف طعام أولئك بأنه لا يغني من جوع ولا يسمن من هزال.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢٦)﴾ [الغاشية:١٧ - ٢٦].

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إلى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:١٧ - ٢٠] لما أن كان الذي جنى عليهم الكفر والتكذيب والضلال الذي أورثهم النار والذي أورث المتقين شرف المنازل وكرم المآب التيقظ والنظر والاعتبار الهادي إلى الإيمان والتصديق، ثم العمل بطاعة الصادق المصدق ﷺ عرض بذكر الموجودات وأنبهم على تضييع النظر في كيف خلق الخالق العلي الأعلى الإبل التي هي جل أموالهم، وهي مراكبهم وحمولتهم، عليها منقلبهم وبها مثواهم، ومنها جل شرابهم وطعامهم، فيكون النظر فيهن نظرًا في خلقه أنفسهم في كيف جمع مواد خلقتهن من خزائن بركات السماوات والأرض، فأرسل الرياح نشرًا بين يدي رحمته وألف السحاب في الجو بأمره، وأنزل الماء من السماء إلى الأرض بقدرته على وزن معلوم بحكمته، وأنبت النبات كيف شاء بلطف تدبيره، فجعل من ذلك كل شيء حي.

وكذلك السماء رفعها على هواء رقيق من صنعه دون دعائم من تحتها تقلها ولا علائق من فوقها تمسكها، وهي على ذلك لا تزول ولا تمور إلى أن يأذن لها في ذلك، ثم إلى سماوات الأفلاك كيف أطلع شمسها وقمرها وكواكبها، وكور ليلها ونهارها لو كانت الأرض كروية كما زعموا لم يكن للعباد فيها كثير مرفق ولا تمكنوا من تناول بركاتها كل التمكن، ولكانت هي أيضًا بحال لا يوصف عليه بأنها

ساكنة؛ إذ ليس لها أصل قد رسي على ما هو موصوف بالسكون فتسكن هي بسكونه، ولا عليها صابور يثقفها فتثبت على الماء ساكنة، وهي لو كانت مسطحة لكانت الكواكب تطلع على الأرض طلوعًا واحدًا وينبسط عليها الليل والنهار انبساطًا سواء.

وقد قال - جل من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ [الإسراء:١٢] لكنه - جلَّ ذكره وتعالى جده - لما بسط الأرض ودحاها إنعامًا منه على عباده ومرفقًا بخليقته خلق الجبال فأرساها على ظهرها، فاستقرت الأرض بعد ميدها بقدرته، وسكنت بعد حركتها بأمره، ونصب قنن الجبال الراسيات بالوزن شكلاً على وزن الكرة أول خلقتها، فكانت المطالع والمغارب على ترتيب مطرد ونظام محكم غير منخرم، وأجرى كواكبها مقدارًا من الجري عدلاً وسطًا يكون عنه تكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل، وبمقادير من التقسيم يكون عنه الطول والقصر فيهما، وحكم إيلاج أحدهما في الآخر، فهما أبدًا جاريان بجري محكم لتدبير تفصيل الأزمنة ومعرفة ساعاتها وأيامها وشهورها وسنينها، وفي اختلاف فصولها من ربيعها ومصيفها وشتائها وخريفها وحرورها وزمهريرها بحكم مبرم وأمر معجب محكم.

وكذلك تسيار كواكبها طالعة وغاربة وجارية وكانسة، وانتقالها في منازلها وحلولها في محالها كل بأمره يعمل وبإقداره إياه يسير ويسري ويحل، وينتقل على ذلك كله ملائكة بأمره يعملون لا يسبقونه بالقول وهم من خشيته مشفقون، فقد علم كل ذي عقل سليم أن حسن هذا النظام وبديع هذا الإحكام واطراد هذا الترتيب وقوة هذا الضغط وشدة هذا الزم وشمول هذا القهر وإتقان هذا الصنع من سمك مرفوع، وبساط مدحو منشور، وجعل قنن شامخات على وزن محكم، وإرساء أصولهن في الأرض ألَّا تميد بصنع متقن لأمر مرصد وأمر متعاقب محكم في مطالع ومغارب لا تكون إلا عن تدبير مدبر واحد أحد وتقدير حكيم عزيز عليم.

كما قد لقن أولوا الألباب من دلائل هذا الصنع المذكور ارتد واردًا وأثره باختلاف طوالعه وغواربه من كواكب وبروج، ومنازل نجوم، ومواقع نجوم، واختلاف أزمان، وتعاقب ليل ونهار، وبأن ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]

من حرور وصرود، وإنزال الماء من السماء وتفصيله إلى ما إليه يفصله أن منزله هو العلي الأعلى بأمره الحكيم عن منبعث الفيحين من سعير وزمهرير، وفتح الفتاح العليم بالفتحين الماء المبارك ينزله من السماء، وتغليب رحمته على غضبه كما شاء، وأنها آيات دالات على الإحياء بعد الممات، وعلى الخزائن في داري المصيرين، وأن وعد الله حق، والساعة لا ريب فيها، مع تحقيق اللقاء الكريم، وتجلي العليم العظيم في جنات النعيم.

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية:٢١] كما قال في غير هذا الموضع: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥] المسيطر الجبار المسلط، وقد يكون بمعنى الحفيظ والرقيب كما قال: **إنما عليك البلاغ**، يقرأ «المسيطر» بالصاد والسين.

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ [الغاشية:٢٣] والتذكير واحد، والمتذكرون على منازل متباينة ينزلونها على مقادير حظوظهم من الهداية وصدق الاستجابة ونصيحة الأنفس وإعمالها بالمثابرة مع التيقظ والنظر، وتصحيح العبرة والتبرؤ إلى الله من الحول والقوة، وأدنى منازلهم: منزلة من ذكر فتذكر، فلما تبين له الهدى أعرض وتولى، تقدير الكلام: فذكر إنما أنت مذكر من تذكر، وسيجزيه بإيمانه وسعيه إلا من تولى؛ أي: عما أبصره بتذكره وكفر بما هدى إليه وبان له من الحق.

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية:٢٤] والعذاب الأكبر: عذاب الكافر، وقرأها زيد بن أسلم وعبد الله بن أبي إسحق: «ألا من تولى وكفر» بفتح الهمزة وتخفيف اللام، وقرأها عبد الله بن مسعود: «فإنه يعذبه الله العذاب الأكبر» بزيادة إن.

تفسير سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝١٦﴾ [الفجر: ١ - ١٦].

قوله ﷻ: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ...﴾(1) [الفجر: ١ - ٢] أقسم - جلَّ ذكره -

---

(١) قرأ أبو الدينار الأعرابي: والفجر، والوتر، ويسر بالتنوين في الثلاثة. قال ابن خالويه: هذا كما روي عن بعض العرب أنه وقف على آخر القوافي بالتنوين، وإن كان فعلاً ، وإن كان فيه ألف ولام، وهذا ذكره النحويون في القوافي المطلقة إذا لم يترنم الشاعر، وهو أحد الوجهين اللذين للعرب إذا وقفوا على الكلم في الكلام لا في الشعر، وهذا الأعرابي أجرى الفواصل مجرى القوافي. وقرأ الجمهور: «وليال عشر» بالتنوين؛ وابن عباس: بالإضافة ، فضبطه بعضهم. «وليال عشر» بلام دون ياء، وبعضهم وليالي عشر بالياء، ويريد: وليالي أيام عشر. ولما حذف الموصوف المعدود، وهو مذكر، جاء في عدده حذف التاء من عشر. والجمهور: «والوتر» بفتح الواو وسكون التاء، وهي لغة قريش. والأغر عن ابن عباس، وأبو رجاء وابن وثاب وقتادة وطلحة والأعمش والحسن: بخلاف عنه؛ والأخوان: بكسر الواو ، وهي لغة تميم، واللغتان في الفرد، فأما في الرحل فالكسر لا غير. وحكى الأصمعي: فيه اللغتين؛ ويونس عن أبي عمرو: بفتح الواو وكسر التاء. والجمهور: «يسر» بحذف الياء وصلاً ووقفًا؛ وابن كثير : بإثباتها فيهما؛ ونافع وابن عمرو: بخلاف عنه بياء في الوصل وبحذفها في الوقف؛ والظاهر وقول الجمهور منهم علي وابن عباس وابن الزبير: إن الفجر هو المشهور ، أقسم به كما أقسم بالصبح، ويراد به الجنس، لا فجر يوم مخصوص. وقال ابن عباس ومجاهد: من يوم النحر. وعكرمة: من يوم الجمعة. والضحاك: من ذي الحجة. ومقاتل: من ليلة جمع. وابن عباس وقتادة: من أول يوم من المحرم. وعن ابن عباس أيضًا: الفجر :
=

بالفجر؛ إذ هو من صنعه، والله يقسم بما شاء من مخلوقاته وأفاعيله؛ إذ هي كائنة عن قدرته ومشيئته وعلمه، وعلى هذا فليس تسمه إذًا إلا به - عز جلاله - وقد قيل: إن المراد به في هذا الموضع فجر يوم النحر، والله أعلم.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قيل هي: عشر ذي الحجة لفضلهن، وربما كان المعنى بهن هنا: العشر الأواخر من رمضان؛ لمكان ليلة القدر فيهن، ونزول القرآن فيهن جملة.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر:٣] كل المخلوقات؛ إذ كل شيء فلا يخلو أن يكون إما شفعًا وإما وترًا، وقد يكون الشفع شفعًا في نفسه بوجه ما ووترًا لغيره بوجه ما وأكثر ما يأتي ذلك في العدد.

وجاء عن رسول الله ﷺ أنه علم رجلاً أن يقول: «**لا إله إلا الله عدد الشفع والوتر، وكلمات ربي الطيبات المباركات، والله أكبر عدد الشفع والوتر مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك ثلاث مرات، والوتر الحق هو الله ﷻ**»[1].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر:٤] فإذا كان الليل يسري فهو سارٍ كما سمى الشمس: النجم الطارق والحجر العقل، وإذا بلغت هذه الصفة أن تحجر صاحبها عن الماء، ثم سمي: حجرًا، وجواب القسم في قوله - جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤] ولما كان معنى القسم الوعيد والتهديد وطاء من قبل ما

= النهار كله. وعنه أيضًا وعن زيد بن أسلم: الفجر هو صلاة الصبح، وقرآنها هو قرآن الفجر. وقيل : فجر العيون من الصخور وغيرها. وقال ابن الزبير والكلبي وقتادة ومجاهد والضحاك والسدي وعطية العوفي: هي عشر ذي الحجة. وابن عباس والضحاك: العشر الأواخر من رمضان. وقال ابن جريج: الأول منه. ويمان وجماعة: الأول من المحرم ومنه يوم عاشوراء. ومسروق ومجاهد: وعشر موسى ﷺ التي أتمها الله تعالى. قيل: والأظهر قول ابن عباس للحديث المتفق على صحته. قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله». قال التبريزي: اتفقوا على أنه العشر الأواخر؛ يعني: من رمضان، لم يخالف فيه أحد، فتعظيمه مناسب لتعظيم القسم. وقال الزمخشري: وأراد بالليالي العشر: عشر ذي الحجة. فإن قلت: فما بالها منكرة من بين ما أقسم به؟ قلت: لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالي العشر، بعض منها أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها. [تفسير البحر المحيط (٤٧٥/١٠)].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٢٥٦).

أنبأ به.

﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ﴾ [الفجر:٦ - ٧].

وانتظم بما في قوله: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥] من معنى التجهم ومفهوم الإيعاد.

ثم انتظم بما استاقه أيضًا من ذكر إهلاكه عادًا وفرعون وثمود ومن أحال عليه بقوله: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١١-١٤] فهو خبر أخبر به من جهة النظم، وجواب قسم أقسم به في صدر السورة، ذكر أن «إرم» اسم أرض بعينها، وقيل: اسم لقبيلة، وقيل: إنه أبو عاد الأول.

وقرأها الزبير والحسن: «عاد إرم ذات العماد» وقرأ ابن الزبير: «لم نخلق مثلها» بالنون مفتوحة ونصب اللام من مثلها، وقرأ الضحاك: «بعادَ أَرَم» بفتح الدال والهمزة والراء، ويمكن أن تكون مدينة ذات عماد وعمد، وربما كان المراد بها: الإخباء؛ لأن العرب تقول لقوم شأنهم أن ينزلوا الأخبية لا ينزلون سواها هم: أهل عماد وعمد.

وقوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر:٩] أي: قطعوا الصخر؛ يعني: الجبال وأجروا فيها الأودية، يصف قوتهم وبطشهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر:١٥ - ١٦] هو - جلَّ ذكره - يبتلي بالغنى والفقر وبالصحة والسقم وبالسعة والضيق وبالعافية والبلاء والبر من العبد في ذلك كله الرضا عن الله - جلَّ ذكره - في جميع الأحوال وفي أي حالة أحله فيها، فيشكر على النعماء ويصبر على البلاء حتى يأتي أمر الله.

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ

عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ١٧ - ٣٠].

ووصف الله الإنسان بأنه مع النعمة والعافية فرح فخور، وعند البلاء جزوع كفور، وأنبأ ﷻ في خطابه ذلك: أن الداعي إلى ذلك هو حب الدنيا والبخل بها والشح عليها، وإيثاره إياها بقوله رادًا على الصنفين: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًا﴾ [الفجر: ١٧ - ١٩] يعني: شديدًا، واللمم: هو جمع الحرام إلى الحلال والحلال إلى الحرام، يلم بعضه ببعض ويأكله، يقال من ذلك: لامت الشيء بعضه ببعض إذا جمعته.

﴿حُبًا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠] يعني: كثيرًا، علم ﷻ أن عباده قد جبلهم على حب المال، وكان مقصود التكليف أن يصرفوا وجوه قلوبهم عن حب ما جبلهم على حبه، ومع المجاهدة لا بد من التفلت والغلبة فرضي منهم بفضل رحمته ألَّا يحبوه الحب كله.

وعبر عن هذه اللطيفة بقوله: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠] أي: الحب كله، وأخبر بصدق قيله - جل من قائل - أنهما معًا يوم القيامة عند معاينة ثواب الشاكرين وإكرام الصابرين يقع لهما اليقين بما أريد منهما، فيقول الصنفان تمنيًا منهما: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] أي: التي لا موت بعدها.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥ - ٢٦] ويمكن أن يكون في ذلك اليوم خاصة أنهم يوثقون ويعذبون بأمر كون دون أن يباشر ذلك منهم ملك ولا غيره سوى أنه أمر من أمر الله، وقد تقدم إيماء إلى تبيان هذا في سورة المدثر.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] الملائكة صافون من حول الخلائق ملائكة الأرض صف، ثم ملائكة السماء الدنيا من ورائهم صف على ضعفي أهل الأرضن ثم ملائكة السماء الثانية وراء أهل سماء الدنيا صف على ضعفي أهل الأرض والسماء الدنيا، ثم على ذلك من التضعيف أهل كل سماء صف فهم ثمانية صفوف أهل السماء السابعة على تضعيف ما دونها.

فصل

كثر الاختلاف بين علماء الأمة رضوان الله عليهم في وصفه ﷻ بالمجيء والتنزل والإتيان ونحو هذا لكن الله - جلَّ ذكره - لم يخرج جملة الأمة من اعتقاد الحق وإن كان قد فرقه بينهم كل على المقدار الذي قد آتاه من الهدى والعلم، فمنهم من تأول المجيء بأنه يجيء أمره، ومنهم من قال: إن أمره نازل منه وصاعد إليه أبدًا، فما معنى تخصيص هذا الخطاب بالمجيء وفي هذا الوقت؟

قال: لكني أقول: إنه يجيء وإنه يتنزل وينزل ولا أكيف ولا أصفه بانتقال ولا زوال أو من بالخبر ولا أكيف ولا أشبه، وفصل الخطاب في الإيمان بذلك ومعتقده، والله الموفق للصواب، إنه تعالى يجيء وينزل حقيقة ليس كالنزول المعهود ولا المجيء المعلوم منا، فيحل في مكان ويخلو منه مكان، لكن كما قال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [الفرقان:٢٥] فأخبر أن السماء تشقق بالغمام الذي يأتي الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه فيه.

يقول - عز من قائل: والغمام من أمره وبتقدم ظهوره العلي للخليقة، كذلك نوره العلي من أمره، وتتقدمه آية ذلك الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وضياؤهن ونورهن يتقدمهن، فالإتيان والمجيء يقعان على إتيان أمره بين يدي تجليه، وأما هو بعد تصديق الخبر الحق بالإتيان والمجيء فلا يتصور منه انتقال ولا حركة، إنما هو تجليه وظهوره حسب متى شاء وكيف شاء وأين شاء، وهو القريب الشهيد، كيف يتصور مجيء ممن لا يوصف بغيبه؟ كيف يتحقق إتيان ممن لم يكن منه ذهاب؟

يقول الله - جل من قائل: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧].

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١].

وقد تقدم الكلام في بيان معنى التنزل، واستدل أيضًا على أن مجيئه بمعنى الظهور بقوله - جل من قائل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود:٦٦] أي: ظهر لا أنه زال أو انتقل.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى﴾ [النازعات:٣] و﴿جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس:٣٣] المعنى: إذا ظهرت لا أنها تنتقل أو تزول، إنما معنى ذلك: أنها تتجلى والله يجليها لوقتها، إنما مجيء الحاضر وإتيان الشاهد الظهور والتجلي عن حضور الأجل وإذن المشيئة العالية، فافهم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:٢٧] أي: الراضية، ولأنها راضية عنها رضيها هو سكنت شرتها لسكينة أنزلها ربها عليها فزكت محامدها وعلت ميامنها.

ثم قال لها: ﴿ارْجِعِي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:٢٨] رجوعها من هذه الحياة إليه بالموت كما قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ [الواقعة:٦٠ - ٦١].

قال هنا: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ [الفجر:٢٩] أي: اسكني معهم وحلي معهم حيث حلوا.

قال رسول الله ﷺ: «وجدت آدم عليه السلام في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السابعة»[1] ويمكن أن تكون محال صالحي الأمة ومؤمنيها في السماوات الدنى على مراتبهم ومنازلهم.

ثم قال: ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٣٠] يعني: جنة البرزخ، كما قال: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨ - ٨٩] ثم ادخلي جنتي؛ يعني: دار الخلود منها.

وقرأ مجاهد وعكرمة والضحاك وأبو جعفر ومحمد اليماني والكلبي: «ارجعي إلى ربك راضية مراضية فادخلي في عبدي» على توحيد العبد، والعبد هو الذي يخلف الجسد حال الموت، والعبد أيضًا هو الجسد، فبهذا يدخل الجنة في الدار

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٩٨٢).

الوسطى وبالجسد الذي بلي وأعيد ثانية يدخل جنة دار الخلود.

وعلى هذا فإنَّا لا نقول: إن الجسم الذي بلي ليس بغير الذي خلفه المسمى المثال، وإنما هو بلي ظهر واستوى، بطن عنا كما كان قبل الموت استوى ظهر، وبلي بطن.

وقرأها هارون في حرف أبي: «يأيتها النفس المطمئنة ائتي ربك راضية مرضية فارجعي في عبدي وادخلي جنتي» فهذا الأظهر فيه أنه الجسد لقوله: فارجعي في عبدي، وكذلك قرأها معمر: «ائتي ربك».

وروي عن سالم بن عبد الله أنه قرأها: «فلجي في عبادي ولجي جنتي» فقيل له: إنه ادخلي، فقال: سواء ادخلي ولجي، ووصفه ﷻ النفس المطمئنة هنا في مقابلة وصفه نفس الإنسان بما هو إنسان لا بما هو مؤمن ذا تقوى ورضا عن ربه، ثم ذكر مآل هذا ومآل هذا، نسأل الله خير ما يسأل وخير ما يعطى بمنِّه وفضله العظيم.

تفسير سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)﴾ [البلد: ١ - ١٠].

البلد: مكة، أقسم ﷻ بالبلد الحرام، ثم بشر رسوله ﷺ بأنه حلال بهذا البلد، معنى هذا: أنه سيحله يومًا من الأيام وساعة من اليوم، فكانت تلك بشارة بفتح الله عليه البلد الحرام عنوة بخيل الله وجيوش المسلمين، بشره بذلك قبل وقوعه فكان كما وعده.

نظم بذلك قوله الحق عز جلاله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾[1] [البلد:٣] يعني: إبراهيم عليه السلام.

قال رسول الله ﷺ في خطبته المشهورة: «**إن الله حرم مكة ولم يحرمها الناس، فهي حرام بحرمة الله...**»[2].

وقال ﷺ: «**اللهم إن إبراهيم حرم مكة**»[3] يعني: أنك حرمت مكة على لسان إبراهيم، وإني أحرم ما بين لابتي المدينة، فمكة حرام بحرمة الله، وتحريمه إياها يوم

(١) فيه أربعة أوجه: **أحدها**: آدم وما ولد. قاله مجاهد وقتادة والحسن والضحاك. **الثاني**: أن الوالد إبراهيم وما ولد. قاله أبو عمران الجوني. **الثالث**: أن الوالد هو الذي يلد، وما ولد هو العاقر الذي لا يلد. قاله ابن عباس. **الرابع**: أن الوالد العاقر، وما ولد: التي تلد. قاله عكرمة. ويحتمل خامسًا: أن الوالد النبي ﷺ لتقدم ذكره، وما ولد: أُمته؛ لقوله ﷺ: «**إنما أنا لكم مثل الوالد أعلّمكم**» فأقسم به وبأمّته بعد أن أقسم ببلده مبالغة في تشريفه. النكت والعيون (٤/ ٤١٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٤٢٣)، والبيهقي (١٥٩١٧)، والطبراني (٥٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٣١٠)، ومسلم (٣٦١)، والطبراني (٤٣٢٥)، والبيهقي (٩٧٤٢).

خلق السماوات والأرض، ولما أظهر بناءها على يدي خليله إبراهيم ﷺ حرمها على لسانه، كذلك كانت حرمًا بحرمة الله وتحريمه، ثم بتحريم إبراهيم عن الله - جلَّ ذكره - ولما أحلها لرسوله ﷺ حرمها أيضًا على لسان رسوله في تلك الخطبة بقوله: «**وإنما أحلت لي ساعة من نهار فمن استرخص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له: إن الله أحلها لرسوله ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس**» ثم قال: «**ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه ليس بفقيه**»(١).

أعلم الله ﷻ على لسان رسوله ﷺ بما يكون بعده من قبالها وحرابها، وأنذر في هذا المقام بما يكون من ذلك، والله المستعان، فأشبه رسول الله والده إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليهما - خَلقًا وخُلُقًا، وملة وشرعًا، وتحريمًا للبلد الحرام وتحليلاً له بإذن الله، فأقسم الله - جلَّ ذكره - بعلمه الغيب وبقدره السابق في ذلك وقدرته على إظهار الأكوان على سواء التقدير السابق.

قال رسول الله ﷺ «**أنا أشبه ولده به**»(٢).

العرب تقول متى رأت شبهًا بيّنا بابن بأبيه: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد:٣] وتقول: من أشبه أباه فما ظلم.

وكان إبراهيم ﷺ قد أمره ربه بتطهير البيت بعد بنيانه إياه واستوائه على قواعده فقال: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ...﴾ [الحج:٢٧] فكان المستجيب له محمد ﷺ ثم أمته من بعده، وهم الطائفون والعاكفون والركع السجود، فطهره إبراهيم أولاً وحرمه على ما أمر به، ثم حرمه محمد ﷺ وطهره من الأنصاب والأزلام والأصنام وجميع الأرجاس.

يقول رسول الله : ﷺ «**أنا دعوة أبي إبراهيم**»(٣).

وقد تقدم هذا الكلام، لكنا ننبه على حكمة الله - جلَّ ذكره؛ إذ نأتي بخطابه

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٦٤٢٠)، والبخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤)، والترمذي (٨٠٩) والنسائي (٢٨٧٦)، والطبراني (٤٨٤)، والبيهقي (١٣١٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢١٤)، ومسلم (١٦٨)، والترمذي (٣١٣٠).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٥٢٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٣).

منوعًا بمزيد علم وموجود فهم لربنا من آياته.

نظم بذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد:٤] هذا جواب القسم، الكبد: المشقة ومكابدة آفات الزمان، والخصوم يكابد بعضهم بعضًا؛ أي: يشاق بعضهم بعضًا ويقاسي بعضهم من بعض مشقة، وإلى هذا فإن معنى الكبد: المشقة، ومقاساة الإنسان ما يكابده طول حياته من بلاء ورخاء وشدة ودعة وصحة وسقم، ثم بعد هذا كله الموت، ثم مقاساة ما هو بعد الموت طول البرزخ، ثم بعده الحياة الآخرة بما بعد ذلك.

والمقصود: إثباته أن الإنسان لم يُخلق لحال واحدة يكون عليها أبدًا، بل يكون مختزنًا في خزائن السماوات والأرض، ثم في الماء، ثم في النبات، ثم ربما في الحيوان، ثم في المني، ثم في البطن، ثم مولودًا ورضيعًا وصغيرًا، ثم شابًا، ثم كهلاً، ثم شيخًا، ثم هرمًا، إن لم تعاجله المنايا وهو حي في هذه الأحوال كلها، ثم تحول عليه أحوال أخر بالموت وما بعده، ثم بالإحياء والنشور والحشر والوقوف وما بعد ذلك فهذا أولى وليس بمدافع لما تقدم، بل هو متمم له لذلك، وهو أعلم.

أتبع ذلك: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد:٥] فلا يعيده بعد موته.

نظم ذلك بقوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا﴾ [البلد:٦] قيل: إنها نزلت والتي قبلها في رجل من بني جمح كان يقول: «أهلكت في عداوة محمد مالاً كثيرًا» ولا نترك معنى كتاب ربنا المسرود حكمته لحكايات لعلها لا يصح لها وجود، ولو صح وجودها لم يصح أنه أنزل الله هذا الخطاب في شأنها إلا أن يوقفنا على صحة كتاب الله أو سنة رسول الله، والمعهود من خلق الإنسان بما هو إنسان الدعوى، فهو ينفق في شهواته وإنفاذ لذاته، فإذا ذُكِّرَ بلقاء الله سلم تسليم جدل وأظهر الفرع إلى ما أنفقه من مال، أو ما عمله من عمل يشبه سنن الصلاح، كإطعام الطعام وقِرَى الضيفان وصلة الأرحام وإصلاحٍ، وتحمل حمالة واحتمال أذى ونصر مظلوم ووفاء بعهد.

وكان من أمثال هذا في رجال كثير من الجاهلية، لكنها كانت أعمالاً ضائعة؛ إذ لم تكن على إيمان وتوجيه لله - جلَّ ذكره - على تصحيح نية وسنن سنة رسول الله يأمرهم عن الله وينهاهم، فكان أحدهم يفرع إلى مثل هذه الأعمال، وربما عملها

ابتغاء الثناء والاستكثار من حظوظ المجازاة من الناس ومن عرض الدنيا، فيعدد ذلك ويدعي أنه فعلها لله لجهله بمراد ربه وقلة علمه بحدوده فاحتسبه عليه، يقول لمخاطبه: إن كان ثم إرجاع كما تقول سأرجع إذًا إلى مال قد أنفقته وبنين قد فقدتهم.

يقول - جل من قائل: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [البلد:٧] كما قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ [العلق:١٤] قد علم الله مبلغ علمه ومراده بعمله وتوجيه نيته وما أسر في ذلك كله أو جهر.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد:٨] فينظر بهما إلى آيات ربه في السماوات والأرض، ويتفكر فيما رآه ليتذكر فيبصر بنور الإيمان وعين اليقين.

﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد:٩] فينطق بالحق ويشهد بالصدق.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠] أي: الطريقين، سبيلي الخير والشر والهدى والضلال، النجد: الطريق، والمراد هنا به - والله أعلم: ألم نجعل له عينين فيرى مصانع الله ﷻ وأفاعيله منوطة بالحكمة على الإسلام مفطورة، بالحق مخلوقة فيعمل هو على ذلك لله وحده لا يشرك في عبادته إياه أحدًا، ويخرج عباداته باستسلام إلى ربه وتوجيه خالص إليه تعبدًا له وشكرًا ويشهد بالتوحيد، ويعلن بإخلاص التوجيه فإن الحكمة في الموجودات عنوان النيات لذلك لن يتقبل منا عملاً إلا بنية.

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البلد:١١ - ٢٠].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ﴾[1] [البلد:١١] يمكن أن يكون معنى

---

(١) أي: لم يشكر تلك النعم السابقة، والعقبة استعارة لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بذل مال، تشبيه بعقبة الجبل، وهو ما صعب منه وكان صعودًا، فإنه يلحقه مشقة في =

«فلا»: فهلا اقتحم العقبة، وهي هنا: التوبة، ثم العمل بها، وما يتحقق به ويمكن أن يكون المعنى في ذلك: فلم يقتحم العقبة، كقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة:٣١] والمعنيان قريب بعضهما من بعض.

يقول - عز من قائل: فعلنا به ذلك فما اهتدى، وعلى أن يكون بمعنى: «فهلا» وإن كان قد ضل السبيل هلا تاب واقتحم العقبة، وسمى التوبة: عقبة؛ لمخالفتها هوى النفس من صبر وإنفاق وغير ذلك.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ﴾ [البلد:١٢] عَظَّم قدر التوبة؛ لحسن أثرها أنها لتبدل من الغضب الرضا، ومن الشقاوة السعادة، ومن العداوة الولاية.

ثم قال - عز من قائل: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ * أو إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أو مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد:١٣-١٦].

قال رسول الله ﷺ: «**من أعتق رقبة أعتق الله منه بكل عضو منها عضوًا منه من النار حتى الفرج بالفرج**»(١).

فلهذا ما دل النصيح الحق عليها عند التوبة، ولما كان إطعام الطعام يُحيي

=

سلوكها، واقتحمها: دخلها بسرعة وضغط وشدّة، والقحمة: الشدّة والسنة الشديدة. ويقال: قحم في الأمر قحومًا: رمى نفسه فيه من غير روية. والظاهر أن «لا» للنفي، وهو قول أبي عبيدة والفرّاء والزجاج، كأنه قال: وهبنا له الجوارح ودللناه على السبيل، فما فعل خيرًا؛ أي: فلم يقتحم. قال الفرّاء والزجاج: ذكر لا مرة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد «لا» مع الفعل الماضي حتى تعيد، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة:٣١] وإنما أفردها لدلالة آخر الكلام على معناه، فيجوز أن يكون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد:١٧] قائمًا مقام التكرير، كأنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن. وقيل: هو جارٍ مجرى الدعاء، كقوله: لا نجا ولا سلم، دعاء عليه ألا يفعل خيرًا. وقيل: هو تحضيض بـ«ألا» ولا نعرف أن «لا» وحدها تكون للتحضيض، وليس معها الهمزة. وقيل: العقبة: جهنم، لا ينجي منها إلا هذه الأعمال. قاله الحسن. وقال ابن عباس ومجاهد وكعب: جبل في جهنم. وقال الزمخشري بعد أن تنحل مقالة الفرّاء والزجاج: هي بمعنى «لا» متكررة في المعنى؛ لأن معنى ﴿فَلَا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ﴾: فلا فك رقبة ولا أطعم مسكينًا. ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك؟ انتهى. ولا يتم له هذا إلا على قراءة من قرأ «فك» فعلاً ماضيًا. تفسير البحر المحيط (١٠/٤٨٤).

(١) أخرجه أحمد (٩٤٣١)، والبخاري (٦٣٣٧)، ومسلم (١٥٠٩)، والترمذي (١٥٤١) وقال: حسن صحيح غريب. وابن حبان (٤٣٠٨)، والطبراني (٥٨٣٩).

الرمق - وهو الغذاء - وإمساك الحياة به بإذن الله، كان كفأ في اكتساب الحياة الآخرة، وكان الإطعام في المحتاج القريب مضاعفًا، وفي أهل الحاجة من المساكين كان أكد في جعل الحاجة مكانها، فلهذا دل عليه ﷻ.

المتربة: شدة الفقر، الترب: اللاصق بالتراب من شدة به.

فصل

جعل الله العقبة التي في الدنيا دون الجنة التوبة على شروطها من ندم على ما مضى وفات، وتوجيه نية، وتصحيح عقد، وإخلاص توجيه، وإعلان بشهادة على نفسه، وإقرار بتقصير وسؤال غفران، وإصلاح لما قد فات، ثم الاستقامة أصل ذلك، ومنبعث وجود معرفته ما حكاه في قصة آدم ﷺ، والمبلس: الملعون، هذا تاب فتاب عليه، وهذا أصر وأبى فلعنه وطرده عن جواره ولعنه عن ولايته، فعقبة التوبة والعمل الصالح في الإيمان والإسلام هي العقبة دون الجنة، فإذا جاوزها العبد فهو على مجاوزة عقاب الآخرة أقدر إن شاء الله تعالى، ومَن كان على إيمان وإسلام ولم يقتحم عقبة التوبة صعد على الصراط عقبة كئودًا، قيل: صعودها ألف عام وهبوطها ألف عام.

ومَن خاب من الإيمان والإسلام ولم يجاوز العقبة حُرِم الجنة وأُدخِل النار، وكُلِّف أن يصعد صعودًا، وهو: جبل في النار إذا وضع عليه يده انذابت وإذا وضع عليه قدمه انذابت، ثم يعودان هكذا إلى أن يصعد ثم يهوي منه، هكذا ما شاء الله في هذا النوع من العذاب قبل مصعده ومسيره سبعين سنة، وأن عذابًا يرهقه ويضطره إلى صعوده لهو أشد وأمر من تكلفة ذلك.

قال الله - عز من قائل: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر:١٧] نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا وفي الآخرة.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١٧].

يقول - عز من قائل: فإذا اقتحم العقبة فأعتق إن كان معه أو أطعم إن استطاع ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق:٧] فعليه بعد أن يلازم التقوى والإيمان

والتواصي بالصبر على طاعة الله وعن معاصي الله، والتواصي أيضًا بالرحمى، فإنه من رحم يُرحم ومن غفر يُغفر [....][1] كذلك إلى الممات.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [البلد:١٩] يقول: من لم يكن كما ذكرناه فهو من أصحاب المشأمة؛ أي: من أصحاب الشمال، وهو الشؤم كله، والموصد: المعلق المطبق، نعوذ بالله من ذلك.

(١) غير واضح في (خ)، وغير موجود في (ف).

تفسير سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)﴾ [الشمس: ١ - ١٥].

الضُّحَى - بضم الضاد والقصر: صدر النهار حين ارتفاعه، والضحاء، بفتح الضاد والمد: شدة الحر بعد امتداد النهار، ضحى الرجل: إذا أصابه الحر، وشيء ضاح: إذا ظهر للشمس والحر.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ [الشمس:٢] يعني: الشمس تبعها القمر، وكذلك طلوع القمر حين امتلائه عند غروب الشمس هو رقيها.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾[1] [الشمس:٣] المعهود في رأي العين أن النهار عن إشارة الشمس الصبح عن تقدم ضيائها حتى إذا طلعت فهو النهار، وأما في حكم الغيب فالنهار هو الذي يجليها لا تطلع الشمس إلا لأن النهار الحق الذي هو هذا

---

(١) أي: جلى الشمس بحلية عظيمة بعضها أعظم من بعض باعتبار الطول والقصر والصحو والغيم والضباب والصفاء والكدر، كما أن الأبدان تارة تزكي القلوب والنفوس والعقول وتارة تدنسها؛ لأن العقل يكون في غاية الصفاء والدعاء إلى الخير في حال الصغر، ثم لا يزال يزيد وينقص بحسب زكاء البدن في حسن الجبلة، أو نجاسته بسوء الجبلة، حتى يصير الشخص نورًا محضًا ملكًا ناطقًا إذا طابق البدن العقل فتعاونا على الخير، أو يصير ظلامًا بحتًا شيطانًا رجيمًا؛ إذ خالف البدن العقل بسوء الجبلة وشرارة الطبع. نظم الدرر للبقاعي (٩/٤٣٥).

النهار عنه يظهرها، والليل هنا لازم راتب، والنهار الذي يجلي الشمس يغشاه؛ أي: يغطيه فيكون النهار، وذلك بمقادير معلومة وموازين قسط ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤].

قال الله - عز من قائل: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧].

ثم قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس:٣٨] فحيث ما جرت وأينما سلكت كان نهارها، وحيث لم يسلك سلطانها فهو الليل الذي يكون عن فقدها ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر:٥].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس:٤] يعني: الشمس، والنهار يجلي الشمس؛ أي: يطلعها ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يغشيها الظلام، والليل لا يسبق النهار والنهار الطالب لليل وهو مدركه، لكن بمقادير مقدرة وآجال محددة تقدير من عزيز عليم، غلب ﷻ ذكر النهار وفعله لما فيه من الهداية والنور والإبصار والضياء على ذكر الليل وفعله لما فيه من الإضلال والإظلام والإلباس وما ليس من معاني الأسماء الحسنى فافهم، ينبه بذلك على أن الله - جلَّ ذكره - له المثل الأعلى.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ [الشمس:٥ - ٦] الطحو مثل الدحو، وهو: البسط، وقد يكون الطحو: الذهاب والرمي، يقال: ما طحى بك وما ذهب بك، قال الشاعر:

طحى بك قلب في الحسان طروب ... يعيد الشباب عصر خان مشيب

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس:٧] يمكن أن يكون معنى «ما» هنا بمعنى: الذي، فيكون القسم بالله - جلَّ ذكره - ويمكن أن تكون بمعنى الأمر الذي بنيت السماء والأرض به ومن أجله وكل شيء، فعلى هذا يكون «ما» على معهودها وتكون أيضًا بمعنى التعجب والافتخار والتعظيم، كما قال - عز من قائل: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الحَاقَّةُ﴾ [الحاقة:١ - ٢] ﴿الْقَارِعَةُ * مَا القَارِعَةُ﴾ [القارعة:١ - ٢] ونحو هذا، وكقول المرأة: «زوجي مالك، وما مالك، مالك خير من ذلك»[1] وقول الأخرى:

---

(١) أخرجه الطبراني (٢٦٨)، والبخاري (٤٨٩٣)، والترمذي في الشمائل (٢٥٤)، ومسلم =

«زوجي أبو زرع، وما أبو زرع»[1] وتسوية النفس: هو إكمال خلقتها حياة وصفات وأسماء، وهو إذا بلغها هذه الغاية.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:٨] يعني - وهو أعلم: لقنها وفهمها وهي معرفة الفطرة وكما قال ﷻ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠] وكقوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى:٣].

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٩ - ١٠] هذا جواب القسم، والله أعلم، زكاها: رفعها بالطاعة لله تعالى وأعلى قدرها بالإيمان، وأصل الزكاة: النماء والزيادة، قد يكون العبد مجبولاً على مروءة وكرم سجية وعمل بما يقتضيه العقل الإنساني، وهو المراد الأعلى بقوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى:٣] وذلك كله غير مجيره من النار ولا مزكيه، ولا موجب له الجنة، بل بالإيمان بالله، وبما يجب الإيمان به وبالإسلام والعمل بما أمر واجتناب ما نهى عنه بعلم ويعبد لمن أسلم وإلى من توجه بوجهته ونيته يسر في ذلك ويعلن، وهذا هو المراد الأعلى بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٩ - ١٠] وهو من الدس في التراب يريد - وهو أعلم - أسفل بها أشقاها، هو عاقر الناقة.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس:١٣] بمعنى: احذروا ناقة الله أن تعقروها واحذروا سقياها أن تتعدوا عليه أو ترزأوا منه شيئًا.

يقول الله - جل من قائل: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] الدمدمة: الإهلاك والاستئصال، فسواها؛ يعني: سوى بينهم في الإهلاك، أشقى القوم من أهلك قومه من أجله.

=

(٢٤٤٨)، والنسائي في الكبرى (٩١٣٨)، وأبو يعلى (٤٧٠١)، وابن حبان (٧١٠٤).

(١) انظر السابق.

تفسير سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١)﴾ [الليل: ١ - ١١].

﴿وَاللَّيْلِ﴾ [الليل: ١] جواب القسم.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾[1] [الليل: ٤] ثم فسر ذلك بقوله الحق: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧] الحسنى هنا هو: الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، وما يجوز عليه، وما يستحيل لديه، وبأنبيائه وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر وما فيه، وما قاد إلى ذلك من قول أو من عمل، كل ذلك من الذي هو أحسن، فإن الحسنى تأنيث الأحسن، واليسرى؛ أي: نيسر عليه ذلك ونحببه إليه قولاً وعملاً، ثم نيسره إلى ثواب ذلك مصيرًا ومآبًا.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ أي: بماعونه وبماله، والماعون: كل ما نفع الغير ولم يكن عليه في بذله كثير مؤنة، ثم بعد هذا ما يجشم المؤنة فهو أفضل، وحرم مال المسلم على المسلم واستسخاره إلا أن يطيب بذلك نفسًا، ثم ندب هذا ندبًا براحم الإيجاب أن يسارع في الخيرات ويعين أخاه المسلم بنفسه وماله ما أمكنه، وليجشم إلى مثال ذلك مشقة وليصبر على نفسه، ثم قال: ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ [الليل: ٨] أعظم الغنى ضررًا وأكبره حوبًا: الاستغناء عن الله، كما التوكل على الله والتفويض إليه أكبر العبادات وأفضل ما تقرب به إليه، ثم الاستغناء بما عنده من العلم عن طلبه وبنفسه عن بذل المودة للمؤمنين والتحبب إليهم بما يقربه من ربه.

---

(١) هذا جواب القسم، أي: إن عملكم لمختلف: فمنه عمل للجنة، ومنه عمل للنار. قال جمهور المفسرين: السعي العمل، فساع في فكاك نفسه، وساع في عطبها. و«شتى» جمع شتيت: كمرضى ومريض. وقيل: للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعض. [فتح القدير (٨ /٨)].

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل:٩] قد تقدم.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل:١٠] أي: لمقتضى الشمال منه، فيكون من أصحاب الشمال، وإذا كان كذلك عسر عليه فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وود المسلمين وسنن العبادة والعمل بطاعة الله، وضيق صدره لذلك وأبعده عن الإيمان والإسلام والعمل بطاعته، نسأل الله معافاته ومغفرته.

فصل

إن الله - جلَّ ذكره - خلق عباده ليعبدوه ولا يشركوا به شيئًا وخلق السماوات والأرض، وما بين ذلك ليعرفوه وليقتدوا بحكمته، ثم أمرهم بطاعته ووعدهم على ذلك خير الدنيا وخير الآخرة، هذا هو الأصل المرجوع إليه، ثم إن هم لم يستجيبوا لربهم ولا أقبلوا إلى حظهم الذي دعاهم إليه أنذرهم عذابه وأحاق بهم وعيده ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل:١١] هذا تبيان لذكره البخل.

يقول: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ أي: إذا مات مأخوذ من الردى، وقد ذهب ماله وفنيت قوته، ويتوجه أيضًا قوله: ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ إلى التردي في النار.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٢ - ٢١].

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل:١٢] ذكر الهدى يأتي على وجهين: بمعنى الإعلام والإرشاد كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت:١٧] ويأتي بإتمام النعمة بالإعلام والإرشاد والتوفيق والمعونة والقبول، واتصال ذلك بالنهاية، كقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان:٥].

يقول - عز من قائل: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ [الليل:١٣] يعرض بأنه

يعطي من أطاعه خير الدنيا والآخرة، ومن تولى عن الذكرى وبخل واستغنى أذاقه نكال الآخرة والأولى، كما قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل:١٤] التلظي: شدة وهج النار وشدة استعارها، وهي أشدها التهابًا ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ على الخلود ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ [الليل:١٥] هو الكافر بالإضافة إلى الموحد الملي، وبوجه آخر: لا يصلى ذلك الموضع منها - يعني: لظى - إلا الكافر، والله أعلم بما ينزل.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ [الليل:١٧] هؤلاء هم أهل العلية في التقوى أهل البراءة من النار، ثم وصفهم بأحسن وصف جودًا وإخلاصًا، وسكت القرآن عن الصنف الوسط، وهو: أهل التقوى وأهل المغفرة، لا إله إلا هو.

تفسير سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ [الضحى:١ - ١١].

﴿سَجَى﴾ [الضحى:٢] الليل إذا سكن، وليلة ساجية: إذا كانت ساكنة الريح، وطرف ساجي: إذا كان فاترًا، وبحرٌ ساج: إذا سكنت أمواجه.

﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ ما فارقك ﴿وَمَا قَلَى﴾ ما أبغضك، ومن قرأ: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ [الضحى:٣] بالتخفيف فمعناه: ما تركك.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى:٤] وكان - صلوات الله وسلامه عليه - مرض ليالي فلم يقم لحزنه من أجل ذلك؛ إذ كان بمكة، فقالت له عجوز كانت مجاورة له: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد ودعك، فأنزل الله هذه السورة.

نظم بذلك قوله - عز من قائل: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى:٤] يعزيه في مرضه وعسر ما كان يقاسيه من تخلف قومه، وقوله - عز من قائل: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾(١) [الضحى:٥] بشره بما يفتح عليه في الدنيا،

---

(١) ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ هذه اللام قيل هي لام الابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره، ولأنت سوف يعطيك الخ، وليست للقسم؛ لأنها لا تدخل على المضارع إلّا مع النون المؤكدة. وقيل: هي للقسم. قال أبو عليّ الفارسي: ليست هذه اللام هي التي في قولك: إن زيدًا لقائم، بل هي التي في قولك لأقومنّ، ونابت «سوف» عن إحدى نوني التأكيد، فكأنه قال: وليعطينك. قيل المعنى: ولسوف يعطيك ربك الفتح في الدنيا والثواب في الآخرة، فترضى. وقيل: الحوض والشفاعة. وقيل: ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك. وقيل: غير ذلك. والظاهر أنه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيري الدنيا والآخرة، ومن أهمّ ذلك عنده، وأقدمه لديه قبول شفاعته لأمته ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا =

وبإتمام نعمته عليه في الدنيا والآخرة، وقد تقدم معنى هذا مجملاً في قوله الحق: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى﴾ [الضحى:٤].

ثم قال - عز من قائل: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ [الضحى:٦ - ٨] إلى آخر السورة، عدد عليه أنعمه في الدنيا؛ ليستدل بذلك مع ما وعده به وأخبره على خير ما يستقبله من خير الدنيا والآخرة، وليرحم اليتيم ويعطي السائل ويحدث بنعمه عليه وأعظم نعمه قبله ما خصه الله به من النبوة والرسالة والقرآن والحكمة، وأمره إياه بالتبليغ ومعونته إياه.

فَآوَى﴾ هذا شروع في تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم؛ أي: وجدك يتيمًا لا أب لك ﴿فَآوَى﴾ أي: جعل لك مأوى تأوي إليه، قرأ الجمهور: «فآوى» بألف بعد الهمزة رباعيًا، من آواه يؤويه، وقرأ أبو الأشهب: «فأوى» ثلاثيًا، وهو إما بمعنى الرباعي، أو هو من أوى له إذا رحمه. وعن مجاهد معنى الآية: ألم يجدك واحدًا في شرفك لا نظير لك، فآواك الله بأصحاب يحفظونك ويحوطونك، فجعل يتيمًا من قولهم درّة يتيمة، وهو بعيد جدًّا، والهمزة لإنكار النفي، وتقرير المنفيّ على أبلغ وجه ، فكأنه قال: قد وجدك يتيمًا فآوى، والوجود بمعنى العلم، ويتيمًا مفعوله الثاني. وقيل : بمعنى المصادفة، ويتيمًا حال من مفعوله. [فتح القدير (٨/ ١٥)].

تفسير سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب (٨)﴾ [الشرح:١ - ٨].

شرح الصدر: توسعته للإسلام والإيمان ونور العلم والإيقان، وقد أظهر الله له ذلك مرتين: يوم نزل عليه جبريل عليه السلام وهو عند ظئره في بني بكر، وليلة جاءه ملكان أحدهما جبريل عليه السلام فقال أحدهما للآخر: أحد الثلاثة بين الرجلين، فشرح صدره ليلتئذ، ثم أسرى به على البراق إلى بيت المقدس، ثم عرج به إلى السماوات وإلى السدرة المنتهى وإلى الجنة والنار، ثم رفع إلى المستوى حيث سمع صريف الأقلام، ثم أوحى الله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه إلى عبده ما أوحى.

قال الله - عز من قائل: ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥] فإذا شرح الله - جلَّ ذكره - صدر عبد من عباده باطنًا صعد في السماء على القدر الذي شرحه، وانتهى إلى حيث انتهى به في الشرح والغسل والتطهير، وعلى قدر ذلك يصعد في السماء بوهمه وفهمه، ومن خاب من ذلك لم يصعد به، ومن أراد الله إضلاله ضيَّق صدره وتركه ضيِّقًا حرجًا لا يتسع لأنوار الهداية ولا ينشرح لحقائق الوحي.

ألا تسمعه يقول: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ﴾ قرئ بالتخفيف والتثقيل ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ يقول - والله أعلم بما ينزل: فكما لا يستطيع أن يصعد في السماء بجسمه، كذلك لا يستطيع أن يصعد إليها بالإيمان واليقين وقبول النصائح، ففرق ما بين النبي والولي في ذلك أن النبي شرح صدره ظاهرًا وأعلى به ظاهرًا، والولي شرح ذلك منه باطنًا وأعلى به باطنًا، والكافر ضيق ذلك منه وأبقى بظلمته وحظوظ الشيطان منه وفيه فهو

لا يستطيع قبول الهداية ولا الصعود في معارج العبرة إلا على مقدار ما يستطيع الصعود في السماء ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٦ - ١٢٧].

قال رسول الله ﷺ: «**إن القلب إذا دخله النور انشرح له واتسع**»(١).

قوله - جل من قائل: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ**﴾(٢) [الشرح:١-٣] قدم له البشارة بالمغفرة قبل إنزال الإعلام بالمغفرة العامة في سورة الفتح ﴿**أَنقَضَ ظَهْرَكَ**﴾ كناية عن الثقيل، والوزر نفسه الثقل.

﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾ [الشرح:٤] أن جعل ذكره متصلاً بذكره لا تتم شهادة عبد ولا إيمانه ما لم يقرن الشهادة له بالنبوة والرسالة بشهادة التوحيد لله - جلَّ ذكره - وحتى رفع منه في أرفع أصوات المسلمين إعلامًا بأوقات الصلوات والتجمع إليها، وهذا منتظم بما تقدم ذكره في سورة الضحى من تعداد نعمه قبله، وجعله لنا قرآنًا نقرؤه ووحيًا أنزله إلينا معشر هذه الأمة، نتلوه رحمة منه بنا ومن منّه علينا؛ إذ نعمه قبله متصلة بنعمته علينا وإعلاء قدره في الدنيا والآخرة من إعلائه أقدارنا ﴿**فَلِلَّهِ الحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ العَالَمِينَ * وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [الجاثية:٣٦ - ٣٧] اللهم زده من نعمائك وبركاتك وصلواتك وسلامك عدد ما خلقت وما أنت خالق وأخلفه في الغابر أمته يا أرحم الراحمين.

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿**فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا**﴾

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) قال الورتجيبي: شرحَ صدره - صلوات الله وسلامه عليه - طلوع شمس جلال الحق فيه، فأضاء منه روحه وقلبه وعقله، وطار روحه في الأزل، وطار عقله في الأبد، وطار قلبه في الجبروت، ونفسه في الملكوت، فتولّى الحق شرح صدره بنفسه لا بغيره، وذلك حين ظهر لسرِّه ذاته القديم، وصفاته الأزلية، فصار موسعًا مبسوطًا بوسع الذات والصفات، فشرْحُه يزيد إلى الأبد؛ لأن جلال الحق لا نهاية له، وكان صدره محل تجلّي الحق، فبقي مع الحق في ساحة الكبرياء حيث لا حيث ولا زمان ولا مكان، بل نور الذات في نور الصفات، ونور الصفات في نور الذات، فهو بين النورين محتجبًا بأنوار الحقيقة عن أوهام الخليقة.

[الشرح:٥ - ٦] ذكره بأنه كان يتيمًا فآواه وعائلاً فأغناه، وضالاً فهداه، وبأنه شرح صدره ولم يشرحه إلا عن ضيق، ورفع له ذكره بعد ضعف وخمول، ووضع عنه وزره بعد أن كان قد أثقل حمله، فهذان عسران قد جعل الله بعدهما يسرين في دين ودنيا ذكره به، وقد قضاه وفرغ منه هبة منه إياه وعطية، ثم بشره بأن العسر الذي هو فيه من تخلف الناس عنه وعتوهم عليه سيجعل له من بعده يسرًا، فقد كان من الفتح عليه ودخول الناس في دين الله أفواجًا ووفود العرب ترد عليه والناس إليه سراع، ثم بعد وفاته إلى حد معلوم قدره الله، ثم كرر العسر كرة بعد كرة كانت منه فبشره بأنه سيجعل له أيضًا من هذا العسر يسرًا، هكذا أمر الله - جلَّ ذكره - بتدوار دوائر التقدير عسر بعده يسر ويسر بعده عسر.

يقول الله - جل ثناؤه: ﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧].

وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

ثم قال - عز من قائل: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ الله أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق:٥] فكأنه قال له - جل من قائل: إن مع هذا العسر يسرًا، إن مع ذلك العسر يسرًا، وحسبك منه وجودك إياه برحمتنا إياك كذلك فيما أنبأناك به من ظهور الدين على يديك وإعلاء الكلمة.

نظم بذلك قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح:٧] يقول: فإذا يسر عليك أمرك فانصب في عبادة ربك، وإذا عسر عليك بعض شأنك فإلى ربك فارغب، وإليه فاضرع، وذكر النصب مع الفراغ، وذكر الرغب مفردًا؛ لأن الميسر عليه يجب عليه الرغب في التوفيق والهداية واستعمال الشكر، والمعسر عليه يجب عليه، الرغب في الثبات وجميل الصبر وكشف الضر، والرغب إلى الله شعار العبد على كل حال، وهو بساط العبودية.

تفسير سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)﴾ [التين: ١ - ٨].

التين والزيتون: جبلان بأرض الشام، وقيل التين: جبل بدمشق، والزيتون: جبل ببيت المقدس، وهو موضع ظهور عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - والتين الذي بدمشق موضع نزوله إن شاء الله.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾[1] [التين:٢] وقرأ عمر بن الخطاب: «وطور سيناء» وكذلك في حرف ابن مسعود، عنده نودي موسى عليه السلام وبجانبه واعده ربه ﷻ وبذلك سماه في غير هذا الموضع في قوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون:٢٠] يعني: شجرة الزيتون.

و﴿البَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين:٣] مكة، أمين بمعنى: مأمون، كقتيل بمعنى: مقتول، وقد يجوز بأن يكون بمعنى: آمن، كسليم بمعنى: سالم، وأثيم وآثم، منه كان ظهور

---

(١) ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى اسمه الطور، ومعنى ﴿سِينِينَ﴾: المبارك الحسن بلغة الحبشة. قاله قتادة. وقال مجاهد: هو المبارك بالسريانية. وقال مجاهد والكلبي: ﴿سِينِينَ﴾: كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين ، وسيناء بلغة النبط. قال الأخفش: «طور» جبل، و«سينين» شجر، واحدته: سينة. قال أبو علي الفارسي: «سينين» فعليل، فكرّرت اللام التي هي نون فيه، ولم ينصرف سينين كما لم ينصرف سيناء؛ لأنه جعل اسمًا للبقعة. وإنما أقسم بهذا الجبل؛ لأنه بالشام، وهي الأرض المقدسة، كما في قوله: ﴿إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء:١] وأعظم بركة حلت به ووقعت عليه تكليم الله لموسى عليه. قرأ الجمهور: «سينين» بكسر السين. وقرأ ابن إسحاق وعمرو بن ميمون وأبو رجاء بفتحها، وهي لغة بكر وتميم. وقرأ عمر بن الخطاب وابن مسعود والحسن وطلحة: «سيناء» بالكسر والمدّ. فتح القدير (٨/٢٤).

محمد - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وجاء في بعض الكتب المتقدمة: أقبل من سيناء وتجلى من ساعبرا، واستعلن من جبال قاران، فإقباله من سيناء - أي: موسى - وتجليه من ساعبرا إقباله بعيسى واستعلانه من جبال قاران بمحمد، صلوات الله وسلامه على جميعهم.

نظم بذلك قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] هذا جواب القسم، يقول: خلق الإنسان مفطورًا على فطرة الإسلام الدين القيم على الصراط المستقيم؛ لذلك وصف خلقته بأنها في أحسن تقويم.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين:٥] إما في طريق الديانة، فالكفر والتكذيب، وإما فيما سبيله الجزاء، فالمسخ في دار البرزخ وتحويل صورته إلى ما غلب عليه خلقه وعمله في الدنيا من الدواب والهوام والبهائم، وفي الآخرة يسود وجهه ويزرق عيناه ويشوه خلقه.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُم مِّنَ المَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:٤٢].

وقد قيل في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] أي: في أحسن صورة، صوَّره ذو روح، وذلك موجود في خلقه العالم الأكبر، ثم في خلقه آدم عليه السلام وهو العبد الحري، ثم عن أبيه وأمه؛ لاتصال وجود الشبه، ولما كان شبهه متصلاً هذا الاتصال إلى العالم الكلي دخلت الشبهة على من لم يصل إلى تحقيق العبد الكلي علمًا به فقال بأنفس كثيرة.

قال الله - عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا﴾ إلى قوله - جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤] إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون:١٧] إلى قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ [المؤمنون:١٨] إلى قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [المؤمنون:٢١] إلى ما هو المعبور إليه من جنة أو جهنم، وهو ما عبر عنه قوله الحق: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل:٦٦] سبحانه وله الحمد أبدًا، هو أحسن الخالقين، صور أحسن صورة وأتقن بحكمته أحسن خلقة.

جاء في الكتاب الذي يذكر أنه التوراة أن الله ﷻ قال: «إني خلقت آدم ركبت جسده من رطب ويابس وسخن وبارد، خلقته من تراب وماء، ثم جعلت فيه نفسًا وروحًا» فيبوسة كل جسد خلقته من التراب، ورطوبته من الماء، وحرارته من قبل النفس، وبرودته من قبل الروح، ومن النفس حدثه وخفته وشهوته ولهوه ولعبه وضحكه وسفهه وخداعه وعنفه وخرقه، ومن الروح حلمه ووقاره وعفافه وفهمه وحياؤه وتكرمه وصدقه وصبره.

جَمَعَهُ من مفترقات خزائن السماوات والأرض من بين ممتزج الحق الذي إليه المصير من فتح رحمته وفيح عذابه على تدوار الأفلاك واختلاف الليل والنهار والساعات والدقائق وعدد الشهور وأيام السنين ومعاني موجود إثارة الأسماء والصفات في العالم، ثم ركبه عظامًا وعصبًا وعروقًا وغضاريف وحجبًا ولحمًا ودمًا، فالعروق تسقي العظام، والعظام يمسكها العصب، والدم يسقي الجسم، والجسم يمسكه الجلد، ثم جعله اثني عشر وصلاً على عدد الاثني عشر اسمًا، ومائتين وثمانية وأربعين عظمًا، وثلاثمائة وستين مفصلاً، وثلاثمائة وستين عرقًا ما منهن واحدة إلا وهي عبرة إلى علم على الله ولي التوفيق الملى والمريد من فضله.

قسم ذلك كله تقسيم حكم وعلم في الرأس والدماغ والأسنان والعنق والفقارات والذقن والأضلاع، وفي اليدين والرجلين والذراعين والساقين والكتفين والوركين والجبين، وجعل واحد العروق التي تسقي العظام المؤلفة واللحم الملبس والعصب والرباطات كلها عرقًا واحدًا يقال له: الوتين، هو: مستبطن الصلب، وهو الذي يملأ الجسد الأعظم، ويسقيه الكبد، وهي بيت الدم، فأخذ من الوتين ستون عرقًا هي أنهار الجسد، منها تأخذ العروق كلها، منها ثمانية عشر تسقي الصدر، وسبعون تسقي العنق وأربعة تسقي الدماغ وسبعة عشر ضلعًا من العظام منها في جنبه الأيمن تسعة أضلاع، وفي جنبه الأيسر ثمانية، وجميعها مركبة في تسع فقارات الظهر لكل فقارة ضلع، ويأخذ من الوتين إلى الصدر في كل جانب يسقي الصلب إلى الدماغ والنخاع، وهو العرق الذي في جوف الفقارات إلى الدماغ، فإذا بلغ الوتين مستبطنًا للصلب إلى الوركين تفرق خمسة عروق، فتسقي الرجلين تلك الخمسة لكل عرق خمسة عروق، فتسقي الجسلتين حيث يفرق الوتين من مجمع الوركين.

ثم يجتمع الوتين في الصلب، ثم إذا بلغ الوتين مستبطنًا للصلب إلى القلب تفرق رأسه رأسين، فصار أحدهما إلى القلب ويتفرق الآخر إلى ستة عروق من مجمع الصدر بين الترقوتين، وهما: الأكحلان، فيتفرق من الآخر خمسة عروق، ثم يتفرق من كل واحد من تلك الخمسة أربعة عروق: عرقان يسقيان اللسان، وعرقان يسقيان الأضراس، وعرقان يسقيان الصدغين، وعرقان ينزلان بالحر من الدماغ إلى الكليتين، وعرقان يصعدان بالبرد من الكليتين إلى الدماغ، وعرقان ينزلان من الدماغ إلى الكبد ويصعدان إلى الدماغ والقلب مما يلي الظهر في الجانب الأيسر وبحياله الطحال، وفي الشق الأيمن الكبد ومعها المرارة، وأمامها المعدة في البطن في الشق الأيمن مع الكبد، وفي الشق الأيسر الطحال دون المعدة المصران والحجب والمثانة، والرئة كالمروحة على القلب يخرج من حرارات النفس وتدخل من روح الهواء وهو عيشها، وبيت الروح: القلب.

والقلب طبقات ثلاثة في وسطها مضغة بيضاء هي حبة القلب، وهي التي إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائر الجسد؛ أعني: بالهداية والضلالة، والعبد الباطن هو المُحَرِّك المتحرك المُحَرَّك بشيء واحد مشتمل على أربع صفات عالته، هي: النفس والروح والعقل والهوى، وأربعة رياح سميت بذلك من حيث هي قوى، وربما سميت أرواحًا مجازًا واتساعًا من حيث كانت هي المعنية المشار إليها، ومن حيث هن مدبرات يدبرها المدبرات للأمر فيهن أرواح سفلاً مما يلي الجسم، وهن: الجاذبة والممسكة والطاحنة والدافعة، ثم يتبع هذه غيرهن لهذه معاني هن منها كالمغذيات والمقسمات والنازعات والناشطات والمنشئات والمنهيات تجري هذه في كل مفصل وعضو وعرق وشعر وبشر.

كذلك يكتنف العليا صفات هن: الحياة والعلم والقدرة والإرادة، ثم يكتنف هذه صفات هن لها معان هي منها يتصف بهن هذا العبد الباطن المقصود بهذا الوجود، منها: التعاظم والتكبر والتعالي والحكم والحكمة والعزة والرحمة والطول والوسع واللطف والخبر والشهود والقرب والبعد والحفظ والإجابة والمراقبة والحق والجنان والبيان والرأفة والمغفرة والعفو والكرم والبر والصدق والإيمان والإسلام، إلى غير ذلك من الأسماء.

كما يتصف بالضعة والذل والمهانة والقسوة والحرج والخرق والصغر والذلة والكذب والكفر والنفاق، إلى غير ذلك من صفاته، ذلك بأنه خلقه من ممتزج أمشاج ما تقدم ذكره موجودًا في العالم، لكنه سبق برحمته قبل غضبه، فخلقه أحسن خلقة، وصوره أحسن تصوير، وفطره أحسن فطرة، فإن هو أمشاه على الصراط المستقيم صراط المنعم عليهم فقد غلب رحمته على غضبه، وإن أسفل به فقد أمضى فيه مشيئته ولا معقب لحكمه وهو أحكم الحاكمين.

يقول - جل من قائل: أيها الإنسان ما يكذبك بعدما أراك من حكمه هذا فيك وفي بني جنسك ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨] الذي أبدع هذا المبدع وصور هذا التصوير، فأتقن جمع الكل في الجزء خلقًا وأمرًا وشبهًا، فأحسن حين أشبه المرء أباه وداره الدنيا ومعاده الآخرة والعلو والسفل، وأنهى ذلك منه كل الكل ﷻ وتعالى شأنه اسمًا وصفات بينهن على معاني الذات، جل الواحد الأحد عن مثيل أو نظير أو عديل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

ثم ينبعث عن هذا الوجود عبرة إلى معرفة نسبة خلق هذا الإنسان من خلق السماوات والأرض وخلقه العالم الأكبر، ثم إلى علم علي يلقي الحكمة ويوقظ من السنة ويهدي من الحيرة ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل:٩] فسبحان الله وله الحمد، وتبارك الله أحسن الخالقين، أبعد أن خلقه على حسن هذه الخلقة وجمال هذه الصورة متصلاً واصلاً أسفل به إلى أسفل الدركات وسلبه جلي حسن الأسماء والصفات.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشعراء:٢٢٧] يقول: فلم يتركهم على خلقتهم حتى استعملهم بطاعته، كما استعمل ملائكته وسماواته وأرضه وما بين ذلك، ثم أعلاهم إلى عليين وصور فيما هنالك صورهم على مقادير علومهم وأعمالهم ويقينهم، جمع ذلك في قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٦].

نظم بذلك قوله الحق - عز جلاله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ [التين:٧ - ٨] أي: بالجزاء على مراتبه ومقاديره علوًا وسفلاً، خيرًا وشرًا، أليس من الحق وواجب الوجود أنه من صور هذه الصور ومشجها بهذه

الأمشاج ووصلها هذا الوصل إلى أن بلغها هذا المبلغ بقادر على أن يجري كلاً بعمله فيرفع هذا قدرًا وصورة ومحلاً إلى حيث شاء من رحمته ووصله وولايته، ويسفل بهذا قدرًا وصور ومحلاً إلى حيث شاء من لعنته وإبعاده؟!

أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ** ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين:١] **فقرأ:** ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨] **فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين**»[1] فاعلم وفقنا الله وإياك كيف تشهد عند ربك، فإن حقيقة الشهادة هي ما صدرت عن علم ويقين، وقرأ عبد الله: «أسفل السافلين».

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٨٧)، والترمذي (٣٣٤٧)، والبيهقي (٣٥٠٨)، وفي شعب الإيمان (٢٠٩٧).

تفسير سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۩ (١٩)﴾ [العلق: ١ - ١٩].

قوله ﷻ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(١) [العلق:١ - ٢] إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥] هذه الجملة على تأويل «بسم الله الرحمن الرحيم» وكما يقال في الباء الزائدة: بسم الله أبدًا، أو أبدأ، أو أقرأ بسم الله، وهذا أولى الوجهين، فكذلك قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١] واسمه الخالق في ضمن اسمه الرحمن ﷻ وتقدست أسماؤه.

وكانت هذه السورة أول ما أنزل من القرآن، فكانت التسمية مضمنة فيها،

---

(١) ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ أي: خلق هذا النوع من هذا الشيء، وهو دم شديد الحمرة جامد غليظ، جمع: علقة، وكذا الطين الذي يعلق باليد يسمى: علقًا، وهم مُقِرُّون بخلق الآدمي من الأمرين كليهما، فالآية من أدلة إمامنا الشافعي ﷺ على استعمال المشترك في معنييه، ولعله عبر به ليعم الطين، فيكون مع ما فيه من الإشارة إلى بديع الصنعة إشارة إلى حرمة أكل ما هو أصلنا من الدم والتراب قبل أن يستحيل، فإذا استحال وصف بالحلال؛ لأن الاستحالات لها مدخل في الإحلالات في النكاح وغيره، واحمرار النطفة ليس استحالة؛ لأنها كانت حمراء قبل قصر الشهوة لها، وربما ضعفت الشهوة عن قصرها فنزلت حمراء، فإذا تحول الدم لحمًا صار إلى جنس ما يحل، وكذا إذا تحول التراب بمخالطة الماء تمرًا أو حبًا حل. نظم الدرر للبقاعي (٩/٤٦٨).

كالأمر بالتسمية والاستعاذة عند ابتداء القارئ بالقراءة، والعلق: الدم، وكل إنسان مخلوق من علق، والعلق كائن عن النطفة، ثم ينقل المخلوق في طبقات الخلقة إلى أن ينشأ خلقًا آخر كما تقدم فيما قبل، فكان معنى الكلام إلى قوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق:٢] معنى قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم».

أتبع ذلك مع تأويله اسمه الرحيم - جلَّ ذكره - قوله: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ [العلق:٣] إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥] إذ الآية الأولى دالة على وجوده العلي وعلى قدرته وعلمه وإرادته ولطفه وحكمته وتقديره وتقدمه في الأمور قبل كونها، وفطرته في الموجودات على دينه الذي هو الإسلام، والآية الثانية دالة على ما تقدم، ثم على رحمته عبده ووليه ونعمته عليه للفضية به إلى رحمته العليا في الدار الآخرة رفع الباء من الاسم في قوله: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ [العلق:٣] وهو أعلم بما ينزل عطفًا على محذوف تقديره: اقرأ وربك الأكرم يقرؤك، أو اقرأ أنت وربك الأكرم، كما قال عز من قائل: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨] أي: اتبعه قراءة ثم عملاً، وكما قال رسول الله ﷺ مبلغًا عن ربه: «**يقول الله: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، يقول العبد:** ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] **يقول الله: حمدني عبدي...**»[(١)].

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ يقول - وهو أعلم بما ينزل: ألم تر إلى الكاتب بالقلم ما هو كاتبه؟ أو القارئ الكتاب من الموصل معاني المكتوب إلى اليد من الكاتب أو من قلب الكاتب إلى يده؟ فالله أكرم وصلاً وأوصل قيلاً.

نظم بذلك ما هو في معناه تبيانًا لما تقدم من قوله: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥] وكل هذا تقدمة لما تضمنه قوله العزيز: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:٤٨] هو الأول والآخر والظاهر والباطن في كل شيء.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:٦ - ٧] أخبر -

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٧٦٧)، وأحمد (٧٨٢٣)، وأبو داود (٨٢١)، ومسلم (٣٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣)، وقال: حسن. والنسائي (٩٠٩)، وابن ماجة (٣٧٨٤)، وابن حبان (١٧٨٤).

جلَّ ذكره - بعلمه في الإنسان، وأنه إن لم ينصره ويهده ويعصمه فهو هالك لا محالة، فأشبه قول رسول الله ﷺ: «**اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»(١) ولا أقل من ذلك ولا أكثر، وقوله: «**لا تكلني إلى نفسي فأهلك، ولا إلى الناس فأضيع**»(٢).

نظم بذلك قوله - جل من قائل: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق:٨] وهو اسم للرجعة كقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت:٢١] ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥].

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق:٩ - ١٠] نزلت في أبي جهل، قال: «لئن رأيت محمدًا يصلي لأطأن رقبته»(٣)، وفي أخرى: «**إن رسول الله ﷺ كان يصلي فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك، ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف رسول الله ﷺ فقال أبو جهل: إنك لتعلم أنه ما بها ناد أكثر مني**»(٤) النادي: هو المجلس إذا كان أهلاً بأهله، فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق:١٧ - ١٨].

قال ابن عباس: «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية».

وفي أخرى: «**لما هم أن يدنو منه نكص على عقبيه، فسأله أصحابه عن نكوصه فقال: إني رأيت بيني وبينه خندقًا من نار وهولاً عظيمًا**»(٥).

وقيل: إنه تمثل له فحل من الإبل فاغرًا فاه ليأكله فأنزل الله - جلَّ ذكره - في ذلك منه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق:٩ - ١٠].

﴿أَرَأَيْتَ﴾ يعني: النبي ﷺ ﴿إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَو أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ [العلق:١١ - ١٢] هنا محذوف معناه: ينهاه عن الهدى، يؤذيه لأنه يأمر بالتقوى ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [العلق:١٣] يعني: أبا جهل ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ [العلق:١٤] فينصر نبيه ويظهر دينه.

---

(١) أخرجه البزار كما في مجمع الزوائد (١٠/١٨١) قال الهيثمي: فيه إبراهيم بن يزيد الخوزي، وهو متروك.

(٢) هذا الدعاء لم أقف عليه حديثًا.

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٥٨).

(٤) أخرجه بنحوه أحمد في مسنده (٢٣٢١).

(٥) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١٥٢).

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق:١٥] السفع هو: الأخذ بالعنف الشديد، سفعت ناصيته: إذا قبضت عليها ودفعته حنقًا وغيظًا، فوصف - جلَّ ذكره - ما يؤول إليه مآله في الآخرة، وأخذ ملائكة العذاب بناصيته كقوله - عز من قائل: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ [الرحمن:٤١].

ويجوز أن يكون المعنى به زائدًا إلى ذلك الإنذار بأنه يقتل فيجز رأسه ويؤخذ بناصيته، كما جاء عن ابن مسعود ﷺ أن أبا جهل أذاه بمكة يومًا فتغيظ ابن مسعود، وقال: اعلم يا ابن هشام أني والله لقد أُرِيتك في المنام كأني أضرب بين كتفيك بجدحة وآخذ بناصيتك، ولئن صدق الله رؤياي لأطأن رقبتك ولأجزن رأسك، فلما كان يوم بدر ضربه ابنا عفرا الأنصاريان بسيفيهما حتى سكن، فجاءه ابن مسعود في مضجعه ذلك وبه رمق، فقال: أي عدوًا لله، لقد قتلك الله، فقال: وهل من أعمد قتيل قتله قومه؟ ثم قال: فهلا غير أكّاد قتلني، لمن الدائرة اليوم؟ قال: لله ولرسوله، ثم جعل رجله على رقبته، فقال له: يا رويعى الغنم، لقد ارتقيت اليوم مرتقى صعبًا، ثم أخذ بناصيته وجز رأسه.

وقرأ أبو جنوة: «ناصية كاذبة خاطئة» نصب على الذم، وفي قراءة ابن مسعود: «نسفعن بالناصية» وقرأ أيضًا: «سأدعو الزبانية» وقرأ ابن أبي عبلة: «سيدعا الزبانية» وهذا وإن كان قد نزل في شأن أبي جهل فإن الوعيد متوجه إلى من عمل بعمله إلى يوم القيامة.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق:١٩] يقول: امض لشأنك ولا تطع منهم آثمًا أو كفورًا فلا تعبأ بهم، إنا ناصروك، واشتغل بعبادة الله والعمل بطاعته حتى يأتي الله بأمره، وهذا وعد من الله ﷻ له ولمن تبعه بالتقريب لمن يسجد له، لذلك قال رسول الله ﷺ: «**إنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله درجة وحط عنك خطيئة**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٤٣١)، ومسلم (٤٨٨)، والترمذي (٣٨٩) والنسائي في الكبرى (٧٢٥)، وابن ماجة (١٤٢٣)، وابن خزيمة (٣١٦)، وابن حبان (١٧٣٥).

تفسير سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ [القدر: ١ - ٥].

القَدْر: مخفف من القَدَر، فهي ليلة القدر يفصل فيها من أم الكتاب حكم ما يكون إلى مثلها، نعم وإلى ما يكون إلى ما قد شاء الله كونه، فمن الآجال ما هو قريب وبعيد، والقريب منها هو ما يخرج فيما بين هذه الليلة المباركة إلى مثلها من العام القابل، والبعيد إلى أجله المسمى، وإذا كان في الليلة القابلة أثبت ما قد يقضى في الكائن الماضي وأبقى المستقبل على حاله، هكذا إلى ما شاء الله كونه، وأخبر الله ﷻ بصدق قيله أن: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] أي: محكم أمرًا من عنده وأنبأ بأنها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] وألف شهر هي: ثلاثة وثمانون سنة وثلث سنة أربعة أشهر، ووجدنا الأيام سبعة أيام، فإذا فرغ عددها واستدار دورها ابتدأت من أولها، وكذلك أكثر موجودات العالم على سبعة، وحكمها على الأسبوعات فسبعة في سبعة أو في سبعة أسبوعات.

وقد تقدم أن انتهاء العدد ستة والسابع وترها، ولما أنزل الله القرآن في ليلة القدر وأخبر رسول الله ﷺ: «**أنه سيسرى عليه ليلاً فيُمْحا من المصاحف رسمه ومن القلوب حفظه**»[1] نعوذ بالله من درك ذلك اليوم.

ألفينا سبعة أيام ألف شهر سبعة الألف شهر لا محالة، ومدتها خمسمائة سنة

---

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١/٣٣٥) بلفظ: «أطيعوني ما دمت بين أظهركم، فإذا ذهبت فعليكم بكتاب الله، أحلوا حلاله وحرموا حرامه، فإنه سيأتي زمان يسري على القرآن في ليلة فيسلخ من القلوب والمصاحف» وعزاه إلى الديلمي.

وثلاث وثمانون سنة وثلث سنة، وبقي علينا أن لو علمنا في أي عام كانت ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن أولاً من زمان النبوة، وكم كان بين العام والهجرة التي جعلت أول التاريخ، وقد قال الله - جل قوله: إنها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر:٣].

ولعل هذا الفصل يتناول من هذا الخطاب هذا الوجه فلا ندري ما هي مدة هذا الخير، وما تناوله اسم الخير فلا يكون أيضًا هذا المتوقع، ومن هنا استأثر الله بعلم الساعة لا يعلم ما هو مقدار مدة الخير المذكور، وهذا هو معنى قوله الحق: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه:١٥] تبارك الله العليم الخبير، وقد تقدم الكلام فيها في سورة الدخان، والله أعلم وأحكم.

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر:٤ - ٥] عم - عز جلاله - بقوله: والروح فيها من كل أمر كما قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥] وقرأ ابن عباس وعكرمة: «من كل امرئ» يعني: من كل رجل.

قال ابن عباس: «من الملائكة سلام هي» قيل: إن الملائكة تسلم على القائمين فيها، وقيل: إنها مسلمة من كل أذى - وأرى والله أعلم - أن هذا هكذا، فهي مسلمة في حق أهل الإيمان من الفتن والإضلال، فإن الشياطين وإن كانوا في سائر أيام الشهر مصفدين فإنهم فيها أشد إيثاقًا ومنعًا من إنفاذ إراداتهم في عباد الله المؤمنين.

فقد قال الله - سبحانه وله الحمد - في أهل الجنة: إنهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة:٢٥ - ٢٦] فالملائكة تسلم على أهل المسابقة في أعمال الطاعات، فهي في حقهم لا تأثيم فيها ولا لغو إلا قليلاً ﴿سَلامًا سَلامًا﴾ بالغيب، إنما هي في حق هؤلاء صلاة ونية صيام وتلاوة قرآن وذكر واستغفار أو نوم سالم، فقربت حال المؤمنين فيها من أحوالهم في الجنة غدًا إن شاء الله، الملائكة تسلم عليهم وهي سالمة في حقهم من إذاية الإضلال والإفتان وهم فيها سالمون غانمون.

وقرئ: ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر:٥] بالفتح والكسر، والفتح أكثر، وهو

وقت طلوع الفجر، والكسر موضع طلوعها، وهو اليوم مثله من العام؛ أي: في تنفيذ ما فصل فيها، فحكمها باقٍ إلى مثلها من العام، فإن الشمس لا تعود إلى موضع مطلعها إلا إلى مثلها من العام، وكذلك الحكم فيما تقدم ذكره في أول السورة لمن وقف على حقيقة اليوم ما هو.

تفسير سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)﴾ [البينة:١ - ٨].

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ﴾ [البينة:١] المعنى: لم يزالوا ولم يكونوا بناجين منا، أو لم يكونون بارحين حتى نبلغ إليهم أو نبعث إليهم رسولاً وننزل عليهم كتابًا؛ لتقوم الحجة بذلك لنا عليهم ﴿تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ﴾ قول عام في الرسول والكتاب والآيات في الوجود والوحي، الصحف: هي السور.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة:٣] أي: قائمة بالعدل مستقيمة، والحنيف: المؤمن المسلم، والدين القيم: هو: دين الإسلام، والقيمة: هم الملائكة - على جميعهم السلام وجميع الخليقة - كما قال، عز من قائل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤] و﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم:٢٦].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧] من قرأها بالياء فهو من البري، وهو: التراب، فالمؤمنون هم أفضل من جميع الإنس؛ لأنهم المخلوقون من التراب، والأوجه: القراءة بالهمز، فهو جميع من برأه الله يبين ذلك، والله أعلم بما ينزل في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا

أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦] وقع الاتفاق على أنهم شر من الإنس وشر من البهائم وغيرهم، فالمؤمنون ليسوا بخير من كثير من الملائكة - على جميعهم السلام - والكافرون ليسوا بشر من كثير من الجن والشياطين، ولذلك جازت القرأتان، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

تفسير سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة: ١ - ٨].

﴿زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١] هو أن تتحرك من أسفلها، فتمور مورًا، ثم ترمي بما فيها من كنوز وأثقال أموات وغير ذلك.

يقول الكافر يومئذٍ: ﴿مَا لَهَا﴾ [الزلزلة:٣] ويقول المؤمن: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢] وتحدثها بأخبارها هو أن تشهد بما عمل على ظهرها، روي عن النبي ﷺ ذلك، أوحى الله إليها بذلك؛ أي: أمرها.

قال رسول الله : ﷺ «**يشهد للمؤذن مدا صوته من شجر ومدر**»[1] وفي أخرى: «**من رطب ويابس وكل شيء**»[2].

ثم قد يعبر عن هذا إلى الزلزلة الخاصة بشخص شخص، فأرض الإنسان جسمه، وعظامه جبالها، ورأسه سماؤها، وأثقال أرضه موجود ما يجده المحتضر من خرس اللسان وثقل الأعضاء من الحفوف، وحين يشخص البصر الذي هو مع السمع والحواس انتثار كواكبه.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:٤] يبدو له مرأى الآخرة، ونبأ الإنسان يومئذٍ بما قدم وأخر، ولئن أنكر لتشهدن جوارحه وأركانه كذلك في يوم العرض الأكبر، وبالحقيقة هذه الزلزلة الخاصة بأحدنا وكلنا واجدها لا محالة.

---

(١) ذكره الشوكاني في الفوائد المجموعة (٩/١).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٦٣٤٥).

قال رسول الله ﷺ: «**من مات قامت قيامته**»[1] والزلزلة الكبرى هي العامة والخاصة أيضًا كبرى في حق من حلت به.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾[2] [الزلزلة:٦] أيضًا يخرج هذا من جسده مكرمًا مبشرًا، وهذا تضرب الملائكة وجهه ودبره.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا المَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الأنفال:٥٠ - ٥١].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت:٣٠] إلى قوله: ﴿نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت:٣٢] والنزل: هو ما يستعد به للضيفان.

وقال - عز من قائل: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢].

ثم ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧ - ٨] في الخاصة والعامة.

﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف:٤٩].

﴿فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ﴾ [القيامة:٧] إلى قوله - عز من قائل: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة:١٣] في هذه وفي هذه، فاعلم ذلك ولا تكن من الممترين، وإنما دوائر حكم الله ﷻ تدور بحكمته بما فيها، فدار يوم التقدير بتقدير الأعمال

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال ابن عجيبة: متفرقين، جمع شَتّ، نزلت في بني ليث بن عمرو، كانوا يتحرّجُون أن يأكل الرجل وحده، فربما قعد منتظرًا نهاره إلى الليل، فإذا لم يجد من يؤاكله من الضيفان أكَل أكْل ضرورة. وقيل: في قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا. وقيل: في قوم تحرجوا من الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل، وزيادة بعضهم على بعض، فخيّرهم. وقيل: كان الغنى منهم إذا دخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته، ودعاه إلى الطعام، فيقول: إني أتحرج أن آكل معك، وأنا غني وأنت فقير، فأباح لهم ذلك.

علمًا وكتبًا، ودار يوم الدنيا بالكون فعلاً وعملاً وكسبًا وإيجادًا على يوم العرض.

ثم يوم العرض تدور دوائره بها عرضًا وتوبيخًا وخزيًا وجزاءً وندامة وعرضًا وغبطة ورفعة بها وإكرامًا من أجلها، وبين يوم الدنيا وبين يوم العرض يوم تحيا فيه الموتى، ويجازون بما قدموا في دار الدنيا من أعمال وآثار، ثم اليوم الآخر وهو يوم الجزاء الحق، وهو يوم الخلود، تدور أيضًا دوائره ثوابًا أو عقابًا، ومن الدوائر صغار ومنها كبار، فدوائر اليوم الأول دارت علمًا دون زمان، بل بدوائر الدهر، ثم دوائر يوم الدنيا دارت بأعمالها في أماد أزمانها وسننها وشهورها وآياتها، ثم دوائر دار العرض تكون على قدر منازل العاملين:

فمنهم: من يدور ذلك اليوم عليه في مقدار خمسين ألف سنة.

ومنهم: من تدور دوائره عليه أوله في مقدار قصير لا يوصف بالطول، بالإضافة إلى عظم أوصاف شدائد ذلك اليوم وأهوال ذلك المطلع، وعلى التدريج بين ذلك.

وقد جاء أن منهم من يعرض على ربه فيقول الله ﷻ للملائكة: «**اعرضوا عليه صغار ذنوبه وغيبوا عنه كبارها**» فيقال له: «**عملت يوم كذا وكذا...**» وفيه: «**أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»[1].

ومنهم: من يدخل الجنة بغير حساب ولا توقيف، كما أن من الكفار من يدخل النار دون توقيف.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] ودوائر أعمال الأبدان لا بد أن تعود بعد بدئها كتدوار دوائر الليل والنهار في هذه الدار صدقًا وعدلاً، والفضل في ألَّا يشعر منها إلا بما شاء الله أن يشعره به ويوقفه عليه إكرامًا وتستيرًا عليه، وأن من عباد الله لمن يدخل الجنة بغير حساب كما في الكفار من يدخل النار بغير حساب، لكنهم يرون ذلك مستوسقًا في دار الخلود هؤلاء وهؤلاء

---

(١) أخرجه أحمد (٥٤٣٦)، والبخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٢٧٦٨)، والنسائي في الكبرى (١١٢٤٢)، وابن ماجة (١٨٣)، وابن أبي شيبة (٣٤٢٢١)، وعبد بن حميد (٨٤٦)، وابن حبان (٧٣٥٥)، والطبراني في الأوسط (٣٩١٥)، والديلمي (٥٥٣).

بقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

لا بد من ذلك، أما المؤمنون فيكرمون، وربما مرت عليهم كخطف البرق أو ما هو أسرع ولا يتصدى له، وربما رأى الكافر عملاً صالحًا قد عمله، وقد أعلم بأنه محبوط فهو لا ينتفع به؛ إذ لم يؤمن بالرجعة والعرض على الله - جل ثناؤه - والثواب فيعمل له وإن كان في الكفار من قيل فيه: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] فإنه - والله أعلم - لا بد من أن يراها خيرها وشرها ليتأكد أسفه وندمه، ثم دوائر الخلود تدور أبدًا سرمدًا عودًا بعد بدء أبدًا لأبد بما يعجبهم به، كما تقدم في قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

جاء عن رسول الله ﷺ من طرق صحيحة: أنه قال في هذه السورة: «**إنها تعدل نصف القرآن، أو هي نصف القرآن**»[1] ومعنى ذلك - والله أعلم: أنها في قسم النذارة، والقرآن والرسول بما جاء به إنما هو بشارة ونذارة، فعلى هذا يتخرج قوله: «**إنها نصف القرآن**».

قال الله - عز من قائل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢] المعنى وهو كثير دوره في القرآن.

---

(١) لم أقف عليه.

تفسير سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)﴾ [العاديات:١ - ١١].

قوله ﷻ: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾[١] [العاديات:١] أقسم الله ﷻ بالخيل تغدو في سبيل الله، والضبح: صوت في أجوافها عندما تريد الجري.

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ [العاديات:٢] توري النار بحوافرها عندما تصك الحجارة في العدو، والنقع: الغبار، والكنود: الكفور.

﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات:٧] نفسه تشهد بكفره ويظهر الله ذلك منه في الفاقة تصيبه والبلاء والأمر الجلل ينزل به فيرجع عند ذلك إلى التضرع لله وحده.

يقول الله - عز من قائل: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:٥٣] المعنى إلى آخره حيث وقع.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨] قد يكون المال، وقد يكون الجاه والحظوة والتقدم على الأقران وظهور الأمر، يقول الله ﷻ: وهو على شهادته على نفسه بالكفر لا يرجع إلى التوحيد المستكن في نفسه، وهو على حب المال والجاه والغنى والظهور والإكرام لا يرغب في خير الآخرة الذي هو جماع

---

(١) قال البقلي: أقسمَ الحقُّ سبحانه بأفراس قلوب المحبّين إذا ضُحبت بأصوات الوصلة من تراكم مواجيد المشاهدة في ميادين الوحدة، حين عاينت مشاهدة السرمدية، وهي الموريات أنوار المعارف من قداح الكواشف، ثم أقسم لواردات كُشوف صفاته حين أغارت أرواح العاشقين عند طلوع صباح مشاهدته.

مرغوبه، بل أربى على مأموله وهو خير وأبقى.

أتبع ذلك قوله - عز من قائل: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات:٩ - ١٠] وهنا محذوف تقديره - والله أعلم: إن كل إنسان مرتهن بعمله مجازى به، إن خيرًا فخيرًا وإن شرًا فشرًا، لذلك وهو أعلم أعقب بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات:١١].

وقرأ الحجاج: «أن ربهم بهم يومئذ خبير» ولا يحتاج على هذه القراءة إلى تقدير، وقد عدت هذه القراءة في خطاء الحجاج ولا تكاد تعطي معنى؛ إذ وصف وقوع العلم حين بعثرت القبور وتحصيل ما في الصدور، وذلك يعطيه المشاهدة يومئذٍ، ويعني يوم التكليف الآن دون إخبار عنه، وإنما قال ذلك يومًا على المنبر في بعض ما خطب به فقرر على ذلك بعد، فقال: حملني على ذلك كثرة واو النسق.

وكان يقال: إن الحجاج على كثرة اتساعه في الفصاحة كان لا يفرق بين «إن» و«أن»، والحق هو في القراءة بكسر «إن» وتقدير المحذوف، وهو ما عبر عنه العلم من حق يوم بعثرت القبور وتحصل ما في الصدور.

تفسير سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة:١ - ١١].

﴿الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١] اسم من أسماء القيامة، عظم ذكرها وعجب بها؛ لعظم هولها وشدة بأسها، جعلنا الله من هولها من الآمنين برحمته.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة:٤] هو حيوان يطير لا دم له، يجتمع للسراج ولضوء النار، يتهافت فيها وقوعًا، شبه الناس يومئذٍ بهذا الحيوان لكثرة سقوطهم في النار كما شبههم به في تهافتهم في الكفر في سورة البقرة.

﴿وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ المَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥] العهن: الصوف المصبوغ منه، ولما كانت الجبال على ألوان شتى كما قال الله - عز من قائل: ﴿وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر:٢٧] كانت لذلك في حرف ابن مسعود وابن جبير: «كالصوف المنفوش» وروى بقية بن الوليد عن محمد بن بهار قال: أدركت السلف وهم يقرءون هذا الحرف في القارعة: «وتكون الجبال كالصوف المنفوش».

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾(١) [القارعة:٨ - ٩] هاوية:

---

(١) اعلم أن ثقلة الموازين عبارة عن: وجود الأعمال الرزينة لها التي لها وزن عند الله، وقدر دلَّ عليه العيشة الراضية؛ لأن عيشة الرجل في الجنات؛ إنما هي بأعماله؛ لأن درجاتها ونعيمها =

اسم من أسماء جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - وأمه على هذا التأويل: مأواه، قال الله ﷻ: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الحديد:١٥] وهذا - والله أعلم - تعريض بأنه منها خلق كما الولد مخلوق عن أمه، فكما خلقه منها يعيده إليها.

يقول الله - عز من قائل: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾ [القارعة:١٠] الهاوية هي ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة:١١] والمأوى يكون بعد البرزخ، والدار الآخرة: هي دار القرار وكل موجودات الآخرة من الجنة وجهنم، ففي دار البرزخ من ذلك الوجود وجود، والآخرة أكبر وشأنها أعظم، وأمه أيضًا رأسه، وهو أعلاه، يهوي ذلك منه في الهاوية، وخاتمة السورة قد أعلمت بصحيح التأويل الأول والثاني كائن لا بد ولا محالة لمن دخلها، نسأل الله معافاته ورحمته.

مقسومة بقدرها؛ فهو إنما يدخل بثقل الموازين جنة الأعمال، وخفة الموازين عبارة عن: عدم الأعمال المقبولة دلَّ عليه قوله: فأمه هاوية؛ لأن الله لا يقيم لمَن خفت موازينه يوم القيامة وزنًا ومقدارًا؛ فيهوى في النار التي هي أصله؛ لأن كل ظلمة، وظلماني؛ إنما هو من النار، كما أن كل نور، ونوراني؛ إنما هو من الجنة، وفيه إشارة إلى أن الأعمال تتجسَّد يوم القيامة؛ فيكون لها ثقل وخفة، كما ذهب إليه أهل الشرع؛ لأن الأعراض لا تُوصف بذلك، وكان الظاهر أن تكون ثقلة الموازين بسيئات الأعمال؛ لتهبط بصاحبها إلى النار التي في الأرض السافلة، وأن يكون خفتها بصالحات الأعمال؛ لتصعد بصاحبها إلى الجنة التي في السماء العالية؛ لكن أُعتبرت الثقلة بالصالحات، والخفة بالطالحات؛ لأن الجسم هو الذي يتَّصف بالثقل، والخفة، فوجود الصالحات مما يقتضي جسامتها، ووزنها، وقدرها.

تفسير سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ١ - ٨].

قال علي ﷺ: مازلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١].

وقال أبو هريرة: لما نزلت هذه الآية من هذه السورة ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨] قال الزبير: يا رسول الله، عن أي النعيم نسأل وإنما هما الأسودان والعدو حاضر وسيوفنا على عواتقنا؟ قال: «**إن ذلك سيكون**»[١].

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أولى ما يسأل عنه العبد يوم القيامة** - يعني: من النعيم - **أن يقال له: ألم نصح لك جسمك ونرويك من الماء البارد**»[٢].

التكاثر: هو كل ما ألهى عن الاستعداد للموت من مال وأهل وولد وخول وأعوان وبناء من غير ضرورة.

يقول الله - جل من قائل: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١] أي: عن الاستعداد للموت وللقاء الله حتى جاءكم الموت دون عدة وعبر بقوله: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:٢] تعريضًا بالبعث؛ إذ الدائر راجع.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣] إذا متم ووقفتم على أعمالكم سيئها وحسنها وعيد من الله شديد لما يصيرون إليه طول مدة البرزخ.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٤] إذا حشرتم إلى الله فرادى عراة حفاة

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٥٨) وقال: غريب. والحاكم (٧٢٠٣) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في شعب الإيمان (٤٦٠٧)، والديلمي (١٩).

وجوزيتم بأعمالكم بأمر الحكم العدل الذي لا يجور.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥] ما تقفون عليه بعد الموت، كما قال رسول الله ﷺ: «**يا أمة محمد، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا**»(١).

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر:٦] كما قال: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٩٢-٩٦] فقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥] لك تشغلوا أنفسكم بغير ما خلقتم له.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾(٢) [التكاثر:٧] يعني: يوم القيامة إذا ﴿أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء:٩٠ - ٩١].

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨] هذا خطاب ظاهره الوعيد، وأنه المواجه به الكفار بقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر:٦] وفيه أيضًا تعريض بأن المواجه به أهل الغفلة من المؤمنين، فمفهومه على تخليصه للمؤمنين: ألهاكم التكاثر أيها المؤمنون عن التنافس في علو الدرجات والمسابقة إلى الله بالأعمال الصالحات ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣] أي: بعد الموت ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٤] بعد البعث؛ إذا أنتم عاينتم السابقين والمقربين وما لهم، وما أثابهم الله تعالى به من أجل جدهم واجتهادهم من إكرام وتقريب، ووقفتم بالعلم على حقيقة التخلف.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣] قدر البون بين ثواب السابقين والمتخلفين المتثبطين لأسرعتم، ولما شغلتكم الشواغل عما ادخر لهم لترون جنات النعيم في

---

(١) أخرجه مالك (٤٤٤)، وأحمد (٢٥٣٥١)، والبخاري (٩٩٧)، ومسلم (٩٠١)، وأبو داود (١١٨٠) والنسائي (١٤٧٤)، وابن ماجة (١٢٦٣)، وابن الجارود (٢٤٩) وابن خزيمة (١٣٨٧).

(٢) قال الورتجبي: و«حقيقة اليقين» و«حق اليقين»: أن يعرف العبد أنه يرى جحيم قهر القدم الذي كان الحق موصوفًا في الأزل، ولم يصل إلى بطنان كنهه؛ لأنه الحدث والحق قديمٌ، وأنَّى يصل الحدث إلى القدم أبدًا؟! قال الخراز: «عين اليقين»: هو أن يرفع الحجب عن قلوبهم بتجلٍّ لأرواحهم وأسرارهم، ويكشف عن أوهامهم حتى يروه عين اليقين، فيرجعوا عنه سكارى، وينتهوا عنه حيارى. قال بعضهم: «عين اليقين»: عين البقاء.

دار البرزخ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٧] يوم العرض على الله ﷻ يوم تزلف الجنة للمتقين ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨] الشاغل لكم الآن في هذه، ثم لتدخلنها بما كنتم تعملون.

وحقيقة الخطاب: أنه إنذار ووعيد شديد لأهل الكفر، ووعظ لأهل التخليط من الموحدين، ونصيحة واستنهاض للأولياء المخلصين ألا يشغلهم عن الله الإطراق إلى عاجل الدنيا، وإعلام بما في دار البرزخ من جزاء وما في الدار الآخرة من ذلك، وأن الأمر ينشأ مما هو هنا إلى ما بعد الموت، ثم إلى ما بعد البعث، ثم في الدار الآخرة على طول الآباد نشء ومزيد لهؤلاء وهؤلاء، عبر عن ذلك قوله الصدق: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:٣٠] وقوله في شأن السعداء - رضي الله عنا وعنهم: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

قال رسول الله ﷺ يومًا لأصحابه وقد أكلوا خبزًا وتمرًا وشربوا ماء باردًا على حاجة مستهم لذلك: «**لتسألن عن نعيم هذا اليوم**»[1].

وشفاء علة الغفلة: التيقظ، ثم الذكر والاستعداد والإيناس وقطع العلائق بنبذ الشواغل إلى ما لا بد منه، ثم الجد والاجتهاد والتحبب إلى الله ﷻ بحب لقائه، والخروج إليه من سجن ما هو فيه، والراحة من دار المحنة والعدى والشفاء من علة تباعات النقم إعمال النفوس في الشكر.

قال الله ﷻ: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل:١١٤] كما الشفاء من علة تباعات الناس رد المظالم إلى أهلها والاستغفار من الذنوب، والاستغفار والدعاء لمن يخاف تباعته؛ إذا لم يجد ما يؤديه إليه أو إلى من يجب له ذلك من بعده.

(١) أخرجه مالك (١٧٠١).

تفسير سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:١ - ٣].

﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر:١] الدهر المفصول منه الزمان، والله أعلم، أقسم الله به كما يقسم بما شاء من مخلوقاته، وكل ذلك راجع إلى القسم به - جلَّ ذكره - وبأسمائه وصفاته وأفعاله الموجودة عن قدرته وعلمه ومشيئته، وربما كان قسمًا بمدة أمة محمد ﷺ من يوم الدهر، فإن مدتها من يوم من أيام الدهر بمقدار وقت العصر من هذه الأيام إلى الليل فقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[1] [العصر:٢] ما لم يعمل بطاعة الله وفي طلب رضوانه بالإيمان لله والإسلام له، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وقد تقدم هذا في سورة النساء.

---

(١) هذا جواب القسم. الخسر والخسران: النقصان، وذهاب رأس المال، والمعنى: إن كل إنسان في المتاجر والمساعي وصرف الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص وضلال عن الحق حتى يموت. وقيل: المراد بالإنسان: الكافر. وقيل: جماعة من الكفار؛ وهم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، والأوّل أولى لما في لفظ الإنسان من العموم، ولدلالة الاستثناء عليه. قال الأخفش: ﴿فِي خُسْرٍ﴾ في هلكة. وقال الفراء: عقوبة. وقال ابن زيد: لفي شرّ. قرأ الجمهور: «**والعصر**» بسكون الصاد. وقرءوا أيضًا: «**خسر**» بضم الخاء وسكون السين. وقرأ يحيى بن سلام: «**والعصِر**» بكسر الصاد. وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى: «**خسُر**» بضم الخاء والسين، ورويت هذه القراءة عن عاصم. فتح القدير (٨/٥٦).

تفسير سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩)﴾ [الهمزة: ١ - ٩].

الهمز يكون بالغيب، واللمز بالمواجهة، وقد قيل: إن الهمز بالمواجهة واللمز بالغيب، أخبر الله - جلَّ ذكره - عن جهل الإنسان حيث يجمع المال بعضه إلى بعض وينسى أن يستعد للموت، وأن يجمع ما يعده ليوم اللقاء.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾[1] [الهمزة:٣] واستاق ذكر الخلود على بناء الماضي وهو جائز سائغ.

---

(١) جملة حالية أو استئنافية وأخلده وخلده بمعنى؛ أي: تركه خالدًا؛ أي: ماكثًا مكثًا لا يتناهى، أو مكثًا طويلاً جدًّا. والكلام من باب الاستعارة التمثيلية، والمراد أن المال طول أمله ومناه الأماني البعيدة، فهو يعمل من تشييد البنيان وغرس الأشجار وكرى الأنهار ونحو ذلك عمل من يظن أنه ماله أبقاه حيًّا، والإظهار في مقام الإضمار؛ لزيادة التقرير والتعبير بالماضي للمبالغة في المعنى المراد، وجوَّز أن يراد أنه حاسب ذلك حقيقة؛ لفرط غروره واشتغاله بالجمع والتكاثر عما أمامه من قوارع الآخرة أو لزعمه إن الحياة والسلامة عن الأمراض والآفات تدور على مراعاة الأسباب الظاهرة، وإن المال هو المحور لكرتها، والملك المطاع في مدينتها، وقيل: المراد: إنه يحسب المال من المخلدات، ولا نظر فيه إلى أن الخلود دنيوي أو أخروي ذكرًا أو عينًا، إنما النظر في إثبات هذه الخاصة للمال، والغرض منه التعريض بأن ثم مخلدًا ينبغي للعاقل أن يكب عليه؛ وهو السعي للآخرة، وهو بعيد جدًّا، ولذا لم يجعل بعض الأجلة التعريض وجهًا مستقلاً، وزعم عصام الدين أنه يحتمل أن يكون فاعل أخلد الحاسب، ومفعوله المال أن يظن أن يحفظ ماله أبدًا، ولا يعرف أنه معرض للحوادث أو للمفارقة بالموت كما قيل: «بشر مال البخيل بحادث أو وارث» وهو لعمري مما لا عصام له . تفسير الألوسي (١٢٥/٢٣).

قال رسول الله ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله، مخلصًا من قلبه دخل الجنة**»(١).

وإلى هذا فإن الله ﷻ يخبر بلفظ الماضي عن المستقبل، وبلفظ المستقبل عن الماضي؛ لاستواء ذلك في علمه وقدرته، ولاستواء ذلك عنده في التقدير الأول جاز للعبد أن يعتقد في ذلك أن قول: «لا إله إلا الله» مخلصًا من قلبه فقد دخل الجنة، وأن استعداده الآن للقاء الله أخلده في جواره؛ لقول الله - جل ثناؤه: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى**﴾ [الليل:٥-٧].

وقد يسره ربه لهذا، فقد وقع له العلم بإنجاز وعد الله - جلَّ ذكره - له ولم يبق عليه إلا خوف الخاتمة، فعليه يدور قطب التفسير فافهم، وقرأها الضحاك: «جمع مالاً وعَدَدَهُ» بالتخفيف؛ أي: عشيرته وقوته وأنصاره.

وروي عن النبي ﷺ أنه قرأ: «**أيحسب أن ماله أخلده**»(٢) بزيادة همزة.

يقول الله ﷻ: ﴿**كَلَّا**﴾ أي: ليس كما ظن ﴿**لَيُنْبَذَنَّ فِي الحُطَمَةِ**﴾ [الهمزة:٤] النبذ: الترك، الحطمة قد فسرها، وقرأ الحسن: «كلا لينبذان في الحطمة» أي: الرجل وماله أو الرجل وما عدده، وقرأ الأشهب: «لينبذان» أي: هو وقرينه، وقرأ الحسن: «الحاطمة» وأرى أن الحاطمة والحطمة هو في جهنم حيث تزدحم أنواع العذاب وتتداخل الأهوال والآلام، نعوذ بالله من عذابه ما قل منه وما كثر.

يقول الله - جل من قائل: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحُطَمَةُ * نَارُ اللهِ المُوقَدَةُ**﴾ [الهمزة:٥ - ٦] وقال: ﴿**وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [البقرة:٢٤] وإنما وصفها بأنها ناره الموقدة وأضافها إليه؛ لعظيم خطر ما هنالك بالإضافة إلى غيرها منها، وهو أيضًا حيث يكثر الوقود، وهم الناس، ولذلك ما وصفها بأنها موقدة.

وقال - عز من قائل: إنها ﴿**تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ**﴾ [الهمزة:٧] ربما كان من حكم الله بهم وفيهم ألَّا تأكل النار قلوبهم، وهي المكنى عنها بالأفئدة؛ لأن ذلك من العبد موضع مغرز الفطرة، وفي القلوب ينظر الملائكة والمؤمنون - على جميعهم السلام - وفي النار ما بقي فيهم من خير ومن إيمان.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٩٧)، والطبراني في الأوسط (١٩٧٣).

يقول الله - عز من قائل: اخرجوا من النار، من قال: «لا إله إلا الله» وفي قلبه من الإيمان ما يزن كذا أو من الخير كذلك فهي على مفهوم هذا الخطاب - نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا وفي الآخرة - تحرق اللحوم والعظام إلى أن تطلع على الأفئدة، ثم تجدد لهم لحوم وجلود غيرها؛ ليذوقوا العذاب، ويكون حسب القلوب وجد أنواع الآلام والخزي والعذاب، وبالقلوب يجدون ما يعملونه من عظيم ما هم فيه، وفظيع ما أحاط بهم، ومقدار ما فاتهم من رضوان الله وجزيل ثوابه وكريم جواره، فربما كان حسب الأفئدة والقلوب ما نجده من ذلك من إحراق أجسامها وإيقادها في النيران حتى تطلع النار على الأفئدة، ثم يعادون إلى أولهم، ثم تأكلهم النار هكذا أبدًا، والله عليم حكيم.

ومن المعهود في هذه الحياة أن شدة الوجع إذا بلغ إلى الفؤاد مات صاحبه، فأخبر الله سبحانه أنهم أبدًا في حال من يموت وهم لا يموتون، وإذا بلغت بالإحراق إلى الأفئدة بدلوا جلودًا أو لحومًا غيرها هكذا أبدًا، نعوذ بالله من أحوالهم في الدنيا وفي الآخرة وفيما بين ذلك.

أتبع ذلك قوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة:٨ - ٩] أي: معلقة في عمد ممدة، قيل: تلك العمد هي طرقات حربتها، أو تكون صفة لغلق أبوابها، والله أعلم.

قيل: إن جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - بما هي لها عمد ممددة من أقطارها إلى أقطارها قد تخللها، وملائكة العذاب يمرون على تلك العمد أنها تقوم فيما هنالك مقام القوى للأجسام ومقام مسالك الحق المبثوث في العالم، ولمالك خازنها الأكبر بكل نفس من أهلها يد باطشة وعين ناظرة ما ضحك يومًا قط إنما هو خائف لربه غاضب أبدًا على من وكل بعذابه، وربما صاح صيحة على جهنم ومن فيها فتموج أهوالها وتضطرب، ويتداخل بعضها في بعض ويتضاعف سعيرها.

وقرأ هارون في حرف أُبي: «أنها عليهم مطبقة بعمد ممددة» وروي عن الأعمش: «أنها عليهم موصدة بعمد ممددة».

تفسير سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل:١ - ٥].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ﴾ [الفيل:١] هذا منتظم المعنى - والله أعلم - بمعنى قوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا البَلَدِ﴾ [البلد:٢] يفتحه عليك تدخله بالسلاح غير محرم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ﴾ [الفيل:١] جاء أن مقدم الفيل إلى الحرم ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ثمانمائة وثمانين لذي القرنين، وولد النبي ﷺ بعد كائنة الفيل بخمسين يومًا، وكان مولده لثمان خلون من ربيع الأول يوم الإثنين، وبين الفيل والفجار عشرون سنة، وبين الفجار وبنيان الكعبة خمس عشرة سنة، وبين بنيان الكعبة ومبعث النبي ﷺ خمس سنين، قال: فكان يقع الحجر على أحدهم فتأكل النار جميع جسده سوى الجلد الظاهر مثلما تأكل السوسة داخل الحنطة ويبقى غشاؤها فارغًا، وهو العصف.

وقصة أصحاب الفيل مشهورة، كان يكنى ملكهم بأبي يكسوم، حبشي قصد البيت ليهدمه بالحبشة، فأرسل الله عليهم سحابة من طير جاءت من قبل البحر مع كل طائر ثلاثة أحجار - قيل: في حجم العدس - فما بقي أحد من العسكر إلا أصابه منها حجر يقع في أعلاه وتنفذ من الجانب الآخر، وأهلك الله على ذلك جمعهم.

والأبابيل: العصائب تتبع بعضها بعضًا، والعصف: التين، وقيل: ورق الزرع المحنوط، وقد قيل: هو الطعام الذي يجوفه الدود، والعصافة: ورقة الحنطة، سورة الفيل منتظم معناها زائدًا إلى ما تقدم ذكره بمعنى قوله الحق - عز جلاله - فيما

وصف به عذاب المذكورين في سورة الهمزة، وإن النار تطلع منهم على الأفئدة بعد إحراقها سائر أجسامهم، فهي متى بلغت ذلك منهم حددوا، والنار تتحامى الأفئدة لمكان إيمان الفطرة، فنظم بهذا المعنى قوله الحق: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل:١] أي: الذين قصدوا بيتي الحرام.

ونظم بذلك قوله: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش:١] أي: الذين يحرموا بالبيت جعل ذلك آية على حمايته الإيمان، وحامليه من عذاب الآخرة إلا بحقه في ذلك.

تفسير سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾ [قريش:١ - ٤].

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش:١] هذا منتظم بسورة الفيل، وقيل: إنها كانت موصولة بها ذكرهم بنعمته عليهم بصرف الحبشة عنهم، يقول: فعلنا ذلك ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش:١] وقرأها عكرمة: «لتألف قريش ألفهم» بكسر الفاء، ورويت عنه: «ألفهم» بفتحها والهاء مرفوعة من غير ياء، وروي الوجهان جميعًا عن ابن كثير إذ كانوا يألفون في كل عام على رحلتين: رحلة في الشتاء، ورحلة في الصيف، إحداهما إلى اليمن، والأخرى إلى الشام.

نظم بذلك قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ بالرحلتين ويجلب كل الثمرات إليهم رزقًا من لدنه ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:٣ - ٤] بأن جعلهم في حرم آمن والناس يتخطفون من حولهم، وكانوا في حال أسفارهم آمنين لا يهاجون تعظيمًا من الناس لهم لسكناهم في حرم الله، يقال: هذا حرمي فيسلم في نفسه وماله ويؤخذ غيره.

روي عن النبي ﷺ أنه قرأها: «**ويل أمكم قريش ألفهم رحلة الشتاء والصيف ويحكم يا معشر قريش اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع وَآمَنَكُمْ من خوف**»[1]. وروي عنه أنه قرأها: «**وي أمكم قريشًا**».

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٨٣٧٤) والطبراني (١٩٩٦٢).

وروي عنه أنه قرأ: «للإيلاف قريش ويل أم قريش إيلافهم». وقرأ حيوة: «**إلافهم**» بتشديد اللام[١].

(١) قال الطبري في تفسيره (٦١٩/٢٤): اختلفت القرّاء في قراءة: ﴿**لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ**﴾ فقرأ ذلك عامة قرّاء الأمصار بياء بعد همز لإيلاف وإيلافهم، سوى أبي جعفر، فإنه وافق غيره في قوله: ﴿**لِإِيلَافِ**﴾ فقرأه بياء بعد همزة، واختلف عنه في قوله: ﴿**إِيلَافِهِمْ**﴾ فروي عنه أنه كان يقرأه: «**إِلْفِهِمْ**» على أنه مصدر من ألف يألف إلفًا، بغير ياء. وحَكى بعضهم عنه أنه كان يقرؤه: «**إِلَافِهِمْ**» بغير ياء مقصورة الألف. والصواب من القراءة في ذلك عندي: من قرأه: ﴿**لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ**﴾ بإثبات الياء فيهما بعد الهمزة، من آلفت الشيء أولفه إيلافًا، لإجماع الحجة من القرّاء عليه. وللعرب في ذلك لغتان: آلفت، وألفت، فمن قال: آلفت بمدّ الألف قال: فأنا أؤالف إيلافًا، ومن قال: ألفت بقصر الألف قال: فأنا آلف إلفًا، وهو رجل آلف إلفًا. وحكي عن عكرمة أنه كان يقرأ ذلك: «لتألف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف». حدثني بذلك أبو كُرَيب، قال: ثنا وكيع، عن أبي مكين، عن عكرِمة، وقد رُوي عن النبي ﷺ في ذلك عن أسماء بنت يزيد، قالت: سمعت النبي ﷺ يقرأ: «إِلْفَهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ».

تفسير سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ١ - ٧].

في قراءة ابن مسعود: «أرأيتك الذي» وقرأها كذلك الأعمش ﴿يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ [الماعون: ١] أي: بالجزاء.

﴿يَدُعُّ﴾ أي: يدفع جعل - عز جلاله - كونه دفع ﴿الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢] فترك الحنق عليه والرفق به، وتركه إطعام المسكين والحض عليه والتوصية به علامة على تكذيبه بالدين؛ أي: بالجزاء في الدنيا والآخرة، وكفى بذلك داء، لذاك قال رسول الله ﷺ: «**وأي داء أدوأ من الشح**»[1] وفي أخرى: «**من البخل**»[2] فإياكم إياكم.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤ - ٥] ليس هذا بالسهو الذي هو الذهول، بل هو الذي يتلهي عن صلاته حتى يذهب وقتها، أو يتلهي عنها في حال الصلاة، وقرأها ابن مسعود: «الذين هم عن صلاتهم لاهون الذين هم إنما يراءون» وقرأ أبو رجا: «يدَعُ اليتيم» بفتح الدال وتخفيف العين؛ أي: يدعه فلا يعطيه ولا يطعمه.

قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧] كل ما أعان على الرفق فهو ماعون، وكل مانع ماله مما ليس عليه بواجب فليس بمستحق للويل، وإن كان ذلك بغض منه إلا أن من الناس من تكون تلك سجيته فيمنع رفده وماعونه، ويكثر ذلك

---

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٣/٨٢٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٦١٠)، والبخاري (٢١٧٤)، ومسلم (٢٣١٤)، والبيهقي (١٢٥٢٥).

منه فيسقط بذلك عن صفة الكرم إلى صفة البخل والشح بما أتاه الله من فضله، فيستحق بذلك أن يعامل في الحساب بأن يمنعه الله من فضله، ويشدد عليه ويناقشه الحساب، ولا يكون محبوبًا عند الله وعند ملائكته والمؤمنين، ومن لم يكن محبوبًا نوقش الحساب، ومن نوقشه هلك، ويقال له يوم القيامة: «**اليوم أمنعك فضلي كما منعت عبادي فضلك**»[1].

وصغار الذنوب متى كانت خلقية جرت مع المداومة عليها إلى كبارها، وكبارها على ذلك تجر إلى الكفر - نعوذ بالله العظيم من السقوط من عين الله جلَّ ذكره - فهكذا يتطرق إليه الويل فافهم، ومن جعل الله - جلَّ ذكره - دع اليتيم دلالة على التكذيب بيوم الدين والرفق باليتيم مما يعده في الإحسان، ولما كان هذا قد رغب عن جزيل الثواب فأعرض عنه ولم يرغب فيه ولا عمل له جعله مكذبًا بيوم الدين من أجل ذلك، فكذلك منع الماعون، وإن كان ذلك الممنوع بعينه ليس مفروضًا بذله وهذا معدود في فرض الكفاية، وذلك في فرض الأعيان، فالمسترسل في منع ما ليس عليه بواجب على الولاء مضيع فرضًا واجبًا، ومع استصحاب ذلك معدود في التكذيب كذلك المصلون.

قال رسول الله ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك** تراه، **فإنك إلا** تكن تراه **فإنه يراك**»[2] وهي منزلة رفيعة توجب محبة الله - جلَّ ذكره - فالمصلي إذا كان في حال صلاته مستشعرًا أن الله - تبارك وتعالى - مناجيه ومواجهة حركاته فيها مصاحبة لنيته وحسن توجهه بخضوع وخشوع واستصحاب طلب مرضاة ربه في إخراج أفعاله وحركاته بحضور وشهود قلب كان محسنًا، وهذا هو المراد من العبد، وما عدا ذلك وقصر عنه فهو عفو مع استصحاب المجاهدة، يكتب له على ذلك نصف صلاته، ربعها، سدسها، إلى عشر وما بعد العشر - والله أعلم - هو حال المرائين، كما قال جل من قائل: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء:١٤٢] فالويل لهؤلاء صريحًا، ثم هم درجات في التقدم والتأخر من المنزلة العليا إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٤٠)، ومسلم (١٠٨)، وابن حبان (٤٩٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (٩٤٩٧)، والبخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، وابن ماجة (٦٤).

الذي إنما قسم له من صلاته العشر مع وجود إهمال النفوس ذلك قوله - والله أعلم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون: ٤-٦].

تفسير سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر:١ - ٣].

قرأها الحسن: «إنا أنطيناك الكوثر» وروت ذلك أم سلمة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ، وروى ذلك حماد بن سلمة أنه قرأها في مصحف أُبي، الكوثر على وزن فعلل، من الكثير، فهو إذًا: الخير الكثير.

سئل رسول الله ﷺ عنه فقال: «**هو نهر في الجنة أعطانيه ربي عليه خير كثير**»[1] فهو في الجنة بعينه معلوم فيما هنالك، ولا كثير أكثر من كثير الجنة، وما أعطيه رسول الله ﷺ فلأمته منه قسم بحكم التبعية، ألا ترى أن حوضه في عرضة المحشر من فيض الكوثر قال : ﷺ «**يصب فيه ميزابان من الكوثر**»[2] وفي أخرى: «**من الجنة آنيته عدد نجوم السماء**»[3].

وقد تقدم ذكره وذكر تأويله في الوجود في هذه الدار، وأن الحوض مثاله في الدنيا سنته، فمن عمل بها لم يظمأ أبدًا؛ لأنه يشرب يوم العطش من الحوض، وذكر النجوم مقرونًا بآنيته تأويله علماء أمته المبلغين عنه المبينين مراده عن ربه - عز جلاله - المعلمين علمه، وكان المشركون يقعون في رسول الله ﷺ ويتربصون به فيقولون: إنه صنبور كما قال الله - جل من قائل: ﴿يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور:٣٠] والصنبور: النخلة المفردة الضعيفة الأصل.

يقولون أيضًا: إنه أبتر؛ أي: لا عقب له، تشابهت قلوبهم وأقوالهم، كذلك قال من قبلهم مثل قولهم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤٤).

(٢) ذكره العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/٢١٩).

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (٢١٣٦٥).

[المؤمنون:٢٥] فأنزل الله - جلَّ ذكره - عليه هذه السورة في معنى ما كانوا يقولون ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:١] في مقابلة قولهم: إنه صنبور وأبتر، يقول: قد أعطيناك في الدنيا الجمع الكثير والجم الغفير يدينون دينك ويستنون بسنتك إلى يوم القيامة، ووصلنا ذلك لك بالحوض في القيامة وبمنبعثه في دار القرار.

قوله ﷻ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾(١) [الكوثر:٢] أي: اعبده وتوكل عليه.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: مبغضك القائل فيك: ﴿هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:٣] لا يعقبه من يقوم بأمره ويدين بدينه.

قيل: إن قائل ذلك كان العاصي بن وائل السهمي، فأسلم ولده وعقبه، وكانوا فيمن أقام أمر الله ودينه، والحمد لله رب العالمين، فكان هو الأبتر، وأما النحيرة: فجاء أنها وضع اليمين على الشمال في الصلاة قبالة النحر، وقيل: هي رفع اليدين في تكبيرة الإحرام وعند الركوع وعند الانحطاط من القيام بعد الركوع إلى السجود.

جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال حين نزول هذه السورة عليه: «**يا جبريل، ما هذه النحيرة التي يأمرني بها ربي؟** قال: وضع اليد اليمنى على اليسرى في الصلاة، قال:

---

(١) قال ابن العربي: أي: إذا صليت الخمس فاجعل يدك على نحرك، وقيل: إذا صليت العيد فانحر الضحايا. قال مالك: ما سمعت في ذلك شيئًا، والذي وقع في نفسي أن المراد بذلك صلاة الصبح يوم النحر. قال علي بن أبي طالب: المراد بذلك، ضع يدك اليمنى على ساعدك اليسرى، وقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ هو الخير الكثير، وقيل: هو نهر في الجنة، ترابه مسك، وعدد آنيته كنجوم في السماء. أما أن يوازي هذا في صلاة النحر وذبح كبش أو بقرة أو بدنة، فذلك بعيد في التقدير والتدبير وموازنة الثواب للعباد، والله أعلم، والأصل في الهدي قصة إبراهيم في ذبح ولده إسماعيل، وقد اختلف في الضحايا، فقال أبو حنيفة، وابن حبيب: إنها واجبة لقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ والأمر على الوجوب، وقال ابن المواز: هي سنة مؤكدة، والمشهور أنها مستحبة، وفي الحديث: ضحى رسول الله ﷺ والمسلمون كما قال وأوتر رسول الله ﷺ فأوتر المسلمون، وفي أبي داود: إن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت بيوم الأضحى عيد جعله الله لهذه الأمة**». وروي أن أبا بكر وعمر كانا لا يضحيان عن أهلهما، خشية أن يستن بهما. تنبيه: من عجيب الأمر أن الشافعي قال: من ضحى قبل الصلاة أجزاه، وهذا ضعيف؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ فبدأ بالصلاة قبل النحر، وروى البخاري أن النبي ﷺ قال: «**أول ما نبدأ به في يومنا هذا، أن نصلي، ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب نسكنا، ومن ذبح قبل، فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء**». [الأحكام الصغرى ص٦٣٧].

ولكل شيء زين، وزين الصلاة: وضع الأيمان على الشمائل، وهذه صلاتنا معشر الملائكة»[١].

أما رفع اليدين عند التكبير فدلالة على الاستسلام وظاهر للتبرئ من الحول والقوة ولا لإدفاع عند فاعل ذلك ولا انتصار، وأما وضع اليد اليمنى على اليد اليسرى حال القيام فهو ظاهر صورة الذل بين يدي عزه، يشعر بذلك نفسه أنه قائم بذله وفقره بين يدي جبار الجبابرة وقيوم الدنيا والآخرة.

وأما قرن الأيدي كذلك رفعًا وإمساكًا لها على النحر وتسمية هذين الفعلين بالنحيرة فهو ظاهر لمشار إليه واجب كونه في الباطن هو إحضار النية على ما تقدم ذكره ومداومة ذلك، وساكن النحر منه هو قلبه وفؤاده وعقله، وهو المطلوب منه وفعله ما عبر عنه قوله ﷺ: «**إن المصلي يناجي ربه، فلينظر أحدكم بما يناجيه أو كيف يناجيه؟**»[٢] وقوله: «**إذا صلى أحدكم فإن الله قبل وجهه إذا صلى، وإن الله مواجهه**»[٣] فهذا كله إشارة بالظاهر إلى ما هو المطلوب الأعلى بالباطن.

كما جاء في الرجل التائب الذي قتل مائة نفس وأمر أن يخرج من قريته الفاسدة إلى القرية الصالحة ففعل، ولما كان في الطريق جاءه الموت فقيس ما بين القريتين لأجل تخاصم الملائكة فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فوجدوه أقرب إلى القرية الصالحة بشبر، فقيل: إنه ناء بصدره، وهذه عبارة عن فعله بنيته مع حركة منه بصدره إلى جهة المطلوب.

وجاء في حديث اختصرته: «**أن موسى ؑ دعا ربه ﷻ لما رضاه بالموت أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر**»[٤] فمعنى هذا هو: أن يعمل ظاهره جهده وينوء بقلبه ونحره وبنات صدره إلى ما عجز عنه، ورب هذا المصلى مواجهه فليحسن ظاهره، وليعمل بنات نحره في مشاهدة مراقبته وتحسين مواجهته إياه،

---

(١) أخرجه الحاكم (٣٩٨١)، والبيهقي (٢٣٥٧).

(٢) أخرجه مالك (١٧٧).

(٣) أخرجه بنحوه الطيالسي (١٨٤٣)، وأحمد (٥٤٠٨)، والبخاري (٥٧٦٠)، وأبو داود (٤٧٩)، وابن ماجة (٧٦٣)، ومسلم (٥٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٧٤)، ومسلم (٢٣٧٢)، والنسائي (٢٠٨٩).

والحرص على لقائه والسير إليه، يقول: فبذلك تنال ما أعطيناك الذي هو الكوثر.

قال رسول الله ﷺ: «**هو نهر في الجنة حافتاه قباب اللؤلؤ، ومجراه على الدر والياقوت، حاله** - يعني: طينه - **أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأشد بياضًا من الثلج**»[١].

وبالجملة: فمعنى الكلام: صلِّ لربك واعبده واذكر بلسانك وقلبك ونفسك، واحرص على لقائه وتوله فإنه وليك، وعلى ذلك فلست بصنبور ولا أبتر، كما يقولون: الله معك والملائكة وصالح المؤمنين، إنما الأبتر هو مبغضك، والتناحر هو: التقابل، يقال من ذلك: بنو فلان تتناحر منازلهم؛ أي: تتقابل، والمتناحران: المتقابلان، والمواجه: مناحر، فافهم.

---

(١) أخرجه بنحوه الطيالسي (١٩٣٣) وأحمد (٥٣٥٥) وهناد (١٣١) والترمذي (٣٣٦١) وقال: حسن صحيح. وابن ماجة (٤٣٣٤) وابن المبارك (١٦١٣) وابن أبي شيبة (٣١٦٦٢) والديلمي (٤٩٣٢).

تفسير سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون:١ - ٦].

قيل: إن قريشًا راموا رسول الله ﷺ على أن يتوسط معهم أمرًا بين أمرين فيعبد هو ما يعبدون تارة، ويعبدون هم ما يعبد هو تارة، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ﴾ أي: الآن ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:١ - ٢] الآن في حال كفركم.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ [الكافرون:٤] هذه بشارة من الله - جلَّ ذكره - له بأنه لا يضله بعد الهداية، وكذلك قوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أي: في المستقبل ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٥] أيأسهم الله - جلَّ ذكره - من أن يعبد رسوله ﷺ والمؤمنون إن شاء الله ما يعبدونه أو يعبدون هم ما يعبده الرسول والمؤمنون في الماضي والمستقبل، والحال هذا فيمن سبق في علم الله أنه لا يتوب عليه منهم، وهذه براءة صحيحة بتلة من الكافرين ومن كفرهم.

قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورة الكافرين عدلت بربع القرآن**»[1] ذلك - والله أعلم - أن البراءة من الكفر شطر، ومجانبته بالأفعال والأعمال شطر، كذلك الإيمان شطران: علم وولاية، وهذه السورة براءة من الكفر، فعدلت بربع القرآن، وقد جاء - والله أعلم - أنها سدس القرآن، وسورة الإخلاص ثلث القرآن، وسورة الكافرين براءة من الكفر والكافرين، فهي سدس القرآن حقيقة.

كذلك قال: «**من قرأ سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ [الزلزلة:١] عدلت له بنصف**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٩٣) وقال: غريب. والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥١٦).

القرآن»[(١)] ذلك - والله أعلم - أن عمدتها وعد ووعيد وإيمان بيوم القيامة وما فيه، والموازين نصف، والإيمان بالله - جلَّ ذكره - والدار الآخرة دار القرار والرسل والكتب والملائكة شطر.

قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣] ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:٤] فهذان شطران.

كذلك قال: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ القُرآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ثم قال: ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ العَذَابِ﴾ [النمل:١-٥] المعنى، فجاء من هذا أن الإيمان بالله وملائكته وكتبه وأنبيائه شطر والإيمان بالبعث والنشور وباليوم الآخر وبما فيه شطر.

---

(١) انظر السابق.

تفسير سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ١ - ٣].

لما نزلت هذه السورة علم رسول الله ﷺ أن أجله قد اقترب، فكان يأتمر للأمر لا يخلي ركوعه وسجوده عن أن يقول فيهما: «**سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك**»[1] وفي أخرى: «**سبحانك اللهم وبحمدك، رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم**»[2] يتأول هذا القرآن، فقيل له في ذلك فقال: «**علامة جعلت لي في أمتي إذا رأيتها قلتها**»[3] كذلك أعلمنا أيضًا - صلوات الله وسلامه عليه - معشر هذه الأمة بأنا إذا رأيناها أيضًا علمنا أن الانقراض قد اقترب.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾[4] لدينه كرة بعد فرة يكون منه ﴿وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] فتح الروم.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ أي: سبحي أيها الأمة واستغفري لذنوبك ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣] يتوب على عبده؛ أي: يراجعه، كذلك يراجع هذه الأمة

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٣٣٢).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٤٣٥٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٣٣٢).

(٤) قال البقلي: نصرُ الله لحبيبه ﷺ وجميع أحبائه إفرادهم بفردانيته عما دونه، وأنجاهم عن جنس النفوس، وإبلاغهم مقام الأنس نظفرهم على كل بغيَّة لهم، وأداء ما عليهم من حقوق العبودية، و«الفتح»: انفتاح أبواب الوصال، وانكشاف أنوار الجمال والجلال، وبلوغهم عين الكمال، وأيضًا «نصرُ الله»: كشف غطاء النفس، و«الفتح»: وقوع نور القدس في القلب إذا ذهب قتام الحدثان، فجاء النصر، وإذا انكشف جمال الرحمن قام الفتح، وذلك بشارة الله لحبيبه ﷺ بوصوله إليه، وتخلُّصه من أعباء النبوَّة، ومشقة الرسالة، ورؤية الأغيار، فأمره بتقديسه لنفسه، والاستغفار منه لأمته.

بالنصر بعد الترك والإدالة عليها.

قال رسول الله ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم أئمة مضلين**»[١].

وقال: «**أخوف ما أخاف على أمتي ثلاثة الضلالة بعد المعرفة ومضلات الفتن وشهوة البطن والفرج**»[٢].

وقال ﷺ: «**يكون في أمتي خسف وقذف**» قالوا: متى يكون ذلك يا رسول الله؟ قال: «**إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء**» قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «**إذا كان المغنم دولاً والأمانة مغنمًا والزكاة مغرمًا، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبر صديقه وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وشربت الخمور، ولبس الحرير، واتخذت القيان والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء وخسفًا ومسخًا**»[٣] وفي أخرى: «**وزلزلة وقذفًا وآيات تتابع كنظام لآل قطع سلكه فتتابع**»[٤].

وقال حذيفة - رحمه الله: لتنقض عرى الإسلام عروة عروة، ولتركبن سنن أمم قبلكم لا يخطئون طريقهم ولا يخطئ بكم حتى يكون أول نقضكم من عرى الإيمان: الأمانة، وآخرها: الصلاة، وحتى يكون في هذه الأمة أقوام يقولون: والله ما أصبح فينا منافق ولا كافر، وإنا لأولياء الله حقًا، وذلك عند تسبيب خروج الدجال حق على الله أن يلحقهم به، وكثير جاء من هذا عن رسول الله ﷺ فهذه فرة من الدين بعد الكرة التي كانت منه قبل، ثم يكر بعد ذلك عودًا بعد بدء فإذا كان ذلك كذلك فليوقن باقتراب الأمر.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٥٢٥)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (٢٣٩/٥) قال الهيثمي: فيه راويان لم يسميا. وابن عساكر (٢٥٤/١٩)، والطيالسي (٩٧٥).

(٢) أخرجه الديلمي (٢٥٣٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٢١٠).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٢١١)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

فصل

أبو سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يصيب هذه الأمة بلاء شديد حتى لا يجد الرجل ملجأ، فيبعث الله رجلاً من عترتي أهل بيتي يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت جورًا وظلمًا**»[١].

وقد بشر رسول الله ﷺ بهذا المذكور وأصحابه وبنزول عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - جاء ذلك عنه من طرق شتى قامت بكثرتها وعرفها مقام التواتر مع ما في القرآن من التعريض بذلك، فهذا يقوم لهذه الأمة بحملتها في العلم على الانقراض مقام العلامة لرسول الله ﷺ بفتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجًا على اقتراب أجله.

فصل

قال الله - جل من قائل: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «**عبادة في فتنة كهجرة إلي**»[٢].

وروى جرير بن عبد الله البجلي قال: عدوت على رسول الله ﷺ وعلي حلة فأشار إلي فدنوت، قال: «**أأعجبتك حلتك؟**» قلت: نعم، قال: «**أما والله لو رأيت مناديل الشهداء في الجنة أنها ليست مثل حلتك هذه**» قلت: يا رسول الله، أشهداء بدر أو غيرهم؟ قال: «**من تجري بهم أكفهم على ظهر البحر يعدل شهيدهم يومئذٍ سبعين شهيدًا من شهداء بدر، وسبعين من غير شهداء بدر، لا يخرج أحد منهم من الدنيا حتى أرى صورته فأعرفهم ويعرفوني هم أهل السنة والقرآن من أمتي، القرآن أرسخ في قلوبهم من الجبال الراسيات، وإن الجنة لتشتاق إليهم كما تشتاق الناقة إلى ولدها، ولأنا أعرف بأسمائهم وأسماء عشائرهم من الوالد يولد**» قال: قلت: يا رسول الله، أأدرك ذلك الزمان؟ قال: «**لا**» قلت: لا أستطيع أن أعمل عملاً أدرك به

---

(١) أخرجه الحاكم (٨٤٣٨) وقال: صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه الطبراني (٤٩٤).

فضل ذلك، قال: «**لو تقربت إلى الله بأعمال العابدين الأولين والآخرين كنت عسى تدرك فضل نائمهم في رباط ساعة**»[١].

وقال في حديث آخر وقد سأل أصحابه: من أفضل أهل الإيمان إيمانًا؟ فقالوا: الأنبياء، وفيه أنه قال: «**أفضل أهل الإيمان إيمانًا قوم يأتون بعدي لم يروني ولم يسمعوا مني، يجدون ذكري مكتوبًا في ورق يؤمنون بي وبما جئت به**»[٢].

وقال الله - عز من قائل: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة:١٠] فليغتنم العبد المؤمن في هذه الأيام العمل بطاعة ربه، فهو المقاتل في الفارين من هذا الوجه، وهو المصلح عند فساد الناس، وهو الغريب فطوبى للغرباء، وليصبر على خشونة الطريق ووحشة المحل وقلة الأنصار، وفي الله أكرم العوض من كل فائت، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تلخيص المتشابه (١٠٥).

(٢) أخرجه البزار (٢٨٩)، وأبو يعلى (١٦٠)، والحاكم (٦٩٩٣).

تفسير سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥)﴾ [المسد: ١ - ٥].

التباب: الخسران، وقرئ: «تبت يدا أبي لهب وقد تب» وهو قريب من قراءة الجماعة، وهو دعاء عليه بالخسران، وإخبار بإحاطة ذلك به، نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا وفي الآخرة.

قوله: ﴿حَمَّالَةَ الحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] هي امرأة أبي لهب، ألحقه الله في الدار الآخرة بمعنى ما يكنى به، وكانت هذه امرأته فيما ذكروا تطرح الشوك على طريق رسول الله ﷺ، وهذا إن لم يكن تعريضًا بأنها كانت تنم الحديث وتوقد شعلة البغضاء، وإلا فهو مثل ضربه الله ﷻ بحالها في الدنيا من كسبها الذنوب وما تحترق به غدًا في نار جهنم، يقوم لها ذلك مقام احتطاب الحطب وحملها لذلك، وقد كانت هذه أم جميل عزيزة في قومها، فالحطب إذًا هي الأوزار تحملها بعداوتها لرسول الله وللمؤمنين.

روت أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] أقبلت العوراء أم جميل ابنة حرب ولها ولولة وفي يدها فهر، وهي تقول:

مـــــذممًا أبيـــــنا

وديـــــنه قليـــــنا

وأمـــــره عـــــصينا

ورسول الله ﷺ جالس عند الكعبة ومعه أبو بكر قال: يا رسول الله، قد أقبلت

وأنا أخاف أن تراك، فقال رسول الله : ﷺ «إنها لن تراني»[(١)] وقرأ قرآنًا اعتصم به كما قال، وقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥] وأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله، فقالت: يا أبا بكر، أخبرت أن صاحبك هجاني، فقال لها: لا ورب الكعبة ما هجاك، قال: فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها.

قوله ﷻ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[(٢)] [المسد:٥] الحبل: السلسلة، الممسود: المفتول المحكم الفتل، وقرأ أُبي: «ومرأتيه حمالة الحطب».

---

(١) أخرجه ابن حبان (٤٤٠).

(٢) قوله: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي: من ليف، وقال أكثر أهل التفسير: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ يعني: في الآخرة في عنقها سلسلة من حديد، وتحتها نار وفوقها نار. بحر العلوم للسمرقندي (٤/٤٤٧).

تفسير سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص:١ - ٤].

قال أُبي بن كعب: إن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: أنسب لنا ربك، وفي أخرى أنهم قالوا له: ما ربك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمد ﴿هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:١ - ٢] إلى آخرها.

يقول: هو الله الأحد الذات الواحد الأسماء والصفات[1] ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ أي: الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣] ليس شيء يولد إلا سيموت وليس شيء يموت إلا يورث، وأن الله لا يموت ولا يورث.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤] يقول: لم يكن له شبيه ولا عديل و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] الله - جلَّ ذكره - فسر قوله: ﴿الصَّمَدُ﴾[2]

---

(١) قال المصنف: أحد على وزن فعل، الألف فيه أصلية، يبالغ فيه بأوحد، وقالوا: أصله وحد من وحد يوحد، ويقال وحْد بإسكان الحاء، ووحيد ووحد كما يقال: فرْد وفرَد وفريد، وهو أصل لباب الوحدة، فلم تدركه المضارعة بعلم وقدم وشرف ونهر، ألا ترى أنه جعل العلم علمًا؛ ليحصل به العلم بما جعل عليه علمًا، وكذلك الشرف من شرف الرفعة، والسنن من السنة، وهو ما سن ليحتذى كذلك أحد من الوحدة، فاسم الأحد يدل على شخص الوحدة، ألا ترى أنه ناف لما يأتي معه، تقول من ذلك: لم يأت واحد، ويحتمل أنه لم يأتك الواحد ولا أكثر، ويحتمل أنه قد أتاك أكثر من الواحد، فإذا قلت: لم يأتني أحد، انتفى الاثنان، ولا تقول: جاءني واحد، فبينهما خاصية فرقان ظاهر، وهو مذكور لتخصيص، يقال: هو الله الأحد، ولا يقال: جاءني الأحد ولا جاءني أحد ولا يقال فيه: وحيد ولا وحد، ويطلق ذلك في وصف المخلوق، وإنما ذلك أقدم التوفيق. [٨٣/١].

(٢) قال المصنف: الصمد ﷻ: الإجماع من ذلك قالوا: تصمد الشيء إذا اجتمع، وقالوا: الصمد المقصود عند الحوائج، والصمد: القصد، يقال من ذلك: صمدت صمدة إذا قصدته، فهو المقصود إليه عند الرغائب، وتلك دلالة على أنه المتناهي في السؤدد والشرف والكرم وتفريج الكرب، وقيل: الصمد هو الذي لا يطعم، وقيل: هو الذي لا جوف له، وهذه دلالة =

بقوله الحق: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣] وفسر قوله: ﴿أَحَدٌ﴾ بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤].

وفي قراءة عبد الله: «قل هو الله أحد الله الواحد الصمد» وروي ذلك عن رسول الله ﷺ وروى عمرو بن ميمون عن ابن مسعود أنه سمع رسول الله ﷺ يقرؤها كذلك يكررها ثلاث مرات.

وقد تقدم الكلام في صدر الكتاب على قول رسول الله : ﷺ «**إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] جزءًا، وسورة «يس» جزءًا وسائر القرآن جزءًا**»[1] وأن ذلك لأن القرآن احتوى على ثلاثة علوم، أحدها: العلم بالله، وهو المنتظم المحتوي لسائرها، والسبيل إلى ذلك أن معنى قوله - والله أعلم - هو إشارة إلى كل غيب وشهادة، فالله أوجده وحده لا شريك له وهو فيه الأول والآخر والظاهر والباطن، الله أحد وصف له بأحديته في علي وجوده، حيث لم يكن شيء سواه مذكورًا ولا موجودًا، ثم كتب في الذكر كل شيء ثم أوجد ما كتبه.

وقوله: «الله الواحد» إعلام بأنه الله الأول والآخر الواحد هو موجد الآحاد وجد الواحد، وبما هو الواحد قام العدد وظهرت الخليقة، وعلى هذا هو من أسماء الأفعال الصمد عبارة عن اتصال الوجود العلي الأزلي قبل القبل بما هو على ما لا يزال بعد إيجاده المكتوب كله العرش والاستواء، وما في ذلك إلى منتهى الإيجاد، ولا منتهى لوجوده هو كاتصاله بما قبل القبل، فصمد له كل شيء لأجل افتقاره إليه وعدم غناه عنه لإيجاده إياه وإمساكه له وإحاطته به خلقًا وأمرًا، ولم يكن له كفوًا أحد في الأولية والآخرية والوجود العلي ظاهرًا وباطنًا، هو الله على ما لم يزل ولا

=

على صفة الغنى، وقيل: هو الدائم الباقي الذي لا يزول، وجماع هذه الأوجه أنه الأول الذي لا أول له، والآخر الذي لا آخر له، لم يتقدمه والد كان عنه، ولم يتأخر عنه ولد يكون عنه، وآية ذلك هو الذي يكلله عدم النسب، فلم يترك أبًا ولا ابنًا، وهو المعني بقول الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - وهو أعلم بما ينزل الله ﴿الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [١/٩٨].

(١) أخرجه الواحدي في الوسيط (١٠٢٠٧).

يزال أبدًا وأمدًا.

﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام:١٠١] وأنى تكون له صاحبة ولم يكن له كفوًا أحد، ولم يكن لوجود ذي وجود سواه أن يجتمع له تكلل الوجود وإحاطته بما عبر عنه قوله: ﴿الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣] عبر عن ذلك بقوله: ﴿الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٢ - ٣] ومن هو هكذا لا كفؤ له ولا مثل ولا شبه ولا شريك، ولا يقوم له شيء ولا يعجزه معجز ولا يفوته فائت، رد الفوائت عنده كإمضائها والإعادة للإيجاد لديه كإصدارها، له الملك كله وله الحمد كله وهو على كل شيء قدير.

ومن هو هكذا فلا ملك على الحقيقة لسواه، كذلك ولا مشيئة ولا قدرة ولا صفة ولا وصف وجود لغيره إلا بإيجاد منه وهبة من لدنه، فكيف يشفع شافع عنده في مشفوع إلا بإذنه ورضاه للمشفوع فيه أن يكون على ما شاء بذلك امتسك الوجود كله، وقام الأمر كله في السماوات والأرض وما علا وما سفل إلى المنتهى، اتسق على ذلك النظام وتناسق الإحكام وظهر الموجود؛ أعني: العبد الكلي في أحسن معاريضه ذلك.

قوله - جل من قائل: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٨٨-٩٣] لا تجتمع البنوة والعبودية أبدًا.

قيل لرسول الله ﷺ: إن رجلاً يؤم لقومه فلا يقرأ بعد سورة أم القرآن إلا ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] وهو إن قرأ غيرها قرأ بها بعد السورة التي يقرؤها فقال لهم: «**سلوه لِمَ يفعل ذلك؟**» فقالوا له: لِمَ تفعل هذا؟ إما أن تقتصر على سورة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] وإما أن تقرأ بغيرها وتقتصر عليها، فقال لهم: إني أحبها؛ لأنها صفة الرحمن، فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ قال: «**أخبروه بأن الله يحبه**»[1] وفي أخرى: «**أخبروه بأن الرحمن يحبه**».

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (١٩٢٦).

كيف لا وقد جمعت وصف وجوده الأول والآخر والظاهر والباطن، ووصف الملك والحمد والأمر مجمل ذلك كله في أسماء وصفات، ولما كانت العلوم كلها ثلاثة: علم المعرفة بالله - جلَّ ذكره - بما حواه، ثم علم النبوة والرسالة وما حَواه وما جاءت به، ثم علم العبرة وما حواه، وفيه معرفة العالم والأسماء والصفات والقيام والمقوم به، وفي القرآن علم هذا كله.

قال الله - جل من قائل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] والكتاب متردد عرفه بين الكتابين.

قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] **ثلث القرآن**»[١] ذلك - والله أعلم - مع ما تقدم ذكره ليسرها على اللسان، وأنها القرآن العظيم وإن كان ذلك مفرقًا في جملة القرآن فلتيسرها.

قال الله - جل من قائل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] وإلا فهي القرآن كله مجملاً محكمًا فيها مفصلاً عنها إلى سواها، وإنما هو الله ﷻ وخلقه وأمره ووحيه «**ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة**»[٢] وفي أخرى: «**مسلمة**»[٣] لذلك قال رسول الله ﷺ وقد سمع قحاريًا يقرؤها: «**وجبت**» قيل: يا رسول الله، وما وجبت؟ قال: «**الجنة**»[٤].

«**والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن**»[٥] يعني: لقارئها في الثواب.

قال رسول الله ﷺ: «**أُوتيت جوامع الكلم**»[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٦٦١٣)، والنسائي (١٠٠٤).

(٢) أخرجه الحميدي (٤٨)، والضياء (٤٦٢)، وابن أبي شيبة (١٤٦٩٨)، وأحمد (٥٩٤)، والدارمي (١٩١٩)، والترمذي (٨٧١)، وأبو يعلى (٤٥٢)، والحاكم (٤٣٧٦)، والبيهقي (١٨٥٢٤)، وسعيد بن منصور (١٠٠٥).

(٣) أخرجه أحمد (٨٠٧٦)، والبخاري (٢٨٩٧)، ومسلم (١١١).

(٤) أخرجه مالك (٤٩٠)، وأحمد (١٠٩٣٢).

(٥) أخرجه ابن حبان (٧٩١)، ومالك (٤٨٥)، وأحمد (١١٣٢٤)، والبخاري (٤٧٢٦)، وأبو داود (١٤٦١)، والنسائي (٩٩٥)، وأبو يعلى (١٥٤٨)، والبيهقي (٤٥٤٠).

(٦) أخرجه مسلم (١١٩٩)، وأحمد (٧٣٩٧).

وقال: «**يا عائشة عليك بالجوامع من الدعاء**»[١] وقال ﷺ: «**يسر الزبور على داود ؑ فكان يقرأ القرآن مادامت تسرج له دابته**»[٢] ولا يكون هذا - أعني: الأجر - على الذكر بالكتاب إلا بعد تحصيل تكثير الذكر وطول التلاوة، فافهم.

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٢٥١٨١).

(٢) أخرجه أحمد (٨١٤٥)، والبخاري (٣٢٣٥)، وابن حبان (٦٢٢٥)، والبيهقي (١١٤٧٢).

تفسير سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ١ - ٥].

﴿الفَلَقِ﴾ [الفلق:١] الصبح بوجه ما[1] وعلى هذا يكون قارئها متعوذًا من شر

---

(١) قال المصنف: فإن كان المعنى فلق الصبح: أعوذ بفالق الإصباح من شر ما يجيء به الليل والنهار، وإن كان المعنى الفلق الذي هو غطاء جهنم، وكل شر باطن أو ظاهر موجودًا كان أو متوهمًا، فهو أصله وعنه بدؤه وإليه يعود. وقد أرانا الله ﷻ في هذا الدار من النار الحاضرة آية على النار الغائبة، وذلك أن هذه النار مخبأة في خزائنها باطنة غير ظاهرة الذات، يخلقها الله ﷻ عند اصطكاك الأجرام الصلبة، أو عن شدة ضغط بأجرام معلومة خاصة بذلك مع نداب حك، فتظهر في ظاهر ما تأكله من الأجسام التي هي وقود لها، ثم على قدر تمكنها من الحطب يكون سعيرها ولهبها، حتى يعظم شأنها فلا يدرك لها مدى ولا يدانيها مطاول، وقد كانت قبل غيبًا قال الله ﷻ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠] فالشجر الأخضر المذكور قد لم يكن، فلما كان لم تكن النار حتى ظهر بالقدح من زنادها وبأن تورى بوقودها، وقال ﷻ: ﴿اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ...﴾ [الأنعام:٩٥] وكذلك أرانا أيضًا في هذه الدار آية على الجنة دار الحيوان بفلقة الحب والنوى، فيجيء ذلك بعد موته يجعل الميت حيًا، ثم يجعل الحي من ذلك ميتًا، يكون هذا عن هذا وهذا عن هذا، يبطن هذا حين يظهر هذا ويظهر هذا حين يبطن، ثم يحيى هذا وهذا وهي الحياة الآخرة في دار الحيوان، وقد جعل ﷻ جنات ما هاهنا آية على جنات ما هنالك، فيفلق الحب والنوى بعد يبسهما وهمودهما، فيسعى روح النبات في فلقتي الحبة والنوى، فتعود الفلقتان خضراوين وربما كونهما ورقتين، ثم يطلع عن ذلك نبات الشجرة بقدرته، فلا يزال بها حتى تكون شجرة عظيمة تأوي إليها طيور السماء، ويستظل بظلها حيوان الأرض، ويستكنون في رحب مساحة دوحتها. وكذلك خلقة الحيوان في الأرحام وغيرها على سبيل هذا التكوين، من كونه مختزنًا في غيبه ومكنونًا في سنته، ألا ترى أن الحياة غيب في الماء، والماء غيب في خزائن، والخزائن غيب في علم الله. كذلك الآخرة غيب في الدنيا كالماء اختزنه، والنطفة ما يكون عنها، وكما تكون الجنات عن الماء ينزله الله =

ما يأتي به الليل والنهار، ويكون الفلق بوجه غطاء جهنم، فالمتعوذ بها يكون متعوذًا من شر كل ما خلقه الله ومن شر ما لم يخلقه بعد إذ جهنم منبعث كل شر، وأخبر الله ﷻ أنه خلق الشر كما خلق الخير.

وقرأ عمرو بن عبيد: ﴿**مِن شَرِّ مَا خَلَقَ**﴾ [الفلق:٢] بالتنوين للراء، وبجعل «ما» نافية، وكان هذا أصلاً للمعتزلة، وبه سموا: معتزلة، اعتزل مجلس الحسن بن أبي الحسن البصري وتبعه على هذه القراءة المعتزلة - تعالى الله عن قبيح إفكهم - في قولهم: إن الله لم يخلق الشر كلمة مجوسية الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴿**وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الصافات:٩٦].

ومن أعمالنا: الخير والشر، نستغفر الله من فعلنا الشر ونحمده ونشكره على فعلنا الخير، والغاسق: الخارج، غسق الليل: إقباله حين يسلخ منه النهار.

وقوله: ﴿**إِذَا وَقَبَ**﴾ [الفلق:٣] يعني: إذا دخل، ويقال: امتلأ، وهذا يكون بحكم التبعية؛ إذ الليل إذا تم دخوله امتلأ، وإنما يكون ذلك بعد مغيب الشفق، وأمر الله تعالى أن يتعوذ من شر الغاسق وهو الليل وظلمته، يقال: وقبت الشمس: إذا غابت؛ أي: دخلت في موضع مغيبها، كما قال - جل من قائل: ﴿**حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**﴾ [ص:٣٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا دخلت فحمة العشاء فكفوا صبيانكم**»[1] وفي أخرى: «**فواشيكم فإن للشياطين حينئذ انتشارًا**»[2] وإذا كان الغاسق هو: الداخل بوجه وهو أيضًا الخارج بوجه فالمتعوذ منه متعوذ من شر ما سكن أو تحرك في الليل والنهار.

وقوله تعالى: ﴿**وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾ [الفلق:٤] وقرئ: «**النافثات**» يعني - وهو أعلم: الأنفس السواحر.

=

من السماء، كذلك لم يكن إلا عن الجنات الماء، كالنطفة كانت عن إنسان، ثم تكون عن النطفة إنسان. [٢/٢٠٣].

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٤٣٨١)، ومسلم (٢٠١٣)، وأبو داود (٢٦٠٤)، وأبو عوانة (٨١٦٢)، والبيهقي (١٠١٢٥).

(٢) أخرجه بنحوه أبو عوانة (٨١٦٤)، وأبو داود (٣٧٣٣).

قال رسول الله ﷺ: «**أكثر هلاك أمتي من النفس والعين**»[١] والعين من الأنفس منبعثه عن الجن الممتزج بخلقة الإنس، ويقال: إن النفس من الجن، والعين من الإنس.

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (١٨٥/٥).

تفسير سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس:١ - ٦].

﴿الجِنَّةِ﴾ [الناس:٦] هم الجن.

قوله تعالى: ﴿الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ﴾[1] [الناس:٤] هما صفتا فعل للشيطان؛ ذلك لأنه ينبسط على نفس ابن آدم يوسوس له بالكفر والمعاصي والأماني كل على منزلته، فإن ذكر الله ابن آدم خنس الشيطان؛ أي: انقبض.

وقوله: ﴿مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس:٦] أخبر الله - جلَّ ذكره - أن من الناس شياطين كما هم من الجن.

قال الله - جل من قائل: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢] فوسوسة شياطين الجن غيب، ووسوسة شياطين الإنس بالمواجهة والعيان بواسطة المحادثة والمؤانسة وبذل النصيحة، وهي أشدهما وأكبرهما.

قال الله - جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

وقال للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:٢٨].

---

(١) قد أخرج ابن أبي داود عن ابن عباس في قوله: ﴿الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ﴾ قال: مثل الشيطان كمثل ابن عرس واضع فمه على فم القلب فيوسوس إليه، فإن ذكر الله خنس، وإن سكت عاد إليه، فهو الوسواس الخنّاس. وأخرج ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» وأبو يعلى وابن شاهين، والبيهقي في «الشعب» عن أنس عن النبيّ ﷺ قال: «**إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسيه التقم قلبه، فذلك الوسواس الخنّاس**». فتح القدير (٩٢/٨).

فصل

روى ابن عباس وعائشة - رضي الله عنهم - أن رسول الله ﷺ سُحِر وهذه رواية ابن عباس قال: «سحر رسول الله ﷺ سحرًا شديدًا واشتكى لذلك شكوى شديدة، فبينما هو بين النائم واليقظان إذ أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، والذي عند رجليه يقول للذي عند رأسه: ما شكيته؟ قال: طب، قال: ومن فعله؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي، قال: فأين صنع سحره؟ قال: في بئر كملى، وهو بئر ذروان، قال: فما دواؤه؟ قال: يبعث إلى تلك البئر فينزح ماؤها فإنه ينتهي إلى صخرة فإذا رآها فليقلعها، وتحتها كربة وفي الكربة وتر فيه اثنتي عشر عقدة فيحرقها بالنار فيبرأ إن شاء الله»[١] فبعث رسول الله ﷺ عمار بن ياسر إلى تلك البئر في رهط من أصحابه وفعل بها ذلك وقد تغير ماؤها من السحر، فصار كأنه نقاعة الحناء، واقتلع الصخرة وإذا هو بكربة وفي الكربة وتر وفيه اثنتي عشرة عقدة، فجاء بها إلى رسول الله ﷺ فبرأ النبي ﷺ عند ذلك من وجعه وقام كأنه نشط من عقال.

وفي رواية عائشة: أنه دفنه ولم يحرقه، فقيل له: يا رسول الله، ألم تحرقه؟ قال: «أما أني قد عافاني الله وكرهت أن أثير على الناس شرًا»[٢].

قال: ونزلت المعوذتان اثنتي عشرة آية كل آية لعقدة، وأمر ﷺ أن يتعوذ بهما.

وروى عقبة بن عامر الجهني قال: تعلقت بقدمي رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إني أقرأ سورة هود وسورة يوسف، فقال لي: «يا عقبة، إنك لن تقرأ بسورة أحب إلى الله ولا أبلغ عنده من ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:١ - ٢]»[٣].

وعنه قال: بينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ؛ إذ قال لي: «قل» فقلت: ماذا أقول؟

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٥٨٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٦٣)، وأحمد (٢٤٣٩٢).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٨٤٢)، والطبراني (٨٦١)، والحاكم (٣٩٨٨) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٦٦)، والنسائي في الكبرى (٧٨٤٠)، والدارمي (٣٤٣٩).

فقال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق:١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس:١] و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] **تعوذ بهن فإنه لم يتعوذ بمثلهن قط**»[١].

فصل

قال رسول الله ﷺ لعقبة بن عامر: «**لن تقرأ بسورة أحب إلى الله ولا أبلغ عنده من المعوذتين**»[٢] ذلك - والله أعلم - لما فيهما من الكفاية والوقاية، وهو يحب المحسنين ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ [النساء:١٤٧].

قال رسول الله ﷺ: «**إذا سألتم الله فاسألوه العافية فإنكم لن تسألوه أحب إليه من العافية في الدنيا والآخرة**»[٣].

وقد كان الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ولم يكن شيء قبله فيما لم يزل على ما لا يزال، لا وجود سوى وجوده العلي، وهو الرحيم الودود الولي الحميد، ولما أوجد الموجودات وفطر الأرضين والسماوات وخلق المحدثات أنهى النهايات وحدَّ الحدود، فأوجب على ذلك في موجود الحكمة إيجاد المضادات والمتخالفات والأغيار في المتغايرات لتمايز الوجود وسنن الفرقان في الموجودات، فأوجد على ذلك الظلام في مقابلة النور، والسقم في مقابلة الصحة، والبلاء في مقابلة العافية، والشر في مقابلة الخير على وجوه ذلك كله وضروبه، فكان مفهوم العقول الصائبة بنور بصيرة الإيمان من ذلك أن الخير كله موجود له - جلَّ ذكره - محبوب عنده، مرضي عنه، وأن الشر كله وجوده بإيجاد منه لحكمة وعلة هي الابتلاء.

ويسر للعقول مأتى العبرة بأن خلق خلقًا هو الجنة أصار إليها الخير

---

(١) أخرجه البيهقي في الدعوات الكبرى (٤٩٤).

(٢) أخرجه الدارمي (٣٥٠٢).

(٣) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٥١٢) وقال: حسن غريب. وابن ماجة (٣٨٤٨).

كله بحذافيره وخلق خلقًا هو جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - أصار إليها الشر كله بحذافيره، وجعل ظهور هذين الوجودين بالإضافة إلى الثقلين في الدار الآخرة في اليوم الآخر، وخلق هذا الدار وفتح إليها برحمته فتحًا من الجنة كما أفاح إليها من جهنم فيحًا، فجميع ما هنا من شر على ضروبه واختلاف وجوده فمن جهنم، كما أن جميع ما هنا من خير ونعمة يجب الشكر عليها على اختلاف وجود ذلك فمن الجنة تذكرة وتبصرة لأولي الألباب، يقلب الله ذلك بمشيئته بأن يكور هذا على هذا وهذا على هذا ويغشى هذا هذا، وهذا هذا على مقتضى سابق كتابه الكريم يوم استوى على العرش وفي ذلك الكتاب: «**إن رحمتي تسبق غضبي**»[(١)].

فمن تعوذ برب الفلق من شر ما خلق، فقد تعوذ من جميع الشر كله، ثم بعد ذلك تخصيص من عموم لذكر خصوص الحوائج، وعلى مقادير مسيس الحاجات في مواطن الضرورات للمحتاجين السائلين المتعوذين.

فصل

والشياطين سوى الشيطان الأكبر المبلس الملعون مخلوقون من مارج النار الخارج من جهنم بالفيح المذكور، وهم من إبليس - لعنه الله - كان قد خلقه خالقه ﷻ قبل من نار السموم، وأبو الناس - صلوات الله وسلامه عليه - مخلوق جسده من التراب والماء مجموعهما الطين وباطنه نفس وروح وزاده الله برحمته وفضله أن خلقه بيده وأكرمه وعلمه من علمه ونفخ فيه من روحه؛ فالنفس منه لباطن التراب والروح منه لباطن الماء، وروح الإيمان منه وعقله عن الروح العلي المنفوخ فيه.

يقول الله سبحانه وله الحمد: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ [الحجر:٢٩].

---

(١) أخرجه الدارقطني في الصفات (١٦)، وأحمد (٧٥٢٠)، وإسحاق بن راهويه (٤٥٩)، والبخاري (٦٩٦٩)، ومسلم (٢٧٥١)، وأبو نعيم في الحلية (٨٧/٧)، والديلمي (٥٢٨٧).

ثم سائر صفاته منقسمة على هذين القسمين فيما في التراب من يبوسة وبرودة قربت خلقته من خلقة جهنم زمهريرها أو سعيرها مع ما من ذلك من فيح جهنم، وبما هو كذلك قاربت خلقته خلقة الشياطين كما بما في الماء من رطوبة وبرودة ويبوسة، محمود ذلك كله، قاربت خلقته خلقة الملائكة - على جميعهم السلام - وبما أنشأه وغذاه من وجود الفيح والفتح كانا معًا لزامًا له، فجعل له الأمر قائدًا إلى ما هو الفتح برحمته منها موجود عنها، كما جعل له ارتكاب النهي قائدًا إلى ما هو الفيح موجود عنها.

يقول الله - عز من قائل: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج:٣٦-٣٩] أي: مما ينسب إلى فيح جهنم ومما ينسب إلى فتح الله من رحمته، ولا بد من العود بعد البدء، وإنما ينجيهم من جهنم إيمان بالله وعمل بطاعته ويدخلهم الجنة، لذلك يقول الله ﷻ في الأرض: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٥] فأمر - عز جلاله - عبده بالتعوذ برب الناس الذي هو خلقهم ورباهم وغذاهم وكلفهم.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس:٢] الذي يملك حوائجهم ويملك نفوسهم ونواصي الكل بيده، يقلب الكل كيف شاء بقدره.

﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس:٣] الذي تعبدوا له وخضعوا لعزته، ودانوا له بطاعته.

﴿مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ﴾ [الناس:٤] ووسواسه: ما يحدث به النفس بواسطة شيطان الطبع الممزوج بالخلقة من هيأته وغروره وأمانيه وإضلاله وإغوائه إلى غير ذلك، وقد يستعين الشيطان الفصل بالقرين منهم، ثم بالممتزج بالخلقة، ثم يتوسط شيطان الإنس ذكر أكان أم أنثى المذكور

في قوله: ﴿مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس:٦].

فالشر كله فيما هنا هو من فيح جهنم ومما هو يدعو إليها ويجر إليها ويوجب الكون فيها وهو المكروه كله، كما الخير كله فيما هنا هو من فتح الله من رحمته من الجنة وبمشيئته وعليه المعول وعليه التكلان وإليه يرجع الأمر كله، بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، نفعنا الله بما علمناه من كتابه الحكيم، وهدانا إلى الصراط المستقيم وعصمنا من أعدائه وهدانا إلى محابه وطلب مرضاته، إنه على كل شيء قدير.

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين

واتفق الفراغ من زبره[1] يوم السبت

منتصف شهر رجب الفرد من

شهور سنة اثنتين بعد الألف

من هجرة المصطفى محمد

ﷺ عليه أفضل الصلاة





(١) زبرت الكتاب: إذا أتقنت كتابته. انظر تاج العروس (١/٢٨٧٤).

فهرس بأهم المصادر والمراجع

(أ)

- أبجد العلوم المسمى الوشي المرقوم ببيان أحوال العلوم، للشيخ صديق بن حسن خان القنوجي البخاري، تحقيق عبد الجبار ذكار، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٩٧٨م.

- الإبهاج، للإمام علي بن عبد الكافي السبكي [ت:٧٥٦هـ] دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤٠٤هـ.

- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين للعلامة السيد محمد بن محمد المرتضى الزبيدي، طبعة دار الفكر، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.

- الإتقان فى علوم القرآن، للإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي [٩١١هـ] تعليق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، الأولى، ١٤٠٧هـ.١٩٨٧م.

- إتمام الدراية لقراء النقابة، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق الشيخ إبراهيم العجوز، دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م.

- الأحاديث المختارة، للإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي [ت:٦٤٣هـ] تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط الأولى، ١٤١٠هـ.

- الإحكام، للإمام أبي الحسن علي بن محمد الآمدي [ت:٦٣١هـ] تحقيق د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤٠٤هـ.

- أحكام القرآن، للإمام أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص [ت:٣٧٠هـ] تحقيق محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ١٤٠٥هـ.

- أحكام القرآن، للإمام أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي المعروف بـ" ابن العربي" [ت:٥٤٣هـ] تعليق محمد عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت لبنان.

- الإحكام في الأصول، للإمام العلامة أبي الحسن علي بن محمد الآمدي [ت :٦٣١هـ]، تحقيق د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤٠٤هـ.

- إحياء علوم الدين، للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي [ت:٥٠٥هـ] تحقيق أبي حفص، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٩هـ.١٩٩٨م.

- أساس البلاغة، للإمام جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الهيئة العامة لقصور الثقافة من ضمن سلسلة الذخائر رقم ٩٥ - ٩٦، طبعة الشركة الدولية للطباعة؛ ودار الكتب العلمية، بيروت لبنان، تحقيق محمد باسل عيون السود، ط الأولى، ١٤١٩هـ.١٩٩٨م.

- الاسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، الدكتور محمد بن محمد أبي شهبة، ط. مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة.

- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى : أبو العباس أحمد بن خالد تحقيق وتعليق: الأستاذ جعفر والأستاذ محمد الناصري، طبع بدار الكتاب بالدار البيضاء بالمملكة المغربية سنة ١٩٥٩م.

- الأعلام: خيرالدين الزركلي، ط. دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، لبنان سنة ١٩٧٩م.

-الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام: العباس بن إبراهيم، تحقيق عبد الوهاب بن منصور.

- أسرار التكرار في القرآن الكريم، محمود بن حمز بن نصر الكرماني، تحقيق عبد القادر أحمد عطاء، دار الاعتصام، القاهرة، ط الثانية، ١٣٩٦هـ.

- أسرار العربية، للإمام أبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري، تحقيق محمد بهجت البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ط الأولى، ١٩٥٧م.

اصطلاحات الصوفية، للشيخ كمال الدين عبدالرزاق القاشاني، تحقيق د. محمد كمال إبراهيم جعفر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م.

- إعراب القراءات الشواذ، أبي البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين العكبري [ت:٦١٦هـ] تحقيق محمد السيد أحمد عزوز عالم الكتب بيروت لبنان ط الأولى ١٤١٧هـ.١٩٩٦م.

- إعراب القرآن، أبي جعفر أحمد بن محمد ابن النحاس [ت:٣٣٨هـ] تعليق عبد المنعم خليل إبراهيم دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط الأولى ١٤٢١هـ. ٢٠٠١م.

- أبكار الأفكار في أصول الدين للإمام سيف الدين، تحقيق د. أحمد محمد المهدي، طبعة دار الكتب القومية، القاهرة، سنة ١٤٢٣م. وطبعة دار الكتب العلمية - بتحقيقنا.

- أعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، لخير الدين الزركلي، طبعة دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٩٢ م.

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام ناصر الدين البيضاوى، صححه محمد سالم محسن وشعبان محمد إسماعيل، نشره مكتبة الجمهورية بدون تاريخ.

(ب)

- البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي [ت:٧٤٥هـ] تحقيق عادل أحمد عبد الرؤوف وعلي محمد معوض ود. زكريا عبد المجيد ود. أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤١٣هـ. ١٩٩٣م.

- بحوث فى علوم التفسير، الدكتور محمد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٦هـ.٢٠٠٥م.

- البداية والنهاية، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي [ت:٧٧٤هـ] دار الفكر، بيروت لبنان، ١٣٩٨هـ . ١٩٧٨م.

- البرهان فى علوم القرآن، للإمام أبي عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي [ت:٧٩٤هـ] تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٣٩١هـ.

- بصائر ذوي التميز، للإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، تحقيق أ. محمد علي النجار، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصــر، ط الثالثة، ١٤١٦هـ.١٩٩٦م.

- البدور الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة للشيخ أبي حفص محمد بن على الأنصارى النشار، تحقيق على محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ط.

عالم الكتب بيروت سنة ٢٠٠٦م.
- بدع التفاسير للشيخ عبد الله الغمارى، ط. مكتبة القاهرة، الطبعة الثالثة ٢٠٠٥ م.
- بغية الوعاة فى طبقة اللغويين والنحاة للإمام عبد الرحمن السيوطى، ط الأولى ١٩٦٤م.

(ت)

- تأويلات أهل السنة للإمام أبو منصور الماتريدي، تحقيق د. محمد مستفيض الرحمن، جاسم محمد الجبورى، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية الجمهورية العراقية سنة ١٩٨٣.
- التأويل فى التفسير بين المعتزلة والسنة، د. السعيد شنوقة، ط. الأزهرية سنة ٢٠٠٥م.
- التأويلات النجمية لنجم الدين كبرى، بتحقيقنا، ط دار الكتب العلمية.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر، بيروت لبنان، ط الأولى، ت ١٤١٤هـ. ١٩٩٤م.
- تاريخ الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري [ت:٣١٠هـ]، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الثانية.
- التبيان فى إعراب القرآن، أبي البقاء محب الدين العكبري [ت:٦١٦هـ] تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية.
- التحرير والتنوير، الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الطبعة التونسية.
- تفسير ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم [ت:٣٢٧هـ] تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية بيروت لبنان، ط الثانية، ١٤١٩هـ.١٩٩٩م.
- تفسير أبي السعود، لقاضي القضاة الإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط الثانية، ١٤١١هـ.١٩٩٠م.
- التفسير التحليلي لسورة النساء، للأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة، القاهرة.

- تفسير الخازن المسمى "لباب التأويل في معاني التنزيل" علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن [ت:٧٢٥هـ] تصحيح عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤١٥هـ.١٩٩٥م.

- تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، للإمام أبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي [ت:٣٧٥هـ] تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد الموجود ود. زكريا عبد المجيد النوتي، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤١٣هـ.١٩٩٣م.

- تفسير الشعراوي، للشيخ العالم الجليل محمد متولي الشعراوي، طبعة أخبار اليوم، مصر.

- تفسير الضحاك، للإمام الضحاك بن مزاحم البلخي الهلالي (ت:١٠٥)، جمع ودراسة وتحقيق د. محمد شكري أحمد الزاويتي، دار السلام، القاهرة، ط الأولى، ١٤١٩هـ.١٩٩٩م.

- تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي [ت:٧٧٤هـ] دار الفكر، بيروت لبنان، ١٤٠١هـ.

- تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات، للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري الشافعي [ت:٤٦٥هـ] تعليق عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤٢٠هـ.٢٠٠٠م.

- تفسير النسفي المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للإمام العلامة أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي [ت:٧١٠هـ] تحقيق الشيخ مروان محمد الشقار، دار النفائس، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤١٦هـ.١٩٩٦م.

- التفسير ورجاله، للأستاذ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٤١٧هـ.١٩٩٧م.

- التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي المسمى بـ«مفاتيح الغيب» طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٥ هـ.١٩٨٥م.

- التكملة لكتاب الصلة، لأبي عبدالله محمد بن الأبار، طبعة روخس١٩٨٧م.

- تهذيب اللغة، للإمام أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري [ت:٣٧٠هـ] تحقيق د. رياض زكي قاسم، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٠٠١م ؛ ودار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

- التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني. ط: مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م.

(ج)

- جامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى، ط. دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٨٨م.

- جامع البيان عن تأويل آى القرآن للإمام أبي جعفر بن جرير الطبرى، ط. دار الفكر بيروت سنة ١٩٩٧م.

- الجامع الصحيح، للإمام الحجة محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، ط. دار الإيمان بالمنصورة.

- الجواهر الحسان فى تفسير القرآن، للإمام العلامة عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي [ت:٨٧٥هـ] تحقيق أبي محمد الغماري الإدريسي الحسني، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤١٦هـ.١٩٩٦م.

(ح)

- حاشية الشريف الجرجاني على الكشاف، للإمام السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد زين الدين أبي الحسن الحسيني الجرجاني، مطبوع بهامش الكشاف للزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط الأخيرة ١٣٩٢هـ. ١٩٧٢م.

- حاشية الشهاب المسماة بـ عناية القاضي وكفاية الراضي، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه الشيخ عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤١٧هـ.١٩٩٧م.

- حاشية القونوي، للإمام عصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي [ت:١١٩٥هـ] دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.٢٠٠١م.

- حجة القراءات، للإمام عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط الثانية، ١٤٠٢هـ.١٩٨٢م.

- الحجة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والشام والعراق الذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد، لأبي علي الفارسي، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤١١ هـ. ١٩٩١م.

- حقائق التفسير، للإمام أبي عبدالرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي [ت:٤١٢هـ] تحقيق سيد عمران، دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ١٤٢١هـ.٢٠٠١م.

- الحلة السيراء، أبو عبد محمدبن الأبار، تحقيق حسين مؤنس طبعة أولى بالقاهرة ١٩٦٣.

(د)

- الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون، شهاب الدين أبي العباس بن يوسف بن محمد بن إبراهيم المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق وتعليق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد العزيز ود. رجاء مخلوف جاد ود، زكريا عبدالمجيد النوتي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤١٤هـ.١٩٩٤م.

- الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطى. ط دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

- دراسات فى مناهج المفسرين، للأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة، دار الوفاء للطباعة، القاهرة.

- دلائل الإعجاز، للعلامة أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، د. محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٩٩٥م.

(ر)

- روح البيان، للشيخ إسماعيل حقي البروسوي [ت:١١٣٧هـ] دار الفكر، بيروت لبنان.

- روح المعاني فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي [ت:١٢٧٠هـ] تصحيح علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤١٥هـ.١٩٩٤م.

- زاد المسير فى علم التفسير، للإمام عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي [ت:٥٩٧هـ] المكتب الإسلامي، بيروت لبنان، ط الثالثة، ١٤٠٤هـ.

(س)

- سنن أبي داود، للإمام سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

- سنن الترمذي للإمام محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، تحقيق عبد الهادى عبد اللطيف، طبعة دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

- سنن النسائي، للإمام أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، طبعة مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٦ م.

- سنن ابن ماجة للإمام محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار عيسى الحلبى.

- سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي [ت:٧٤٨هـ] تحقيق وتخريج شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ط الثالثة ١٤٠٥هـ.١٩٨٥م.

- السراج المنير فى الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، للإمام الشيخ محمد بن أحمد الخطيب الشربيني المصري [ت:٩٧٧هـ] تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٤م.

(ش)

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية : ابن مخلوف طبعة دارالفكر، بدون تاريخ.

- شذرات الذهب، للمؤرخ أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الشهير بابن عماد الحنبلي [ت:١٠٨٩هـ] مكتبة القدسي، القاهرة مصر، ١٣٥١هـ؛ ودار المسيرة، بيروت لبنان، الثانية، ١٣٩٦هـ.١٩٧٩م.

- شرح المفصل، للإمام العلامة جامع الفرائد موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش الشجري، دار الطباعة المنيرية، مصر، ١٩٢٨م.

- شرح أسماء الله الحسنى للمصنف أبي الحكم ابن برجان، ٥٣٦ هـ بتحقيقنا، ٢ مجلد ط. دار الكتب العلمية - بيروت، سنة ٢٠١٠م.

- شعب الإيمان للإمام البيهقى، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بسيوني ط. دار الكتب العلمية.

(ص)

- صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج أبوالحسين القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة عيسى الحلبى.

- صلة الصلة: أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي، تحقيق الدكتور عبد السلام الهراس، والأستاذ سعيد أعراب.

(ض)

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للعلامة شمس الدين السخاوي، طبعة مكتبة القدسي، القاهرة، سنة ١٣٥٤ هـ.

(ط)

- طبقات المفسرين، للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي [ت ٩٤٥هـ] دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤٠٣هـ. ١٩٨٣م.

- طبقات المفسرين، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(ع)

- عجائب المقدور فى أخبار تيمور: أحمد بن محمد الحنفى المشهور بابن عربشاه، ط. المطبعة العامرة العثمانية سنة ١٨٨٧م.

- عرائس البيان في حقائق القرآن، لروزبهان البقلي، بتحقيقنا، ط دار الكتب العلمية.

(غ)

- غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(ف)

- الفتوحات المكية (أو - كما تُسمى - الشرح الكامل للشريعة المحمدية الإسلامية) مولانا محيي الدين بن العربي المعروف بالشيخ الأكبر . ط. دار صادر

في أربعة مجلدات.

- الفصل في الملل والأهواء والنحل. أبو محمد علي بن أحمد، الشهير بابن حزم الظاهري الأندلسي، ط. المكتبة التوفيقية ٢٠٠٣م.

(ك)

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون للعلامة مصطفى ابن عبد الله الشهير بحاجي خليفة، ط. دار الفكر بيروت سنة ١٩٩٠م.

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري [ت:٥٣٨هـ] ترتيب وتصحيح محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤١٥هـ. ١٩٩٥م.

- الكامل فى التاريخ لابن الأثير: ط. دار الطباعة المنيرية سنة ١٣٥٧ هـ.

- الكامل فى ضعفاء الرجال للإمام الحافظ أبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني، توفى سنة ٣٦٢ هـ، ط. دار الفكر الطبعة الثالثة ١٩٨٨م.

- الكشف عن وجوه القراءات، للإمام مكي بن أبي طالب القيسي، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، ١٩٨٧م.

- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، للمناوي، بتحقيقنا - ط. دار الكتب العلمية - ٢٠٠٩ م.

- كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين على المتقي بن حسام الدين الهندى البرهان الفوري، تحقيق بكر عيان وصفة السقا، ط. مؤسسة الرسالة ١٩٨٩م.

- كيف تكتب بحثًا ورسالة، للدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الحادية والعشرون، ١٩٩٢م.

(ل)

- اللباب في تهذيب الأنساب لابن أثير الجزرى، ط. دار صادر بيروت سنة ١٩٨٠.

- لسان العرب، للإمام العلامة محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت لبنان، ط الأولى.

- لسان الميزان للإمام ابن حجر العسقلاني، ط. الثانية دار الكتاب الإسلامي،

سنة ١٩٧١ م.

(م)

- المبين في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين للإمام سيف الدين الآمدي، تحقيق دكتور حسن محمود الشافعي، طبعة مكتبة وهبة، القاهرة، سنة ١٤١٣ هـ.١٩٩٣م.

- مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية : مراكش العدد٢سنة ١٩٩٥م.

- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ابن عطية الأندلسي [ت:٥٤٦هـ] تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤٢٢هـ.٢٠٠١م.

- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة:١٩٣٧م.

- المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، الدكتور عبد السلام الغرمي.

- مرآة الجنان وعبرة اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، عبدالله بن أسعد بن علي اليافعي، دار الكتاب الإسلامي الطبعة الثانية ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

- مسند للإمام أحمد بن حنبل، ط. دار الفكر بيروت.

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للإمام الحافظ نور الدين على بن أبي بكر الهيثمى، المتوفى ٨٠٧هـ، ط. دار الفكر بيروت.

- المصنف فى الأحاديث والأثار للإمام الحافظ عبد الله بن محمد بن ابن أبي شيبة الكوفى العبسى المتوفى ٢٣٥ هـ، ط. دار الفكر بيروت.

- المصباح المنير، للشيخ الفيومي، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، الثانية ١٤١٨هـ.١٩٩٧م.

- معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي [ت:٥١٦هـ] تحقيق خالد العك ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط الثانية، ١٤٠٧هـ.١٩٨٧م.

- معاني القرآن، للإمام أبي الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي البانجي البصري المعروف بالأخفش الأوسط [ت:٢١٥هـ] تعليق إبراهيم شمس الدين، دار

الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤٢٣هـ.٢٠٠٢م.

- معاني القرآن، للإمام أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء [ت:٢٠٧هـ] تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد على النجار، دار السرور.

- معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ط. دار صادر بيروت.

- معجم الأدباء لياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، سنة ١٤١١ هـ.١٩٩١ م.

- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، سنة ١٤١٤ هـ.١٩٩٣ م.

- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، الذهبي [ت:٧٤٨هـ] تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤٠٤هـ.

- مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبري زاده، ط. الاستقلال بالقاهرة سنة ١٩٦٨م.

- المفردات فى غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للإمام أبي الحسن الأشعري، تحقيق هلموت ريتر، ط. جمعية المستشرقين الألمان، طبعة الثالثة ١٩٨٠م.

- مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، الثالثة، دار نهضة مصر، القاهرة.

- المستدرك للإمام الحاكم النيسابورى ط. دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

- الملل والنحل، أبوالفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، تقديم صدقي جميل العطار، ط: دار الفكر. بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٩م.

- مناهج البحث العلمي فى الإسلام، للدكتور غازي حسين عناية، دار الجيل، بيروت لبنان، الثالثة، ١٤١٧هـ.١٩٩٦م.

- المنهاج فى تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات، للدكتور محمد التونجي، عالم الكتب للطباعة والنشر، بيروت لبنان، الثانية ١٤١٥هـ.١٩٩٥م.

- ميزان الإعتدال فلإمام شمس الدين الذهبي، تحقيق على محمد الجاوي وفتحية على البجاوى، ط. دار الفكر العربي بدون تاريخ.

(ن)

- النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، ط. مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٢م.

- النكت والعيون، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي [ت:٤٥٠هـ] تعليق السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤١٢هـ.١٩٩٢م.

(هـ)

- هدية العارفين، للشيخ إسماعيل باشا البغدادي، ط. وكالة المعارف الجليلة، اسطنبول، ١٩٥١م.

(و)

- وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق وتقديم محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. الأولى النهضة المصرية سنة ١٩٤٨ م.

- الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: دورتياكي أفولسكي، دار النشر فرانز شتابز ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

- الوسيط فى تفسير القرآن المجيد، للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري [ت:٤٦٧هـ] تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض د. أحمد محمد صيرة د. أحمد عبد الغني الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى، ١٤١٥هـ.١٩٩٤م.

- وفيات الأعيان للإمام أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، طبعة دار صادر بيروت - لبنان.

فهرس المحتويات

تفسير سورة المؤمن "غافر" ٣
تفسير سورة فصلت ٣٣
تفسير سورة الشورى ٥٨
تفسير سورة الزخرف ٨٢
تفسير سورة الدخان ١٠٠
تفسير سورة الجاثية ١١٩
تفسير سورة الأحقاف ١٢٨
تفسير سورة القتال "محمد ﷺ" ١٣٩
تفسير سورة الفتح ١٥٤
تفسير سورة الحجرات ١٦٨
تفسير سورة "ق" ١٧٦
تفسير سورة الذاريات ١٨٧
تفسير سورة الطور ١٩٩
تفسير سورة النجم ٢٠٧
تفسير سورة القمر ٢٢٧
تفسير سورة الرحمن عز جلاله وتعالى علاؤه ٢٣٥
تفسير سورة الواقعة ٢٦٩
تفسير سورة الحديد ٢٩٠
تفسير سورة المجادلة ٣١٢
تفسير سورة الحشر ٣٢٠
تفسير سورة الممتحنة ٣٢٨
تفسير سورة الصف ٣٣٢
تفسير سورة الجمعة ٣٣٦
تفسير سورة المنافقين ٣٣٩
تفسير سورة التغابن ٣٤٣
تفسير سورة الطلاق ٣٤٨

تفسير سورة التحريم ٣٥٣
تفسير سورة الملك ٣٥٧
تفسير سورة "ن والقلم" ٣٦٤
تفسير سورة الحاقة ٣٧١
تفسير سورة المعارج ٣٨٠
تفسير سورة نوح ٣٨٨
تفسير سورة الجن ٣٩٤
تفسير سورة المزمل ٣٩٩
تفسير سورة المدثر ٤٠٢
تفسير سورة القيامة ٤١٠
تفسير سورة الإنسان ٤١٧
تفسير سورة المرسلات ٤٢٨
تفسير سورة النبأ ٤٣٦
تفسير سورة النازعات ٤٤٢
تفسير سورة عبس ٤٤٧
تفسير سورة التكوير ٤٥٣
تفسير سورة الانفطار ٤٥٧
تفسير سورة المطففين ٤٦١
تفسير سورة الانشقاق ٤٧٠
تفسير سورة البروج ٤٧٤
تفسير سورة الطارق ٤٧٧
تفسير سورة الأعلى ٤٨٠
تفسير سورة الغاشية ٤٨٤
تفسير سورة الفجر ٤٨٩
تفسير سورة البلد ٤٩٦
تفسير سورة الشمس ٥٠٣
تفسير سورة الليل ٥٠٦
تفسير سورة الضحى ٥٠٩
تفسير سورة الشرح ٥١١

تفسير سورة التين ٥١٤
تفسير سورة العلق ٥٢٠
تفسير سورة القدر ٥٢٤
تفسير سورة البينة ٥٢٧
تفسير سورة الزلزلة ٥٢٩
تفسير سورة العاديات ٥٣٣
تفسير سورة القارعة ٥٣٥
تفسير سورة التكاثر ٥٣٧
تفسير سورة العصر ٥٤٠
تفسير سورة الهمزة ٥٤١
تفسير سورة الفيل ٥٤٤
تفسير سورة قريش ٥٤٦
تفسير سورة الماعون ٥٤٨
تفسير سورة الكوثر ٥٥١
تفسير سورة الكافرون ٥٥٥
تفسير سورة النصر ٥٥٧
تفسير سورة المسد ٥٦١
تفسير سورة الإخلاص ٥٦٣
تفسير سورة الفلق ٥٦٨
تفسير سورة الناس ٥٧١
فهرس بأهم المصادر والمراجع ٥٧٧
فهرس المحتويات ٥٩٠